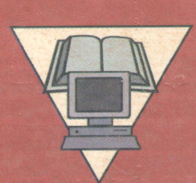








عثمان أحمد محمد نور

ذكريات صياد

نصف قرن من الزمان بين الغابات و الأحراش والجبال بجنوب السودان و جبال النوبة

كتب الحواشي وعلق عليه

د. قاسم عثمان نور

وزارة الثقافة ـ الخرطوم

ناشرون

مركز قاسم للمعلومات وخدمات المكتبات



■ عن المؤلـــف

الشيخ عثمان احمد محمد نور

- من مواليد الكوه ١٩٠٦
- درس الأولية بمدرس الكوه الأولية
- تخرج من كلية غردون التذكارية القسم الابتدائي (الأوسط)
- رفض العمل موظفا بالبوسته و التلغراف
- انضم الى والده ليعمل بالتجارة و الأعمال الحرة بالمديريات الجنوبية وجبال النوبة
- عمل بالتجارة والصيد والزراعة
- كانت هوايته الصيد والتي مارسها منذ كان عمره اثنى عشر عاما وظل وفيا لها حتى بلوغه سن الشيخوخة.

هـذا الكـتـاب

الكتاب عبارة عن ذكريات و أحداث و مشاهدات سجلها يراع المؤلف طوال فترة تواجده بالمديريات الجنوبية الثلاث (أعالى النيل وبحر الغزال و الاستوائية) بالاضافة الى عمله بمناطق الجبال الشرقية (الليرى)

قرظ الكتاب البروفسور عبد الغفار محمد احمد - استاذ كرسي علم الأجناس بجامعة الخرطوم - واصفاً الكتاب كـأول كتاب يسطره احد الشماليين ممن يطلق عليهم مصطلح (الجلابة)

عن المركز

مركز قاسم للمعلومات و خدمات المكتبات

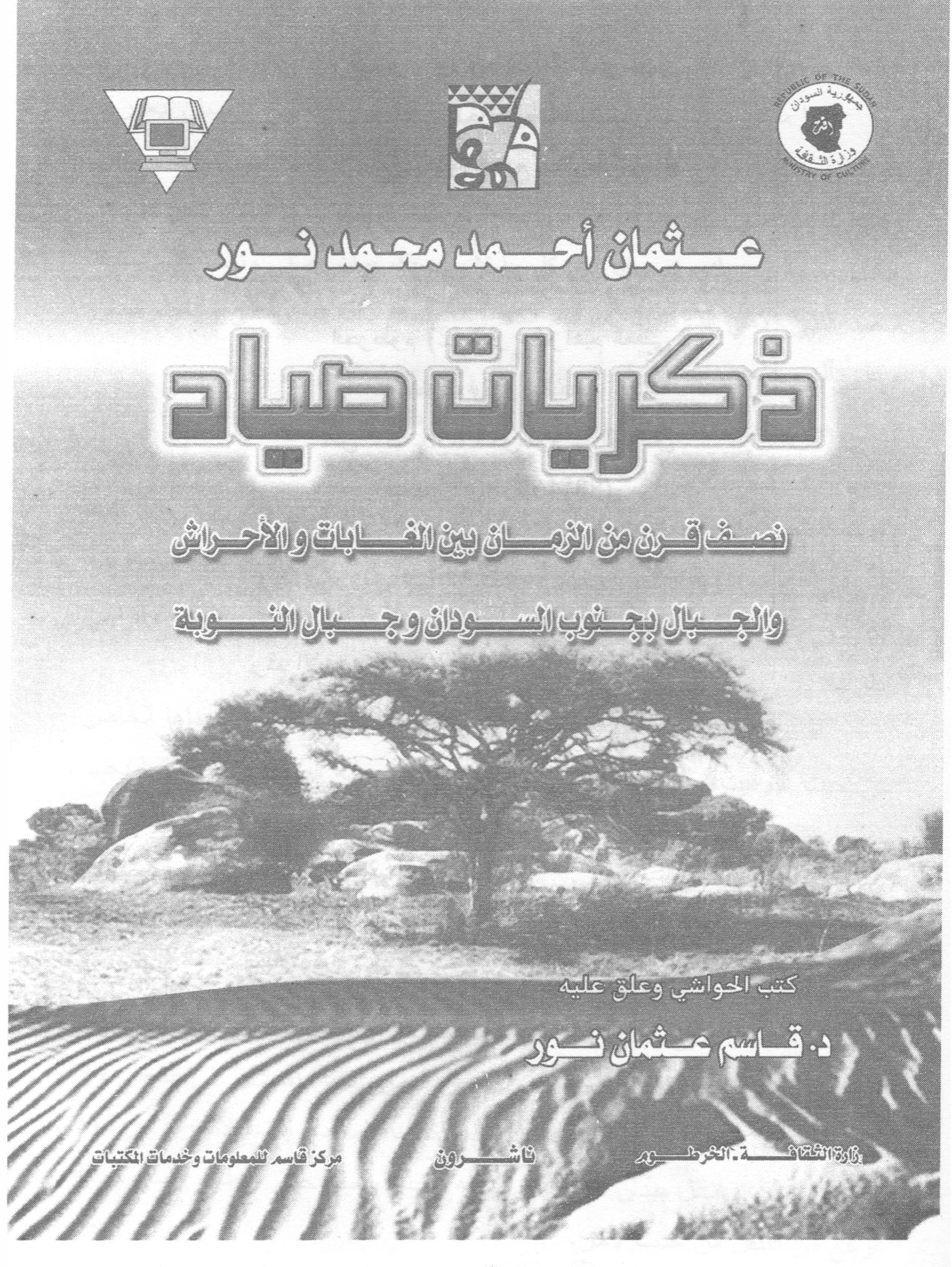
تأسس هذا المركز من أجل المساهمة في تنمية و تطوير المكتبات بالسودان بكل أنواعها و مسمياتها و تقديم الخبرة و الارشاد و التوجيه في مجال المكتبات و المعلومات

وزارة الثقافـــة - الخرطـــوم

ناشـــرون

مركز قاسم للمعلومات وخدمات المكتبات


مسطورات
MUSTORAT
INTERNET ARCHIVE



جمهورية السودان
REPUBLIC OF THE SUDAN
وزارة الثقافة
MINISTRY OF CULTURE
عثمان أحمد محمد نور
ذكريات صياد
نصف قرن من الزمان بين الغابات والأحراش
والجبال بجنوب السودان وجبال النوبة
كتب الحواشي وعلق عليه
د. قاسم عثمان نور
وزارة الثقافة . الخرطوم
ناشرون
مركز قاسم للمعلومات وخدمات المكتبات

الناشر : وزارة الثقافة بالخرطوم

الخرطوم 2004م

بالإشتراك مع : مركز قاسم للمعلومات وخدمات المكتبات

الخرطوم (2) شارع إبراهيم المفتي

جنوب وزارة الثقافة

ص . ب 835 الخرطوم ـــ السودان

هاتف : 463380(83)

بريد إلكتروني : Email qasimnur@yahoo..com

رقم الإيداع :162/2004

يطلب من : مركز قاسم للمعلومات وخدمات المكتبات

المقـــدمة

يـــا مـــن ذرأت وبرأت و بسطت الأرض ودحيتها وخلقت الإنسان ليعمرها وينتشـــر فـــيها ويأكـــل مـــن مناكبها وجعلت من الحيوان زينة لها، نسألك راجين وندعوك مخلصين ومؤملين أن تأخذ بيدنا نحو الفلاح وتقودنا برحمتك نحو النجاح لكـــل مـــا يرضيك وتصرفنا عن كل ما لا يرضيك ،وان نصلي ونسلم على سيدنا محمد النبي الأمي الذي أتيته جوامع الكلم وخصصته بالبلاغة وأعلى مراتب البيان وعلى آله وعشيرته الطاهرة وأصحابه الغر الميامين وبعد .

مما يجدر الإشارة إليه قبل الدخول في موضوع الكتاب: وهو تعريف كلمتي مذكرات وذكريات؛ من حيث التباين في المعني رغم تجانس الحروف، وأنا إذ أفعل ذلـــك للضـــرورة التي تفرضها طبيعة الكتاب ومحتوياته المتنوعة، مما يجذب إليه طـــبقة الشباب من الجنسين والذين لم يسعدهم الحظ لزيارة الجنوب ، قد يجدوا فيه الكثيـــر مـــن المـــتعة ويزودهم بمعلومات قيمة عن هذا الوطن على سعته وترامي أطرافه .

أقـــول وبالله التوفيق :إن كلمة مذكرات لها مدلولها الخاص ومعناها الخاص من حيث التوقيت، وان يكون الحادث له ساعته وتاريخه اليومي وسنته، كما يجب مـــراعاة تتابع الحوادث وأي اختلال في هذا الشأن يفقده الكثير من معنوياته، ومثل هذا العمل لا يتأتى لكل شخص لأنه يحتاج إلى مؤهلات خاصة وتكوين الشخصية من بادئ أمرها له أثره .

فكلمـــة مذكـــرات أدق وأشمل من كلمة ذكريات ،التي تحمل معني الرجوع بالذاكـــرة نحو الأمس البعيد، وتصور الحوادث كما وقعت وتعطيها الحياة من جديد ،وقد يصيب بعضها تقديم وتأخير بعضها عن بعض، بغير اختلال في المعني ولا تتـــناقض في المحتوى، ولذلك اخترت لهذا الكتاب كلمة ذكريات، لأتحرر من قيود المذكـــرات وادخـــل ميدان الذكريات بما له رحابه وسعه حتى أعطى نفسي حرية أوسع في التنقل من حدث لآخر.

تمـــهـــيد :

عند منتصف الثمانينات من القرن الماضي ،كنت ما تقدمت خطوة إلا رجعت أخرى أعيش في دوامة مفرغة الحلقات ،تبدأ من حيث تنتهي وهكذا كان التردد هو السـمة الغالـبة بين أن أسجل ذكرياتي عن الجنوب التي ينوء بحملها كاهلي، وأن أجمعهــا في كتاب تنتفع به الأجيال القادمة أو اتركها رغم علمي أن تركها سيخلف فــي الحلــق غصة ومرارة،.وقد انهالت علي التوسلات أولاً وتحولت إلى ضغوط عــندما رأوا أن التوســلات لم تجدي ، كان الضغط يشتد علي بالأخص من جانب أبنائــي: قاسم والحسين اللذان كانا تبدو على وجهيهما الحسرة والكآبة كلما شعروا بإحجامــي وعزوفــي، وقــد وجدت نفس الاهتمام من السادة اسحق احمد صديق والرشــيد عوض الكريم ومالك عمر بلال حيث كان أشوقهم لمعرفة الكثير منها ، كلما سمعوا جانب منها جاءت بمناسبة إلا وطلبوا المزيد وأخذ على شاكلتهم الكثير من الأصدقاء "يعيبون علي " هذا التراخي ويلمونني بعدم الاهتمام وبلغ بي الضغط شــدته عــندما قــدم لي الابن قاسم الكثير من التسهيلات ووضع بين يدي الورق والأقلام حاثاً إياي بالبدء فوراً وأترك له بقية المتطلبات الأخرى ورغم ذلك لم أعط الأمــر أهمــية كافية ولم أكن جاداً للرضوخ لمطلبهم ولكن في صحوة من ضمير وإشــراقة نور من ربي هبطت علي من علٍ في حالة صفاء تبددت على إثرها تلك السحب القاتمة التي كانت تحجب عن ناظري هذه الرؤى وتبين لي من خلالها خطأ ما كنت عليه كما أوحت لي وعلى سبيل الذكري إني أسير سيراً حثيثاً نحو غايتين لأبد من إحداهما أما الأجل المحتوم وهو مصير كل حي أو أن تهاجمني الشيخوخة وأول درجاتهــا فقدان الذاكرة وإرتعاش الأيدي أو عمي العينين أياً منها تقف حائلاً دون الكتابة وفي كلا الحالتين سأكون قد أورثت أبنائي الحسرة والندامة نتيجة عناد لا طائل من ورائه وهم لا يملكون أكثر مما قدموا من إلحاح وضغط وتشجيع فحز ذلك في نفسي مما جعلني أتخلى عن عنادي هذا من ناحية .

أمــا الناحية الأخرى التي كان لها الأثر البالغ في هذا التغيير المفاجئ حالة

الفوضــى التــي عمت الجنوب وحالة الخراب والدمار الذي أصاب المدن والقرى والأريــاف بســبب الحــرب الدائرة هناك ولم تخب أوارها ولم يجد أهلها أمناً ولا اســتقراراً . وقد شمل الخراب كل مرافق الحياة واصبح الجنوب أتون يغلي وجمر يســتعر حتى ضاق به أهله ذرعاً فهجره من هجر ونزح عنه من نزح وأصبح لا تري إلا مساكنهم فحدث و لا غرابه عن تلك الغابات التي كانت روضة من رياض الجــنة وهــي عامــرة بحيواناتها المختلفة تسرح حرة طليقة تغني طيورها وتغرد بلابلهــا فســكتت تلك الأصوات تحت هدير المدافع وفرقعت الطلقات التي جاء بها الخــوارج ليقــتل بها أخيه الجنوبي دون هوادة ولا رحمة فعاثوا في الأرض فساداً ودخلــوا الغابــات وأخذوا يفتكون بكل من فيها من إنسان أو حيوان وأخلوها إلى درجــة الإبــادة بالنســبة للحــيوان بنوعيه الأليف والمتوحش استعرضت كل ذلك وشــعرت وفي النفس قبضة وفي القلب حسرة فجنوب اليوم يختلف اختلافاً جذرياً عن جنوب الأمس الذي كان قبلة أنظار العالم . أما جنوب الغد فسيكون أسوأ حالاً إن لــم تدركه يد العناية الربانية تثير حفيظة طائفة من أبنائه المخلصين فينقذوا ما يمكــن إنقــاذه وفي أسرع فرصة ممكنة وإلا سيجيء اليوم الذي نجد فيه الجنوب الحبيب أرض خالية من إنسان أو حيوان فهل في ذلك ما يرضي جون قرن ورفاقه ويصبحوا (بوم السودان الذي يعجبه الخراب).

لهــذه الأســباب مجتمعه جمعت شجاعتي وطردت هواجس الأمس ولم ألق بالاً للسلبيات تاركاً كل ذلك إلى ما سيأتي به الغد من قبول أو رفض لهذه الذكريات من الأجــيال القادمة التي لم تولد بعد لأنهم هم أصحاب الكلمة الأخيرة بعد أن وضعت بــين أيديهم صورة لجنوب الأمس الذي لم يرونه بأعينهم فلينظروا إليه من خلال ذكرياتــي هــذه فهــي إن لم تعط الصورة الشاملة والكاملة بكل ما يحويه جنوبهم الحبيب من نعم وخيرات كانت ملأ العين والبصر لكنه سيجد جهد المقل وأنا إذ أقدم هذا المجهود الذي لا حق لي أن اسميه عظيماً من ناحية القيمة والنفعية لكنه عظيماً من ناحية الجمع والتبويب وما استغرق من وقت ولا هدف لي من وراء ذلك العمل

شـــهرة أجري وراءها ولا طمعاً في مال اقتنيه لكن كان الغرض أسمى وأنبل أولاً لأنال رضا الأبناء والأصدقاء وتنفيساً مما كنت أحمله من هذه الذكريات التي أثقلت كاهلـــي وخشـــيت أن ارحل بها إلى دار الفناء فتفني ويغيبها القبر فتحرم الأجيال القادمـــة من أي معلومات أو إشارة إلى تلك الحقبة من الزمن ولقد فات الأوان لمن يريد أن يأتي بمثلها أو ينسج على منوالها حيث طويت الصحف وجفت الأقلام ولن ترجع عقارب الساعة إلى الوراء .

الفصل الأول

البـــدايـــة

فـــي أواخـــر الحكم التركي كان السودان تعمه موجه من الفوضى من حيث سـوء الإدارة لا يحكـم بقانـون ولا يتقيد بدستور ولا كلمة لضعيف بسبب الفساد المستشـري الـذي عم كل مرافق الدولة لا عدل ولا إنصاف وأشتد الضغط على الشـعب خصوصـاً فـي الجزء الشمالي ولو أضفنا إلى ذلك قسوة الحياة وخشونة العـيش التي تنتج عادة عن عوامل طبيعية كعدم وفاء النيل وهو عمدتهم في الحياة أمـا أن يـنخفض ولا يفيض إلا بالقدر اليسير فلا يغمر أراضي الجزر أو يغطي أرض الجروف وأما أن يرتفع ارتفاعا جنونياً فيسبب الهدام وهو أكبر أعداء سكان الشمالية فيقتلع شجيرات النخيل ويجرف الأرض أو يجرف الجزر وترحل من هنا لتسـتقر فـي مكان آخر فالنيل والأرض هما الحياة لان لا حياة غيرهما وفي حالة التوسط ما بين حالتي النيل يرتفع دخل الفرد ويأتي بمحصول وفير مما يعود عليه بالرفاهية ولهذا بدأ سكان الشمالية نحو الهجرة إلى الجنوب حيث الطبيعة أرحم وإن أخلفهم النيل فالأمطار كفيلة بسد النقص.

وفـي يوم من الأيام اجتمع ثلاث أخوة هم محمد صالح وهو أكبرهم ومحمد يلـيه فـي المـولد واحمد وكان أصغرهم أبنـاء محمـد نور وفي مسقط رأسهم ارتمـوقه(1) وقـال أكبـرهم مخاطباً أخويه وكان غير متزوج وقال لا شك إنكم تشـعرون بهـذه الضائقة التي ألمت بالناس مما جعل الكثيرين منهم يهاجرون نحو الجـنوب بحـثاً عـن حياة أفضل ونحن سنلحق بهم عاجلاً أم آجلاً أما ترون من الأفضـل أن نفكـر أن نلحـق ببقية الأهل والعشيرة قبل أن تأخذ الضائقة بتلابيبنا فنضطر إضرارا وما دام أبوانا قد أختارهما الله لجواره عليهما رضوان الله . فوجد مـنهما تجاوبـاً وأجمعوا على رأي واحد هو ترك هذه الديار . وفي يوم من الأيام ودعوا أهلهم وأختين لهما تحت زوجين من أبناء عمومتهم . حملوا معهم جراباً من التمـر ليكفـيهم غائلة الجوع أثناء سفرهم إن لم يجدوا قرى فكان الحل والترحال حتى وصلوا مدينة أمد رمان وانضموا إلى من سبقهم من الأهل وطاب لهم العيش

حيث وجدوا في التجارة ضآلتهم يدخلون السوق سحابة نهارهم ليعودوا في المساء إلـــى مـــنازلهم بما غنموا من ربح والمخلاة مليئة بأصناف الطعام من لحم وخضر وأشـــياء أخرى . أما الشقيق الأكبر محمد صالح لم ترق له هذه الحياة الجديدة ربما وجد من أصدقائه ما أغراه بمزاولة تجارته خارج المدينة وجاءهم يوماً وشرح لهم ما عقد عليه العزم فلم يفلحوا في إقناعه عن العدول عن هذه الفكرة فأصر وودعهم وهما غير راضين إنقطعت أخباره وبعد فترة جاء نعيه فقد وافته منيته في دارفور وكان لا زال الحكم التركي فيه بقية من رمق والفوضى والفساد وانعدام الأمن هي الســـمة الغالبة على الوضع في تلك الحقبة وبالتشاور مع بعض الأهل استقر الرأي علـــى ترك أمد رمان(2) إلى جهة تكون أكثر أمناً وأحسن عيشاً فكان التنقل على ظهور الدواب . وساروا بمحاذاة النيل الأبيض متنقلين ما بين القطينة والقراصة ثم إلـــى شـــات(3) وكان لها سوق كبير تتقاطر عليه وفود من نواحي عديدة من بينها قـــرى كـــردفان يحملـــون بضائعهم على ظهور الجمال كالسمسم والفول السوداني وريـــش النعام والصمغ العربي وبقية المحاصيل الأخرى وكان لابد من ميناء على شاطئ النيل الأبيض لترحيل هذه المحاصيل بواسطة المراكب الشراعية فكان موقع الـــدويم الحالي هو أنسب مكان . كان ذلك قبل أن يخلق الدويم بل كان يطلق عليه (دويـــم شات) أي مصيف أهالي شات يتخذونه مصيفاً بسبب شح الماء بالنسبة إلى الإنسان والحيوان مما يضطرهم إلى مجاورة الماء وقد تخلوا من السكان في أوائل فصـــل الخـــريف وبعد فترة من الزمن كانت تشاركهم السكني في هذا الموقع قبيلة الجعافـــرة الـــذين هاجروا من صعيد مصر ودخلوا السودان وهم مزودون بخبرة عظيمة في شأن الزراعة وتنوع المحاصيل ووجدوا في هذا المكان كل ما يحتاجون إلـــيه من أرض وماء فطاب لهم المقام واتخذوه موطناً لهم تحت إسم الدويم بعد أن عـــرفوه بالألـــف والـــلام وحذفوا كلمة شات وكان الأخوان محمد واحمد يعملون بالـــتجارة وعلـــى ظهـــور الـــدواب يطوفون القرى والحلال يحملون الدمور(4) والـــزراق(5) ســـلاحهم الســـيف والتركاش وهو عبارة عن حراب صغيرة خفيفة

يجمعها بيت من الجلد يشبه الكنانة بالنسبة للسهام ولا تزيد عدد الحراب عن سبعة وربما أقل ثم تربط على سرج الدابة عن يسار الراكب لتكون في متناول يد الراكب عـند اللـزوم وكان لا يثنيهم عن عزمهم كثرة المخاطر التي يتعرضون لها أثناء تجولهم من اللصوص وقطاع الطرق 0بعدها خطر ببالهم زيارة أهلهم الذين سبقوهم نحو الكوة في تلك الأيام بدأت حركة الإمام المهدي على جبل قدير حيث بدأ بجمع جيشـه للـزحف نحو الأبيض لم تشغلهم هذه الحركة عن تجارتهم لكنهم يراقبونها باهـتمام وكـان خط سيرهم التجاري يقف عند المناطق المجاورة لهم من جنوب كـردفان. وفـي مـرة يتخلف محمد بسبب وعكة أصابته وسافر أحمد في تجارته وفـتحت لـه الرحلة آفاق جديدة وتوغل في أرض جنوب كردفان وأطراف جبال النوبة حتى وصل إلى جبل الليري وجعل من قرية أم شطة مركزاً لتجارته وكانت ولا تـزال تسكنها بطون من عرب الكواهلة مع سكانها الأصليين من النوبة واتخذ مـن مشـاهير رجالهـا أصدقاء ومن خيرة الرجال وكان لهم عوناً في كل مدلهمة وسنداً عند كل ملمة ولا زال أحفادهم يذكرون له أفضاله على آبائهم وأجدادهم حتى يومـنا هـذا . وعندما زرت قرية أم شطة في أول زيارة لها عام 1929م وجدت بعض الرجال المسنين الذين شاهدوه لا زالوا على قيد الحياة وما أن علموا إنني إبن ذلـك الرجل وشاع الخبر تجمعوا حولي وأكرموا وفادتي وقابلوني بالود والترحاب ولقيت منهم من التقدير ما أثلج صدري.

عاد والدي بعد هذه الرحلات إلى وطنه الجديد بنفس الطريق وهو يحمل معه مـا غنمه من تجارته وقضي فترة من الزمن للراحة والاستجمام وهو يتهيأ لرحلة أخري لكنه رأي أن التجارة على ظهر الدواب محدودة ولا ترضي طموحه ولا تفي بالغـرض الـذي يهدف له من وراء هذه المهمة وأراد أن ينقلها إلى رحاب أوسع ووجـد في المراكب الشراعية خير معين له وفي نهر النيل متسع لتحقيق طموحاته وكـان في القرى المجاورة لمدينة الكوة رجالاً ذو خبرة في صنع المراكب وبنائها فصـنعوا له أول مركب . ولما كانت خبرته في علم البحار قليلة اتخذوا لها ريساً

ونوتيه يقوموا بأمر المركب ويتفرغ هو للعمل التجاري ، وكانت رحلات موسمية تبدأ في شهر أكتوبر حيث يبدأ فصل الشتاء ويعود بعدها في أوائل يونيو عند بداية فصل الخريف من كل عام.

ولمـــا كان سكان ضفاف النيل الأبيض خليط من عرب سليم وبعض بيوتات الشـــلك ومن هذا الاختلاط تغير نوع التجارة وتعددت وجوهها لكل قبيلة بضاعتها الخاصة وكان في المراكب متسعاً لكل ذلك فكان ملح الطعام يشغل الحيز الأكبر من المـــركب حـــيث الطلـــب والإقـــبال عليه عظيماً لحاجتهم إليه في حياتهم اليومية والاحـــتفاظ بكمـــيات منه تكفي لمدة الخريف ولما كانت العملة غير متوفرة لديهم بسبب ضعف الحكم التركي فكانت المعاملة عن طريق المقايضة ذهباً كان أم فضة أم محصول أو حيوان .

تغيـــر الوضع قليلاً بعد أن كتب النصر لثورة المهدية وسقوط الخرطوم وقد اضطرب حبل الأمن وعمت الفوضى بعد وفاة المهدي عليه السلام وآل الحكم على خليفته عبد الله التعايشي اقتصرت رحلاته النيلية على القرى القريبة من الكوة بعدها ليـــتفقد أحـــوال الأهل والعشيرة ويزور أخيه حتى وقعت الفتنة(6) التي كادت أن تـــؤدي بحياة الكثيرين من سكان الكوة بالأخص الدناقلة كما كان يسمونهم أما الفتنة باختصـــار عـــدم رضا الخليفة شريف عن بعض تصرفات الخليفة عبد الله بسبب وضـــع كل السلطة في أيدي التعايشة والبقارة وقربهم إليه ليكونوا سنداً له ولخلافته وأخـــذ يـــبعد عـــن السلطة كل من له صلة قربي بالإمام المهدى (ع س) وخشي الخلـــيفة شريف على حياة الكثيرين من أبناء وأقارب المهدى (ع س) أن يفتك بهم الخليفة عبد الله التعايشي للتخلص منهم حتى يأمن مكرهم وعزم على مقاومة الخليفة عبد الله وإعلان الحرب عليه وطلب من أهالي الكوة ومن الدناقلة خاصة ان يبايعوه بالخلافـــة ويحاربوا معه حتى ترجع المهدية كما كانت نظيفة خالصة لله ولرسوله . وما أن وصل الرسول وإجتمع برؤساء القبيلة وأعيانهم فوجد منهم تجاوباً ووعدوه بنصـــرته عـــندما يطلب منهم ذلك وكانوا غير راضين عن سلوك الأنصار الذين

عملـــوا سلباً ونهباً في الأموال وهم لا يملكون عمل شيء فكانت هذه البادرة ربما تكـــون بـــادرة خير تزيح عنهم هذا الكابوس والعدو المتسلط وقبل أن تقع المبايعة إنكشفت المؤامرة ووصلت إلى الخليفة عبد الله فأرسل كوكبة من فرسانه وجند من المرتزقة تحت إمرة أحد أعوانه وطلب منه بأن يأتوه بكل دناقلة الكوة مشعبين حتى ينظر في أمرهم وكلمة مشعبين تأتي من كلمة (شعبة) هي خشبه ذات قرنين توضع القـــرنين على رقبة الرجل وتربط قرنيها بجلد البقر النيئ حتى لا يستطيع التخلص منها يوضع طرفها الآخر على كتف رجل آخر يسير أمامه وذلك مبالغة في إذلالهم لما إرتكبوه من جرم .

وكان الوالد من بينهم وصلوا أمدرمان وهم على هذه الحالة وكان عبد الكريم الـــدفاري(7) أميـــر للرأية الزرقاء(8) وملازماً للخليفة وكان مشهوراً له بالشجاعة وقـــوة الـــبأس وكان مخلصاً في حبه للمهدية ولما علم مقدم أهله وعلى هذه الحالة المشـــينة تملكه الغضب وزهد الحياة وإعتبر ذلك تجاهلاً متعمداً للدور الذي قام به في نصرة المهدية وتقليلاً من شأنه أمام إخوانه الأمراء فانتهز فرصة فراغ الخليفة من صلاته وبين علمائه وخواصه إذ تقدم ممسكاً برأس السيف وأرسل مقبضه نحو الخلـــيفة وطلب منه أن يأخذ برأسه فتعجب الخليفة والحاضرون من هذا التصرف وما الذي حمله على ذلك فاتجه الخليفة نحو جلسائه وخاطبهم قائلاً (هاي الأمير عبد الكـــريم شوطن) أي هل مسه الشيطان ولم كل ذلك فبادره الأمير عبد الكريم قائلاً أنـــت وليتنـــي على قومي وأنا ملازماً لك وطوع إرادتك أفديك بروحي ودمي فان حصل من قومي ما رأيته خروجاً أو إستنكرت أمراً فكان الأجدر أن تستشيرني في أمـــرهم وهـــنا تدخل بعض الخيرين طيبوا خاطر الخليفة وطلبوا منه التسامح فيما إرتكـــبه من حماقة سببها الغضب فتنفس الصعداء وطلب منه أن يستغفر عن ذنبه وعفـــا عنه . أما قضية المتشعبين فلم تحل بعد ولا يمكن التكهن بما يضمره الغيب ولابد من المثول أمام الخليفة وقد أودعوا السجن مع تشديد الحراسة . فقال الحكماء والعقـــلاء من خارج السجن لابد من كبش فداء يضحي بحياته فداء للقبيلة وأجمعوا

علـــى شخص واحد ونقلوا هذا الإجماع إلى السجناء ليقولوها بلسان واحد وفي الغد جلس الخليفة بين قضاته وأمر بمثولهم بين يديه فوقفوا صفاً واحداً طويلاً تحرسهم الجهادية وأخذ يخاطبهم وهو في أشد حالات الغضب فتقدم الأمير عبد الكريم للمرة الثانية وخاطبه وفي رباطة جأش قائلاً هم أهلي وعشيرتي وأنا أعرف مقدار حبهم للخلـــيفة ولو علمت منهم غير ذلك كنت أول من يتصدى لهم وهم جنودك وأعوانك ولا تســـمع فيهم كلام الدساسين والمغرضين فخف غضب الخليفة وانطلقت أسارير وجهـــه قليلاً وقال مخاطباً المعتقلين من الذي جاءكم بهذا الخبر وأراد أن يزج بكم في هذه المؤامرة فقالوا بصوت واحد (مرسال بحر أبيض) قال أين هو المكنوس فلم يره أحد بعد ذلك القول ولم يودع في الساير ربما قتل قبل وصوله للساير(9) .

انـــتهت دولـــة المهديـــة وجاء الحكم الثنائي واستتب الأمن وفتحت المراكز والمدارس ونشطت التجارة وفتحت الحكومة ذراعيها لكل تاجر وصانع وعامل من أبناء الشمال وأسسوا أول مديرية في أعالي النيل وجعلوا كدوك عاصمة لها والتي لا تـــبعد كثيراً عن فشودة المدينة المقدسة لدى قبيلة الشلك التي باركها الإله عندما اســـتقر بهم المقام في هذه البقعة وجعلوا منها مقراً للمكوك ويعتبر أي شئ في هذه المديـــنة مقدســـاً وسنوفيها حقها إن شاء الله في وقت لاحق أما مدينة كدوك أسست علـــى أن تكـــون مركزاً إدارياً ومقراً للمدير البريطاني وكانت المراكب الشراعية تمخـــر عباب النهر متجهة نحو المركز الجديد وما أن وصلت ألقت مراسيها على الميناء حتى قوبلوا بالترحاب وبالحفاوة البالغة من الأهالي ونشروا بضاعتهم تحت ظـــلال الأشجار وبدأت المعاملة بالعَملتين المصرية والبريطانية بعد أن كانت عن طـــريق المقايضة في سابق رحلاتهم ولما آن أوان الرحيل بعد إنتهاء الموسم بدءوا يستعدون للعودة كعادتهم وبرجاء من مفتش المركز تخلف بعضهم ليقيموا سوقاً ثابتاً لمســـاعدة الأهالي ليجدوا حاجتهم فكان له ما أراد واختار الوالد أحد أقاربه ليأسس متجـــراً بعد أن مده بالمال ووعده بأن يمده بأنواع البضائع كلما وجد فرصة لذلك ومكثوا معه أياماً أخر ليساعدوه في بناء المتجر حتى اكتمل . وودعوه وفي الرحلة

التــي تلــت ذلك جاء أبي بمركبه وهي محملة بشتى أنواع البضائع وزاد من كمية الحديد المصنع كحراب(10) وكواكيب وملايد وبدينقات علاوة على الخرز وأشياء أخرى وعند وصوله لكدوك ترك جزءاً منها لوكيله وإتجه نحو التوفيقية التي كانت مقراً لرئاسة الجيش الفاتح وكانت منطقة عسكرية ثم توسعت بعد ذلك وألتف حولها الملكية وبعض الشلك واستوطنها أفراد الجيش الذين تم تسريحهم وفي وقت قصير إتسعت رقعتها ومن هنا بدأت رغبة الوالد أن يستقر هو بنفسه لما رأى ما تصرف مــن أموال كمرتبات للجيش وما يتطلبه الجيش من مبانٍ وخدمات أخري فلم يتردد بعد أن لقي من السلطات الموافقة ولم يكن هو وحده الذي منح حق الإقامة بل كان هناك بعض الوافدين بمراكبهم الشراعية كان من نصيبهم حق الإقامة .

ومن هنا لابد من وقفة أمام اسم التوفيقية(11) ومن أين جاء هذا الإسم وهل هــو إســم أصيل في المنطقة وأين هو الآن لا وجود له على خرطه السودان أقول للســائل الكريم إنها سميت بهذا الإسم نسبة للخديوي توفيق باشا تخليداً لذكراه ولم يجــد البريطانيون بُداً من الرضوخ لهذه التسمية لأن مشاركة الجيش المصري في فــتح السودان لا غبار عليه ولكن بعد إتساع رقعة المدينة وأصبحت مركزاً تجارياً يشــار إليه بالبنان أفزعهم ذلك وهم ينظرون إلى المستقبل البعيد بدأوا يفكرون في حــيلة يمحوا بها أثر هذه المدينة فكان لهم ما أرادوا تحت حجة وجودها في أرض غيــر صــالحة وتقع بين النيجان(12) التي يكثر فيها توالد الناموس وتلوث الماء علاوة على ضيق مساحة الأرض التي لا تواكب العمران الذي سيصيب المدينة في مســتقبلها فصدر أمراً بإخلائها والرحيل إلى ملكال الموقع الجديد في عام 1916م إنــتقلت المديــنة بمؤسســاتها المخــتلفة التجارية والحكومية وتبعتها بقية السكان وأصــبحت خراباً ومرتعاً للبوم• إلا من بناية واحدة جعلوا منها مكتباً يتبع مصلحة الغابــات حــيث بدأوا في زراعة أشجار السنط وخلافه . وبذلك مات إسم التوفيقية وأمثالها كثير في السودان من حيث ما أصابه التغيير من أسماء مصرية تم إستبدالها بأسماء سودانية إمعاناً في التنكر .

عــود عــلى بــدء

وبعــد عــودة الوالد من إحدى رحلاته أقترن بالوالدة(13) في عام 1904م ليست بالغريبة عنه بل تربطهم صلة القرابة وتقديراً للدور الذي كان يقوم به جدي لأمــي مــن مســاعدات لــه في عمله التجاري وكان ينوب عنه في بناء المراكب والإشــراف علــيها أثناء عملية البناء ثم تجهيزها وسفرها نحو الجنوب وفي عام 1906م كــنت الثمرة الأولى لهذا الزواج نشأت بين أبوين توفرت لديهم كل أسباب الســعادة مــن رغد في العيش وسعة في المال ولا أريد أن أزيد لأن الموقف ليس مكان تفاخر ولا تباهي يغنيني عن ذلك الشهود الذين لا زالوا على قيد الحياة .

بــدأت حياتي التعليمية في السادسة من عمري حيث التحقت بإحدى خلاوي المديــنة وكان على رأسها الفكي وقيع الله من حفظة القرآن ومن أبناء رفاعة وكان جاداً في عمله إلى درجة القسوة هدفه أن يحفظ الطالب لا يتهاون لا في كبيرة ولا فــي صــغيرة كــنت مواظباً مجتهداً حتى تمكنت من حفظ الأربعة أجزاء الأخيرة وشــرفت في اللوح سورة الذاريات وأنا سعيد بهذا التقدم وفي ضحى يوم من الأيام فوجئت كغيري من الحيران بمأمور المركز مصري الجنسية فوجئنا به وهو يدخل فــناء الخلوة مسترجلاً عن صهوة جواده ويفاتح الفكي بالمهمة التى جاء من أجلها وهي إختيار بعض الحيران للمدرسة فأذعن الفكي لأمره ونادى في الطلبة فاجتمعنا في شكل دائري يتوسطنا المأمور والفكي فأختار منهم من إختار(14) وأنا من بينهم وطلــب من كل منا أن يحضر لوحه فجئت بلوحي وعليه الشرافة وفي وسطها أول سورة الذاريات وكان الخط جميلاً وبعد أن قيد الأسماء قال الفكي أن هؤلاء الأولاد أمانــة عنده ولا يحق له القبول أو الرفض ولكنه سيرفع الأمر إلى أولياء أمورهم وكنت أول من وافق حيث كان الأمر بيد جدي لأمي لسبب غياب الوالد في الجنوب وكــنت بلغت السابعة وكنت كبقية زملائي تعمنا الفرحة لهذا الانقلاب المفاجئ من حــيث النظام والدراسة وقد تخلصنا من الجلوس على الحصباء داخل الخلوة وعلى الرمضاء خارجها عند أول الزوال وهنا لابد من نبذة يسيره وبإختصار عن مدرسة

الكـــوة ومتى نشأت وما هو دورها في المجالين السياسي والاجتماعي وهذا الحديث يجرنا إلى ذكر نبذة عن تاريخ الكوة نفسها فمن أين جاء هذا الإسم العربي . معناه الأشـــجار اليابســـة بين الغابة فهو إسم دخل المنطقة بدخول العرب الذين طاب لهم المقـــام مع قبيلة الشلك وهم السكان الأصليين وقد تلاشي إسمها الحقيقي الذي كان يســـمونها بـــه أهلها من.الشلك وفي عهده ما بعد ذلك تسمي دومة أليس وكل هذه الأســـماء شملها النسيان وصمد اسم الكوة(15) وكان مركزاً هاماً منذ أقدم العصور وعندما قامت ثورة المهدي (ع س) قال شاعر هم :

المهدي أب نوراً ضوه   الكمل تُرك الكوة

ممـــا يدل على إنها كانت مجمعاً للأتراك كجيوش وسكان وبعد الفتح الثنائي أســـس أول مركز بعد مركز القطينة وكان مركزاً إستراتيجياً لمراقبة ومتابعة فلول جـــيش الخليفة بعد إستشهاده في أم دبيكرات وكعين ساهرة لمعرفة ما يجري داخل الجزيـــرة أبـــا معقل الأنصار خوفاً من تجمع فلولهم وتوحيد صفوفهم ولذلك أنشأ المركـــز وتأسســـت المدرســـة في وقت واحد ولا زالت البنايتين بحالة جيدة تؤدى وظيفتها كدواوين للحكومة أو كمدرسة أما إسهامها في المجالات الأخرى فما عليك ألا أن تـــرجع بذاكرتك إلى الوراء قليلاً فتجد في كل مؤسسات الدولة إلا وبها أحد أبـــناء الكوة فكان منهم الوزير والمدير والعالم والمهندس والطبيب هذا على سبيل المـــثال وأمـــا قـــواتها المسلحة فقد إنتظم في عقدها الكثيرون واحتلوا أكبر الرتب وكانوا جميعاً محل إعجاب الرؤساء لما لمسوه من حب وإخلاص لوطنهم وأمانة لا تشوبها شائبة فدورها مشهود وإسهامها في كل المجالات غير منكور .

إنـــتظمت في سلك الدراسة وكانت صباحية ومسائية إكتفوا بعدها بالصباحية وتـــبعاً لذلك فقد نتج فراغ كبير فكنا نقضي بقية النهار في صيد العصافير والقمري وتدرجـــنا حتى وصلنا درجة صيد الأرانب في أيام العطلات بواسطة الكلاب وكنا أربعـــة زملاء نسير بالكلاب بين أشجار الكتر(16) واللعوت(17) وفي يد كل منا أكثـــر مـــن عصـــا خاصة تسمي بالمجداع(18) لترمي به الأرنب أثناء مرورها

بالقرب منك وكنا نعود وبأيدينا ما غنمناه .

وهنا لابد من أن أقف بك قليلاً لأعطيك فكرة عن السلم التعليمي وبإختصار كان المنهج التعليمي على عهدنا كان منهجاً علمياً راقياً يختلف عما عليه اليوم إن لم يختلف في المادة لكنه يختلف من حيث المقرر فالطالب في السنة الثالثة وهي آخر مـــراحل التعلـــيم الأولى كانت مقرراته من اللغة العربية عالية المستوى وفي مادة الحســـاب مثل ذلك وفي جميع أوجه التعليم كانت كافية بأن تعين الطالب على شق طـــريقه في الحياة ويكون مؤهلاً تأهيلاً علمياً لا بأس به وعنده ما فيه الكفاية وهو خريج السنة الثالثة الأولية إن لم يجد فرصة الإلتحاق بالإبتدائية حيث كانت فرصها محدودة ولكن ما عنده من معلومات إكتسبها في السنوات الثلاث من حساب أو لغة عربية ومشتقاتها تؤهله للخوض في أمهات الكتب العلمية منها والأدبية مهما كانت نـــوع اللغة المستعملة فلسفية أو فنية لا تحتاج إلى الرجوع للقواميس لتبحث معني كلمة إلا في حالات نادرة ولو قارنا بين طالب تخرج من السنة الثالثة وأخر تخرج من السنة السادسة في وقتنا الحاضر تبين لنا الفارق العظيم بين الحقبتين خذ مثلاً : دخـــل عليـــنا ونحن في السنة ثالثة ناظر المدرسة جاءنا منقولاً من الأبيض طويل القامـــة قوي البنية تدل ملامحه على الجدية والصرامة إسمه عبد الرحمن الشايقي وكان ذو إلمام باللغة العربية وتوابعها إقتحم علينا الفصل في حصة النحو وأراد أن يســـبر غـــورنا ومدي ما إستوعبناه عن سابقه من مقررات هذه المادة نريد وعلى عجل أن نصرف كان وأخواتها وعلى كل طالب إبتداء من أول الصف أن يبدأ بكان ثـــم الذي يليه بالفعل الذي بعده وكل يجيب إجابة صحيحة ويجلس حتى وصل إلى أحد الطلبة وكان من نصيبه (ليس) وكان يكفيه أن يقول جامد ممنوع من الصرف ويجلـــس آمـــناً ولكن رهبة الناظر وخوف الطالب من العقاب شل تفكيره وصرفها كفعل من كيس فقال كيس يليس كيس فضج الطلبة من الضحك مما أغضب حضرة الناظر وكان جزاؤه بعض الجلدات من سوط كان يحمله علاوة على حبسه ساعتين بعد خروج الطلبة ليقرأ خلالها الموضوع حتى يستوعبه .

كـــان نشـــاط الطالب لا يقف عند فناء المدرسة بل تعداها إلى الشارع وفي ليالـــي السـمر وأيـــنما وجد طالباً أو طالبين يتفاخر ويتباهى بما حفظه من أشعار العـــرب الجاهلـــية منهم أو ممن أدرك الإسلام . كانوا يقيمون الندوات ويطارحون الشـــعر بأن يأتي الأول بيت من شعر تنتهي قافيته بلام مثلاً فيجيبه الآخر ببيت له أولـــه لام ويجعلوا حكماً ثالثاً ليرقب الموقف فإذا ما لحن في كلمة مرفوعة فنصبها أو العكس إستوقفه الحكم وطلب منه إعراب الكلمة الملحونة فإن رجع أحتسبت عليه غلطـــه وإن أصـــر رفع الأمر في الغد إلى مدرس اللغة العربية حتى يقول كلمته وقوله الفصل هكذا كان إقبال الطلبة على العلم مع التوسع في المقررات ولا يخرج الطالب في آخر النهار وإلا في جيبه ورقة تسمي الواجبات يدرسها ليلاً ويجئ بها في الغد وهي مستوفية الغرض هذا ما كان عليه التعليم الأولى وكيف بدأ بداية طيبة تبشر بنهضة علمية توسع من مدارك الطالب وتعويضه عما فاته في تلك السنوات المظلمة أيام الحكم التركي والمهدية .

وفي عام 1917م جاء المستر يودال وكان يشغل مفتش أول للمعارف ودخل الفصل وكانت الحصة حساب يقوم بتدريسه السيد إبراهيم عمر النحاس وكان شاباً فـــي مقتبل العمر متفوق في علم الرياضيات يرجع له الفضل في كل ما وصلنا إليه من هذه المادة وما أن جلس على المقعد خلف المنضدة المعدة للمعلم الذي كان يقف بجـــواره نـــادى المعلـــم أخرجوا كراسات الحساب إفتح صفحة جديدة وهنا أخرج المفـــتش ورقـــة من بين لفافة كان يحملها وقال أملي عليهم هذه المسألة فبدأ يمليها علينا ونحن نكتب حتى فرغ ثم قرأها مرة أخري وأردفها بثالثة ونحن نتابعه بإهتمام ثم أمرنا بحلها وانكفأ كل منا على كراسته وساد الفصل صمت رهيب وكأن الطير علـــى رؤوسهم إلا من صرير أقلام أو فرقعة الورق الذي تسببه الريح المنبعثة من الـــنوافذ وكـــان المفتش والمعلم يقومان بمهمة المراقبة وكانت مسألة حسابية ليست بالصعبة لكنها طويلة الحل متداخلة إستغرقت من الوقت ما يزيد عن نصف الساعة ثـــم بـــدأ تســـليم الكراسات وكانت عملية التصحيح فورية يقوم بها المعلم ثم يرفع

الكـــراس إلى المفتش للمراجعة وكان السيد إبراهيم قد عودنا بأنه عندما يجئ أول طالب بكراسة وكان حله للمسألة صحيحاً يكتب له في كراسته بالحبر الأحمر (فتح الله عليك) وللثاني (فائق) والثالث (أحسنت) وللرابع (حسن) تشجيعاً للطالب وفي هـــذه المرة لم يبخل بذلك ولما جاء دوري كنت الخامس وقد أصبت الحل الصحيح خاطبني أن الذين جاءوا من قبلك إستأثروا بالجوائز الأربعة ولم يبق لدينا ما نعطيك فضـــحك المفـــتش عـــندما شرح له معني قولته وقال إنه أسلوب طيب ويقرب بين الطالـــب ومعلمه وأكبر منه هذه الروح وأعطي الكراسة إلى جناب المفتش ووضع العلامـــة المعهـــودة ولم يكتف بذلك وأخذ يقلب الكراسة ورقة ورقة ووجدها كلها عـــبارة عـــن حديقـــة من الزهور يمثل حبرها الأحمر زهرة الورد وبياض الورق زهرة الفل والياسمين المداد الأسود يمثل أوراق هذه الزهور وما بين السطور يمثل جـــداول المـــاء الـــذي يمد الحديقة بالحياة مع جمال الخط وحسن التنسيق ما بين الحـــروف والكلمـــات والأرقـــام وكأنهـــا نسقت بيد فنان مبدع ورسام ماهر يضع اللمســـات الأخيـــرة للوحة فنية لكليوباترا أو لماري أنطوانيت فاعجب أيما إعجاب وكـــتب على الكراسة بخط يده (جدع) ثم كتب إسمي مع الذين سبقوني في مذكرته ثـــم تـــتابع تســـليم الكراسات إلى أن انتهي من آخر طالب وخرج ليمر على بقية الفصـــول وانتهـــي مـــن مهمته في وقت وجيز بعدها ضرب الجرس وخرجنا من الفصـــول ووقـــف الطلبة في طابور يتوسطهم المفتش والقائمين بأمر التعليم وقام المفـــتش خطيباً وأعلن عن اختيار سبعة من الطلبة ليكونوا بالخرطوم في أول العام القـــادم ليجلسوا للإمتحان وكنت أنا من بينهم ولما جاء الموعد تخلف أربعة بسبب رفـــض أولياء أمورهم وأقلتنا الباخرة (كايرو) إلى الخرطوم وجلسنا للإمتحان مع بقية الوافدين من أنحاء السودان الأخرى وجاءت النتيجة بالقبول بعد أن كان ترتيبي الحادي عشر حيث كان محمد عباس أبو الريش(19) يفوز بالمرتبة الأولى ومالك الجزولي من أبناء الشمالية نال المرتبة الثانية أما الثالثة فكانت من نصيب الدرديري أحمد إسماعيل(20) وإنتظمنا في سلك الدراسة . هذا مجمل القول وسنعود للتفاصيل

في فرصة قادمة إن شاء الله .

وكنت أقرأ الكتب والمجلات والصحف حتى أثناء الدراسة وكانت كتب ومجلات لها قيمتها ولها وزنها من حيث الأدب الراقي الرفيع الذي تصدره الهيئات وبيوتات العلم علاوة على المجلات العلمية وفي مختلف النواحي وكانت تمدنا بها الشقيقة مصر و لا تنسي دواوين الشعر الجاهلي والمخضرم وبعد أن تخليت عن المدرسة واتخذت من التجارة مهنة رغم مشاغلها كنت أقرأ كلما سنحت الفرصة وفي أوقات الفراغ وكان في الليل متسعاً من الوقت لأشفي غليلي من القراءة والإطلاع ولكن ضعف النور وخفوت الإضاءة تحول بيني وبين إشباع هذه الرغبة وتقف حائلاً دون ما أريد وكان النور الكهربائي لم يصل مدينة ملكال وكانت القراءة قاصرة على النهار أو تحت ضوء خافت مصدره مصباح غازي الذي هو الآخر مصدر إزعاج لما يلتف حول ضوئه من حشرات قارصة يفسد على القارئ تأملاته واستيعابه زد على ذلك عدم الاستقرار في مكان واحد والتنقل من مكان إلى مكان حسب مقتضيات المهنة التي من طبعها التجول رغم ذلك لم أتوقف عن القراءة ولهذه الأسباب مجتمعه فاتنا ركب الثقافة ولا يحق لي أن أقول إني نلت من الثقافة ما يؤهلني عن التعبير عما يدور بخلدي باللغة التي يريدها القارئ الكريم أو بالطريقة التي ترضي ذوق المثقف من إستعارات فلسفية أو بلاغة عربية عالية المستوي تروق في نظره وتشوقه للاستمرارية وتحمله على متابعة القراءة دون أن يعتريه سأم أو ملل فيلقي بالكتاب جانباً والعزوف عنه . هذه بعض التوقعات التي أفسدت علي بعد أن كنت نشطاً لتدوين هذه الذكريات التي هي مادة الكتاب المنتظر وخوفاً من قول قائل ما دمت لا تملك المؤهلات ولم ترق إلى مصاف الأدباء ومبدعي القصة فلم هذا التطاول وكيف تزج بنفسك في ميدان أنت ليس من فرسانه وقد يعذرني القارئ الكريم لو علم أن عندما تجمعت لدي هذه المادة الغزيرة من ذكريات مدة من الزمن وفي مجال لم يتطرق إليه أحد ورجعت بالذاكرة قليلاً إلى الوراء وتلفت يمنة ويسرة بحثاً عن كتاب جمع بين صفحاته مثل هذه الذكريات فلم

أجـد إلا كتابـين أحـدهما باللغـة الإنجليزية لكاتب بريطاني(21) نسيت عنوانه ولم يجد من يقوم بترجمته إلى اللغة العربية . أما الآخر فهو للأستاذ جاد الله وكان مـوظفاً بمصـلحة البريد والبرق وقع هذا الكتاب في يدي في العشرينات من هذا القـرن وباللغة العربية غير أنه إقتصر على رحلات قليلة لا يعطي القارئ صورة حية تمثل الحيوان وهو حر طليق في غاباته وبين أحراشه وكيف كان يقف أمامها ولـم تكن عنده مواقف ومغامرات ذات شأن أو مواقف تستحق الذكر وليس معني هذا إني أريد أن أقلل من قيمة هذا الكتاب بل العكس غرضي الإشادة بهذا المجهود الـذي قـام به هذا الرجل ووضع اللبنة الأولى وفتح الطريق أمام كل من يريد أن ينحى هذا المنحى وهو أول سوداني يكتب في هذا المجال أعطي أبناء جيله صورة مشرفة ومشوقة عن الصيد والغابات ومالها من متعة نفسية ورياضة روحية وبدنية رغـم قيد الوظيفة التي لم تعطه الفرصة الكافية لممارسة هوايته فمنذ ذلك العهد لم يتطرق أحد للكتابة في هذا المجال وتعاقبت الأجيال تلو الأجيال ومرت فترة زمنية تقدر بأكثر من ستين عاماً تغيرت خلالها أشياء وأشياء وتقادم العهد ومن هنا بدأت الـرغبة لمـلء هذا الفراغ وسد الثغرة الناتجة عن عدم الاهتمام من أجيال شغلتهم المديـنة وقـتلت فـي نفوسهم حب الاستطلاع والبحث عما يجري من حولهم في السـودان وفي غابات الجنوب التي يسكنها إخوة لهم ينتظرون منهم الكثير من تقدم ورقي ولكن المدينة المستوردة شغلتهم ببريقها الذي حسبوه ذهباً وما هو بذهب ولما وجدت أن الروح المعنوية عندهم قد تدهورت وخشيت أن تضيع تلك المعالم فنعض أصابع الندم كان حافزاً يحثني على الإقدام بتدوين هذه الذكريات وجمعها في كتاب وأنـي إذ أقـدم هذا الكتاب المتواضع لغة وموضوعاً للأجيال التي تلت العشرينات عامـة وإلـى أجيال ما بعد الاستقلال وإلى من يجئ من بعدهم ليكون لهم نبراساً يضئ لهم الطريق وليتعرفوا على جنوبهم الحبيب وما كان يدور فيه من صراعات قبيلة وحروب أهلية .

صيد الطيور

بعــد أن إلتحقت بكلية غرودن في قسمها الإبتدائي وعدت في أول عطلة من عـــام 1918م عاودني الحنين إلى مزاولة هوايتي المفضلة هي الصيد ولكن أأرجع إلـــى صـــيد الأرانب عن طريق الكلاب وقد شببت عن الطوق أو أحاول ذلك عن طـــريق الســـلاح الناري الذي إقتناه الوالد منذ عام 1912م وهو عبارة عن بندقية خـــرطوش مـــن أجـــود ما صنعته المصانع البريطانية كان يمتلكها أحد المفتشين البـــريطانيين توفـــي بالناصر بمديرية أعالي النيل على نهر سوباط جنوب شرق مديـــنة ملكـــال ثم بيعت بالمزاد العلني فكانت من نصيب الوالد وهذا السلاح لازال موجـــوداً وبحالـــة جيدة مدرجة تحت إسمي ولما كانت نشأت الوالد وتربيته دينية زاهـــداً عن متع الحياة لم يستعمل هذا السلاح أبداً وكانت الذخيرة تملأ حيزاً كبيراً مـــن شـــنطة حديدية لا قفل لها ففي مرة إستشرت الوالدة في أن أستعملها ولو مرة واحـــدة فرفضـــت وكنت أستعطفها من وقت لآخر حتى رضيت تحت إلحاح شديد فكـــنت أنتهـــز فرصـــة غياب أبى عن البيت وأخذها خلسة وأبتعد بها عن المدينة وأصـــطاد الطـــيور المائـــية بعد أن أجلس على الأرض حيث كنت لا أقوي على أســـتعمالها(22) وأنا قائماً لثقل السلاح وقوة إنفجار الذخيرة دون أن ترتجف يداي فتفســـد على ضبط التصويب وكانت الوالدة عليها رحمة الله تقدم لحم الطيور تحت إسم الفراخ خوفاً من أنال غضب أبى أو أتعرض إلى عقاب وتقع هي الأخرى في لـــوم وتـــتهم بالإهمال وعدم مراقبتها لبيتها وما يجري فيه وفي إحدى الأيام ولما قضت الإرادة كشف الأمر كان فيضان النهر عالياً وصلت مياهه إلى السور المحيط بالبيوت وكانت البيوت نفسها مهددة بالانهيار مما جعلها تحتاط بعمل ردميات خارج الســـور درءاً للأخطـــار وإحتمال إرتفاع الفيضان بغتة ليلاً أو نهاراً فإذا بي أسمع أصوات الطيور (أم سي سي)(23) يصل إلى مسامعي فأخذت البندقية وذهبت إلى مكـــان تجمعهـــا وأطلقـــت عليها النار فإذا بعدد كبير منها يتخبط في دمائه وقمت بجمعها وجئت بها إلى البيت وهذا النوع من الطيور يمتاز بجودة اللحم ولذة الطعم لا رائحة له كأمثال الطيور الأخرى أو حتى الفراخ وقد إنتابني شئ من الخوف إذا

علم أبي إني استعمل هذا السلاح دون علمه وإن كثرة اللحم التي ستقدم ملفتة للنظر ولا يمكـــن أن تمر عليه دون أن ينتبه لها إذن كيف الخروج من هذا المأزق وكنت أفكر في نوع العقاب الذي سيحل بي أهي علقه ساخنة يتبعها حرماني من إستعمالها والأولـــى أحب إلي إن اقتصرت على ذلك وكانت حالتي النفسية سيئة للغاية فكنت بين عاملين أما أن أتغيب عن موعد الغداء أو أواجه العقاب بشجاعة ويحسم الأمر وبيـــنما أنـــا في حيرتي وترددي دخل أبى بصحبة رجل من خيرة الرجال صديق حمـــيم لـــه وعالماً عاملاً له مؤلفات كثيرة في مدح الرسول ﷺ وهو الأستاذ يحي محمد زكريا(24) وله مكانته الاجتماعية وذو اطلاع واسع في كتب السادة الصوفية وكانت له مجالس يحكي عنها لإخوانه شارحاً لهم معانيها وتأويلها كان حلو اللسان لذيذ المنطق ذو أخلاق عالية ومهما قلت فيه فإني لا أوفيه حقه أو أدانيه جاء موعد الغـــداء وأحضـــرت المائدة وهي عامرة بأصناف امتازت بكثرة اللحم منها ما هو مطـــبوخ ومـــنها ما هو محمر بشكل يلفت النظر وجلسنا إلى المائدة تناول كل منا قطعـــة من اللحم فقال الضيف الكريم أي أنواع اللحم هذه قال أبي ربما يكون لحم دجاج إعترض الأستاذ وقال مبدياً ملاحظاته هذا أذكى وألذ فالتفت أبى نحوي يطلب الإجابـــة وأحال لي السؤال بنظرة منه وانتظر الجميع رداً للسؤال وشعرت بان لا مـــناص إلا الصـــدق وقلت هذا لحم (أم سيّ سيّ) فقال أبى في لهفة شديدة تتسم بالغضب من قام بصيدها قلت أنا فبدت على وجهه علامات الغضب والدهشة وقبل أن يفوه بكلمه فإذا بيد الصديق يحي تربت على كتفي ويقول نعم الغلام رددها ثلاثاً فشعرت بشيء من الارتياح وهدوء في الأعصاب وقال أبي مخاطباً الأستاذ أتشجعه علـــى مثل هذه الأفعال وهو في مثل هذه الحداثة رد عليه قائلاً قل لي بالله يا أحمد كـــم مره إستعملت هذه البندقية منذ أن وقعت تحت يدك قال لا أظن إني إستعملتها ولا مـــره واحدة فقال له إشتريتها بغرض الزينة أم تحفه في البيت قال لا هذه ولا تلـــك ولكـــن له هو عندما يكبر وإني لأخشى وهو في هذه السن إلا يقدر المواقف فيصيب إنساناً أو حيواناً كان حواراً إعتبرته بناء ويكون النتيجة في صالحي مرت

هذه الحادثة بسلام وإعتبرتها بمثابة تصريح ولكن في تحفظ .

ولما وجدت الإذن لان أستعمل هذا السلاح كنت أتحاشى الاقتراب من منطقة المركــز واختيار الجزء الجنوبي من الجزيرة لبعد المسافة وكنت أخشى أن أقع في قبضة المفتش البريطاني أو المأمور لكن الحذر لا يمنع القدر وفي ذات يوم لم أجد طيراً في الناحية الجنوبية فسرت محاذياً النهر نحو الشمال فاعترض طريقي زوج من الوزين(25) فقلت في نفسي شئ خير من لا شئ ورميته فأصبت الذكر وتقدمت نحوه وحملته فتناهى صوت الذخيرة إلى سمع المأمور فأرسل يطلبني فإذا بعسكري يجــري ورائــي وينادينـــي فوقفت حتى وقف أمامي وقال حضرة المأمور يطلب حضــورك وكــان مصري الجنسية وقفت أمام حضرة المأمور وأنا احمل السلاح والصــيد فأمرنـــي أن أضع السلاح والصيد في ركن المكتب فامتثلت وسألني عن اسمي فأجبت وما عملك قلت طالب بكلية غردون والعمر ومن صاحب هذا السلاح قلــت هــي ملكاً لأبى وأين هو قلت موجود بالسوق وأمرني بان أدعوه ولما دخل المكتب أمره بالجلوس على مقعد جانب المكتب وسأله عن الصلة بيني وبينه فأجاب انـــه إبني وكيف سمحت له باستعمال هذا السلاح وهو في هذه السن فأجابه بلهجة اقرب من لهجة أهالي دنقلا التي تقرب إلى الرطانة وقال له (عندك دا زول صغير والكبير كيف عندكم دا عندنا راجل يا حضرة المأمور وأنا البندقية ما اشتريتها إلا مــن اجلــه وثقتي فيه كاملة) ولما سمع المأمور قوله وصدقه وصراحته بعيداً عن اللف والدوران قال هذه المرة الأولى وأنا سأتسامح معك ولا تدعه يعود لمثل عمله هذا اذهب وخذ البندقية ، مشيت نحو الركن وأمسكت بالبندقية وهممت بأخذ الصيد فانتهرنـــي أبى قائلاً اتركها وانصرف فلم أبتعد قليلاً عن منطقة المركز حتى رأيت العسكري يحملها ويدخل بها منزل المأمور فقلت في نفسي وأنا اشعر بالارتياح هذه فاتحة خير للتعارف وسيغض الطرف عن ملاحقتي وكنت أمده الفينه بعد الفينه بعدد مــن الطيور ولكن بطريق غير مباشر أي بواسطة الطباخ الذي كان من أبناء البلد وكــان يــنقل لي على لسانه دا ولد كويس كلما وجد لحماً من الطيور يعمر مائدته

وبذلك كفاني الله شره ومكره .

التماسيح :

من المعروف أن شواطئ النيل الأبيض ومياهه مليئة بالتماسيح وهي مصدر خطـر للإنسـان والحيوان وكان الدخول في الماء اكثر من عمق خمسين أو ستين سنتمتر يعتبر بمثابة مجازفة بالحياة لكثرة التماسيح وتعدد حوادثها وكما أن الطير لا يـتواجد إلا علـى شـاطئ الأنهار فكان علينا أن نكون حذرين بكل معنى الكلمة خصوصاً عندما يبدأ الفيضان وفي مره وأنا أبحث عن الطير على الشاطئ الغربي مـن الجزيـرة صادف وجود جوزين من الوزين الأحمر رغم أني لم أكن متحمساً لصـيده وآثرت أن أكتفي بواحد منه خير من الرجوع بخفي حنين فأصبت الجوز وأدركـت الذكـر وأمسـكت به غير أن الأنثى ببقية من رمق طارت وسقطت في عـرض النهـر ميته وكان موج النهر يدفعها نحو الشاطئ رويداً رويداً وأنا أسير بمحاذاتها على اليابسة إلى أن بقى بيننا نحو أربعة أو خمسة أمتار وضعت البندقية والطيـر علـى الأرض وشمرت ملابسي وخضت نحوها ومددت يدي لأنالها وإذا بالتمسـاح يخطفها ويلف في سرعة البرق وتبينت جسمه الأسود وذيله الطويل يمر بجانب صدري بغرض إصابتي وقذف جسمي أمامه حيث الإصابة ستفقدني وعيي وأرتمـي أمامه ويعدو علي بأسنانه لكنه أخطأ التقدير فابتلت ثيابي مما أصابها من المـاء فهرعت نحو اليابسة وأنا فزع من هول المفاجأة وأنا أكاد لا أصدق ما حدث كـنت أتخـيل الموقف وكيف نجوت من موت محقق وأتصور أنه لو وجد فرصته وأمسـك بي وكنت بين فكيه وأنا أغالب الموت في سبيل طير لا حوجة لي فيه هذا أول حادث بالنسبة للتماسيح.

أما الحادث الثاني للمرة الثانية وفي نفس الجزيرة وقبل أن أدخل في تفاصيل الحـادث وجـب علـى أن أعرف هذه الجزيرة التي ورد ذكرها وسيرد ذكر اسم جزيرة كبيرة تقع على طول مدينة الكوة اسمها (اللكداوية) لا أدري من أين جاء هذا الإسم وما معناه سألت عنه الأجداد الذين كانوا على قيد الحياة قبل سبعين عاماً عن

مصـــدر هذا الإسم فلم أجد عندهم جواب سألت هل في لهجة الدناقلة التي يجيدونها كلمة قريبة من هذا اللفظ فأجابوا بالنفي وسألت عنه في بقية اللهجات كالمحس ولغة الفــونج فلم أجد لها معني هذه الجزيرة ذات نفع وخير ففي ما قبل قيام خزان جبل أولــياء كانت مصدر رزق لجميع سكان المدينة وهم مزارعون بطبعهم بعد انتهاء موسم الأمطار في شهر أكتوبر من كل عام يبدأ إنحسار ماء فيضان النيل تدريجياً فكانــوا يراقبون ذلك ويزرعون الأماكن الأمامية كجروف وبعد أن يصل النهر إلى حوضـــه الصيفي وقد تخلي عن كل الأرض التي غمرتها مياهه في وقت الفيضان تنصـــب السواقي والشواديف متراصة حتى تعم كل مساحتها وهم يزرعون القمح والــذرة الشـــامية وأنواع من الذرة وفي أوائل فصل الصيف يكون الجزء الأمامي الذي كان مزروع كجروف قد تم حصاده ترفع له الماء ويزرع بالخضر من جميع أنواعها أما وسطها فغابة كثيفة من السنط يجنون منه القرض(26) بمئات الجوالات علاوة على حطب الحريق من الأغصان اليابسة ونسبة لهذه المحاصيل التي يتساقط منها بعض الحب يجد الطير مرعاه وتتكاثر أعداده وتتزاحم هذا من ناحية نفعها أما أضـــرارها تأتـــي مـــن تكاثر القواقع والقرقور والمحار الذي يعيش فيها مكروب البلهارســيا التــي وجــدت لهـــا مرتعاً خصباً لارتباط الناس رجالاً ونساءاً بالنهر والأرض فهم لا غني لهم عنه فحياتهم اليومية تحتم عليهم خوض النهر وإستحمامهم فـــيه هـــذا بالنسبة للرجال أما النساء فهن يخضن النهر لملئ جرارهن لماء الشرب فتفشت البلهارسيا بشكل وبائي مما أدي بحياة كثير من الشباب وطبقاً لذلك فقد ظهر بـــين الشـــباب مرض الاستسقاء وإزدادت وطأته وقد نادت الحكومة بعدم التعرض لمـــياه النهر وحفرت الآبار وقد فاتها دور المزارع المرتبط بالنهر ولم نتخلص من هذا الوباء إلا بعد أن اكتشف ألانت مون(27) كعلاج .

وكانـــت الجزيـــرة تطفـــي على المدينة جمالاً خصوصاً عند الأصيل عندما ترســل الشمس أشعتها الذهبية وتتخلل خضرة الغابات الكثيفة القائمة وسط الجزيرة وتغطـــي الجزء الأكبر منها فتلبسها ثوباً ساحراً ومنظراً شعرياً تهنأ به نفس الناظر

وعندما تتجمع على أغصانها الأعداد الهائلة من الطيور على مختلف أجناسها وكل يغنـــي لليلاه وبنغمات أشبه بالموسيقي ويزيد الموقف جمالاً عندما يختلط ثقاء الشاه وخـــوار البقر عندما تلتقي بصغارها عند غروب الشمس كل ذلك كان نعمة حرمنا منها قيام الخزان وليس هذا وحده إنما أشياء كثيرة لا مجال لذكرها هنا.

في منتصف نهار شديد الحر تهب سمومه كأنها زفرة من زفير جهنم جاءني أحـــد الأصدقاء ليقول أن عنده دعوة غداء في يوم غد يحتاج إلى لحم طير يعمر به المائـــدة فقلـــت لا بأس أخذت بندقيتي وخرجت وكنت أسير على الشاطئ الشرقي للجزيـــرة فلم أصب شيئاً وعندما ما اقتربت من نهايتها جاء سرب من الطير وحط على الشاطئ فجلست على الأرض وبدأت ازحف على الأرض حتى اقتربت منه ثم رميته وكانت موفقة فأصبت سبعة منها واثنين سقطاً في عرض النهر فقلت لابد من ضمها إلى السبعة تكون هدية مقبولة وعلى الأقل أن يكون نصيبه ستة ولنا الثلاثة وكـــان كـــلا الشاطئين قد خلتا عن الناس فخلعت ملابسي وتركت الصيد والبندقية ونـــزلات النهر أسبح نحوها وعندما توسطت النهر شعرت بأن الماء تحت صدري يأتـــي بتـــيار مضاد الفنية بعد الفنية فقلت هذا شئ غير طبيعي فأنزلت رجلي ألي تحـــت سطح الماء فإذا هي ترتطم بجسم تمساح شديد الخشونة مما يدل على كبره وهنا جن جنوني وأدركت أن التمساح من عاداته لا يتمكن من صيد فريسته إلا بعد أن تثبت أقدامه على الشاطئ أما أثناء عومه فلا . وخطر ببالي أن الموت ينتظرني بالقرب من الشاطئ ولم يبق لي من العمر إلا دقائق أسرعت العوم وعندما اقتربت من الشاطئ قفزت وجريت بسرعة البرق وإذا هو يطفو على وجه الماء وبعد ثوان مـــن خروجي إذ هو يتبعني ولكن ما سبب تأخيره فوجدتها أحد أمرين إما أن يكون أجفل بسبب الخوف عندما اصطدمت رجلي بظهره وابتعد عن مكاني تحاشياً للخطر مـــن هـــذا الذي مس ظهره وعاد بعد أن اطمأن قليلاً أو انه كان متشابك الأسنان وهـــناك ملاحظـــة يجب أن يعرفها كل إنسان وهي خاصة بالتماسيح أولاً التمساح يخـــتلف عن أي حيوان آخر فهو يحرك فكه الأعلى خلافاً عن كل الحيوانات لأنها

تحــرك فكها الأسفل أما الثانية فهي طبيعية أنيابه فكل ما بين النابين السفلين يدخل بينهما ناب من أعلي وهكذا وكلما تقدمت به السنين ونما جسمه نمت أنيابه تبعاً لذلك وكلما نمت الأنياب وتضخمت ضاقت المسافة بينهما حتى تصل إلى عدم الاستطاعة فـــي فكهــا بسهولة وفي ذلك فهو يحتاج إلى الارتطام بجسم صاب كعود أو حجر ليســاعده علـــى فــك التشابك وليس معني ذلك أنه اثناء التشابك هذا يقف مكتوف الأيــدي أمــام فريسته لا بل له طريقة أخرى يمسك بها على فريسته . وهو عندما يقتــرب من فريسته يلف نفسه لفة سريعة فيصيبها بذيله في أي مكان من جسمها فيشــل حــركتها أو يفقــدها وعيها إن أصاب الصدر فيرميها بشدة الضربة أمامه ويــتأبطها حتــى يصل إلى مكان يخبئها فيه ويذهب يبحث عن العود أو الحجر ثم يعــود إلــيها ولـــه طــريقة في الأكل لا تجدها عند غيره من الحيوانات واعلم أن التمساح(28) لا لسان له إلا عند نتوء قريب من الحلقوم يشبه اللسان وما هو بلسان يقطـــع العضـــو مـــن صيده ثم يهرسها بأنيابه حتى تتكسر العظام ثم يمسكها من أطـــرافها ويعــض عليها ثم يهزها هزاً عنيفاً حتى تتطاير كل العظام المهروسة ثم يـــرفعها إلـــى أعلى ويفتح فاه ويزدردها وان بقي منها باق دسها ليرجع إليها عند الحاجة .

فمـــا أن خرجت من الماء أصبحت أنا في مكان وملابسي وغيرها في مكان آخــر ولابد من قطع النهر سباحة فآثرت الابتعاد جنوباً والابتعاد عن هذه المنطقة واخترت أضيق أماكن من النهر وسبحت نحو الشاطئ الآخر .

جبل الإنسان على النسيان ولولا النسيان ما سعد أمرؤ بمال ولا هنئ بعيش ولــولا النسيان لسيطر عليه وعلى مشاعره الكآبة والحزن التي تنقص عليه عيشه وتفسد عليه ملذات حياته ناهيك عن الهم الذي يلازمه كل ما ذكر فجيعة أو فقد ثميناً وكــنت أنـــا أرى في تلك الصعاب التي واجهتني ما فيه الكفاية بأن أقلع عن أوأن أتخلي عن هذه الممارسات تجنباً للأخطار كما أنها كافية لأن اخذ منها العظة والعبر ولكن القدر يلعب دوره كما قال الشاعر:

مشيناها خطي كتبت علينا ومن كتبت عليه خطي مشاها

فالخطـــوة التي مشيتها واعتدت عليها كان النهر تبدو عليه آثار زيادة مبكرة بســـبب ســـقوط الأمطـــار الغزيرة نمت الحشائش على إثر ذلك وتكاثرت الطيور تـــتلاعب وتـــتواثب تعـــوم علـــى مياه النهر تارة وتستقر أخرى لتقتلع من جذور الأعشاب ما تأكله وكانت المنطقة مكشوفة لا وجود لساتر اختفي وراءه حتى اقترب منها فلابد أذن من الزحف على بطني شيئاً فشيئاً لأصل إلى بقعة صغيرة حشائشها أطـــول من مما حولها وما أن وصلتها ورقدت بين عشبها كنت أشعر بأنفاسي تعلو وتهـــبط بسبب التعب وآثرت أن ارتاح قليلاً حتى استعيد أنفاسي والطير أمامي وأنا في هذه الحالة شعرت بجسمي تعتريه قشعريرة ورأسي قد كبر عن حجمه الطبيعي واعترتنـــي حالة ليست طبيعية وكانت يقظة العقل الباطن وبهدي روحي منه التفت ورائي فإذا بتمساح كبير الجسم أصفر اللون رافعاً ذيله إلى أعلى لئلا يحدث صوتاً فأنتـــبه وهو يزحف ورائي ولم تكن بيني وبينه إلا خطوات وهو يتحفز للانقضاض علـــيّ فمـــا كـــان مني إلا أن أطلقت النار في الهواء لأن المفاجأة قد شلت تفكيري وأحدث صوت الذخيرة له نفس المفاجأة فأخذ يجري نحو الغابة بدل أن يجري نحو النهر وبعد أن عاد إلى وعيه إنثنى نحو النهر وأخذ يغوص تحت الماء وبعد فوات الأوان وهدوء الأعصاب عدت ألوم نفسي على هذا التصرف الذي بدر مني أما كان الأجـــدر بـــي أن أوجه الضربة لأحد الهدفين الطير أو التمساح فاكون غير خاسر وكانـــت الطلقـــة كفيلة بقتله لقرب المسافة بيننا فالخوف أو التسرع أو الاثنين معا جعلانـــي أتصرف هذا التصرف الصبياني حيث كنت حقيقة صبياً لا يزيد عمري عن العشر سنوات .

كانـــت لي مع التماسيح مواقف تستحق التسجيل والتأمل وكيف كانت النجاة مـــنها كمعجزة أو شبه معجزة ولم تقف عند هذا الحد الذي ذكرته فيما مضى بل له معي موقف آخر وكان آخر حادث تعرضت له من ناحية التماسيح مع اختلاف في الـــزمان والغرض لأنه مكان لا علاقة له بالصيد ولكن علاقته من ناحية المخاطر

التي تعرضت لها من هذا الحيوان توجب ذكره .

كنا شلة من الأصدقاء أخوة متحابين وأبناء جيل مؤتلفين نجتمع كل مساء في دار لـنا على شاطئ خور(29) يتفرع من النهر في أيام فيضانه ترسو على شاطئه كـل المـراكب العائـدة من الجنوب المحملة بالذرة وأصناف المحاصيل الأخرى ووجهـتها أمـد رمـان وكان رؤساء المراكب يرون في هذا المكان مأمنهم وأشبه بميناء يحميهم ويمنع عنهم عواصف الخريف ورياحه وكان للدار باباً يطل على هذا الخـور والأمـواج تتكسر على عتبته مما يضطرنا لردم أكثر أجزائه المطلة عليه وقايـة مـن الانهيار وعلى ربوة عالية نطل عليها نوافذ الديوان القائم على الجزء الغربـي مـن السـور وكـان هذا الموقع جميلاً يزيد من جماله الماء الذي حوله والنسمات الباردة التي تهب عليه وهي تحمل بين طياتها رائحة نوار أشجار السنط وأشـجار ايوقوى وهو شجر ناعم الخشب أقرب شبهاً من خشب البقس وله زهرة بيضـاء ذات رائحة طيبة تشبه الفل كل هذه الروائح الطيبة الأخاذة تنبعث من هذه الجزيرة مصحوبة بزقزقة العصافير وتغريد القمري ونغمات الطيور الأخرى وكان في ذلك ما يغري الأصدقاء لقضاء بعضاً من الليل في هذا المكان وكنت أعد لهذا المجلس عدته فنصف الكراسي والترابيز على تلك الزبوة وما أن يكتمل العقد نأتي بمشروب الشاي والكاكاو أو الحلبة ولكل منها يومه مصنوعة من لبن البقر الصافي غيـر ممزوج بماء لأن حظيرة البقر التي نملكها تدر لبناً كثيراً . نقضي هذه الفترة في سمر بعيداً كل البعد عن نزوات الشباب إلا في حالات مدارسة الحفاظ على أمن المديـنة أو مـراقبة الأجانب ومنعهم من التمشي في شوارعها ليلاً حيث المراقبة الشـديدة تمـنعهم مـن دخول بعض البيوت بغرض تعاطي الخمور هذا هو ديدننا وبرنامجنا الذي نسير عليه . وفي ذات ليلة بعد أن آن أوان انفضاض المجلس وقد فرغنا من إدخال المقاعد وغيرها داخل الدار وأخذ كل فرد طريقه نحو داره أربدت السماء وتكاثفت السحب وإشتد وميض البرق المنبعث من اكثر من جهة بما يوحي بـأن المطر آت لا محالة وتذكرت إني لم أصلي العشاء فجلست على حافة الخور

وعلـــى أرض رملـــية وشرعت في الوضوء وإذا بسواد أمامي حسبته بادئ الأمر قطعـــة من خشب السنط حملته الريح وأخذ مكانه . أو كومة من عشب من أعشاب المـــاء حمله الموج ولكن داخلني شك فأردت للاطمئنان على نوعيته فاقتلعت بيدي قطعـــة من الطين رميت به ذلك السواد فإذا به تمساحاً كبيراً يتربص بي ولما وقع الطين على رأسه سبب له انزعاجاً مما جعله يلف لفة سريعة ويقذف بذيله كمية من الماء إبتلت منها كل ثيابي فقمت مسرعاً وابتعدت عن المنطقة .

وليس غريباً أن تحدث هذه الأحداث لكن الغريب في الأمر كنت أكتم كل هذه الحوادث حتى عن أهلي وعن أقرب الأقربين كل ذلك خوفاً أن يصل ذلك إلى سمع أبي أو أمي فاحرم من هذه الهواية التي أصبحت جزءاً من حياتي(30) .

كلية غردون

بعـــد أن انـــتظمت في سلك الدراسة في كلية غردون وفي قسمها الابتدائي ووجدت ممن سبقوني من أبناء الكوة كل احترام وتقدير ورحبوا بمقدمي حيث كنت الوحـــيد الـــذي تم قبوله في هذا العام وكان الحاج موسى أكبر الجميع سناً وكان قد الـــتحق بالمدرســـة الحربية وفي رتبة جاويش يليه محمد معروف الذي أخذ طريقه للمدرســـة الحـــربية أيضاً بعدهم الأستاذ النصري حمزة وكان في السنة الأولى من قســـمها التجهيـــزي وأمـــا محمد عثمان محمد ومحمد صالح نمر لا زالا في القسم الابتدائي وكان من سياسة سلطات المدرسة إن تجمع من أبناء البلد الواحد أو أبناء المنطقة في حجرة واحدة أو حجرات متقاربة في الداخلية وفي غرف الأكل ونجعل الرئاسة في يد أحد أبناء المنطقة الذين هم في الفصول المتقدمة ولا انسي أن كان رئـــيس غـــرفة النوم من أبناء القطينة وهو شايب احمد رحمة الله كان طيب القلب حسن الأخلاق متمسكاً بدينه تدل ملامحه على الصلاح والتقوى وكان محبوباً بيننا وبين زملائه .

وكـــان جـــدول الدراسة على النحو التالي الشيخ احمد عثمان القاضي اللغة العربية وما يتبعها والأستاذ محمد الحسن دياب اللغة الإنجليزية الأستاذ القرضاوي

الرياضيات وهو مصري الجنسية البدوي عمر الدين علم الجغرافيا.

وكـــنت لا أجد فارقاً كبيراً بين مقررات السنة الثالثة الأولية وبين مقررات الســـنة الأولى الابتدائية إلا بالنذر اليسير إذا استثنينا اللغة الإنجليزية هي الوحيدة التي أدخلت حديثاً على البرنامج ولم تواجهنا أي صعوبات في التحصيل طيلة سني الابتدائية الأربع .

أما من ناحية الأكل فكان رديئاً وكانت الكسرة التي تصنع بأيد نساء سودانيات ومن الفترية كانت سوداء اللون كأنها الخيش وتتفتت بمجرد أن تمسها يد أما أدامها الذي كان يقوم بصنعه العم عبد الحميد ليس أحسن حالاً من الكسرة لا طعم له ولا معني له ولديه من الجفان عدداً وفي جوانبها مواسير المياه التي يملأ منها الجرادل ليملأ ذلـــك الفراغ دون اعتبار للون أو طعم رغم توفر الخضر بأنواعها وكان خيار أم خيـــر هـــو الفول المصري(31) الذي يقدم في وجبة الإفطار بالتناوب مع العدس ويخلـــل بقية الوجبات اليومية ولكن هناك حالات يقررها الطبيب المختص في حالة اعـــتلال صـــحة بعض الطلبة فيمنح غذاء خاص من لبن وعسل نحل عقب وجبتي الإفطـــار والعشـــاء كمـــا دأبت سلطات المدرسة اثناء الدراسة وبعد الحصة الثانية إعطـــاء الطالـــب الداخلي ستة بلحات وعشرة للطالب الخارجي وكنا رغم شعورنا برداءة الطعام لم يؤثر على سلوكنا الدراسي لأن كلمة إضراب لم توجد في قاموس الطلبة آنذاك ولكن كنا نستعين بالعمة أم الحسن بائعة السلطة والطعمية التي جعلت ظل الأشجار الواقعة على شاطئ النيل الأزرق أمام البوابة الشمالية محلاً لتجارتها عـــلاوة علـــى ما يمدنا به الأهلون من مقاطف الآبري وصفائح الكعك وزجاجات الســـمن مـــا نسد به النقص وكان شعارنا في تلك الأيام (جئنا لنتعلم لا لنأكل) وفي خـــروجنا أيـــام العطلات إلى ذوينا في أمد رمان وخلافها خير متنفس لنا لتقضيتها بيـــنهم و لا أنســـي فضـــلهم وإحسانهم علينا طيلة سني الدراسة وأسأل لهم الأجر والثواب عند الله جل وعلا. ورغم تقادم العهد ومرور السنين لا أنسي حادث رجل يتبعـــنا عـــندما ركبـــنا التـــرماي من إحدى محطاته بأمد رمان وكان وقوده الفحم

الحجــري في آخر دور وكان يجر خلفه مركبتين إحداهما الأولي وهي مخصصة لكــبار الموظفين والأغنياء وذوى الجاه والسلطات أما الأخرى وهي الدرجة الثالثة فلعامـــة الشــعب والطلبة طبعاً من بينهم بعد أن تركنا المعدية البخارية التي كانت تربط طرفي العاصمة وأخذنا الترماي الذي كان ينتظرنا على الشاطئ في الخرطوم وألقي مراسيه في المحطة الوسطي فوجدناها خالية من المواصلات التي كانت ذات شقين أما الدوكار الذي تجره الخيل أو الحمار الذي يتبعه صاحبه جرياً على الأقدام وهــو يرتدي قميصاً وسروالاً من الزراق وهو اللبس المميز له فلم نجد لا هذا ولا ذاك مما اضــطرنا علــى السير بالأقدام وقد قاربت الساعة العاشرة ليلاً وكانت الخــرطوم في تلك الأيام متفرقة المباني كثيرة الرمال كلما اتجهت شرقاً نحو موقع الكلية وكنت وصاحبي نحمل مقطفاً فيها شئ من الكعك وشئ من الآبري ترقد بينها ثلاث زجاجات من سمن كنا نمشي وكل منا ممسك بعروة وهي تتأرجح بيننا وبينما نحن نسير لفت نظري رجل يمشي خلفنا يدنو منا تارة ويتخلف تارة أخرى شعرت بهــذه الحركة منه غير اعتيادية فهمست في أذن صاحبي وأسررت إن هذا الرجل يضــمر لنا شراً ومن حركاته وتتبعه لنا يدل أنه ذا مطمع في هذا المقطف وأخشى أن يهاجمنا عند تلك الأماكن الخالية قبل وصولنا لمدخل الكلية ظناً منه إنها تحتوى على أشياء ثمينة فلابد أن نلجأ إلى الحيلة ونوهمه إننا نقصد بُري لأن المنطقة بعد الجيش الإنجليزي وثكناته منطقة خالية تماماً ومن أخطر مناطق العاصمة وسيؤجل مــا يدور بخلده ويؤجل من تنفيذ رغبته حتى نصل إلى تلك البقعة الخالية وما أن شــعرت بقــربه منا مما يمكنه من سماع ما أقول قلت مخاطباً زميلي يبدو إنك قد تعــبت فشد حيلك بُري لا زالت بعيدة رد على لن يصيبي شئ من التعب وسنصل بُــري إن شــاء ا لله . ســمع هذا الحوار الذي دار وارتاحت نفسه قليلاً فأصبحت الفرصة أمامه مواتية وما أن تخطينا منطقة الخطر وإقتربنا من باب الداخلية الذي يقــوم بحراسته خفير يسهر طول الليل وهو يجلس على مقعد كنا نميل شيئاً فشيئاً نحو طرف الشارع حتى وصلنا الباب ناديناه بصوت واحد مع السلامة يا عم فوقف

مبهوتاً وهو يضرب أخماس بأعشار ورد علينا قائلاً (عرفتوها يا أولاد ...) .

شعرت السلطات بعدم إقبال الطلبة على تناول الكسرة مما جعل بعض الطلبة الذين لم تسمح حالتهم المالية بزيارة العمة أم الحسن يومياً يشكون من سوء التغذية حتـــى ظهر جلياً في صحتهم فاستبدلتها بالجراية(32) التي كانت تصنع في ثكنات الجيش المصري بالخرطوم فجاءت كقول الشاعر :

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

فكانـــت أسوأ حالاً من سابقتها تفتحها فتجد في باطنها خيوط من الخيش تجد أنـــواع من الحصى وقد تعبت سلطات الكلية لإيجاد حل لهذه المشكلة تقدم الأستاذ ســيحة الذي كان أحد المدرسين بالكلية الذين استوطنوا الخرطوم يملك طابونة في قلب الخرطوم وتقدم بطلب للسماح له بمد الطلبة برغيف أبيض مصنوع من الدقيق الأسترالي النظيف فوجدت السلطات الحل ووافقت وبدأ يمدها بأحسن رغيف وبذلك انفرجت الأزمة وتحسنت الأحوال .

كـــان التعصب الإقليمي بين الطلبة ظاهرة مميزة لا تعصب قبلي خصوصاً بين طلبة النيل الأبيض القطينة الدويم والكوة لما تربطهم من صلة القربى بعدت أم قـــربت وكـــنا نـــتعامل كأسرة واحدة سواء كان منهم من هو في قسم العرفاء كما يســـمونه في ذلك الحين أو من هم في الابتدائية وكان عندما يحين السفر في إحدى العطلتـــين تجتمع كل بلد ونذهب إلى السوق ونشترى بعض ما نحتاج إليه من زاد وبعـــض الهـــدايا للأخـــوة الصغار وفي أحد الأيام وأمام دكان أخوان ليمنيوس في طـــرف مـــيدان المحطة الوسطي بالخرطوم خرجنا من الدكان وكل ممسك بيده ما اشـــتراه مـــن معلبات ما يكفي لهذه الرحلة التي تستغرق يومين ونصف اليوم على ظهـــر الباخـــرة (كايرو) التي كان خط سيرها على النيل الأبيض ينتهي عند مدينة كوســتي بعدها تعود إلى الخرطوم وقد عرفتنا وعرفناها وربطنا صداقات بالريس والبحارة لتعدد السفريات التي تقلنا وقد ناهز الوقت الثامنة مساء فإذا برجل بوليس يعتـــرض طـــريقنا وفي فضول بدأ يسأل عن سبب تجمهرنا وتواجدنا في مثل هذه

الساعة في الأسواق أجبنا طلبة مسافرون فلم يقنعه هذا الرد وبدأ يفوه بكلمات شعرنا منها نوع من الاستفزاز فتصدى له أحد الطلبة الكبار وانتزع صفارته وقذف بها إلى رأس البناية وهي سلاحه الوحيد يستنجد به إذا اعتراه خطب بعد ذلك إلتف الطلبة حوله أشبعوه ضرباً ولكماً وهو يستغيث مما جعل أصحاب المتجر وهم من أصل يوناني وطلبوا النجدة وتجمعت قوة من البوليس وأحاطوا بنا وقادونا نحو نقطة البوليس وجاء الحكمدار وأخذ يتحري في الأمر فأصدر حكمه بستة جلدات على كل طالب وكنا أمام أحد خيارين إما أن نتأخر عن السفر لنستأنف الحكم أو نرضي فاتفق الرأي بقبول مبدأ الحكم إما التنفيذ يجب أن يكون بواسطة سلطات المدرسة . أخذت هذه النقطة زمناً طويلاً فهو يصر على التنفيذ فوراً ونحن نرفض . وكان البوليس قد أعد رزمة من جريد النخل لتنفيذ العقاب وهم يحملون في نفسهم حب الإنتقام وأخيراً اتصل الحكمدار تلفونياً فوجد فيها مستر وليامز واتفق الاثنان على إرسال الطلبة للداخلية فخرجنا بعد أن تركنا المرارة في حلق البوليس الذي كان يبيت الإنتقام . أما البوليس سبب المشاجرة ظهر وهو ممزق الثياب وقد فقد صفارته وعمامته وقد حكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة ثلاثة أيام لسوء التصرف مع طلبة صغار السن أخذنا طريقنا نحو الداخلية من غير حراسة وما وصلنا باب الداخلية حتى وجدنا من ينتظرنا على الباب يدعونا للمثول أمام المستر وليامز فوجدناه في مكتبه والصول يقف بجانبه ممسكاً بيده (التيلة) ذات الأفرع الستة المعقدة الوسط والأطراف فقابلنا الصعاب بفرحة الانتصار على سلطات البوليس وايدنا في تصرفنا هذا مستر وليامز نفسه وأثني على رفضنا هذا وتمسكنا بحق سلطات المدرسة في كل ما يتعلق بشئون الطالب فوقع التنفيذ ولكن أقول وبكل صراحة بأن الجروح التى سببتها عقد التيلة كانت تقطر دماً وكان الصول قاسياً ودون ما شفقة أو رحمة .

بعد ذلك تتابعت الدفعات المقبولة أمثال عوض الله عبد الله عليه رحمة الله قسم العرفاء تلاه بعد ذلك الأستاذ بابكر علي وزكريا إبراهيم رحمهم الله ثم إبراهيم

مصطفي الذي لم يستمر في الدراسة كثيراً ثم الأستاذ ميرغني حمزة أطال الله عمره فهو آخر من جمعتنا بهم تلك الأم الرؤوم .

الأستاذ احمد عثمان القاضي

مـــرت سنوات الدراسة الخمسة التي قضيتها في كلية غردون وتلقيت العلوم فـــي أثـــنائها على يد كثيراً من المعلمين مع إختلاف أجناسهم أجانباً وسودانيين لم أعجب بواحد منهم كإعجابي بهذا الرجل ومعلماً أخراً هو الأستاذ القرضاوي الذي سأفرد له بعض السطور عليّ أعطيه حقه .

كـــان الأستاذ أحمد من الرعيل الأول من السودانيين الذين نالوا ثقافة عالية أهلـــتهم ليختاروا للتدريس في كلية غردون منذ افتتاحها أمثال الأستاذ عبد الرحيم حامد وعمر اسحق وغيرهم وكان الأستاذ أحمد نسيج وحده أديباً عالماً رزيناً عاقلاً مطلعاً شجاعاً لا يخشى بريطانياً مهما كانت مكانته ولا يهاب مصرياً . كان مدرساً للغـــة العربية وما رأيته يوماً إلا وفي يمناه عصاه وفي يسراه كتاباً وله طريقته في الـــتدريس وأسلوبه المميز في تهيئة الطالب ليستوعب درسه وتتسع مداركه بطريقة ناجحة وسليمة بعيدة كل البعد عن الهزل الضار بالأخلاق كان يخصص جزءاً من زمـــن الحصـــة ليدخل مع الطلبة في دردشة أدبية بعد أن نفرغ من تسميع الدرس المقـــرر وكـــان الطلبة يبذلون قصارى جهدهم لحفظ وتسميع ما هو مناط بنا وفي أســـرع فرصة لنتفرغ للدردشة وهذه الدردشة لا تخرج عن الدرس والتحصيل مما يـــزيد مـــن معلومات الطالب في مجال اللغة العربية لكنها بطريقة فكاهية تتخللها النكـــتة وبعض النوادر المضحكة فيقول مثلاً من منكم يحفظ بيتاً أو بيتين من شعر الحاردلـــو فـــي وصـــف البطانة وكان من بين الطلبة أبناء رفاعة موطن الحاردلو ويحفظـــون له من الشعر الكثير أمثال محمد طه الفكي وعبد الله حمد رحمهما الله فـــيقدم أحـــدهم لـــيقول شيئاً من ذلك يطرحها للمناقشة وإظهار معانيها وما يقصده ويتـــناولون البطانة من حيث جمال الطبيعة ومسرح غزلانها وهو يستمع ثم يعقب علـــى ذلك فيأتي بالعجب وفي الحصة التي تليها يقول من منكم يأتي ببيت أو بيتين

من شعر عمر بن أبي ربيعه مما ضمنه شعره من مواقف غزلية يصف واقعة من مـواقفه مـع النسـاء وبعد الاستماع لآراء الطلبة يجئ دوره ليضيف الكثير وفي إسهاب غير ما القوا من معاني الكلمات ومدلولاتها التي لم تصل إليها مدارك طالب ناشـئ وبهـذا الأسلوب خلق نوع من التآلف بينه وبين طلبته وفي حدود غاية من الأدب والاحترام.

وكـان رحب الصدر ما رأيته غضب غضبة أخرجته عن طوره إلا عندما يلفـت نظره أحد الطلبة إلى وجود الناظر وكان مصرياً يسترق السمع خلف النافذة فصـاح فيه قائلاً أي على الطالب مالي وللناظر أو المدير إن جاء متخفياً أو دخل علانـية الفصل لن أغير ما أنا عليه وإني سأبعدك من الحصة إذا عدت لمثل ذلك فانسحب الناظر وبعد الحصة أرسل إليه وإعتذر لما بدر منه.

ومن شجاعته والاعتزاز بجعليته قوله يوم أن تمت ترقية بعض أقرانه عندما بـدأ نظام العمل بالدرجات وتأخر دوره وكان على رأس لجنة الترقيات نائب مدير المعارف المستر هيسي وبعد ظهور الكشف لم يجد اسمه ضمن المترقين وفي اليوم التالـي قدم استقالته وما أن وقعت الاستقالة في يد المستر هيسي وهو المسئول عن شـئون الموظفـين طلـب مقابلته فجاء وأخذ يشير عليه عن العدول عن الاستقالة وأعطاه وعداً بأن تكون ترقيته في القريب العاجل وهو يأبى وأخيراً قال له المستر هيسي مؤكداً له صدق نيته (أعدك بشرف بريطانيا العظمى بعد ستة أشهر سألحقك بأقرانك) فكان جوابه (وشرف الجعليين لا أنتظر ولو ست ساعات والسلام عليكم) أخذ عصاه وتركه في حيرته(33) .

وبعد أيام التحق بالسلك القضائي الشرعي وعين قاضياً لمدينة الفاشر أو أحد مراكـزها وكان كاتبه من مواطني حي المسالمة بأمد رمان وفي مرة وقع في خطأ فـي قضـية ميراث معقدة وحكم فيها بما رآه مناسباً للشريعة ولكن عندما وصلت صورة الأوراق مكتب رئيس القضاة رأى غير ذلك ووجهه ولفت نظره فما كان من الأسـتاذ أحمـد إلا أن أرسل برقية لرئيس القضاة يقول فيها معتذراً أما أنا فحديث

عهـد بالقضـاء والكاتب حديث عهد بالإسلام وكانت قوله تناقلتها الأفواه في جميع أوساط القضاء كأحسن عبارة جاءت في الاعتذار على مدي تاريخ القضاء.

وكـان رحمـه الله يمتاز بسرعة البديهة ويحب النكتة مع سلاطة في اللسان ومما يحكـي عنه وهو جالس في معدية أمد رمان وهي تعبر النهر نحو الشاطئ الآخـر جمعـته الصدفة مع صديق له لم يره طويلاً فأخذ يعاتبه على عدم زيارته ويصـف هذا التغيير الذي طرأ عليه مما أنساه حتى أصدقاءه وفي كلمات جارحة وكـان من بين الجلوس شاباً أنيقاً يرتدى الزي الإفرنجي تبدو علي ملامحه التكبر يخـتال في مشيته وهو خريج كلية غردون وهذا الغرور والتكبر لم يرض الأستاذ وكـان والـد الشـاب يتخذ من الحلاقة مهنة له وفي أثناء العتاب تدخل الشاب في فضول في أمر لا يعنيه فغاظ ذلك الأستاذ وقصد أن يعطيه درساً في الأخلاق عندما قال الشاب مخاطباً الأستاذ (ما هذه الكلمات الحادة يا أستاذ) فأجابه على الفور(أهي واحدة من أمواس أبوك) فضحك الجميع أما الشاب فقد ذاب خجلاً وتقلص في بدلته من هذه الإهانة التي لحقت به.

الأستاذ القرضاوي

كـنت قد أعطيت وعداً بأن أكتب نبذة قصيرة عن الأستاذ القرضاوي فوفاء بمـا وعدت فالقرضاوي هو اسمه الثاني الذي اشتهر به منذ أن وطأت قدماه أرض السـودان أمـا اسـمه الأول فقد طغى عليه هذا الإسم فأودعه زوايا النسيان وهو مصـري الجنسـية مـربوع القامة يميل إلى الطول ممتلئ الجسم عريض الوجه والكتفـين أبيض اللون كث الشعر أسوده يعقص شاربه ويقوسه على طريقة الملك فؤاد ، حازم لا يتكلم إلا إذا سئل لا يمزح ولا يقول النكتة وإذا جلس في الاستراحة المخصصـة للمدرسـين أخـذ مقعداً جانبياً يسد فراغه بالقراءة من كتب ومجلات وجرائد مصرية لا يتكلم كثيراً إلا في الدرس وكان محبوباً بين الطلبة لعلمه الغزير وملكـته الغزيرة وكان يحب طلبته خصوصاً الطالب الذي يقول يا أفندي أنا موش فاهم فيقبل عليه بكليته حتى يقول فهمت وله موقفاً لا أنساه ففي إمتحان الفترة الذي

يســبق العطلــة جاء الأستاذان رياض أفندي وناظر المدرسة الابتدائية وبأياديهما رزمــة مــن الورق وزع على الطلبة وجئ بورقة الامتحان التي تحتوي على ستة مسائل على الطالب أن يحل خمسة منها وكان من بينها مسألة رغم قلة كلماتها لكنها معقــدة الحــل وكان الأستاذان يقومان بمهمة الرقابة فوقف أحد الطلبة وقال يريد شرحاً لهذه المسألة وتبعه آخرون فما استطاعا أن يقنعوا الطلبة فقال الأستاذ رياض يــبدو إن هذه المسألة بها غلط في أصل التركيب واقتنع الناظر بهذا الرأي وأرسل الساعي في طلب القرضاوي فجاء يمشي الهوينى دخل الفصل فبادره الناظر ليأخذ زمام المبادرة يا أستاذ المسالة نمرة كذا بها غلط في أصل تركيبها فقال له من قال ذلك قال أنا ، قال له في شئ من الاعتزاز (وأنت آيه) فغضب الناظر غضباً شديداً لهــذه الإهانــة التي لحقت به وعلى مسمع من الطلبة فناداه قائلاً الساعة عشرة أنا عايزك في المكتب فلم يرد عليه واتجه نحو الطلبة وبدأ يشرح المسألة المعنية وما أن أتــم شرحها حتى انكب كل طالب على ورقته وخرج من الغرفة مرفوع الرأس موفــور الكرامة وعاد إلى غرفة المدرسين المجاورة لمكتب الناظر وعندما حانت الساعة العاشرة توجه نحو مكتب الناظر وفتح الباب وأغلقه بشدة ووجدهما الاثنان ينتظــرانه فما أن رآهما حتى ثارت حفيظته وأمسك بكرسي من الخيزران ورفعه وأسرع نحو الناظر ولما تبين لهما سوء نيته قفز كل واحد منهما من النافذة وبسبب ثقــل جسمه لم يستطع القفز وراءهما وبقي مكانه برهة يسيرة ثم خرج من المكتب وأخــذ مجلســه في غرفة المدرسين لا يتكلم ولا يكلم ولا أدري بعد ذلك ما حصل لأنــنا بعد الفراغ من الامتحان بدأت العطلة وشغلتنا مسألة السفر ولكن بعد العودة من العطلة واستئناف الدراسة علمنا أن الأمر قد سوى بينهم عن طريق المصالحة .

الحراسة ليلاً :

لــدى ســلطات الداخلية جهازاً دقيقاً يكشف عن غياب الخفير أو نومه أثناء تأديــة واجبه في الحراسة الليلية التي تفرض عليه المراقبة الشديدة وأي تهاون منه يظهر على هذا الجهاز ولو بقدر دقيقة واحدة وهذا الجهاز تحت ساعة الحائط التي

تـــدور بواسطة التيار الكهربائي وهذا النوع من الساعات موزع على جميع مناطق السكن والأماكن التي تحتاج إلى حراسة ويكون هذا الجهاز تحت الساعة ليكون في متــناول يـــد الخفير وهو عبارة عن علبة من النحاس ولها قفل ومفتاح بيد الضابط النوبتجـــي وله ورقة مرقومة كأرقام الساعة تماماً منقوبة الوسط تثبت الورقة على عمود في وسط العلبة وعلى سطح قفل العلبة زمبرك بارز مركب على ياي ليضغط كـــل ربـــع ساعة فتخرم عليه الورقة الدائرة مع الساعة هكذا إلى الصباح ويجمعها الضابط ويعيد ملاحظته فيها بان يرى موقع كل ثقب هل هو في مكان الربع الساعة تمامـــاً أم لا ولو غفل دقيقة واحدة ظهر على سطح الورقة وكان هذا الجهاز يمثل المراقبة الدقيقة لنوم الحراس وغفلتهم أثناء تأدية واجبهم في الحراسة .

نائب المأمور المغرور

أول مـــا يشعر به الطالب وهو عائد من الكلية ليقضي فترة العطلة بين أهله وعشيرته أول ما يشعر به هو الاحترام والتقدير من كل الطبقات فكانت كلمة طالب بمـــثابة جـــواز ســـفر تدخل به كل قلب فتي أو فتاة كان محل النظر تجد ذلك في الحفلات التي تقام بمناسبة زواج أو ختان ولم يصيبنا شئ من الغرور يوماً على ما نجد بل كنا كأبناء عمومتنا نسير بينهم ونساعد أهلنا في مزارعهم ونساعد الآخرين كلمـــا طلب منا ذلك وما تعرضنا لإساءة من الحاكمين بريطانيين كانوا أم مصريين وبـــدأت سياســـة الحكـــومة تتغيـــر بإدخال عنصر جديد في الإدارة باختيار بعض الســـودانيين وإدخـــالهم مدرســـة نواب المأمير وكلما وجدوا من الكفاءة السودانية استغنوا عن المصري وكان الاختيار٩ قاصراً على بعض البيوتات من سادة ورؤساء القـــبائل وزعماء العشائر الموالين للحكومة البريطانية فكان من بين المتخرجين من هـــذه المدرسة شاباً مغروراً يمت بصلة القرابة إلى أحد السادة وزعيم لطائفة وكان هـــو الوســـيط لنيل هذا الشرف وجاءنا منقولاً من أحد مراكز النيل الأبيض ليملأ وظيفة نائب مأمور فكان من أبرز سماته العنجهية والغطرسة ومما ساعده على ذلك وجـــود طائفة من اتباع هذا السيد فأعطوه من الإحترام والتجله مما زاد في غروره

وفـــي أثناء غيبة المفتش في إجازته السنوية آلت إليه السلطة فأول ما قام به أعلن حظـــر التجول من الساعة العاشرة مساء حتى الرابعة صباحاً دون مبرر في الوقت الـــذي أوصوا كل المفتشين السابقين وفي تقارير سنوية بالا يتعرض أي حاكم لمثل ذلك مشيدين بهدوء الأحوال وطيبة نفوس الأهالي وزد على ذلك الأمن والاستقرار لكن إذا وقع القدر عمي البصر ففرض حظر التجول وضاقت به نفوس الناس وهم أهل مزارع ومواشي يحتم عليهم هذا العمل بالتجول طول الليل إما بحثاً عن ضآلة أو أن تتعـــرض مزارعهم للسوائم وكنا طلبة وشباب البلد لا نمتثل لهذا الأمر الذي نـــراه غير قانوني وكنا نقضي معظم الليل ننتشر في الشوارع نقوم باللعب فغاظه ذلـــك وجاء يوماً تتبعه شلة من الخفر بصحبة شيخ المدينة وكان رجلاً كبير السن وهو الشيخ الأمين كابوس الذي لفت نظره وحذره من مغبة عمله هذا بعد أن أشار إلـــيه بأن المستر أبوسن(34) قد منع مثل هذا الإجراء ونبه كل المفتشين الذين أتوا مـــن بعده ولم يشذ منهم أحد وكان مستر أبوسن هذا رجلاً طيب القلب رحيماً حكم المـــنطقة منذ عام 1913 وكانت له مواقف كريمة عندما حلت المجاعة وعمت كل مراكـــز السودان في 1914 وكان شديدة الوطأة على السكان وكانت المعونات من الدول الأجنبية تصل تباعاً لتخفيف وطأة المجاعة وكان مستر أبوسن لا يهدأ له بال ولا تـــنام عينيه إلا إذا رأى البسمة على شفاه الناس وكان يتابع بنفسه وصول هذه المعـــونات ليأخذ للبلدة نصيبها ولكل القرى المجاورة وكانت مجاعة بحق فكان له بين سكان الكوه والقرى صفة الأب الرحيم يجوع ليأكل أبناءه وكان يبذل من جيبه الخـــاص ما يساعد به بعض الأسر الفقيرة حتى انقشعت تلك السحب السوداء عن ســـماء الســـودان بحلـــول العام الجديد جاء بوفرة في المحاصيل ونمو في الثروة الحيوانـــية فانفـــرجت الضائقة ولطول إقامة المستر أبوسن ودراسته للمنطقة كتب تقريـــره عمل به ممن خلفوه كأمثال المستر برجس رغم ما شاع بأنه صديقاً حميماً للبـــرنس أوف ويلز حيث درس معه في بعض الجامعات رغم ذلك مشي على أثر صاحبه بعد أن لمس بيده وعرف الكثير من أخلاق الأهالي وطبائعهم وكان شارع

المدينة لا ينام ولا يخلو من المارة مما لا يترك فرصة للص أن يدخل بيتاً ! ويسوق حيواناً إلى مطلع الفجر لم يستجب السيد نائب المأمور لنصيحة الشيخ وزين له غروره بقلب الأوضاع رأساً على عقب . جاء كما قلت بالخفراء ونحن في غفلة نلعب ونتجارى في الشارع فإذا بأحد الخفراء يلقي القبض على واحد منا وما أن شعرنا بوجود النائب بيننا حتى تفرق الجمع وخلت الساحة واقتيد المقبوض عليه وسئل عن من كان معه فبدأ بسرد الأسماء وهو يكتب على ورقة أمامه إلى أن أتي على أخرهم وكنا نذهب إلى المزارع عند طلوع الشمس ونقضي سحابة النهار هناك ولما عدت في المساء وجدت العسكري ينتظرني واقتادني إلى ساحة المركز فوجدت جموع غفيرة من الرجال والنساء الذين جاءوا مع أولادهم ووجدت صفاً طويلاً من المطلوبين فوقفت بينهم وكان حضرة النائب يقف وفي يده سوطاً ولما أكتمل العقد ولم يتخلف أحد بدأ يسأل اسمك عمرك تشتغل إيه وبعد أن يجيب على تلك الأسئلة التقليدية يقول لك أما سمعت بأمر حظر التجول فمن يقول سمعت ومن يقول لم اسمع وفي كلتا الحالتين ينهال عليك السوط على ظهرك ويطلق سراحك وصل الدور إلى ابن أحد اتباع الطائفة التي كانت السبب لوصوله لهذه المرتبة وكان معروفاً لديه فأوقفه جانباً دون أن ينال عقاباً وهنا صاحت كل الجموع وأنكرت عليه هذا التمييز وكاد الجمع أن يأخذ بتلابيبه لولا أنه انسحب مسرعاً ودخل مكتبه وأغلقه عليه فانفض الجمع وهم في حالة هياج ولم يعتبر بما حدث ، وكان هذا القرار بمثابة صدمة في نفوسنا كطلبة وحد من نشاطنا وما نقوم به من إذكاء روح الوطنية ونحثهم على حفظ الأمن والنظام ولا نترك مجالاً لغريب و لا دخيل بالتجول في المدينة ليلاً يثنيه عرفه عن التخلي عن قراره بل تمادي في غيه وأراد أن يظهر بمظهر الشجاعة والقوة التي خذلته في ليلة البارحة حيث نجا بجلده وفر واعتصم بمكتبه شعر بأنه تصرف تصرفاً مشيناً لا يليق به . أنا أخذت نصيبي من العقاب ثلاث ضربات من سوط غليظ .

وجاءت الطامة الكبرى عندما التقي أثناء مروره برجلين من تجار الجنوب

الذين جاءوا لقضاء فترة الإجازة بين ذويهم فاستوقفهم وسأل الأول عن اسمه فقال محـــي الـــدين حمـــد وسأل الثاني قال عبد الرحيم السيد وأعاد عليهم نفس الشريط بحظـــر التجول وهددهم قائلاً انه تسامح معهم هذه المرة فلن يتسامح معهم إذا وما وقعوا في مثل هذه المخالفة فأجاب محي الدين وكان نحيل الجسم أجاب في سخرية ظاهرة حين رفع يده وضرب برجله الأرض في حركة عسكرية وقال حاضر فلعب مركب النقص دوره وشعر بأنها إهانة لا تليق بمقامه الكبير فأخذته الحماقة وصفعه على وجهه ولما شعر عبد الرحيم بما حل بصاحبه أسرع في نجدته ونصرته على الـــذي اســـتخف بهما ووثب عليه وكان قوى البنية مفتول العضلات وصرعه على الأرض وأمســـك بخـــناقه وتجمعـــت الناس وتقاطرت نحو مكان الحادث على أثر الضوضاء التي أثارها الذين كانوا بالقرب من المسرح وتدخل العقلاء من الناس لما وجـــدوه فـــي حالـــة يرثي لها ففرقوا بينهم وقادوه حتى وصل مأمنه ودخل نقطة البولـــيس أمـــرهم بالقـــبض عليهم ولما وصلوا المكان وجدوه خالياً من أي إنسان ورجعوا وأخبروه الخبر وأرسل في الصباح الباكر وأودعهم الحراسة وبدأ التحقيق معهـــم وهو في حالة نفسية سيئة بما لحقته من إهانة وما أصابه من أذى وكنت أنا ممن شهدوا الحادث وكنت أجيئهم بالطعام والقهوة والشاي على طول اليوم فناداني وهو في مكتبه فلما وقفت أمامه فتح درج وأخرج مسدساً أخذ يعبث به بين أصابعه ويلـــوح بـــه في الهواء وكان يريد بذلك تخويفي وقد فاته إني قد مارست استعمال الأســـلحة الـــنارية أكثـــر مما مارسها هو وقال لي إذا لم تمتنع عن إحضار القهوة والشـــاي والسيجار فسترى ما يحل بك قلت تقتلني بهذا المسدس قال لا بل سيكون عقابـــك الجلد قلت ليس فيها ما يخيف لأن هذا النوع من العقاب قد لقينا الكثير منه ونحن طلبه ولم الق بالاً لقوله وكنت أجئ كالعادة . اكتملت إجراءات القضية وكان قد بلغ مفتش الدويم هاتفياً بالحادث ووعده الحضور للنظر فيها . جاء المفتش بأحد وابورات المديرية ودخل المكتب وخرجت المدينة عن بكرة أبيها وفي شكل مظاهرة تـــنادى بالعـــدل ومحاكمة الجاني فخرج المفتش لمقابلتهم وطيب خاطرهم وأمرهم

بالهـدوء وتجـنب الضوضـاء حتى يجد الفرصة والجو الملائم للنظر في القضية فجلسوا على الأرض نساء ورجال فلم تستغرق المحكمة زمناً طويلاً وأصدر حكمه ببـراءة المتهمـين وإدانـة النائب وجاء في حيثيات الحكم التي تلاها على رؤوس الأشهاد بأن حضرة النائب كان يعلم تمام العلم من التقارير التي كتبت بأيد مسئولة وهي بين يديه ومطلع عليها والذي جاء فيها إن مدينة الكوة لا يوجد بها ما يستحق عمـل دوريات تجوب الشوارع أو أن تمنع الأهالي عن الطواف في الطرقات وفي ذلـك الكفاية ما يقنع النائب عن فرض حظر التجول كما انه أضاع وقتاً طويلاً من زمن الحكومة في قضية لا تساوى قيمة الورق الذي استنفذته وعليه اكتفت المحكمة بـنقله إلـى مركز آخر فصفق الجمهور تصفيقاً حاداً وما مرت فترة قصيرة حتى جاءت الأخبار عن إقصائه عن السلك الإداري.

سبب عدم مواصلتي للدراسة والقيام لملكال

بعـد أن أكملـت تعليمـي الابتدائي وانتقلت إلى السنة الأولى تجهيزي كما يسمونها في ذلك الحين وبعد رجوعنا من العطلة فوجئت باختياري مع طلبة آخرين لأعمـل بمصلحة البريد والبرق فاعترضت وتبعني آخر أبديت الرغبة في مواصلة الدراسة حتى النهاية ولكن سلطات المدرسة أصرت على موقفها وعدم الرجوع عن قـرارها ومـن هنا يجب أن نعرف السبب لهذا الاختيار وأنا أقول صادقاً كان ذلك نتـيجة إهمـال من جانبي وعدم تقدير وليس سببه رسوب في مادة أو سوء أخلاق وكـان لسـبب واحد لما كان عدد الطلبة الناجحين من المدارس الابتدائية الأخرى كبيراً اضطرت سلطات الكلية لفتح نهر إضافي ولأول مرة في تاريخها ليستوعب كـل الناجحين من الطلبة مع تبييت النية على أن يقتصر على نهر واحد في العام المقـبل كـل ذلك كان يجري في تكتم شديد لا يعلمه أحد أخفيت الفكرة حتى عن القائمين بأمر التدريس من السودانيين ، جاءت العطلة الصيفية وفي آخر يوم دخل عليـنا الفصل المستر وليامز مدرس اللغة الإنجليزية وهو يحمل رزمة من الكتب عـبارة عـن رواية لم تسعفي الذاكرة باسمها أعطي كل طالب كتاباً منها لكل من

الفصــلين وقال يمكنكم قرأتها اثناء العطلة ولم يزد على ذلك وكانت حيلة لم نفطن إليها . وانقضت أيام العطلة ونحن لم نفتح الكتاب إلا نادراً وشغلنا اللعب والزراعة وممارســة الصــيد عن القراءة حتى عن مراجعة الدروس التي تلقيناها في الفترة معــتمدين على ثقتنا واجتياز الامتحان مهما كانت درجة صعوبته دون كبير عناء وبعــد فتح المدرسة بيومين دخل علينا المستر وليامز وهو يحمل كمية من الورق وأعطى كل طالب ورقة وقال اكتب باختصار كل ما قرأته عن أحداث هذه الرواية واسقط في أيدينا ونحن لم نكمل قرأتها فكانت نتيجة لذلك أن وزع كل من لم يجتاز الامــتحان مصــلحتي البريد والبرق ومصلحة الأشغال قسم المياه والكهرباء كقراء عــدادات أما نحن الذين تم اختيارنا إلى مصلحة البريد والبرق قسمونا إلى نصفين كــبار في السن وصغار فالكبار اختيروا لدراسة قسم البوستة فقط أما الصغار وأنا مــنهم اختيــروا للبوستة والتلغراف معاً وقد ساورني الندم على ما فرطت وأخيراً تقــبلت النتــيجة وقلــت علــى نفسها جنت براقش ولسبب عدم رغبتي في العمل الحكومــي أياً كان نوعه بعد أن حرمت من مواصلة الدراسة التي كانت هي هدفي الأول والأخيــر . آثــرت الاســتقالة(35) والانضــمام لأبى كي أساعده في عمله الــتجاري في أماكن مختلفة من مديريتي أعالي النيل وجبال النوبة وكتبت إلى أبى في ذلك ووافق فبارحت الخرطوم مستقيلاً ومكثت بالكوة نحو شهرين حتى وصلتني بــرقية يطلــب فيها حضوري لملكال وكان السفر بالبواخر النيلية سفريات منتظمة مــرتين فــي الشهر ذهاباً ومثلها إياباً وعلى ظهر الوابور الظافر هي الباخرة التي أقلتنا من الكوة إلى ملكال . عندما ألقت الباخرة مراسيها في ميناء ملكال وجدت من ينتظرنــي علــى طــرف الميناء والسوق لا يبعد عنها إلا قليلاً وكانت كل مبانيها بالخشب المغطاة بالطين بطريقة بدائية لحداثة عهدها في هذا المكان منذ أن انتقلت من التوفيقية ولم يمض عليها إلا سبع سنوات أما دواوين الحكومة ومقر البريطانيين فهي مشيدة بالطوب الأحمر كما إن بها مستشفى كبير مشيد بالطوب الأحمر .

ملكــال(36) مديــنة كبيــرة انتقلت لها رئاسة المديرية بعد أن كانت كدوك

مقســـمة إلى عدة أجزاء منها المديرية التي شيدت على ضفاف نهر النيل يجاورها منـــزل المدير والمركز وبقية منازل الموظفين البريطانيين أما الجيش يحتل الجزء الجنوبـــي مـــن المنطقة . أما السوق ومنازل التجار والمستشفى يعتبر في منتصف المديـــنة بعـــد ذلك تبتدئ منطقة الري المصري وهي من اجمل المناطق من حيث فخامـــة المباني وسعتها والميادين الخضراء والجناين ويمتد على محاذاة النيل حيث يقـــوم على شاطئه وابور لمد المنازل بمياه الشرب وضخ المياه للجناين والميادين ووابور يمد المنازل بالنور الكهربائي وشوارعه مسفلته ومضاءة بالنور الكهربائي طـــوال اللـــيل . أما منازله من الداخل فهي مهيأة بكل ما يحتاج الموظف من أعلى درجـــة إلـــى اقـــل ، مزودة بالسراير والفرش والأبسطة وأواني المطبخ كاملة إلى درجـــة الشـــوك والسكاكين وأطقم الشاي بأنواعها زد على ذلك فرّاش يقوم بخدمة الموظـــف وجنايني يقوم بالإشراف على الجنينة وموظف الري المصري لا يحتاج أن يحمـــل معه فراش أو خلافه إلا شنطة ملابس فقط ولكل موظف الحق في ثمر هذه الجناين تقسم مجاناً أو باشتراك شهري إسمي ويصل نصيب كل فرد إلى منزله عازبـــاً كـــان أم مـــتأهلاً وهـــي غنية بأنواع الفاكهة كالمانجو والأناناس والجوافة والقشـــطة والباباي والرمان والتوت وفواكه كثيرة أخرى كما أن الثلج يوزع مجاناً فـــي المكاتب والمنازل وفي حدائقها الكبيرة التي بمنزل مدير الري وهي جنة دانية القطوف يسير وسطها طائر الطاؤوس يمشي بينها متبختراً مزهواً يكور ريش ذيله فـــي شـــكل دائرة تبدو ألوانه الجميلة الزاهية وبعد فاصل قليل تبدأ الملكية وسكانها خلـــيط من كل الأجناس وسميت بهذا الاسم لان أول من سكنوها كانوا من الجنود القدامـــى ســـواء كـــان خدمتهم في الجيش المصري أو الجيش السوداني بلغوا سن الـــتقاعد أو الاستغناء عن خدماتهم وفي الاسم ما يوحي بتغير حياة الفرد منهم من حربي الى ملكي وهذا مصدر الاسم ثم جاورهم الكثير من الوافدين الذين طاب لهم العيش ومن مديريات أخري بعد ذلك منطقة البيطري وهي تقع أقصى الشمال هذه هي ملكال في وصف مجمل .

كان تجار ملكال ينقسموا إلى قسمين من حيث التجارة التي يمارسونها طائفة منهم أثروا حصر تجارتهم على ما يطلبه الأهالي من أنواع الحديد المصنع والخرز أو الدمورية والزراق والملح والتمباك وكل متطلبات الأهالي . أما الطبقة الثانية تميل في تجارتها بالتعامل مع الشماليين من الجيش والبوليس أو الملكية وجل مطالبهم من الملونات من ثياب ولزوم الفساتين والعطور غير أن هناك صفة مشتركة هي تخزين الذرة لوقت الخريف ولأكثر هذه الدكاكين فروع بين قرى الأهالي فوجدت أبي يميل إلى المعاملة مع الأهالي فأردت أن أجاريه في رغبته وسرت على هذا المنوال نحو سنة كاملة وفي أثنائها تمكنت من استخراج رخصة كوكيل تعتبر تصريح إقامة في المناطق المقفولة كما لي الحق بأن أمارس عمل تجاري في المناطق المجاورة وقرى الأهالي شعرت في أحد الأيام أن هناك نقصاً في الذرة والمدينة مقبلة إن لم تكن مجاعة فالي نقص حاد وعجز في الذرة بالنسبة للاستهلاك اليومي وكنا نملك مركباً متوسطة السعة ولها ريس ونوتي واحد وهي تتسع لنحو ستين جوالاً فاقترحت على الوالد بأن يأذن لي بأن استعمل هذه المركب لتجارة متنقلة وادخل بها الخيران . كخور فلوس(37) وهو خور يخترق اللاّو(38) في بلد النوير وتمده بالمياه بعض الروافد الصغيرة في زمن الخريف ويجري في أراضي الدينكا إلى أن يصب في نهر سوباط بالقرب من الكنيسة (دوليب هل)(39) فوافق على الفكرة وبعد يومين اثنين بارحت المدينة متخفياً متجهاً نحو فلوس وما أن وصلت أول قرية عند ملتقى النهرين حتى سمعت الأهالي تنادى ويلوحون بأيديهم ويطلبوا الوقوف فوقفنا وجاء شيخ القرية وكان رجلاً كبير السن يتوكأ على عصاه يرافقه بعضاً من أبنائه وسألنا عن نوع البضائع التي معنا وقال نحن في حاجة إلى كثير من هذه الأصناف وفي الصباح الباكر نفتح السوق قضينا الليلة ونحن في ضيافة الشيخ الذي قدم لنا خروفاً مكتنز اللحم والشحم وكنا ثلاثة فقط على ظهر المركب وكنت أنا أقوم بدور النوتي(40) المفقود في حالة الشحن والتفريغ وفي المدره والمجداف وكنت شاباً قوى وما أن أشرقت شمس الغد حتى

رأينا الشيخ يمشي أمام قافلة من النساء والرجال وهم يحملون الذرة فهيأنا مكاناً وفرشنا بعض الجوالات على أرض صلبة ولم تمر ساعات أي قبل مجيء العصر شعرنا أن الموجود لدينا يكفي لحمولة المركب وأوقفنا البيع فوعدناهم بالعودة بعد يومين فقط وقدمنا للشيخ بعض الهدايا التي سر بها فشحنا نصف الكمية كعادة الريسين ليعرف مدي احتمال النصف قبل أن يفاجأ بوجود ثقب في القاع يتسرب منه الماء داخل المركب فيصعب تفريغها من حمولتها دون أن نتعرض إلى بلل أو تلف وفي الصباح أودعنا البقية داخلها فأبحرنا نحو ملكال وكنا نسير على مهل حتى لا نصل قبل غروب الشمس بغرض خرجنا منها خلسة ندخلها خلسة وأدركنا المغيب بالقرب من الميناء وصلنا الميناء وقد أرخي الليل سدوله فلم نجد صعوبة في تفريغ المركب وترحيل ما بها إلى المخازن في نفس الليل بواسطة الحمالين ومع فتح السوق ربطنا بضاعتنا وحزمنا أمتعتنا ولما دنت عقارب الساعة من الثامنة مساء حتى رفعنا شراعها وأخذت تعبر عباب النهر دون أن يشعر بنا أحد من التجار وجدنا الأهالي يترقبون حضورنا وبنفس الطريقة تم شحن المركب ورجعنا بعد أن استغرقت الرحلة ثلاثة أيام ونحن نتواري عن أعين التجار خوفاً أن يتكشف الأمر ولكن صدق من قال :

ومهما تكن عند أمرئ من خليقة   وان خالها تخفي على الناس تعلم

وفي لحظة الاستعداد لسفرية أخري إذ دخل على في الدكان أحد أصدقاء أبي وطلب مني أن اسمح لأحد أبنائه لمرافقتي ليوفر لهم قليل من بعض الذرة ولو لاستعمالهم الخاص فوافقت من حيث المبدأ لكن هذه المركب صغيرة الحجم ولا تتحمل أن تقتسم حمولتها ولكن فلينتظر ليومين اثنين أعود من هناك وأستأجر له مركب لخاصته ويكون رفيقي في الرحلة المقبلة فوافق وكانت مياه الخور انخفضت أصبح لا يسمح بمرور المركب بحمولتها كاملة مع صغر حجمها وخفة وزنها وقد أوفيت بما وعدت حيث أجرت لرفيقي مركب من أحد التجار وبدأنا العمل سوياً نذهب ونعود سوياً حتى نهاية الموسم . كانت الأيام حبلي حقيقة وستلد كل عجيبة

ولكننا ما كنا نتوقع بان نجئ بها توائماً متتابعة وكلما ناء قيد جاء قيد حتى قلنا رب أيـن السفر . تواترت الأخبار التي مصدرها الري المصري التي تأتيه عن طريق الصـحف والمجـلات المصرية علاوة على الخطابات الخصوصية كل ذلك يصل تباعاً وتتسرب الأخبار وتناقلتها الألسن بأن جو العلاقات بين إنجلترا وبين الحكومة المصـرية بعـد أن ألـف الوفد الحكومة برئاسة سعد باشا ودخلت الحكومتان في مفاوضـات والتـي لـم تستمر طويلاً حتى منيت بالفشل وفي مسائل جوهرية كلا الحكومتـين وقـف موقـف المتشـدد وكانت النتيجة قفل باب المفاوضات ومسألة السـودان كانـت تسبب القصة الرئيسية بين المتفاوضين لما كانت قضية السودان المتـنازع علـيها لم يستشار عليها أحد من أبنائه وكان هذا الإهمال المتعمد حافزاً لبعض السودانيين للظهور في المسرح السياسي فانضموا إلى جمعية اللواء الأبيض وكان دورها معروفاً وشعرت حكومة السودان بالخطر المحدق بها من هذه الصحوة مـن أبناء السودان وخشيت أن تنتقل بدورها إلي السودان فتشعل الفتيل وتصل إلى برميل البارود فيتفجر وأسروا في أنفسهم أي البريطانيون على إنقاذ ما يمكن إنقاذه بـأن يعضـوا على الجنوب بالنواجذ وترك الجزء الشمالي وبدعوا يخططون لذلك وكان البكباشي صالح عبد الرحمن مصري الجنسية مأموراً لملكال خدم في السودان زمناً طويلاً وكانت علاقته بمدير المديرية المستر روفن علاقة صداقة حميمة وكان السـيد الجابـري رئـيس حسابات المديرية وهو مصري أيضاً قد عاد من إجازته ودخل على المأمور في مكتبه وأخذ يقص عليه الحالة المتوترة التي عمت كل أنحاء مصر وأن سعد باشا يسيطر على الموقف بما له من شعبية وكيف قامت المظاهرات وكـيف كانت الهتافات العدائية للإنجليز على أفواه الجماهير وهما في غفلتهم دخل علـيهم المفـتش وخاطبهم قائلاً بتقولوا إيه فقال له البكباشي لا ما فيش حاجة إنما السـيد جاء البارحة من مصر وهو يقص على مواقف سعد وتصرفاته مع الإنجليز فانـتفض الجابري واقفاً وقال والنبي ما قلت شئ من ذلك ولم أذكر سعد ولا غير سعد بس البكباشي صالح يريد المزاح فضحك المفتش وقال له البكباشي أنت خايف

ليه.حيعمل لك إيه وقال له يا حضرة المأمور بلاش هظار ولما خرج المفتش قال له يـــا حضرة المأمور أنت عايز تقطع عيشي أنت ما تعرف مكر الإنجليز ولو صح ذلك سيودوني في داهية هذه الواقعة حكاها البكباشي صالح بنفسه أمام الفكي عوض الله وسر تجار المدينة عمر عوض الله والوالد والتوم المتعارض في مجلس جمعهم بعد صلاة المغرب حيث إعتادوه يومياً ومن بينهم الجابري نفسه .

أطلـــت علينا سنة 1924م وجاءت مناسبة يحتفل بها الجيش سنوياً أما عيد الجلـــوس جلالـــة الملك أو عيد ميلاده قدمت الدعوات ووزعت الرقاع بين مصالح الحكومة المختلفة وللري المصري وللتجار وجاء اليوم الموعود وذهبنا إلى المكان المعـــد وكـــان الحفل جامعاً وقد حضره كل المفتشين العاملين في مراكز المديرية عـــلاوة على البريطانيين والمصريين العاملين بالري والمفتشين البيطريين وقمندان البولـــيس كان عدد البريطانيين كبيراً جداً وأخذوا مقاعدهم في الصف الأمامي أما نحـــن الـــتجار وبقـــية المدعوين فيمكن أن نجلس في أي مكان بعد الصف الأول المخصص للبريطانيين .

دخل الحفل ضابط برتبة يوزباشي هو فوزي نصر الدين إن لم تخني الذاكرة وشـــق طـــريقه نحو المنصة ووقف أمامها فعلا التصفيق الحاد من جميع الطبقات ورحـــب بالحاضرين وشكرهم على تلبية الدعوة واسترسل. تغيرت بعد ذلك النغمة وبـــدأ يســـب الاســـتعمار الـــذي يقـــف عقبة في سبيل تقدم الشعوب وأذلوا أبناءه واستضعفوا أهلها واستعبدوهم وسخروهم لمصلحة إمبراطوريتهم العجوز وأورثوهم الجـــوع والجهـــل والمرض فمتى يرحل هذا الكابوس عن أرض السودان ويتركوا السودان إلى أهله والتصفيق الحاد يقطع عليه حديثه وكانت الصدمة غير المتوقعة كـــان وقعهـــا قوياً مؤلماً(41) على كل الإنجليز فبدءوا يتسللون الواحد تلو الآخر تاركـــين الحفـــل ورأوهم أول من بارح الحفل سعادة المدير المستر روفن ثم تبعه الآخـــرون ولـــم ينتظر نهاية الكلمة قمندان البوليس الذي وضع أعصابه في ثلاجة وظـــل يستمع وقد إحمر وجهه ويبست شفتاه ولم يمس كوب المرطبات الذي أمامه

والشـــعور بالغيظ باد على وجهه وهو يتململ في كرسيه ولم يستطيع عمل شئ بعد نهايـــة الخطبة والتي كانت هي البداية والنهاية حيث ألغيت كل الكلمات التي كانت ســـتقال فـــي هذه المناسبة من السادة الإنجليز تقدم السيد قمدان البوليس وطلب منه الـــورقة التي تحوي هذا الكلام فرد عليه هل رأيت ورقة في يدي أقرأ منها ووضع ســـبابته في رأسه وقال له هي هنا وعلى إثرها إنفض الحفل قبل موعده وألغي ما تبقـــى من البرامج حيث كان يتضمن ليلة ساهرة والدلاليك والنقاقير التي جاء بها الأهالـــي علـــى إختلاف أجناسهم حملوها ورجعوا بها وكان حديث الناس وشغلهم الشاغل شجاعة هذا الرجل وتضحيته بمستقبله .

مـــنذ ذلـــك اليوم توترت الأحوال وإستقر رأيهم على تنفيذ مخططهم بفصل الجـــنوب وضمه إلى يوغندا التي تربطهما حدود مشتركة ولكن هناك عقبة تحول دون تنفيذ ذلك ألا وهي كثرة التجار المنبثين بين الأهالي في قراهم وغاباتهم ولكن لابـــد ممـــا ليس منه بد فحدث حادث لا صله له بالسياسة حيث تعرض شيخ حلة ناكديار وتقع شرق ملكال على نهر السوباط تعرض لحادث إغتيال على يد إبن أخيه للاســـتيلاء علـــى السلطة من بعده وكانا من العائلة المالكة وجدهم لأبيهم كان ملكاً علـــى الشلك وهذه حالات كثيرة الوقوع خصوصاً ما بين الشلك ومن أفراد العائلة المالكـــة وقـــد يـــذهب ضحيتها الملك المتوج نفسه ليتولى الحكم غيره ، كان القاتل يتـــربص بعمه المقتول منذ أمد بعيد فلم يجد فرصته إلا ذلك اليوم عندما كان أحد ثلاثة في مركب شروك عائداً من ملكال وكان القاتل يحمل سلاحاً نارياً وبينما تسير المركب على نهر السوباط الذي يسير في مجرى ضيق وما كان منه إلا وأن أطلق النار عليه ومن مسافة قريبة فأصابه إصابة مباشرة كانت القاضية وفر هارباً . فلما علمـــت الحكومة بالحادث أمرت مفتش الشلك بالقبض عليه وتقديمه للمحاكمة وبدأ الـــبحث عنه وبذل من الجهد ما بذل بغرض إلقاء القبض عليه فلم يستطع الوصول إلى غايته سبيلاً وفي يوم من الأيام نما إلي علمه انه موجوداً بين نسائه وأولاده في قريته فجهز قوته من البوليس المسلح بغرض فرض الحصار على القرية .

قـــد تزامن هذا الحادث مع حادث آخر حيث كان لأحد من التجار قطيع من البقــر تعرض لسرقة جزء منه ففتحوا بلاغاً بمركز البوليس وطلبوا من السلطات إعطاؤهم إذناً بالبحث عن الأبقار المسروقة بين قرى الأهالي وقد منحوا الإذن ولما كانــت ناكديار هذه تقع بالقرب من ملكال فضلوا البدء بها وركبوا مطاياهم إلى أن وصلوها فلم يعثروا على شئ ورجعوا في صباح اليوم التالي جاء المفتش وفرض الحصار على القرية في الرابعة صباحاً وطوقوا القرية وفتشت بيتاً بيتاً وأشعل النار فـــي بعــض القطاطي فخاب أمله فلم يجده فغضب المفتش غضباً شديداً لفشله في مهمــته وأخذ يبحث عن مبررات يتقي بها غضب سعادة المدير وسأل المفتش هل جـــاء إنسان غريب الى هذه القرية شلكاوي أو غير شلكاوى فأشاروا إلى الرجلين أصـــحاب الأبقـــار المسروقة فاتخذها ذريعة ورجع وابلغ الأمر إلى سعادة المدير وادخـــل فـــي روعه أن التجار هم الذين قاموا بالتبليغ عن هذه التحركات مما جعل القاتـــل يخـــرج من القرية ووجد تجاوباً من سعادة المدير في التحقيق مع الرجلين فوضـــعاً تحـــت الحراسة ومثلوا أمام قاضي بريطاني وبعد سماع أقوال المتهمين المـــدعم بالشهود لم يجد القاضي في القانون ما يدينهم فخاطبهم بكل صراحة بأنكما غيـــر مدانـــين وخـــرجوا وما أن وصل الخبر لسعادة المدير رفض الحكم وردهم للمحكمة حيث حكمت عليهم بسته شهور سجناً والإبعاد عن الجنوب لم ينفع في ذلك اســـتئناف ولا اســـترحام وطلـــبوا في عريضة الاسترحام استبدال السجن بالغرامة فرفضت السلطات .

كانت أول حادث لتضييق الخناق على الشماليين وتوالت الحوادث وما مرت إلا أيـــام قليلة حتى أصدر المدير أمراً بأن يجمعوا كل التجار الموجودين بالخارج داخـــل مدينة ملكال فأصبحت مدينة ملكال تعج بالوافدين وهم في عطالة لا يجدون عمـــلاً فلجأ بعضهم إلى الري المصري وبعضهم عمل كعامل ناموس داخل مدينة ملكال لسبب بقائه حتى تنفرج الأزمة .

اســـتمرت الحالة نحو شهرين وضاق الناس ذرعاً وإذا بأمر جديد من سعادة المدير

بتـــرحيل كل من لا عمل له فمنهم من قابله بالرضا ومنهم من قابله بمضض وبدأ تنفـــيذ الأمر بواسطة سر تجار المدينة فكانت البواخر النيلية تمتلئ بالمبعدين وكان مـــنطوق أمـــر الابتعاد ينطبق عليّ أنا شخصياً بما كنت أحمله من توكيل عن أبي لافتتاح فرع للعمل الرئيسي وقبل أن يجئ دوري في الترحيل جاء سر التجار ليقول لأبـــي سعادة المدير يريد مقابلتك وكان المدير معروف بصرامته وسأله قائلاً وهل معـــي شـــخص آخر قال لا وقال لِمَ فطمأنه قائلاً سألني المدير عن وجود ذرة في مخـــازن التجار فقلت له أن السوق كاشف ليس به ذرة إلا تاجراً واحد وسميتك له وطلب مقابلتك فهيا بنا ، ذهب أبي معه واستأذن للدخول فإذن لهما وأجلسهما على أريكـــة بجانـــبه وأقـــبل على الوالد وقال قد علمت إن بيدك كمية من الذرة بما أن الكنيســـة مالك التابعة لمركز بور أصابتها مجاعة وهي تعاني نقصاً حاداً في الذرة فبالنسبة للطلبة والعمال فعليك اتباع الآتي أن تجهز مائتي جوال على ألا يزيد عبوة الجوال عن خمسة كيلات وفي جوالات جيدة وتقديمها للشحن لأول وابور تحت اسم رئيس كنيسة مالك وتأتي بالبوليصة والفاتورة فوافق الوالد وقبل أن يقوم من مجلسه انتهـــز هذه الفرصة وقال يا سعادة المدير أنا عندي مطلب واحد أريد أن تساعدني فـــيه قال دع طلبك هذا حتى تأتيني بالبوليصة وكانت الباخرة قد غادرت الخرطوم ولأبـــد مـــن عمل سريع فجندنا عدد من العتالة فأنجزنا الكمية كما أراد ووضعناها علـــى الميناء وتم الشحن فأخذ البوليصة والفاتورة وذهب إلى مكتب سعادة المدير وقدمها فأحالها للحسابات لاستخراج إذن الصرف وقبل أن ينصرف من أمامه ذكره بمـــا وعـــد وقـــال له قل حاجتك قال أبى إن لي أبناً أريد أن تسمحوا له بفتح محل تجاري في إحدى القرى التابعة لمركز أبوتج فطلب الباشكاتب وأمره بكتابة خطاب لمفتش ابوتج ليسمح له بذلك وبعد إعداد الخطاب مهره بإمضائه .

ثورة دوال ديو

أخـــذت خطاب سعادة المدير واتجهت شطر مركز ابوتج فلم أجد المفتش ورجعت نحو قرية أدونق كنت أعمل بها سابقاً ولي معرفة بالشيخ وهي في أرض

الديـــنكا وبعـــد يومـــين رأيت حملة المفتش في طريقها إلى داخل المنطقة كمرور شهري . فمشيت نحوها سيراً على الأقدام بغرض تقديم خطاب سعادة المدير وكانت المســـافة بينـــنا بعـــيدة والشـــمس حارة محرقة فالتفت نحوي وأشار إلى أن ارجع فرجعت إلى ممارسة عملي التجاري ولما كانت المنطقة مشتركة بين الدينكا والنوير الذي يسكنون الجزء الشرقي في منطقة تسمي(اللاو) تجئ الأخبار بأن (دوال ديو) قد شق عصا الطاعة على الحكومة ورفض أن يدفع الجزية وحرض أهله على ألا يدفعوا وهو من النوير وكجور لنفس المنطقة فجمع أهله واستشارهم في الأمر وقال لهـــم إن مجيء الحكومة لا ريب فيه فهل انتم مستعدون للوقوف معي إذا ما نشبت الحـــرب وقالـــوا له نحن معك فقال لهم اتركوا لي أمر الطائرات فأنا لها فهل انتم قادرون على أهل الأرض قالوا نعم .

علمت الحكومة بنواياه وأمهلته قليلاً حتى جاء يوم الزحف فعبر الجيش نهر الســـوباط بالقـــرب من الكنيسة الدولبب هل بعرباته وعتاده الحربي وكانت الحملة تحـــت قـــيادة اليوزباشـــي محمـــد عثمان محمد وقائد بريطاني وشق طريقه وبعد الاقتراب من المنطقة ونقطة التجمع وقد أدركهم الليل فباتوا في الخلاء وعند الساعة الرابعة صباحاً التقي الجيشان في غير تكافؤ فجيش الحكومة بأسلحته النارية وجيش دوال بأســـلحتهم التقلـــيدية حراب ودرق وحاصرهم جيش الحكومة وضيق عليهم الخناق فلم تستمر الحرب أياماً معدودات قتل أثناءها دوال وكثير من أتباعه وبقيت الحملة نحو شهراً أو أكثر تحتل المنطقة تحسباً لما يستجد بعدها تولي مفتش مركز ابوتج الإشراف عليها بعد مغادرته .

عـــاد المفتش الى مقر عمله بمركز ابوتج بعد أن ساهم في إخماد نار الثورة بحكـــم أن المـــنطقة تقع تحت إدارته . أخذت جوابي واتجهت نحو المركز بعد أن علمـــت برجوعه فدخلت عليه مكتبه وكان يعرفني بحكم إننا كنا أربعة تجار ثلاثة داخـــل المركـــز يلتقي وإياهم يومياً أما أنا فكنت في قرية قريبة من المركز تسمي توبو وكان يلتقي بي كثيراً وكنت معرفتي المحدودة من اللغة الإنجليزية أعطتني مع

الكثير من المفتشين مكانة خاصة وسلمته الخطاب وخيرني في مواقع كثيرة اخترت مـــن بينها قرية تقع في الجنوب الشرقي لابونج وعلى نهر السوباط وجاءت مركب كبيـــرة مـــتجهة نحو الناصر فاتفقت مع الريس بأن ينقل هذه البضاعة على ظهر مـــركبه حتى تلك القرية فوافق وسارت بنا نحو يومين اثنين فلاحت لنا قرية كبيرة ولهـــا مشرع واسع وجميل فوقع اختياري على هذا المكان فحملوا النوتيه البضائع ووضـــعوها علـــى طرف المشرع وأقلعت المركب وواصلت سفرها والقرية بعيدة ولما اقبل الليل بت ليلتي في العراء ولم أذق طعماً للنوم وما أن حان منتصف الليل حتـــى لجـــأت الحيوانات المختلفة من ذئاب وأسود ونمور وأنواع الصيد الأخرى تتقاطـــر نحو هذا المشرع لترد الماء وما أن اشعر بقدوم حيوان حتى انتصب قائماً فيهـــرب الحـــيوان وعندما انبلج صبح الغد جاءت نسوة من القرية يحملن الجرار فوجدوني وحيداً والتففن حولي ثم ملأن جرارهن ورجعن إلى القرية وأخبرن شيخ الحلـــة وكان رجلاً كبير السن يمشي بين أربعة شبان وهو يتوكأ على عصاه فسلم وكنت جالساً على عنقريب فأفسحت له المجال ليجلس بجانبي وكنت مشغولاً بإعداد الشـــاي جئت بالشاي وتناولناه معاً وأخذ يسألني متى وصلت وما هو نوع البضائع بعـــد ذلـــك تطرق إلى القول كيف كان نومك البارحة قلت لم أذق للنوم طعماً لأن الحيوانات لم تترك لي مجالاً للنوم فضحك وقال أن هذا المشرع هو المكان الوحيد الـــذي تـــؤمه الحيوانات لترد النهر أما بقية المشارع فبعيدة عن بعضها وأنا عندما علمـــت الخبر خفت كثيراً من أن تكون أصبت بأذى وأنت لا تحمل سلاحاً واقترح علـــى أن ارحل إلى القرية فرفضت وأخيراً قال إذن استحسن أن ترحل إلى نقطة تبعد قليلاً عن المشرع فوافقت ورحلت وأمر الشبان الذين معه بعمل عريشة تقيني الشـــمس وأمر النساء بتسوية الأرض واستصلاحها لصب الذرة عليها كل ذلك في نهـــار اليوم الأول وفي المساء رجع إلى القرية أرسل مع أحد أبنائه بندقية ام جفرة ممـــا كان يستعمل في زمن الحكومة التركية ومعها خمسة طلقات صنع محلي لكي أدافـــع بها عن نفسي فتقبلتها منه وكان يمدني باللبن طول مدة إقامتي وعندما يجن

الليل كانت أصوات الحيوانات تتناهى إلي سمعي من عواء لذئب أو زأرت من أسد وهمهمة من نمر و استمرت هذه الحالة لمدة شهر كامل وكان الشيخ عندما يزورني في الصباح يقول لي على سبيل الدعابة عندما أهم لزيارتك عند كل صباح يراودني الشـــك هـــل أجدك على قيد الحياة أم أجد جثتك وقد نهشتها الذئاب والنمور وكنت محـــتاراً مـــاذا أقول للمفتش الذي سيرمي المسئولية على عاتقي ويتهمني بالإهمال ومـــن أهـــم الأشـــياء التي في القرية أن لا يسمح لأي فرد أن يرد الماء بعد حلول الظـــلام إلا في جماعات تحمل سلاحاً فشكرته . مضي الشهر وجاءت المركب من الناصر وأخذت ما عندي من ذرة حتى ملكال .

الصيد بالأنوار الباهرة

كـــان لـــي صديق يفتح متجره إلى ما بعد الثامنة مسا ء وكنت أقضي معه بعض الوقت وفي يوم حالك الظلمة ترائي لي نور بطاريات يتحول يمنة ويسره في فـــلاة تقع أمام منطقة السوق وحلة التجار وكانت ملكال كثيرة الذئاب تدخلها بأعداد هائلـــة قـــبل منتصف الليل بحثاً عن شاة ضالة أو حظيرة مفتوحة الباب فقلت في نفســـي ما سر هذه البطاريات بنورها الكاشف تتحرك وتتنقل لأبد أذن أن هناك سر نجهلـــه ولأبـــد مـــن الكشف عنه فلفت نظر الذين كانوا يشاركوني المجلس ما هذه الأنـــوار الكاشـــفة ومـــا الغرض منها قالوا لا علم لهم فوجهت لهم الدعوة إن كان لأحـــدكم الرغبة في مرافقتي لمعرفة الحقيقة فجاء الرد منهم مالنا وللأنوار في جو مظلم وكان قولهم هذا بمثابة حافز لي فأمسكت بعكازي وقلت أنا لها واتجهت نحو مصـــدر الأنـــوار كانت الفلاة بعضها ذا حشائش والبعض الأخر قد التهمته النيران وكـــنت أسلك أرض وعرة طينية ذات شقوق أختلط سوادها الذي خلفته النيران من رماد الحشائش اختلط بظلمة الليل فكانت ظلمات بعضها فوق بعض لا تعرف موقعاً لقدمك وأخذت أسير نحو أقرب الأنوار إلي ولما اقتربت منه سمع وقع إقدامي على الأرض وسلط علي نوره ووقف ينتظر القادم فلما وصلت عرفته وعرفني ووجدت بصـــحبته كلب مربوط بحبل على رقبته وبادرني ما جاء بك إلى هنا قلت الفضول

ولم يفهم قلت معقباً الأنوار التي تنبعث من بطاريتكم فما معني هذا قال نحن نصطاد الغــزلان بأن نسلط الأنوار على وجه الغزال وتصاب بالجهر ولا تري شيئاً ونحن نســير نحــوها حتى نقترب منها ثم نطلق الكلب عليها فيمسك بها ويعطل سيرها ونحن نهجم عليها ونذبحها وكنت لأول مرة أعرف ما توصل إليه فكر الإنسان من حــيل لخداع الحيوان وأمرني أن أرافقه دون أن تبدر مني حركة ومشينا قليلاً وهو يحول نوره من جهة لأخرى حتى اصطدم النور بعيون إحدى الغزلان فبدت حمراء وكأنهــا جمــرة فأخذنا نمشي خطوة خطوة حتى اقتربنا منها وأطلقت عنان الكلب فقــبض عليها وتسابقنا نحوها فأمسكنا بها وذبحناها وعلى أثر صياحها ألفت حولنا شخصــين وكــلا ممسك بمراس كلبه وهم يحملون غزالاً فما حان لي أن أنصرف أعطوني نصف الغزال الخلفي فشكرتهم وفي غداة غد ضمنا نفس المجلس وحكيت لهــم القصة فمنهم من صدق ومنهم من قال قصة من نسيج خيالك فلم يؤمنوا حتى جئــتهم بصــحن ملــئ باللحم رغم ذلك لم أخلوا من لومهم على هذا التهور وأن التعرض لمثل هذه الظواهر غير المألوفة لا شك إنها مخاطرة بالحياة .

الإصابة الأولي : كسر بالفخذ

الأيــام تسير متباطئة كغير عادتها أو هكذا كان شعوري وكنت أريد منها أن تســير أسرع من ذلك لتبدأ أول إجازة بعد طول غيبة عن الوطن حيث كان الشوق والحنــين قد بلغ مداه وكانت مكاتبات الأصدقاء ترد تباعاً وهي تحثني على العودة وما كنت ولا كانوا يعلمون ما يخفيه القدر. وحل بنا عباس شمه(42) ضيفاً وعلى ظهر دواب حيث كان الوقت خريفاً وكان من بين الدواب حصاناً جموحاً في عصر يــوم مطيــر أسرجته وعلوت صهوته سرت في الشارع الرئيسي وكان خالياً من المــارة فانتهــز الحصان فرصة خلو الشارع واعتداله وتعبيده فاخذ يجري بكل ما عــنده مــن السرعة وكانت الأشجار القائمة على شقيه أشجار كبيرة فمال بي على إحدى هذه الأشجار وأحتك بها فوقع الضغط على فخذي الأيمن مما سبب كسراً في منتصــف عظــم الفخذ وسقطت على الأرض وشعرت بأن الكسر مركب واخترق

العظـم اللحم وبرز ظاهراً وسال الدم غزيراً فأمسكت بالفخذ المكسور وسحبته إلى الأمـام حتى عاد العظم داخل اللحم وحضر بعض معارفي وهم يعملون في الري المصـري فجـاءوا بعنقـريب صـغير جلست عليه ولم افقد وعيي وحملوني إلى المستشـفي حـيث قابلـنا الوالد ونحن في طريقنا نحو المستشفي وكان على رأس المستشـفى طبـيب بريطاني وآخر ارمني وقد دخل الليل فقاموا بعمل الإسعافات الأولـية واعـدوا لـي سريراً في الدرجة الثانية المخصصة لكبار الموظفين غير البريطانيين طبعاً وكانت أجرة السرير عشرون قرشاً وهذا مبلغ يعتبر كبيراً في تلك الأيام وكانت عبارة عن حجرة ذات نملية تغطيها من ناحيتين ولها منافعها المنفصلة بهـا نظـيفة تحـتوى على ثلاثة أو أربعة سرا ير دخلتها فوجدت أحد الموظفين المنتسـبين إلى السلك القضائي قد احتل أحد أسرتها أصبحت في اليوم التالي ولم أذق للنوم طعماً وكنت جلداً صبوراً حتى لا اسبب قلقاً لأبي وكنت ابتسم لكل زائر حتـى ادخل الطمأنينة في قلبه لينقل هذا الشعور عندما يقابل أبى وتورمت الرجل وتقـيح الجرح وفي كل يوم يسير من سيئ إلى أسوأ ولم تعمل للكسر جبيرة وفي انـتظار بـرء الجرح ولكن الجرح لم يبرأ ولا العظام تتماسك احتار الأطباء وجاء ذات يـوم الطبيب البريْطاني ليقول غداً ستعمل عملية فرفضت وأصر كل منا على مـوقفه وتـدخل الطبـيب الآخر ليقنعني ودار بيننا حوار هل أنت تضمن لي أن الدكتور لا يقوم بعملية بتر للرجل قال لي أنا سأضمن لك البنج قلت معنى ذلك انك ستضـمن لـي الحياة قال نعم قلت له إني لا أريد حياة بغير رجلين لك أن تعطيني وعداً بعدم بتر رجلي قال انك تعلم انه رئيسي ولا أستطيع أن أتدخل في عمله قلت إذاً اتركنـي وشـأني وفـي اليوم التالي جاء الدكتور البريطاني وقال أنت رفضت إجـراء العملـية قلت نعم قال لأي سبب قلت أنا حر أتصرف بما أراه مناسباً ولما وجـد إصـراري قال أرى لا فائدة من وجودك في المستشفى قلت اليوم سأبارحها ولـيس الغـد وقـد مكـثت بها نحواً من الشهرين وإن أنسى فلا أنسى وقوف كل الممرضين بالمستشفى بجانبي ومدهم لي بالشاش والأربطة وكل ما يحتاج الجرح

مـــن ضـــمادات وأدويـــة وأيضـــاً سكان ملكال وزياراتهم المتواصلة شباباً وشيباً والاطمئـــنان علـــى صـــحتي . خرجت من المستشفى ولزمت البيت وكان الاخوة والأصـــدقاء يســـهرون الليالي بجانبي ويحكوا الحكايات ويتبادلون النكات كل ذلك لـــيدخلوا السرور إلى قلبي لم تطل إقامتي بالبيت حتى شعرت بان العظام بدأت في التلاحم وأستطيع تحريك الرجل حركات بسيطة حتى استطعت أن اقف على قدمي وان أســـير علـــى عصـــى طبية ولم يمر شهر حتى استطعت أن أسير دون عصا وتحســـنت صـــحتي وفـــي هذه الأثناء حضر لزيارتي الحاج شمه قادماً من تونجه والذي تربطني به صلة القرابة وليست هي المرة الأولي ، ووجدني في طور النقاهة فعـــرض علـــي الذهاب معه إلى تونجه لأسبوعين حيث الراحة ولتغيير الجو الذي أعيشـــه وحيداً أثناء النهار فقلت ليس الأمر بيدي وأنا أوافق لكن بعد موافقة الوالد فعرض الفكرة على الوالد فأجاب لا بأس وليعمل بتجديد بناء الدكاكين التي أصابها الـــتلف بســـبب الأمطار وصلت تونجه(43) وجدته مركزاً صغيراً يقوم على رأسه مأمـــوراً بـــرتبه يوزباشي لكن له أهميته الاستراتيجية بلغة الدبلوماسيين وهو آخر حدود الشلك من الناحية الجنوبية وبها كنيسة كبيرة ذات بنا ء فاخر تضم عدد ليس بالقليل من الإيطاليين رجالاً ونساء وتقع غرب السوق وقد وفر لي الأخ الحاج كل ســـبل الـــراحة مـــن غذاء خاص وتحتوي المائدة دائماً على لحم الدجاج والحمام والســـمك ، كما كان اللبن بنوعيه في متناول يدي زد على ذلك كميات الفواكه التي تجئ بها البواخر النيلية العائدة من الجنوب من موز ومانجو وأناناس شعرت بتقدم ســـريع في صحتي ونشطت الأعضاء للعمل وبدأت في بناء الدكاكين ولا بد إذاً من عمـــل تجـــاري يغطـــي هذه المصـــروفات فطلبـــت كمية من البن وأرسلتها إلى الليـــري(44) وأرسلوا لي بقيمتها زيت سمسم وشحنتها لملكال وكانت عملية رابحة غطـــت كـــل تكاليف البناء وكان العائد بعد ذلك كبيراً ، انقضت أيام تونجه رجعت بعـــدها إلـــى ملكال وشعرت باني قادر على مزاولة عملي التجاري وكان الموسم الجديـــد قد بدأ فحزمت بضائعي ويممت نحو توبو قرية من قرى ابونج وكنا خمسة

من التجار أربعة منا من الكوة إلا واحد من اهالي الجزيرة اقبلنا على شتراء الذرة وجمعــت كمــية كبيــرة منه وكنت أقوم بعملية الكيل والتخليص ثم بيع ما يحتاجه الأهالـــي من أقمشة وأنواع الحديد المصنوعة وكنت كثير الحركة مما جعلني أشعر بــتورم فـــي الجزء المصاب وزاد الورم وأصابتني حمى وشعرت أن داخلها قيحاً ولأبــد من عملية فتح وليس هناك مستشفاً قريباً ولا نقطة غيار فجئت بموس حادة الشفرة وقلت لأحد رفاقي أن يقوم بعملية الفتح فأبى ولأبد من الفتح مهما كلف الأمر لأن العاقبة ربما يحصل تسمم في الجسم بسبب هذا التقيح فأمسكت بالموس بيساري ووضــعتها على مكان من التورم وأمسكت بقطعة من الخشب غليظة وضربت بها رأس المــوس فغاصــت فـــي اللحم وأخذت أغرسها واضغط عليها وأحركها يمنة ويســرة حتـــى خــرج الدم والقيح سوياً وبماء ساخن غسلتها وبقطعة من القماش أحكمت ربطها فرأيت أن أترك العمل حتى النظر في أمر هذه المسببات وسلمت ما بقي لي من بضائع وغادرت المنطقة نحو ملكال على مركب شروك بعد أسبوعين شــعرت بتحسن لكن الوالد ألح على بأن أغادر إلى الكوة للراحة فوافقت ووصلت الكوة وقضيت بها فترة فتحسنت صحتي غير أني أشعر بالتعب كلما مشيت مشواراً طــويلاً يســبب لي ورماً في موضع الكسر وكنت أخفي على الوالدة كل ذلك لئلا أشغل بالها .

بــدأت التســاؤلات من الوالدة والشقيقات متى الزواج فقلت قريباً إنشاء الله كثــرت التساؤلات بدرجة أزعجتني وكان الجواب التقليدي قريباً إنشاء الله إلى أن فاجأتنـــي الــوالدة وهي تقف أمامي وعلى عينها دمعة ما سقطت إلا وحلت مكانها أخــري فانــزعجت وقلــت في نفسي لأبد من أمر جلل وقلت لها ما يبكيك يا أماه فأخذت بيدي وجلست على مقعد بجانبي وفي توسل فاهت بكلمات تقطر حناناً وشفقة نـــادرة مــن قلب يئن مما يحمل وفي كلمات جاء فيها هل لك يا بني أن ترحم أماً مسها الكبر وأضناها الشوق لتحقيق غاية كل أملها في الحياة وتبخل عليها باستجابة طلــب واحد وهي ترجوه من زمن طويل قبل أن توافيها منيتها فاغرورقت عيناي

بالدمـــع وســـكت طـــويلاً لا أستطيع أن أقول كلمة لو فتحت فمي لانفجرت باكياً فشـــعرت هي الأخرى وأمهلتني حتى استعدت رباطة جأشي وبعد أن انقشعت هذه السحابة قليلاً قلت لها أظنك تعنين الزواج فأجابت بسرعة أتظن أن لي مطلباً غيره وقلـــت لك ما تشائين وسأقوم على التو وأرسل برقية للوالد أطلب حضوره . جاء الـــوالد وتم الزواج(45) وكانت لياليه فريدة الحسن لا زال يضرب بها المثل وهي عالقة بذاكرة كل من حضرها .

الهوامش والتعقيبات

(1) أرتموقة : قرية من قرى الشمالية وسكانها من البديرية .

(2) كان أهلهم يسكنون بخور شمبات شمال مدينة الثورة وجنوب وادي سيدنا ولم تكن مدينة أمد رمـــان المعروفة بحدودها الحالية قد تكونت بعد فالمعروف أن مدينة أمد رمان نشأت مع المهدية وكانت هجرتهم تلك في فترة التركية .

قالـــت حبوبتـــنا مســـك اليمن بنت جربان : كانت القوافل التي تأتي من الشمال ويقودها الخبراء يبشرون الجمع بقولهم : وصلنا وادي سيدنا أبشروا فقد أوشكنا الوصول الى قدح جربان وجربان هذا خال أحمد محمد نور والد كاتب المذكرات .

(3) دويم شات والتي صارت فيما بعد مدينة الدويم الحالية .

(4) الدمور : ينسج من غزل القطن وكان في تلك الفترة يستخدم بمثابة العملة .

(5) الزراق : وهو نسيج يصبغ بالنيلة الزرقاء وكان ثوب النساء الشائع .

(6) عـــرفت فـــي تاريخ السودان بفتنة الأشراف . وتزعم الصراع الخليفة شريف ووقف أمام الخلـــيفة وكـــان لكل فريق من يساندة من قواد المهدية واستطاع الخليفة عبد الله أن يسيطر على الموقف وتعرض المشاركون والمخططون لها الى عقوبات صارمة طالت الكثيرين بما فيهم أهلنا بالكـــوة من الدناقلة . وهناك أكثر من رسالة جامعية وبحث كتبت في هذا الموضوع لمن يرغب في المزيد .

(7) عـــبد الكريم الدفاري : تعود أصولهم إلى مملكة الدفار التي كانت قائمة قبل دخول الجيوش التـــركية للســـودان وهو حفيد الحاج عبد الله الكبير وقد استوطنوا الكوة مع أهلهم وكان من بينهم الفقيه الحاج عبد الله الدفاري تلميذ إبراهيم الرشيد أحد تلاميذ السيد أحمد بن إدريس الفاسي.

(8) الـــراية الـــزرقاء : وهي راية الدناقلة وهي تعتبر من أولى الرايات التي تكونت في المهدية وبجانب الدناقلة فهي تضم أولاد البحر وتعرض معظم قادتها للعزل والحبس بعد فتنة الأشراف .

(9) الساير : سجن المهدية المشهور بأمد رمان وما زال موقعة كما كان في عهد المهدية بالقرب من حي الملازمين مواجهاً لمبنى الإذاعة الحالي .

(10) – الحـــراب : ومفـــردها حربة وهي مصنوعة من الحديد المطروق وحادة الأطراف في أحجام مختلفة وتركب على قناة تطول وتقصر وفقاً لاستخداماتها .

– الكواكيب : جمع ومفردها كوكاب وهي آلة من الآلات الحربية مشرشرة بالجنبات ومقدمتها في شكل مسمار حاد ولها قناة من العود أو خشب القنا .

–الملايــد جمـــع ومفــردها ملودة وهي أداة تستخدم في الزراعة (الحش) للتخلص من الحشائش الطفيلية وتأخذ أشكالاً مختلفة .

- البديـــنقات : جمـــع ومفردها بدينقة وهي آلة تستخدم لصيد أفراس البحر والأسماك الكبيرة ومقدمتها كالحربة وفي وسطها نتوء بارز يمنعها من الخروج عندما تنغرز في جسم الحيوان وفـــي نهايتها تجويف لتركيب العمود أو القنا التي تستخدم في الدفع والرمي وسيأتي الحديث عن كل هذه الأدوات فيما بعد .

(11) التوفيقـــية : تقـــع التوفيقية جنوب مدينة ملكال على مصب نهر السوباط عندما يلتقي بالنيل (بحر الجبل) على الضفة الشرقية وهي المنطقة التي وقعت فيها المواجهة الفرنسية البريطانية في مطلع القرن الماضي. وبها عدد من قبور الضباط المصريين الذين توفوا ودفنوا بتلك المدينة وقد رأيت قبورهم المغطاة بالرخام وكانت بحالة جيدة حتى منتصف الخمسينات .

التـــيجان من توج ويطلق هذا المصطلح على المناطق التي تغطيها الحشائش والنباتات التي تطفو فـــوق مـــياه النيل وتكثر هذه التيجان بالمنطقة الواقعة بين شامبي وملكال . وتتشابك تلك النباتات بصورة تعيق الملاحة النهرية في الكثير من الأوقات . وخاصة ان معظم نباتاتها من نبات البردي القوي المتماسك . وسيجد القارئ الإشارة إلى هذا المصطلح كثيراً فيما بعد0

(13) والدتـــه الحاجة مسك اليمن بنت محمد عمر جربان . عمرت وتوفت بعد الثمانين كانت امرأة فارعة الطول بيضاء اللون ذات شخصية قوية كانت تعمل بالتجارة والغزل وكانت تشرف علـــى أسرة كبيرة وكانت من الشخصيات المحبوبة في أسرة جربان ولها علاقات واسعة مع أهل الكوة .

(14) الاختيار لإلحاقهم بمدرسة الكوه الأولية والتي تم افتتاحها في عام 1905م فكانت واحدة مـــن ثلاثـــة مـــدارس بمديرية النيل الأبيض (الكوه / القطينة / الدويم) وهي ذات المدرسة التي خرجت العديد من رجالات الكوة الذين عملوا في خدمة السودان في مختلف المواقع وللمزيد عن هذه المدرسة ينظر في كتاب " الكوة التاريخ والرجال " تحت الطبع .

KAWA ٢٨. ١٨ E

(15) الكـــوه : مدينة الكوه تقع جنوب الخرطوم على بعد حوالي 180 كيلو على الضفة الشرقية مـــن النيل وكانت في البداية تجاور النهر تماماً ولكن بعد قيام خزان جبل أولياء تم ترحيل أحياء (القيقر) لتكون بعيدة عن النهر ويسكنها خليط من القبائل : الدناقلة والشايقية والركابية والجعليين والموالـــيد وغيـــرهم ولمن انصهرت تلك القبائل وكانت تمثل تمازجاً قبلياً فريداً . وقد أفردنا لها كـــتاباً خاصـــاً لتسجيل وتوثيق تاريخها بكل تفاصيلها التاريخية والجغرافية وسكانها وشخصياتها بعنوان الكوه التاريخ والرجال.

(16) الكتـــر : نـــوع من الأشجار المتوسطة التي كانت تنمو بتلك المناطق وتستخدم فروعها في حطـــب الحـــريق والفحم ويعتبر فحمها من أجود الأنواع ولها صمغ لذيذ الطعم ولها زهرة ذات أريج طيب وخاصة في الخريف الممطر .

(17) اللعوت : وهي شجرة أقل من أكثر وفروعها أرفع من الكتر ولها صمغ ولكنه ردئ الطعم وزهـــرتها وللحائهـــا رائحة منفرة . ولآن كلا الشجرتين وقد قضي عليها القطع الجائر والزحف الصحراوي .

(18) المجـــداع : آلـــة من الخشب على شكل الرقم 6 يستخدم في الصيد وبعضها على شكل C الانجليزي ويطلق عليه أيضاً " السفروق" .

(19) المـــرحوم محمـــد عباس أبو الريش : هو مؤسس مجلة النهضة السودانية 1931-1932م وتعتبـــر أول مجلـــة سودانية صدرت بالخرطوم وصدر فيها حوالي أربعة وعشرون عدداً خلال العامـــين التي صدرت فيها المجلة وتوقفت عن الصدور بعد وفاة مؤسسها في مطلع عام 1933م وهـــو فـــي ريعـــان شبابه . وهو مؤسس مكتبة أبو الريش والتي كان موقعها في مواجهة مسجد الخرطوم العتيق وظلت هذه المكتبة حتى منتصف السبعينات تديرها أسرة أبو الريش .

(20) الدرديـــري أحمـــد اسماعيل : من أبناء القطينة من أوائل الذين هاجروا إلى مصر لتكملة تعلـــيمهم العالـــي ونال ليسانس الحقوق من جامعة فؤاد بالقاهرة فكان من أوائل السودانيين الذين نالـــوا هـــذه الشـــهادة القانونـــية ثم سافر إلى بريطانيا والتحق بجامعة ليدز وتخرج منها بدرجة الماجســـتير وعاد للسودان وعمل بالمحاماة وأسس فيما بعد حزب وحدة وأدي النيل الذي اندمج فيما بعد مع الحزب الوطني الاتحادي.

(21) كـــتب الـــرحلات باللغـــة الإنجليـــزية كثيـــرة وبخاصة الكتب التي تم تأليفها إبان الهجمة الاســـتعمارية علـــى أفـــريقيا منذ مطلع القرن التاسع عشر وكان للسودان نصيب ذآخر من تلك المـــؤلفات التـــي تتحدث عن الجنوب ودول شرق أفريقيا . وفي المكتبة العربية نشير إلى كتاب حديث نسبياً عن الصيد في السودان أعده وكتبه السفير عبد الله السريع سفير دولة الكويت السابق

بالسودان الذي زار الجنوب واستقر بجوبا لفترة من الزمن خلال السبعينات حتى أطلق عليه عبد الله جوبا – رحمه الله رحمة واسعة

(22) كـان الـوالد عمـره في ذلك الوقت اثني عشر عاماً حيث أنه من مواليد 1906وكان هذا الحـدث كمـا ذكـر في عام 1918م أنظر بربك إلى طفولة ذلك الجيل الذي شب على مواجهة الصعاب وتحمل المسئولية منذ الصغر .

(23) أم سـيّ سـيّ : مـع تشـديد الياء وهي من الطيور المائية وأطلق عليها هذا الاسم نسبة للاصوات التي تطلقها فهي مثل سوسوت الكتاكيت وتزن الواحدة منها حوالي نصف كيلو ولحمها طيب ويفضلها الكثيرون على كل أنواع لحوم الطيور الأخرى وتطير عادة في أسراب .

(24) الأسـتاذ يحـي زكريا : من ركابية الكوه وهو من تلاميذ الحاج عبد الله الدفاري وقد عمل كاتـب في القضاء الشرعي في أوائل فترة الحكم البريطاني المصري للسودان وكانت له مجالس علم وأدب وله ديوان شعر ما زال مع أبنائه .

(25) الوزين : من الطيور المائية ولكنه كبير الحجم ويكون دائماً في زوجين ذكر وأنثى والذكر أكبر من الأنثى ويطلق عليه (فكنج) وبه ريش زاهي الألوان ولكن لحمه أقل جودة من لحم أم سيّ سيّ .

(26) القرض من ثمار شجر السنط ويستخدم القرض في دباغة الجلود بالإضافة إلى ذلك فهو من النباتات الطبية ويستخدم في السودان مع البخور لطرد الحشرات والناموس .

(27) الأنت مون : نوع من العلاج الذي يعطى كحقن لمريض البلهارسيا .

(28) عـن لسـان التمساح تقول الرواية الشعبية أن الكلب أخذ لسان التمساح وإضافة إلى لسانه فاصـبح لسانه طويلاً متدلياً وصار التمساح بلا لسان ولذلك عندما ينزل الكلب إلى النهر ليشرب يصـاح فيه (سيد اللسان جاك) بمعنى (صاحب اللسان جاءك) فيجرى الكلب لتوه ويترك حافة النهر .

(29) تم ترحيلهم من هذه الدار بعد قيام خزان جبل الأولياء في عام 1932م بعد أن غمرت مياه البحيرة كل المناطق المتاخمة لضفتي النيل الأبيض جنوب الخزان حتى مدينة كوستي جنوباً.

(30) أنظـر أيهـا القاري الكريم هذا التعلق بهذه الهواية الخطيرة التي تعرض صاحبها للهلاك والمواقـف التـي تعرض لها مع تلك التماسيح وهو ما زال صبياً يافعاً ، واستطاع أن يخفي تلك الأحداث عن والديه حتى لا يحرم من ممارسة هواية الصيد التي أخذت من نفسه كل تلك المساحة والتـي سيطرت على عليه وهو ما سوف نتابعه في الصفحات القادمة .عندما انتقل من مواجهة لتماسيح إلى مواجهة وحوش الغابة.

(31) مــازال الــوالد لا يقبل على أكل الفول المصري أو العدس فربما كان ذلك من آثار تلك التجربة الأولى التي عاشها .

(32) الجــراية نــوع مــن الخبــز يصنع من دقيق القمح المخلوط أحياناً بالذرة ولكنه خبز سيئ السمعة.

(33) الســيد أحمــد أبــو ســن : ينتمي إلى أسرة أبو سن المشهورة برفاعة وقد كان من أوائل الإداريين السودانيين وقد وصل في السلك الإداري إلى منصب مدير مديرية الخرطوم ، واشتهر بالنزاهة والعدل والشجاعة .

(34) اســتقال أيضا من سلك القضاء الشرعي وتولى رئاسة تحرير جريدة حضارة السودان التي أصدرها السادة الثلاثة السيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي وقــد تولــى في البداية رئاسة تحرير صحفي السودان الأول المرحوم حسين شريف وبعد وفاته لــرحمة مولاه تولى رئاسة التحرير الأستاذ أحمد عثمان القاضي ملبياً نداء الوطن وكان له دورا كبيــرا فــي إرســاء أسس وقواعد اللغة الصحفية متأثرا في ذلك بالصحافة المصرية كالأهرام والمقطم ويعتبر بحق رائدا من رواد الصحافة السودانية العظام.

(35) بهذا تكون الفترة التي أمضاها الوالد في كلية غردون خلال الخمسة أعوام من عام 1918 وحتى عام 1922 ويكون بذلك التحاقه بأبيه في التجارة في نهاية العام 1922 وبداية عام 1923 م .

(36) ملكال MALAKAL الموقع E ٣١-٣٩
N ٣١ -٩

عاصمة مديرية أعالي النيل الكبرى .

(37) FULLUS – خور فلوس E ٣٦ – ٣١
N ١٩ -٩ بولاية أعالي النيل الكبرى

(38) LAU لاو مستوطنة وقبيلة ويقصد هنا المستوطنة والتي تقع في E ٢٥-٣٠
N ٤٤-٦ بمديرية أعالي النيل الكبرى .

(39) DULAYB - HILL دوليب هل E ٥٤-٣٠
N ٢١-٨

وهــل (HILL) هــو اســم القسيس الذي أسس هذه الكنيسة فهناك أكثر من منطقة تحمل اسم دوليب.

(40) النوتــي هو أحد عمال المركب والذي توكل له عدة أعمال من أهمها التجديف بالمجداف أو عــن طريق (المدرة) وسحب اللبان (حبل طويل يربط في الوسط ويقوم النوتي بسحب المركب

وهو على البر) بجانب الأعمال الأخرى كإطلاق وطي الشراع وإنزال وربط المرسى وغير ذلك من الأعمال ، أما الريس فهو الموكول له إدارة الدفة والسيطرة على النوتية واحكام تحركاتهم .

(41) هـذه الـواقعة توضـح بجلاء الدور الذي لعبه الضباط المصريين في تأجيج نار الحركة الوطنـية السـودانية . فالواضح أن هناك مجموعة من الضباط الوطنيين المصريين الذين كانوا يـتعاطفون مـع حـركة سعد زغلول والتي كانت تنادي بخروج الاستعمار البريطاني من مصر والسودان . وقد شاب هذا الموضوع الكثير من الضباط فالكثير من المؤرخين يقمطون للمصريين دورهم في الحركة الوطنية السودانية .

(42) عـباس يوسف شمه : من مواطني الكوة والده يوسف شمه من كبار تجار فشودة والجبال أسس عملاً تجارياً واسعاً بجبال النوبة وبمديرية أعالي النيل منطقة (تونجه) وسيرد الحديث عنه فـيما بعـد كثيـراً . وابنه عباس دخل كلية غردون التذكارية ولكنه غادرها بعد اتمامه المرحلة الابتدائية حيث التحق بالعمل الحر مع والده بتلك المناطق .

(43) تعلـيق : من أغرب الصدف كاد ان يحدث لي ما حدث لوالدي رغم الفارق في السنوات ، فـان كـان مـا حـدث لوالدي في مطلع الثلاثينات فما حدث لي كان في منتصف الخمسينات . والتشـابه كبيـر بـين الحادثين . أذكر وانا طالب بالمرحلة الابتدائية بمدينة ملكال أن جاء جدنا المهـدي محمد عبد الله وكان تاجراً يعمل بمدينة تونجة جاء بحصان وكنت آخذ الحصان لربطه خـارج المنـزل للمرعى وأقدم له الماء. وفي أحد الأيام رأيت أن امتطيه وليس لي سابق معرفة بركوب الخيل وما ان استقريت على ظهره حتى انطلق بي يسابق الريح متجهاً نحو الخلاء وكنت اعـرف بعض أبجديات الركوب حسب مشاهداتي لسباق الخيول في المناسبات التي تعقد بمدينة ملكـال فأملـت الحصان ناحية المدينة فمال بي وقفز بي خور كبير ولكني كنت متشبثاً وممسكاً بعـرفه وبالحـبل وكان ركوبي له دون سرج أو لجام ، واتجه الحصان ينهب الارض بالشارع الرئيسـي بالمديـنة أظنه نفس الشارع الذي تحدث عنه الوالد ومن الطرائف أن المواطنين كانوا يفسـحون لي الطريق ويصفقون ظناً منهم بأني أقوم باستعراض . ولم يتوقف الحصان إلا عندما اعتـرض طريقه راكب دراجة فهدأ من سرعته وفي هذه اللحظة قفزت من ظهره نحو الأرض واقفاً وممسكاً بالحبل ولدهشتي وقف تماماً فجئت قائده راجلاً نحو المنزل ولم أخبر أحدا بالحادث . ولكن المفارقة الثانية إن رجلي كسرت عندما قفزت على الحصان الخشبي بالمدرسة .

(44) تونجه TONGA تقع E ٣-٣١
N ٦ - ٧

مـن مراكز مديرية أعالي النيل على الضفة الغربية من النيل وسيأتي الحديث عنها فيما بعد بتوسع .

(45) الليري LIRI الموقع E ٤٤ - ٣٠
N ١٧ – ١٠

إحدى مدن جنوب كردفان وسيعود لها المؤلف بتوسع فيما بعد .

(**46**) تـــزوج الـــوالد مـــن والدتنا نور الشام بنت حمزة والدها حمزة علي تلب من ركابية الكوه وكانت تربط جدنا أحمد محمد نور وجدنا حمزة علي تلب شراكه في الأعمال التجارية بالجنوب. رغـــم إن هذا الموضوع لا يبدو سببا كافيا للزواج ، ولكن عندما سأله أحفاده فيما بعد عن السبب الحقيقي في اختيار والدتنا وهي لا تمت إليه بصله قرابة أو جيرة قال إنها البنت الوحيدة في الكوة التـــي لم استطع مقابلتها أو حتى رؤيتها وكنت اسمع عن أخلاقها وجمالها فصادف ذلك هوى في نفسي فعزمت الاقتران بها .

الفصل الثاني

الشلك (1): الأصول والمعتقدات

بالرغم من ان كدوك كانت عاصمة المديرية قبل أن تنتقل إلى ملكال وبها مبانـــي قديمة بنتها فرقة المهندسين من الجيش المصري وهي لا تزال بحالة جديدة غير أن شهرتها لم تصل إلى ما وصلت إليه قرية فشودة التي تقع على مسافة أميال قليلة جنوب كدوك وهي مقر مكوك الشلك ولها تاريخاً موغل في القدم على حسب مـــا يـــرويه الرواة أن أصل قبيلة الشلك جاءت من بحر الغزال حيث محل سكنى الجور . والجور والشلك أبناء عمومة وعندما شب خلاف بينهم لسبب من الأسباب هاجر الأخوين نيكانق وداقي واتجها نحو الشمال الشرقي متتبعين نهر الجور حتى وصلوا إلى البقعة التي تسمى فشودة الآن وقد رأى أحدهما أن وجدوهما الاثنين في مـــنطقة واحدة ربما تسبب نفس الاختلاف الذي هاجرا من أجله واقترح أحدهم أن يقتـــرعوا بيـــنهما فوقعت القرعة على رحيل داقي فأذعن وخرج داقي إلا أن أخاه نـــيكانق صـــحبه مودعاً حتى وصلا إلى خور يقع شمال كاكا التجارية حالياً وكان داقـــي يحمـــل في يده كوكاب (نوع من الحراب يصلح لصيد السمك) مصنوع من الفضة الخالصة وما أن توسطا الخور حتى غرز داقي هذا الكوكاب وفي منتصف النهـــر وخاطـــب أخـــاه قائلاً من هنا نفترق فودع كل منهما الآخر في حرارة مع التمنـــيات الطيـــبة وأخـــذ طريقه نحو الجنوب الشرقي وتجاوز نهر سوباط واتجه جـــنوباً حتى كان من نسله الأشولي في شرق الاستوائية والأنواك في أعالي النيل ورجـــع نيكانق وأسس قرية فشودة وكان من نسله الشلك التي امتدت رقعتها حتى كاكا شمالاً ومركز تونجه جنوباً أصبحت فشودة مقر مكوك الشلك منذ القدم لم تنقل . وكلمـــة مك على ما أظن محرفه عن كلمة ملك لأن اللسان غير العربي يصعب عليه نطق حرف اللام قبل الكاف فيدغمه فصار المك بدل الملك ولكي أدلل بصحة ما ذهبت إليه هذه الكلمة المحرفة تطلق على رؤساء القبائل من النوبة حيث هو مك الجـــبل قبل أن يجئ الاستعمار بلفظة سلطان أو ناظر وكلمة مك ليس لها معني في لغـــة الشلك مما يدل على أنها دخيلة وفشودة هي الاسم الوحيد الذي يعني الجنوب

والمعـــروف لدى التجار الأوائل فإن سألت سائل من أين جاء يقول من فشودة وان اقتصـــرت عـــنها وإن جاء مسافراً نسأله إلى أين يجيبك إلى فشودة . وكان الابن الأكبـــر هـــو وارث العـــرش وتكاثر النسل وتفرعت البيوتات ورحل كل أبن نحو مـــنطقة خاصـــة بـــه حتى انحصرت في أربعة بيوتات ثم تقلصت الآن إلى ثلاث بيوتات والسبب حرمان البيت الرابع وعلى حسب عاداتهم الموروثة ودستورهم غير المكـــتوب ينص على حرمان أي بيت لم يكن على قيد الحياة من أبناء الملك عندما يجـــئ دوره فـــي تولي الحكم وبمعنى أوضح لا يحق للأحفاد تولي الحكم بدلاً عن الأب فالاســـتحقاق يكون للملك ابن الملك ومراعاة لهذه الحالة تنشط الاغتيالات كلما سنحت الفرصة حتى لو يجئ الاغتيال على يد غير من عليه الدور ولكن اختصاراً للـــزمن وللملك حق الدفاع عن نفسه وتحذير أي شخص يدخل المدينة ليلاً لأنه غير مصرح لأحد السكنى أو الدخول في المدينة فهي قاصرة على الملك ونسائه وأولاده وبقـــية الخدم ومن عاداتهم عدم زواج بنت الملك ولا شك إنها نظرة للمستقبل بعيدة المـــدى حتـــى لا يطمع ابن البنت كأحد أفراد الأسرة في أن يرث جده فيتطلع إلى تولي الرئاسة . فتنشب الحرب الأهلية بين الطائفتين هذا من ناحية .

أمـــا الناحية الأخرى تقديس الشلك لدستورهم المتوارث منذ آلاف السنين لم يشذ عن قاعدته أو يخرج عليه طائفة من طوائف الشلك ولو ألقينا نظرة على تاريخ الأمم وعلى اختلاف أجناسهم ومللهم ودياناتهم تجد في كتب التاريخ كثيراً ما نشبت الحـــروب الأهلـــية بـــين أخوين بسبب الاستيلاء على السلطة واعتدى أحدهم على الآخـــر إلا بـــين الشـــلك لم يثبت التاريخ حدوث مثل ذلك لولا ذلك لما اقتصرت المكوكـــية علـــى أربعة بيوتات وفي السنين الأخيرة خرج أحد البيوتات وأصبحت ثلاثـــة فقط ولولا التمسك بوصايا الجد الأكبر واحترام قراراته لما تخلف أحد عن المطالبة بحقه في الميراث ولو كان حفيداً وكان من أوجب واجبات الملك التقيد بما جاء في هذا الدستور غير المكتوب أما التغيرات التي حصلت أمام حكم الملك فافيتي فإنها لم تمس جوهر الدستور إنما كانت تغيير في القوانين واللوائح الداخلية لتواكب

النهضـــة الحضـــارية والتقدم الذي طرأ على البشرية ، حتى هذا التغيير الذي سمح بـــزواج بنت الملك أشار إشارة صريحة بالا يكون الزواج من قبيلة الشلك ولو كان ابن ملك سابق بل من أجنبي حيث لا مطمع لقريب في التدخل في شئون اخواله لان الابن منسوب لأبيه .

أما السبب في خروج البيت الرابع من حقه في السلطة لأن الدستور ينص في أحـــد بنوده على أن الملك يجب أن يكون ابن ملك لا حفيده ولا أي شخص آخر فإذا خـــلا بـــيت بسبب وفاة ابن الملك السابق عندما يجئ دوره خرج عن إرثه ومراعاة لهذه الحالة تنشط الاغتيالات كلما سنحت الفرصة حتى ولو لم يكن عليه الدور ولكن لاختصار الزمن وتقريب الدور .

وللمـــك وابناء المكوك سمتهم الخاصة لا يحق لأي شخص من أفراد الشلك العاديين من التخلق بها فمثلاً لا يحق لأي شلكاوي ان يهمل نزع ثناياه الأربعة من فكه الأسفل وكما لا يحق له التحلي بالفضة رجلاً كان أم امرأة سواراً كان أم خاتماً ولـــبس الخـــرز الأبـــيض من نوع رقيق على أحد رجليه ولبس فراء غزال النيل الغطـــاس فهو خاص بنساء الملك وبناته أما لحمه فهو للملك القائم أن كان قريباً من المكـــان وإلا يسلم لشيخ الحلة ولذلك هو معروف عندهم تحت اسم (صيد الملك)(1) يمـــنع صيده وللملك نصيب في لحم القرنتي وهي ما تسمى بالصرة ذات شحم لذيذ الطعم تقع بمثابة السنكيت بالنسبة إلى لحم البقر .

كما يحظر على أي فرد من الشلك اتخاذ بنت الملك كخليله فإذا ثبت عليه ذلك أو تقدمت هي بشكوى ضده فجزاؤه مصادرة أمواله مع عقوبة السجن .

بيـــنا فـــي هذه العجالة بعض ما حرم على أفراد الشلك بقى أن نذكر بعض العادات المتعلقة بحياة الملك نفسه .

فمـــن أوجـــب واجبات الملك أن يتخذ من فشودة مقراً له وله حق الإرث في نســـاء الملك السابق شريطة أن يكون الزواج من مال نيكانق وهو بمثابة مال الدولة والمـــال عـــبارة عـــن البقر والغنم حيث لها حظائرها الخاصة ويقوم بخدمتها خدم

خاصـين بها بعيداً عن ممتلكات الملك الذي يكتسبها أبان حكمه ولها أماكن أخرى خاصة بها وبذلك تكون النساء المتزوجات من بقر نيكانق من حق الملك يمسك منهن مـا يشـاء ويهدى بعضهن إلى بعض المشايخ المقربين أما النساء المتزوجات من المال الخاص فهن من حق أبناء ألملك المتوفى.

ذكرت أن لنيكانق بقر وأغنام خاصة به فمن هو نيكانق هذا هو الجد الأكبر كمـا أسـلفنا للشلك وتخليداً لذكراه له منطقة خاصة داخل فشودة عبارة عن أربعة قطاطـي متجاورة يضمها سور من القصب وهي قبر نيكانق . هذه القطاطي تبني من نوع خاص من القش يسمي (اتيقو) له بعض الشبه بما نسميه عندنا بالتمام تبنى بطـرقة هندسـية بالغة في الدقة وفي وضع منسق وجميل تبنى هذه القطاطي على رأس بـناية طينية متينة وتطلى بالجير الأبيض وترى القطية وقد تحسبها قبة وهذه القطاطـي لهـا قدسيتها واحترامها ولا يمكن أن يدخلها إلا سدنتها بغرض النظافة وبكـل أدب واحترام ولا يحق لأي سادن أن يرفع صوته داخلها ولا يتكلم مع أحد خارجها وأبوابها مغلقة على الدوام وتقع على جوانب هذه البناية حظائر الغنم والبقر كما أن للبيوت قداستها فلروث البقر الخاصة بنكانق له حرمه وقداسه ويحلف عليه في الحالات الكبيرة كحادث قتل لم يعرف من الجاني أو سرقة أبقار أو إنكار الزنا أو مـا شـابهها ولا يحصل عليه شخص إلا إذا جاء بشاة أو دفع قيمتها . أما الذي يحلف وهو كاذب فمصيره الموت العاجل أما إذا حدث حادث في قرية ما وأنكروا جميعاً يجئ بالرماد هذا بعد أن ينذر أهلها فإن أصروا على إنكارهم أخذ هذا الرماد المـربوط في خرقة من القماش بعد أن يربطه على رأس عصا طويلة ويسير في وسـط الحلـة وينادى استحلفكم بهذا الرماد بأن تقولوا الحقيقة فإن لم يجد استجابة لـندائه تركها وانصرف لم تمض مدة قصيرة حتى تخرب عن آخرها إما بمرض يعتـري سـكانها أو بحريق هائل يفنيها ويمحوها من الوجود وبيوت نيكانق ليس قاصـرة علـى فشودة وحدها بل وجودها يكون في قرية الملك الأصلية الذي كان يسكنها قبل أن يصل إلى رتبة مك ولها نفس القداسة والاحترام لروث أبقارها نفس

الفاعلية هذه وظيفته أما طريقته يجفف هذا الروث بنشره على الهواء وتحت حرارة الشمس ثم يجمع آخر النهار ويوضع في أماكن خاصة في حظائر البقر ثم توقد تحته النار بغرض وقاية البقر من لسعات الذباب والناموس ليلاً بسبب ما يحدثه من إثارة الدخان وبشكل مستديم طول الليل فالرماد المتخلف من هذا الروث هو الرماد المقدس ويسمونه بلغتهم (البر) أما الحلف في الحالات الصغيرة والتي لا تستوجب الحلف على الرماد المقدس يكون بواسطة لحس الحربة بمعني أن تمسك بالحربة بيدك وتضع لسانك عليها مروراً بطرفها أو تقبض على التراب بين أصبعيك الإبهام والسبابة وتضعه على لسانك تلفظه بعد ذلك وهذا الحلف يقع في المرتبة الثانية بالنسبة للبر وقد يكون كاذباً في حلفه وقد أيده الاستعمار وصارت هي الطريقة المتبعة حتى الآن أما استعمال البر بالطريقة التي أشرنا إليها تحصل بطريقة فردية لا دخل للمحاكم فيها إلا في حالات نادرة .

الشلك (2) : المك فافيتي

عندما وطأت قدماي أرض ملكال وجدت الرث كما يسمونه الشلك بجانب كلمة مك اسمه فافيتي وموطنه الأصلي قرية اسمها واو(2) تقع على شاطئ نهر النيل لا تبعد كثيراً عن ملكال انتقل إلى فاشودة بعد أن اختير لوظيفة مك وكان رجلاً في مقتبل العمر مربوع القامة يميل إلى الطول قوي البنية جميل الوجه تبدو عليه السماحة والطيبة وحسن الهندام يرتدي اللبس التقليدي لاوو(3) من القماش الأبيض ويلف وسطه بحزام من القماش اسود والأخضر يضع مسدساً تحت هذا الحزام يمسك بحربة في شماله وعصا في يمينه يتبعه حرسه الخاص وهم يحملون أسلحه نارية وكان عاقلاً ورزيناً جم الأدب يحبه كل من عرفه وكان تقديره للشماليين إحدى خصاله ينحاز إلى جانبهم عند كل ملمة عادل في أحكامه وقد ظهر جلياً عندما اصدر الاستعمار أمراً بالوقوف احتراماً للمك ومناداته بسعادة الرث وكان الشارع الرئيسي الذي يمر به الملك وهو في طريقه نحو المركز أو المديرية يمر بوسط السوق وقد يصادف وقت مروره في أول الضحى وكل تاجر يجلس على

مقعــد أو عنقــريب صــغير ليقرأ في مصحف أو غيره من الكتب الدينية ويكون الأهالـــي لم يفدوا السوق لبعد أماكن سكناهم في القرى المجاورة وقد لاحظ سعادة الــرث بعض ما يلاقيه الرجال المسنين من تعب عند القيام والقعود وترك قراءتهم وكـــان أبـــي يلاقي نفس المعاناة وكان يفعل ذلك امتثالاً للأمر وفي يوم من الأيام وأثـــناء مروره وقف أبي وحياه فمال عليه وجلس في ذلك العنقريب الصغير حيث كان يجلس أبي وأمره بالجلوس بجانبه فجلس وخاطبه قائلاً من اليوم فصاعداً لا تقم مـــن مقعدك نكتفي أن نتبادل التحية وأنت جالس لأنك أنت بمثابة أبي ولا أريد أن اشق عليك فودعه وتابع مسيرته .

سبق قبل قليل بعض التغيرات التي حدثت على يده إبان حكمه الذي استغرق اكثر من ربع قرن ووصفتها في صيغة مجمله ولا بد أن آخذها بشيء من التفصيل . كانـــت العـــادة السائدة ومن طبائعهم الموروثة إذا ما مات الملك تدفن جثته داخل قطيه لا باب لها ولا فتحه في جدرانها ويدخلون فتاه من اجمل الفتيات ومعها أواني للأكل وشئ من التمباك وآلة التدخين التي كان يستعملها في حياته اعتقاداً منهم انه ســتعاوده الـــروح فتقوم الفتاة بوظيفة الخادم لتقدم له بعض ما يحتاج إليه ثم تقفل القطـــيه عليها فتموت هي الأخرى جوعاً وعطشاً ، ولما تولى الحكم أمر بالإقلاع عـــن هذه العادة اللاإنسانية وكان قراراً حكيماً ولفته بارعة أن دلت على شيء إنما تـــدل علـــى إنسانيته ورجاحة عقله وإيماناً منه بأنه لا عودة للروح بعد خروجها . ومـــن بين العادات التي شملها التغيير عندما كانت التجارة غير قاصرة على المدن ولهـــا فروع بالقرى والحلال ويكون التاجر الشمالي دائماً معرضاً للتهم إذا غضب علـــيه أحد الأهالي أن منع أن يقرضه شيئاً من المال أو ثوباً يرتديه فيلجأ إلى الكيد به وفي اكثر الأحيان يلفق ضده جريمة الزنا إما بأحد نسائه أو إحدى بناته ويقدمه للمحكمـــة الأهلية وهو الغريب في المنطقة فلا يجد من يناصره أو يأخذ بيده فتحكم المحكمـــة عليه بالغرامة وهي التهمه الوحيدة التي يجد من ورائها الشاكي جزء من مال الغرامة .

كثــرت الشــكاوى وضج التجار ووصل الأمر إلى الملك وأخذ في دراستها فوجدها ادعاءات كاذبة الغرض منها ابتزاز أموال التجار على أثرها جمع كل العمد والمشــايخ كمجلــس شورى وقام فيهم خطيباً بما معناه إنكم تعلمون إن كل التجار الموجــودين معــنا سواء في المدن او الأسواق الخارجية هم إخواننا وضيوفنا وهم غــرباء ويحــتاجون إلى الحماية ضد ذوي الأطماع بغرض الابتزاز وتلفيق التهم الكاذبــة ضدهم ونحن يجب أن نكون صادقين ونلوم أنفسنا قبل أن نلوم التاجر إن صــحت التهمة أم لم تصح فالمسئول الأول والأخير هو الرجل الذي أرسل زوجته أو ابنــته للســوق وفــي يدها دجاجة ربما معها حزمة من القصب تبيعها لتشتري حاجــتها مــن السوق، جاءتك تحمل زجاجة بها زيت وملح وبصل وتمباك وبعض الخــرز جاءتــك بما يساوي عشرة قروش بينما ما حملته من بيتها لا تتعدى قيمته ثلاثــة قــروش فمــن أيــن جاءت ببقية المبلغ لا شك إنها باعت جسمها لتشتري احتــياجات البــيت فما كان الأجدر بهذا الرجل أن يسألها من مصدر هذه الأشياء فتغاضــيك عن هذه الظاهرة شجعتها لممارسة ما تعودت عليه وأنت راض أما لو حاســبتها لأقلعت . هذا من ناحية أما من الناحية الأخرى يصعب على الغريب أن يطلب من امرأة غريبة إلا إذا ابتدرته هي أو أبدت ما يشبه الرغبة وإن وقع الاتفاق لا شك انه سيعطيها حقها في يدها وهذا يقوم مقام الكور المعروف لدينا (كلمة كور معــناه دفع تعويض للزوج أو الأب مبلغاً من المال لما لحقه من مساس بعرضه) ســواء قلــت هذه العطية أو كثرت قد رضيت بها فالحل الذي نراه هو أما أن نمنع بناتنا ونسائنا عن الذهاب إلى السوق وحدهن دون رقيب أو نرضى بالواقع وسكت قليلاً وطلب من الحاضرين على التعقيب على ما تقدم فكان الإجماع على صحة ما تقدم طلبوا منه رأيه في علاج هذه الظاهرة قال الرأي عندي كل امرأة دخلت على التاجر في بيته وهي طائعة مختارة وخلعت ملابسها بيدها لا جريمة ولا تهمة على التاجــر أمــا إذا وجــد التاجــر في بيتها أو بيت زوجها فهو أثم ويستحق أن يقدم للمحكمة تثبت براءته أو إدانته فوافق الجمع على هذا الرأي وصار ساري المفعول

إلى يومنا هذا .

وبعــد أن أقر مبدأ زواج بنت الملك من الأجانب أصبحت بفضل فافيتي ربة أسرة ولها أولاد وبنات وهي تعيش مع زوجها وبين أبنائها وخدمها في سعادة تامة بعــد مــا كانــت لا تجد الاستقرار من كثرت تجوالها. الملك عند الشلك ذو فراسة واحتــرام لا يجــرؤ أحد بالنظر إليه ولا اعتراض طريقه ولا الوقوف بجانبه وإذا شــاءت الظروف وجمعهم طريق واحد فعلى المارة أن تفارق الطريق ويجلسون علــى الأرض بعــد أن يبــتعدوا عن مكان الحراب التي كانت بأيديهم ثم يطأطئوا رؤوســهم ويمسحوا الأرض بأيديهم وهم يرددون (واه واه) أو (دوك دوك) بمعنى أبي أبي ولا يحق لأحد أن يرفع رأسه قبل أن يبتعد عنهم موكب الملك.

بقــي علينــا أن نذكر شيئاً على قدر ما حوته الذاكرة هو كيف يقع الاختيار على الملك ،

فالشخص المرشح لمنصب الملك يجب أن تتوفر فيه الصفات الآتية(4) :

أن يكــون متناســق الجســم جميل الوجه لا دميماً وليس به عاهة مستديمة كالعــرج أو فقدان إحدى عينيه أو بياض أو حول العين ولا أعسر أي يستعمل يده اليسرى بدل اليمني وألا يكون قصير القامة هذا من ناحية الوصف ولكن هناك عقبة أخرى يجب أن يتخطاها وهي قبول الآلهة وأين الآلهة وكيف الوصول إليهم .

ســبق أن تطرقنا فيما سبق عن الأخوين نيكانق وداقي عندما رضيا بالفراق ووصلا إلى خور شمال كاكا التجارية وحانت ساعة الفراق وغرز داقي كوكاباً من الفضة في عرض نهر يجري ماؤه وخاطب صاحبه من هنا نفترق وكل منهما أخذ طريقة وفي مكان هذا الكوكاب أصبح مقدساً تبدأ منه مراسيم التتويج لكل ملك جديد وكيف ذلك فيجئ كل الكجور والرجال المسنين فجاجاً لهذه المنطقة يتوسطهم الرجل المرشح ويدخلون مركباً ومعهم خروفاً تسير المركب حتى تصل إلى مكان الكوكاب وبعــد عمل بعض الطقوس والأدعية من الكجور ويطلب منهم قبول مرشحهم هذا ويرموا بالخروف في وسط النهر في مكان الكوكاب فان غاص في الماء فقد قبلت

الآلهـــة هذا الترشيح وان عام وخرج إلى البر فان الآلهة لم ترض ولا بد باستبداله بواحد من إخوانه.

بعد رجوعه من عملية الاختيار وقد رضيت الآلهة يعود بعدها لمقره بفشودة تقـــام الولائم والحفلات ويتقاطر العمد والمشايخ والأعيان مهنئين بعدها يتفرغ إلى مهامه الأخرى ومنذ تلك اللحظة أصبح شغله الشاغل هي حياته حيث أصبح عرضة للاغتيال ويجب عليه عمل كل الاحتياطات اللازمة.

ومن عادة الملك أن يتخذ من اكبر نسائه كوصيفة لبقية النساء حيث تقوده إلى بـــيت كل منهن ليلاً وفي تكتم شديد وسرية بالغة ورغم الثقة التي وضعها في هذه الوصـــيفة لا يخلو قلبه من وسوسه بأن تجد ما يقربها ويمنيها بوعود براقة فتدلهم على مكان مبيته فيتربص به ويقتله أثناء خروجه من البيت فهو لا يأمن مكر النساء وعلـــيه تجده ينتقل من بيت إلى آخر بعد رجوع الوصيفة تحسباً لما جال بخاطره وقـــد يحدث ذلك كثيراً حيث يجد المتربص فرصته بواسطة نساء الملك نفسه وكلا الشخصين المتربص والمتربص به يعلمان تمام العلم أن أحدهما ميت لا محالة .

ومن المواقف التي لا أنساها موقف الملك فافيتي مع المفتش البريطاني عندما شعر المفتش بأن منطقة كدوك مهددة بمجاعة وأخذ الأهالي في اللجوء إلى المركز حيث ينادون بالذرة ونشط التجار وأبرقوا جهات السودان المختلفة يطلبون الذرة من مظأنها جاءت الصنادل وهي محملة بالذرة لكنها بأسعار عالية فالتقى المفتش بالملك فافيتـــي وقال له لا تشتروا الذرة من التجار لأن الحكومة ستسعف الأهالي بكميات كبيرة وبأسعار رخيصة وعليك أن تعلن الشلك بالا يتورطوا في شراء كميات كبيرة وينتظروا معونة الحكومة التي ستقدمها لهم وبأسعار مخفضة فرحب بالفكرة وشاع الخبـــر وتوقـــف الأهالي عن البيع إلا ما يكفي ليوم أو يومين طالت الأيام ومضت أســـابيع ولم تظهر الإعانة أثر وكادوا يفقدون صبرهم في عصر أحد الأيام جاءت باخـــرة تجر عدداً من الصنادل وتركت أحد الصنادل وفي داخله كمية محدودة وفي الصـــباح جـــاءت قوة من البوليس تنظم وقوف الناس في صفوف متراصة وجاء

المفـــتش والمـــك وجلـــس كل منهم على مقعد ليراقبوا عملية التوزيع فكان نصيب الأســـرة نصـــف كـــيله وهي لا تكفي إلا ليوم أو يومين ونفذ الذرة فالتفت المفتش مخاطـــباً المـــك أما ترى أن الحكومة أحسن من الجلابة ولم يقل التجار استصغاراً لشأنهم وهو لا يدري إن كلمة جلابة في العربية اسم فاعل من جلب وجلب معناها أتي بالشيء أي جلبه أو سامه للبيع حتى في اللغة العامية فليس فيها ما يشين ولكن حقـــده الدفين أبى عليه إلا أن يقلل من شأنهم وأردف قائلاً إنهم في مثل هذه الحالة يضـــطرونكم لبيع أولادكم بالذرة فأي الفريقين أحسن الحكومة أم الجلابة فرد عليه المـــك قائلاً احسن الجلابة فجحظت عيناه وأحمر وجهه واستشاط غضباً قال وخيبة الأمـــل تملأ جوانحه كيف ذلك قال المك إن كان لي من الأولاد أربعاً وبعت منهم واحداً أنقذت حياة الثلاثة الآخرين أما الذي ينتظر وعدكم سيفقد الأربعة،إضافة إلى ذلـــك أنت تعلم لم يعد هناك بيعاً للأولاد أو غيرهم . كلمة شجاعة صادرة من قلب مـــؤمن بدور أخيه الشمالي وما قدمه من مساعدات قبل أن تطأ قدم الإنجليز أرض السودان وكان وقع الرد عنيفاً وندم على ما بدر منه إذ كانت النتيجة عكس ما كان يـــتوقع فشرب المقلب وما بيده حيله حيث المك لو أراد نقله لفعل في أقل من أربعة وعشرين ساعة .

الشلك (3) العادات : الخطوبة والزواج

إذا القينا نظرة عامة على العادات والطبائع بين القبائل الثلاثة المتجاورة التي تسكن إقليم أعالي النيل هم الشلك والدينكا والنوير لا تجد فارقاً كبيراً يستحق الذكر ولذلك آثرت أن أتطرق للحديث عن القبائل الثلاثة تجنباً للتكرار وهم بحكم بدائيتهم لا دينيين ولا هم وثنيين تجد وجهات نظرهم متقاربة في ممارستهم وطريقة حياتهم تجمعهم ثلاث خصال الزراعة والعناية بالثروة الحيوانية وصيد الأسماك وهي عمدة الحياة ولنبدأ باختيار الفرد بشريكة حياته .

فـــي العصـــور القديمـــة كانت الحروب بين هذه القبائل ليست هي الحروب بالمعنى المعروف لكن غارات تشنها بعض أفراد القبيلة على أفراد القبيلة المجاورة

بغرض السلب والنهب وكان الخوف من هذه الغارات التي تشن تحتاج إلى تضامن وتكاتف للسهر على حياتهم وعلى ممتلكاتهم ولذلك تجد كل إخوان أو أولاد عمومة يســكنون قرية واحدة حيث تجمعهم العصبية ويتفانوا في الدفاع عن أنفسهم وعلى هذا الأساس يعتبرون أنهم إخوة ولا يجوز التزاوج بينهم وهو محرم تحريماً باتاً مما يضطر الفتى بأن يبحث عن فتاته في أماكن بعيدة لا تربطه بأهلها صلة قرابة وقد تجمعهم الأسواق أو الليالي الساهرة بمناسبة الزواج الذي يكون عادة بعد الفراغ من الحصـــاد ويكون الشباب في شكل عطالة فيسيرون زرافات ووحداناً لحضور ليالي العــرس وتبدأ السهرات والاتصالات الفردية بين الفتى والفتاة ويستمر التلاقي في المصـــايف علـــى شاطئ النيل أو أحد روافده حيث التجمعات السنوية مع ثروتهم الحيوانية وعندما يحصل التقارب بين وجهات النظر وتأخذ المسألة شكلاً جدياً تبدأ الخطوة التالية وهي أن يصحب الخاطب صديقه ويقود كل منهما ثوره الذي يعتز به ويســيرا نحــو مصــيف الخطيبة وعندما يكونا على مسمع من المصطافين يغنون بصــوت عــال غــناء الشجاعة وعندما يتناهى إلى أذن الخطيبة تبادر باصطحاب صـــديقتها لمقابلـــته خارج دائرة المصيف فتمس كل منهن بمقود الثور الذي يكون علـــى رقبته جرساً يرن أثناء تحركه ثم يسرن على أطراف المصيف ومن خلفهن الخطـــيب ورفيقه وهم يرددون الغناء وأصوات الأجراس ورنينها الهادئ وفي ليل ساكن يأتيك وكأنها موسيقي حالمة .أما شباب المصيف فلا دخل لهم لا يعترضون طـــريقهم وبمـــوقفهم هذا يقومون بتهيئة الجو الصالح لقيس وليلاه يستمر الطواف والغــناء إلـــى أن يحين الفجر فيودعوا بعضهم ويعودوا من حيث أتوا تتكرر هذه المقـــابلات وعندما رأوا انهم على اتفاق تام تعلن الخطبة ويسعى أهل الفتى لمقابلة أهلهـــا لأخـــذ رأيهم وتبدأ المشاورات فيما بينهم أي أهل الفتاة وبعد الموافقة تصبح مخطـــوبة رسمية وعليه بعد ذلك تقديم الهدايا لها ولأسرتها التي تقتصر على الأم والأب يمـــدهم بشيء من التمباك والسمك وأشياء صغيرة إن كان ذو عسرة أما إن كـــان ذو ميســـره فيقدم لهم بقرة حلوب وعندما يستعد العريس ويريد إتمام الزواج

يتقدم وفد من أهله ويلتقي بأهل الفتاة لتحديد المهر وهو من البقر ولا وجود للنقد في هــذه المــرحلة والمهــر عــادة تحديده يتوقف أولاً على جمال الفتاة ومكانة أبوها الاجتماعــية مــن حيث هو من الأعيان أو من المشايخ أو هو صاحب ثروة وعدد أولاده وبــناته فكلما كان له صفة من هذه الصفات أو أكثر كان المهر غالياً وكلما كثــرت بــناته يعتبر من أصحاب الثروة التي ستهبط عليه إن لم تكن عاجلاً فآجلاً وهــناك ثمة ملاحظة لابد من إبدائها يختلف مهر الفتاة بين القبائل الثلاثة تجد عند الشــلك بعــض التسامح ولا يميلون إلى المغالاة في المهور ففي سبع أو عشرة من البقــر كفاية وأن لم تكن حاضرة كلها تكن ديناً عليك توفيه مستقبلاً وهذا المستقبل غيــر محدود ربما يصل إلى أن تلد بنتاً وتزوج هي الأخرى فيؤخذ من مهرها ما يسدد عن أبيها من دين ولا شك أنها طريقة جميلة ولذلك قل أن تجد في قبيلة الشلك عانســاً إلا أن تكون ذات خلق سيئ أو بها عاهة مستديمة . أما بين قبيلتي الدينكا والنوير ومراعاة كل الاعتبارات التي مر ذكرها تبدأ المساومة وقد تصل إلى مائة بقــرة فــي بعض الحالات ولكن التساهل الذي يحدث هو أن البقرة وتابعها تعتبر اثنتين والبقرة أو في بطنها تعتبر اثنين والعجلة الصغيرة بقرة والعجل الصغير ثوراً هذا إذا لم يجد العريس مزاحماً أما إذا ظهر في الميدان عريساً آخر متولهاً في حبها مــيت فــي غــرامها يقام مزاد علني فهي لمن يدفع أكثر وهي حالات نادرة . أما الطــلاق فلا يحدث إلا في حالة العقم فإن لم تنجب المرأة للرجل له حق ردها إلى أهلهــا واســترجاع المال المدفوع إلا من عدد قليل يستبعد بسبب المعاشرة الطويلة التــي قضــتها معــك شريطة أن يكون العقم من جانبها بأن يكون للرجل أبناء من زوجة أخرى أما أن لم تكن له زوجة أخرى فلا يقع الطلاق بحجة ربما يكون العقم من جانبه وهو في حالة أخرى إذا كانت المرأة تلد ذكوراً وليس من بينهم أنثى يحق للرجل المطالبة برد جزء من المال على أساس إن الذكر يأخذ من أبيه ولا مصلحة له في ذلك أما البنت فهي تأتي بالبقر وتعويض أبيها بعض ما فقد .

وهــذا المهــر ليس من نصيب الأب والأم وحدهما بل يقسم على الآخرين

كالأخوة والأعمام والخالات وغيرهم وكل واحد له نصيبه المعلوم وفي حالة الطلاق يرد مع كل الزيادة التي طرأت بعد ذلك .

وفي حالة رفض الخطيبة أو أهلها لأي سبب من الأسباب كالمغالاة في المهر أو ظهــور منافساً اتفق معهم وجب عليهم رد قيمة كل ما وصلهم إبان الخطبة التي كـــان يقدمها وهو يحصيها بطريقة غريبة وهو كل ما قدم شيئاً كسر قشة أو عوداً واحــتفظ بـــه والمرة الثانية يأتي بعود آخر يربطه معه وكل نوع يربط على حده ويحفظ في ذاكرته متى وأين قدمها وبحضور من وعلى مر السنين .

العادات : زواج المرأة من امرأة أخرى

من أغرب العادات والتي لا مثيل لها في أوساط القبائل الأخرى زواج المرأة من امرأة أخرى يصيب المرأة العقم وتكون ميسورة الحال أي تمتلك عدداً من البقر وتـــرى بمـــوتها ستذهب أموالها ويرثها من تعتبره غريباً عنها تتقدم لخطبة إحدى الفتيات وتقدم المهر المطلوب وتختار من بين الفتيان من يروق في نظرها من حيث الـــوجاهة واكـــتمال البنية وتناسق الأعضاء تختاره لمعاشرتها كزوج وتهيىء لها مسكناً بالقرب منها وله في كل مولود بقرة إن كان ذكراً وان كانت أنثى بقرتين أما الأولاد أنفســـهم أولادهـــا لأنها الزوج الشرعي ولها حق التصرف في كل ما تأتيه الزوجة من تصرفات وهي التي تقوم بأمرها وتسد النقص إذا عجز هو في معيشتهم اليومية فمهر البنات اللواتي يولدن نتيجة لهذا الزواج فهو للمرأة ولا يصيب العشير منه شيئاً .

في حالة أخرى إذا مات لامرأة ابناً في صغره فهي تزوجه وتدفع المهر نيابة عـــنه وتأتـــي بمستأجر ليقوم بعملية الإنجاب ويكون نصيبه كما في الحالة الأولى والأبناء ينتسبون إلى الابن الذي مات في حداثته .

وفي حالات نادرة الجمع بين الأختين ولا يتأتى ذلك إلا لذوي الجاه والعظمة وان يكـــن ثـــرياً مفرطاً في الثراء ويعيشان كزوجتان ولا يحصل بينهما شقاق ولا تغير في المعاملات وهذا التسامح ليس قاصراً على الأختين بل هي ظاهرة بين كل

القــبائل اللادينــية فــي السودان والرجل قد يكون تحته أكثر من زوجة وقد يصل عــددهن إلــى العشرات لا تجد بينهن من تبدى خصاماً أو حسداً أو أي شئ يعكر صــفو حــياتهن لأن وجودهن بهذه الإعداد ليس الغرض منه المتعة الجنسية لكن الغايــة منه الإنجاب أولاً ثم الإنتاج والعمل في المزارع فكلما كثر عدد النساء كثر دخــل الــرجل ومن واجب أي زوجه جاءت بعد أختها لها أن تحترم التي سبقتها والاحترام والتقدير فهو للزوجة الأولى حيث يحق لها أن تقوم بتوجيه كل امرأة لما فيه صالح الزوج وما عليهن إلا الإذعان .

تــنقلت كثيراً بين القبائل الثلاثة وعايشتهم لفترات طويلة وعرفت الكثير عن عــاداتهم رجالاً كانوا أم نساء ما سرني من عاداتهم وأثار إعجابي مثل عادة المرأة الشــلكاوية إذا مــرت على رجال يجلسون بجانب الطريق أثناء تنقلها من بيت إلى آخــر فــلا تــتخطهم بل تجلس على الأرض وتضع يديها على فخذيها وفي أدب واحتــرام بالغ وتناديهم بقولها (يا كواجي يو) ما معناها بالعربية استسمحكم لأخذ طريقي أمامكم فيجيبونها بنفس الاحترام تفضلي لا بأس عليك هذه العادة الحميدة لم أجدها في بقية القبائل الأخرى كما أعجبت بطريقة يمارسها الأطفال الصغار عندما يكــون الــرجال داخل الواك(5) وقت الظهيرة واشتداد الحر وهم يدخنون الكدوس وينادون طفلاً ويطلبوا منه أن يأتيهم بجمرة من النار فيذهب إلى أقرب بيت به نار بعد أن يملأ كفه من التراب ويقول لصاحبة الدار ضعي جمرة هنا كي أعود بها إلى الواك(5) فتضع له الجمرة ويذهب بها دون أن تصيبه حروق .

رياضة الصبيان

عــندما ينتهي وقت الحصاد وتنحسر مياه النيل مخلفة وراءها وفي مساحات شاسعة أعشاباً يؤمها الأهالي بثروتهم الحيوانية وما تصاحب تلك الثروة من فتيات وفتيان والصبيان حيث يجدون حاجتهم من اللبن والسمك أما كبار السن من الرجال والنساء لا يبارحون منازلهم والأبناء يمدوهم باللبن يومياً أما حياة التونج(6) (محل إقامــتهم) لكــل أسرة كوخها الخاص عبارة عن قطية صغيرة لحفظ الأواني ونوم

الفتيات اللائى يجهزن الطعام للرجال وهي وجبة في الصباح وأخرى في المساء ، بعـد ذلـك التفرغ لصيد السمك ولكل رجل أو امرأة كوكاب خاص به يصطاد به السمك حتى الأطفال الصغار في السابعة وما فوق ولكل شخص ما غنمه ويخرجوا لـيوقدوا النيران ويجمعوا الحطب أو روث البقر ليشووا عليه السمك حتى ما جاء العصـر لجـأ الصبية إلى رياضتهم المفضلة هي تعليم الصرف(7) وبما أن شجر الطـرور(8) كثيـر النمو بين الأعشاب يقطع كل واحد منهم فرعين من الطرور واحـداً منها ليضرب به أما الثانية ليتقي بها ضربات الخصم ويتقابلوا إثنان إثنان وتـبدأ الحـرب بيـنهما وكلمـا تكسر فرع جاء بأخر حتى مغيب الشمس وهم لا يمارسـونها كرياضـة بل تعتبر من صميم حياتهم وهي الوسيلة التي ينجو بها من الموت أو الأذى ولا تجد مسافراً ولو في طريقة إلى مزرعته إلا وفي يده درقة(9) مـن طـرور يقـي بها نفسه والدرقة من الطرور لها فوائد أخرى بأن يجوف أحد طرفيها فيحفظوا فيها لما لديهم من مال وقطع التمباك ولها قفل وكان الفارس منهم لا ينال درجة فارس أو عقيد إلا عن طريق إجادة الصرف ومهارته فيه وهي التي تكون سبباً في حياته تعطيه فرصة الصمود في ساحات القتال .

وطريقتهم في القتال بين القبائل الثلاثة قد تكون واحدة وهي واجبه على كل فتى شق جبهته وهي علامة لبلوغه سن الرجولة وله حق التصدي لها ودخوله في المعـارك ولكن وضعهم دائماً في المقدمة والذين أكبر منهم سناً يأخذوا موقفهم من خلفهـم أما بقية القوم والرجال الأقوياء يكونوا من وراء الجميع ليحرضوا الشباب علـى مقابلة العدو ويجبرونهم على الصمود وكلما رأوا انحرافاً من أحدهم زجروه وبـثوا فيه روح الإقدام والشجاعة وهذه الملاقاة قبل أن يطول وقتها فما أن يسقط شـخص من أحد الجانبين حتى بث الرعب في صفوف المتقاتلين فيولوا هاربين أو يتدخل العقلاء من الطائفتين .

العادات : دفن الموتى :

لا يعـرف الجنوبيـين المقابر الجماعية إلا في المدن الكبيرة حيث جاء بها المسـلمون وخصصـوا لها رقعة من الأرض يدفنون فيها موتاهم ورغم مالها من فـوائد صحية واجتماعية لم ترق في نظرهم ولم يعملوا بها إلا الذين سكنوا المدن وبأمـر من السلطات أما في القرى فلازال الميت يدفن بالقرب من بيته الذي يسكنه أو فـي فـناء الدار وكل قبر قائم بذاته فالميت لا يدفن يوم وفاته وربما تأجل ذلك ليومـين أو ثلاثة على حسب مكانة المتوفى فان كان من الأعيان أو عمده أو شيخ ولـه مكانته المرموقة يترك حتى يجتمع الأهل والمعارف الذين ترسل لهم الرسل التي تنادي في القرى والحلال تعلن وفاته ولكن الجثة تحتاج إلى نوع من التصبير حتى لا يصيبها التعفن أو التحلل فعند الشلك طريقة تحفظ بها الجثة وهي الزريعه(10) والـزريعه معـروفة لكل سوداني شرب الخمر أم لم يشربها، وما محتويات (الحلو مر) إلا جزء منها . تسحن سحناً جيداً ثم تغطى بها الجثة فهي مانعة للبكتريا وقد توصلت إلى هذا الاكتشاف منذ مئات السنين وهي تستعمل حتى الآن وبعد إتمام مراسـيم الـدفن يتفرق الجمع على أن يعود عندما يعلن عن إقامة ليالي المأتم في المسـتقبل وقـد يتأخر ذلك لمدة عام كامل إلى أن تكتمل الاستعدادات اللازمة وقد يـتطلب ذلـك مـبالغاً طائلة وعند الإعلان عن الموعد المحدد تنحر الذبائح وتعد المشـروبات ويتوافد المعزين حتى تضيق بهم المساحة ويجئ الشباب والعقيد الذي يقـودهم فـي عدتهم الحربية درق وحراب وعكاكيز ذات أذنين وما أن دخلوا فناء الدار وواجهوا قبر الميت حتى صاح العقيد وبأعلى صوته أغانيه الحربية والجنود مـن خلفـه يرددون بعض الفقرات وهم يسيرون نحو القبر في حركات تمثل الكر والفـر حتى يصلوا القبر ويقف العقيد أمام القبر ليقول ما معناه (هذا الموت الذي اختطفك من بيننا خلسة كان هو راجل ما يجئ بيننا) ثم يرجعوا لينالوا نصيبهم من اللحم والمشروبات ثم يعاودوا العمل إلى وقت متأخر من الليل وبذلك ينتهي العزاء وتتفرق الجموع .

الأب وكبر السن

لا أريـد أن اخرج عن هذا الموضوع موضوع الزواج وغيره قبل أن اذكر شـيئاً عـن الآباء عندما يصل بهم العمر إلى أرذله أو تحل بهم الشيخوخة ويكون نتـيجة لذلك العجز عن تأدية واجبه نحو نسائه ولديه من النساء عدداً فيهن الكبيرة والصـغيرة وله أولاد . هؤلاء الأولاد يحق لهم معاشرة هؤلاء النساء غير أمه وقد يـنجب منها فهو أخوه وينسب إلى الأب صاحب المال المدفوع ولا يعامل كمعاملة المسـتأجر في الحالات الأخرى أما بعد وفاة الوالد فالمرأة والمولود بعد الوفاة فهما له حيث المرأة قد يملكها عن طريق الإرث .

العادات : تسمية المولود عند الشلك

جـرت العـادة عـندنا في الشمال عندما تصل المرأة شهرها الأخير ينعقد مجلس الشورى قوامه الأبوين ربما يتسع ليشمل في عضويته الحموات والأصدقاء لاختيار الاسم للمولود ذكراً كان أم أنثي فيغرق كل منهم في تفكيره وتأملاته ويدخل بطون الكـتب التي قرأها أو ما قيل بالسماع ويغوص في دواوين الشعر جاهلية وإسلامية كـل ذلـك ليجـيء بالاسم الذي يحظى بالتأييد ويحرز قصب السبق وينال رضا المجلس ويطرح على مسامع المجلس ما استحسنه من هذه الأسماء وبعد التمحيص يستقر الرأي على الاسم المختار أما عند الشلك يروا لا لزوم لهذا المجهود المضني بـل يتركوا ذلك للأيام والى الساعة التي تضع فيها المرأة مولودها ويسمى على ما يحـدث في تلك اللحظة فمثلاً دخل في تلك اللحظة إلى القرية تاجراً يسوم بضاعته فالاسم (نابوتي)(نا) معناها بنت (بوني) معناها الجلابي وان جاءها المخاض تحت شجرة هجليج فالمولود اسمه (ناطو) أي بنت الهجليج وان كان شجرة ولو قصيرة فالاسـم (نايـاط) وقد يسمى (نایاط) في حالة أخرى إذا كانت المرأة قد توقفت عن الحمـل مدة طويلة واستعانت بالكجور وأعطاها علاجاً قوامه عروق الشجر يسمى (نايـاط) فكلمة (ياط) تشمل الشجر والعروق وقس على ذلك . وفي بعض الحالات عـند قبـيلة النوير عندما يتأخر الجنين في بطن أمه عن المدة المعروفة التي هي تسعة اشهر ويستمر إلى سنة ونصف السنة ففي هذه الحالة فالاسم عند الشماليين إن

كـــان ذكـــراً فالاســـم (عاول وان كانت أنثى فالاسم عاوله أما عند النوير فالاسم روفاي) (رو) معناها اثنين فأي شهراً أو شهور ما يقابل في الإنجليزية (دبل ايدج) ، أما عند الشلك فاسمه (أوو) ذكراً كان أم أنثى .

الشلك (4) المسكن ــ المأكل

ســبق أن تحـــدثت عن الواك ووظيفته في المجتمع الشلكاوي وقد آن لي أن أتحدث قليلاً عن الدار التي تسكنها الأسرة في الريف الشلكاوي الذي لا يختلف عن بقـــية القبائل المجاورة هذا إذا استثنينا الذين نزحوا من الريف واستوطنوا العواصم والمدن الكبيرة موظفين أو عمال فقد طرأت على حياتهم الكثير من التغيرات بحكم اختلاطهم بالشماليين والأجانب تغييراً أساسياً شمل كل أوجه الحياة من مأكل وملبس وتــبعاً لذلك استعمال الأسرة والفرش التي ينامون عليها فتعال معي ندخل دار في الريف تسكنه أسرة شلكاوية "نحن أمام سور من القصب على ارتفاع مترين أو أكثر ولـــه مـــدخل واحد وعليه حصيرة مطوية جانباً لسد المدخل عند اللزوم فعندما تلج المدخل تجد أمامك بعض القطاطي تفتح أبوابها على فناء نظيف وعلى أحد جوانبه تقـــوم بـــناية على ارتفاع متر وبنفس العرض لتكون موقداً للنار لطهي الطعام ليلاً وتكون حاجزاً يمنع لهب النار من الوصول إلى السور كما أن هذا الفناء مكاناً لسمر النساء عند اشتداد الحر في ليالي الصيف المباني كلها قطاطي لم تشملها يد التغيير منذ أن جاء بها الشلكاوي الأول قاعدتها من الخشب المغزوز على الأرض ومغطي بطـــبقة مـــن الطين ، فلندخل غرفة منها ولكن كيف الدخول والمدخل يكاد يلتصق بـــالأرض لا بأس فلندخل حَبواً ، حجرة نظيفة بكل ما تحويه الكلمة وعلى جوانبها جـــرار من الفخار مغطاة بصحون من الصاج المطلي سألنا عما تحويه هذه الجرار فأجابـــت ربـــة الـــدار يحتوى على مأكولات تستعمل في حياتنا اليومية فهذه يوجد بـــداخلها كمـــية مـــن الفـــول السوداني وهذه ملاي باللوبيا وهذا الجر الكبير ملئ بالـــزريعة والآخـــر به السمك المجفف وذاك لحم قرنتي مجفف . أما هذه الجرار الصـــغيرة المصطفة أمامها فهي لدبوبه وهي مشروب أقل كحولاً من المريسة أما

هــذه الــبخس فهــي للبن خاصة . ولما نظرنا في أعلى القطية رأينا سنابل الذرة الشــامية مربوطة على السقف قلنا ما معني ذلك قالت نعرضه للدخان المنبعث من هــذا المــوقد يمنع السوس عنه ليحتفظ بصلاحيته ليكون بذرة صالحة عند حلول فصل الخريف وأين تنامون فأشارت بيدها إلى قطعتين من جلد البقر مفروشة على الأرض مباشــرة بالقــرب مــنها كأساً مليء بالتراب يستعمل كمتفله وقت التدخين ويمــنع مــنعاً باتاً البصق على أرض الغرفة وقد أفادتنا على كل محتويات الغرفة فلنخرج . خرجنا كما دخلنا حبواً وكان أمامنا غرفتين واحدة تخص زوجته الأخرى أمــا الثانــية فهــي مسكن بيت الرجل وهي في مقتبل العمر تلبس كامل حليها من الخــرز الملون منظوم بطريقة متناسقة يزيد من جمالها أذنت لنا في الدخول دخلنا أرض غــرفة ملساء وكأنها مبلطة بالأسمنت خشيت أن تنزلق قدمي وعلى الحائط رســومات علــى أشكال حيوانات باللون الأزرق على جدار بلون بني تضفي على الغرفة جمالاً فوق جمالها ووجدت جلد البقر يحتل جانب الغرفة فنفضت منه الغبار اللاصــق به وأمرتني بالجلوس ثم خرجت وجاءت وفي يدها بخسة متوسطة الحجم ذات عــنق طويل ينتهي بفتحة صغيرة لا تزيد من أن تدخل رأس الإصبع تحتوى علــى كمــية من اللبن الزبادي فجلست أمامي والمرأة المرافقة وعقلت ساقها تحت وركها وأخذت البخسة وأخذت تضرب بالبخسة على أحد فخذيها ليتحلل ما بداخلها مــن اللــبن ليســهل انسيابه عبر الفتحة الصغيرة في أعلى البخسة وقالت أشرب فشربت على طريقة الكولا عن طريق فم الزجاجة فشربت ووضعتها على الأرض فأخــذتها وأعــادت نفس الطريقة ووضعتها بين يدي قلت لها كيف تعدون طعامكم فأجابــت فهو من الذرة ويصنع على ثلاثة أشكال الأول على شكل عصيدة والثانية علــى هيئة سكسكانية منحلة أما الثالثة فهي على شكل سكسكانية أو أرز مفلفل كل حــبة قائمــة بذاتها وما نوع الادام قالت قد يكون من اللبن أو سمك أو لحم قرنتي يطــبخ بالزيت أو دهن الحيوانات الأخرى مع إضافة أنواع من التوابل الأخرى أما لحم الدجاج وبيضه وبقية لحم الطيور الأخرى فلا تؤكل عندهم إنما تربيتها والعناية

بها بغرض البيع في الأسواق لتساعد على مشتري مستلزمات أخري .

والـــى هنا أكون قد أعطيت فكرة عامة عن الريف الشلكاوي . ومن طبيعة الشلك وبحكم وجود التجار الشماليين منذ القدم فلا مانع إذا دعي إلى طعام أن يأكل مـــع تاجـــراً أو خلافه وقل أن تجد ذلك في ريف النوير ففي مرة من المرات وأنا جـــالس تحت ظل شجرة في بلد النوير أتناول وجبة الإفطار تتكون من لحم الغزال ورغـــيف طازج يصلني عن طريق العربات جاء أربعة من شباب النوير وهم في كامل زينتهم ووقفوا بجانبي قلت اتفضلوا قال أحدهم ما هذا مشيراً إلى الرغيف قلت جـــرايه وهي أسم يطلق على الرغيف بعد أن اختفت الجراية المصنوعة من القمح والشعير كغذاء للجيش المصري قال أعطيني واحدة فأعطيته واحدة فبدل أن يوجهها نحـــو فمـــه وضعها عل أنفه وشمها ثم ابدي امتعاضاً ظاهراً وأبعدها عن انفه ثم تـــناولها الآخـــر فجاءت منه نفس الحركة وهكذا تداولها ثم أعادوها لي قلت لما لم تأكلوها قالوا أهذا شئ يؤكل ؟

العناية بالثروة الحيوانية

إن العـــناية التي يوليها الفرد من القبائل الثلاثة نحو ما يملك من أبقار تكاد تصل إلى درجة العبادة كيف لا وهي قوام حياته ومصدر رزقه حيث لا مكانة في المجـــتمع لمـــن لا بقر له فهو يسهر الليل لراحتها ويقضيه ساهراً لا يذوق للنوم طعماً يمشى نهاره ويسوقها من مكان لآخر بحثاً عن المرعى يجوع ليشبعها يعرض حـــياته للمـــوت ويدفع بنفسه أمام حيوان مفترس لينقذ بقرة أو ثوراً من بين مخالبه وهـــو لا يحمـــل إلا حربة في يده وعند عودتها في المساء في زمن الصيف حيث تكثـــر الحشـــرات التي تقلق راحتها فهي تقضي ليلتها أمام الواك بعد أن يعد أكوام الروث حولها وبين مرابطها ويشعل فيها النار فتنتشر سحب الدخان ليطرد البعوض والـــذباب يســـهر ليله ليهيئ لها سبل الراحة أما في فصل الخريف فالحالة تختلف ويشـــتد الـــتعب ويـــتطلب الموقـــف عناية اشد وحرصاً اكبر ولذلك طريقتين ليليه ونهاريـــة فمهمة النهار جمع الروث وتقطيعه إلى قطع صغيرة ليجف وعندما يحين

وقت الغروب يجعل من هذا الروث أكواماً حول المكان المخصص وبين المرابط ثم توضع عليها النار وهي تسري فيها ببطء لما يحويه الروث من بلل لكن يكثر دخانه وهي الوظيفة المطلوبة حيث تنتشر سحبه لتغطي الساحة ويطرد البعوض والذباب وهو يحمل على كتفه كمية من الحبال ليضع حبل أمام كل وتد وعند دخول القطيع الساحة تتدافع نحو مرابطها ولكل واحدة مربطها الخاص وهي تعرف مكانه فتسير نحـــوه وتقــف عــنده وهو يقوم بربطها وفي نحو العاشرة مساء عندما تشعر بان الطقــس بدأ في البرودة يقوم بتحويلها إلى داخل الواك الذي يكون سعته على قدر عــدد الحــيوانات وكلما زاد عددها كان البناء أوسع وقد تصل مساحته إلى عشرة أمتار ويسع نحو الستين أو السبعين منها وينام هو الآخر داخل الواك ليقوم بتزويد الــنار بكمية من الروث كلما احترقت الكميه الأولى هكذا إلى مطلع الشمس لتخرج من داخل الواك إلى فنائه لتجد نفس الجو المهيأ وعند الساعة الثامنة صباحاً تنطلق نحو المرعى وما أن قاربت عقارب الساعة نحو الحادية عشر ينشط الذباب ويغرس ابــره في جسم الحيوان وتمتص دمه فيسبب له الهزال إلى أن ينفق وللذباب لسعات مؤلمة مما يجعله يجري وهي تطارده ولذلك يعود القطيع إلى فناء الواك ليتقي ابر الــذباب إلى ما بعد الثالثة بعد الظهر ليرجع إلى مرعاه . هذا نذراً يسيراً لما يلاقيه المرء من عناء ومشقة في تربية قطيعه .

الــــواك

بقى علينا أن نعطيك فكرة عن الواك الذي ورد ذكره كمأوى للثروة الحيوانية وهو عبارة عن قطية واسعة قوامها الخشب المتين تتخلله الشعب يرتفع إلي مترين ويــتم ســياجه بمطارق لينه وتربط بالحبال ربطاً جيداً ثم تغطى بطبقة من الطين تــرتفع منها أعمدة الخشب الطويلة تستند من الداخل على شعبة وهكذا إلى أن يتم بناء الهيكل الخشبي يجئ دور الفلكاب(11) على أبعاد متقاربة بعدها يغطى بالقش وتكون الشعب من الداخل صفوفاً متراصة ذات أبعاد تتسع لربط الحيوان وكلما كثر الخشب كلما وقف صامداً يقاوم الرياح والزوابع وللواك وظيفة أخرى هو محل نوم

الشـــباب والصـــبيان من الرجال حيث تقوم راكوبة(12) فوق موقد النار وتتوسط الـــواك ثم يضفر وسطها الأعلى بأعواد الشجر الرفيعة ليناموت عليها وبهذا يتقون وطأة البرد والرطوبة حيث لا غطاء لهم ، وهو مأوى للضيف ولكل طارق كما انه مقيل للرجال والصبيان عندما تشتد حرارة الشمس ويتناولون داخله وجبة الإفطار .

أمـــا طـــريقة الأكـــل عندهم لكل أبناء جيل مائدتهم الخاصة ولا يميلون إلى الأكل بالأيـــدي بل بواسطة المحار الذي يحملونه من شواطئ الأنهار أو حفر خشبه على هيـــئه ملعقة أو قرن ثور ولا تدخل كل الأيدي إناء الطعام بل الأكل بالتناوب بأن يأخـــذ الأول بالمحارة ويملأها من الطعام ويفرغها في فيه ثم يضعها أمام الشخص الـــذي يلـــيه وهكذا إلى أن يفرغ الطعام أما السمك فهم يستعملون أيديهم مرغمين وليس للملعقة دور حيث كثرة الشوك وانتزاعه من بين اللحم لابد من استعمال اليد أو الـــيدين ورأس الســـمك له مكانة خاصة للذة لحمه وطعم مرقته فهو في الغالب الأعـــم يكـــون من نصيب رب الأسرة ولا يؤتى به في وقت تناول الطعام إن كان خارج البيت ومع الضيوف إلا إذا تعددت الرؤوس .

هل تفهم البقر ما يقال لها

يقال إن البقر من الحيوانات التي تفهم وتعي بعض الكلام الذي يدور حولها فـــان أمرت استجابت سلباً أو إيجاباً وإني مؤمن بهذه الظاهرة والتي شهدت بعضها وسمعت بعضها الآخر سواء كان من الشمال أو في الجنوب حكايات تروى في هذا الصدد يعترف بها كل من أتيحت له الفرصة للعيش بين قبائل البقارة سواء بين من يخاطـــبونها باللغة العربية أو من يتكلمون بلغة غير العربية والحكايات التي تروى في هذا المجال كثيرة لكنني اختار منها ما هو اقرب للعقول .

ومـــا هو غني عن التعريف الاتفاق على أن لكل بقرة اسمها الخاص سواء كـــان في شمال الوادي أو جنوبه شرقه وغربه هذا الاسم يلازمها منذ الصغر ولا تنساه أبداً غير أن الأسماء نفسها تختلف عند الناطقين بالعربية وعند غير الناطقين بها فالعرب يتفننون في الأسماء فمثلاً يسمي قمرية ــ سروال ــ عجوبة ــ عروس

، وهكــذا أمـــا في الجنوب فاسمها لونها ، وللألوان أوصاف دقيقة قلّ أن تجد في المراح اثنين بلون واحد ورغم تعدد الألوان فان البقر تميز لونها عند المناداة وعلى الدلالة لهذا الفهم أورد المثل الآتي للقبائل الثلاثة الشلك والدينكا والنوير لهم طريقة في تلوي القرون واعوجاجها عن النمو الطبيعي وفي أوضاع مختلفة وقد تطول هذه القــرون وتتــباعد المسافة بينها وقد يأتي الوقت الذي يحتاج فيه الثور إلى دخول الــواك الــذي غالباً ما يكون فتحته على هيئه قوسين متقابلين ( ) ضيق من أعلى ومن اسفل وأوسع الوسط فيتزاحم ثورين على فتحة الواك وقرونها كبيرة والفتحة لا تتسع إلا لواحد فالإنسان القائم على أمرها ما عليه إلا أن ينادي واحداً منها بلونه مــثلاً يا أبيض ارجع وراءك فيرجع الأبيض ليعطي الفرصة للآخر ليدخل والذي يجــد فــي قرنيه طولاً أو عرضاً فلا يحاول إدخالها بين تلك الفتحة إلا واحداً بعد الآخر .

أما في الشمال فذكاء البقر متعدد الجوانب ففي شهر يونيو من كل عام تبتدئ تباشــير الخريف ، الرياح والزوابع مما يثير الأتربة فتغطي برياحها بقية الكلأ مما يسبب الجوع للبقر وبقية الحيوانات الأخرى وتكون في حالة ضيق وقد تسقط بعض الأمطار المبكرة في جهة من الجهات فإذا جاء من يخبر بأن الأمطار قد هبطت في الموقــع الفلانــي والعشب قد نما والأرض قد اخضرت وكان ذلك على مسمع من القطيع فتتسرب تحت جنح الظلام وحتى تصل إلى المكان الذي أشاروا إليه .

وممــا شاهدته كنت قد افتقدت عجلاً لي وكنت ازور موارد الماء ابحث عن ضــالتي وكانــت الحكــومة ترسل الحملات للقبض على أصحاب المواشي الذين يتهربون عن دفع القطعان ولهم حق الحجز على كل القطيع وليس لديه ما يفيد دفع مــا عليه من قطعان وكنت اجلس تحت شجرة ظليلة مع أحد الرعاة فإذا هو يلفت نظري نحو جماعة مقبلين وقال من هم قلت لا أعرفهم على البعد قال ربما هم من أحــد حمــلات الحكــومة فقام وكان القطيع من البقر يرقد بالقرب منا فوقف أمامه ونادى سروال سروال فوقف كل القطيع فأخذ يلوح بعمامة له فاتجهت أنظارها نحو

الراعـــي ثم أطلق ساقيه للريح فإذا بالقطيع يتبعه جرياً ولم يترك خلفه إلا العجاج ، ويتكـــرر هـــذا المنظـــر إذا وقع القطيع في أحد المزارع وخاف الراعي أن يدركه صاحب المزرعة فيلجأ إلى هذه العملية حتى يبتعد عن مكان الخطر .

جـــاء رجـــل على عهد الحكم الثنائي وتقدم بعريضة ضد شخص آخر وجد عنده بقرة له افتقدها وهي لا زالت عجلة ولما طلب منه ردها رفض فأرسل المفتش الـــذي كـــان يقوم مقام القاضي أرسل في طلب الرجل فلما جاء وسئل عن مصدر البقـــرة قال هي ملكاً لي وبنت بقرتي وجاء بالشهود وحلفوا اليمين إنها بنت بقرته وطلب من الشاكي إحضار الشهود إن كان له شهود في اليوم المحدد وحلفوا اليمين إنها بقرته وبنت بقرته فاحتار المفتش في الأمر، كل خصم جاء بشهود يثبت أحقيته في هذه البقرة فمن هو صاحب الحق وضاق بهذه القضية ذرعاً فماذا يفعل فمن باب الخروج من المأزق أحال القضية إلى المحكمة الأهلية وكان على رأسها ود نواي(13) وهـــو يمت بصلة إلى الناظر ود عساكر وتربى بين أفراد الأسرة منذ صغره وعـــندما شب عن الطوق وبلغ سن الرشد عين كعضو في المحكمة حتى بعد نقلها لمديـــنة كوســـتي ترأســـها في سني حياته الأخيرة وكان ذكياً حاضر البديهة طيب المعشـــر وذو أخلاق . تسلم القضية وأمر بإحضار البقرة والخصمين والشهود في الـــيوم المعين وجاء المفتش ليحضر القضية ويرى كيف يتصرف ود نواي ، أعاد التحقيق في القضية واستجوب الخصمين والشهود بعد أن حلفوا اليمين إلى هنا رأى المفـــتش إنها قد وصلت إلى الطريق المسدود الذي حيره وقف ود نواي وطلب من المحكمـــة مرافقته إلى حيث تربط البقرة وكانت ترقد تحت شجرة والمفتش يتبعهم فوقـــف على بعـــد خمسة عشر متراً من مكان البقرة وأشار إلى المدعى عليه قائلاً (يا أخي نادي بقرتك) فناداها باسمها نحواً من ثلاث مرات وهي راقدة لم يحرك لهـــا ساكناً فأمره أن يكف فكف والتفت نحو المدعي قال نادي بقرتك فنادى باسمها فما كان منها إلا أن وثبت قائمة ونفضت أذنيها واتجهت نحو المنادي فجاءت ، فقال له سوق يا أخي بقرتك(14) ورجع بالمتهم وشهوده وحكم عليه بالسجن ستة اشهر

وثلاث على كل شاهد وكان المفتش يتتبع ذلك باهتمام واعجب بذكائه ونباهته .

كل القبائل التي تسكن السودان واللادينيين منهم لا يؤمنون بالقضاء والقدر ولا يؤمنون بأن للإنسان أجلاً لا يتعداه فهم في بدائيتهم يفهمون الإنسان لا يموت إلا إذا تسبب إنسان آخر في موته والعرف السائد هو إدانة المتسبب .

وفي يوم شديد الحر عند وقت الظهيرة جاء رجل بعد أن قطع رحلة شاقة وطويلة فأخذ منه الجوع والعطش مأخذاً بدت علاماتها على وجهه وشفتاه ، مر على قوم يجلسون داخل واك فأفسحوا له المجال وتبين لهم انه ابن سبيل وحوجته لشيء من الطعام باد على مظهره فقدموا له الطعام والماء فأخذ منها وبعد الفراغ قدموا له الكدوس المحشو بالتمباك وهو يؤدى وظيفة الغليون أو لفافة التبغ من حيث النكهة أو الكيف ففي أثناء التدخين يمر الدخان عبر قناة في طرفها الأعلى مما يلي الفم بخسه(15) محشوة بألياف نباتيه تشبه السبيب ليؤدى وظيفة الفلتر بالنسبة للسجائر ومن هذا الدخان أثناء مروره بين الألياف تتولد مادة كالعسل ربما هي نكوتين وبعد احتراق التمباك يكون قد حصل على درجة من درجات الكيف ولكن التي تأتي بعدها هي المطلوبة وهي الأهم يحشو الكدوس من الفحم وتوضع على رأسه جمرة من النار وتبدأ عملية تدخين أخرى لا أثر للدخان فيها ولكن حرارة النار المتأججة داخل الكدوس تنبعث منها حرارة شديدة تمر على ما علقت به البخسة من المادة العسلية فتحترق وتتحول إلى نكهة قوية الرائحة تأثر تأثيراً مباشراً على الأعصاب وتبلغ درجة الكيف أعلاها وصاحبنا الضيف عندما وصل إلى هذه المرحلة تصبب منه العرق حتى ابتل جسده وانحلت أعصابه وارتخت أطرافه في حركة من حركاته خرج منه ريح سمعه كل من كان في المجلس وكان في الواك بعض الأطفال فانفجروا ضاحكين وما كان من أحدهم من شدة الضحك أن وقع على قفاه فاصطدم رأسه بأحد العيدان المثبتة من أعواد الواك فشج رأسه وسال دمه وأسعف في الحال ولم يستمر الجرح طويلاً حتى برأ وسار الضيف في طريقه ولم تمض إلا شهور حتى مات الطفل لم يكن الجرح سبباً في وفاته فقاموا أهله

بــرفع قضــية ضد الضيف واعترف بما حصل منه أمام المحكمة وقال أهل الميت لــولا مجــيء هــذا الرجل وحصل منه ما حصل لما مات الطفل فأدانته المحكمة وقضت عليه بدفع الدية إلى أهله .

الزمبـــاره(16) (الناي)

الراعــي هو الراعي يجب عليه العمل بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني كالســهر علــى ســلامة قطيعه وأن يلتمس لها الأماكن التي تتوفر لها فيها أسباب الراحة سواء كان من ناحية ورود الماء أو أماكن الرعي وأن يؤدى وظيفة الراعي بكل أمانة وإخلاص وفي أغلب الأوقات تكون حياته فردية لا مؤنس له يجلس حيث تــرقد هــي يقوم عندما تقوم فهو ملازماً لها ملازمة الظل لا يجد النوم إلى عينيه ســبيلاً إلا لحظات تأتي بغير إرادته وهو يحتاج في هذه الحالة لشيء لطرد السأم ويؤنســه فــي هــذه الــوحدة وتعينه على السهر فوجد ضالته في الزمباره وكانت الــزمباره الأولى تصنع من نوع من البوص يسمي البزام(17) يستعمل أساساً في سقف المنازل بدلاً من الحصائر في وقتنا الحاضر وهو مجوف البطن متراكب على فصــوص ينمو غالباً ويكثره على شواطئ النيل الأبيض وروافده يغطي مساحات واســعة ويعــيش مدة أطول مما تعيشه الحصائر ولا يتأثر بالماء الذي يتسرب من خــلال الســقف لصلابة عوده ووجد فيه الرعاة صلاحية لعمل هذه الآلة أكثر من غيــره والزمباره معروفة من أقدم العصور لكن التاريخ لم يشر إلى مصدرها أهي دخيله على السودان ومن أين جاءت أأفريقية هي أم جاءت من خارجها تُرسل هذه الآلة نغمات موسيقية تأخذ بمجامع القلوب وترتاح لها النفوس ولها مواويل ومدادات فــي شكل مقاطع غنائية لا يرددها الحضور كما هي الحالة في الأغاني السودانية وفــي نغماتهــا الكفاية لمعرفة ما يريده الزامر نغماتها توحي بالحنان وتبث الشوق والغــرام فــي قلوب العاشقين وأول مسدار يبدأ به الزامر ومن يريد أن يتعلم هو اللــوت كلمــة لا تعطي معنى وليس لها وجود في اللغة ولا اللهجات العربية لكنها ســهلة التوقيع للمتعلم واستعمال الزمباره ليست وقفاً على الرجال بل تعداهم حتى

شمل الفتيات ومن الأغاني المستعملة (صوت الغرنوق)(18) و (يا بنات المنضرة(19) يـــا بنات المنضرة) وهي توحي بأن تاجراً يحث بناته على شراء بضاعته من المرايا وكلمة منضرة لهجة عامية مستعملة في كثير من أنحاء السودان محرفه من منظراً أو منظار تعني المرآة وأغنية أخري تقول (يا نسيب أمي الدود جاك) ولهذا المسدار حكاية ترويها الأجيال وتتناقلها :

يقـــال أن شاباً جاء شاطئ النهر يستحم وخلع ملابسه ودخل الماء وكانت له خطيـــبة ترعى سرب من غنمها بالقرب منه وهي تجلس تحت شجرة من حيث لا يراها فإذا بتمساح في منتصف النهر يطفو على سطح الماء فلما رأى الشاب غاص فـــي المـــاء مسرعاً واتجه نحوه ولما رأت الفتاة هذا المنظر وأدركت بفراستها ما سيحل بخطيبها إن هي تغاضت أو تجاهلت الموقف احتارت في أمرها وكيف تنبهه بهذا العدو المتربص وكانت من عادات النساء قبل أن تصلنا مدنية القرن العشرين لا تـــنطق باســـم الزوج أو الخطيب مهما كانت الظروف لان الرجل يعتبرها أكبر إهانة لحقت به فجزاؤها الطلاق الذي لا رجعة كما أشارت المغنية الكردفانية

أسمك تقيل يا فلان   ذي حنضل القيزان

وخشـــيت الفـــتاة أن تتعـــرض لمثل ذلك ويعتبرها من جانبه عملاً مقصوداً وإهانـــة صـــريحة فيفسخ الخطوبة ولا تستطيع مجابهته وهو عار يستحم ووجدت نفســـها بـــين أمـــرين أحلاهما مر ويجب أن تفكر قبل فوات الأوان فهداها أخيراً تفكيرها فأمسكت بالزمباره وبدأت تردد يا نسيب أمي الدود جاك والدود يطلق على التمساح وعلى كل حيوان مفترس رددتها مرة ومرتين وما أن سمع الفتى فهم منها أنـــه فـــي خطـــر خرج مسرعاً وقبل أن يرتدى ثوبه فإذا بالتمساح يظهر في نفس المكان .

والأغاني والترانيم التي تستعمل في الزمباره كثيرة لا يمكن حصرها في هذا المجـــال وبعد أن كانت الزمباره وقفاً على طبقة الرعاة تعدتهم حتى دخلت القرى واحتلت مكانتها في بيوت الأعراس وفي ليالي السمر يلتف حولها كل الشباب من

الجنسين للاستماع لنغماتها ولا أبالغ إن قلت إن البقر يستأنس بها ويصغي لنغماتها وتتوقف عن المرعى كما تستأنس الجمال وتستمع إلى صوت حاديها وهي تزيم تجاوباً معه ، والزمة صوت يصدر من الصدر ترويحاً لما يعتمل بداخله كما قال أبن الفارق :

بفرج بالتغريد ما بفواده   وبطرب أرباب العقول إذا غنا

الاستهتار بحياة الإنسان

اعتدت دائماً بأن أقوم برحلات تجارية على ظهر مركب شراعي صغير لا يتسع إلا لنحو ستين جوالاً أدخل بها الخيران كلما شعرت بنقص في كميات الذرة المعروضة في السوق بعد أن أجري اتصالات مع معارفي من الشلك الذين يسكنون القرى المجاورة لمدينة ملكال لمعرفة المناطق التي نالت حظاً وافراً من الأمطار وجنت محصولاً وافراً من الذرة وأشاروا لي على قرية نيار قرية كبيرة تقع في منتصف خور فنكانق معروف لدى التجار بخور حرامي وهذا الاسم لازم هذا الخور من قبل الثورة المهدية حيث يستمد مجراه من مستنقعات شمال مركز تونجه ويأخذ مجراه نحو الشرق حتى يلتقي بنهر النيل في نقطة جنوب غرب ملكال سمي بهذا الاسم أي خور حرامي لأن مدخله كان غير واضح وكانت المراكب الشراعية العاملة بالتجارة في تلك الحقبة تمثل دور الحرامي الذي يدخل الدار عن طريق بابه الضيق وعندما جاء الحكم الثنائي ووطد قدماه في تلك المنطقة لم يستطيع أن يغير هذا الاسم.

أخذت كل ما يلزم من بضائع ودخلت الخور وهو يسير متعرجاً تعرج طريق الحية وعلى ضفتيه تقوم القرى لكنها تبدو صغيرة الحجم قليلة السكان فلا تقف عندها حتى وصلنا نيار فألقت المركب مراسيها وأرسلت في طلب الشيخ فجاء رجل في نحو الستين من عمره يتوكأ على عصا يمشي خلفه ثلاثة من أبنائه وكنت قد تعرفت على اسمه وانتسابه إلى أحد البيوتات المالكة بوظيفة كونجرت.أي حفيد الملك استقيت كل هذه المعلومات قبل أن ألقاه فلما التقينا وأجلسته على فراشي

الخاص على ظهر المركب وخاطبته بكونجرت وقعت هذه المخاطبة في قلبه موقعاً حسناً وانشرح صدره ولم يحتاج الأمر إلى توضيح المهمة التي جئت من أجلها لأن وجـود المركب والجوالات تعرف بنفسها وفي ضحى اليوم الثاني لاح على الأفق البعيد غبار يتصاعد ويقترب شيئاً فشيئاً حتى انكشف عن كوكبة من الفرسان على ظهـر جيادهم يتقدمهم اثنان من المفتشين مفتش منطقة الشلك والآخر مفتش منطقة غـرب النوير والتقينا بهم أنا والشيخ وحييناهم والتفت مفتش الشلك نحوي وسألني عـن مهمتي قلت مشتري الذرة وأين تصريحك فقدمته له وبعد الإطلاع عليه رده إلـيّ واتجـه نحو الشيخ قائلاً ليس لدى من الوقت ما يمكنني من النظر في قضايا المـنطقة وجـئت مع مفتش غرب النوير في البحث عن النوير الذين يختبئون بين الشـلك ليعودوا إلى ديارهم وفي هذه اللحظة سمعنا صوتاً ينادي بلغة النوير أرجع تعـال والتفتنا جميعاً نحو مصدر الصوت فإذا برجل من النوير يطلق ساقيه للريح تكرر النداء ثلاثاً وكان المفتش هو المنادي فلما لم يستجب أمر الجاويش المرافق أن يرميه بطلقة ففعل غير أنه لم يصبه بقصد أم بغير قصد فما كان من المفتش إلا أن رفـع بندقيته ورماه فوقع على الأرض وهو يتخبط في دمائه سأله مفتش الشلك لم ذلك كله قال يبدو أنه ارتكب جريمة وهرب من دياره ليجد الحماية بين الشلك فلما شعر بوجودنا ووقوفنا ظن إننا جئنا في طلبه ولولا ذلك ما كان له أن يجري وكان يـبدو على وجه مفتش الشلك عدم الرضا والغريب في الأمر بعد أن أرداه قتيلاً لم يهـتم بجثته وسار في طريقه إلا أن شيخ الحلة نادى في أهله وواروا الجثة التراب تصـور هـذا الحادث الذي صدر عن مسئول يقتل شخصاً على الظن يخلق لنفسه المبرر بقصة من نسيج خياله لا تمت إلى الحقيقة بصله ، إنه الاستعمار والاستعمار والاسـتهتار بقـيم الإنسانيـة يأتـي بمثـل هذه الأفعال دون أن يخشى حسيباً أو رقيباً(20).

صيد القرنتي (فرس النهر)

القرنتـي حـيوان خصه الله جلت قدرته بالحياة تحت الماء وبالحياة في البر

وهــذه الخصوصــية لــم توهب إلا له وللتمساح والسحلفاة وهو كبير الجسم يأكل العشــب ولحمه يؤكل ويقال أن بعض العلماء أفتوا بأكل ميتته باعتباره صيد بحر كالحيتان والله أعلم ويختار لسكناه الجزر الغنية بالأعشاب التي يتصل أحد طرفيها بــتوج واسع والتوج معناه مكان منخفض تعلوه الفيضان وتنحسر عنه المياه فينمو العشب وقد يترك الفيضان بعض المستنقعات وهو مرعى كل الحيوانات التي تعيش على الأعشاب الأليفة منها والبرية . هذا الحيوان شرس الطبع يهاجم الإنسان وفي عــرض النهر إذا وجده على مركب أو طرور له أنياب طويلة قوية يدافع بها عن نفســه وهي كافية لقتل الإنسان إذا ما وقع بينهما أو بتر أي عضو نهشه بها واسع الفم كبير الرأس كثير اللحم غزير الشحم قد يصل إلى مائة رطل بعد تصفيته ولحم الصــرة منه من أجود اللحوم وهي تعادل السنكيت في البقر وهي من نصيب الملك عــند الشلك لا تمسها يد ولا يطمع فيها طامع فهي ترسل إلى فشودة رأساً . وتضع أنــثاه جنيــنها في أماكن غير مطروقه وتخفيه من الأنظار بين الأعشاب الطويلة وتراقبه عن كثب حتى يقوى عوده ويستطيع المشي وراء أمه نحو النهر .

أمــا طــريقة صيده عند الشلك ولهم معرفة تامة ومهارة فائقة لا تجدها عند القــبائل النيلــية إذا استثنينا قبيلة المونتانج وهم فصيلة من فصائل الدينكا سيجيء الحديث عنهم في موضوع آخر.

والخــروج لصيد القرنتي يحتاج إلى زمالة اثنين أو ثلاثة حيث السفر طويلاً والمسافات بعيدة وهم على ظهر مركب شروك ربما يستغرق أربعة أو خمسة أيام ذهاباً وسلاحهم أربعة أو خمسة بدينقات يصنع هذا السلاح خصيصاً لهذا النوع من الصــيد ينقــرز في جسم الحيوان ولا يخرج . له جهازان الأول الحبل يربط بين البدينقة والقناة الخشبية تشبه الرمح وهي سهلة الانفصال وينتهي دوره عندما تنغز البديــنقة في جسم الحيوان أما الجهاز الآخر عبارة عن حلقة تقوم في أصل البدينقة ليــربط عليها سلك طيع مرن سهل التثني يربط ربطاً قوياً وفي نهاية السلك تربط حزمة من الطرور لما له من خاصية هو عدم الغوص في الماء ليبين مكان الصيد

عندما يغوص في الماء . وأماكن صيده تكون غالباً في الجزر المنفتحة على التوج وتكـون الجزيرة ذات أعشاب طويلة وعامرة بقصب البردي وعلى شواطئها تجد المرعـي الخصيب وهي تسلك طريقا واحداً يقوم بتعبيده كثرة المرور عليه وعند العـثور على هذا الطريق يقيمون معسكراً على بعد ميلين ويهيئوا مكاناً لمعسكرهم على اليابسة ومن أهم مستلزمات الرحلة الناموسية لكل منهم حيث لا نوم ولا راحة إلا بـداخلها ويفرغوا المركب من محتوياتها إلا من سلاحهم وقبل غروب الشمس بقلـيل يسيروا نحو المكان المعين ويهيئوا للصياد مكانه بالقرب من طريق الحيوان ومن مؤهلات الصياد أن يكون قوى البنية مفتول العضلات شجاعاً صبوراً يتحمل قرصات البعوض ولسعات الحشرات وهو عاري الجسم لا يرتدي شيئاً لئلا يحدث تغييراً في طبيعة المكان فيسترعي انتباه الصيد فإن سبقه لاجتياز هذا المكان انتظر عودته عند تباشير الصباح وإن لم يكن ذلك فهو آت لا محالة . وعندما يحين وقت مجـيء الحيوان ويشعر بحركته وهو يمشي الهوينا بسبب رخو الأرض المبتلة أو الأعشـاب التي تسد مسلكه بسبب الرياح المتقلبة فيمسك الرجل ببدينقته وهو واقف حذر حتى يدنو منه وهو يقف كالخشبه لا يبدى حراكاً ولا يتنفس إلا ببطء وعندما تحـين الفرصة يرميه بكل ما أوتي من قوة فتغوص البدينقة في جسده ويتخير لها الأمـاكن القاتلة وعندما يشعر الحيوان بما أصابه ينثني راجعاً نحو النهر وهو يجر وراءه حـزمة الطرور ويبتعد عن المكان وبعد ذلك يكون قد انتهت مهمته في هذه المـرحلة ولا لزوم للتخفي أو السرية فينادي على صاحبيه بصوت عال فيسرعوا نحوه ويأخذوه عائدين إلى معسكرهم وفي الصباح تبدأ الجولة الثانية فيجوبون النهر عرضـاً وطـولاً بحـثاً عن الطرور فإذا ما عثروا عليه أمسك أحدهم ببدينقه بيده وأمسك الآخر بطرف السلك يجذبه نحوه بقوة فتتبعه الفريسة وما أن تقترب وتطفو علـى وجـه المـاء يرميها بما في يده ويغرزها في جسمها وبهذه الطريقة إلى أن تمـوت فيسـحبونها نحـو المعسكر ويقوموا بعملية تقديد اللحم والجلد وينشر على الهواء وتبدأ عملية البحث عن صيد آخر ومن جلده تصنع الدرق والسيطان .

اقتـــحام النـــار

بينما كنت أمارس عملي التجاري في قرية صغيرة تابعة لمركز أبونج على الضـــفة الغـــربية مـــن نهر سوباط ولما كانت المسافة بين أبونج وتوبو وهي مقر تجاري ليست بالبعيدة رأيت أن أقوم بزيارة لتجارها الثلاثة وتربطني بهم صداقة هم محمد الحسن العواي ومحمد احمد الشيخ وكان لدي كل منهم زوجة شمالية تقيم معه بأبونج إلا محمد الشيخ فالمرأة التي لديه من حلة الملكية بملكال وفي بعض الأحيان يتغـــيب التاجـــر ويخـــرج في رحلة قصيرة لا تستغرق أكثر من سحابة يومه عله يصـــادف بقـــرة يشتريها أو ثوراً أو جلودها وهو خير له من أن يقضي يومه في الـــدكان . جئت ولم أجد بالسوق إلا ود العواي يجلس أمام متجره وحيداً فرحب بي وقـــال هـــل لـــك في عشرة طاولة قبل أوان الفطور فلم أبد اعتراضاً وبدأ اللعب وانحصـــر كـــل تفكيرنا في الطاولة فإذا بجرس الحريقة يضرب من نقطة البوليس ويعلـــن إن حريقاً قد شب ويطلب النجدة لإطفاء الحريق فاشرأبت أعناقنا واتجهت أنظارنـــا نحو المصدر فإذا بالدخان يتصاعد من منزل محمد الشيخ الذي كان غائباً عـــن المنزل والدكان لا يبعد إلا بأمتار قليلة من المنزل المحترق فصحت مسرعاً واتجهـــت نحو المنزل فقابلتني الخدامه وأشارت إليّ بأن زوجه محمد الشيخ داخل القطـــية التي تملكتها النار وهي التي اضرمت النار من الداخل وأحكمت قفل الباب وراءهـــا وهي تحمل المفتاح وما أن وصلت الباب حتى وجدته من خشب قوى لا أســـتطيع كســـره بيدي فأني لي بفأس أحطم بها الباب والنار تتأجج من الداخل وقد تجمعت الناس ووقفنا مكتوفي الأيدي وكان يقف بجواري ود العواي فقلت في نفسي لابد من عمل شيء وكل حركة معاها بركة كما يقولون وخير لنا أن يقال عملنا ولم ننجح من أن يقال إننا لم نبذل مجهوداً لإنقاذ حياة امرأة ونتهم بعدم المروءة فجريت نحو الباب وشعرت بيد تحاول أن تمسك بيدي فخلصتها في سرعة وضربت الباب برجلـــي ضربة قوية فانفتح ورأيت تحت ضوء النيران وحرارتها وشاهدت أمامي وعلى مقربة من الباب كومة سوداء وتحتها جسم لا يتحرك مغطي بالرماد المتساقط

مــن الســقف المحترق وأمسكت بأول طرف أقرب إليّ من جسمها فإذا هي رجلها فسحبتها على الأرض وخرجت بها وما هي إلا دقيقة أو دقيقتين حتى سقطت القطية ووجهــي يكاد أن ينسلخ من شدة الحرارة التي أصابته وكان من الناس من يلومني باعتبار أنه تهور ومنهم من رآه واجب .

وقــد تعجــبت مــن شجاعة هذه المرأة التي واجهت بها الموت في شجاعة وصــبر وبيدها الفرصة بأن تنقذ حياتها حتى عندما أصبح الموت بالنسبة لها قاب قوسين أو أقرب حتى عندما شعرت بأن الباب قد أنفتح فلم تتحرك ولم تكلف نفسها مؤنه النظر إلى من اقتحم عليها الباب ومفتاح الباب مربوط بطرف ثوبها وبعد أن اســتعادت أنفاسها انطفأ الحريق اقتيدت نحو نقطة البوليس وعند التحقيق معها تبين أنهــا أصــيبت بلوثة في عقلها وزين لها شيطانها بأن تأتي بمثل ما أتت به . وفي المســاء جاء زوجها وعلم جليه الخبر والمرأة لا زالت في الحبس التحفظي وذهب إلى هناك وبعد كتابة التعهد اللازم اقتادها إلى البيت وعمل على ترحيلها نحو ملكال وأخــذ بقــية عفشها وذهب إلى أهلها بعد أن قدم لهم مبلغاً من المال ليقوموا على علاجهــا بواســطة الكجور وعمل الطقوس اللازمة بالطريقة المتبعة عندهم وهي حــالات كثيرة الحدوث ولم يكن وقتها الطب النفسي معروفاً ولا يوجد أخصائيون كما هو الحال في وقتنا الحاضر .

مــركز تونجه

ســبق أن ذكرت قبل قليل أن للشلك تجهيزاتهم ومهاراتهم في صيد القرنتي بأســلحتهم التقلــيدية جــاءت هــذه المهارة بحكم تواجدهم بالقرب من ميعة(21) (باركــونجه) التي تقع في الضفة الشرقية من مركز تونجه في أرض النوير وهذه المــيعة التــي تتصــل بنهر النيل بأحد طرفيها عامرة بالقرنتي بأعداد كبيرة تفوق الخــيال ونســبة لسعتها وركود مائها وسعة الرقعة التي تكون مرعى خصباً لهذا الحــيوان ولكثــرة السمك بها أمتها كثير من بيوتات الشلك وشاركوا النوير سكنى المنطقة في السنوات الأخيرة حيث أصابوا فيها رغد العيش ومتعة الحياة دون كبير

عـــناء ولا مشـــقة ولكن توقفت عملية صيد القرنتي منها بسبب خلو شواطئها من قصـــب البـــردي الـــذي يحمي الصياد من التعرض للخطر وقد هجرها الصيادون ونزحوا نحو الجنوب وعندما كان نشاط صيد القرنتي على أوجه كانت تونجه هي البلد الوحيد في مديرية أعالي النيل وخلافها التي تمد العاصمة وتغرق أسواقها من جلـــود القرنتي وسنها لتصنيعه درق وبازات وسياط ومن سنها تصنع حلية تلبسها كعقد المرأة الغربية ويصنع منها الأناتيك تباع للسائح الأجنبي لما كانت لتونجه في ذلـــك العهـــد من شهرة في هذا المجال فقد ذكرها الشاعر الملهم والعبقري الفذ ود الرضي طيب الله ثراه في قصيدته المشهورة :

من الأسكلا وحلا　　　قام من البلد ولا　　　دمعي للثياب بلا

الذي أبدع فيها إيما إبداع حيث تابع رحلة الحبيبة بخياله ومشاعره من مدينة إلـــى مديـــنة إلى أن وصل بها إلى تونجه الذي وصفها مركز العنجا وهنا لأبد من وقفـــة تأمـــل حيال هذا الوصف الذي يحتاج إلى شرح والغوص في معانيه فهل يا تـــرى أن الشاعر جاء بكلمة العنجا يريد بها المعني الحقيقي التي يشمل معنيين أم اضـــطرته ظروف القافية لوزن البيت فأقحم كلمة العنجا لكن الحقيقة التي لا تقبل الجدل والتي ظهرت من سياق القصيدة أنه يعني أحد المعنيين الأول هو الذي ذكرته فـــيما تقدم هي تجارتها التي انفردت بها تونجه من جلود القرنتي مما جعله يسميها مركـــز العنجا والعنجا تأتي من صفة السياط التي كانت تصنع فمثلاً يقول الجمالي اللـــيلة اشـــتريت لي سوط عنج كما يقول المعلم اشتريت سوط عنج لعقاب الأولاد الأشـــقياء هذا معني وهو أقرب المعنيين كما يقصده الشاعر . أما المعني الثاني إن كلمة العنجة ترد في كثير من اللغات واللهجات السودانية بمعني الميلة أو الانحناءة والمتتـــبع لمجري النيل بعد ما بارح كيلو خمسين وهو في طريقه إلى واسكيك تجد نهر النيل قد انحنى انحناءة هي زاوية حادة نحو الشرق حتى التقاؤه بنهر السوباط قبل ملكال ومركز تونجه يقع في وسط هذه الانحناءة . أما ورود كلمة المركز ربما قصـــد بها مقر الإدارة من مأمور وهيئة مكتبه فأي المعنيين أراد أصاب فلا غرابة

إذا إنســـاناً وصف شيئاً رآه لكن الغريب هو أن يصف الإنسان شيئاً لم يرهْ فمما لا شك فيه إن ود الرضي لم ير الجنوب فمن أين أتي بهذا الوصف الدقيق لتونجه إلا إذا آمنا بالنظرية التي تقول (لكل شاعر شيطاناً يلهمه الشعر) وأكثر المؤمنين بهذه النظــرية هــو أمير الشعراء احمد شوقي حيث استدل بها في روايته مجنون ليلي عــندما تقابــل المجــنون بشيطان وجرى بينهما حواراً في هذا الشأن فليرجع إلى الرواية من يريد التثبت .

القرن الشلكاوي

عــندما يجلــس المــرء أمام جهاز الراديو ويدير مفتاحه ليستمع إلى نشرة الأخبار يلاحظ أن المذيع دائماً يتخير الكلمات ويصنع الجمل ليستحوذ على مشاعر المســتمع ويشــده على مقعده فهي مدرسة يأتي المذيع بتعبيرات واستعارات لغوية لــتواكب النهضــة الحضــارية للقرن العشرين التي شملت كل أنحاء المعمورة ما وجــدت باباً إلا طرقته ولا مرفأ من مرافئ الحياة إلا دخلته مما يدل على صلاحية اللغــة العــربية وتمشيها مع التطور وتزداد عمقاً فلسفياً كلما تقادم بها العهد فهي مــتجددة وفي السنوات الأخيرة دخلت الميدان جملة القرن الأفريقي وأخذت مكانها كلما أراد المذيع أن يصف الحرب الدائرة في أنقولا وموزمبيق وجنوب أفريقيا يجئ بكلمة القرن الأفريقي كمدخل أو عنوان للحديث عنها فهل هي حقيقة من مستحدثات القــرن العشــرين؟ أنا أقول لا بل سبقهم عليها الشلك قبل مئات السنين إن لم أقل الألف فلا غرابة في ذلك لو علمت أن الاسم الحقيقي لتونجة في أقصي الجنوب من ديــار الشلك هو (تونق) وهو الاسم المعروف بين أوساط الشلك ولا يعرفون كلمة تــونجه ولم ترد على لسانهم وكلمة تونجه إنما تحريف لكلمة (تونق) لتكون سهلة الكــتابة والنطق باللغة العربية أو الإنجليزية شأنها في ذلك شأن بقية الأسماءِ التي شملها التحريف فكلمة ملكال أصلها (ما كال) وهذا الاسم لا زال يطلق على القرية المجــاورة للمدينة الحديثة وكلمة كدوك أصلها (كدك) اشبعوا الضم فأولدوها واواً وغيرها كثير أما كلمة (تونق) معناها في لهجة الشلك وهو قرن الحيوان ولما كانت

ديـــار الشلك لا تتعدى حدود تونجه في أقصي الجنوب وتسير الحلال والقرى على شـــكل مخروطي من نقطة التقاء النيل بنهر السوباط وينتهي على شكل رأس مثلث بعد تونجه بقليل ولذلك أطلق عليها أسم تونق أي القرن فيكون هذا القرن الشلكاوى عرفه الشلك وعبروا عنه بلغتهم قبل أن يعرف القرن الأفريقي فهل هذا مقتبس من ذاك ولا يـــامن توســـع قليلاً في الكلام لأن هذا القرن قد أمتد قليلاً وشمل منطقة الطـــرور فهي حد فاصل بين الشلك والدينكا المعروفين باسم دينكا بِيلْ كُوَيْ وهو عبارة عن سهل منبسط ومنخفض قليلاً عن سطح الأرض تغمره مياه الفيضان ويقع شـــمال غـــرب تونجه وغرب الرقبة ، والرقبة اسم لخور صغير يتفرع من النيل ويـــتجه شرقاً ويقطع الشارع الرئيسي الذي يربط جبال النوبة وتونجه ويتعداه نحو الشرق وقد يتسبب في قطع الطريق وشل حركة المواصلات بسبب فيضانه وتراكم مـــياه الأمطار حول مجراه وعندما يأتي فصل الصيف وتنخفض مياه النيل تخلف وراءهـــا مستنقعاً تجف أطرافه تدريجياً وتنبت الحشائش وتؤمها الحيوانات يختبئ الأليف والبري ولكثرة نبات الطرور المعروف سميت المنطقة باسمه وهذا المستنقع يحـــتل رقعة واسعة من الأرض وبعيدة عن المناطق المأهولة لذلك تجد فيها الأفيال والأسود والجواميس وكل أنواع الصيد وهي قبلة الصيادين من جميع طبقاتهم حتى صـــيد السمك وتجفيفه. في أوائل العشرينات نزل من الباخرة النيلية على رصيف ميناء تونجه رجل أبيض في الحلقة الخامسة من عمره تصحبه فتاة شابة في مقتبل العمـــر ومعهـــم بعـــض الأمتعة الخفيفة ووضعوها على طرف من الميناء ووقفا بجـــوارها ولمـــا كانت البواخر النيلية هي السبيل الوحيد للمواصلات تجئ محملة بالبضـــائع لجهات مختلفة من جبال النوبة علاوة على ما للمدينة نفسها من بضائع تخص التجار وتمتلئ جوانب الميناء وكان السيد يوسف شمه من أكبر تجار تونجه ووكـــيلاً للحكومة والتجار بجبال النوبة يستلم البضائع والمهمات الحكومية ليرحلها بواسطة حمله عبارة عن عربات كارو تجرها الثيران وتعج الميناء من الحركة من بـــين بائـــع ومشـــتري من ركاب الباخرة من بروش وسباتات ومفارش يأتي بها

أصـــحابها مـــن مناطق جبال النوبة علاوة على العسل والسمن البلدي وقد تركت الباخرة صندلاً أو اثنين محملات بالبضائع للتفريغ إلى أن تعود من جوبا فلما حان إقـــلاع الباخـــرة وبدأ الجمع في العودة نحو السوق لاحظ السيد يوسف شمه(22) وجـــود الرجل والفتاة في زاوية أمام متاعهما وكان يوسف رجلاً كريماً شهماً وهو قـــبلة كـــل طارق ووجهة كل زائر له مواقف مشهودة فتقدم نحو الرجل ولما وجد نفســـه أمام رجل لا يعرف العربية استعان بمترجم المركز وقد عرف هوية الرجل فنادي بالحمالين وتبعوهم جميعاً حيث هيأ لهما منزلاً خاصاً وجنْد لهم خادماً ليسهر علـــى راحتهم وبعد أن مكثا يومين وعرف هويتهم هي صيد أسدين فاستأجر لهما جـــوادين وخبيـــراً على ظهر ثور لحمل المتاع وكان يحمل كل منهما سلاحاً نارياً وزود الخبيـــر بكل ما يحتاجه المرافق من تعليمات وأمره أن يقصد منطقة الطرور فسار الركب ووصلوا إلى منطقة الطرور فرأي الخبير شبح أسد يرقد على الأرض فلفـــت نظـــرهما وأشـــار إلى موقع الأسد مترجلاً عن ظهر الخيل بعد أن ربطهما الخبيـــر على جزع شجرة ومشيا نحوه فلما رآهما الأسد هب واقفاً فصوب الرجل بندقيـــته نحوه ورماه بطلقة فجرحه فأخذ يعدو نحوهما فأرسل له الطلقة ثانية وثالثة فلم يصبه ولما أقترب من موقعهما تقدمت الفتاة خطوة ووقفت أمام الرجل مواجهة للحـــيوان المغيـــر ورمته بطلقة من بندقيتها فأصابت منه ما بين عينيه فسقط على الأرض جـــثة هامدة فتبادلا الضحك فقام الخبير بعملية السلخ بتوجيه منهما على أن يكـــون الأســـد قائمـــاً علـــى قوائمه بعد حشوه بالتبن ففعل وقاموا هم برش بعض المســـاحيق لئلا يتعرض الهيكل للتعفن وفي اليوم الثاني لم يجدوا صعوبة في صيد الثانـــي وهيـــئوه على الطريقة الأولي ولما فرغوا من مهمتهم وآن لهم أن يغادروا المنطقة راجعين اعترض طريقهم عقبة وهي حمل الهيكلين الى تونجه فالثور ينفر ويستعصـــي كلما قربوا منه الهيكل بمجرد أن يشتم رائحة الأسد ولما رأوا استحالة ذلـــك أســـتقر الرأي على أن يستعينوا برأي يوسف شمه فامتطيا صهوة جواديهما البـــنت والـــرجل وتـــركا الخبير في حراسة الهيكلين ووصلا إلى تونجه وشرحوا

الموقــف فهــيأ عربة كارو وثورين وأخذ أحد العمال بزمامها بعد أن نصحه بأن يغمــض أعين الثيران بقطعة من قماش وبالوقوف عكس مهب الريح حتى لا تصل رائحــة الهياكل إلى أنوف الثيران فعملوا بنصيحته ورجعوا في اليوم الثاني ومعهم الهيكلــين وبعدت الباخرة من الجنوب وودعهما على شاطئ النيل حيث أقلتهم إلى الخرطوم وعرف منهما أنه أباً لتلك البنت وهي طالبة في جامعات لندن .

ومما يروى كانت ليوسف كلبة اسمها تونجه تبحث عن يوسف وأني وجدته رقــدت تحت مقعده تألفه وتسير خلفه أني سار فتغيب يوسف عن تونجه متنقلاً بين الليــري وتالودي لتفقد عمل فروعه التجارية وصرف استحقاقاته من أجر البضائع المرحله سواء أكان من الحكومة أو التجار استغرقت الرحلة نحو ثلاث أسابيع وعاد إلــى تــونجه على فرس ونزل وجلس على مقعد وجاء للتحية كل من سمع بمقدمه وجلسوا حوله فإذا بالكلبة تجئ وتقف أمامه وترفع رجليها الأماميتين وتضعهما على ركبتــي يوسف وترفع رأسها كأنها تريد تقبيله وهو يمسح بيديه ظهرها ولما رأى شطورها مليئة باللبن وقد أصابها الهزال بسبب الرضاعة ناداها قائلاً تونجه ولدتي ؟ فتــركته وجــرت ثــم عادت تحمل بين فكيها جرو وضعته أمامه ورجعت حتى وضــعت أمامه خمسة ووقفت تنظر إليه فتعجب الحضور من هذه الظاهرة أما من ناحــية يوســف فخصــها ببقرة حلوب ليساعدها على تربية صغارها ولهذه الكلبة خاصــية يعــرفها كــل ســكان مركز تونجه وهي رفيقة كل مسافر ما بين تونجه والليــري شرط أن لا يكون معه رفيق ولن تدعه يسافر وحيداً فهي الرفيق إلى أن يصــل الليــري وتنتظر أي قافلة عائدة إلى تونجه تعود معها وتقضي أيامها وهي ضــيفة عزيــزة مكــرمة عل وكيل يوسف هناك ويوليها العناية الكاملة ويهيئ لها طــريق الرجوع فما أن وجد مسافراً أو مسافرين إلى تونجه حتى يناديها ويوصيهم بها خيراً وتتبعهم .

المفتش البريطاني يتعرض للضرب

عــندما قــام الحكم الشعبي المحلي بين الأقاليم الجنوبية خصوصاً بين قبائل النويــر والديــنكا التابعين لإقليم أعالي النيل لاحظت السلطات عزوف الأهالي عن اقتناء العملة وعدم تداولها ويرجع عدم الاهتمام هذا إلى عدم الحوجة للتعامل بها لا يجد ما يرغمه للاحتفاظ بها ولا مكانة لها في حياته اليومية ولذلك جعلت البديل في البقــر فعــندما تصدر المحكمة حكمها بالغرامة تكون على أساس الجنيه ولما كان الجنيه لا وجود له في يد المدان يقبل منه ما يساوي الغرامة من البقر وحددوا قيمة البقــر فالعجل أقل من المتوسط بجنيه واحد وجنيهان لما فوق الوسط ثلاث جنيهات للــثور الكبيــر والأنثى من العجول جنيهان وكان هذا الاتجاه يخدم غرضين الأول بغــرض تداول العملة والإقبال عليها من العملة الفضية طبعاً لأن العملة الورقية لا تصــلح فــي تلــك المــناطق لكثرة الأمطار والرطوبة أما الغرض الثاني محاربة الجــريمة عــندما أحس المستعمر مدى حب الأهالي للبقر ولا يريد المساس بها إلا للضــرورة القصوى جعلوا من البقر أساس التعامل ويدفع ما وقع عليه من غرامة هــذا مــا لا يرضــيه تحفظ هذه الأبقار الناتجة من الغرامات تحت رعاية رئيس المحكمــة التــي هي وقفاً على العمد والسلاطين وتقام أسواق لبيعها بالمزاد العلني وفــي أوقــات معيــنة يعلــن عنها أثناء العام يحضرها جمهور غفير من الأهالي الــراغبين فــي دخــول المزاد علاوة على التجار والبوليس وكان هذه المرة داخل مركز فنجاك(23) فاجتمع خلق كثير من المناطق المجاورة وبما أن المركز هو مقر الرئاســة فالعملــة المتداولة بها أكثر من القرى والبوليس أكثر حرصاً على اقتناء المال لأن مرتبهم الشهري أكثر من الحاجة ولذلك يميلون إلى مشتري البقر .

جلس المستر وندر(24) وهو المفتش المسئول عن المنطقة جلس على كرسي وأمامــه تربيــزة وفي يده دفتر لتسجيل المبيعات وبما أن البقر في الجنوب سلسة الانقياد تمشي وراء كل من قادها وبدأ العرض وتمتاز النوير بحبها للألوان الجميلة خصوصــاً الثيران ليتسمى بلونه كعادتهم لينادونه به وليعتز به كلما كان لون الثور جمــيلاً كانت قيمته أعلى . وكانت طبقة التجار لا تهتم كثيراً إلا بكبار الثيران أما

بقية الأنواع الأخرى فهي متروكة للجمهور وكان من بين الحضور فتى من النوير شاباً مربوع القامة قوى العضلات شديد الحماس كل ما عرض عجلاً زاهي اللون وتبدأ المزايدة وأخيراً يتغلب عليه أحد رجالات البوليس لما يملكه من مال فيشعر الفتى بمرارة الهزيمة وفي مرة جيء بعجل ذي لونين أبيض شديد البياض وأسود شديد السواد فوقف الشاب أمام المفتش وخاطبه قائلاً وفي نغمة المتوسل أرجو أن تخصني بهذا العجل حيث وقع في نفسي موقع الاستحسان فرد عليه بعنجهية المستعمر دونك والمزاد فلم يرضيه هذا الرد ودخل المزاد معه أحد أفراد البوليس وأخيراً تغلب عليه رجل البوليس وأخذ العجل وأنصرف فاستشاط الفتى غضباً وهو يرتجف من شدة الانفعال وقف أمام المفتش وهو يضمر شيئاً وقال بأعلى صوته (المفتش أنا كلما أردت أن اشتري عجلاً تحرمني منه وتبيعه لبوليسك ولا أدري غرضك من هذا التصرف) فرفع المفتش رأسه ليجيبه لكن الفتى بادره بلطمة شديدة من كف يده على وجهه فسقط من على كرسيه وانفه وفمه ينزفان ففر الجميع وانفضوا من حوله حتى بوليسه وخلا الميدان إلا من التجار وبعض العمد والمشايخ وتقدموا نحوه لينفضوا عنه الغبار ويساعدوه على الجلوس على كرسيه . أما الشاب وقف بعيداً وهو ممسكاً بحرابه معتزاً بثوره وقال وهو يخاطب الجمع المتبقي فليجئ كل من تحدثه نفسه وسيرى ما أنا فاعل به . ولما لم يتقدم نحوه أحد أخذ طريقه وغادر المركز وبعد أن لملم المفتش أطراف شجاعته وعاد إلى وعيه بعد هول المفاجأة التفت نحو المشايخ من أين هذا الفتى فتقدم أحد المشايخ وقال هو من رعيتي قال له المفتش أتظن أن هذا الفتى أقدم على عمله هذا بوحي منه و لا أظن ذلك إلا إذا وجد منك ومن أهله التشجيع الكافي وأنت لا شك لك ضلعاً كبيراً وهي مؤامرة لا تستهدف شخصي فحسب بل الحكومة أيضاً كل ذلك ليغطي ما لحقه من إهانة وسط جمهوره فالمفتش يتهم والشيخ ينكر وبعد تدخل بقية العمد والسلاطين وطيبوا خاطر المفتش وأمروا الشيخ بإحضار الجاني في أسرع فرصة والقي القبض على الفتى وشكلت له محكمة كبرى وقضت المحكمة بسجنه لمدة سبعة

سنوات وبمائة من البقر لصالح المجني عليه تكون كتعويض لما لحق به من أذى وإهانة(25) .

وليس هذا بأول حادث من نوعه وقد سبق أن قتل المستر فارجسون(26) على أيدي النوير ومثلوا بجثته ولعبوا بأيديه على ضربات النقارة ونغمات المغنين بأغاني الشجاعة والحرب مما أضطر الحكومة لإرسال حملة عسكرية لتأديبهم هذا باختصار حيث لا علم لي بالتفاصيل والأسباب التي أدت إلى مقتله ولا شك أن الاستعمار قد لقي من المضايقات الشيء الكثير رغم أنها حوادث تعتبر فردية بعيدة عن المؤامرات الجماعية على العموم هي ثورة في ضمير كل سوداني يقوم بتنفيذها كلما سنحت الفرصة ففي منطقة العالياب(27) مركز البحيرات ببحر الغزال كان المفتش أثناء مروره السنوي لتحصيل الجزية مر على مراح من البقر تملكه كجورية فطلب منها سداد ما عليها من أموال حكومية فرفضت وبازدراء وكلمها مرة وأخرى وهي مصرة على عدم الدفع فهددها بأخذ ثوراً كان مربوطاً بالقرب منه أخذاً بالقوة فرفضت أن تذعن لهذه التهديدات وقال للجاويش الذي يرافقه مع كوكبة أخرى من الخيالة وأمره بأن يفك الثور ويأتيه به فسألت الجاويش عن ما قاله المفتش قال أمرني أن أفك هذا الثور ردت عليه قائلة لا تعرض نفسك للموت فإن حربتي كفيلة بإنهاء حياة كل من تسول له نفسه التصدي لأي ثور فتردد الجاويش في تنفيذ الأمر أمره ثانية بحل الثور فقال له إنها تهددني بالقتل إذا فعلت ذلك وقال للجاويش قل لها إن المفتش سيترجل عن حصانه ويحل الثور فقالت له إن كان يريد الموت فها هو أمامه مربوط مع الثور في حبل واحد فنقل للمفتش ما جاء على لسانها فشعر بأن الخطر يستهدف كرامته أو حياته فبأيهما يضحي فآثر أن يضحي بحياته ربما كان كلامها على سبيل التهديد وغير جادة في تنفيذ القتل فنزل عن جواده وتقدم نحو مربط الثور وما كان منها إلا أن اعتزت بثورها ونادت باسمه ورمته بحربتها فأصابته إصابة بالغة فسقط على الأرض والدم ينزف فصادف وجود عربة تجارية بالقرب منه فحملته إلى ميناء شامبي(28) ولحسن حظه إن

صـــادف وجــود رفاص تابع للري المصري أثناء مروره لعمل ميزانية لمياه النيل وطلب من المهندس الذي يترأس العملية بأن يقوم فوراً إلى ملكال لإسعاف المصاب قــبل أن تحصل مضاعفات وقام الرفاص بعد أن ترك الصندل على الرصيف وبعد وصــوله إلـــى ملكال حملته طائرة خاصة إلى الخرطوم وأسعف ولم يمت . أما ما كـــان مـــن أمـــر المرأة عادت إلى بيتها وكأنه لم يحصل شئ وبعد أيام جاءت قوة وألقــت علــيها القــبض وقدمت أمام محكمة وقضت بحبسها سبعة سنوات . ولكن لحسن حظها جاء الاستقلال وتولت الحكومة الوطنية مقاليد الحكم وقبل أن تتم مدة سجنها أفرج عنها(29) .

الحرب العالمية الثانية

ولمـــا كانـــت الرقعة من الأرض المحصورة بين ملكال شمالاً وبور جنوباً وأكوبــو شرقاً وفنجاك غرباً أراضي واسعة عامرة بالسكان ومنهم الشلك والدينكا والنوير وليس بينها نقطة بوليس كان مرور المفتش في حدود مركزه كافياً لإستتباب الأمـــن وقـــد تغير الحال بنشوب الحرب العالمية الثانية وتحركت جيوش المحور وتصدت لها جيوش الحلفاء وتقدمت جيوش المحور وهاهي قد احتلت أثيوبيا وعلى وشـــك الانقضاض لغزو السودان إذن لأبد من نقطة بوليس على الأقل تكون مركز إســـتخبارات وعهد إلى المستر وندر مفتش مركز فانجاك لتنفيذ هذا المخطط وجاء يـــوماً يطلب من عثمان مبروك(30) ليختار شخصاً يستطيع تحمل المسئولية ليعمل كتاجر بنقطة بوليس واو(31) فوقع على الاختيار ووصلت واو ووجدت اثني عشر مـــن البوليس تحت رئاسة امباشي من قبلية الدينكا ووكيل امباشي من قبيلة الجور وباقـــي العشـــرة خليط من أبناء الدينكا والنوير وواحد فقط من قبيلة الزاندي وهو الوحيد الذي تصحبه زوجته .

ونقـــع واو على بعد مائة ميل من ملكال على الشارع الرئيسي المؤدي إلى جـــوبا وعلـــى بعد أربعة أو خمسة أميال يتفرع شارع يتجه نحو الجنوب الشرقي يؤدى إلى أكوبو اختير لهذه النقطة الجديدة ربوة عالية ذات أشجار طويلة وغزيرة

وكانــت جمــيلة خضــراء كثيفة الظل فاحتلت نقطة البوليس الناحية الشمالية منها وخصص للدكان الناحية الجنوبية وجاء المفتش وكرس جهده في حفر الآبار لإيجاد الماء الكافي واستطاع أن يأتي بالعمال من نوير اللاو ولما عزم على الرجوع ترك عــندي مبلغاً من المال لأقوم بالصرف للعمال أسبوعياً ففي فترة وجيزة استطعنا إنجاز بئرين وكانت مياههما غزيرة وصافية نقية وكانت الحياة سهلة مستقرة الأمن مع قلق بسيط يساورنا باحتمال تحرك جيوش الإيطاليين التي غزت أثيوبيا أن تفكر فــي الــتقدم لغــزو السودان عن طريق أكوبو(32) التي لا جيش فيها إلا قوة من البولــيس قــوامها عدد محدود من الأفراد تحت قيادة المفتش وقد صحت التنبؤات وهــانحن نســمع بأن القوات الإيطالية تتحرك نحو أكوبو وهذه الأخبار مصدرها النويــر مــن سكان المنطقة وبعد يوم أو يومين من انتشار الخبر جاءت أخبار بأن أكوبو محاصرة وقد تسقط في أيدي الإيطاليين بين عشية وضحاها لأن القوة الغازية كثيــرة العدد لا قدرة لبوليس بهذا العدد الصمود أمامها إذا وضعنا في الاعتبار قله الذخيرة بأيدي البوليس . كانت الأخبار تصل تباعاً ونحن نتوقع أن يجئ دورنا في أي لحظــة وطــال غــياب المفتش ومسئولية النقطة تقع على عاتق الأمباشي وفي عصــر أحد الأيام وفي نحو الساعة الخامسة مساء سمعنا أزيز عربات كثيرة تأتي مــن ناحــية الجنوب وتقف بالقرب من نقطة البوليس ولما كان الدكان بالقرب من مــدخل الربوة وكنت أجلس على كرسي فإذا بعربة صالون في مقدمتها علم صغير يهب هب بفعل الريح وبداخلها شخصان أبيضا اللون يدل مظهرهما على أنهما من ذوى الــرتب العالــية فــي الجــيش خاطبنــي أحدهما باللغة الإنجليزية أين نقطة البوليس؟فأشــرت نحو الشمال قال وما وظيفتك هنا قلت تاجراً وكان يحمل في يده ورقة مطوية وبعد نشرها تبين لي أنها خرطة للمنطقة رفع رأسه عنها قائلاً لي كلم الامباشــي يأتي لمقابلتي في الشارع مما يبدو على أنه جاء مزوداً بمعلومات كافية عــن المنطقة فقد ساورني الشك هل هي قوة من الجيش الإيطالي في طريقهم نحو احتلال ملكال بعد أن سقطت أكوبو لكنهم يتكلمون اللغة الإنجليزية بطلاقة وقبل أن

أفيق من حيرتي وقف أمامي الامباشي فأبلغته الرسالة وأول ما قاله إنها قوة إيطالية ويجب علينا أن نطلق عليهم النار فاعترضت وقلت لا تتعجل الحكم بل يمكن أن تذهب وترى وتسمع ما يقال لك وهؤلاء الناس لم يبد عليهم أثراً للشر فإن كان عندهم نية غزو لدخلوا النقطة بكامل قوتهم وقبل أن تتناول سلاحك أو تجمع صفوف عساكرك قال لأبد من إطلاق النار قلت كن عاقلاً ولنذهب الاثنين لمقابلتهم فلم يستمع لنصحي وأخيراً خاطبني قائلاً (دا موش شغل جلابة) إلى هنا قفلت باب الحوار وأنا غير راض بما أحدثته هذه ا لجملة من رد فعل فرجع عني ميمماً وجهه شطر النقطة وما أن وصل نادى في قوته للاجتماع وخرجوا من معسكرهم مدججين بالسلاح ويحملون كمية من الذخيرة فناديت وكيل الامباشي وخاطبته قائلاً هل أنت موافق على رأى الامباشي بإطلاق النار على القادمين ؟قال لم أكن موافقاً لكنه مصر قلت لنكن عقلاء ونمشي أنا وأنت لمقابلة القائد ونعرف منه ما يريد فوافق وعرضنا الفكرة على الامباشي فوافق بدوره وأخذنا طريقنا نحو موقف القوة ووجدناهم منهمكين في إعداد الطعام وأشاروا علينا عن مكان القائد فلما وقفنا أمامه قال إن طرف الليل قد حال دونه ودون مواصلة السفر وسيقضي ليلته هنا لتجد القوة ما تحتاجه من ماء وسنقوم في الصباح نحو ملكال ونهاية المطاف ربما يكون (كفره) حيث روميل(33) ومنتقمري يقفان وجهاً لوجه وهذه القوات ومن سيجيء من بعدنا من قوات جنوب أفريقيا وأعطى كل منا علبة سيجاير إلا إني رفضت بحجة عدم التدخين وانصرفنا وشرحنا للامباشي كل ما جاء على لسان القائد وعند التمام وجد إن أحد أفراد قوته غير موجود مرت الأيام فإذا بالأخبار تقول أنه عندما نادي الامباشي في القوة بأخذ السلاح أخذ سلاحه وخرج من المعسكر متخفياً وخلع ملابسه العسكرية وأخفاها تحت شجرة وأخذ سلاحه واتجه نحو فانجاك فوجد المفتش وأبلغه إن قوة قد وصلت واو وربما تكون قوة تابعة لإيطاليا فأودعه المفتش السجن بعد أن استلم السلاح لكن المفتش قد كان يعلم بمرور هذه القوات الآتية من جنوب أفريقيا والكنغو وبدأت القوات تتقاطر علينا وهي في طريقها نحو ملكال.

أما من ناحية أكوبو فلا زال الخطر ماثلاً وقد جاءت الأخبار بأن المفتش قد أمر بإخلاء المدينة تحسباً للاحتلال المتوقع وكانت القوات الغازية قد احتلت موقعاً قريباً من أكوبو وكان تاجراً شمالياً يعمل بها واسمه الريح الطيب من مواطني مدينة أم دوم فاكرم القائد ورحب به وبمساعديه وبدأ يتجسس لمعرفة القوات وعن جنسياتهم وأنواع الأسلحة التي بأيديهم وكميات الذخيرة فلما تجمعت عنده كل هذه المعلومات تبين له أنها قوة غير نظامية أكثرها من النوير ومن أبناء أثيوبيا وعدد قليل من المرتزقة البيض لكنه أدرك بفراسته أنها كافية لاحتلال أكوبو لكثرة عددهم وقلة المدافعين عن المدينة وفاتح أحد خدمه إن كان يستطيع أن يحمل خطاباً لمفتش أكوبو ويخرج من هنا متخفياً تحت ستار الظلام ويسلم الخطاب للمفتش يداً بيد وأبدى الخادم استعداده وأودع الخطاب كل ملاحظاته وشجعه عل الهجوم بدلاً من الدفاع وخرج الخادم من القرية في ليل قاتم في الطريق بعد أن ابتعد عن المعسكر وسلمه الخطاب وكر راجعاً سار الخادم على مدى ثلاثة ساعات تقريباً وقصد نقطة البوليس وطلب مقابلة المفتش الذي كان يتناول عشاءه في داره فجاء وأخذ الخطاب وعلم محتوياته واستفسره عن الطريق وأشياء أخرى وكتب له رداً يشكر التاجر صنيعه بوصيته فهيأ قوته وزحف نحو القوة المتمركزة وأقترب من المكان وقوات العدو تغط في نوم عميق أما المفتش وقوته فقاموا بحفر الخنادق وما أن انجلت ظلمة الليل وانتشر ضوء الصبح حتى بدأت القوة بإطلاق النار بشكل يوحي للعدو بأنهم أكثر عدداً وكانوا أكثر حرصاً على ألا يسرفوا في إطلاق النار خوفاً على الذخيرة من النفاد وكان إطلاق النار مستمراً دون توقف لكنها طلقة وراء طلقة فأخذ العدو يبحث عن ساتر ليحمي نفسه وهم يطلقون النار من بنادقهم وبشكل عشوائي استمر إطلاق النار بين الجانبين طول النهار ولما جاء الليل شعر العدو بأن لا طاقة لهم بهذه القوة فانسحبوا وأخلوا القرية وفي الصباح دخل المفتش القرية وقوته وكان قائدهم يسكن خيمه وكان وقت إطلاق النار أمامه مائدة عامرة من زجاجات الخمر وأنواع المزز من بينها لحم الدجاج فألهاه صوت إطلاق النار عن تناول شئ منها

وهجــر الخيمة وعند دخول المفتش الخيمة وجدها هكذا وبجانب سريره بندقيته من نـــوع إيطالي وتتبعوا قوتهم حتى أجلوها عن المنطقة وبعد أن انتصر المفتش قدم البندقية التي وجدت بالخيمة كهدية للتاجر .

عــندما نشــبت الحــرب العالمــية الثانية وشعرت الحكومة بالنقص الذي ســيواجهها فـــي مادة الفحم الحجري لتسيير القاطرات وبعض السفن التجارية التي تســير علـــى نهر النيل عملت في التوسع في دائرة نقاط الخشب التي تمد البواخر النيلــية مما تحتاجه من وقود على شواطئ النيل فازداد عدد أفرادها وعدد نقاطها لـــتجد كـــل باخرة حاجتها على طول النهر حتى مدينة جوبا وتبعاً لهذا التوسع وما يصـــحبه من اتساع رقعة التجارة لدى المتعهدين طلب مني أن أسافر إلى واسكيك لاســتلم مـــع أبـــو زيد مبروك(رحمه الله) المحل التجاري هناك وله عدة فروع تجاريـــة ويعتبـــر المحل الرئيسي الثاني بعد محل ملكال الذي يشرف على إدارته الحـــاج عــثمان مبروك (رحمة الله عليه) واسكيك وكانت تسمي الهجليجه قبل أن يســتبدل الاستعمار اسمها باسم واسكيك وتسكنها قبيلة النوير وعلى الضفة الشرقية من نهر النيل وهي جزيرة حيث يمتد خور يسمي خور قاركيك من الناحية الجنوبية إلـــى أن يلتقي طرفاه بنهر النيل مكوناً بذلك جزيرة واسكيك ولها مرفأ جميل على ربـــوة عالية ذات طبقة رميلة وعلى شاطئها ترتفع هجليجة عالية وهي التي سميت باسمها من أصحاب المراكب الشراعية بغرض التجارة ولا يوجد على شاطئها قرية فهـــي مكان خال من العمران اختير لصلاحية المكان كمرفأ للسفن البخارية لتتزود بالوقود وكانت في حركة دائبة تعج بالسكان ممن يقومون بقطع الخشب خلف الخور الـــذي عملت له ردمية من التراب عبر الخور لترحيل الخشب بواسطة العربات أو الحميـــر لداخل المرفأ والحركة التجارية مزدهرة ونشطة ففي فصل الصيف عندما تنحســـر مـــياه الفيضان مخلفاً وراءه الأعشاب النيلية الطويلة يقوم الأهالي بإضرام الـــنار فـــيها فتحـــرق كل هذه الأعشاب لتقوم مكانها حشائش جديدة صالحة لأكل الحـــيوانات الألـــيفة كانت أو صيد بري ولما كان ذبح البقر يتم كل أسبوعين مرة

بواسطة التاجر لتقسيمه بشكل أكوام على عدد الأسر الراغبة بعد أن يقوموا بتقييم الذبيحة ولحوجتنا اليومية للحم نلجأ إلى سد هذا النقص من صيد الغزلان ففي الليالي المظلمة يرافقني غالباً مرحوم العوض يحمل بيده بطارية وأنا احمل البندقية ونسير نحو خور قاركيك ويسلط الضوء على عرض الخور فإذا بأعين الصيد وكأنها المصابيح الموقدة فنسير على رؤوس الأقدام لكي لا تبدو منا حركة فتنبه الحيوان حتى نصل إلى بعد أمتار من مكانها فنرميها بطلقة تسقط على الأرض وكثير ما نختار العيون الكبيرة ونمشي نحوها ولما نقترب منها نجده أسداً يرقد على الأرض متربصاً بغزال ليفترسها فكنا نتركه وشأنه وتجئ لهذا المكان الأعداد الهائلة من الأسود والنمور بغرض افتراس الغزلان أما الذئاب فلا تجهد نفسها للبحث أو الجري وراء الغزالان بل تكتفي بدخول القرية لتجد بهيمة ضالة أو دجاجة قريبة المنال وان عدمت ذلك فتمر بين البيوت لالتقاط الفضلات التي يرميها الناس وينطبق عليها قول القائل :

إذا كان الغراب دليل قوم   يمر بهم على جيف الكلاب

كنا نعمل عملنا هذا خلسة لئلا يصل إلى سمع المفتش لأننا في وسط الجزيرة التي يطلق عليها جزيرة الزراف وهو اسم النهر الذي يخترق أراضي النوير الذي تقع فنجاك في ضفته الشرقية وهي مقر المفتش وهذه الجزيرة حرم صيدها منذ أن نزل الاستعمار أرضها وكانت منسوبة إلى البرنس أوف ويلز (ولي العهد البريطاني) فلا يجرأ أحد على قتل حيوان فيها وكاد الأمر أن ينكشف عندما جاء مفتش المركز في زيارة إلى واسكيك ليتفقد سير العمل فيها ووفرة كميات الخشب المعد للبواخر وكان في عربة كومر وبصحبته عدد من المشايخ يركبون في الصندوق الخلفي وقبل أن يدخلوا القرية وهم في طريقهم من فانجاك فاعترضهم سرب من التيتل وهو يرعى فأشار أحد المشايخ إلى المفتش أن يقتل واحداً منها ليكفيهم غائلة الجوع فرد عليه قائلاً هنا ممنوع ضرب الصيد ولا يمكن أن اخرق القانون فقالوا بصوت واحد ممنوع شنو وعثمان مبروك وجماعته كل يوم يقتلوا

(الصيد) أسرها في نفسه . نام ليلته في النقطة وقد بلغنا ما جاء على لسان المشايخ فكنا في خوف شديد من أن يسألنا عما قالوه وقد يثبت ذلك بشهود العيان من العاملين في النقطة لكنه كان رجلاً عاقلاً لم يلق بالاً عما بدر منهم .

الصيد في الواكات حول نقطة بوليس واو

بعد شعورنا بالأمن عندما حققت جيوش الحلفاء النصر تلو النصر رأيت من الأفضل أن ابتعد قليلاً عن دائرة نقطة البوليس فأخذت موقعاً مناسباً تحت شجرة ظليلة من شجر العرديب وبجانب الشارع الرئيسي بنيت دكاناً ومخزناً ليصبح كموقف للعربات أثناء مرورها من جوبا أو بور أو أكوبو وذلك مما يساعد كثيراً في تحسين العمل التجاري .

عندما جئت لواو لم يكن بحوزتي سلاحاً نارياً والذي كان بيدي بندقية رصاص منذ عام 1926 وكانت ذخيرتها صعبة المنال وغير متوفرة مما جعلني أزهد في حملها وعرضتها للبيع وعشت نحو سنتين وليس بيدي سلاحاً نارياً وكنا نعتمد على لحم البقر المقرر لنا ذبحة أسبوعياً نقتسمه وأفراد البوليس وكان ضغط الشارع وحركة المرور عليه لا تتوقف مما يجعلنا في حوجة لإيجاد لحمه إضافية ولو على قدر سترة الحال فوجدنا في دجاج الوادي خير معين في متناول اليد دون الحاجة إلى سلاح ناري اتفقنا نحن الثلاثة وكيل الامباشي من البوليس والبوليس الزاندي على أن نقتحم الواكات عند منتصف النهار حيث تشتد حرارة الشمس وتكون الواكات الخالية التي نزح أصحابها مع أبقارهم إلى المصايف على شواطئ التيجان والمستنقعات ولسعتها من الداخل تكون باردة فيدخلها دجاج الوادي ويتعلق بخشبها أو ينزوي في أركانها لان هذا النوع يختلف عن نوع الدجاج البلدي من حيث استغناؤه عن الماء طيلة فصل الصيف بل يكتفي بأكل عروق الشجيرات الصغيرة فيجد فيها ما يغنيه عن البحث عن الماء وكذلك نجده يلجأ إلى الأماكن الرطبة منذ الساعة العاشرة ولا يعرض نفسه لحرارة الشمس فكنا الثلاثة نقتحم الواك واحد على الباب يمنعه من الخروج والاثنين وفي أيديهم عصى يضربون بها

الــدجاج فتخـــرج وبيدنا منها خمسة أو ستة نقتسمها فيما بيننا ولكن الطمع قد دخل قلب صاحبنا الزاندى حيث كانت تعيش معه زوجته ورأى إن القسمة لم تكن عادلة ولا تكفـــي نهمهم فذهب نحو الواك وحيداً وفي وقت مبكر وجاء يدب دبيباً إلى أن وقـــف أمـــام بـــاب الواك واحدث صوتاً مزعجاً بضربة خشبية بخشبة كي يتطاير الدجاج ويحاول الخروج فيصيب منها واحدة أو اثنين لتزيد من حصته فإذا بصوت أســد كـــان يرقد داخل الواك وزأر زئيراً ارتعدت معه فرائضه ولم تقو قدماه على الوقوف فسقط على الأرض وهو يهزئ بكلمات لا معنى لها ويحرك بيديه ورجليه في الهواء فاقد الوعي فكنت أول من وصل إلى المكان لاستطلع الخبر وسبب زئير الأســد في وضح النهار وهي لا تصدر عنه إلا إذا أفترس فريسة فلما اقتربت من الواك فإذا بي أري صاحبي وهو يعمل بيديه ورجليه يحاول الوقوف فلا تقوى قدماه فأمسكت بيده وساعدته على الجلوس ليأخذ بعض الوقت ليستعيد نشاطه ووقفت أمام الــباب فإذا بالضوء يقابلني من جانب جدار الواك المهدوم فجئت من الخارج لأجد أثــر الأسد وهو هارباً بعد أن ضرب الحائط بكفه فاحدث فيه فتحه التي مكنته من الهــروب رجعت لصاحبي وقد تقاطر علينا الناس وأمسكنا على يديه ووقف طويلاً حتـــى مشـــى على رجليه وبعد أن استرد أنفاسه بدأ يحكي وهو يلوم نفسه والطمع الــذي كان أن يؤدي بحياته وجاءت الزوجة وهي في حالة انزعاج شديد وطمأنها وساقته ولمدة لم يستطع أن يفارق سريره .

النمر جد القبيلة

مـــن قـــبائل الشلك والدينكا والنوير من يؤمن بتقمص الروح وان كانت لا يفهمـــونها بهذا المعنى فتجد منهم من يقول إن النمر جده ومنهم من يقول أن نوعاً من الثعابين جداً له وكل بيت منها له جد فهو لا يتعرض إلى قتله ولا يترك إنساناً أن يقـــتله أو يؤذيه فهو محل تقديره واحترامه وفي واو نفسها تكثر فيها الحيوانات المفترســـة تحوم حول الدكان لتجد عظماً أو أن تجد فرصتها من حيوان خرج من حظيرته وفي غشية يوم ممطر جاءت الطاهية بطعام العشاء وكنت قد أضدت شيئاً

مــن الــدجاج وكنت أكل وأقذف بالعظام خارج الحجرة فإذا بحيوان يلتقطه واسمع صوت تهشم العظام بأسنانه وبجانبي بطارية تسع خمسة من الحجار سلطت ضوءها فــإذا هــو نمر كبير الجسم وهممت أن أقتله بطلقة وقد كانت العاملة لازالت تقف بجانبــي فما أن رأته وتبين لها أنه نمراً حتى أمسكت البندقية وقالت هذا جدي فلا تقتله وحاولت كثيراً أن أقنعها بخطأ هذا الاعتقاد فلا تضيعي مني هذه الفرصة لأنه كبيــراً وقــد لا أجد مثله فأبت عليّ ذلك وبدأت تخاطبه بلغة الدينكا حيث هي من رعايا مركز بور تناديه يا جدي لم أتيت لهؤلاء القوم الذين لا يعرفونك ولا يقدروا مكانــتك ، جدي أذهب قبل يصيبك سوء فلما سمع الهمهمة شعر بأن هناك متربصاً فغــادر مكانه وابتلعه الظلام والشيء المعروف أن كل بطن من هذه البطون له جد فمنهم من اتخذ الأصلة ومنهم من أتخذ التمساح وليس في الإمكان التصدي لكل هذه الــبطون وعــن تقمص أرواح الأجداد لحيوان أو وحش لأنها تحتاج لبحث موسع ودقيق ومتفرع لكن هناك سؤال يفرض نفسه هل للثعبان أو التمساح أن يفترس من أحفاده من بني البشر دون مراعاة لما يكنون له من قداسه واحترام أجيب بنعم لأن التمســاح لا يعرف هذه العلاقة بل هي من اختلاق البشر واعتقادات فاسدة لا صلة لهــا بالحقــيقة هذا رأيي أما رأيهم إذا حصل شيء من ذلك لا يعتبرونه انتقاماً بل يعتبرونه عقاباً نتيجة لغلطة ارتكبوها في حق هذا الجد .

لقاء مع المفتش وندر

كان على كل مفتش منطقة أن يحرص على تنفيذ الأمر المحلي الذي يصدره ســعادة مدير المديرية والقاضي بأن يبادر كل مفتش قبل نهاية أكتوبر من كل عام بصــيانة الشــارع الرئيسي الذي يقع داخل حدوده بإزالة الحشائش وردم الطريق بطــبقة طينــية بمســاعدة العمد والمشايخ باستنفار الأهالي من حلة إلى أخري ، والمفتش ينتقل معهم سيراً على الأقدام يقضي نهاره بمراقبة العمل وليلة في خيمة صــغيرة ينام تحتها لتقيه الأمطار وكان لا تصحبه حاشية و لا خدم إلا من طباخ يــؤدى وظــيفة طباخ وسفرجي . ولما كان الموسم على الأبواب ولابد من بضائع

لمـــواجهة الموســـم الجديد فقمت من واو(34) على ظهر جواد ميمماً شطر ملكال وعلـــى بعـــد أربعـــين ميلاً تقريباً وجدت المفتش وندر يعسكر في الخلاء ويرتدي قميصـــاً ورداء مـــن الملايات المصرية ذات المربعات الملونة فقابلني ونزلت عن جـــوادي وحييـــته وجلسنا على الأرض لأنه لازال بينه وبين خيمته نحو ميل ولا يـــرجع إلـــيها إلا بعد العصر وقال : إلى أين؟ قلت : إلى ملكال وماذا تعمل قلت لأقدم كشفاً باحتياجاتي من البضائع لمقابلة الموسم الجديد لتصلني بمجرد الفراغ من تعبـــيد الشارع وأمن على الفكرة ثم قال هل معك ما تأكله أثناء الطريق قلت احمل معـــي كمية من القرقوش وكمية من السكر والشاي والبن قال بماذا تأكل القرقوش قلـــت أجد حوجتي من البيض والدجاج من القرى الواقعة بالقرب من الطريق وهل عندك بندقية قلت كانت لدى بندقية وبعتها قال منذ قليل رأيت بعض الوز ينزل على بـــركة ماء تحت تلك الشجيرات وأشار إليها بيده وجاءني يحمل بندقية وبيده طلقة واحدة أضرب بها بعض الطيور لأن الذي بيدنا من لحم البقر طعناه بالحربة كعادة النويـــر هل تأكله فقلت لا ، أخذت البندقية فأصبت نحو ستة من الطير وجئت بها فنادى الطباخ وأمره بأن يعدها للعشاء واخذ باقيها كزاد في الطريق وكانت الشمس قـــد أخذت طريقها للمغيب وقادني نحو خيمته وجاء الطباخ بالشاي فشربت وأثناء ذلك أعاد نفس السؤال لِم لم يكن بيدي سلاحاً وبدأت أحكي من جديد بأن كنت أملك سلاحاً نارياً عبارة عن بندقية موزر جميلة المنظر وكأنها عروسه وكنت معجباً بها وبعد قليل اتضح لي أن ذخيرتها غير متوفرة في أماكن بيع السلاح نسبة لأنها من عيار صغير ومثلها قليل في أيدي الناس ولذلك الموردين لا يطلبونها بكميات كبيرة ولهـــذا الســـبب تخلصت منها عن طريق البيع غير أن أبي يملك بندقية خرطوش ووعدني أن يحولها تحت اسمي ولكن لكبر سنه وعدم استطاعته بقطع المسافة بين الـــدويم رئاسة المديرية والكوة محل سكناه لم يجد فرصته في تحويلها ففتح مذكرته وامســـك بـــالقلم قائلاً : أملي عليّ عنوان أبيك بالكامل وسجله . قضيت ليلتي في المعســـكر وفـــي نحـــو السابعة صباحاً ودعته وأخذت طريقي وفي نحو العاشرة

صـــباحاً إذا بأســـد يرقد على الأرض على ربوة يكثر فيها شجر الكداد المعروف بشـــوكه القـــوي ورؤوسها الحادة من جهة أما بقية الجهات كلها مغطاة بالمياه مما يجعل الأرض رخوة لا تتحمل حوافر الجواد واحترت في أمري ماذا افعل لابد من المـــرور عبـــره ولـــيس بيدي سلاحاً إلا سوطاً أحمله أو سكيناً على ذراعي فكيف الخـــلاص وأخيراً عزمت أن اقتحم عليه مرقده فرجعت قليلاً ونزلت وأعدت ربط الحـــزام جيداً وأحكمت لف أعين الحصان بقطعة من القماش لئلا يخذلني إذا أقترب مـــن الأسد فيقف فيعرض حياتي للخطر وكان الحصان قد شعر بوجود الأسد وكان يخـــرج زفيراً من أنفه . وركبت وسرت فلما صرت على مقربة منه أطلقت عنان الفرس فكان يجري بكل سرعته محدثاً صوتاً عالياً نتيجة لوقع حوافره على الأرض والأســـد راقداً فاقتربت منه ، وهناك داخلني خوفاً أأقف أم أستمر ولما كانت بيني وبيـــنه خطوات فإذا هو يقفز نحو الماء بكامل قوته مفسحاً الطريق أمامي. تقدمت خطوات والتفت ورائي متحسباً أن يجري ورائي فوجدته لازالت أرجله غارقة في الطـــين وهو يحاول الخلاص منه فنزلت وأعطيت الحصان برهة ليعيد فيها أنفاسه وواصلت سيري.

وبعـــد انـــتهاء فصل الخريف وفتح الطريق أمام العربات جاء المفتش وهو يحمـــل في يده البندقية وطلب مني سداد مبلغ خمسين قرشاً رسوم تغيير الرخصة لاسمي وكنت أتساءل بيني وبين نفسي ما هي الخطوات التي اتخذها حتى استطاع الحصـــول على البندقية لكن عندما ذهبت لأقضي إجازتي سألت فقالوا جاء جاويشاً مـــن قوة البوليس وسأل عن الوالد فقابله وقال له إني مندوب من سعادة مدير النيل الأبيض في أمر يخص بندقيتك فهل لك ابن بمركز فانجاك قال نعم هل أنت راغب فـــي تغييـــر بندقيـــتك هذه من اسمك إلى اسمه قال لا مانع قال أعطيني إياها مع رخصتك وحرر له وصلاً بالاستلام ووقع عليه وبعد وصولها الدويم أرسلت بدورها إلـــى ملكال وملكال أرسلها بدوره إلى مركز فانجاك الذي أكمل إجراءات التحويل وجاءني يحملها(35) .

لقاء مع قطيع أفيال

قـبل أن استلم ولا زال الخريف وحشائشه الطويلة المتكئة على بعضها تسد الطريق أمام المارة ، رأيت أن أزور فانجاك وركبت الحصان أخذت طريقي نحوها ولكن فانجاك ليست على الطريق الرئيسي ولكن على طريق فرعي من قرية فلاك مستنقع من الماء يغطي مساحة واسعة وتنمو وسطها الأعشاب الطويلة فإذا بي أجد نفسـي أمـام قطـيع من الأفيال وهو يتلاعب في الماء ويتجارى خلف بعضه هذا ينضح الماء وهذا يشرب والصغار تخوض في الماء وراء أمهاتها وعلى مقربة من طـريق ضـيق قد لا يظهر معالمه من طول الحشائش فأمسكت عن أي حركة ولا فـرقعة السـوط الذي أحث به الحصان على السير فاعترض طريقي طريقاً جانبياً فعـرجت عليه فقادني إلى فناء دار فسيح وعلى جانبه قطية مقفلة وراكوبه بالقرب مـنها ذات ظـل فنزلت من على جوادي وربطت مقوده على عمود الراكوبة حتى يأخذ القطيع طريقه فسمعت همهمة داخل القطية فقلت : من بالداخل ؟ صمتوا برهة بعـدها سـمعت صوت امرأة تقول من أنت ؟ قلت : أنا ترك . وكلمة ترك تعني تاجـراً ففتحت الباب قليلاً ونظرت منها إلى المتحدث فخرجت وقالت عندما سمعنا وقـع حوافر الحصان قلنا إنه صوت أرجل فيل ثم قالت : ألم يقابلك قطيع الأفيال الذي مر من هنا منذ وقت قصير ؟ قلت لا زال موجوداً على الميعه(36) يتلاعب ألـم تسمعي حركته ؟ واستمر يتصايح ويلعب إلى ما بعد العصر بقليل وان الشمس لا تمكنني من وصول فانجاك ولذلك آثرت المبيت معهم ولا زالت أصوات القطيع تصل إلى مسامعنا حتى منتصف الليل ثم أخذ طريقه نحو الشرق .

بدايات التمرد بملكال

كانـت فـي يدي كمية من الذرة في مخازن ملكال والمحصول الجديد على الأبـواب وخشـيت أن يتعرض للتلف من ناحية السوس أو البوار إذا ما تم نزول المحصـول الجديـد للأسواق فلابد إذن من التخلص منه ، جئت بالطائرة من جوبا ووجدت الحالة متوترة وشعور بأن هناك شئ يضمره الغيب بالنفوس غير مرتاحة ،

الضـــمائر قلقه ، لغة التخاطب بين الشماليين والجنوبيين قد تغيرت عما كانت عليه في السابق انقلب الحب إلى بغضاء وكراهية وقد تسمع من البعض كلمة نابية تسئ إلى الشمالي والناس في حيرتهم هذى تواترت الأخبار بأن في اليوم الأول من العام الجديد 1956م سيحتفل السودان باستقلاله وسيحتفل الشعب بنزول علمي الاستعمار البريطاني والمصري عن ساريتيهما ويرفع العلم السوداني وعلى الفرقة الجنوبية أن ترسل وحدة لتمثلها وتشارك في هذا الحفل التاريخي وجاء اليوم المحدد لسفر الفرقة واعـــدت لهـــم باخرة نيلية تقلهم حتى كوستي ومنها يأخذون طريقهم بالقطار الذي سينتظرهم على رصيف الميناء جاءت الوحدة واصطفوا على رصيف الميناء وهم يحملـــون أمتعتهم وسلاحهم والباخرة راسية تنتظر دخولهم وجاء لوداعهم عدد من الضباط والإداريين وضباط البوليس وأمر قائد الوحدة بالدخول فسألوا عن الذخيرة فـــرد القائد قائلاً لا حوجة لنا بالذخيرة نحن في رحلة تشريفية لنشارك إخواننا في هـــذا الحدث العظيم وليس وجهتنا ميدان حرب فرفضوا الانصياع لأمر القائد بدأت الأخبار تأخذ طريقها إلى آذان المسئولين بأن شئ من العصيان أو التمرد ستقوم به الفـــرقة وظلـــوا في عنادهم حتى جاء الليل فأمر مدير المديرية بالإنابة السيد احمد حســـن الضـــو(37) وكـــان المديـــر محمد عثمان يسن(38) عليه رحمة الله غائباً بالعاصـــمة وأمـــر النائب بعدم إنارة المدينة وشوارعها خشية أن تكون الإشاعات حقيقية وتعلن الفرقة عصيانها وتهاجم المدينة وكانت مخازن السلاح والذخيرة تحت رقابة مشددة ،انتحى جانباً لقمندان البوليس وأسر إليه ببعض كلمات قام على أثرها القمـــندان بعـــربته متجهاً نحو رئاسة البوليس وطلب مقابلة جاويش فرقة السواري وكان خليطاً من العرب وأبناء النوبة واخبره بجلية الأمر وطلب منه بأن يأتي بكل قـــوته وسلاحه إلى الوقوف على شارع الزلط المطل على رصيف الميناء دون أن يحدثـــوا ضوضاء ورجع إلى النائب واعلمه الخبر بعد ساعة تقريباً والليل قد أظلم فأخذوا موقعهم لا على خيولهم بل كانوا مشاه ولا زالت الوحدة تصر على تزويدهم بالذخيـــرة والمســـئولين يحاولون إقناعهم بعدم ضرورة الذخيرة وفي نحو العاشرة

مساء وبعد أن اطمأن المسئولون بصدق نوايا قوة السواري وتنفيذ أمر إطلاق النار على الوحدة إذا ما طلب منهم ذلك فوقف قائد الوحدة خطيباً يقول إن قانون الجيش يعطينـــي الحـــق بأن افعل ما أراه مناسباً وإن موقفكم هذا يدل على العصيان بعدم إطاعـــة الأوامر فأنا بالتشاور مع مدير المديرية بالإنابة أعطيكم مهلة نصف ساعة ولحل هذه المشكلة أما إن تدخلوا الباخرة أو يخلع كل جندي ملابس الجندية يأتيني بهـــا مـــع سلاحه ويعتبر نفسه مفصول من قوة دفاع السودان أما إذا مضت نصف الســـاعة ولـــم تـــنفذوا أحـــد الأمـــرين ســـآمر قوة السواري التي أخذت مواقعها واســـتحكاماتها ســـآمر بـــإطلاق النار عليكم وقبل خمسة دقائق من الميعاد المحدد ســـتبارح الباخرة مرساها لئلا يصبها الرصاص وهنا جن جنونهم وشعروا بالخطر فانحلت عزيمتهم وآثروا الدخول فدخلوا الباخرة للإقلاع .

أخـــذت الباخرة طريقها تمخر عباب الماء وارتاحت النفوس وتنفست الناس الصـــعداء بعـــد أن عاشوا على أعصابهم عدة ساعات وحسبوها سحابة صيف وقد انقشـــعت ولـــم تـــدم الفرحة طويلاً حتى وردت الأخبار بتمرد حامية توريت(39) فتكهـــرب الجو من جديد وعاد القلق بأكثر مما كان عليه من قبل ففي صبيحة يوم من الأيام إذا ببرميل البارود يتفجر من ناحية قوة البوليس بملكال وفتحوا النار على ضـــباطهم فأصابوا أحد الضباط بعيار كسر يده ثم انتشروا في المدينة بدءاً بمكاتب الحكـــومة وفـــي تلك اللحظة هبطت طائرة تحمل قوة من الجيش متجهة نحو جوبا لتعزيـــز إخـــوانهم للاحتفاظ بمطار جوَبا ولما كان الموقف في ملكال ينذر بخطر عظـــيم يهدد سلامة كل من فيها من شماليين فاتصل السيد محمد عثمان يسن رحمة الله علـــيه بالخرطوم هاتفياً بأن تبقي هذه القوة لحماية أرواح الناس فوافقوا ونزلت القـــوة وركبوا العربات وما أن وصلوا مشارف المدينة فأطلقوا النار عدة مرات في الهـــواء كإنذار وقبل أن يدخلوا منطقة السوق جاءنا الأخ الحاج الخليفة وهو رئيس حســـابات المركـــز وملابسه ملطخة بالدماء أزعجني هذا المنظر ولما له من صلة القرابة بيني وبينه جريت نحوه وفي لهفة سألته عما أصابه قال اطمئن فأنا لم اصب

ولكـــن رجال البوليس أطلقوا النار على حرس الخزنة فأصابوا أحدهم فاقتحم علينا المكـــتب وأراد الاحـــتماء بي والدم يتصبب من جرحه فأصابني منه هذا الدم فقوة البوليس لما سمعوا إطلاق النار توجسوا خيفة ورأوا طلائع الجيش الزاحف وكانوا علـــى شاطئ النهر فوجدوا فلوكة حديدية كبيرة راسية بالقرب من المركز فدخلوها ورفعـــوا مراســـيها وكانوا يحملون الأسلحة الخفيفة والمدافع ذات العيار المتوسط وكمية من الذخائر اتجهوا نحو الشاطئ الغربي حيث تنمو بعض الأعشاب ويبدو أن غرضـــهم هو أن يجعلوا من تلك الأعشاب ساتراً لتنفيذ مخططهم وانتهزوا فرصة ضيق مجرى النهر وأما هروباً من المعركة وما توسطت بهم المركبة عرض النهر وقف قبالته رجل يحمل مدفعاً ونادى فيهم ارجعوا ارجعوا فلم يستجيبوا للنداء رددها اكثـــر من ثلاث مرات وقال أنا سوف أطلق عليكم قذيفة من هذا المدفع تأتي على المـــركبة ومـــن فيها فتكونوا طعمة للحيتان فلم يستمعوا لقوله وأخيراً أرسل قذيفة وأصاب المركبة فغاصت في ماء النهر بمن فيها ومن عليها ولم ينج منهم أحداً .

بعد أن اطمأننت على سلامة أخي الحاج رجعت إلى مقعدي أمام دكان عثمان فضل الله كانت أمامي شجرة نيم وكان هناك شارع يؤدي إلى نقطة البوليس تحرس مكاتـــب المحكمة الأهلية وعلى بعد خمسين متراً وأنا على مقعدي هذا فإذا بصوت ســـلاح يـــدوي صـــوت طلقه تصيب ساق الشجرة وتغوص فيه وهي لا تبتعد عن مقعـــدي إلا مترين فقط وهذه الشجرة موجودة للان وبعناية من الله والشجرة نجوت مـــن مـــوت محقق فاتجهنا نحو مصدر الصوت الذي كان يأتي من ناحية المحكمة الأهلـــية ولـــم نر أحداً وانتشر الجيش بالمدافع واتجه نحو المديرية ومنزل المدير وكـــان الســـوق قد اقفل أبوابه واتجهوا نحو مساكن التجار ليطمئنوا العوائل فجاء ضـــابط كـــان مع الفرقة ومعه أحد ضباط البوليس ونحن لا زلنا نقف أمام الدكان وأبوابه مفتوحة وقف أمامنا وقال الضابط ألم تشعروا بخطورة الموقف بالأمر اقفلوا الدكان وغادروا السوق فامتثلنا للأمر أغلقنا الباب وتوجهنا نحو القرية وبذلك انطفاء اللهب ولا زالت الجمرة تحت التبن .

جـــاء اللـــيل والأعصـــاب متوترة والقلق يساور النفوس ولا ندري بعد ذلك وشعرت بعظم المسئولية التي تقع على عاتقي بصفتي اكبر الموجودين سناً ويجب عليّ أن أفكر قبل فوات الأوان وكان أفراد العائلة يسكنون في جهات مختلفة فالحاج ســيد أحمــد وأسحق أحمد صديق وعائلاتهما يسكنون حي الموظفين ومحمد بابكر كنتــباي الحـــي الـــتجاري (حي الجلابه) فلا بد من الجمع بينهم في صعيد واحد وقمــت بنفســي وتــوجهت نحو حي الموظفين و أشرت عليهم أن يقفلوا منازلهم وينتظرونـــي داخــل منــزل كنتــباي وجمعتهم مع كل من في البيت في غرفتين متجاورتــين للــرجال واحدة والأخرى للنساء وجلست على مقربة من باب الغرفة ليســهل علـــى الدخــول والخروج إذا تناهى لسمعي أي حركة خارج الدار وكانت أصــوات الطلقــات تظهر من حين لآخر بعيدة عن الحي التجاري لكن والحمد لله مرت الليلة بسلام.

رحلات على الشروك

عــندما حـــان موعد إجازتي سلمت نقطة واو لوكيل آخر وبعد انتهاء فترة الإجــازة عدت إلى ملكال وفكرت في عمل تجاري متجول وكانت الحرب لازالت دائــرة الرحى ولازالت بعض السلع غير متوفرة فاشتريت نحو عشرة جوالات من الــبن من ملكال ومن بعض التجار خارج ملكال وكانت الرقابة من السلطات تقف عــند دائرة العربات والبواخر النيلية فأجرت مركب شروك من أحد الشلك بعد أن رحلــت الكمية إلى نقطة قريبة من شاطئ النيل بالملكية وبعد اكتمال العدد أجرت مركب من نفس النوع يكون طاقمها مكون من شخصين لينقلوا الجوالات إلى دكان يديــره أحد أبناء الشلك تربى على يد تاجر شمالي واسلم وحفظ العشر الأخير من القــرآن الكــريم وكـــان مخلــص أمين وجاءت المركب تحت جنح الظلام وشحنا البضاعة وأبحرنا نحو تونجة وكنا نحذر الاقتراب من الشواطئ خوف من القرنتي الذي غالباً ما يكون مرعاه ليلاً وبالقرب من الشواطئ وكانت المركب رغم سيرها عكــس التيار بضغط مجدافين تسير بسرعة إلى أن وصلنا قرية (ناجواده) وكان

النهر يسير تحت هضبة عالية يبلغ علوها نحواً من الثلاثة أمتار فإذا بأحد من الشلك يسعل (يصبيه السعال) فإذا بقرنتي كبير الحجم يسقط من اعلي هذه الهضبة ويرمي بنفسه علي الماء والمركب تمشي تحتها غير إنه سقط على بعد متر واحد خلف المركب حتى أن الموج الناتج من كبر جسمه أثار المياه الأمر الذي افقد المركب توازنها فتأرجحت ولكن أعادوا توازنها بعد أن غيروا اتجاه سيرها فنجونا ووصلنا تونجة بعد أن بعنا بضاعتنا إلى تجار الليري أصبت من ذلك ربح لا بأس به ففكرت في رحلة أخرى .

كان لي صديق اسمه مصطفى عبد القادر(40) يعمل بمركز كدوك ومن اكبر تجارها من سعة راس المال بعد أن اختاره تاجر سوري اسمه ابكريان من اقدم تجار كدوك وأصاب منها أرباحاً طائلة وقد أدركه الكبر وكان متزوجاً من بنت أحد المكوك زواجاً غير شرعي لأنه مسيحي وهي لا دينية وأولدها ولداً وبنتاً أراد أن يتخلى عن السودان ويذهب إلى وطنه في سوريا واستطاع إن يهرب أمواله شيئاً فشيئاً حتى بقى القليل واضمر في نفسه أن يتركه لولديه الذين لازالا صغيرين واختار مصطفى عبد القادر لأمانته ومعرفته للتجارة وحب الأهالي والتجار على السواء فجاه يوماً ليعرض عليه فكرة تسليم الدكان وكل البضائع الموجودة وله نصف الفائدة من الإرباح فوافق وانتهت عملية التسليم والتسلم وأخذ ابنه للخرطوم وألحقه بالمدارس أظنها الكمبوني وكان مصطفى قد واتاه الحظ وأصاب أرباحاً استطاع أن يشتري كل أملاك ابكريان ويسدد قيمتها للابن على أقساط بعد أن أتم تعليمه واتخذ من الخرطوم مقراً له وفي مجلس ضمنا ونحن أربعة فإذا بساعي البريد يمد برقية فتناولتها وفتحتها وما أن وصلت نهايتها قلت (الله) متعجباً من اختصارها فسمعها من بالمجلس ونوا أنه خبر غير سار فاختطفها أحدهم ثم عقب بقوله أنها لغز وناولها لمن بجانبه وقال الثاني مبتسماً أنها شفرة وتلهف الثالث سر بين شخصين وكان نص البرقية كما يلي (عثمان نور ملكال يومين فقط) خمس كلمات وغير موقعه وكثرت التخمينات والنون وسألني أحدهم هل أدركت لها معنى

قلت هونوا على أنفسكم ليس في الأمر سر ولا شفره كما تتون البرقية من مصطفى عبد القادر يطلب أن أزوره ليومين فقط ربما بالقيام برحلة صيد للغزلان على الضفة الشرقية من كدوك ترويحاً للنفس من عناء العمل . جاءت الباخرة ووصلت كدوك وفي شجن من شجون الحديث تطرقت إلى حادث القرنتي الذي رمي بنفسه من ذلك العلو على المركب ونجونا بمعجزة وقال مناسبة طيبة أنا تحت يدي مائة ثوب من الدمورية أبيعها لك تسليم نقطة أخشاب الزرزور وعندي مركب شروك كبيرة من مخلفات ابكريان تسع عشرة جوالات ذرة ولي صديقين مخلصين يمكن أن تعتمد عليهما في أداء أية مهمة ويكون قبلتك كوستي فوافقت تجمعت الدمورية في النقطة وتحت ستار الليل وعلى مركب الشروك سرنا نحو النقطة وكان أحد التجار الشماليين المعروف لدينا هو صاحب المتجر وأودعنا البضاعة المركب ومن باب الاحتياط وتحسباً لأي طارق ربطت البندقية بحبل طويل وربطت الطرف الآخر في وسط المركب حتى لو انقلبت المركب وأفرغت ما بداخلها فتكون البندقية معلقة بهذا الحبل . أن الشروك لا يغرق في الماء بسبب خفته لكنه قابل للانقلاب إذا ما داهمه قرنتي أو عصفت به الريح وكان مهمة الرجلين هو التجديف واحد في المقدمة والآخر في المؤخرة واخترت موقعي في الوسط وكان فيضان ذلك العام قد وصل منسوباً غير عادي فغمر أكثر الأرض التي بقرب شاطئه وعندما يحين وقت الطعام نبحث عن شجرة وسط الماء ذات شعبتين وتوقد بينهما النار ونضع عليهما براد الشاي وكل منا يتناول كباية وهو جالس مكانه ويتناول ما يكفيه من الرغيف ولا مجال للحركة ولا للاجتماع . بعد الفراغ تبدأ المسيرة وعند وقت النوم أو شعورنا بحركة وابور ندخل بالمركب ونجعل من الأعشاب النامية ساتراً حتى تمر الباخرة وعند النوم ندخل الأعشاب وتربط النواميس على أطراف الأعشاب كل في محل جلوسه بهذه الطريقة حتى وصلنا الجبلين(41) ولكن لا يمكن الدخول إليها مباشرة خوفاً من البوليس وكان على رأس الإدارة الأهلية العمدة امبدا من قبيلة التعايشه رجل كبير السن صهرته الأيام وعركته الحياة عاقلاً سريع البديهة

واستحسنت أن اترك المركب بين الأعشاب وادخل المدينة أتعرف على الأخبار والأحوال وكيف دخول البضاعة فذهبت لأحد أقاربي من التجار ووقفت أمامه وهو مشغول مع الزبائن وكنت ارتدي قميصاً قصيراً قد احمر لونه من كثرة خوض مياه الخيران فلما شعر بوجودي وبدت على وجهه حالة الانزعاج وقبل أن يتفوه بكلمة قلت له أطمئن يا حاج عبد الماجد(42) كل شيء على ما يرام فعانقني طويلاً والعبرة تكاد أن تخنقه وهو من ابرز رجالات الجبلين كريماً يضرب به المثل باب داره فاتح أناء الليل والنهار لا يخلو بيته من الضيوف رحب الصدر ذا أخلاق وهو من أبناء عمومتنا وأخذ بيدي قال تمشي البيت لأن حالك تزعجني قلت ألم أقل كل شيء على ما يرام إذن أين ملابسك فشرحت له الموقف وقال إن الجبلين مفتوحة أمام كل طارق وسلطات المدينة متهاونة مع أي إنسان يجيء بشيء إلا إذا أراد أن يخرج منها أي نوع من البضائع الخاصة من حصة المدينة . أخذت قسطاً من الراحة وجاءني بركوبه أصل بها إلى مخبأ الجماعة فأعلمتهم الخبر وأمرتهم أن يدخلوا الميناء وسأكون في انتظارهم ورجعت وفي صباح الغد جاءت المركب وجاء أحد بوليس العمدة وقال لمن هذه البضائع قلت أنا قال ما عندك ؟ قلت مائة ثوب دمورية قال ومن تعرف من التجار قلت الحاج عبد الماجد عبد الرحمن وانصرف وفي أحد المخازن أودعنا الشحنة وبقيت المركب وهي عرضة للسرقة فجئنا بجماعة حملوها إلى أقرب فرنده دكان وجئنا بجنزير وربطنا طرفه بالمركب والطرف الأخر على شعبة الفرنده وجئنا بقفل من النوع الكبير وقفلنا به طرفي الجنزير وملأناها ماء لئلا يحصل لها تشقق بسبب الجفاف .

كانت الرحلة موفقه وبعنا بضائعنا . هنا اعترضتنا عقبه كيف الرجوع اتصلت بمكتب وابورات كوستي تلفونياً ليحجز للمركب . رد المكتب الحجز لا يأتي إلا من حديد عطبرة وهنا اتسعت الخرق على الراقع لاشك إن السير عكس التيار يعوق سيرها وتحتاج إلى أيام وكانت رياح الشتاء قد هبت فهداني تفكيري إلى عمل شراع فاشتريت ثمانية أذرع من القماش وقسمتها أربعاً وضبطها مع بعضها وجئت

بصـــفيحة فارغة وملأتها من الرمل وجئت بخشبة ذات قرنين كشعبة ووضعتها في نصف الصفيحة لتكون كسارية وجئت بعمود آخر من الخشب لربط طرفي القماش وبـــدأت السير حتى وصلنا كاكا التجارية ولي بها معارف فتخلفت عنهم وواصلوا سيرهم بعد ثلاثة أيام جاءت الباخرة وسافرت فيها نحو ملكال ولما وصلت الباخرة مـــرفأ كدوك قابلت مصطفى وأخذني جانباً وقال إن أحد التجار قد علم بهذه العملية وأوصلها بدوره إلى مفتش المركز فارجع إلى فراشك قبل أن يراك فرجعت إلى أن وصلت ملكال وقد كنت أظن أن الموضوع بعد أن مرت عليه أسابيع قد دخل طور النســيان وجاء مفتش كدوك في زيارة لملكال لبعض شئون الإدارة وكان له مكتباً مخصصاً له فأستأذن أحد التجار واسمه عثمان له دكان في الخارج يعمل فيه أحد وكلائـــه يريد أن يرحله من مكانه الحالي إلى موضع نقطة الخشب القريبة منه لأن وجود النقطة أثر على عمله التجاري وأصبح لا يزوره أحداً من الأهالي وهو يريد مساعدة جناب المفتش ويوافق على ذلك فسأله من أسمه فقل عثمان أبشر(43) فوقف مـــن مقعده وقال له أنت حرامي هربت كل دمورية الشلك وبعتها في كوستي أنت حرامي بس ولا تستحق المساعدة أخرج من مكتبي وكانت مفاجأة لعثمان وأراد أن يدافـــع عن نفسه ويزيل بعض ما علق بذهن المفتش ولكن لم يجد فرصته فقد نادى المفـــتش أحـــد عســـاكره وأمره بإخراجه من المكتب وإلا سيفتح ضده بلاغ بتهمة التهـــريب وخرج وهو في حيرة من أين للمفتش بهذا وهو لم يصدر منه شيء من هـــذا القبيل أهو من كيد الحاسدين وشاع الخبر بين التجار ما تعرض له عثمان من إساءة دون جريمة فقلت لصديقي المفتش على حق تشابهت الأسماء وأنني قبل ذلك ذكـــرت لك إن فلان الفلاني قد أوصل ألي علم المفتش بأن عثمان نور هرب كمية من الدمورية لكوستي ويتقارب الأسماء ظن أنه قد عثر على ضالته ولذلك أفرغ كل جام غضبه على رأس عثمان أبشر (رحمه الله) .

كثيـــراً ما وردت كلمة شروك فما هي شروك هذه؟ هو اسم شجر ينمو في الأراضـــي الأثيوبية وفي أعالي نهر سوباط يطول ساقه إلى أكثر من عشرة أمتار

فــي متر وخفيف الوزن خشن النسيج أقرب شبها بالمندراب يجوف وسطه بواسطة أنـــاس متخصصـــون ثم يباع له زبائن كثيرون ومن خواصه أنه لا يغرق بل ربما يـــنقلب ويطفـــو على وجه الماء وبهذه الخاصية تجد الإقبال عليه من جميع القبائل النيلـــية ســـواء لعـــبور الأنهار أو لعملية الصيد وماله من خفه في الوزن يزيد من ســـرعة ســـيره ولـــو كان ذلك عكس التيار وغالي الثمن ومن اكبر أسواقه مدينة الناصر حيث هي أقرب مركز للحدود الأثيوبية يأتوا بها الأنواك والنوير ليبيعونها إلى تجار الناصر ويحتفظوا بها كسلعة تجارية ويستعملونها في تجارتهم بين قمبيلا والناصر والقرى الواقعة بينهما ولهم في ذلك طريقة من ابتكارهم بأن يأتوا بمركبين متوازنتين بينهما فاصل قد يصل إلى متر ونصف المتر ثم يأتوا بعيدان من الخشب تـــرص على شكل سيداب من فوق المركبين وتربط بحبال قوية لئلا يصيبها التفكك ويضـــعوا بضـــاعتهم عليها ويجعلوا منها مكاناً لا يقاد النار وهي تسير بهم الليالي والأيام تحت ضغط تيار شديد الاندفاع .

وإقبال الصيادين لاقتنائها أي مركب شروك مساعدة الصياد في حالة انقلابها أو إذا فقـــد تـــوازنه وانقلـــبت تطفـــو على وجه الماء فيركب على ظهرها ويأخذ بالتجديف إلى أن يصل بها أرض يابسة دون أن يتعرض إلى غرق .

ملكال ورحلات الدمورية

اتسعت رقعة مدينة ملكال وازداد عدد سكانها بسبب موقعها كعاصمة لمديرية أعالي النيل واهتمام الحكومة المصرية لتجد موطئ قدم ثابت في السودان جعلت من خدماتها في مدينة ملكال خير ما يعينها على ذلك وأنفقت من الأموال الشيء الكثير على المباني والجناين والخدم والسعاه وما قامت حكومة السودان من توسيع لا يقل عمـــا قامـــت به الحكومة المصرية حتى أصبحت المدينة تعج بالسكان من أجانب وسودانيين جاءوا من جميع أنحائه طلباً للعيش الكريم وازدادت الخدمات تبعاً لذلك إلا ناحـــية واحـــدة هـــي سوق السمك ليتمشى مع النهضة العمرانية ويكفي حاجة السكان من هذا النوع الذي لا غني عنه وكانت الكميات التي ترد السوق على أيدي

مواطنـــين شلك يكاد يكون شيء لا يذكر وجاء العركي علي (44) وعبد الله جاد الله وهمـــا من مواطني الكلاكلة القبة وتقدما بطلب ليسدا هذا الفراغ فوجدا تجاوباً من السـلطات ومـــنحوا رخـــص تجارية لممارسة هذا العمل على نطاق واسع فجاءوا بالمـــراكب والشـــباك وعـــدداً من الصيادين المهرة واستوطنوها وكانوا يمتازون بـــالأخلاق الكريمة والمعشر الطيب فهم أصدقاء لكل شخص في المدينة دون تمييز فعـــندما نشبت الحرب وأصبحت كل السلع خاضعة للرقابة وبدأ التهريب خصوصاً سلعتي الدمورية والبن ودخلت أنا في هذا الميدان وقمت برحلات قليلة جاءني الأخ عركـــي علي وعرض على أن نوحد عملية الترحيل وتكون على ظهر أحد مراكب الســمك وهي أكبر دون شك من الشروك وأضمن ولكن لكل منا بضاعته من حيث التنويع ولا نكون كشراكه فشكرته على هذه المساعدة القيمة وأخذ كل منا يجمع من الدمورية بطريقته الخاصة وبعد حصول كل فريق على كفايته نجعل في كل جوال عشـــرة ثياب من الدمورية وتخاط بالدبارة ونرسلها خارج المدينة وفي قرى الشلك إلـــى أن يكـــتمل العدد خارج المدينة تجيء المركب المعدة بطاقمها وهم أربعة من الشـــباب يقومـــوا بعملية التجديف ونحن نوفر لهم كل سبل الراحة من أكل وشرب وقهوة وشاي طبعاً وسجاير ليساعدهم على السهر ليلاً وتجيء المركب تحت ظلمة اللـــيل في نحو الساعة الثانية صباحاً وترسو على الطرف الشمالي من حلة الملكية ويجـــيء واحداً منهم ليعلن مجيئهم وفي سرعة نتجه نحوها وبمجرد أن ندخل ترفع مراســيها وتأخـــذ طـــريقها في عرض النهر وكل من عليها سكوتاً إلا من همس خصوصـــاً عـــندما نقتـــرب من قرية على شاطئ النهر وسفرنا دائماً ليلاً ونقضي ســـحابة الـــنهار في داخل الخيران أو داخل أعشاب النيل بحيث لا يقع نظر إنسان وبعـــيدة عـــن سير البواخر وفي مرة من المرات مررنا على مركز ملوط في نحو الثانية صباحاً وكان معنا بالمركب خروفاً اشتريناه لنقوم بذبحه عند الحاجة ومدينة ملـــوط لـــيس بينها من شاطئ النهر إلا أمتار قليلة ومع ضيق النهر شعر الخروف بحركة البهائم في داخل البيوت ووقع أقدامها على الأرض من شدة عض البعوض

فصـــاح وكـــنا فـــي صـــمت شديد خوفاً من متربص فينكشف الستر . ولما صاح الخـــروف هجـــم عليه أحد الطاقم وأمسك بخناقه حتى كادت أن تقبض روحه فلم يتـــركه إلا بعـــد أن ابتعدنا عن منطقة الخطر وكنا نمر على مدينة الجبلين نبيع أو وجدنا مشتري وإلا إلى كوستي .

تجمعـــت تحت يدي عدداً من الجوالات المعبأة بالدمورية والزراق في قرية علـــى نهر السوباط ولما حان وقت السفر اتفقت مع صاحب الدكان على أن نؤجر عربة ليشحن هو ذرة وأنا اشحن الدمورية وكانت العربة من مخلفات جيش أفريقيا وكانت مصممة خصيصاً لتكون كجراج تحمل قطع غيار ومغلقة بالصاج من جميع جوانـــبها إلا بابـــاً خلفـــياً ،بارحـــنا المدينة بعد صلاة العشاء وكنا خمسة والسائق وصاحب الدكان والآخر أحد أعواني وكان السائق لأول مرة يسير على هذا الطريق وكان ممن أتوا رخامة الصوت وملكة الحفظ يحفظ الكثير من أغاني الحقيبة غزلية كانت أو في وصف الكرم والشجاعة فما أن خرجنا عن حدود المدينة صعدت فوق الصـــندوق بغرض أن اصطاد الغزلان وبدأ السائق يغني وينقلنا مرة إلى حفلة من حفلات سرور ومرة إلى حفلات عبد الله الماحي ومرة إلى مجالس محمد ود الفكي تســـير العربة في طريقها ونحن في واد آخر وكلما زاد الليل برودة ازداد الشاعر حـــرارة واجتمع الضدين في قلب حرم بعضاً من زينة الحياة الدنيا فالتوالد لا شك ســـيأتي بشـــرود في الذهن واستغرق في الأحاسيس وكان الشارع الذي نسير عليه يـــنعطف عند شاطئ النهر ليأخذ مسيرته متوازياً مع النهر وعندما وصل إلى هذه النقطة وهو لا يعلم فإذا بنور العربة يسطع على مياه النهر ولم يبق بينه وبين حافة النهـــر ومـــن على قيف عال إلا مترين فقط فانحرف بالعربة في زاوية حادة وهي تســـير في سرعتها نحو اليسار ففقدت العربة توازنها وانقلبت على الجانب الأيسر فلـــو انقلـــبت علـــى الجانـــب الأيمن لسقطت في النهر و لابتلعنا وإياها اليم وبعد الاطمئـــنان علـــى ســـلامتها جاء دور البحث عني بعد أن قذفت بي السيارة أثناء افتقادها توازنها على بعد أمتار فجاء أحدهم وهزني فأفقت من غيبوبتي وسألني عما

بـــي قلت لا شئ وقلت ابحثوا عن البندقية فجاءوا بها وقد انشقت خشبتها فقلت في نفســـي سلامه وأفرغت ما بها من ذخيرة فرأيت في الأفق البعيد نور عربة قادمة نحونا وقال آخر خذ راحتك حتى تصل تلك العربة فرقدت على الأرض وعاودتني الغيـــبوبة فلـــم أشعر إلا عندما وقفت العربة أمام مستشفي ملكال عدت إلى وعيي ونـــزلت ودخلـــت المستشفي وجلست على أرضية العيادة الخارجية وقلت مخاطباً الـــذين كانـــوا معـــي هل أصيب أحدكم في هذا الحادث قالوا خدوش بسيطة فقمت وتركتهم في عيادتهم واتجهت نحو البيت ورقدت على فراشي وأنا اشعر بالتعب ولا أســـتطيع أن احـــدد موقعه وفي الصباح عادني عثمان فضل الله(45) وقال هيا على الســـوق قلت لا أستطيع وبعد حوار قصير قال : توكأ على هذه العصي وضع يدك علـــى كتفي فوقفت متحاملاً حتى وصلنا الدكان فهيأ لي مرقداً على عنقريب صغير أمام الدكان وبدءوا العواد يتوافدون ودارت كؤوس الشاي وفناجيل القهوة وفي آخر الـــنهار أعود وأنا متثاقل الخطى وبعد يومين تمكنت من إحضار البضائع وقبل أن يمضي على الحادث أسبوعاً جاءني العركي وجلس بجانبي وقال إن المركب ستأتي مساء اليوم وأنا سأتولى تصريف البضاعة نيابة عنك وقلت لا أجد سبباً في تخلفي قـــال إن حالـــتك الصحية قد لا تمكنك من السفر قلت في المركب هو الرقاد على الفـــراش وهـــنا الرقاد على الفراش سافروا مرضى يشفيكم الله قال إذن بعد صلاة العشاء مباشرة ستأتي العربة لتنقلنا إلى الملكية ووافقت جاء المركب وجاء المندوب واتجهـــنا نحـــو شاطئ النيل واعدوا لي مكاناً داخلها ورقدت فأدركنا الصبح على مشـــارف قـــرية واو شمال ملكال ودخلنا بين أعشاب النيل الطويلة وقضينا النهار وتحركنا بحلول الظلام وأفراد الطاقم يتبادلون التجديف كل ساعتين حتى وصلنا إلى مقربة من مدينة ملوط ولا زال في الليل بقية ولكن هذا المكان وعلى شكل جزيرة مهجورة ومرعى للصيد خير مكان نجد فيه مأمننا وما أن لاحت تباشير الفجر حتى قام الأخ العركي ليصلي الصبح فإذا بتيس (غزال) أقرن يشرب الماء بالقرب من مرســـي المركب فجلس بجانبي وهمس في إذني قائلاً هل تستطيع أن ترمي غزالاً

بالقرب منا قلت نعم قال إذن تحرك بحذر وأخذت بيدي البندقية ورفعت رأسي فإذا هـو لا يـزال يشـرب فرميته بطلقة أصابته غير أنه جري فأخذت بيدي البندقية وخـرجت وراءه جارياً وتبعوني بقية الجماعة الذي هبوا من نومهم على صوت إطلاق النار ولم يجري بعيداً حتى وقع وهذا الحادث كان سبباً في إزالة كل ما بي ومـا كنت أشعر به من تعب في جسمي فهل هذا من أنواع العلاج النفسي الذي لا يحتاج إلى تعاطي العقاقير .

واتخـذنا مـن هذا المكان مأوي لنا نبيت فيه ونتزود من لحم صيده بكل ما تحتاجه الرحلة وهذا النوع من الصيد معروف بالتيل الغطاس(46) أكتسب هذا الاسم لأن مـرعاه الجزر ويغطس في الماء إذا داهمه خطر ولحمه من ألذ أنواع اللحوم ويسـمي بصيد المسك عند الشلك ومحرم لبس فرائه لعامة الشلك إلا العائلة المالكة كما ذكرنا سابقاً .

رحلة مع الرضي في بلاد النوير

مـن ضـمن هذا التوسع الذي أصاب مدينة ملكال إنشاء معمل للسيرم تابع لمصـلحة الثـروة الحيوانية وبه عدد من الدكاترة البيطريين من سودانيين أجانب ويحتل رقعة واسعة من الأرض وحظيرة للبقر ولما كانت الثروة الحيوانية متواجدة بأعـداد كبيرة داخل حدود مديرية أعالي النيل وهي عمدة حياة الأهالي أعطوا هذا المعمـل عناية خاصة لمحاربة الأمراض التي تسبب الموت بأعداد كبيرة كل عام وبمـا أن مادة السيرم التي تستعمل كوقاية لمرض أبو قنيت(47) الذي يصيب البقر يحـتاج إلى عدد كبير من العجول فأعلن المعمل عن حاجته إلى نحو مائة من هذا النوع وكانت قد تأسست شركة رباعية قبل أسابيع من صدور هذا الإعلان مهمتها تصدير البقر للشمال بينهم ثلاثة أعضاء تربطني بهم صداقة قوية وفي اجتماع لهم لتدارس الإعلان وجدوا أنه ليس من السهل إيجاد هذا العدد مهما بذلوا من جهد لان كل منطقة أعالي النيل قد أصابها مطر غزير وتحصلوا على إنتاج وفير من الذرة وفي هذه الحالة لا حوجه للأهالي لبيع شيء من ثروتهم الحيوانية وهم لا يضحون

بهـــا إلا فـــي حالات المجاعة وانفض اجتماع الشركة على أن لا يتعرضوا لتقديم عطاء مما يعرضهم لخسارة أو إحراجاً مع سلطات المعمل وفي مجلس ضمني مع اثنـــين من أعضاء الشركة وكان شغلهم الشاغل احتياج المعمل وعجزهم عن تلبية مطالـــبه وقال لي أحدهم هل لديك فكرة لحل هذا الموضوع قلت نعم فأقبلوا نحوي قلت على شرط ان احصل على موافقة الشركة أن يكون لي سهم من الأرباح كواحد مـــنكم قالـــوا هات ما عندك قلت إنكم تعلمون أن مدينة تالودي في هذه الأيام محل تجمـــع لكثيـــر من قبائل العرب الذين جاءوا بغرض المرعى سنجد طلبنا من إناث العجـــول ما يشبع رغبتنا ونقوم باستبدالها بالثيران في منطقة غرب النوير ولا تجد سلطات المعمل صعوبة لإقناع مفتش غرب النوير وينتزعوا منه الموافقة قالوا ومن يقوم بعملية الاستبدال هذه قلت أنا بنفسي قالوا فكرة جميلة يجب عرضها على بقية الأعضاء وقاموا على التو وعادوا بالموافقة .

وصـــلنا مدينة تالودي وقد اختاروا رجلاً من رجالات الحمر الذين يسكنون مدينة ملكال بأبقارهم ليمدوا المدينة باللبن على طول العام واسمه الرضي اختاروه ليكون مرافقاً لي في هذه الرحلة لم يمض نحو أسبوع إلا أخذنا كفايتنا من العجول بأثمـــان زهيدة وتركتها تحت إشراف الرضي لأنتظره بتونجة جاءت العجول ولكن بســـبب عدم احتكاكها بالناس تكاد تكون غير أليفة وتنفر من أقل صوت خصوصاً الكـــلاب وتـــونجة مديـــنة معروفة بكثرة ناموسها فجمعنا الحطب في ساحة بقرب الســـوق وأوقدنا النيران ورقدت العجول حولها ولكن رغم ما أصابها من تعب من طـــول الطـــريق كانت تنفر من حركة أي كلب يمر بجانب مرقدها فعرضت على الرضـــي أن تكـــون الحراســـة بالتناوب وله حق الاختيار أما أول الليل أو أواخره فاخـــتار آخـــر الليـــل فتوليت الحراسة وإيقاد النيران حتى جاءت الساعة الواحدة فأيقظـــته مـــن نومه ليتولى الحراسة فقام ولم تمض ساعة حتى نفرت كل العجول وهـــبت من مرقدها وجرت فقمت منزعجاً ووجدته على وشك أن يغادر من فراشه ممـــا يدل على انه كان نائماً فجمعناها وجاءت لمرقدها ولفت نظره بأن يقوم دائماً

بالمرور من حولها وطرد الكلاب من أن تحوم حولها ورجعت إلى فراشي وحصل نفس الشيء مرة أخرى وسهرت معه بقية الليل فلما أصبح الصبح جاء حسن محمد علـــي فكنا ضيوفاً عليه وهو من خيرة الرجال بتونجة كريم باش الوجه مع كل من يلقـــاه حـــيانا وسأل عن كيف كانت رحلتنا فقلت أنا في انتظار فتح الخط التلفوني لاتصـــل بالشركة وأعطيهم الخيار إما أن يرسلوا مندوباً بدلاً عني وأتخلى أنا عن القـــيام بهـــذه الـــرحلة أو يستبدلوا الرضي بآخر وكان هذا الكلام على مسمع من الرضي فتناول الحديث (والله لومتني لوم شديد فأين أدارى وجهي إذا قابلت أعضاء الشـــركة وهم كلهم أصحابي) قلت صحبة الحضر تختلف عن صحبة الخلاء لان صحبة الخلاء محفوفة بكل أنواع الخطر فيها التعب والمشاق والتعرض للحيوانات المفترســـة وفيها التعرض للصوص وتعرض أرواحنا للموت طمعاً في هذه الثروة وكلنا نعلم أن النوير لا تهمهم حكومة ولا يخافون من مفتش إذا سنحت لهم الفرصة للحصـــول على هذه الثروة فأبدى عذراً وطلب مني أن أسامحه وفي نحو منتصف النهار نادى عامل التلفون يطلبني لمحادثة تلفونية وكان المتكلم أحد أعضاء الشركة وأخبرنـــي أنهـــم قد اتفقوا مع مفتش غرب النوير ليأخذ ما يمكن من العجول على ظهر باخرته في يوم غد وليتعاون معكم حسن(48) في استنفار العتالة والشلك ليقوموا بعملـــية الشـــحن تمـــت الاحتياطات وجاءت الباخرة وشحنا نحواً من ثمانين عجلة وتركنا البقية تحت رعاية حسن وسارت الباخرة حتى ألقت مراسيها في منطقة رير النوير وهي عبارة عن دكان واحد قائم علي ارض مردومه وسط توج وكان تحت إدارة كـــرار صابر لكنها مصيف يؤمه قبائل النوير بغرض المرعى وهم يملكون ثروة حيوانية كبيرة وبعد أن أفرغت الباخرة شحنتها من العجول واخذ المفتش بيدي وتـــوجه إلى حيث تواجد النوير علي اقرب مراح ووجد بها بعض المشايخ وقال لهم هذا تاجر وبيده عدداً من العجول لاستبدالها بالثيران فكل من لديه الرغبة وفي حالة التراضي بين الطرفين يتم التبادل وهذا عمل تجاري لا دخل الحكومة فيه فلا إكـــراه على أحد ولا جبر فليس للحكومة طرفاً فيه فرحبوا ورجعنا وأقلعت الباخرة

وبمعاونـــة الأخ كرار استأجرنا أحد النوير لرعاية العجول جاء المساء واتخذنا من الشـــاطئ مـــأوى لها حيث الردمية أوسع تستعمل كميناء لوقف الوابورات وما أن غابت الشمس حتى أغارت علينا جيوش البعوض وجن جنون العجول وأبت أن تهدأ لكـــن لحســـن الحظ كانت على أرض الميناء كميات هائلة من بقو الدوم كان معدا للتصـــدير إلى بورتسودان لتصديره خارج السودان لعمل الزرار الذي يناسب لون الكاكي ولكن بعد نشوب الحرب العالمية الثانية أوقف هذا التصدير فوجدنا فيه خير ما يعيننا على اتقاء لسعات البعوض وأخذنا في وضعه في هيئة أكوام صغيرة حول مـــرقدها ونزوده كلما احترقت وبعد أن تناولنا طعام العشاء ظهرت مشكلة أخرى هـــي التماســـيح من ناحية النهر التي تجد في هذا المكان فرصتها للنوم لأنه المرفأ الوحـــيد عل طول هذا النهر حيث كلا الشاطئين مغطاة بقصب البردي القائم على المـــاء وبمجرد خروج أحدها من الماء ستجفل العجول هذا من ناحية النهر أما من ناحـــية البـــر فحدث عن أنواع الحيوانات الأخرى كالسباع والنمور والذئاب اللائى تحاول الاقتراب من المراح لتجد فريستها فتنقض عليها وأصبحت أنا بين نارين فما العمل إنها مهمة شاقة فطلبت من الأخ كرار أن يأتينا أولاً بفانوس وتربيزه ومقعدين ووضـــعت أحـــد المقعدين على شاطئ النهر وأما الثاني من جهة البر حيث تجوبه الحـــيوانات فاقترحت على الرضي أن يجلس بحريته تجاه التماسيح ولما معي من بندقية سأكفيه شر الحيوانات المفترسة وحشوت سلاحي وجلست أمام صندوق شاي فارغ كبير ووضعت عليه الفانوس وأخذت مقعدي فما ذاق أحدنا طعماً للنوم إلى أن أصبح الصبح وطلعت الشمس وجاء الراعي وأخذها نحو المرعى وعدنا إلى مكان الـــدكان وهـــو عبارة عن كرنق من القش ينقسم إلى قسمين واحد ليكون دكاناً أما الآخـــر فلسكني التاجر وهو قائم على مواسير حديدية وله فرندة من ناحيتين على أعمـــدة حديدية فلاحظنا اعوجاجاً فيها وتثني حتى تكاد تكون كالقوس فسألت كرار عن سبب هذا الاعوجاج فقال هو نتيجة احتكاك القرنتي الذي يقضي أكثر ليله حول هـــذا الدكان ونحن ننوم بداخله ونشعر بحركته يومياً وبعد أن تناولنا وجبة الإفطار

فـإذا بالراعي يجئ جارياً ليقول إن الأسد قد افترس إحدى العجول فأخذت بندقيتي وجـريت وجـرى ورائي كل من الرضي وكرار وعندما شعر بمقدمي وثب عنها وتـركها تتخبط في دمائها ووقفت بجانبها فلم أجد للحيوان أثراً ووجدت إنها تنزف دمـاً عـند مفصل الرقبة والرأس وأثر غرز الأنياب يقذف الدم وكأنه نافورة وقفنا حولها وقلت ولابد أن يكون الأسد قد ربض داخل هذه الأعشاب ليعود لفريسته عند هـدوء الحركة وأنا سأجلس على حافة هذا التل وسأضربه طلقة فإذا سمعتم صوت الذخيرة فأتوني بالسكاكين والفؤوس لسلخ الجلد قلت هذا على سبيل الفكاهة ووقف أمامـي الرضـي وقال عثمان نور أما يكفي ما حصل في تونجه اتركك وحيداً في موقـف كهذا لتواجه الأسد وأنا انتظر صوت الذخيرة أقول شنو باكر لو حصل لك أي شـيء أنت داير تعيرنى أمام بنات عمي ويقولوا تركه نتيجة الخوف من ملاقاة الأسـد إمـا أن ننتظره الاثنين أو نتركه ونرجع سوياً وبعد قليل سمعنا صياحاً من مـراح للنوير بجانب آخر يقول الصايح الأسد الأسد وقد تأكدنا إنه فر عندما شعر بوقـع أقدامـنا وآثـر الـنجاة أما العجلة الميتة فقد تركنا أمرها لكرار فأرسل الى أصـدقائه من النوير وقدمها لهم كهدية وكانت هدية لها قيمتها لأنها كبيرة وسمينة وبـدأ النوير يفدوا نحونا كل يقود ثوراً وبعد أن يتم الاتفاق نضع ماركة على ورك الـثور وكانت الشروط المسبقة قبل كل شيء أن أي ثور توضع عليه الماركة غير قابـل للـرجوع لكـل فرد يجب أن يتقيد بهذا الشرط خوفاً أن تقع من الأهالي في اتهامات ولم يطل بنا المقام وفي غضون أيام قليلة وطبعاً تفاوت العجول في درجة الكبر يؤدى إلى زيادة القيمة إن كان الثور غير كاف فيأتي بعجل أصغر وعند نهاية الاسـتبدال تجمعـت نحو مائة وثلاثة ثوراً من صغير إلى كبير وآن وقت الرجوع فاختار لنا كرار من بين أصدقائه من يسوق معنا هذا القطيع إلى ملكال نظير مبلغاً مـن المـال ودعنا كرار وأخذنا طريقنا نحو كيلو ستين وهو نقطة خشب وبها من الملكـية الذين يعملون تحت إمرة الطاهر احمد رحمه الله وكان في وظيفة ملاحظ غابـات وكنت أسير في المقدمة ومرة في المؤخرة كمراقب للبقر لئلا يفر ويتخلف

منها شيء وفي المقدمة لحمايتها من الحيوانات المفترسة وكانت تواجهنا صعوبات أثـــناء المبـــيت ليلاً من كثرة الحيوانات في أثناء السير وكنت في الوسط جاء أحد الحـــراس ليقول إن الجاموس يقف على الطريق فاتجهت نحوه وتبعني الرضي فلما وصلت إلى مسافة تمكنني من ضربه جلست على الأرض فهرب من أمامي ووقف ثانـــية ومشينا نحوه فلما رفعت البندقية لأضربه وأنا قائم جفل مرة أخرى ومشيت نحـــوه فـــإذا بالرضي يمسك يدي ليقول بي حرام مرتي تاني ما تمشي ليه هو أبانا مرتين فلا تمشي نحو الثالثة ولما اقسم على تركته وكان قد غير اتجاهه وحاد عن الطـــريق وصـــلنا كيلو ستين ولكن هي بالشاطئ الشرقي ونحن غرباً ولكن النهر ضـــيق فنادينا وجاءنا الطاهر على مركب شروك وأخذنا إلى البر الشرقي وبعد أن ارتحـــنا قلـــيلاً جند كل أفراد العمال ليقوموا بعملية تعويم البقر لهذا البر وقد تمت بسلام مكثنا يومين للراحة واتجهنا نحو ملكال بمحاذاة نهر النيل ولما وصلنا بالقرب من تونجه ولم يبق بيننا وبين ملكال إلا مسيرة يوم واحد قلت للرضي أنك تعلم إن لنا بقية من العجول في تونجه وأنت لا تعرف لا لغة النوير ولا لغة الشلك فعليك أن تواصـــل سيرك لملكال وقد دخلت في منطقة الأمان وأنا سأذهب إلى تونجه وأقوم بعملية الاستبدال بين نوير الزراف فاستجاب وهو غير راض وودعته وسرت نحو تونجه فأستأجرت حصاناً وشخصين من الشلك واجتزت النهر وسرنا ولم يعترض طـــريقنا شـــيئاً يذكر غير حادث واحداً . جاء أحد النوير وهو يقود ثوراً فعرضت علـــيه عجلة فرفضها ثم عرضت عليه أخرى فقبلها وأمام مجموعة من المشاهدين فوضعت الماركة عليه وأمرته بأن يسوق عجلته ولما أراد أن يمسك بها نفرت منه ووجد بالقرب منه عجلة تشبهها لكنها أكبر وأجمل من الأخرى وبالتعاون مع بعض أهلـــه اســـتطاع أن يمسك بها فقلت اتركها وامسك العجلة المتفق عليها لكنه أصر علـــيها وقد شجعه عليها بعض الحضور ووضع الحبل على رقبتها وطردها أمامه وجرى معه أخ له فناديته فلم يرجع وكان الحصان مربوطاً على شجرة قريبة مني وأخـــذت بـــيدي ســـوطاً وأطلقت عنانه ورجعت بالعجلة وردتها فانضمت للقطيع

وجئت وأنا في حالة غضب وقلت للحاضرين ليس لهذه شيخ فسكتوا قليلاً وأجابني واحد منهم أنا الشيخ فأخرجت ورقة وقلم من جيبي قلت ما اسمك قال فلان الفلاني قـال ومـا شأني قلت ستعرف شأنك عندما تقف أمام المفتش فتدخل الوسطاء لئلا يصل الأمر إلى المفتش ولاموا الشيخ لعدم تدخله وقد حكموا عليه بخروف غرامه فتنازلت عن القضية .

رجعـت ملكال ووجدت عندهم الكثير من أخبار الرحلة حيث حكاها الرضي وضـمن مـا قاله عني نحن كنا مغشوشين في الجلابة وكنا نعتقد إن الجلابي في الخلاء زول هوين وما كنا نعطيه اعتبار ولكن مرافقتني لعثمان نور في هذه الرحلة عرفت عنه وعنهم الكثير وأنا بي حرام مرتي إذا ولدت ولد اسميه عثمان نور .

أبقار الناصر (المجوك)

مركـز الناصر يقع شرق مدينة ملكال وعلى شاطئ نهر سوباط يمتاز بسعة المسـاحة ولـه حدود مشتركة بينه وبين أثيوبيا ويملك من الثروة الحيوانية الشيء الكثيـر وهـي تمتاز بكبر الجسم وسمنة الأبدان ولا أدري لهذا الامتياز من سبب ظاهـر أو معلـوم وهل هو اختلاف في السلالة أم جودة المرعي وللناصر شهره عظـيمة بـين أوسـاط تجـار الماشية ومتعهدي التصدير يؤمها كثير من مندوبي الشـركات لمشـتري البقر وكان يغلب على لونها البياض الناصع إلا في الحالات القلـيلة تجـد بقية الألوان وإن وجدت تكون كعدة ألوان في جسم واحد وهو محبب لـدى كل القبائل فمثلاً إذا أرسل أحد التجار برقية لرصيفه في العاصمة يسأل عن أسعار البقر يأتيه الرد (المجوك بين خمسة عشر وثلاثة عشر) وكلمة مجوك وهي من ألوان البقر بلغة النوير اتخذها تجار الماشية رمزاً للثور المكتمل اللياقة كالثيران وارد الناصـر وجـزء مـن هذه الأبقار يباع في الأسواق الأثيوبية بطريقة فردية ولاحتـياجات شخصـية لـيس من بينها حب امتلاك المال لان كل سكان الأقاليم الجنوبية حبهم للحيوان يفوق حبهم للمال ولا يريد الفرد منهم أن يتخلى عن ماشيته إلا فـي حالة الزواج أو اقتناء سلاحاً نارياً يشتريه عن طريق المقايضة من أثيوبيا

حـيث الحـدود بينهما مفتوحة بسبب انقسام القبيلة الواحدة إلى نصفين نصفها يتبع أثيوبيا والثاني يتبع حكومة السودان لا فاصل بينهما إلا خط وهمي أو خور صغير أو شـجرة كبيـرة ولـذلك يسهل التداخل وتبادل الزيارات ليل نهار وهذا الانقسام ينطبق على كل القبائل الواقعة على الشريط الحدودي بين الدولتين .

ولمـا كانـت بيدي نحواً من سبعين عجلة وكلها من سلالات مجربة سهلة الانقـياد وألـيفة مـرغوبة لدى جميع سكان الإقليم فتجولت بها على بقية القبائل وطمعـت في ثيران الناصر . وبما أن لي سابق معرفة بنصف الطريق المؤدي لها حـيث الحدود مشتركة بينهما وبين مركز ابونج ولم يبق أمامي إلا النصف الآخر يمكـن أن اقطعه دون صعوبة لأني احفظ من لغة النوير ما يفي بالغرض وفاتحت الشـركة الرباعية لأنها ذات الشأن فتركوا لي الخيار وزودوني بحمار قوي سريع وبعـد أربعة أيام حللت ضيفاً على محمد عبد الرسول في داخل مدينة الناصر ومن تجارهـا المشـهورين رجل إن قلت إنه كريم فلم أوفه حقه فهو أكثر من كريم له أيـادي بيضـاء عمت الكثير من أهل الشمال وأهل الجنوب ولا زالت أياديه ترمي بالمال هنا وهناك وكأنه لا قيمة لوجوده وقد عرفته قبل أن أراه لما بين أسرتينا من تـرابط . فاكرم وفادتي وأعطاني كل وقته لنجاح مهمتي فأخذني وأشار إلى مكان فسـيح شرق السوق ليكون مربطاً للعجول جاء الليل وخرجت الحيوانات المفترسة من مكامنها تبقي الرزق فجاءت أول دفعة منها عبارة عن اثنين من الذئاب يتسابقان وكـنت دائـم الدوران حول مرقدها واحمل سلاحي ولدى كمية من الذخيرة مما لا وجود لها داخل السودان تصنع خصيصاً لصيد الحيوانات وغير مصرح استعمالها ولـذلك لا تـدخل السـودان إلا عن طريق التهريب وبكميات قليلة فما أن وصلت الـذئاب ووقفنا وجهاً لوجه وكان موقفهما متجاوران فرميتها بطلقة فقضت عليهما الاثنـين وتجمـع الـناس على أثر صوت الذخيرة . طلعت الشمس وتزودت بكل المعلـومات عن الطريق والسكان وقال أحد التجار لولا بعد المسافة ومشقة السفر ومـا يعتـرض طريقك من خيران ومستنقعات لأشرت عليك أن تتجه مباشرة نحو

(واروينق) وهي بالقرب من الحدود الأثيوبية حيث بها تجمعات كبيرة من قبائل النوير وهو مصيفهم المفضل وشكرته على هذا التوجيه وقلت له المثل المصري (ما فيش حلاوة من غير نار) فالتعب يهون في سبيل الغاية .

وتحرك القطيع تحت حراسة اثنين من النوير جاءوا معي من ملكال بعد أن تخلف أحدهم بسبب المرض وعززتهم بثالث ليقوم بوظيفة الخبير تركنا وراءنا فارجوك وقارجاك وقار معناها أين في لغتهم والجكنج شنق والجكنج دور وشنق معناها الشرق ودور معناها الغرب أي الجكنج الشرقية والغربية والجنب وفاقوان وكلها قبائل من النوير وما أن وصلنا واروينق بعد مسيرة أربعة أيام وكانت الرحلة كما وصفها صاحبنا متعبة وشاقة بالنسبة لنا وللحيوانات . وجدتها عامرة وتعج بالناس منهم من يعمل في صيد السمك وتجففيه لزمن الخريف ومنهم من يرعى قطيعه وبقيتهم تحت قطاطي صغيرة وفي حالة عطالة تامة ولحسن الطالع وجدت المفتش قد سبقني في مروره السنوي لحل المشاكل والقضايا والنزاعات بين القبائل وتحصيل أموال الحكومة من المشايخ وكنت احمل مكتوباً من مصلحة البطري للمسئولين بصفة عامة للتعاون معي في إنجاح المهمة فتقدمت بمكتوبي له ووقع عليه بإمضائه وشرح لمشايخ النوير مهمتي وقال لهم كل من يريد الاستبدال عن طريق التراضي بينكما فليأتي بثوره وأمر أحد بوليسه ليراقب الموقف بعد أيام قليلة تم التبادل دون كبير عناء وقبل أن أبارح واروينق سمعت أحد المشايخ يقول للمفتش أنا عندي ثلاثة أولاد سيذهبون غداً إلى البر الحبشي ومعهم بعض الثيران لمشتري أسلحة نارية قالها بكل بساطة فانزعج المفتش ورد عليه إن اقتناء الأسلحة غير المرخصة من سلطات حكومة السودان ستعرض حاملها إلى العقوبة وكان رداً غير مقنع بالنسبة له وهو مصر وكثيراً ما حاول المفتش ليثنيه عن عزمه فلم يفلح وفي الصباح جاء الأخوة الثلاثة وأمامهم أربعة من الثيران وأخذوا طريقهم نحو الحبشة ولم ير المفتش بداً من التقاضي .

تركت واروينق وأخذت نفس الطريق للناصر ووصلتها وفي يوم وصولي

جـاء رجـل البوليس يطلب مني المثول أمام المحكمة الشعبية وكان من بينها سر تجار المركز ورئيسها وبقية الأعضاء من النوير ودخلت وأشار سليمان أحمد عضو المحكمة وسر التجار أشار إلى أحد الجالسين هل تعرف هذا الشخص فنظرت إليه قلت نعم جاء معي من ملكال قال هو يدعي أنه له أمانة نحو خمسة جنيهات وثلاثة أذناب من سبيب الزراف قلت دعوى كاذبة والمحكمة صاغية قلت للمحكمة من أين لـه هـذا المال والسبيب قال المال وفرته من عملي عندما كنت اقطع الخشب في النقطة أما السبيب فقد اشتريته من أحد التجار فقلت للمحكمة إن عمل نقاط الخشب لـه قواعد لكل طائفة منهم شيخاً ليعرف حصيلة كل منهم من كميات الخشب ليبلغ بهـا الملاحـظ المسئول ثم يكون اسمه مسجلاً في دفاتر كل سلفية أم استقطاعات فليبـين أمـامكم اسـم الشيخ واسم الملاحظ لنرجع له إذا لزم الأمر فكنت أنا أتكلم بالعـربية وآخـر يقوم بنقله بلغة النوير فطلبوا من المدعي اسمي الشيخ والملاحظ تلعـثم قليلاً ثم قال الحقيقة لم اشتغل في نقطة خشب لكن وجدتها على الأرض في مديـنة ملكـال فضج الحاضرون بالضحك فتبين لهم كذب الدعوة وتلفيقها وحكمت ببراءتي .

جـاءت مـرحلة من يسوق البقر لملكال بعد أن تخلف بعضهم بحجة التعب فأجـرنا ثلاثـة من النوير بأجر معلوم وبعد أن تم الاتفاق لتبدأ الرحلة في يوم غد وكان من بين البقر ثوراً يظلع من أثر جرحاً أصاب ظلفه .

خـرج النويـر الثلاثة فوجدوا من أهلهم واحداً يسير نحو حلتهم وهي على طـريق ملكال فاوقفوه وقالوا له قل لاهل الحله غداً يقابلونا في الطريق لأخذ اللحم لأن فـي البقـر ما هو يظلع نطعنه بدعوى أنه عجز عن السفر ومات في الطريق سـمع هذه المكالمة أحد التجار وكان حجة في لغة النوير يعرف شاردها ووارداها فجاء ليسألني هل في البقر ثوراً أبيض ظالع قلت نعم قال إن النوير قد تأمروا على قتله وتوزيع اللحم على أهلهم قلت حقيقة ولا مراء فيها من علم لغة قوم آمن مكرهم فاستبدلناهم وكنت قد تخلفت عنهم نحو يوم كامل ولحقت بهم في الطريق .

اليد = رطلاً : من أساليب التجار

كـــان لي جار في السوق وهو يعمل كفرع من أعمال أبى رجلاً طيب القلب صـــافي الضمير وكنت ألجأ إليه وأجلس معه رغم فارق السن كنت استمع لحكاياته وما لقيه من صعاب أثناء فترة المهدية التي كان يعمل بها تاجراً على ظهر الدواب كما هو الحال بين قرى كردفان وفي يوم سألته أين تجدوا الموازين التي تستعملونها فـــي تجـــارتكم وكيف تحملونها على ظهور الدواب وهي على ثقلها قال الموازين المســـتعملة علـــى عهـــدنا تختلف كثيراً عما عليه الآن وهي عبارة عن كفتين من الـــنحاس تحمل كل واحدة منه ثلاثة سلاسل من حديد متصلة بطرف عمود حديدي ولا زال بعضها موجوداً في أيدي أناس يستعملونها بين القرى والحلال قلت أن لم تجدها أو حصل لها عطل قال الميزان لا يشكل عقبة في طريق التاجر ففي الإمكان صـــنع ميـــزان من المواد المحلية لا تكلف شيئاً فتأتي بكأسين من القرع المستعمل لشرب الماء وليست الدباء التي تستعمل أداماً تأتي بكأسين بعد أن تقارن بهما نظرياً ثـــم يربط أطرافها في شكل مثلث وتأتي بخيوط القطن وتربط أطراف الخيط على عمـــود مـــن خشب يأتيك شكل ميزان كامل وأن رجحت كفة على الأخرى ربطت عليها حجر صغير وبهذه الطريقة يجد ميزان يؤدى وظيفة المستورد قلت إنها والله فكـــرة جميلة لاشك وبعد أن أعطيتنا فكرة عن الميزان هل لك أن تعطينا فكرة عن الأوزان قـــال موجـــودة وهي مصنوعة من النحاس وان اختلفت في طريقة الصنع لكـــنها متحدة في الوزن قلت إن لم تجدها أو فقدتها أثناء الرحلة قال الموضوع في غايـــة السهولة ألا تعلم إن بيضة الدجاج العادية تزن أقيه والإثني عشر منها رطلاً كـــاملاً إذا اســـتثنيا إنتاج الفرخة في مرتها الأولي يعني بالدجاج السلالة المتوالدة محلـــياً قبل أن يظهر الدجاج المستورد حيث بيضة أكبر حجماً وأثقل وزناً ولم يكن معـــروفاً فـــي تلك الحقبة ، قلت ألم يصادفك موقفاً ندمت عليه بعد أن حدثتنا عن مواقف اللصوص وقطاع الطرق قال حادثاً واحداً لازالت ذكراه عالقة بذهني وكلما تذكـــرته ســـألت الله أن يغفر لي قلت وما هو هذا الحادث الذي يلازم ذاكرتك وقد

مـــرت عليه عشرات السنين قال بعد انتهاء حكم المهدية ودخول الحكم الثنائي كنا نعمل في تجارتنا نضع للصمغ العربي الأولوية بين المحاصيل لسبب الطلب وكانت قبل أوان الجني تسبقه شائعات بأن أسعاره سترتفع وسيجيء تجار أجانب لمشتري المحاصيل وكنا نحن التجار نعمل مع المزارعين بطريقة الشيل أي نشتري الصنف قـــبل حصــــاده وندفع القيمة نقداً ونسجل ذلك في دفاتر نحفظها لحين وقت الحصاد ووزعـــنا كل ما بأيدينا من بضائع ونقدية . جاء وقت الحصاد ولم يجئ مشتري لا أجنبي و لا وطني ونزلت الأسعار وشعرنا إننا سنفقد الجزء الأكبر من رأس المال وكنا نتوارى عن القوم لئلا يطالبوننا باستلام حقوقنا وكل من لقيناه يطالبنا بالاستلام فطرأت لي فكرة أرد بها رأس المال فجاء أحد المديونين ووضع أمام منزلي جوالاً ملئ بالصمغ وقال تعال استلم فجئت بالميزان (ابو سلاسل طبعاً) وعلقته على سقف راكـــوبة أمــــام المنزل وقلت أملأ الكف قال وأين الرطل قلت إن يدي وزنها رطلاً ووضـــعتها على الكفة الأخرى فقال متعجباً هذا لم أسمع به ولم أره كيف وزن يد الإنسان رطلاً قلت إن وافقك ذلك فإن لم ترض فرد على المبلغ الذي استدنته وبيع بضــــاعتك لأي شخص ترضاه فبعضهم من يقبل بوزن اليد فيضع الصمغ وأنا يدي على الكفة الأخرى . تعيرني حالة الخجل من كثرة الصمغ فأرفع يدي وأقول واحد وبهذه الطريقة إلى أن يكون قد استوفي دينه وكان هذا شأننا حتى تمكنا من خلاص ديننا هذا ما هو يقلقني وقد اشعر بالظلم الذي وقع على فئة ضعيفة وكنا نحن أحق بالتضـــحية لأن عملــــنا مـــن طبعه عرضه للخسارة والربح قلت هل استفتيت أحد العلمــــاء إن كــــان يقـــع تحت دائرة الظلم قال الحياء يمنعني من أن اقف أمام عالم موقف ظالم قلت لا حياء في الدين .

تمباك (رزق الله ـــ قمبيلا) :

إنســـان الجنوب خلق من أرضه وارتبطت حياته بها وقل أن ينفك عنها ولا هـــي مـــنفكة عنه فهو منها وإليها وهو مزارع بطبعه لا تحل به المجاعة من قلة الأمطـــار بـــل من كثرتها فتشل يده وتقيد حركته من الخروج لبذر البذور أو إزالة

الحشـــائش ويعـــتمد فـــي حياته على زراعة نوعين أو أكثر من غيرهما هي الذرة والتمباك فتوسط كميات الأمطار من أسباب سعادته بكثرة الإنتاج وتوفر المحاصيل وزيـــادة دخلـــه هذا يزداد معها تبذيره ويعمل على تبديدها ويسيء استعمالها يبيع قســطاً مــنها ويسرف في شرب المريسه علاوة على الاستهلاك اليومي منه للأكل وعــند حلــول فصل الخريف يجد أن يده قد خلت وإن مخزونة قد نفذ فيلجأ للبحث عنه وربما كلفه ذلك بيع بعض ماشيته ليسد بها النقص فهذا دأبه وسنته لا يتعظ ولا يعتبــر . أما التمباك رغم زراعته المحلية فلا يعول عليها لسبب رداءة الصنف لا يستعمل عندهم إلا للكدوس ولا يأتي بمحصول إلا في الحالات التي تكثر فيها كمية الأمطـــار فهــو عكس الذرة وعدم جودة أصناف التمباك المحلية تضطره ظروفه للـــبحث عـــن الأصناف الجيدة منها (رزق الله) من أجود أنواع التمباك يزرع في أراضـــي البـــرون قبـــيلة تسكن مشارف جبال الإنقسنا في إقليم أعالي النيل تجمع أوراقه وتدق على (فنادق) إما خشبية أو بطريقة حفر الأرض الصلبة التربة ويعجن ويـــودع باطن الأرض في أماكن خاصة حتى يختمر ثم يصنع في شكل قمع السكر ويـــباع بأثمـــان غالية ويستعمل كسفه عن طريق الفم يوضع جزء صغير في فمه ليحصـــل على الكيف والمتعة هذا عند بعضهم أما البعض الآخر فيستعمله كنشوق عن طريق الأنف وبما أن هذا النوع معروف بقوة مادته وسرعة فعاليتها تحتاج إلى طبقة خاصة من الفئة التي تستعمله أن يكون الواحد منهم قوى الأعصاب فهو يثير العطـــس ويزيد من تصبب ماء الأنف واحمرار العيون وقد يتعرض للدوار والقيء ورغم ذلك كله وما يسببه من متاعب فهو مطلوب ويقبلون على شرائه لدرجة النهم وكلمـــا ازداد الجو رطوبة زاد الإقبال على تعاطيه ويكثر استعماله بين الرجال أما طبقة النساء فعادة التدخين لا تقل أهمية عن ما عند الرجل أما الاستعمالات الأخرى كالسفة والنشوق والكثير منهن يفضلن تمباك قمبيلا عن (رزق الله) حيث مادته أقل تأثيراً من عند رزق الله ، فتمباك قمبيلا هذا النوع يزرع في الأراضي المتاخمة إلى الأراضـــي الأثيوبـــية في منطقة الأنواك على ضفاف نهر السوباط وروافده حيث

رطوبة الجو التي تساعد على نموه وطريقة تصنيعه هي نفس الطريقة سالفة الذكر مـــن ناحية التخمير والإقبال على شرائه أكثر من الإقبال على رزق الله لاستعماله بـــين السواد الأعظم من المدخنين والذين يتعاطونه عن طريق الفم أو الأنف سمي بهذا الاسم لأنه بدأ يأتينا عن طريق البواخر النيلية التي تسير على نهر سوباط حتى ميـــناء قمبـــيلا في الأراضي الأثيوبية وفي أيام فيضان النيل لتنقل كميات البن إلى داخـــل الســـودان وقمبيلا أرض أثيوبية أستأجرها الاستعمار لتكون ميناء للسودان بموجب معاهدة مكتوبة لتصبح كمركز تجاري لمشتري البن والغريب في الأمر إن هـــذه المعاهدة المكتوبة قد انتهي أجلها وانقضت مدتها قبل عامين اثنين قبل خروج الاســـتعمار وكـــان ذلك على عهد الإمبراطور هيلاسلاسي وتخلوا عنها كل التجار الســـودانيين الذين كانوا يعملون هناك وسلمت الأرض إلى أصحابها وبطل مفعول المعاهـــدة ولـــم يطلـــب أحـــد تمديد مدة صلاحيتها لأن لجنة التفاوض من الناحية السودانية قاصرة على البريطانيين ولم يشترك فيها سوداني واحد.

وممـــا كانت تمدنا به هذه الميناء كميات من الثوم والزنجبيل الطازج والذي يصلح كتقاوي حيث جرب في مناطق غرب الاستوائية ونجح نجاحاً يفوق التصور وممـــن قام بهذه التجارب الأخ محمود حاج مهدى(49) أحد تجار مريدي في أرض مسجلة تحت اسمه بالقرب من مريدي فأتي بمحصول وفير كما أجرى تجارب على الـــبطاطس فكـــان نجاحـــه لا يقاس درجة نجاحه بأي منطقة من مناطق السودان الأخرى وقد صدر منه الكثير إلى جوبا ولقي إقبالاً واسعاً ولكن ظروف الحرب قد أوقفت نشاطه .

المحافظة على البيئة

لســـت مغالـــياً إن قلت أن السودان يملك من المقدرات والثروات مما يجعله قـــادراً للحـــاق بالدول الغنية بما لديه من ثروات منها ما هو لا يزال مطموراً في بـــاطن الأرض فـــي انـــتظار من يستغله أو يكشف عنه منها ما هو ظاهر لأعيننا كالثروة البحرية والبرية والتي تحتوي على حيوانات نادرة الوجود وتناقص أعدادها

في السنين الأخيرة الشيء الذي أقلق كثير من علماء الطبيعة والمحافظة على البيئة وأصبحت هذه الحيوانات عرضة للانقراض بسبب الفتك بها بضراوة ولا أرى بعيداً اليوم الذي يجيء أحد أجداد المستقبل ليقول لأحفاده وأبنائه كان في السودان حيوان يسمي الفيل كبير الجسم له أسنان تباع بأثمان عالية وتصدر إلى كل البلاد الأوربية وما يقال عن الفيل يقال عن وحيد القرن والقرنتي والتماسيح ستنقرض كما انقرض حـيوان الديناصـور وغيـرها من التي تطالعنا المجلات العالمية بأخبار اكتشاف هـياكلها تحت طبقات الأرض من ملايين السنين وان لم يكن ليد الإنسان سبباً في هـذا الانقراض ولحقت بها يد البلى وها نحن لا يزال الأمر بأيدينا ويمكن إنقاذ ما يمكن إنقاذه إذا اتبعنا ما هو آت :

1- جمـع كـل الأسـلحة النارية التي دخلت الأقاليم الجنوبية أبان الحرب الأهلية وتبعاً لذلك إتلاف كل الذخيرة التي بأيدي الأهالي .

2- مـنع قـتل أي حيوان وصيده سواء كان عن طريق الأسلحة النارية أو الأسـلحة التقليدية أخص بالذكر منها الحيوانات الكبيرة كالفيل والزراف ووحـيد القـرن والقرنتـي والجاموس والبقا بنوعية الأكبر والأصغر والتماسيح لمدة أقلها ثلاثون عاماً حتى تجد فرصتها في التوالد والتكاثر لتستعيد مكانتها مع تشديد الرقابة على إقليمي أعالي النيل وبحر الغزال لأن مـا لديها من الثروة الحيوانية الأليفة يكفي حاجتها من اللحوم دون اللجـوء إلـى صـيد حـيوان الغاب وليس معنى ذلك إننا نستثني إقليم الاستوائية بإعطائه الحق في ممارسة صيد الحيوان لعدم الثروة الحيوانية المتمـثلة في البقر والغنم وصعوبة الحصول على اللحم لا يعتبر مبرراً لإطـلاق يده وان يترك له الحبل على القارب بل في استطاعة الحكومة إقامـة أسـواق للماشـية وتصديرها إلى الجهات التي لم يكن بها ثروة حيوانـية ويترك لأهالي هذا الإقليم من أنواع الصيد الصغيرة الأخرى فهي في متناول أيديهم يمكن أن يجدوا منها البديل لسد هذا النقص .

3- التوســع فــي الحظائر لحماية الحيوان ومنع دخول الإنسان مهما كانت هويــته أو أغراضــه إلا من سائح أجنبي بغرض التمتع بالحيوان وهو داخل غابته أو اخذ صور فوتوغرافية أو أفلام سينمائية للدعاية لإغراء السائح الأجنبي لزيارة السودان للحصول على العملات الصعبة .

4- الــزيادة في قوات حرس الصيد ومدهم بالإمكانات اللازمة من عربات وغيرها لتسهيل مهمتهم في الحراسة اللازمة .

5- وبمــا أن للســودان حــدود مشتركة مع كل من يوغندا وزائير وكينيا وأثيوبــيا وأفريقيا الوسطي هذه الحدود مفتوحة دون حارس ولا رقيب مما يجعل هجرة الحيوانات سهلة وميسورة في رحلتي الصيف والخريف بقصــد الرعي والبحث عن المناخ الملائم أو عندما يشتد الضغط عليها وتشــعر بالخطــر فــإذا وفــرنا لها الحماية اللازمة وجنبناها الإزعاج وشعرت بالطمأنينة والأمان لها ولصغارها لاشك إنها ستقيم إقامة دائمة ومــا هــي إلا أعوام قليلة ستجد إن السودان استعاد كل ما فقد وسيكون الســودان محل نظر كل علماء الطبيعة وجمعيات المحافظة على البيئة ويــا حــبذا إذا اســتطعنا أن نســتعين بخبراء أجانب في مجال الثروة الحيوانية والسمكية لأن ما يسمونه (عقدة الخواجه) لازالت تسيطر على عقول كل الأهالي .

6- ما يقال عن الثروة الحيوانية ينطبق على ثروتنا السمكية التي تعرضت للإبــادة تحــت سمع الحكومات المتعاقبة وبصرها بسبب عدم الاهتمام واللامــبالاة من القائمين بأمر هذين المرفقين وإني إذ أقول ذلك لا ألقي القــول جــزافاً بل عندي من الأدلة ما يثبت ذلك والدليل الملموس من المعــروف أن النــيل الأبيض من أكثر الأماكن التي تتوفر فيه مراعي الســمك ويعــيش ويتكاثر على شاطئيه والآن بعد عهد الفوضى وغياب الــرقيب أصــبحت مهنة الصيد سهلة ودخلها كل من هب ودب و بدأ

السمك يقل والناس يقفون على شاطئ النيل في انتظار ما تأتي به المراكب فتجيء المركب خالية لا شيء فيها بعد أن قضت ليلها أو نهارها وهي تجوب النيل شرقاً وغرباً مما جعل أصحاب المراكب يقومون بتضييق فتحة الشبكة لئلا يفلت منها لا صغيرة ولا كبيرة وما يقال عن النيل الأبيض ينطبق على النيل الأزرق بكل روافدهما . بالمقارنة بين عهدي الاستعمار والحكم الوطني كنت في عهد الاستعمار من أوائل الذين منحوا رخصة إقامة معسكرات بالاشتراك مع الأخوين العركي علي وعبد الله جاد الله لصيد السمك في منطقة إقليم الاستوائية الذين سبقوني بعام واحد كان معسكرهم في منطقة تركاكا وفي العام الثاني فتحنا معسكراً بمنطقة الجميزة جنوب مركز بور وهي تابعة لإقليم الاستوائية وكان غرض الحكومة أولاً تصدير السمك المجفف المملح إلى كل من زائير ويوغندا لتستورد بالقيمة بناً وشاياً وصابون وأشياء أخرى . أما الغرض الثاني هو تدريب الأهالي على طريقة التجفيف حتى تتسع مداركهم وزيادة دخولهم ولكن كانت الرقابة المشددة التي تفرضها مصلحة الثروة الحيوانية في مجالات كثيرة أولها فتحات عيون الشبكة بمقياس محدد بالسنتيمتر بغرض إعطاء الفرصة لصغار السمك منها بالمرور بين الفتحات لتنجو محافظة على البيئة وخوف الإبادة وقد جندت لذلك فرق وزودتهم بالعربات للإشراف على هذه المعسكرات فكان الضابط أو المفتش يدخل فجأة المعسكر ويضع يده على الشباك ويقيس فتحتها فإن وجد فيها ما يخالف اللائحة فيكون صاحبها عرضة للمحاكمة وإتلاف الشبكة أولاً بحرقها أو تقطيعها بعد ذلك يقوم بزيارة المعسكر ومحلات نشر السمك على الحبال للتأكد من اتباع الأوامر ومراقبة كميات الملح المستعملة في تجفيف السمك كل ذلك محافظة على سمعة السودان التي تصدر هذه البضائع وتضع الثقة في منتجات

السودان وكنا نحرص كل الحرص على تنفيذ التعليمات لكن بعد أن خلا الميدان من الرقيب وخلت الساحة من مسئول ضربت الفوضى أطنابها ودخلت قبيلة الفلاته هذا المعترك واتخذوا منها مهنة أساسية لما تدره عليهم من عائد خيالي غرهم الطمع والمزيد من الربح ولو على حساب مصلحة السودان فأصبحت فتحات الشبكة تزداد ضيقاً كل يوم حتى وصلت إلى درجة يصعب على الصغار من السمك من الإفلات منها ونحن في غفلة من هذا كله وسيجيء اليوم وفي القريب العاجل بأن نجد مياه النهر قد خلت تماماً من أي نوع من السمك . فأنا كمواطن حادب على مصلحة بلاده أرسلها صيحة عالية وأدق على ناقوس الخطر منبهاً المسئولين إلى ما آلت إليه ثروتنا السمكية وإنقاذ ما يمكن إنقاذه ومن الملاحظ إن القائمين على أمر الثروة الحيوانية بجميع فروعها تحتفظ بموظفيها بأكثر من حاجتها رغم ذلك كله لم تجد من يباشر عمله وهو يتقاضى مرتبه الشهري دون أن يؤدي عمله .

وأنا عندما ذكرت الفلاته بالاسم لا لشيء بيني وبينهم ولا حسد ولا بغضاء ولكن مراعاة للمصلحة العامة وهم أكثر الناس الذين جندوا أنفسهم في هذا الميدان أكثر بكثير من أبناء السودان الآخرين .

7- تشديد الرقابة على الغابات في جميع أنحاء السودان وحمايتها من الحرائق وقطع الأشجار صغيرة أم كبيرة مثمرة كانت أو غير مثمرة حتى في وسط السودان لمنع الزحف الصحراوي الذي يهدد مناطق السودان المختلفة مع إعطاء مفتشين الغابات سلطة تقديم أي شخص تثبت عليه إن قطع شجرة إن لم تكن بغرض استصلاح ارض لزراعتها يقدم أمام قاضي لمحاكمته . إني إن تطرقت لهذا كله أعلم تمام العلم بأني مسبوق لكل ما ذكرت سواء جاء ذلك بملاحظات من بعض الأفراد أخذتهم الغيرة على ما سيؤول إليه سودان الغد وكتبوا ملاحظاتهم هذه

علـــى صـــفحات الجـــرائد والمجلات أو من الذين تعاقبوا على رئاسة فروعها المختلفة أمثال السيد مكي مدني(50) والسيد محمود أبو سنينه(51) وأمـــثالهم ممـــن لم تسمح الذاكرة على صحتها من إحصاء أسمائهم قد ضـــمنوا تقاريرهم السنوية الكثير والكثير جداً من ملاحظات واقتراحات ولفـــت نظر المسئولين لنقاط الضعف الذي مؤداه إلى الخطر المهدد ولم يألـــوا جهداً وما تركوا زيادة لمستزيد ولكن تقاريرهم هذه ظلت حبيسة الأدراج و الأضابير حتى تراكم عليها غبار النسيان فأصبحت حبراً على ورق ولـــم تجـــد طريقها إلى النور واعتبرها المسئولون عمل روتيني يخص المصلحة ولذلك فقد أهميته ولكني عندما أكتب هذا أكتب للشعب ككـــل لأنـــه هو صاحب المصلحة أولاً وأخيراً ومن أهم واجباته حماية البيئة والحفاظ على تراثنا وثروتنا الحيوانية منها والطبيعية حتى تتسلمها الأجـــيال القادمة سليمة نظيفة وأي تفريط أو تهاون في هذا الشأن يلقي اللـــوم علـــى عاتق الشعب السوداني قبل الحكومة التي وظيفتها قاصرة على الوصاية والتنفيذ وعلى الشعب تبصيرها ومراقبتها .

تبارك الله أحسن الخالقين

جـــاء الأســـتاذ بابكر سيد أحمد بعد أن اختير لمنصب مدير مصنع بابنوسة للألـــبان جاء لبعض الوقت ليقضي فترة من إجازته بين أهله وعشيرته وقد ضمنا مجلس أنس تطرقنا فيه لكثير من المواضيع واسترسلنا في الحديث حتى خطر ببالي أن أدخـــل معه في شئون المصنع وقدرته الإنتاجية فسألته هل المصنع يجد كفايته من الألبان تمكنه من العمل بكامل طاقته قال إن المصنع لا يجد كفايته من الألبان وهـــو يشـــتغل بأقل من ربع طاقته القصوى قلت هل الإنتاج في هذه الحالة يغطي مصروفاته فأجاب بالنفي قلت إن الحقيقة إن سلالة الأبقار التي تعيش حول المصنع مـــن حيث توسطه بين مديريتي جنوب كردفان وشمال بحر الغزال كل هذه الرقعة ذات ســـلالات ضـــعيفة وقد لا تتسع الرقعة لتشمل الحمر والحمر من حيث صغر

الحجم وصغر الضرع ولكن ألا ترى معي إن تحسين هذه السلالة واستبدالها بسلالة أكبـــر حجمـــاً وأوسع ضرعاً بأن تتحصل سلطات المصنع على عجول من خارج الســـودان وتأتي بالبقر من كنانة (كنانة القبيلة وليس المصنع) لأنها سلالة ممتازة ويمكـــن حالهـــا مـــن قوة بدنية ومع تقارب الأجواء تجد فرصتها للتأقلم ومقاومة التقلبات الموسمية ومن هذه السلالة القوية يجد المصنع كفايته لرفع إنتاجيته وتكون بـــذلك قد أسهمت مساهمة فعالة لتكملة الاقتصاد الوطني مع زيادة دخل الفرد قال وجهـــة نظـــر لها اعتبارها وهي غير خافية علينا هناك أكثر من عقبة تحول دون التنفيذ وليس من الصعوبة بمكان أن نأتي بالعجول وأن نختار النوعية المناسبة من البقـــر حتـــى يمكننا الحصول على البقرة الحلوب التي تمد المصنع بكميات كبيرة فالعقبة الأولى التي تعترض طريقنا في هذا المجال عدم وجود المراعي المستديمة التـــي تقـــوم حول المصنع التي لا تحتاج معها البقر إلى قطع مسافات طويلة لتجد كفايتها من الأعشاب ثم تعود إلى حظيرتها لأن السلالة الجديدة ستكون أكبر حجماً وأوســـع ضرعاً فكيف تستطيع المشي بين الأشجار ذات الشوك والحشائش الصلبة العـــود دون إن يتعرض ضرعها إلى الخدش والجرح ولكن مدبر هذا الكون الذي أحسن كل شئ خلقه مثل خص مثل هذا الحيوان بمثل هذه الأجواء بما يلائمها من حيوان ونبات لتساير البيئة وتتحمل الأسفار البعيدة جرياً وراء المرعى وأخيراً إذا اســـتطاعت سلطات المصنع ووجدت الحل لمشكلة المرعي القريب يمكن بعد ذلك التفكير في مسألة تحسين النسل .

قلت هذا صحيح ومما يؤيد نظريتك هذه لو ألقينا نظرة عامة على الصيد في فلـــواته ورغم كبر حجمها وحسن مراعيها تجد ضروعها صغيرة كالجاموس مثلاً وهو من فصيلة البقر طبعاً لكنه لم يؤت كبر الضرع إذا ما قيس بالجاموس الأليف فهو يدر من اللبن ما يزيد عن سبعة أمثال ما يدره البري وتنطبق هذه النظرية على بقية الصيد الأخرى خذ أنواع الغزلان الأخرى فيها ما يعادل جسم الماعز ومنها ما يعـــادل جسم الضأن لكن ضروعها أصغر بكثير عن الماعز والضأن الأليفين رغم

أن لديها أربعة ضروع فإن كان للجاموس البري ما للجاموس الأليف من ضرعها من حيث الكبر لتعرض لمخاطر كثيرة وللموت مما تعوق حركته وتمنعه عن العدو السريع والفرار من أمام العدو المتربص سواء كان صياداً أو حيواناً مفترساً وعلى هذا يمكن القياس وتبارك الله أحسن الخالقين .

أما بقية الحيوانات كالفيل مثلاً فقد جعل الله لأنثاه ثديها في صدرها كما للبشر لئلا يعوقها أثناء سيرها أو في حالة نفورها من خطر مداهم ولما كان للفيل رقبة قصيرة لا يستطيع أن ينال ثدي أمه بفمه مباشرة جعل لها خرطوماً طويلاً يمتص به اللبن وما أن يشعر بوجود كمية منه عكس خرطومه على فمه وأفرغ محتوياته فيه وهي طريقته في شرب الماء فأمن على قولي وختم كلامه بقوله إن الدكتور الرشيد عبد الماجد رحمه الله أول من اختير مديراً لهذا المصنع وكتب تقريراً وافياً ضمنه كل شاردة وواردة وهو الخبير المختص بشئون المراعي وتطويرها وأعطى كل جانب منه حقه في البحث والمعوقات التي تعترضه وأعطى الحلول اللازمة ولكن عدم المال كان العقبة الرئيسية التي وقفت في طريق التنفيذ فلو نفذ هذا التقرير وعلى مراحل حسب أهميته لقطع اليوم شوطاً بعيداً من مراحل تقدمه ولفتح المجال أمام الخبراء والمختصين لعمل التجارب لتحسين السلالة وسيجيء اليوم المرتقب إن شاء الله بعد أن تتحسن مواردنا الطبيعية لو عدمنا عوناً خارجياً قلت حقيقة للدكتور أفكاره وعبقريته في هذا المجال كيف لا وهو صاحب مشروع العطشانه الذي يبتدئ بعد القطينة حتى يصل ربك ويشمل كل الأراضي الواقعة في هذه الرقعة بعد دراسة مستفيضة ووضع الخرط اللازمة لها ومن مكاتب كل ذلك يعمل لاستقرار العرب الرحل وتسقى صناعياً وتزرع علف وجناين . ولو نفذ هذا المشروع الحيوي لوفر على السودان الكثير ولأستغني نهائياً عن استيراد اللبن المجفف وكان ضمن أهداف هذا المشروع تسمين الماشية وهو لم يختر هذه المنطقة اختياراً عشوائياً بل درس أول ما درس عدد الماشية التي حول هذه المنطقة ووجد فيها العدد الكافي الذي باستقراره يستطيع أن يمد العاصمة ما

يكفيها من اللبن الطازج علاوة على المدن الأخرى القريبة منه وكان عدم التمويل هو العقبة الكوؤد .

التشاؤم أو الطيرة

التشاؤم أو الطيرة صفة ملازمة للإنسان منذ أن وجد على ظهر هذه البسيطة لا يستطيع الفكاك ولا التخلص منها رغم ورود أحاديث نبوية شريفة تنهي عن الطيرة بعد ظهور الإسلام مما يدل على وجودها منذ أقدم العصور غير قاصرة على الشعوب العربية فهي موجودة بين كل شعوب العالم على اختلاف شعوبهم ومللهم لا فرق بين أوربي أو أفريقي أو شرقي أو غربي لكن لا تعدو الحقيقة إن قلنا إن العرب بعد اعتناقهم الإسلام قد تخلوا بعض الشيء عن هذه الطيرة بعد أن رسخ الإيمان في قلوبهم . شاءت الأقدار في صباح أحد الأيام وقبل منتصف النهار تصايحت الناس صيحة من هنا وصيحة من هناك وانتشرت الناس في الشوارع وفي الميادين وكأن القيامة قد قامت ترى شخصاً يجري هارباً وآخر يمشي مستفسراً فإذا بالخبر الأكيد أن ستة من أفيال تعبر نهر النيل من الغرب إلى الشرق بالقرب من مباني المديرية الذي يقع في منتصف مدينة ملكال على شاطئ النهر وأخذ الأهالي يتابعونها بالحراب بغرض صيدها وأنى لهم ذلك فشقت طريقها متجهة نحو الشرق واخترقت المدينة(52) دون أن يلحقها أذى حدث غريب لم يحصل في تاريخ ملكال منذ أن تأسست عام 1916م أن تعرضت لمثل هذا الحدث الفريد من نوعه والغريب في طوره حتى عندما كانت حديثة العهد من حيث تأسيسها . هذا الحادث أيقظ في نفوس الناس غريزة التشاؤم من مرقدها وبدأ الكلام والهمس عما يضمره الغيب لهذه المدينة بعد ازدهارها ووصلت إلى ما وصلت إليه من العمران والتقدم منهم من أيقن بخرابها وهم الأكثرية بحكم تجاربهم في الحياة أما الأقليه كانوا يعتبرونه مجرد حدث عابر سرب من الحيوانات ضل طريقه فوجد النهر أمامه فعبره ومن المعروف عن الفيل أنه لا يرى الأشياء البعيدة ولا يستطيع تمييزها إلا على بعد خمسين متراً ولما كان هو بالشاطئ الغربي لم ير معالم المدينة

ولــم تمض سنون قليلة حتى وقعت الواقعة وحلت بها المصيبة وتعرضت للخراب الــذي حــل بها كسائر مدن وقرى الجنوب بسبب تلك الحرب اللعينة التي أوقفت التنمية والمشروعات في الجنوب والشمال على حد سواء .

لكل شئ إذا ما تم نقصان فلا يقرن بطيب العيش إنسان

صحيح ما قاله الشاعر ينطبق على مدينة ملكال وساكنيها وصلت إلى درجة عالــية من العمران واتساع الرقعة وكانت قبلة الأنظار ، هناك سؤال يطل برأسه من بين هذه السطور والسؤال هو ما دور الشلك سكان المنطقة الأصليين وأصحاب المصلحة الحقيقيين وهنا لا بد من وقفة تأمل من ناحية سلوكهم وأخلاقهم فيما قبل الحــوادث : أقــول وما ينبئوك مثل خبير وقد قضيت بينهم زهرة شبابي وتعرفت بالكثير منهم وجمعت حولي منهم أصدقاء وتجولت بين القرى والأرياف فما وجدت مــنهم إلا التسامح في كل تصرفاتهم والطيبة في المعشر فالشلكاوي يألف ويؤلف ولــيس مــن طبعهم الشر لكن الكثير من الناس القوا عليهم تبعات ليست من صنع أيديهم دخلوا ميدانها قسراً فان أردت أن اكتب عنهم شيئاً فسأكتب للتاريخ وهو حق مشاع لكل أبناء الوطن كل يدلي بدلوه دون أن يترك العنان لخياله ويجئ بما يفسد الحقائق بل يجعل الأمانة هدفه ومن هذا المنطلق اثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن اخــتلاط الشــلك بالعــرب التجار منهم أو أصحاب المواشي هذا الاختلاط امتدت جــذوره إلــى مــئات السنين تجمعهم المصايف على شاطئ النيل تجمعهم الليالي الساهرة في المناسبات كقبائل سليم وأولاد حميد كل جاء بمواشيه وبأمواله وآثروا الســكنى مع الشلك فلم يحصل يوماً ما يعكر صفو العلاقات بينهم إلا في الحالات الــنادرة(53) وتسويته في الحال وقبل أن تمتد له جذور كل الأطراف متمسكة بمبدأ الــتعايش السلمي والذي حصل أخيراً بعد التمرد وفر كل فرد بسلاحه فأخذ يجمع حــوله بعضــاً مــن شباب القبيلة عن طريق الإغراء بكسب المال أو عن طريق الإكــراه وعمــت الفوضى كل الأقاليم الجنوبية فكان النهب والسلب بغرض الثراء وامتلاك المال هو الطابع والمؤشر الحقيقي لهذه الحركة بعد أن خبت جذورها في

تــوريت التي اندلعت منها شرارتها الأولى وبما أن للشلك قراهم الآمنة وماشيتهم المطمئــنة وحالــتهم المستقرة مع نسائهم وأطفالهم وهم عزل عن السلاح إلا من أســلحتهم التقليدية وقعوا فريسة تحت تهديد بعض الذين دخلوا ديارهم من القبائل الأخــرى وفي أيديهم أسلحة نارية وخوفاً من أن يلحق نسائهم أو أموالهم أذى ممن لا رحمــة لهـم ولا شــفقة مــن الغــزاة ولم يستجب من أفراد الشلك لهذا النداء والانخــراط فــي ســلك هذه الأعمال إلا أفراد قلائل ومما أسوقه كدليل لذلك أن الأسواق في جميع مدن وقرى الشلك كانت تمارس أعمالها يومياً دون انقطاع فهم يبــيعون ويشــترون لم يؤثر في معنوياتهم ولم يغير من أخلاقياتهم ذلك التهديد إلا بالــنذر اليســير ونتيجة لذلك ترى أن جميع القرى لم تصل إليها يد التخريب فهي عامــرة بأهلها يمارسون حياتهم كالمعتاد من زراعة ورعي إن استطعت أن تقارن بيــنها وقرى ومراكز بحر الغزال وما لحقها من دمار وما أصاب مدنها الرئيسية أمــثال مدينة يرول وتوابعها ومركز بور وتوابعه هذا كله إن دل إنما يدل على أن الشــلك مــن أكثر القبائل الجنوبية ميلاً للسلم وربما يقول قائل انك قد أهملت دور الملك من تلك الأحداث فالحقيقة أن للملك دوراً هاماً في هذا الاستقرار لما بيديه من نصح وتوجيه بين عمده ومشايخه الذين ينقلونها بدورهم لعامة الشلك وبحكم ولائهم المطلــق للملك وحبهم له يجبرهم على اتباع أمره والالتجاء إليه كلما حزب الأمر.

الحــواشــي

(1) صــيد المــك : هو الغزال الغطاس ويطلق عليه MIS GRAY ولعلها اول من لاحظ ان للحــظ الغــزال القدرة على العوم والغطس لمسافات طويلة في النيل ومسز قري هي زوجة احد المفتشين البريطانيين ، وكان الغزال الغطاس من ضمن معروضات حديقة الحيوان بالخرطوم قبل القائها .

(2) واو هذه قرية من قرى الشلك غير مدينة واو عاصمة مديرية بحر الغزال .

(3) لاوو وهــي الثوب من القماش يلبس ويعقد بطرفيه فوق أعلى الكتفين ، بالنسبة للرجال يعقد فــوق الكتف الايمن والنساء فوق الكتف الايسر وعادة يكون لبس الرجال من الدمورية او قماش أبيض أما النساء فيكون عادة من قماش ملون .

(4) بالطبع لا بد ان يكون الشخص المرشح من البيت الملكي الذي عليه الدور وفقاً لتقاليد وعادات وقوانين شيوخ قبيلة الشلك وهو مجلس (الكونجرات) وهو بمثابة مجلس شيوخ القبيلة .

(5) الواك : حظيرة الماشية ويطلق عادة على حظيرة الابقار سيأتي الكلام عنها لاحقاً .

(6) التوج : هي الجزر العشبية التي تتكون وسط المستنقعات .

(7) الصرف وهو فن تفادي الضرب إن كان بعصا أو حربة أو غيرها وهي من الفنون التي تحرص معظم القبائل لتعليمها منذ الصغر

(8) الطرور : نبات برمائي ينمو في المستنقعات وهو نبات اسفنجي ويستخدم بكثرة في تصنيع الاطواف ليعبر بها الانهار وذلك لخفة وزنه .

(9) الدرقة : درع يصنع عادة من جلد الفيل أو فرس النهر للانواع الكبيرة وهناك أنواع اخرى صغيرة تصنع من الخشب او الطرور

(10) الفلكاب : فروع رفيعة من الاشجار .

(11) الراكوبة صالة من البناء يستخدم فيه الخشب والقش فقط وهي تقي من الشمس فقط ولا تصمد امام المطر ولذا جاء المثل السوداني (ما تشكر لي الراكوبة في الخريف).

(12) الزريعة : تصنع من الذرة حيث توضع كميات من الذرة الرطبة وتترك ايام حتى تنبت لها جذور صغيرة ومن ثم يتم تجفيفها وحفظها لمختلف الاستخدامات .

(13) ود نواي رئيس المحكمة الأهلية بكوستي واشتهر بحدة الذكاء وحضور البديهة وتروى عنه الكثير من القصص والحكايات تدل على حسن التصرف .

(14) مما يروى عن هذه الواقعة ايضا فعندما تحركت البقرة مع صاحبها قال له ود نواي بوشك ..بوشك أي سير في طريقك ولا ترجع.

(15) البخسة وتطلق على نوع من القرع البلدي وتجوف من الداخل ولها استخدامات شتى خاصة كإناء للشرب وحفظ الماكولات وهي معروفة في كل انحاء السودان والمثل السوداني يقول (قرع ود العباس عشرة بقرش وعشرة زيادة) .

(16) الزمبارة : آلة نفخ موسيقية بدائية وتصنع من البوص أو الخشب أو الحديد ويطلق عليها (الناي) وأجود أنواعها ما يصنع من خشب الابنوس الاسود ثم تطورت فيما بعد لتصبح إحدى الآلات الحديثة في الموسيقى الغربية والشرقية على حد سواء واخذت بعض المسميات الحديثة مثل (الفلوت) .

(17) في آثار البركل والرسومات المروية ظهرت هذه الآله مما يعني انها آلة سودانية منذ القدم كما انها من الآلات الموسيقية الفرعونية فهي تشاهد في الرسومات والمشاهد الأثرية

بمصر الفرعونية .

(18) الغرنوغ : طائر بري له ريشات بارزة فوق رأسه وله صوت حاد مميز .

(19) المنضرة : المرآة أو المراية بالعامية السودانية .

(20) انظر ايها القارئ الكريم مثل هذا التصرف الاحمق الا انساني يصدر من شخص مسئول يدعـي المدنـية . اين حقوق الانسان التي يتحدث عنها الغرب ، وحتى زميلة المرافق لم يمـنعه من هذه الفعلة المشينه ، ولا نستغرب اليوم ان اسرائيل تقوم بنفس الاعمال لأبناء الشعب الفلسطيني فالاستعمار هو الاستعمار في كل زمان ومكان .

(21) ميعة تعني بحيرة .

(22) يوسف شمه : من مواليد الكوه عمل بالتجارة بمنطقة جبال النوبة الشرقية وبمركز تونجة . اصاب ثراء وثروة من اعماله التجارية وفاقت شهرته جميع تجار الجنوب . وفوق ذلك عرف بالمروءة والشهامة والشجاعة والاقدام . بعد وفاته ولى ابنه عباس الذي اكمل تعليمة الاوسـط بكلـية غردون التذكارية وتدهورت اعمالهم التجارية بعد الحرب العالمية الثانية خلال الكساد الاقتصادي الذي اصاب عالم التجارة .

(23) فنجاك : من مراكز النوير ولم نجد موقعها في معجم الاسماء الجغرافية السودانية .

(24) المفتش وندر من اشهر الاداريين البريطانيين الذين عملوا بالسودان وخاصة بجنوب البلاد وكانت تربطه صداقات حميمة مع الاهالي. والجدير بالذكر أن السياسي الجنوبي المعروف (بـوت ديو)وقد سمي ابنه (وندر) على هذا المفتش . والابن ويندر هذا كان من امهر لاعبي كرة السلة بالسودان والآن خارج البلاد حسب علمي .

(25) انظـر ايهـا القـارئ الكريم الى هذه المفارقة حينما يلطم البريطاني باليد يعاقب الجاني بالسـجن سـبعة اعـوام وبغـرامة مقدارها مائة راس من الابقار ولكن عندما قتل الفتى النويراوي لم يسال مجرد سؤال وكانما رمى حيوانا من الحيوانات المتوحشة .

(26) المسـتر فارجسون عرف بين قبائل النوير باسم " وان كيل " أي صاحب العين الواحدة ، فقد كان اعوراً .

(27) دينكا عالياب : فرع من فروع قبيلة الدينكا والواضح ان عالياب من الالفاظ العربية التي دخلت لهجة الدينكا .

(28) شـامبي SHAMBE الموقـع E ٤٦ – ٣٠ احـدى مراكز مديرية بحر الغزال الكبرى ، وسيأتي الحديث عنها لاحقاً.

N ٠٧ – ٠٧

(29) الواضـح من سرد تلك الواقعة وغيرها ان قبيلة النوير كانت اكثر القبائل السودانية قاطبة

تصـــدياً للمستعمرين والوقوف في وجههم بصلابة . ويقال ومن المؤكد ان الانجليز أهملوا تعلـــيمهم ولم يشجعوا الكنائس بفتح مدارس بارض النوير وبالتالي بحرمانهم بتلقي أي نوع مـــن التعليم وذلك عقاباً على مواقفهم الوطنية الشجاعة .و النوير يتمتعون بذلك القدر من الشـــجاعة والتصـــدي لكـــل من يحاول التقليل من شأنهم بما في ذلك مواقفهم من الدينكا وحركة التمرد ورفضهم ومقاومتهم لسيطرة الدينكا على الجنوب .

(30) عثمان مبروك : من مواليد جزيرة ام جر الواقعة على النيل الابيض بالقرب من الدويم ، كان من كبار التجار الذين عملوا بالجنوب واصاب ثروة من هذه التجارة وكان معه شقيقه ابو زيد مبروك .

(31) واو : قرية من قرى مديرية اعالي النيل ولا علاقة لها بعاصمة مديرية بحر الغزال التي سيرد ذكرها فيما بعد .

(32) أكوبـــو : مـــن قرى الحدود بين مديرية اعالي النيل والحدود الاثيوبية غير موضحة في معجم الاسماء الجغرافية .

(33) روميل : قائد الفيلق الالماني ومنتقمري قائد الفيلق الانجليزي خلال الحرب العالمية الثانية وكان ميدان المعركة بشمال افريقيا (ليبيا).

(34) قرية من قرى النوير على بعد مائة ميل من ملكال وعلى الطريق الرئيسي ملكال جنوباً .

(35) انظر ايها القارئ الكريم ما تعكسه هذه الواقعة من اهتمام ودقة وانضباط في الادارة حيث تمت كل هذه الاتصالات رغم البون الشاسع بين اعالي النيل والنيل الابيض وذلك الاهتمام والنظام الذي كانت تتمتع به الشئون الادارية في السودان . مقارنة بما صارت عليه الخدمة المدنية من تدني في الخدمات ومن المفارقات العجيبة ان الوالد يملك الان بندقيتين احداهما البندقـــية الخاصـــة بـــوالدة (نفس السلاح القديم محتفظاً بجدته) وبندقية موريس بعد ان تخلص من بندقيته المقنم (الرصاص) لعدم الحاجة اليها بعد عودته للشمال وقد تنازل لي ولشقيقي الحسين لنمتلك البندقيتين وظل شقيقي الحسين على مدى ثلاثه اعوام ولم يتحصل على التصديق اللازم رغم اهليتها للحصول على ذلك .

(36) الميعة : بركة الماء .

(37) الســـيد احمـــد حسن الضو من الرعيل الاول الذين عملوا بالسلك الاداري وقد تدرج في الوظائـــف حتى كان في اواخر ايامه مدير للقصر الجمهوري ابان فترة الحكم الوطني (حكومة الازهري) .

(38) الســـيد محمـــد عثمان ياسين ايضا من الرعيل الاول الذين عملوا بالسلك الاداري الى ان

وصـــل منصب مدير مديرية حيث سودن وظيفة مدير مديرية اعالي النيل وكان من اوئل الوطنيــين الــذين عملوا بالجنوب ، وكان من اميزهم في ادارة شئون المديرية . بعد نيل الاســتقلال .تولى وظيفةوكيل دائم لوزارة الخارجية السودانية فكان المؤسس الاول للسلك الدبلوماسي في السودان ثم تقلد العديد من المناصب الدبلوماسية والعمل في المنمات الدولية وهو اديب وفنان وله كتاب "بالية الشاعر" .

(39)كانـــت بداية تمرد الفرقة الجنوبية بتوريت في اغسطس من عام 1955 م وتبعه تمرد من عـــدد من الفرق والجنود بمدن وقرى الاستوائية مثل كبويتا وتركاكا ورومبيك وغيرها وقد راح ضحية هذه الحوادث عدد من ضباط الجيش من الشماليين وعدد من التجار والموظفين الشماليين . تلـــك الفتـــنة التي اطلت برأسها في ذلك الوقت وما زالت اثارها ونيرانها تخبو احيانا وتشتعل احـــيانا . وللمزيد عن تلك الحوادث .يمكن للقارئ ان يعود الى تنوير عن حوادث 1955م الذي اعدته لجنه خاصه ونشر في ذلك الوقت واعاد طباعته ونشرة مركز الدراسات السودانية بالقاهرة في عام 2000م .

(40) السيد مصطفى عبد القادر من التجار المشهورين الذين عملوا بالجنوب وبعد ان تقاعد عن العمل استقر بمدينة كوستي حتى توفي بها في السبعينات من القرن المنصرم .

(41) مدينة الجبلين : هي اول مراكز مديرية اعالي النيل من ناحية الشمال وسكانها خليط من العرب وقبيلة الشلك .

(42) السيد عبد الماجد عبد الرحمن : من رجالات الكوه ومن اوائل التجار الذين عملوا بالجنوب وأســـس عمـــلاً تجاريا ناجحاً بتلك المنطقة واستقر بها مع اسرته وكان شخصيه محبوبة ويتمـــتع باحترام الاهالي وتعمل له السلطات الف حساب وهو والد المرحوم / الرشيد عبد الماجد اول مدير لمصلحة المراعي ووالد السفير الدكتور عمر عبد الماجد واخوانه .

(43) السيد عثمان ابشر من تجار ملكال المعروفين وتعود اصولهم الى قبيلة الجعليين ومسكنهم علـــى مـــا اعـــتقد بمدينة ود الزاكي على النيل الابيض وهو احد اقطاب الحزب الوطني الاتحـــادي بمدينة ملكال . توفي الى رحمة مولاه بامدرمان بعد ان استقر مع اسرته بمدينة الثورة وهو والد الطبيب عثمان ابشر واخوانه .

(44) الســـيد العركي من مواطني الكلاكله وقد عمل بالمديريات الجنوبية وكانت تربطه صداقة قـــويه مـــع الوالد ، عندما استقر بمدينة الكلاكله كان الوالد كثيرا ما يقوم بزيارته بمنزله بالكلاكلة القبة فيتحدثوا في تلك الايام الخوالي . توفي الى رحمة مولاه في نهاية الثمانينات

(45) السيد عثمان فضل الله من رجالات الكوه الذين عملوا بالجنوب وبملكال على وجه خاص

وهـــو صــــديق شخصي للوالد واشتهر عثمان فضل الله بحبه للدعابة فلا غرو ان احتفظ بصداقة الكبار والصغار وبعد ان اصابته الشيخوخة استقر بامدرمان مع صحبة ابنه حسن الذي يعمل بشركة الخطوط الجوية السودانية وهو يتمتع بصفات والده النبيلة .

(46) ومعــروف علمياً باسم مسز قري وهي زوجة أحد الإداريين البريطانيين وكانت أول من كتب عن ظاهرة الغطس هذه . وفي الستينات كانت توجد مجموعة من هذا الصيد بحديقة الحيوان بالخرطوم . ولعل اللافتة مازالت إلي يومنا هذا في مكانها بالحظائر الخاوية.

(47) مرض ابو قنيت وهو مرض يصيب الرئة بالالتهاب وهو مرض قاتل .

(48) الحـــاج حســـن محمد علي من اهالي الدويم وهي من الاسر التي عملت بملكال بالتجارة واصـــابت فـــيها الكثير وكان مع اخوانه عبد الله الحاج واحمد الحاج وعبد الحفيظ وبدوي وفضـــل الله الحـــاج استوطنوا ملكال وكانت مقراً لهم . وهو من رجالات الحزب الوطني الاتحادي بملكال ، استقر في اخر ايامه بمدينة الدويم الى ان توفاه الله .

(49) هو مرافقي في الكثير من هذه الرحلات.

(50) هو أول مدير للثروة الحيوانية ومقره الخرطوم .

(51) كان مدير الثروة الحيوانية ومقره جوبا .

(52) شـــاءت الظـــروف ان اكون شاهد عيان لهذه الحادثة فوقتها كنت بملكال في نهاية عام 1954م عـــندما حـــدثت هذه الواقعة وقد اعترض طريقها البوليس وحرس الصيد حيث تمكنوا من صيد اكبرها بالقرب من منزل مدير المديرية وذلك قبيل سودنة الوظيفة بشهور قلـــيلة والثانـــي قتل بالقرب من الميناء النهري اما الثالث فقد شق طريقه وقتل بالقرب من الملكية وبعد صيدها تم التجمهر وكادت ان تحصل معركة بين القبائل الثلاثة الشلك والنوير والديـــنكا ولكن الشلك كانوا يطالبون بنصيب الاسد على اساس انهم الذين قاموا بالمطاردة مـــنذ البداية واعتقد انه قد تم تقسيمها لكل قبيلة فيل . والشاهد فبعد عام واحد حدث التمرد وبـــدأ العـــد التنازلـــي لكل مدن وقرى الجنوب بما فيها ملكال وكان خرابها اكبر بعد ان هجرها لتجار الشماليين وموظفي الري المصري .

(53) من تلك الحالات النادرة ما حدث في عهد الانقاذ مؤخرا وهي الحادثة التي حدثت بالجبلين والتـــي راح ضـــحيتها عدد كبير من أفراد قبيلة الشلك وذلك على اثر مشاجرة حدثت بين افـــراد من قبيلة سليم واولاد حميد ومع ذلك تمت التسوية على اثر تدخل الملك شخصياً مع الزبير محمد صالح نائب رئيس الجمهورية آنذاك . وفي هذا التصرف تأكيد لتسامح القبيلة واحترام أفرادها لزعيمهم (الملك) .

الفصل الثالث

الليري (1) المجتمع والسكان

كان لأبي فرعاً تجارياً بمركز الليري يتبعه فرعاً آخر بمدينة تالودي عاصمة مديرية جبال النوبة وقضت الظروف للقائم بإدارته أن يستغني عن العمل نسبّة لكبر سـنه وينتقل بتجارته إلى ملكال نسبة لصعوبة المواصلات التي كانت قاصرة على ظهـور الـدواب وكـان علي أن أستلم منه وبعد أن تمت عملية التسليم والتسلم(2) وجدت الليري عبارة عن جبال متراصة لا فاصل بينها تمتد من الشمال إلى الجنوب على مسافة لا تقل عن عشرين ميلاً في عرض خمسة أميال تقريباً جبال صخورها مـن الجـرانيت الأسود وبعضها أبيض لا تعمل فيها مطرقة ولا يؤثر فيها إزميل شديدة الصلابة سفوحها رملية تسكن حوله قبائل من النوبة يشاركونهم بعض قبائل مـن العرب نزحوا من ديارهم وهجروا أوطانهم بسبب أو لغير سبب طقسها جميل خصبة التربة أمطارها فوق المعدل كل سكانها يمتهنون الزراعة مع العناية بتربية الماشـية وتوليد الخيول من بين النوبة من اعتنق الدين الإسلامي أما البقية فهم لا دينيـين وبسبب مواطنتهم مع العرب أخذوا منهم لبس الملابس يحبون منها الألوان الـزاهية وتحت تأثير هذا الجو وبسبب طبيعة أرضهم الرملية وبالقرب من سفوح الجـبال ينـبت شـجر الدوم ويغطي مساحات واسعة مما شجع النساء على صنع المفارش والبروش من سعفها فكان العائد منها يغطي احتياجات البيت من بن وسكر وشـاي وعطـور ربمـا ساعد كثيراً على شراء الملابس وهو مصدر رزق لهن باعتبار أن مثل هذه الأشياء الصغيرة من مستلزمات البيت يخص المرأة لا الرجل أما كلمة الليري هي اسم قبيلة النوبة التي استوطنت هذا الجبل منذ القدم ولا يستطيع المرء أن يحدد من أين جاءوا ومتى جاءوا وهل جاءوا جماعات أم أسرة واحدة هذا مـا لم نجده عند كبارهم وهم أكثر السكان عدداً ويشاركهم سكنى هذا الجبل بطون أخـرى مـن النوبة مثل طلسة ولفوفا وكل من هذه القبائل تتكلم لهجة تختلف عن الأخـرى وإن تشابهت عندهم العادات والطبائع وفي الجنوب الغربي من هذا الجبل يقـع جبل آخر تستوطنه قبيلة أخرى من النوبة يطلقوا على أنفسهم ميرا تشاركهم

بطـــن مـــن بطون الفلاته . كما يوجد جبل آخر غرب ميرا تحتله قبيلة أخرى من النوبة يعرفون باسم كرندي أما من الناحية الجنوبية الشرقية فقبيلة أخرى من النوبة تسمى تكيم هذه هي الخارطة العمومية إلى مركز الليري وتوابعه وربما نتطرق إلى بعض التفصيلات في مكان آخر .

لـــتداخل القـــبائل العربية الأثر الكبير في تغيير طبائع وعادات بعض القبائل وهو الدين السمح الذي يؤتي الفضائل ويتجنب الرذائل ويحث على مكارم الأخلاق أمـــا المتـــردد الذي لا زال يقدم قدماً ويؤخر الأخرى فهو أيضاً سار على نهج من ســـبقوه وقلـــدوهم في لبس الثياب الفضفاضة ولف العمامة بعد أن كانت ملابسهم قصـــيرة وحمل الحربة ذات القناة الطويلة وركوب الخيل وقد تشبعوا جميعهم بهذه الـــروح وحذوا حذوهم في إقامة الولائم في المناسبات وبمناسبة الختان تفشت بين النساء ظاهرة الختان الفرعوني حتى أصبح يصعب على المرء التمييز بين العربي والنوباوي من أول وهلة ولم تمض إلا سنين قليلة حتى اعتنقوا الدين الإسلامي كلهم وتغيـــرت الأســـماء ، وتبعاً لذلك ولكي أعطيك فكرة سريعة عن هذه السلسلة من الجـــبال وما حولها من قرى الشمال إلى الجنوب وأول ما يطالعك من هذه السلسلة تجد في طرفها الشمالي قرية أم كوارو وهي خليط من نوبة وعرب هجروا وطنهم الأصلي في جهات كردفان وعلى بعد أميال قليلة قرية تيرا وهي تضم بعض النوبة وبعضاً من بيوتات العرب تجاورهم قرية صغيرة تسكنها قبيلة تسمى التكارير ولا ادري مـــن أين جاءوا والى أي قبيلة ينتمون ومن مدلول هذا الاسم يوحي بأنهم من قـــبائل الفلاته بعدها تلقى قرية صغيرة على سفح جبل النوبة (لفوفا)(3) وهي القبيلة النوبية الثانية التي تشارك قبيلة الليري في سكنى هذا الجبل بعدها تجد قرية كبيرة يطلق عليها اسم الغبابيش يسكنها عرب من جهات كردفان أيضاً هذه القرية اتسعت رقعتها حتى وصلت إلى أطراف المركز ومنازل التجار والسوق وعند وصولك إلى المركـــز ترى أمامك صخرة عالية على شكل قمع السكر ملساء وعلى أعلى الجبل أطلـــق علـــيها (طنقـــروا) والاسم مشتق من كلمة (طنقره) رأس كل شيء في لغة

العــرب وســتجد لها شرحاً وافياً فيما بعد . دار جواد أسم لبطن من بطون العرب أخــذوا مكانتهم بين قبائل النوبة بالقرب من السوق يفصلها عن السوق مجرى سيل معروف باسم (الداقويه) ينحدر هذا السيل من أعالي الجبال له دوي وحركة عند نزوله في زمن الخريف وقد يقطع الطريق عندما يزيد منسوب المياه بسبب غزارة الأمطار بعدها تجد نفسك في قرية صغيرة تسمى ألدمبلو ومنها ينبع نبع يخرج من الجــبل وتفيض مياهه حتى تكون مجرى ويغطي مساحة واسعة من الأرض ماؤه عــذب وبارد وكأنه في الثلج . أما في فصل الصيف تقل درجة جريانه فيكتفي بأن يكــون مــاؤه في متناول يد الوارد ثم يأخذ طريقه داخل الجبل وفي تيار شديد فهو يخرج من الجبل حتى يصل قرب حافة الجبل ثم يدخل مرة أخرى وعلى بعد خمسة أميال تقريباً تدخل قرية دلاس وهي تعتبر عاصمة قبيلة الليري وهي من أقدم قراها وأول مــن ســكن الأرض بعد ما كانوا يسكنون رؤوس الجبال ولا تجد بينهم من العــرب إلا القليل النادر طابت لهم السكنى كأفراد وتمتاز هذه البلدة بعلو شاهق في جبالها أكثر من أي جهة أخرى وبعد دلاس هذه تتجه السلسلة نحو الشرق فتطالعك قرية تومرية يسكنها نفس الخليط من النوبة والنازحين من القبائل العربية النازحة مــن جهــات كــردفان ويمــر بك الطريق وعلى يمينك تجد قرية دار علي وهي محــتفظة بكيانها الكردفاني لم يشاركهم السكنى من النوبة بل يجاوروهم على سفح الجــبل يفصــل بينهما شارع وكانت مقراً للناظر توينجه بعد إنشاء الحكم المحلي وعلى جنوب هذه القرية وعلى مشارفها يقوم جبل يسمى توتري تقول الروايات عنه أنــه مقر الجن والشياطين ولهم منازلهم ودورهم وماشيتهم على رأسه سهل مبسط رملي وتحكي عنه الروايات كأنك تعيش مع شهرزاد أو تقرأ ما تقول في ألف ليله ولــيله والكثيــر من الأهالي يقولون أنهم تقابلوا معهم وجهاً لوجه في رابعة النهار وفي الليل أيضاً تسمع كل هذه الروايات وكل يوم يطالعنا جديد منها وكنت أعتبرها ضرب من ضروب الخيال لا أنكرها بوجود الجن ولكن إنكاراً لظهوره أمام البشر والــتحدث معهم بلغتهم العربية وكنت أعتبرها ضرب من ضروب الدعابة يقوم بها

الفــرد ليتوهم السذج من الناس بأنه شجاع ولا يخيفه الجن ولا الشيطان ولكن وقع حــادث يرويه من لا أشك في صدقه الأخ بدوي محمد علي جاءني ليقول ما رأيك فــي الجن أهو مخلوق يظهر أمام الناس وله ماشيته وحيواناته قلت كل الذي أعرفه أنــه يــرانا من حيث لا نراه كما حكى القرآن الكريم أما روايات امتلاكه للماشية فكثيــرة ولكــن لم نجد من يؤكد لنا ذلك قال كنت في رحلة تجارية وأنا على ظهر فرســي وعــند وصــولي إلى مشارف دار جواد رأيت تجمعات كبيرة من نساء ورجــال فــأول ما تبادر لذهني أنه عويل نساء ينبئ بموت عظيم وما أن وصلت سألت رجلاً أعرفه عن سبب هذا التجمع وهذه الضوضاء فأجاب بأن فلان الفلاني أثناء رجوعه من الزراعة وجد بنت مع قطيع لها من الضأن يرعى على سفح جبل توتــري ولمــا رأى هيئــتها وهيئة الضان يختلف اختلافاً كلياً على أنواع الماشية الموجــودة فــي هذه المنطقة ولا شبيه لها إلا في شمال ووسط السودان ذات شعر طــويل وأذناب طويلة كبيرة الجسم أما البنت فصفراء اللون لها شعر سبيبي يتدلى إلــى مــا تحــت ثديها فعرج نحوها فلما أحست الفتاه بأنها أمام رجل غريب بدأت تســوق القطيع نحو الجبل وتطارده ليطلع الجبل ولما رأى ذلك إستطاع أن يستولي علــى نعجتين من القطيع الذي أخذ طريقه فوق الجبل جاء بالنعجتين وهاهم الناس يقــف كل منهم موقف المتعجب وقلت أين فلان هذا قال في بيته فذهبت إليه فأعاد نفــس الرواية قلت أين الغنم قال في هذه القطيه ترجلت عن فرسي ودخلت فوجدت النعجتين كما وصفوها فعرضت عليه بأن أشتريها منه وقلت هل لك أن تبيعها فبدت علــى وجهه أثار الغضب وابتدرني قائــلاً (انتو الجلابة كل سمح دايرنو أما نحن فــلا) قــال أنــا لا أبيعها ولو وزنوها ذهباً فتركته وانصرفت وقلت له هذا شيء غريب إن كان للجن السيطرة في أن يظهر أو لا يظهر فما شأن الغنم في ذلك وهل لها نفس الميزة قلت ولله في خلقه شئون ، وفي الغد جاءني ليقول جئتك بأغرب مما حــدث فقلت وما هو قال ذهبت صباح اليوم وفي نفس الطريق راودتني نفسي أن أحاول إغراء صاحبي وأغريه ليبيعني النعجتين فوجدته يتحسر ويضرب كفاً بكف

وهو يقول يا ليتني بعتها فقلت ماذا حصل جاءني فتى البارحة يحمل في يده حربه وأيقظني من نومي والباب مغلق طالباً مني أن أطلق سراح النعجتين وإلا قتلتك بهذه الحربة ففزعت وخشيت أن ينفذ ما قاله فقلت دونك وإياها بين الغنم في هذه القطيه قـال قم بنفسك وأخرجها من بين الغنم وقمت مسرعاً وأخذها وانصرف أليس ذلك بعجيب .

نـرجع لنـتابع سيرنا بعد أن نفارق قرية دار علي تظهر لك قرية الأكولات وهي واسعة يسكنها عدداً كبيراً من الناس مما يحق لك أن تسميها العاصمة القومية للمـنطقة أكبرَ مدن الليري عامة يتفرع منها طريقاً فوق رؤوس التلال متجهاً نحو الشمال ليصل إلى قرية الجبل التي اغلب سكانها من قبيلة الليري بعدها خور كوكو دورو تسـكنه قبيلة الليري أسس بها سوق بعد الاستقلال وعلى بعد أميال قليلة تجد قرية أم شطه وسكانها من عرب الكواهلة يمتازون بصفار لونهم وشعورهم الطويلة وجمال نسائهم وعلى الطرف الشمالي من هذا الجبل تسكن قبيلة نوبية تسمى طلسه وهـي نوبـية صرف . وبذلك نكون قد أخذنا دورة كاملة نحو الجبل بقى علينا أن نسـلك الطريق الرئيسي بعد أن تركناه عند قرية اللكولات حيث يتجه جنوب غرب فـنجد قـرية لونو ومنها على نفس الطريق على بعد خمسة عشر ميلاً تقريباً نحو جـبال أخـرى يسكنها قبيلة من النوبة اسمها تكيم وهذه هي آخر العمران لمركز الليـري مـن الناحية الجنوبية الشرقية وهناك جبال أخرى يسكنها قبائل من النوبة (لميـرا) وغـربها جبال تسمى كرندي ويسكنها قبائل ثلاثة الدينكا والنوبة والعرب والى هنا أكون قد أعطيتك فكرة عامة عن مركز الليري إلا من قرى صغيرة قائمة بين الغابات والوديان .

أخذت مكاني في المجتمع بين التجار وبدأت أشعر بأن التجار على طائفتين لا تجمعهـم مجالس أنس ولا زيارات تشعر الزائر بأن هناك رواسب في النفوس ولم تصـل درجة الجفوة فسألت بعض الذين من حولي عن سبب هذا فكان الجواب لا شيء وكان من رأيهم أن احذوا حذوهم وأسير على نهجهم لكن ليس من طبعي هذا

الانطواء والتحزب فكنت أزور كل فرد من الطائفة الأخرى في منزله أو في متجره ، واتخذت منهم صديقاً هو الصديق الحميم بدوي محمد علي وفكرت في إزالة هذه الرواسب عن كل نفس حتى تصبح كتله واحدة متماسكة متحابة واستقر الرأي أخيراً علـــى لعب الورق (الكتشينه) والدومنا نقضي بها جزء من الليل وجعلت لها فرق تتـبارى علـــى هيئة أربعات كل واحد من هذه الطائفة نجعل له زميل من الطائفة الأخـــرى وعلـــى المهزومين عمل شاي باللبن يكفي المتفرجين ويتنحوا عن الحلبة ليخلفهم اثنان آخران أما بقية القوم فلهم أن يلعبوا الدومنا أو الورق دون رهان قطعاً للـــوقت حتى يصل دورهم كانت فكرة ناجحة حققت كل ما كنا نرجوه وزال كل ما علـــق بالنفوس . لم تمض شهور قليلة حتى ظهرت أسطوانات جديدة لمحمد أحمد ســـرور وعبد الله الماحي وإبراهيم عبد الجليل وغيرهم دفعة واحدة فقلت في نفسي هـــذه فرصة أخرى لو وجدت من يتجاوب معي فقلت لبدوي عندي فكرة لو وجدت عـــندك قبول للعبت دوراً هاماً في حياتنا الليلية من ناحية التسلية والترفيه قال هات قلت طبعاً سمعت عن مجموعة الفنانين الذين سجلوا أغنياتهم على أسطوانات وكل إنســـان يضنب في وصفها قال صحيح وأنا سأطلب منها العدد الكافي مع فونغراف (حاكـــى) قلت ألا ترى أن يكون ذلك عن طريق المساهمة لئلا يكون محتكراً وان تعددت فقد تتجمع كل طائفة حول فونوغراف ويصعب لم الشمل وقال كيف فقاطعته قائلاً نترك كل التفاصيل للمستقبل بعد أن نتحصل عليه فوافق وجاءت الاسطوانات وسدت فراغاً كبيراً تقام الحفلات داخل البيوت في بعض الأحيان وفي ساحة السوق في البعض الآخر حيث تتجمع أعداد كبيرة من الأهالي من المناطق المجاورة نساء ورجال ليتمتعوا بالسماع إليها .

وكانـــت هذه السلسلة الجبلية تستهويني وحب الاستطلاع يجذبني فكنت أداوم علـــى صعودها كلما سنحت الفرصة خصوصاً في عطلات الأعياد فتسلقت أعالي جـــبالها ودخلت كهوفها ومغاراتها وسلكت مسالكها الضيقة ولكني لم أجد ما يلفت النظر أو يوحي بوجود حضارة قبل النوبة مما يدل على أن هذا الطرف الذي يمتد

حتى نهر النيل في أقصى الجنوب لم يشهد عمراناً بل كان خالياً إلا من قبائل الشلك على ضفاف نهر النيل .

بوصــولي الليري وجدت على رأس الإدارة الأهلية شريف عثمان كان يعمل رجل بوليس في مدينه تالودي وتدرج في مراحلها حتى وصل إلى رتبة صول وهو مــن أصل عربي وعندما بلغ سن التقاعد أختاره مفتش المركز ليكون ناظراً لعموم منطقة الليري خلفاً للناظر توينجة الذي توفاه الله وترك إبناً صغيراً وهو لا زال في الكــتاب وكي يكون كوصي على القاصر حتى يبلغ سن الرشد . وكان شريف هذا رجــلاً عــاقلاً وقد صهرته الأيام وحنكته التجارب بحكم عمله في البوليس كانت مدرسة كافية لتعطيه القدرة على إدارة أي شئون وكان محبوباً من جميع الطبقات وكــان يقــوم بواجــبات رئاسة المحكمة خير قيام وهو شريف بحق شريف اليد شــريف اللسان شريف الضمير هذا الاسم ينطبق عليه في كل أخلاقه وصفاته وقد بلغــت الليــري في عهده من الرخاء والأمن مما زاد في الزرع والضرع وكانت السـماء كــل عــام ترسل عليهم مطراً مدراراً مما جعل الليري قبلة لقبائل العرب الــرحل ووجــدوا عنده كل عون وكان يؤمها العرب لما يلاقونه من حسن معاملة فجعــل لقبيلة العجايرة مكاناً بين سهول دار على مرعى خصباً ومن آبارها مورداً كمــا جعــل للحلفة في سهول لونو وآبارها مثل لهؤلاء من حقوق وكانوا يقيمون الليالــي الساهرة على ضربات النقارة وتتجمع القرى القريبة منهم ليشاركونهم وكنا غالــباً ما نجيء على صهوات الخيل نسهر معهم خصوصاً الليالي المقمرة يقضون فصــل الصيف في اللهو واللعب حتى نزول المطر وكنا نشتري منهم كرام الخيل بغــرض الــزينة أو الــتوالد وكان من العادات السائدة الاحتفال بعيد الحصاد كما يســمونه المصــريون مــع الاختلاف في الاسم والطريقة وهم يحتفلون في شكل مــباريات في الصراع ويقسمون منطقة الليري إلى مناطق لكل منطقة فرقها كفرق كرة القدم ويؤدوا تمارينهم بين أوساطهم الخاصة ولما يجيء يوم المباراة بين فريق من المنطقة الأخرى يقوم الحكام ويسمونهم السبارة ومن أهم أعمالهم هو تقديم الند

للــند عند المنازلة في الميدان وبعد الاتفاق على مكان المباراة وزمانها وفي اليوم المحــدد تمتلــئ جوانب الساحة المخصصة يؤمها كل سكان الليري رجالاً ونساء شباباً وشيب وعلى صهوة خيلهم والبعض راجلين يرتدون أحسن الثياب يحمل كل مــنهم سلاحه الناري وان لم يجد فحربته الكبيرة (الشلكاية) أما النساء ففي أبهى حللهــن وفــي كامــل زينتهن ونحن طبقة التجار من مهمتنا تشجيع هذه الحركات والاحــتفالات التــي تســتعد لها كل الطبقات مما يزيد من نشاط الحركة التجارية وتجعل منها موسماً يدر عائداً لا بأس به ولذلك لا نتخلف عن حضور أي حفل يقام وفي أي قرية .

الليري (2) : الأشجار والحيوانات والطيور

الليري طقسها استوائي شديد الحرارة في الصيف ، وجوها رطب في فصل الخــريف ، وأمطارها في حكم المتوسطة وتنمو على أرضها الأشجار الكبيرة وبها غابــات لكنها ليست بالكثيفة إذا ما قورنت بغابات الاستوائية ، لكنها تكفي لحماية الحــيوانات ، كالأسود والنمور والذئاب ومن أهم أشجارها والذي يغطي مساحات كبيرة من الأرض :

(1) **شــجر الــدوم** : وهــو معــروف لكل سوداني وله فوائد ثمره الذي يعبأ في جــوالات ويصــدر للشمال لكن بكميات محدودة . وقد سبق لإحدى الشركات بالاهتمام به وتستخرج من البعو الذي بداخلة زراير للأردية والقمصان الكاكي لان لونه يتناسب مع لون الكاكي ثم توقف ذلك بعد الحرب العالمية الثانية أما سعفه فتصنع منه لمفارش والسباتات الملونة والبروش .

(2) **الدلــيب** : وهــو من فصيلة الدوم غير أن له ثمر أكبر في هيئة الشمامه وله نكهة كالمنقا لذيذ الطعم يحتوى على كمية من السكر أضعاف ما يوجد في ثمر الدوم ويصلح لعمل العصير أو الحلويات حيث يمكن تقديمه في الموائد الراقية وهو أرقي وأحسن من كل أنواع العصير الذي تنتجه المصانع ولو تمكنت هذه المصــانع وقــدمت مــنه عصيراً أغنانا عن استيراد أنواع الكولا وهو قليل

التكالـيف لأن كمية السكر الموجودة فيه لا تحتاج إلا إضافة بسيطة من السكر ليعطيك عصير مركز ومن خواصه تجمع الأهالي كميات كبيرة من البعو (ما بـداخل الدليب) ويدفن تحت الأرض وعند حلول فصل الخريف ينبت وتخرج رؤوسـاً تشبه قندول الذرة الشامية فتفصل من أصلها قبل أن تنفتح وتلقي في الماء أو تشوى على الجمر وتباع في الأسواق الشعبية للأكل . وأخيراً ظهرت لـه فوائد أخرى وهو علاج لإزالة الحصوة سواء كان في المثانة أو في الكلي ثبـتت فاعليته في كثير من الحالات بتكسير الحصوة وخروجها بالقناة البولية وقـد جرب ونجح بنسبة 80% ويسمي الهالوك وهو من فصيلة النشويات لأن كمية السكر الموجودة فيه قليلة جداً وهو أشبه طعماً بالبامبي أو البطاطس أما سـعفه قـوى ومتـين ويسـتعمل كحصاير في سقف البيوت وهي أقوى من الحصـائر التـي تعمل من قصب البردي وأكثر مقاومة منها وقد تسد وظيفة التلقيم ومنظرها جميل .

(3) شجرة أم "تقلقل" : تنمو عادة في الأماكن الرطبة ثمرها يشبه الزيتون لا فرق بيـنهما مـن حيث اللون أو الحجم واختلافهما من ناحية الطعم وثمرة أم تقلقل بـداخلها ألياف مرتبطة بنفس الثمرة كما إنها لا تقبل الملح وقد قمت بكثير من الـتجارب وبطرق عديدة منها غليه على النار وإضافة كمية من الملح ومنه ما هو مملح قبل أن يصل إلى درجة السواد وبطريقة غليه بالزيت أولاً ثم وضعه فـي الملح كل هذه التجارب لم تأتي بزيتون يصل إلى درجة الجودة وثمرة أم تقلقل يأكلها الإنسان والقرود وشجرها شديد الخضرة يميل إلى السواد لامع ولا يزيد ارتفاعها عن الثلاث أمتار.

(4) شـجر الجوقان: من الأشجار التي تمتاز بجودة خشبها ناعم النسيج متماسك له لمعـة ولون زاهي وكأنه مدهون يصلح لعمل الأثاثات المنزلية يقاوم الرطوبة طـري يقبل المسمار الحديد دون أن يتعرض لتشقق وكما يصلح لعمل خشب للأسـلحة النارية أكثر قوة وجمالاً من الأخشاب التي تأتي بها من مصانعها ،

وله ثمر كالنبق أصفر اللون حلو الطعم لسد رمق الجائع داخل الغابات .

(5) شجر الحميض : هذا النوع من الأشجار يتضخم جذعه إلى ما يزيد من المتر عرضاً وخشبه يميل إلى البياض قوي ومتين يستعمل في المعاصر التي تديرها الجمال والثيران وكانت تستعمل في جميع أنحاء السودان قبل دخول المعاصر الحديثة ولازال البعض منها مستعمل في أرياف كردفان وبقية جبال النوبة رغم وجود المعاصر الحديثة والأهالي يفضلون إنتاجها من الزيت أكثر من مما تعصره المعاصر الحديثة وتنمو هذه الشجرة في القيزان وله ثمر يأكله عامة الشعب وهو حامض وكأنه مخلل.

(6) أم وديكاية : شجرة لا يزيد إرتفاعها عن المترين لها ثمر حلو الطعم يقال إنه يشبه البرقوق في مصر يأكلها كل الأهالي خصوصاً الذين يربطهم العمل الغابات أثناء رحلات الصيد أو ظروف الزراعة ولها مثل هي شجرة أم كرمدودة غير أن ثمرها داخل كرات في حجم كرة التنس ولها غلاف سميك ويؤكل ما بداخلها .

(7) شجرة الطرق طرق : شجر أبيض اللون يقوم على سيقان طويلة لا ثمر له لكنه يستخرج منه صمغ اللبان وهو يغطي مساحات واسعة وعلى رؤوس الجبال وسفوحها ولكن لم يستغل الاستغلال الأمثل لتغطية احتياجات السودان من هذا الصنف استيراده بالعملة الصعبة بمعني أن يقوم الأهالي بعملية الطق كما هي العادة في شجر الهشاب أو الطلح ليزيد من كمية الصمغ وهي من النباتات التي لا بذرة لها إنما زراعتها بطريقة غرس فرع من فروعها وتعهد ريه يخضر وينمو ويستعمل كسور للحدائق بأن يزرع متقارباً في المسافات وعندما ينمو تري أمامك سور وقد تلاصق بعضه ببعض لا يسمح لمرور إنسان أو حيوان من بينه وكما لقشرته الخارجية وظيفة تؤديها بدل ورق الكتابة كأوراق محلية طرية ولا تجف وغير قابلة للتلف لمدة تزيد عن أربعة أشهر تقبل الكتابة بالحبر وقلم الرصاص يميل لونها للصفار كلون الورق

المستعمل بين الطلبة كغلاف للكتب .

(8) شــجرة أبوليلا : زكي الرائحة يستعمل كبخور أو مع شجر الطلح في دخان العــرايس وله نكهة لا تنفك عن الثوب ولا عن جسم المرأة لمدة طويلة بالأيام وهــو كثيــر بــين العرب أينما وجدوا واعني بالعرب الذين يسكنون مناطق كــردفان ودرافور وعرب الكواهله وغيرهم في جبال النوبة ويعجبك شذاه في الليالــي الممطــرة حيــنما تحملها نسمات باردة في ليل رطب كما يوجد بين أشجارها الهجليج وقد أفردنا له مقالاً منفرداً.

(9) أم غلــيله : نبات يشبه الكسبرة له رائحة أخاذة تستعمل حبوبها بعد دقها جيداً عــند ارتفاع حرارة الجسم بالحمى يمسح به على جسم الإنسان مخلوطاً بالماء أو الزيت فتزول الحرارة ويقال أنه ينفع كعلاج للملاريا .

(10) المهــباب : نبات يشبه الحلبة شكلا وذو رائحة ذكية بإضافة كمية منه بين قطــن الوسائد عند العرب لتغيير تراكمات العرق على ظهر الوسائد وما يفوح منها من رائحة تقلق النائم وربما تطرد النوم عنه .

(11) اللــبان : يوجد نوع من اللبان يستخرج من كهوف الجبال ومغاراتها وهي مادة تلتصق بأطراف الصخور على شكل صمغ لزج ذو رائحة كاللبان لكن له مكانته بين المشعوذين يستعملونه في كتاباتهم لطرد الجن والعين الشريرة وهو غالي القيمة ومعروف باسم (لبان الحجر) .

(**12**) الشــيبه: ويــوجد داخــل هذه المغارات الجبلية المظلمة والرطبة ما يسمي بالشــيبه تــوجد ملتصقة على سطح الحجارة وسميت بهذا الاسم لأن زهرتها بيضـــاء تشبه بياض الشعر عند المرأة المسنة وهي من فصيلة التوابل وأكثر الناس في استعمالها هم العرب الرحل لتسد بدل التوم والبصل لما لها من نكهة في الملاح تزيد من شهية الإنسان وما ذكرته يعتبر قليل لما تحويه هذه الأرض من خيرات لصالح الإنسان وما دمت قد ذكرت طرفاً من أنواع الأشجار منها فــلا بــد للتطرق إلى بعض الحيوانات التي تعيش فيها فمن حيواناتها الزراف

والأسد والنمر والذئاب والتيتل والكتمبور والنلت والحلوف والغزلان بأنواعها أما الأفيال أكثر تواجدها في التيجان وشواطئ النيل في الجزء الجنوبي الغربي ومـــن حـــيواناتها الصغيرة أبو شوك وأم قرفة والأرنب والكيكو وهو الحيوان الوحـــيد الذي لا ذيل له وللحمه خاصية يستعمل كعلاج لمرض اليرقان يؤكل طـــازج أو مجفـــف فهو معروف ومجرب بين طبقات الشعب ، وتكثر القرود بأنواعها إذا استثنينا سلطان القرود ،أما الطيور منها النسور والصقور الأصفر والجـــديان (4) فقليل بادر في تلك الأصقاع ودجاج الوادي وهناك طائر صغير يقوم بخدمة الإنسان فيما بين الغابات واسمه (كريمه) أكبر قليلاً عن أم قيردون رماديـــة اللـــون يصدر عنها صوت زغزغة إذا ما وجدت إنساناً داخل الغابة تشـــعره بوجـــودها وهو يتبعها وكلما طارت تردد نغماتها إلى أن تقترب منها تطيـــر لتحط على شجرة أخرى الى أن تجد نفسك أمام أحد شيئين إما حيوان مفتـــرس أو خلية نحل وقد يسأل سائل ما هي مصلحتها في هذا كله رداً على ذلـــك فهي لها مصلحتها هذا الطائر من أكلة اللحوم والحشرات فعندما ترميك بـــين أحضـــان حيوان مفترس لابد من أن تحاول قتله فإن قتلته أو قتلك فهي تـــتغذى مـــن الدم المتصبب من أحد الطرفين وإن رمتك في خلية نحل لا شك ســـتعمل علـــى نزعها وأخذ ما بها من عسل إما الأجزاء غير الصالحة كالتي تحتوى على دود النحل فترميه وهي تعود لتأكله .

طريقة صيد الفيل عن طريق الخيل

وأهالـــي الليـــري يربون الخيل لا للزينة وحدها بل ليصطادوا على ظهرها الأفـــيال والزراف في أوائل أشهر الصيف بعد أن تحترق أعشاب الخريف الطويلة وتخضـــر الأرض إخضـــراراً جديداً في المنخفضات والمستنقعات فتلجأ إليها كل الحـــيوانات ولتهيـــئة الخيل لتتحمل المشاق طريقة خاصة بأن يجد الحصان العناية الكافية من ناحية التغذية علف وعيش فيصل إلى درجة عالية من السمن وفي بداية فصل الجفاف يمنع عنه القش ويصير غذاؤه الذرة الممزوج بالعطرون ونوع خاص

مــن الشجر يسمي الخشفاش له لحاء مر المذاق يقدم له بدلاً عن أنواع القش فيأكل مــن لحــاءه رغــم مراراته ويقوم بترويضه رجل خبير ويعمل التمارين اللازمة فيجــري بكامل سرعته إلى مسافات محدودة وغداً يزيدها قليلاً وهكذا حتى تتلاشى تلــك السمنة ويصبح خفيف الوزن وعندما يحين الوقت المناسب يخرجوا اثنين أو ثلاثة بخيولهم إلى الغابات فإن كانت الرحلة بغرض صيد الفيل يتجهوا نحو الجنوب الغربــي حتى يشارفوا شواطئ النيل حيث تكثر الأفيال ويتحرشوا بواحد منها حتى ينفــرد من بقية القطيع فيتغلبوا عليه وبأيديهم حراب كالموسى من حدتها وذات قناة طويلة وأثناء مطاردة الفيل للشخص الأمامي يتبعه من الخلف أحد الصيادين بجواده ويطعــنه من الخلف في مكان معين في العصب الذي بين وركيه فعندما يشعر بألم الجرح ينقلب للوراء فيتبعه الآخر ويعمل فيه بحربته حتى يعجز عن الجري ويجد أن قــوائمه لا تتحمل ثقل جسمه فيسقط عل الأرض أما هذه العملية ليست سهلة إلا فــي قــراءتها أو كتابــتها بل تحتاج إلى نوعية خاصة من الرجال أهمها الشجاعة والممارســة مــع قوة الاحتمال وحضور الذاكرة والمهارة في ركوب الخيل فمثلاً عــندما تكون أمام الفيل لا تبتعد عنه كثيراً وتشعره دائماً انك في متناول خرطومه لــئلا يأخــذه اليأس فينقلب على من خلفه وتبتعد المسافة بينك وبينه فيصعب عليك اللحــاق بــه وأن تكون طعناتك في الأماكن المعينة وأما الفيل نسبة لكبر حجمه لا يســتطيع أن يــنقلب على عقبه في زاوية حادة بل تكون اللفة في زاوية قائمة لكن بسرعة شديدة فلا تعترض طريقه بل تتبعه من الخلف دائماً تفادياً لخطر اللحاق بك وبعــد أن تــنال الرحلة التوفيق يخلعوا السن ويعودوا بها وما مروا على قرية إلا قابلوهم أهلها بالترحاب من الرجال وبالزغاريد من النساء وربما استضافوهم ليلة أو أكثــر ليقــيموا لهــم حفلات الرقص نهاراً بالنقارة في الليل ويروا فيهم الشجاعة والرجولة وربما ذبحت من أجلهم الذبائح وعندما يقتربوا من قريتهم يرسلوا لأهلهم مــن ينبئهم الخبر فتخرج القرية عن بكرة أبيها للقائهم والنساء يرقصن ويزغردن ويحملــوا مــنهم السن ويترجلون عن صهوة خيلهم لتقودها الفتيات وهن سافرات

حاسرات الرأس وتقام الليالي الساهرة وتذبح الذبائح ويجيئوا المهنئون من كل القرى المجاورة وليس هذا كله من أجل الكسب المادي بل السمعة التي تعايشه طول حياته وذكـــري لـــه بعد مماته وما تجعل له مكانة في المجتمع ومحل حفاوة وتكريم من الفتيات .

أما ملاقاة الزراف فلا تحتاج إلي قدر من الشجاعة إنما يحتاج إلى مهارة في ركـــوب الخيل وقوة الملاحظة عندما تغير الخيل على قطيع من الزراف يقصد كل فارس فريسته ويتبعها ويقطع المسافات الطويلة دون أن ينالها وإن اقترْب منها تعمد إلـــى الحيلة ويقتحم شجرتين متجاورتين وتمر بينهما فإذا ما خرجت انضمتا فإذا لم يقـــدر الفـــارس المسافة الخروج من بينهما قبل رجوعهما إلى موضعهما الطبيعي اصـــطدم بـــواحدة إما هو إما فرسه وهناك ثمة ملاحظة أخرى عندما يري القطيع الـــذي يجـــري أمامـــه قد أحني رقابه نحو الأرض فليعلم إن الأرض ذات شقوق فليمســـك قلـــيلاً لـــئلا يكبو جواده وعندما ترفع رؤوسها فليطلق للفرس عنانه لأن الأرض أمامـــه سهلة ومنبسطة وصيد الزراف الغرض منه لحمه فيقدد وينشر فوق نار دافئة حتى يجف بغرض بيعه للجمهور والاحتفاظ بكمية منه إلى زمن الخريف ولحمه أجود وألذ أنواع اللحوم وليس لها ما يماثلها في جميع الحيوانات .

كرندى وارض أبو القنعان وافران الحديد

تقـــع قـــرية كـــرندي في الجنوب الغربي من مركز الليري ويعلوها جبلين صغيرين واحد يطلق عليه اسم الدار وهو محل سكني الأهالي من نوبة وعرب أما الثانـــي فهو تودا وهو خال عن السكان والشيء الغريب أن يجيء رجل ابيض مما يدل على أنه أوربي يأتي من تالودي يركب على ثور يحمل معه رزمة صغيرة من الكتب المغطاة بالمشمع خوف البلل ويصحبه خبير وعندما يصل الليري يسألك أين كـــرندى وأين الطريق الموصل إليها فتدلهم على الطريق ويعود بعد ثلاثة أو أربعة أيام تسأله هل وجدت ضالتك ؟ فيجيبك بنعم ولكن لم يفصح عن ضالته هذه أهو أثر قـــديم موجود في بطون الكتب القديمة التي يحمل نسخة منها أو بعض المعلومات

عــن هذه البقعة أم كانت في عهودها الماضية ذات حضارة ثم زالت قد حدث ذلك مــن شخصــين اثنين أحدهما جاء قبل مجيء الليري أما الأخر جاء بعد ذلك وكلا الشخصــين أجابــا بــأن الرحلة جاءت بما يحقق لهما أمانيهم بعد ذلك يجيء دور الــدراويش وهــم يرتدون المرقعات والطاقية أم قرنين ويحمل في يده عصا ذات قــرنين يــتوكأ عليها ويحمل إبريقاً ليسألك نفس السؤال أين كرندى وأين الطريق الموصــل إلــيها فــتدله ويغيب عنك الشهر والشهرين وربما أكثر وتسأله السؤال التقلــيدي ماذا وجدت في كرندى يقول لك كل شيء تمام فما هو هذا الشيء التمام وإذا أردت منه المزيد يقول لك إن الشيخ فلان هو الذي أمرني مع العلم الشيخ نفسه لم ير هذه المنطقة ولم يزر كرندي وإذا سألت أهل كرندى عن المكان الذي يقضوا فيه وقتهم يشيروا إلى جبل تودا وإذا سألت أحد المرافقين للأوربيين عن عملهم بعد الوصــول إلــى كرندى يجيبوا بأنهم يقرعوا أوراق يحملونها معهم ويطوفون حول جــبل تــودا ويتســلقوا ظهره ويقضوا الليل أحياناً في سطحه الأعلى وقمته رملية ومبسطة وليس فيه مغارات و لا كهوف هذا هو السر الغامض واللغز المحير الذي لــم تجــد لــه تعليلاً ولا تفسيراً فجبل تودا هذا يكون محل نظر الأوربيين وطبقة الــدراويش فهــل تحــت هذا الجبل معدن ثمين أم كنز دفين فنحن إذا القينا نظرة فاحصــة على هذا الاهتمام من طبقة الأوربيين وإن الأموال التي صرفت على هذه الرحلة علاوة على المشاق الذي تكبده هذا الرجل وعلى ظهر ثور وفي وقت يكون الخريف على أشده لاشك إن في الأمر شيء لم تكشف عنه الأيام بعد.

وفي الطريق ما بين كرندي ولميرا نجد أرض قو واسعة بها بقايا من الفخار ممــا يــدل على أنها كانت آهلة بالسكان ويعرف هذا المكان باسم أبو القنعان تقول الروايات كانت مسكونة من أناس يمتازون بطول القامة وقوة البنية ثم انقرضوا ولم تبق منهم باقية وقد عصفت الأمطار على ديارهم ولم تترك لها أثراً .

وأول ما يلفت نظر الزائر بنايات صغيرة في شكل دائري لا تزيد سعتها من الداخل عن متر واحد مبعثرة في جميع نواحي القوز وقد كنت أظنها بقايا منازل أبو

القـــنعان لكن تواجد نفايا الحديد التي يغطي أطرافها من الخارج بددت هذا المفهوم وعلمـــت أنها أفران لصهر الحديد بطريقة بسيطة ولا تحتاج إلى تكاليف بناية من الطـــين فـــي شكل دائري عرضه لا يزيد عن المتر الواحد وارتفاعه لا يزيد عن متـــرين لـــه فـــتحات صغيرة في جوانبه لدخول الهواء ويؤتي بالحجارة التي يكثر تواجدها داخل هذا القوز ويضعوه في القاعدة ثم يأتي بطبقة من الفحم أو الخشب ثم طبقة أخرى من الحجارة حتى تمتلئ هذه البناية وتغطي بطبقة طينية كسقف لها ثم يشـــعل فيها النار ويعودوا أدراجهم نحو قريتهم لا يرجعوا إليها إلا بعد مرور نحو أســـبوع أو أكثـــر فيجدوا تلك الحجارة قد انصهرت وذاب كل ما حوته من معدن الحديـــد وقد ترسب على القاع كمية من الحديد فيعملوا في تقطيعها قطعاً صغيرة وتنقل على ظهوَر الحمير أو الثيران إلى داخل المنطقة حيث تصنع في شكل حراب وملايد وكل ما يلزم ولا زالت هذه الآثار باقية والمعروف إن السودان غني بمعدن الحديـــد في كثيْر من مناطقه كما يوجد في جهات تالودي جبل اسمه أب غر يوجد به معدن الرخام وهو كما قيل أنه من أجود أنواع الرخام .

سر حريق الجبل والأهالي ينسبونه للجن

في ذات صباح بعد شروق شمسه التي يحجبها عنك ذلك الطود الشامخ جبل أبو مسمار أو جبل ضنقرو وحسبنا منها انتشار ضوئها وإرسال أشعتها في الأفق البعـــيد وينبئ بميلاد يوم جديد كل منا ذاهب لمتجره فإذا بالناس في ميدان السوق الفسيح وقد اشرأبت أعناقهم وأرسلوا نظراتهم نحو الجبل ليروا العجب دخان يخرج من شروخ في صخرة صماء في أعلا الجبل يزداد تاره ويقل تاره أخرى والناس تتساءل ما هذا وما سببه وقد جاء فريق من الأهالي لغرض شراء ما يحتاجون إليه مـــن الســـوق وقالوا(شياطين طنقرو حرقوه) وهم أي الشياطين يقوموا بعملهم هذا علـــى فترات قلت هذا لغز جديد قلتها في نفسي وأخذ يجول في خاطري سؤال ما غـــرض الشياطين من هذا الحريق وهل هم يسكنون قرية ومبانيها من القش داخل هذه الصخرة فاحترق أحد بيوتها .

توجهت نحو بدوي محمد علي الذي كان يقف مشدود بكل شعوره وأحاسيسه ينظر إلى الدخان المتصاعد من بين الشروخ وقفت بالجنب منه ولم يشعر بوجودي فأمسكت بيده فالتفت نحوي وبعد أن تبادلنا تحية الصباح قلت ما رأيك في هذا اللغز الغـامض هـل مر بك مثله منذ مجيئك لهذه الديار قال لا قلت ما رأيك في الرأي القائـل بـأن الشـياطين هـم الذين تسببوا في هذا الحريق قال لو سلمنا جدلاً بأن الشياطين هم الذين قاموا بإشعال النار فما الهدف الكامن وراء هذه العملية فهل في ذلك من مصلحة لهم قلت إذن لا لزوم للحوار ولا نضيع الوقت في الجدل هل أنت على استعداد لترافقني في محاولة لكشف الحقيقة فأجاب على الفور نعم لكن لابد من استشـارة العم نصر الدين(5) قلت اترك لي الأمر وقفت أمام نصر الدين الذي أبدى نفس الاستغراب وبدأت بتفنيد رأي الأهالي الذين يعتبرون الجن والشياطين هم الذين قامـوا بهذه العملية هذه اعتقادات فاسدة وخيالات وخرافات تملأ رؤوسهم لا تمت إلـى الحقيقة بصلة وكنت أحوم حول الموضوع إلى أن وجدته تهيأ نفسياً عرضت علـيه فكرة السماح لنا لنحوم حول هذا المكان لنرى ماذا هناك فرفض بادئ الأمر ولا زلت به استعطفه وأرجوه تحت ضغط وإلحاح قال (امشوا إن شاء الله ما تنيتو قاتل نفسه لا يجد من يبكي عليه) رجعت لبدوي وأخبرته الخبر واستعنا بأحد أبناء المنطقة ليسلك بنا طريقاً سهلاً بين الصخور والأعشاب الطويلة وحملنا معنا سلاحاً ناريـاً وزمزميه مليئة بالماء وبدأنا نتسلق الجبل وكنت أقول لبدوي أثناء سيرنا هل تظـن إن هـذا الـدخان نتيجة تفاعلات كيمائية تجمعت تحت هذه الصخور تؤذن بحـدوث بركاناً مستقبلاً لو علمنا إن مجري السيل الذي يستمر جريانه طيلة فصل الخريف وبهذا الاندفاع الشديد ولم يبعد من هذا المكان إلا أقل من مائة من الأمتار فهل وجد سبيلاً للوصول إلى قاع هذا الجبل وتراكمت المياه وارتفاع درجة الحرارة فـي بـاطن الأرض حتـى وصـلت المياه إلى درجة الغليان وأرسلت هذا البخار المتصـاعد ، قال لو سلمنا جدلاً بصحة هذه النظرية فالذي نراه أمامنا دخاناً وليس بخاراً وهكذا تجاذبنا الأفكار ونحن نتقدم نحو الصخرة وبعد مرور ساعتين أو أكثر

وصلنا القاعدة فوجدنا بجانبها فتحة صغيرة كمدخل لهذه الصخرة الملساء التي تشبه قمع السكر وكانت لا تسمح لمرور أكثر من شخص واحد وليس بعرض كتفيه إنما بالجنب لضيق الفتحة وأشرنا على الخبير بالوقوف في مكانه إلى أن نعود إليه وهممت أن أدخل فإذا ببدوي يمسك ذراعي وينحني جانباً ويدخل أمامي وما أن قطعنا أمتاراً قليلة حتى شعرنا بضيق في التنفس وعيوننا يتقاطر دمعها والأنوف تسيل ماؤها وأقدامنا تغوص في شئ يشبه التبن وكل ذلك ناتج من رائحة مخلفات الوطواط وإفرازاته لم يثنينا ذلك ولم نأبه له وواصلنا تقدمنا في ظلام دامس لا تري شيئاً أمامك حتى لو فردت ذراعك ونحن نتخبط تخبط العشواء وما أن اقتربنا من فسحة بدأ يلوح أمامنا شئ يشبه ومض البرق يضئ لحظة وينطفئ بعدها ونحن نتقدم إلى أن سمعنا همهمة صادرة من وراء هذا الظلام فقلت هناك حركة وقد اقتربنا لمقابلة شيئاً ما وكان صوتي كمن يتكلم بواسطة مكبر الصوت بسبب ترديد الصدى في ذلك الجو الرطب والظلمة التي تحيط بهذه المنطقة فوصل كلامي إلى آذانهم مما زاد في روعهم واعتراهم الخوف من هؤلاء المجهولون الذين يقحمون عليهم هذا المكان الذي لا يطرقه أحد فنادوا متسائلين من أنتم قال أنا بدوي قال الأخر بدوي نسيبي ما الذي جاء بك لهذا المكان قال له بدوره من أنت قال أنا فلان فعرفه وقال له ماذا تصنع هنا قال لنحرق الوطواط وهو من النوبة ومعه اثنين آخرين وهذا النوع من الوطواط كبير الحجم يسكن كهوف الجبال وفي حجم الحمام البلدي فطلبنا منهم الخروج لعدة دقائق ثم يعودوا لمزاولة عملهم هذا فلم يبدوا اعتراضاً ورجعنا الخلف وتبعونا إلى أن خرجنا من حيث أتينا فالقينا نظرة على السوق فإذا بالناس كأسراب النمل لا تميزهم إلا ببياض ملابسهم وحركتهم وعلى ظهر صخرة عالية قد سطع عليها ضوء الشمس أوقفنا الثلاثة ونحن بجانبهم وأطلقنا عياراً نارياً دوي دوياً رددت جوانب الجبل صوته وصداه وشعرنا بأن الحركة في ساحة السوق قد ازدادت وتماوجت ودخل بعضها في بعض وبعد ذلك تنفسنا الصعداء وشعرنا بنشوة الظفر وقد حققنا ما أردنا ونلنا ما نصبوا إليه ولكن هذا

الجادث سيكون حديث الأجيال المقبلة ولكي لا يأتيه النسيان لا من بين يديه ولا من خلفـه لابـد من دليل مادي يقوم كشاهد وكثرت الاقتراحات عن نوعية هذا الشاهد وبعـد تقلـيب وجهات النظر أستقر الرأي إلى أقل ما يمكن عمله حالياً تخليداً لهذه الذكـري هي أن نحفر أسماءنا على هذه الصخرة بالقرب من المدخل وأرسلنا إلى فضـل الله لـيمدنا بإزميل وشاكوش وأعطينا المكتوب إلى الخبير وكانت حرارة الشـمس قد ارتفعت و لابد من ظل بارد نأوي إليه إلى أن يعود الخبير. فأشار إلينا وتبعناه فنزل بين الصخور فإذا نحن في مكان كأنه حجرة أرضها مفروشة بالرمل الـبارد ومسقوفة في أعلاها بزلطة واحدة وتحسب من برودتها أنها مكيفة وتركنا فيها إلى أن عاد من الأرض وجاء يحمل الإزميل والشاكوش علاوة على كيس ملئ بالـبلح وزمـزميه فـيها ماء وخرجنا وجلسنا تحت قاعدة الصخرة وكتبنا أسماءنا وأخـذنا طـريقنا نحو الأرض ولم يبق لغروب الشمس إلا قليلاً وقد أخذ منا التعب مأخـذاً عظيماً فكان من بين الذين قابلونا من يلومنا على هذه المجازفة ومنهم من يهنـئ وقـال البعض الآخر لم يداخلنا أدني شك عندما سمعنا صوت إطلاق النار ورأيناكم وقوفاً بين هؤلاء النفر قلنا إنهم حقيقة من الشياطين قلنا لهم إنهم من النوبة ومهمتهم إثارة الدخان في أماكن تجمعات الوطواط حتى يصل إلى درجة الاختناق من شدة تأثير الدخان فيسقط ويجمعوها في زكائبهم بغرض أكل لحمه .

صراع النوبة وموقف المصارع امدقماني

المصـارعة لا شـك أنها رياضة تمارسها أكثر شعوب العالم ولها قوانينها الخاصـة ومـنها مـراعاة الجانب الإنساني منها وكان مراعاة لتلك القوانين شرط وجـوب كان هذا من قبل أن يدخلها المصارعون كمهنة لكسب المال فإن ما يثبت على الشاشات الصغيرة وينقلها الأثير إلى سكان المعمورة ليست فيها روح الرياضة في شئ فالعنف بجميع أنواعه تشاهده في الحلبة فالضرب واللكم والرفس هو الطابع السائد لهذه الرياضة في تلك الدول المتحضرة حتى أن الجمعيات التي تسمي نفسها جمعـية حقوق الإنسان قد غضت النظر عما يصيب الإنسان أو ما يلحقه من أذى

وقــد لفت نظري في السنين الأخيرة إن جمعية الرأفة بالحيوان قد أدانت مصارعة الثيران واعتبرت ذلك جريمة في حق الحيوان ولكن جمعية حقوق الإنسان لازالت نائمـــة وكأنهـــا لم تر ما يحيق بإنسان القرن العشرين فإن جاز لي أن استثني دولة واحـــدة لازالت إن لم يكن أصيلاً في طبعها أو مراعاة لما يأمر دينها الحنيف هي جمهـــورية السودان وهي تمارس هذه الرياضة منذ أقدم العصور فلم تصل بها إلى درجة الامتهان لكسب مادي وقد شاهدت الكثير من هذه الممارسات في قبائل جنوب كـــردفان وفي جبال النوبة علاوة على ما سمعت عن المناطق الأخرى فأسوق لك واقعـــة كنت من مشاهديها كان قد أعلن عن إقامة حفل مصارعة في قرية تومريه أَمَّهـــا الناس كعادتهم من نواحي الليري المختلفة ليروا بطلها الشيخ (امدقماني) هذا البطل متوسط الطول قوى البنية مفتول العضلات وجرت العادة عندما يقترب موسم المصـــارعة أن يدخلـــوه مـــع بقية المصارعين المرشحين لنيل البطولات يدخلون معسكراً مقفولاً تحت مراقبة السبَّارة ويوفروا لهم كل سبل الراحة من أنواع الطعام لحوم وألبان ومشروب السمسم كما يفعل فرق كرة القدم في وقتنا الحاضر والغرض من ذلك لا يحتاج إلى تعريف .اجتمع الناس حتى ضاقت بهم الساحة ودخل السبَّارة الحلـــبة والبطل يصول ويجول في حركات تظهر قوته جلس السبَّارة من الجانبين يتشـــاورون فيْ من ينازل البطل فقدم الفريق الثاني شاباً فرفضوا سبَّارة البطل هذا الشاب بحجة أنه ليس كفء والفريق الثاني ولما لم يجدوا بداً استجابوا لرغبتهم ولما تقابـــل الخصمان فرأي البطل أنه ليس كفء له فأمسك بذراعه واحد رجليه ورفعه فوق رأسه ودار به جوانب الساحة وهو يسأل عن مكان أم هذا الشاب فلما دنا منها وضعه أمامها بكل رفق وقال لها وهو يضحك ولدك لا زال صغيراً لم يبلغ درجة تـــؤهله لمنازلة الأبطال فهيئيه للمستقبل وكانت لفتة بارعة منه وبلغت منه إنسانيته من حيث الشفقة والرحمة به فكان عمله مثار الضحك الممزوج بالتقدير من كل هذا الجمع .

وجبة من لحم الزراف

تتوقف العربات في فصل الخريف بسبب الأمطار ولعدم تعبيد الطرق وتصبح المواصـــلات قاصـــرة على ظهور الدواب وقد أجبرتني ظروف العمل للسفر إلى تونجه وكنت وحيداً على ظهر فرس وقد اعتدت ذلك لأن الانتظار حتى تجد مرافق فـــي كل رحلة يعطل الكثير من العمل وقد لا يتيسر ذلك بارحت الليري بعد صلاة الظهـــر ووصـــلت جـــبل الليميرا مع المغيب وهو في الطريق المؤدى إلى تونجة وساكنيه من الفلاته الذين نزحوا إليه منذ مئات السنين وطاب لهم المقام والعيش مع الـــنوبة وهـــم قـــبائل (قللـــي) متمسكون بدينهم الإسلامي ويحافظون على عاداتهم وتقالـــيدهم ولهم كيانهم الخاص يتزوجون من النوبة غير أنهم لا يزوجوهم وبحكم عملـــي الـــتجاري اكتسبت صداقات ومعارف وبت ليلتي معهم لأعطي فرسي فترة اســـتراحة ليواصل سيره في الغد وبعد طلوع الفجر أخذت طريقي إلى أن وصلت النقعة وهى أول مرحلة في الطريق سميت بهذا الاسم لأن الحاكم العام عند زيارته إلـــى جبال النوبة جاء عن طريق النهر إلى تونجة وقام بحمله على ظهور الدواب فلمـــا وصـــل هذا المكان أدركه الليل وأراد المبيت في هذا المكان فقطعت أشجاره وأزيلت حشائشه ونصبت الخيام في الصباح أخذ طريقه نحو الليري من ذلك اليوم سميت بنقعة السردار حيث كان الحاكم العام له وظيفتين حاكم عام السودان وسردار الجـــيش المصري وهي وظيفة تركية معناها قائد الجيش ، تجاوزت النقعة إلى أن وصـــلت الصهيب منطقة معروفة بكثرة حيواناتها البرية لفت نظري كثرة الصقور والحدأة الذي يملأ الجو وعلى رؤوس الأشجار وعلى بعد ثلاثة أو أربعة أميال عن الطـــريق ظاهـــرة غريبة أعداداً هائلة من النسور والطيور آكلة اللحم فماذا هناك ودخل في روعي ربما يكون فيلاً قد أصابه المرض وهام على وجهه إلا في انتظار تعفـــن الجلـــد ويصيبه الانحلال بسبب البكتريا لتجد النسور فرصتها للوصول إلى لحمه فقلت في نفسي هذا رزق ساقه الله لك وعسى أن استحوذ على أسنانه وتكون رحلـــة ناجحة فلويت عنان فرسي شطر المكان فلما اقتربت تراء لي دخاناً يتصاعد مـــا بـــين الأشجار وتناهي إليّ صوت أناس يتكلمون فكدت أن ارجع ولكن تملكني

حب الاستطلاع وواصلت المسيرة فإذا بي أمام ثلاثة خياله في رحلة صيد أصابوا مـــنها زرافة فسلمت وامسكوا بعنان الفرس وأشاروا على بالنزول وهنأتهم عل هذا التوفيق وتمنيت لهم مزيد وقدموا لي ضلع من ضلوعها مشوي ولهم في ذلك طريقة خاصة وهي أن توقد نار ويفرش حولها على الأرض أضلع الزرافة بعد تعريها من اللحم وهي تتعرض للحرارة دون أن تمسها النار وجاءني بواحدة أكلت منها ما فيه الكفاية زودتهم بشيء من السكر والشاي ورحلت عنهم .

الخشب المضيء

يتزايد توالد الناموس عادة في فصل الخريف وتغزوا جيوشه القرى والإنسان يستطيع اتقاء لسعته بالغطاء أو النوم داخل الناموسية أما الحيوان فقد يكون عرضة لهـــذه الحشـــرة التي تقلق مضجعه ولا يجد للراحة سبيلاً إلا إذا قام صاحبها بعمل احتـــياطاته بجمـــع كـــتل الخشـــب الكبيرة الجافة لوقود النار حولها فدخانها يطرد البعوض فتجد فرصتها للنوم فجاء أحد الأهالي وهو معروف لدينا ويملك قطيعاً من البقـــر وقال متعجباً كنت قد حملت بعض كتل الخشب من الغابة إلى داخل حظيرة البقـــر في انتظار الليل لنشعل عليها النار لطرد البعوض فإذا بواحدة من هذه الكتل ينـــبعث مـــنها نـــوراً يشع ويرسل ضوءاً خافتاً قلنا أين هي الآن قال موجودة وقد أبعـــدتها عن النار حتى تروها فوعدناه أن ينتظرنا في المساء وبعد المغرب توجهنا نحـــو داره فوجدناه يتحسر ويعتذر بأن الأولاد أثناء غيابه قد وضعوها بالقرب من المـــوقد فاحترقت وأخيراً علمنا أن بعض أهله اخذوا يلومونه على تسرعه وإبلاغ الأمـــر للجلابـــة كـــان خير شالوه منكم بسبب ذلك مكر علينا أخفى القطعة ولهذه الظاهرة تعليل معروف إن هذه الكتلة من الخشب مرت عليها سنين وهي ترقد على الأرض حتـــى أصابها التعفن بتراكم الأتربة وربما بعض عوامل طبيعية أخري لا أستطيع تأويلها تكونت منها مادة فسفورية أعطت هذه اللمعة فحسبوها شيئاً ثميناً .

تسلق جبال طنقرو

كـــل زائر لمركز الليري لابد أن يري على مقربة من الشارع الرئيسي سور قصير يضم قبرين قد ارتفعا عن وجه الأرض استعمل في بنائها الحجارة والاسمنت وكـــتب على كل قبر اسم صاحبه وهي أسماء عجمية تدل على أنهم أوربيين تقول الروايات عنهما انهما اثنين من ثلاثة أشخاص قدموا المنطقة دون أن يعلم أحد من الأهالـــي طـــبعاً ما هي هويتهم أو من أين جاءوا وتسلقوا الجبل ووقفوا تحت هذه الصخرة الصماء وحاولوا الصعود إلى قمتها وهي عبارة عن صخرة ملساء شاهقة القمـــة فـــي شكل مخروطي على هيئة قمع السكر ومعروف باسم طنقرو و تحتها منطقة السوق مباشرة فشلت المحاولة ولم يجدوا بداً من النزول إلى الأرض بعد أن أخذ منهم التعب وبعد وصولهم بساعات كما تروي الإشاعة مات أحدهم وفي اليوم الثاني لحقه الآخر ولقي نفس مصير الأول أما الثالث فقد أصابه الجنون وفقد عقله ممـــا أجبر المسئولون لترحيله وسفره للخرطوم ولم يعرف مصيره بعد ذلك وهكذا تتردد الشائعات مما جعل الكثير من الأهالي يتجنبون زيارة تلك الأماكن ويتحاشون الاقتراب منها وأما بقية الطبقات فلم تراودهم فكرة التسلق للجبال أو دخول مغاراتها ، شعارهم المثل المصري (أبعد عن الشر وغني له) وهذا ليس من طبعي وكان كل تفكيري ينحصر في سبب موت الشخصين أمن مرض كان دفيناً فهيجه وأثاره تعب التسلق وكانت نتيجته الموت فإن سلمنا جدلاً وأقحمنا جملة وليدة الصدف فما سبب جنون الثالث رحلوا عنا ولم يتركوا مذكرة تلقي الضوء على الحقيقة بل رحلوا بهذا السر وتركونا نعاني من الحيرة مما يجعلنا نقول أنه لغز محير (وما أكثر الألغاز) فـــي مركز الليري) فقلت إلى متي وأنا في تردد واحمل فوق كاهلي هذا العبء الثقـــيل فأمـــا أن أقـــوم بتنفيذ فكرة الصعود لهذه القمة مهما كلفني أو أرميها بعيداً وأتخلص من هذا الكابوس وفي مجلس ضم الكثيرون من التجار يلعبون الورق وكل مشـــغول بلـــيلاه فليلاهم المتمثل في الورق وليلاي في الصعود إلى القمة فقمت وأعلـــنت في صوت مسموع اني قد عزمت بمشيئة الله أن أقوم في يوم غد لأحاول الصـــعود فوق هذه القمة فشلت الرحلة أم نجحت رغم الشائعات التي تحوم حولها

فقـــال بعضـــهم دونك والموت قلت مرحباً فالموت لا يثنيني عما عزمت عليه وهو مصير كل حي وقد قال الشاعر :

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته   يوما على آلة حدباء محمول

ووقــف من بينهم أحد أبناء عمومتي وهو بابكر الرشيد محمد صالح(6) وكان شــجاعاً كــريماً لا يخاف الموت ولا يهاب ركوب المخاطر قوي العضلات وقف أمامـــي أنـــا رفيقك في هذه الرحلة سواء كانت رحلة حياة أو موت قلت جزاك الله خيــراً نعم الرفيق فكثر الجدل فمنهم من يعارض ومنهم من يشجع وقال بدوي لولا ارتباطـــي بمهمة تستدعي سفري غداً لما تأخرت عنك فقلت مشكوراً وفي الصباح اســتأجرنا خبيراً من الأهالي ليساعدنا في حمل زمزمية الماء وسلكنا طريقنا الأول ووقفــنا تحــت الصــخرة اتخذنا طريقاً نحو الشمال ومن هنا بدأت المتاعب حيث اعترضـــت طــريقنا الصخور الكبيرة والمهاوي بينها على أعماق متفاوتة منها ما يصــل إلى عمق عشرة أمتار والبعض الآخر أقل ونحن نتسلق الصخور حبواً في مــرة وزحفــاً في مرات وقد صادفنا كثير من الصخور التي لا يمكن صعودها إلا بمســاعدة خارجية فكنا نتعاون على تخطيها برفع أحدنا على قمتها وهو يمسك بيد الآخــر كــي يتمكن من الصعود فكانت رحلة شاقة أصابنا منها التعب الشديد فإذا بالخبير يقف ليقول أنا راجع من هنا وحاولنا كثيراً لنرده عن عزمه ونحن لازالنا لم نقطــع من الرحلة إلا بما يقارب النصف فعندما رفض أن يرجع عن عزمه غضب بابكــر الرشــيد على موقفه هذا وقال له أتظن إن برجوعك عنا ستثنينا عن عزمنا ارجــع لا بارك الله فيك عديم المروءة وأخذ منه زمزمية الماء وكانت كبيرة وبها ماء كثير فافرغ نصفها على الأرض وحملها على كتفه وقال هيا بنا وطالت الرحلة حتــى وصــلنا إلــى منطقة ذات أشجار عالية خضراء الأوراق يسكنها نوع من النســور الكبيــرة ممـــا لم نر لها مثيلاً في الأرض وهي تمتاز بلونها الجميل ذات مناقيــر ومخالــب حــادة تعــيش على الأرانب والكيكو وبقية الحيوانات الصغيرة وحشــرات الجبال وهي تتطاير أمامنا فزعة مأخوذة بالمباغتة حيث لم تتعود وجود

إنسان إلا في القليل النادر وكنا كلما اقتربنا من القمة كثرة العوائق وكنت أحاول أن أعينه على حمل الزمزمية فيأبى وبعد جهد جهيد ومعاناة شديدة استطعنا أن نتغلب على الصعاب ونرقي إلى القمة ونقف على صخرة منفصلة على مساحة مترين في متـــرين وقفنا فوقها والسوق تحتنا ونراه كأنه رقعة ثوب أبيض وقلت لبابكر أرفع الآذان حمـــداً لله وشـــكراً لتوفـــيقه وفي صوت جهير نادي بالآذان والصدى يردد والجـــبل يكبر الصوت فسمعه الناس على مسافات بعيدة مما جعلهم يتساءلون عن مصـــدر هذا الصوت من أين جاء وخرجوا التجار من متاجرهم على سماع الآذان وكل من كان معهم وكانت فرحتنا عظيمة وسرورنا أعظم (وحققنا المستحيل واتينا بالمعجزة ونزلنا عن القمة وتحت ظلال تلك الأشجار الملتفة حيث الجو البارد أخذنا قســطاً مـــن الراحة وشربنا من الماء البارد وكأنه عصير فاكهة من الجنة أو هكذا كـــان شـــعورنا بعد أن حققنا أمنية غالية وحلم يراود نفوسنا وكانت رحلة الهبوط أهـــون علينـــا من الصعود فنشوة النصر جددت من نشاطنا وهانحن نصل الأرض بســـلام وكان قبل غروب الشمس بقليل وفي الغد بعد أن تسامع الأهالي بما قمنا به فكانوا يقولون إننا سنلاقي نفس المصير في الأيام القليلة القادمة فكانت تنبوأت فاشلة واعتقادات باطلة ولازلنا والحمد لله على قيد الحياة(7) .

رياضة الخيول وتعلم الفروسية

كـــنا نملـــك من الخيول الممتازة عدداً لا بأس به لكل تاجر حصاناً أو أكثر ونوليها العناية التامة ونتعهدها للتنقل بها بين القرى لقضاء أعمالنا التجارية وللزينة أيضـــاً ولما كانت حركة السوق التجارية لا تتعدى الساعة الثالثة مساء حيث يخلو السوق عن رواده يخلف ذلك فراغاً عقب ذلك فكنا نمارس الرياضة على ظهورها ومنها هناك ميداناً واسعاً قد اجتثت أشجاره وسويت أرضه ليصلح لهبوط الطائرات إذا لـــزم الأمر فكنا نذهب إلى هناك ومع كل فرد نحو خمسة إلى سبعة من قصب الـــذرة أو العـــدار الأخضر كرمز للحربة وينزل اثنان الساحة ويتقدم واحد مسافة خمســـة أمتار والآخر خلفه ويقف ثالث كحكم للمبارزة ويعطي إشارة البدء فينطلقا

ويــبدأ الفــارس الخلفــي برمي الفارس الأمامي بما في يده من قصب واحدة تلو الأخــرى والأمامي يتفادى تلك الطعنات وعندما تنفد ما بيده من قصب يكر راجعاً ويتبعه الآخر ويرميه وذاك يتفادى ثم يدخل اثنان آخران وهكذا إلى مغيب الشمس وكانــت رياضــتنا المفضــلة لأننا اكتسبنا منها مهارة في ركوب الخيل من حيث التحــرك على ظهر جوادك تفادياً للطعنات وعلى طرق مختلفة وجاء بعد ذلك من يقول أن مفتش تالودى المستر بيل قد جاء برياضة أخرى تسمي الكاله وعلى ظهر الخــيل وهــي عــبارة عن كوكاب حاد الرأس مركب على قناة طولها نحو مترين ويؤتــي بخشبة من الزان على عرض كفة اليد يغرس طرفها في الأرض بميلان بسيط وعلى ارتفاع ثلاثون سنتيمتر وتصطف الخيول على مسافة مائة متر ويخرج مــن بيــنها واحداً ممسكاً بالكوكاب ويطلق عنان فرسه نحوها وما أن يقترب منها حتــى يمــيل بجســمه نحو اليمين ويغرز الكوكاب في نصف الخشبة ويقتلعها من مكانهــا فجهزنا كل المعدات وخرجنا إلى ميدان قريب من السوق وأمرنا الذي جاء بهــا أن يشــرح لنا البيان بالعمل وكان له فرسه فلما وصل بالقرب منها حاول أن يلتقطها ومال على جنبه فسقط على الأرض ثم أعاد الكرة ونحن ننظر إليه ثم سقط للمــرة الثانــية لأن جســمه كــان كبيراً فقلت له مداعباً هل هذه السقطة جزء من الرياضة فضحك وقال لا بل المفروض أن تأخذها على رأس الكوكاب ثم تعود إلى مــركبك فقلــت لــه دعني أجرب فأخذتها بكل سهولة وتتابع الجماعة وكانت هي الرياضــة الثانية وبعد شهور قليلة بدأنا التمرينات على لعبة البولو ولكن لم نستمر فيها مدة طويلة حتى فرقت بيننا الأيام .

تنصيب مك النوبة

بعد أن أدخلت الحكومة زراعة القطن في منطقة جبال النوبة وأقامت محالج في جهات مختلفة ووفرت لهم البذور اللازمة أقبل الأهالي على زراعته كمحصول

نقـــدي ســـريع العائـــد ودخل معهم هذا الميدان كل التجار وكان اهتمامهم وإقبالهم عظـــيماً وتوســـعوا في رقعات الأرض ووضعوا كل إمكاناتهم ووفوا أموالهم لهذا الغـــرض كـــل ذلك قبل دخول الآلات الزراعية الحديثة وهذا التوسع الزراعي له خلفـــيات مما يسبب قلق التاجر وهي قلة اليد العاملة نتيجة لهذا التوسع الجديد إبان الخريف فبدعوا بعمل صداقات بين أهالي القرى المجاورة للمزرعة ودخلوا في شبه أحلاف تربطهم مع شخص معين للاستعانة به إذا لزم الأمر فيختار المرء من بينهم نحو ثلاثة أو أربعة ليكونوا رؤساء شعب تدعوهم عند الحوجة وكانت طريقة ناجحة ساعدت كثيراً في إنجاح المشاريع خصوصاً في أيام جني القطن في الوقت المناسب قـــبل سقوطه على الأرض وفي أحد الأيام جاء أحد هؤلاء الرؤوس إلى السوق في مهمـــة خاصة وكان يجلس بجواري الأخ بدوي محمد علي فأكرمناه وقمنا بالواجب نحـــوه وتحدثنا عن مواضيع مختلفة وكانت هناك إشاعة مفادها أن المك يعاني من مرض ألم به وهو من النوبة من أهل الزائر فسألته عن حال المك فأجاب هو بخير ويتقدم نحو الشفاء وقد تعدى منطقة الخطر قلت بالمناسبة ما هي العادات والطقوس التـــي تعمل في حالة خلو مقعد المك بسبب الوفاة أو عزله من جانب الحكومة وهل هي وراثية فأجاب ليست وراثية إنما باختيار المناسب بعد أن يجتمع الرجال الكبار ويكونـــوا كمجلـــس شوري من خيار القبيلة ويتعرضوا للبحث عن الخلف وأسماء المرشحين أمامهم ويختاروا منها واحداً بالإجماع إن وجد وإلا بالأغلبية ويعلن عن الاســـم الفائز ويذبحوا الذبائح وأكثرها من الكداريك (الحلوف البرى) الذي يربي بكثرة وله حظائر خاصة بجانب ثوراً أو ثورين ويكثروا من عمل المريسة ويجتمع الأهالي في اليوم المحدد ويخصصوا جزءاً من اللحم والمريسة يقدمونها إلى الثعابين الكبيـــرة الحجم التي تسكن المغارة التي تفضي إلى كرسي في نهاية المغارة داخل جـــبل عالـــي وبين سلسلة جبال وعرة المسالك يجد الداخل صعوبة في تجاوزها يقدمـــوا هذه كقربان لهذه الثعابين وهي تقبل على أكل اللحم وشرب المريسه وبعد فترة وجيزة يجيء المرشح وسط رجال في أغلب الأحيان من مجلس الشوري الذي

انعقد لاختباره ومن بينهم الكجور وأعوانه يتقدمون الوفد ويدخلوا المغارة ويواجهون الثعابين فإن أفسحت لهم الطريق وتمكنوا من الوصول إلى مكان الكرسي وجلس عليه فهي علامة الرضا بأن الآلهة قد قبلته وان هاجت وماجت واعترضت سبيلهم تدل على أن الآلهة لم تقبله فيرجعوا لاختيار شخص آخر قلت هل هذا الكرسي من الحديد وكم عمره قال مسألة الأعمار وحسابها بالسنين فهذا ما لا نعرفه لكنه في هذا المكان منذ الأسلاف الأوائل وهو ليس من الحديد الأزرق لكنه ذا لون أصفر ونظر داخل الدكان وأخذ كفة الميزان وقال بهذا اللون قلت لبدوي ألا تري معي إن هذا الكرسي ربما يكون من الذهب الخالص وإلا لعلاه الصدأ سواء كان من الحديد أو من النحاس بفضل الرطوبة وعدم تعرضه للشمس وعدم خبرة الأهالي بالقيام بمسحه بالخرق لإزالة الأتربة والأوساخ والندى بحكم وجوده في هذه المغارة قال ربما يكون ذلك فالغريب في هذا الأمر من أين جاءوا بهذا الكرسي سواء من الحديد أو النحاس ومن صنعه وهم قوم لازالت بدايتهم ظاهرة يعيشون عيشة القرون الوسطي .

ثورة المك كوبونقو

لفوفا قبيلة من النوبة قليلة العدد هادئة الطبع يميلون إلى العزلة يسكنون رؤوس الجبال وخلف منطقة السوق وكان على رأسهم المك (كوبونقو) لا ينزلون إلى الأرض إلا نادراً حيث مزارعهم ومواشيهم من غنم وبقر وكدرايك تعيش معهم على رؤوس هذه الجبال ولديها ما يكفيها ويسد حاجتها من مرعي وموارد الماء من طبعهم الهدوء لا يميلون إلى العنف وهم شعب يعيش على الطبيعة النساء منهم لا ترتدي الثياب بل تكتفي بستر عورتها بربط مجموعة من أوراق الأشجار من الأمام ومن الخلف وتنزل بها إلى السوق من غير مبالاة ولا حرج وهذا منظر طبيعي نراه في كثير من مناطق جبال النوبة والبعيدة عن الأسواق أو مركز الإدارة(8) .

وهذه القبيلة رغم أقلية أفرادها لا يملكون أسلحة نارية ذات مفعول بل بأيديهم قليل من الأسلحة القديمة يرجع تاريخها إلى العهد التركي وهم لازال يحتفظون بها

ويستعملونها على قدمها وخلو أيديهم من ذخيرتها الأصلية والتي أصبحت لا وجود لها وكل ما بأيديهم من هذه الذخيرة من صنع محلي لا يصل إلى درجة الجودة رغم ذلـــك فقد أمتنع الملك كوبونقو عن دفع الجزية المقدرة عليه وقد أرسل إليه الناظر الـــذي كـــان علـــى رأس الإدارة في مركز الليري أرسل إليه ليمثل أمامه فرفض الحضـــور وصعد إليه الناظر وزاره في بيته ونصحه وبين له خطورة ما هو مقدم علـــيه من تعرض أفراد قبيلته إلى الموت دون جدوى لأنك لا تملك من السلاح ما يعـــادل ســـلاح الحكومة فإن أنت جمعت جميع أفراد القبيلة من رجال ونساء فلن تســـتطيع الصـــمود أمام قوة الحكومة أكثر من خمسة دقائق فتدور بك أنت وأهلك الدائرة وتكون قد جنيت على نفسك وعلى هؤلاء الصغار الذين سيلاقون مهانة اليتم وذل الترمل من النساء فلم يستمع لنصح الناظر ولم يستجيب لتوسلاته وأصر على عـــناده فتـــركه الناظـــر ونزل إلى الأرض ولم يجد بداً من إبلاغ الأمر إلى مفتش تالـــودي الذي تقع الليري تحت إدارته وأخذت الحكومة في إعداد فرقة من الجيش لتأديـــبه وإخضـــاعه . مـــرت فترة تقدر بشهرين تقريباً والجو هادئ لا أخبار ولا شـــائعات حـــيث لجأت الحكومة للسرية في هذا الاستعداد وقمنا ذات صباح لنجد أفـــراد الجيش بكامل عدتهم الحربية ينتشرون حول الجبل وأعمدة التلفون وأسلاكه معلقة وعلى جميع نواحي الجبل شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً وجعلوا لها نقاط قيادة أمـــا الرئاسة فكانت تحتل المركز أما الملك وجيشه فقد اعتصم بالمغارات والكهوف وخلـــف الحجـــارة وبدأت المناوشات بين الجانبين كان من بين قواد جيش كوبونقو شـــاب شـــجاع يعتبر كقائد الفرقة وتجده دائماً في الطليعة وعندما يضرب ضربته يعتـــز بقوله وبصوت مسموع من جيش الحكومة يعتز بقوله (أنا الأمين شيدا لعيب عاشه نيله) وعاشه نيله هذه التي يعتز بها ما هي إلا امرأة مغنية (حكامه) مشهورة بين قبائل الليري الأخرى فلما تناهي إلى سمع القائد هذا الاعتزاز باسم امرأة معينة أرسل في طلبها ولما حضرت أمامه سألها هل تعرفين الأمين شيدا فقالت لا فظنها أنها تتستر عليه فقال لها هو يعرفك وله علاقة بك فكيف لا تعرفينه قال كل فرد في

هــذا المركز يعرفني لأني حكامه وأغني في كل المناسبات دون شك هم يعرفوني ولــيس بالضرورة أن أعرفهم كلهم فأمر بوضعها تحت الحراسة المشددة ظناً منه بــأن الأمــين شــيدا لو سمع باعتقالها فتتحرك غريزة الرجولة فيه وتأخذه الحمية فيجــيء مستسـلماً لفديتها ولكن هيهات وأخذت الطائرات ترمي قنابلها جزافاً دون هــدف لآن النوبة داخل الكهوف ولا يظهر منهم أحد في النهار أو يكون الغرض من رمي القنابل التهديد وإظهار قوة الحكومة وإرهاب المواطنين وأخذ الجيش في حصارهم للجبل وقد أمتد لأكثر من شهر ولم يجد المحاربين بداً من الاستسلام لنفاد ذخيــرتهم وخــرجوا من بين الصخور مستسلمين وحاصرهم الجيش واعتقل المك والأمين شيدا ورؤساء المقاتلين وواجهوا مصيرهم بشجاعة فائقة وتم إعدام المك وبعض القادة من محاربيه وسجن الآخرين وقد قتل من أفراد جيش الحكومة عدداً قليلاً وكانوا جميعهم من الجنود السودانيين .

وما دمت قد تطرقت إلى ذكر المغنية عاشة نيله لابد أن اذكر واقعة مشهورة بينها وبين عمر النسو وكان فارساً شجاعاً له مواقفه وقد وصل في آخر عمره إلى درجــة عمــده فــرأت أن تهجــوه لجفوة اعترت العلاقات بينهما فخرجت للساحة ووضــعت أمامهــا الدلوكه وتجمع حولها كل أهل القرية من شيب وشباب ونساء ورجال وكان هو ممن حضروا وبدأت في هجوه تتهمه بالخوف ولما سمع منها ذلك دخل ووقف أمامها وهو يحمل في يده رمحاً والشباب يرقص والبقية تستمع فوضع يده على رأسها هي من عاداتهم عندما يضع المرء يده على رأس الحكامه يجب أن تكف عن الغناء وتقف ضربات الدفوف كما يقف الرقص لأن لهذا الشخص ما يقوله يجــب الإصــغاء إليه فسكنت كل هذه الحركة وكأن الطير على رؤوسهم فشق هذا الســكون صوت عمر ليقول بعد أن هز قناة رمحه حتى كادت القناة أن تنكسر من شدة قوته أن قولك هذا لا يضيرني ولا يجد ما يصدقه لأن مواقفي مشهودة وأعمالي مــنذ قمت شاباً لا ينكرها أحد وإن كنت تصفينني بالجبن فهذا محض هراء وإدعاء لا يجــد ســنداً ومن بعض مواقفي أحلف عليه (بي حرام مرتي في الزمن الفلاني

وبالقرب من جبل مانجيره وكان معي مانجيره الذي سمي هذا الجبل باسمه من ذلك الحين كنا ومانجيره هذا نركب فرسين بقصد السلب وعلى مقربة من هذا الجبل ظهر أمامنا رجلين من أهل أبوك وقبضت عليه وأسرته ما بين السماء والأرض عندما فروا من أمامنا هاربين فتبع كل منا واحداً أما مانجيره فقد قبض على طريدته أثناء محاولته لصعود الجبل ليعيق سير الفرس فوكزه بمؤخرة الرمح فسقط على الأرض وترجل عن فرسه ليقيد يديه أما صاحبي فعندما شعر بأنه لا يسبق الفرس جرياً فعمد إلى شجرة عالية وتسلقها وترجلت عن فرسي وربطه على شجرة قريبة وأخذت حبلي وتسلقت الشجرة خلفه فاستسلم ومد يديه فربطتها مغلولة إلى عنقه وتركت الأخرى ليستعين بها على النزول من أعلا الشجرة وبعد نزوله ربطته من عنقه بحبل وجئت به عبداً إلى أن دفعوا أهله الفدية فأطلقته من رق العبودية فتحدث الناس كثيراً في أمر هذا الحلف حتى وصلوا إلى أهل الزوجة المحلوف بها وجاءوا ليستفسروا خوف العار الذي يلاحقهم بحجة معاشرته لها كزوجة وهي طالق عنه ولما شرح لهم هذا الموقف من جديد وأقنعهم بأنه لم يقبض عليه على الأرض بل فوق رأس الشجرة وما دام ذلك فهو ما بين السماء والأرض.

العيد بكادوقلى

أظلنا عيد الأضحى المبارك في عام جادت فيه سماؤه بمائها ولم تبخل أرضه وآتت أكلها ضعفين فاعشوشبت الأرض فاتسع الزرع ودر الضرع وأصبحت نعمه تعالي على خلقه ظاهرة فالبسمة لا تفارق الوجوه وأصاب الناس شيء من اليسر فاقتني الكثير منهم مطايا فرساً كان أم حماراً وأصبحت الاستعدادات لملاقاة هذا العيد ظاهرة تستلفت النظر فأشرقت شمس ذلك اليوم وجاء الناس زرافات ووحدانا ليؤدوا صلاة العيد في الميدان المعد لها بالقرب من منطقة السوق وبعد الانتهاء من مراسيم الصلاة وتبادلوا تهاني العيد رجع كل منهم من حيث أتي وانقضت سحابة ذلك اليوم والتجار في محيطهم الضيق فأخذهم الملل فالسوق مقفل الأبواب وساحته خاليه من الرواد وضربات النقارة التي تحملها النسمات الباردة من القرى المجاورة

احتفالاً بهذا العيد حتى الهزيع الأخير من الليل وفي صبيحة اليوم الثاني فإذا بالنسيم يحمل صوت عربة قادمة يختفي تارة وتظهر أخرى حتى دخلت ميدان السوق وتبين لنا أنها تحمل بعض تجار ملكال وموظفيها وكلهم من الشباب حملهم طموحهم لانتهاز فرصة عطلة العيد واستغلالها لزيارة هذه المنطقة فبعد الترحاب الحار وكانت عقارب الساعة قد تجاوزت العاشرة بقليل وكان من بينهم عبد الله محمد على ومحمود حاج المهدى ومحمد محمد صالح من التجار وشبابها الطموحين أما من طبقة الموظفين محي الدين أبو سمرة وبشير علي الشايقي وإدريس على هؤلاء ما وعتهم الذاكرة ولما شعروا بأن حركة إخوانهم في الليري أوحت إليهم أنهم سيقومون بعمل شيء يكرموا بها وفادتهم من ذبائح وخلافها أعلنوا استعجالهم حيث وجهتهم مركز كادوقلي حيث تقام الجمعية العمومية ويؤمها أكثر سكان جبال النوبة من مكوك وعمد وأعيانهم البارزين حيث تقام هذه الجمعيات سنوياً كل عام في مركز ونحن الآن على عجلة من أمرنا ونعدكم زيارة أخرى في أقرب فرصة ممكنة ونحن نرحب بكل من يريد مرافقتنا فكنت أنا وبدوي واحمد حاج عثمان أول من لبوا الدعوة وأخذت العربة طريقها نحو تالودي وما أن دخلنا المدينة حتى التقينا بذلك الرجل الكريم وهو شاب في مقتبل العمر يفيض حيوية ونشاط حسن الأخلاق كريم السجايا وهو محمد احمد المقبول(9) كان أبوه سر تجار تالودي هو وأخوه الحسن كانا من الرجال الأفذاذ في كل أوجه الحياة دارهم قبلة ومنازلهم مفتوحة ليل نهار فلا غرو ولا غرابة أن يكون محمد احمد هذا شبل من تلك الأسود ورث عنهم هذه المكانة المرموقة بين تجار وأعيان تالودي قابلنا وأخذ بأيدينا نحو داره العامرة ومدت الموائد وتوافد علينا كل من سمع وأصبنا من مائدته العامرة فاستأذن الوفد لضيق الوقت ورافقنا منهم الحاج شمه فأخذت العربة تنهب الأرض وتسابق الريح في طريق جميل حتى ألقينا عصا التيسار في موقف كادوقلي بعد صلاة المغرب مباشرة واتفق الجمع على ألا يظهروا أنفسهم للتجار هناك خوفاً من إزعاجهم والليل قد أرخي سدوله بل يقضوا ليلتهم في الموقف العمومي فالتزم كل منا بهذا العهد

وفرشـــنا الأبسطة على الأرض وأخذ كل منا مكانه وكنا أربعة على بساط واحد أنا وبدوي والحاج شمه واحمد حاج عثمان فإذا بشاب معروف لدينا اسمه حسن شايب وهو من سكان المنطقة وكان من أسرة مشهورة بكرمها وشجاعتها فلما لفت نظره هـــذا الجمـــع الكبير وفي يد كل منهم سلاحه الخاص ونوع الفرش الذي يجلسون علـــيها تقدم نحونا وحيانا فرددنا عليه وأخذ يحاورنا من أنتم ومن أين جئتم ونحن كانت إجابتنا مقتضبة وتنكرنا عليه ولا نريد عن الكشف عن شخصياتنا ولا هويتنا تحاشـــياً لإزعاجهم فالح علينا وأصر أن يعرف من نحن فقلت لبدوي هيا بنا نعانقه دفعة واحدة ونناديه باسمه فقمنا نحوه وكل منا أمسك بعنقه وقلنا حسن شايب كيف حالـــك والأهـــل فأخذه الاستغراب وأصبح يتلفت في حيرة ويقول الله الله واخيراً أقنعناه على تركنا الآن ويأتينا في الصباح الباكر ذهب وعاد ومعه عمه مالك شايب وأصـــر علـــى أن نرافقه إلى منزله وبعد أخذ ورد اتفقنا أن يذهبوا معه بعضاً منا حـــيث الذين أثرت عليهم طوال الرحلة فمنهم من أصيب بحمي ومنهم من أصيب بصـــداع وكانوا سبعة فذهبوا. وبعد صلاة الفجر جاء التاجر المعروف أبو حسين وتصادف مجيئه مع مالك سوياً وكل منهم يريد استضافتنا في منزله وأخيراً استقر الـــرأي كحل وسط أن ننقسم الى فرقتين كل فرقة تمشي مع واحد منهم فقبلوا على مضـــض فذبحـــوا الـــذبائح وتقاطـــروا علـيـــنا بقية تجار البلد بغرض التحية وهم مشـــكورون قد قدموا لنا الكثير من المجاملة كضيوف بعد أن تناولنا وجبة الإفطار تجمعـــنا ثانية لنقوم بجولة حول المدينة لمشاهدة معالمها حتى قادتنا أقدامنا إلى دار المـــك محمد رحال فقابلنا بكل ترحاب وبشاشة وقادنا نحو صالونه المعد خصيصاً من الطوب الأحمر مساحته سبعة أمتار في خمسة تقريباً يتوسطه طاولة واحدة على طـــول الصـــالون وحـــولها كراسي الخيزران متراصة وفي الخلف مقاعد جلوس بمـــراتب قطـــن علـــى طول البناية وعرضها إلا مدخل البابين أما محتويات هذه الطاولـــة كـــل ما لذ وطاب من أنواع الحلويات وأنواع الكعك ومن التين والزيتون والـــزبيب كل هذه الطاولة ملئ بحيث لا تجد موضع لصحن آخر هذا الرجل ورث

هذه المكانة عن أبيه ، كريم منتهى الكرم باش الوجه كريم السجايا والخصال يظهر لـــك من عمله حيث يقدم لك كل شيء بيده ويقف على رجليه ليقدم عصير الفواكه بنفســه مــع وجود من يقوم بهذه العملية من بين الأهالي ولكن شعوره الرقيقة أبت عليه ذلك وهو ميسور الحال مما يدل على ذلك سيفه المعلق على الحائط وله مقبض مــن الــذهب الخــالص وله من الأسلحة النارية العدد ملكه الخاص غير الأسلحة التقليدية التي يحملها حرسه الخاص وخفراه لم نمكث معه طويلاً لعلمنا أن وقته لا يســمح لــه بأكثر من ذلك لأن مسئوليته كبيرة وبعد قليل سيحضر السادة الإنجليز ولابــد مــن عمل اللازم فخرجنا منه وكل منا يمدح خصلة من خصال هذا الرجل وأخــذنا نطــوف حــول المدينة ونزور حدائقها الغناء المملوكة للتجار وهي يانعة مخضرة لوفرة المياه الجوفية وعلى أعماق لا تزيد عن الثلاثة أو أربعة أمتار وما آن للــنهار أن ينتصــف حتى بدأت الوفود تتقاطر من كل فج عميق وكل قبيلة من الــنوبة تسير خلف المك وترفع علماً وتتصايح وكانت الاستعدادات قد اكتملت لكل ضــيف طــارق وعلــى اخــتلاف جنسياتهم وذبحت الثيران وقد قابلنا حوض من الأســمنت فــي مســاحة ثلاثة من الأمتار على عمق مترين ملئ بالمريسة وعلى جوانــبه أربعــة مــن الحــراس في يد كل منهم دلو مربوط بحبل ليغرف به على الصــفائح ليحملوها حيث تجلس القبائل تحت ظلال الأشجار ونيران الشواء موقدة وحولها من يشرب ومن اللحمة يأكل والكل يرسل في طلب المزيد من الشراب وقد خصــص لهــذا الحفل ميداناً سعته أربعة كيلومترات في أربعة كيلومترات وخطط بالجيــر الأبــيض علــى أربعــة أقسام ولما حانت الساعة الثانية بعد الظهر جاء الإداريون الإنجليز ومع كل منهم حشمه وخدمه وكبار المكوك ونصبت لهم رواكيب مــن القــش على الجهة الشمالية من الميدان وصفت على أنواع المقاعد للموظفين والــتجار وكل وافد وقد كان عدد العرب الرحل الذين اضطرتهم ظروف المرعي عدداً كبيراً وكلهم على ظهور الجياد ولهم موقعهم الخاص من الميدان ولقبائل النوبة موقعهم الخاص خوفاً من وقوع احتكاكات بين العرب وقبائل النوبة الأخرى انتظم

الحفـل وكـل الناس أخذوا مواقعهم وقف البوليس منهم من هو راجل وهم شاكي السلاح ومنهم من على ظهر جواده يحمل بندقيته بغرض حفظ النظام وغير مسموح لأي شـخص أن يتخطـى الخط الأبيض الذي يقطع الميدان على أربعة سواء كان راجـلاً أم علـى ظهر فرس بل يقف عند الخط ثم يرجع إلى مكانه وكان البرنامج حافلاً ففيه سباق الخيل وسباق المسافات وسباق الحمير بنوعيه النوع الأول تركب ركوبك العادي أي وجهك للأمام أما الآخر فتولي وجهك ذنب الحمار وسباق النساء يحملـن جرار الماء وهي ملئ ومعرض زراعي وحيواني أما حلقات الرقص لكل قبـيلة علـى حـده ولا تسأل عن الثياب الزاهية والحلي من الفضة وأنواع الخرز والنسـاء في أغلي ثيابهن وحليهن وزينتهن ولحلقات المصارعة أهمية خاصة وإن أن أنسـي لا أنسي منظر بطلين في المصارعة وهما يجولان ويصولان في الحلبة وكـل مـنهما يتحين الفرصة للانقضاض على خصمه ويقفان بالقرب من بعضهما وجهـاً لـوجه يمد كل منهما يده نحو الآخر ليقبض عليها والآخر يتربص بخصمه وكانـا بطلان بمعني الكلمة كبار الجسم قويا العضلات يربطون عدداً من الأجراس النحاسية الصغيرة على بطونهم تحدث رنينا أثناء حركته وإذا ما أهتز جسمه وهما يصولان ويجولان في استعراضات رياضية عندما يصل إلى قرب مقاعد الإنجليز يـنفض جسـمه نفضه قوية تهتز معه كل أعضاء جسمه فتحدث الأجراس رنيناً متواصـلاً ثم يلتقي الخصمان وفي مرة سنحت لأحدهما إن أمسك بيد الآخر مسكاً قـوياً فجذب يده بنفس القوة فإذا بالقشرة السوداء من جسمه ينسلخ وتصبح بيضاء ويتسـاقط منها الدم لكنه غير غزير فلم يهتم وبعد جولات ومصادمات حتى حانت الفرصة لاحدهم وأمسك وسط خصمه ولاحه لوح السلمه فبرك على ركبتيه فتركه ووقـف رافعاً يديه إلى أعلى علامة النصر كل ذلك بعيد كل البعد عن العنف الذي تحملـه شاشات التلفزيون من ضرب ورفس وحركات لا تمت إلى الإنسانية بصلة ولا إلى الرياضة فمن بين قوانين المصارعة أو العرف الجاري أن مس أي عضو من أحد المتصارعين وجه الأرض تعتبر مهزوم وهذا هو الغرض الأسمى من هذه

الرياضة لا ضرب ولا عنف وكنت والأخ بدوي نحمل آلة تصوير لكنها من النوع الصغير وكان أحد السادة الإنجليز يحمل آلة تصوير أكبر حجماً مما عندنا كنا ننتهز فرصـــة إعـــداد بعض المشاهد من هذا السيد المطاع كنا نسبقه ونقترب من الحشد ونأخذ الصورة قبله وكنا نقول له مع الاعتذار إن ما لدينا من آلة تصوير لا تصلح ولا تعطـــي مفعولها من المسافات البعيدة بخلاف ما تملك أنت فكان يضحك وكلما أعـــد مشهداً أمرنا بأن نلتقط نحن أولاً وكانت لدينا صوراً كثيرة لهذا المعرض وقد ضـــاعت بســـبب الإهمـــال وعندما غاب قرص الشمس بدأت حلقات الرقص على ضربات النقاره وتعددت الحلقات حيث لكل قبيلة رقصتها الخاصة وضربات النقارة تخـــتلف في ما بينها أما قبائل العرب تكاد تكون ضرباتها متقاربة ويمكن ممارسة الرقص على أي نغمة منها استمرت الحفلات على ضوء القمر الساطع حتى طلوع الفجر وكانت أيام لا تنسي ولا زالت ذكراها عالقة بالأذهان . أنفض هذا الجمع ولم يحـــدث ما يعكر صفو الأمن وكل قد رجع إلى أهله أما نحن كان دورنا لو انتظرنا يوماً آخر أو يومين ولكن ظروف العمل بالنسبة للموظفين اضطرتنا دون تحقق هذه الأمنـــية فعدنا أدراجنا وكانت رحلة لها قيمتها وكل منا لسانه يلهج بالثناء لما لقيناه مـــن تـــرحيب وحسن ضيافة من إخواننا التجار ومن الملك محمد رحال رحمه الله رحمة واسعة .

منظمات تطوعية

ظهـــرت حـــركة بـــين قبائل العرب في منطقتي دارفور وكردفان منظمتان أحـــدهما تســـمي البرامكة الذين هم وزراء الدولة العباسية واشتهروا بالكرم حتى صـــاروا مضـــرب المثل أما الأخرى فهي (الترك) وهي منظمات خيرية تطوعية

يحكمها قانون وتتقيد بدستور غير انه غير مكتوب تناقلت الفكرة من بلد لأخر حتى وصلت منطقة الليري فاقبلوا عليها وانتموا إليها شباب وشيب نساء ورجال لم تشذ عنها قرية واحدة من قري الليري فتجد في القرية فئة تمثل البرامكة والفئة الأخرى الترك ، فللبرامكة رئيس وقاضي وملاحظين وبيت مال تحت إشراف شخص معين وعلى رأس الترك الملك وأعوانه ومستشاريه وعسكره وأميناً للمال وهذه المنظمات ليست وقفاً على الرجال بل تعدتهم حتى شملت طبقة النساء غير أنه لا يجمع بينهم مجلساً واحداً بل لكل جنس اجتماعاته الخاصة وإداراته الخاصة منفصلة انفصالاً تاماً عن منظمة الرجال وأول ما تهدف إليه هذه المنظمات بث روح التعاون فيما بينهم ومساعدة الضعيف ومد يد العون في حالة المأتم وعلى قدر ما تسمح به حالة المنظمة وقدرتها المالية وبقي علينا أن نعرف من أين تمول هذه المنظمات فهي تعتمد اعتماداً كلياً من ناحية التمويل على التبرعات ثم من الغرامات المحصلة من الأعضاء نتيجة مخالفات يرتكبها بعض الأعضاء فمثلاً جاء العضو يرتدي ثيابا غير نظيفة وجاء حاسر الرأس أو أمسك بكوب الشاي ووضعه على الأرض قبل أن يأخذ منه رشفة وعلى الملاحظ مراعاة ذلك وهو يبلغ عنه إلى القاضي أما المنوط بعمل الشاي يجب عليه أن يراعي كمية أوراق الشاي وأن يكون جيد النوع وان طعم الشاي أظهر من طعم السكر وقوانين كثيرة تقيد العضو فهذا عمل إنساني لاشك فوجد تجاوباً كبيراً من طبقة التجار مما شجع الأهالي إلى الانتماء لأحد المنظمتين وكان من واجبنا تشجيعهم على هذا العمل التعاوني لرفعة البلد وتحسين دخل الفرد فكنا نقدم لهم التبرعات ونشاركهم في اجتماعاتهم كلما سنحت الفرصة وكان لطبقة التجار في حالة حضور الجلسات لهم مقاعد خاصة ويشاركون في المداولات والأحاديث وإبداء الرأي غير أنهم مقيدون بمراعاة النظام واحترام الدستور فتقع عليه الغرامة كأي فرد إذا حصلت منه مخالفة ففي حالة انعقاد الجلسة يجلس كل الأعضاء على الابسطة إلا الرئيس والقاضي لهم كراسي خاصة وأمام كل منهما تربيزة صغيرة أما نوع المساعدة التي تقدمها المنظمة للفرد في أيام

الخـــريف تتمثل في تقديم يد العون أيام إزالة الحشائش فلكل عضو له حق أن يتقدم إلـــى الرئيس بأن يخصصوا له ضحي يوم من الأيام فيذهب جميعهم إلى مزرعته وعند منتصف النهار يذهب كل فرد إلى منزله دون أن يكلفوه أكل ولا شرب خلافاً لعادة النفير المعمول في السابق حيث يقدم لهم الأكل والشرب من مريسة أو خلافها هذا مما يفرضه القانون بالنسبة للأهالي فماذا كفل هذا القانون بالنسبة للتاجر فبما أن للـــتجار مزارعهم الخاصة وبمساحات واسعة وقد تكون بعيدة بعض الشيء عن القـــرية واغلبها مزارع قطنية وتحتاج إلى مسيرة ساعة أو ساعات ففي هذه الحالة ينـــتدبوا مـــن بـــين الجمعية لمساعدة التاجر ويدفع لكل منهم حقه كعامل نقداً وقد يســـتمروا معه أكثر من أسبوع كل على حسب حوجته للمال أما إن كان له مزرعة قريبة من القرية فله حق الضحوه كسائر الأعضاء.

وفي مرة كانت منظمة من هاتين المنظمتين غير راضية عن رئيسها وأرادت تنحيه عن كرسي الرئاسة ولكن كيف السبيل إلى ذلك وهو لم يرتكب جرماً يوجب ذلـــك إذن لابـــد من غلطة أو سوء تصرف يقع منه فلجئوا للحيلة والكيد فانتهزوا فرصة الميزة الممنوحة له باستعمال كوب الشاي من الصيني الموضوع على صحن فملـــئوا الكـــوب شايا وغطوه بالصحن وقلبوه فالكوب مملوء من الشاي غير أنه مقلـــوب رأســـا علـــى عقب وقدموه له وبما أن القانون ينص على ألا يضعه على البســـاط أو على الترابيزة إلا إذا أخذ منه رشفة وكيف ذلك والكوب مقلوب واحتار فـــي أمـــره والجماعة تنظر إليه فأمسك بمقبض الكوب ورفعها بسرعة فإذا بالشاي ينصب على ملابسه فضج الجالسون بالضحك فتقدم القاضي واتهمه بسوء التصرف وجهله بمجريات الأمور وأعلن القاضي بأن عمله هذا يعد جريمة وعليه أن يتنحى عـــن كرســـي الرئاســـة فأمن الجالسون وقام المخلوع وجلس على البساط كعضو وعينوا خلفاً له .

هـــذه الجمعيات كانت نواة صالحة لنشر التعاون بين الأفراد والجماعات لولا الظـــروف الأمنية التي وأدت تلك المنظمات وهي لازالت في مهدها لكان لها اليوم

شأن عظيم في رفعة مستوى المنطقة وتحسين دخل الفرد كانت قبل ذلك عادة سائدة بــين الأهالي وتحث الفرد على العمل منها إذا وقعت مشادة بين رجلين وكثيراً ما تحــدث في محلات شرب المريسة أو في غيرها فكل منهما يفتخر على الآخر بأنه أشجع منه حيث حصل منه كذا وكذا ويعدد مواقفه ثم يفتخر عليه في مجال الزراعة أن ما عنده من مخزون من الذرة كذا ومن السمسم وهكذا إلى أن يأتي بكل ما عنده والــناس ســكوت وعندما يأتي دور الخصم الثاني وينتهي من تعداد ما يملك على المجلــس فــي هذه الحالة تعيين لجنة من ثلاثة أو أربعة أشخاص ممن مشهود لهم بالاستقامة أو الحياد التام ليقوموا بجرد المخازن وعند ظهور النتيجة فعلي المقلوب أن يفــي بما وعد بأن يذبح ويولم ويدعو الناس للأكل والشرب هذه الأخرى روح تشــجيعية لا بــأس بها تخلق بين الأفراد روح التنافس والعمل الدؤوب خشية أن ينهزم يوماً من الأيام إذا ما تحداه آخر .

بــدأت هــذه الجمعيات بداية حسنة وإمتدت فروعها خارج قري العرب بين أوســاط النوبة عندما تقدمت ملكة دلاس جمعية نسائية تدعو ملك جمعية الترك في قــرية الغبابــيش أن يكونوا ضيوفاً على الجمعية لمدة ثلاثة أيام فوافق على طلبها وتحــرك الجمــيع نحو دلاس وهي على الطريق الرئيسي بين الليري وتونجة فلما وصــل الوفد إلى مشارف القرية وجدوا الطريق مفروشاً بالسباتات الزاهية الألوان ليمشــي علــيها إلى دار الضيافة المعد خصيصاً للملك وما حوله للحاشية وذبحت الخــراف والثيران ومدت الموائد ومشروب الشاي أما الملك فمائدته من لحم الحمام والــدجاج واستمر ذلك لمدة ثلاثة أيام بعد ذلك بدأت رحلة الرجوع بعد أن شكروا الملكة وشعبها على ما لقوه من حفاوة وكرم .

غابة العرب وكيد المستعمر

بـــين منطقتـــي بحر الغزال وجبال النوبة طريق بري يربط بينهما يبدأ من الليـــري ماراً بكرندي متجهاً نحو الجنوب الغربي حتى الأبْيَض وبعض قري (بيل كـــوي) وهـــو الجزء المتاخم لمنطقة بحر الغزال ويسير حتى يصل لمركز غابة العرب التي كانت مركز تجمع بين العرب والدينكا وبعض قبائل النوير حيث يفدون إلـــيها العـــرب الـــرحل بكل ثرواتهم الحيوانية منذ بداية فصل الشتاء حتى نزول الأمطـــار فـــي أول الخـــريف بغرض المرعي لأنها منطقة وسط من ناحية المناخ والطقـــس بحكم موقعها بين رمال جبال النوبة والأراضي الطينية من بحر الغزال ونســـبة الأمطار فيها في حدود المتوسط وكان العرب الرحل يجدون راحتهم التامة واســـتقرارهم الكامـــل في هذه المنطقة زد على ذلك بيع منتجاتهم من سمن وعسل ومواشي في سوق غابة العرب وكان اختلاطهم بقبائل الدينكا والنوير في هذا السوق لا يســـبب إزعاجـــاً لأحد وكانوا يتعايشون تعايشاً سلمياً بكل ما فيها من معني أو مدلول وكان سوق غابة العرب تصدر الكثير من السمن والجلود والعسل والمواشي بإعدادها الهائلة ومعروفة بجودة الصنف تصدر كل ذلك إلى داخل السودان علاوة علـــى بقـــية المحاصيل الأخرى وقد كان لمنطقة أعالي النيل الكأس المعلي والحظ الوافـــر من كل هذه السلع ولما رأى المستعمر هذا التقارب وهذا التآخي بين الدينكا والنويـــر مـــن جهة والعرب من الجهة الأخرى أزعجه ذلك وبحث عن شيء يوقع الفـــرقة بيـــنهم وأستبعد فكرة العنف لعلمه إذا وقع أي تصادم مسلح ستدور الدائرة على الدينكا والنوير لما للعرب من معدات الحرب من خيول ودروع وأسلحة نارية بما لا قبل لهم بها وسيعرض أموالهم ونساءهم للسبي وكذلك استبعدوا فكرة العنف ولجئوا للحيلة ونقلوا مركز غابة العرب وقسموه إلى مركزين أبيي من ناحية الدينكا وبانتـــيو من ناحية النوير ومسحت غابة العرب من خريطة السودان أما العرب فلم تتوقف مسيرتهم السنوية لكن قل اختلاطهم مع بقية القبائل الأخرى لبعد المسافة إلا في فترات متباعدة حيث يجمعهم أحد السوقين .

في شهري مايو ويونيو من كل عام تعتبر فترة ركود تجاري لاشتغال الأهالي بتنظيف مزارعهم واستصلاح أراضيهم استعداداً للموسم الجديد مع شعورهم بقلة المخزون لديهم من محاصيل بعد أن بيع منها ما بيع أما ما تبقي منها لا يتعدى الضروريات وكذلك يبعدوا حالة التصرف فيها وبسبب ذلك يصيب حركة السوق ببعض الشلل فانتهزت فرصة هذا الكساد وفكرت في رحلة إلى منطقة الفيوض وكثيراً ما كنت أسمع عنها هي عبارة عن مستنقعات متجاورة تقع جنوب شرق الليري وشمال غرب ملكال هذه المنطقة مراعيها غنية ومياهها متوفرة وتسكن غاباتها جميع أنواع الصيد إلا الفيل أو وحيد القرن ويؤمها كل قبائل العرب بمواشيهم وخيولهم ليقضوا فصل الصيف على ضفافها فهي كسفاهة(10) بالنسبة لعرب الرزيقات والمسيرية كما يكثر في غاباتها الزراف والعرب بطبعهم ميالون لتربية الخيل وتدريبها لصيد الزراف من أجل تجفيف لحمه وبيعه في الأسواق ولسبيبه(11) تجارة رابحة تستعمل كزينة بين قبائل الشلك والدينكا والنوير فكل ما كان اقتناء الفتي لكمية منه كان حظه بين الفتيات أكبر فهو منظوم حول عنقه للزينة يتوسطه نوع من الخرز خاص كبير الحجم بيضاوي الشكل أبيض اللون وكل ذلك علامة أنه ميسور الحال فعزمت أن ازور هذه المنطقة على أن أصيب شيئاً من هذا السبيب كان لي صديق من مشايخ الحكومة وآخر من تجار المنطقة ولما علموا بما عزمت عليه أصروا على مرافقتي على أن احمل معي جوالين من السكر وصندوقين من الشاي وبدأت الرحلة وأنا امتطي فرساً وهما على حمارين وكان الطريق ظاهراً ولا يحتاج إلى خبير لأنه يمر على قري مأهولة تخطينا جبل تكيم آخر حدود مركز الليري ودخلنا في منطقة الكواهلة(12) وأول ما طالعنا جبل مرنج بعده جبل ويرنه يسكن حواليهما خليط من النوبة وعرب الكواهلة أقمنا بورنه يوماً واحداً كضيوف عند التاجر المقيم هناك وببزوغ شمس الغد سلكنا طريقاً سهلاً منبسطاً تنبت أنواع مختلفة من الأشجار على أرض رملية ونحن نقترب من أول مستنقع يسمي دحيل السندالي وكلمة دحيل بالتصغير معناها في لهجة قبائل الكواهلة معناها المستنقع أما السندالي نسبة للسندان وهي من آلات الحداد الذي يضع عليها

الحديـــد المحمي ليضرب عليه بالمطرقة فالمطرقة والسندان هما كل ما يحتاج إليه الحـــداد في صنعته وسمي هذا المستنقع باسم أول حداد سكن في هذه المنطقة وبما أن حـــوجة الأهالـــي للحداد كبيرة ليقوم باستصلاح الحراب وسنها والتي يستعملها الصـــياد لطعن الزراف فلا بد من وجوده بينهم غير أن هذا المستنقع لم نجد حوله سكاناً وعندما نحن على وشك أن نجتازه فإذا بأنثي الأسد وحولها ثلاثة أشبال على ظـــل شـــجرة بالقرب من الطريق والأشبال الثلاثة ترضع من ثديها وهم في حالة اطمئـــنان مـــررنا علـــيها ولم نقيم لها وزناً ولم نعرها نظرة كما بدأ لنا منها نفس الشـــعور وكانـــت المسافة بيننا نحواً من خمسين متراً وقد انتصف النهار وشعرنا بالـــتعب والإرهاق فنزلنا تحت ظل شجرة لنأخذ قسطاً من الراحة وكنا نحمل معنا مـــن الزاد وتناولنا وجبة الفطور وأصبنا شيئاً من الشاي حتى أدركنا صلاة الظهر وقبل العصر شددنا الرحال وواصلنا السير فإذا بالأشجار الخضراء تلوح في الأفق البعـــيد ونحـــن نحث الركائب على السير فإذا نحن أمام بحيرة أو شبهها والأشجار الخضراء الكثيفة تحيط بها من كل جانب وبيوت من الشعر والبروش البيض على شـــواطئها هـــذه هي فتاش أكبر المستنقعات ومحل تجمع كل قبائل الكواهلة وبكل ثـــروتهم الحيوانية وكان أحد مرافقي له صلة ومعرفة بأشخاص معينين فسأل عنهم في أول خباء مررنا به فأعطوه وصفاً كاملاً بمكانهم فسرنا على ضوء هذا الوصف وقابلنا رجلاً متوسط القامة وهو في نحو الأربعين من عمره فأنزلنا وأعد لنا منزلاً مـــباركاً وجـــاء بقوم منهم يرحب بنا ومنهم من يسأل عن هويتنا وكانت من بين الـــزوار فـــتاة في العقد الثالث من عمرها ورحبت بنا وجلست على الأرض وهي تنظـــر إلينا مرة وتغض الطرف مرة أخري فقالت لي متسائلة هل كنت تاجراً في ملكـــال قلـــت نعـــم قالت ألم تعرف بعضاً من الذين كانوا يبيعون اللبن من عرب الكـــواهلة أو الحوازمة قلت أعرف منهم الكثير حتى أنت فضحكت وقالت فلم تبدي شـــعور هـــذه المعرفة التي هي عبارة عن زبونة نشتري منها اللبن يومياً ويدخلن الســـوق في شكل جماعات بغرض بيع اللبن بناء على رغبة الحكومة التي صدقت

لهم بالإقامة وبعد عامين فقط استبدلتهم الحكومة بعرب الحمر ولما هممت بالرجوع قالت لصاحب الدار أَبا(13) فلان أنا سآتي لهؤلاء الضيوف عشاء فشكرها وبعد قليل عادت ومعها أخيها تحمل صحناً من النوع الكبير ملئ بلحم الزراف المفروم ومقلي بالسـمن البقـري والأخـرى تحمل جردلاً من اللبن وضعته وانصرفت مكثنا نحو عشرة أيام نتنقل بين المعسكرات حول المستنقع ونسهر معهم الليالي وهم يرقصون على دقات النقارة أو ليالي السمر الجامع بين الشباب من الجنسين وقد كانت رحلة ناجحـة واشـترينا عدداً من السبيب وبدأت الأمطار تهطل وشعروا بأن الناموس والذباب يقلق المواشي في حظائرها ومرعاها فعزموا على الرحيل وفي صباح يوم باكر ضربت الطبول وهب القوم من نومهم وأخذوا في التأهب نحو الرحيل وجيء بالثيـران وشـدت عليها العطف منها ما هو معد لركوب الفتيات ومنها ما للرجال لحمل المتاع وبيوت الشعر أما ما هو خاص بالبنات فهو مزين وله أجراس نحاسية صـغيرة الحجم تعلق على سيور متدلية لترن أصواتها عند السير وفي نحو الثامنة صباحاً ضربت الطبول مرة أخري بالسير فتحركت القوافل وأصوات الأجراس ترن فـي نغمات موسيقية على حسب خطوات الثور وقبل منتصف النهار بقليل ضرب الطـبل وتجاوب معه آخر إيذاناً بالنزول تحت أشجار ظليلة هذا ونحن نشعر بمتعة طغـت على أتعاب السفر فنزلنا ثلاثتنا تحت شجرة ظليلة في طرف القافلة وكانت إحـدى الفتـيات قد سبقتنا مع زوجها في النزول ولما شعرت بوجودنا أشارت إلى زوجها بأن يقدم لنا مفرشا وكأساً ملئ بالماء فلم يستجب لها فحملته بنفسها ووضعته بين أيدينا ورجعت لتأتينا بطعام فنحن نرفض وهي تصر وأخيراً نزلنا إلى إرادتها وقـدمت لنا الشاي بعد الطعام وهنا وقع لي أن أكافئها على مروءتها وقبل الرحيل بقليل جاءت لتأخذ أوانيها فوجدت بينها رأساً من السكر وكمية من الشاي فأصرت علـى عـدم أخذها وحلفت عليها وأخذته تحت إصرار الجماعة وسرنا حتى مغيب الشـمس وقـد شارفنا وتراءت لنا ضوء نيران ويرنا حيث ديارهم فمالت بثورها نحونا وقالت أنتم ضيوفي الليلة فشكرناها واعتذرنا بأن منزلنا مع التاجر ولا يحِق

لنا أن نبدله قالت لا بأس فهو زوج لأختي وسار كل منا نحو منزلته ونزلنا فجاءت المرأة لتقول للتاجر إن هؤلاء هم ضيوفي وفي الصباح سآتي لهم بالفطور ولا تعمل حساب لذلك واعتذرنا بأننا سنقوم بعد طلوع القمر مباشرة لكسب الوقت لكنها أصرت في الصباح أوفت بما وعدت فجاءت المائدة وعليها عدداً من الدجاج المحمرة والمطبوخ ومن لحم الزراف ما يكفي لعشرة أشخاص وأردفت ذلك بالشاي والقهوة بعدها شددنا الرحال وواصلنا سيرنا نحو الليري فكانت رحلة رابحة وممتعة فإن جاز لي أن أبدي ملاحظات عن طبيعة الأرض وطقسها وجب لي أن أقول إن هذه المنطقة بحكم موقعها ونوع تربتها تصلح لإقامة مشاريع آلية يزرع فيها الذرة بأنواعه المختلفة والفول والسمسم وعباد الشمس وأما حول البحيرة تقوم جناين الفاكهة وتروي بطلمبات من ماء هذه البحيرة وهي لا تبعد كثيراً من ملكال ولو شق طريق من ملكال إلى هذه المنطقة بدلاً عن تونجه لوفر كثيراً من الوقت ولمد المدينة بكل ما تحتاج إليه من فاكهة أو خضر أو لبن لنمت تجارة وارتفع دخل الفرد .

حسد الإنجليز وذهب تالودي

الحسد من الخصال المذمومة تؤذي صاحبها كما تؤذي المحسود وقد تبرأت كل الأديان السماوية كما نهت عنها وصاحبها منبوذ بين الناس فلا يعاشره أحد ولا يصادقه وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة التي تنهي عنه وهو رغم ذمه فهو ليس محصوراً بين ملة أو جنس بل موجود بين شعوب كل العالم وهو نتيجة لعوامل كثيرة منها الغيرة وحب الجاه والظهور من المعروف عن الشعب الإنجليزي يملك برودة الأعصاب والسيطرة عليها أكثر مما يملكه غيره من الشعوب الأخرى مما جعله يضرب به الأمثال ولكن رغم ذلك وكسراً لهذه القاعدة تجد من بينهم شواذ وخروجاً على مألوفها كان لمدينة تالودى(14) مفتشاً يسمي بنتلي وكانت عاصمة لمديرية جبال النوبة وكان مديرها نورث كوت تظهر على وجهه علامة الطيبة ويقلب على طبعه التعقل وبعد أن استلم عمله

كمفتش رأي أن يربط منطقة السوق ومباني المديرية الأخرى بشارع يزيد قليلاً عن الأربعة كيلومترات وخطط الشارع ورصفه وردمه بالتراب وغرس على جنبيه شجر التبلدي وأعطاه من العناية مما جعل الشجيرات تنمو وتزدهر واستوت على سوقها وأصبح معلماً بارزاً أطلق الشعب عليه اسم شارع بنتلي دون أن يقول لهم أحد ولما علم المدير بهذه التسمية تملكه الحسد والغيرة وكان يري نفسه أحق بهذه التسمية تخليداً لذكراه فكتب عنه في تقريره السنوي أسوا تقريراً وأوصي بخروجه من السودان فوافق السكرتير الإداري وأمره بمغادرة السودان وكانت مفاجأة بالنسبة له حيث أنه قصد بعمله هذا كسب رضاء مرؤسيه فكان جزاؤه كجزاء سنمار حيث كانت النتيجة عكسية واختار أن يعيش في جنوب أفريقيا أو روديسيا الجنوبية فكانت المفاجأة له ولأصدقائه السودانيين من موظفين وتجار حيث كان ميله شديداً نحو أحمد المقبول وأخيه حسن اللذان كانا من أكبر تجار تالودى ولهم مكانتهم الخاصة في أوساط الإنجليز من جميع الطبقات . فعل المدير فعلته هذه ليمحو أثر اسم بنتلي ظناً منه بفراقه للسودان ستموت هذه الذكري لينعم براحة الضمير ولكن قد حصل العكس فالاسم لازال باقياً وأصبح شارعاً رئيسياً وقد أنشأ بجانبه المحلج وما يتبعه من مكاتب وملحقات أخرى . طالت الأيام ونسي الناس هذه الشخصية إلا من الاسم الذي ارتبط بتاريخ تالودى في تعبيد هذا الشارع فإذا به في يوم من الأيام يزور تالودى بعد غيبة طال عهدها والتي غادرها وهو مكره ودخل السوق يسأل عن أصدقائه القدامى من التجار فوجد أكثرهم قد أختارهم الله لجواره فلم يجد إلا محمد أحمد المقبول الذي تركه وهو لا يزال صبياً بين والديه أحمد وعمه حسن فعرفه بنفسه وكيف كانت صلته معهما ورحب به محمد وسأله عن حاله بعد أن رحل عن السودان وهل رجوعه لملئ وظيفة إدارية في جبال النوبة فنفي ذلك بحرارة وأجاب بأن طلب من حكومة السودان بأن تأذن له بزيارة قصيرة إلى تالودي لمقابلة أصدقائه القدامى من تجار أو مكوك (جمع مك) –وهي وظيفة تطلق على رئيس القبيلة – فأذنت لي لمدة محددة،وبدأ رحلاته لهذه الزيارات وبعد عودته جاء لمحمد

بعــد أن لمس منه من الكرم ما عجز لسانه فأتخذ منه صديقاً وجاء ليفضي له عن سر وقال في أثناء زيارتي المختلفة ومروري على جهات مختلفة من الجبال وتنقلي من وديانها وسفوحها تبين لي أنها غنية بمعدن الذهب الذي لا يحتاج إلي تنقيب ولا إلى تمويل خارجي ولذلك تقدمت بطلب لحكومة السودان لمنحى رخصة أمارس بها عملــية اســتغلال لهــذه الأرض بحــثاً عن معدن الذهب أتوقع إذا ما منحت هذه الرخصـــة تتغيــر الأحوال في مدينة تالودي خاصة والمنطقة عامة وستشهد تقدماً عمــرانياً بحكم مناجم غنية بالذهب هذا المعدن النفيس وها أنا في انتظار الرد ولم تمــض أيام قليلة حتى جاء الرد مخيباً للآمال بأن يبارح السودان في أقرب فرصة ممكنة وجاء ليودع صديقه ويبلغه قرار الحكومة الذي حز في نفسه وما وصلت إليه حكومة السودان للوقوف ضد تقدم السودان الذي سيصبح في القريب العاجل جنوب أفريقيا أخرى من ناحية معادنه المطمورة في باطن الأرض فودع تالودي وهو يلعن الاستعمار الذي هو العدو اللدود في تقدم الشعوب .

وفــي مــرة جمعتنا الظروف مع محمد أحمد المقبول عليه رحمة الله وكان الحــديث يــدور حول ذكريات الماضي وكيف تغيرت الأوضاع ورحل الاستعمار وتســلم الحكومة أبناؤه وأصبحت الفرصة سانحة أمام كل سوداني فكانت الفرصة ســانحة أمامــي كي أسأل الأخ محمد احمد عما حكاه له المستر بنتلي عن الذهب ووجــوده بمنطقة جبال النوبة فهل حدد مكانه أو منطقته بالنسبة للجبال الكثيرة في هذه المنطقة قال إن قرار الطرد جاء مفاجأة لنا نحن الفريقين بغير ما كنا نتوقع في الوقت الذي كنت أتباحث عنه في نوع الخبرة التي أكتسبها مما أدي إليه وجود هذه المعــادن فقــال هــو لــم تكــن لديه الخبرة الكافية ولكن سيستعين بخبراء أجانب متخصصــون ولهم معرفة تامة بوجوده وأبعاده وكمياته وكنت المح ببعض كلمات يســتدل منها على إني سأساهم معه مالياً في كل ما يتطلب الأمر ويبدو على وجهه علامات الرضا وقبوله للمبدأ فقلت لمحمد أما ما كان من نافلة القول أن تعرف شيئاً عن أماكنه ولو بطريق غير مباشر حتى تستغل هذه المعلومات ونتقدم نحن بطلبات

تنقــيب قــال لــم يخطر ببالي بأن الحكومة ردها سيأتي سلبي وأمرها له بمبارحة السودان ولذلك ضاعت الفرصة إلا رحم الله محمد احمد المقبول .

عـــالم الجن

أليس من العبث أن يضع المرء نفسه موضع السخرية ويجعلها عرضة للنقد والتجــريح طــوع إرادته دون ما إكراه ولا ضرورة أو يقف موقفاً وهو يعلم قبل غيره بأنه الخاسر في أول جولة ولكن نزولاً تحت تأثير الرغبة الملحة التي تفرض نفسها وتعتلج في صدر الإنسان لمعرفة الغيبيات التي تملأ الكون المحيط به منها ما يمس حياتنا اليومية بطريق مباشر وغير مباشر وهنا قد يقول القائل مالك وللغيبيات فمــا بلــغ علمــك بالموجودات حتى تطرقت للغيبيات أقول مع شيء من الاعتذار شـــطحة فلم أوقعتني في هذا الحظ العاثر ولا بد هنا أن ادفع عن نفسي هذه التهمة غيــر الكريمة وأقول لا لوم ولا حرج لجاهل يريد أن يتعلم فما دمت طالب معرفة وأجــري وراء حقيقة خافية وربما خفيت على الكثيرين عَليِّ أجد من أولي الفضل مــن ينيــر أمامي الطريق أو يلقي الضوء على هذا الموضوع الشائك والموضوع الــذي أريــد الخوض فيه هو الجن أي نعم الجن الذي قال الله فيه (ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) صدق الله العظيم . من حيث علاقته بالإنسان فمن المعروف والذي أثبتته الكتب السماوية أن الجن مخلوق قبل أدم عليه السلام بدليل قوله تعالي عندما أمر الملائكة بأن تسجد لأدم فأبى إبليس وقد نزلا سوياً إلى الأرض يشاركونا سكنى هذا الكوكب رغم الحجاب المفروض علينا والذي قضته الإرادة كما جاء في الآية الشريفة (يرونكم من حيث لا ترونهم) والجن منهم من آمن برسالة محمد ﷺ ومــنهم مــن كفر ومما يقال أن الفكي الصالح من بني البشر يسخر الله لهم بعض الجن لخدمتهم وقضاء حوائجهم أما طبقة المتشعوذين من بني البشر فيسخر الله لهم الشياطين فيستعينون بهم في قضاء حوائجهم ومن مصادر حرام ومما يقال في هذا المجــال كثير ومتنوع يقال في موقف بين رجل صالح يخاف الله ويقف عند حدوده جمعـــته الظروف بأحد الذين يمارسون الشعوذة ولا يتورعون عن كسب مال سواء

جـــاء عن حرام أو من حلال وكان في بحبوحة من العيش بخلاف الرجل الصالح الـــذي يـــدل ظاهـــره على أنه في حالة ضيق من العيش وفي أثناء جلوسهم رأى المتشعوذ أن يقدم لصاحبه يد المساعدة رأفة به فمسح على الأرض على مرأى من الرجل وخططها في شكل مربعات ووضع بينها أرقاماً ونبش في وسطها فإذا بخاتم من الذهب من بين التراب فقدمه لصاحبه كهدية يستعين به لقضاء حوائجه ورفض الرجل رغم الإلحاح ولما لم يجد الرجل بد بإقناع المتشعوذ أمسك برأسه قائلاً أنظر ماذا ترى قال امرأتين تتشاجران قال فيما ؟ قال تتهم واحدة الأخرى بسرقة خاتمها وأمره برد الخاتم فرده وانتهت الخصومة وقال له أتق الله وأرضي بما قسمه لك الله من رزق حلال ولا تخسر آخرتك بعرض الدنيا الزائل فتاب من وقته .

خرافة هي أم حقيقة

قبل سنوات قليلة تري كثيراً من الناس يسيرون نحو تالودي زرافات ووحداناً منهم من يسافر عن طريق العربات الخاصة ومنهم من يسافر عن طريق المركبات العامـــة طلباً للعلاج لمرضاهم الذين عجز الطب عن علاجهم ومداواتهم وقد ظهر رجـــل(15) أوتي من القدرة على علاج الأمراض المستعصية وقد عمت هذه الشائعة كـــل أنحـــاء السودان وسارت الناس نحوه فمن هو هذا الرجل وما حقيقة أمره أنه رجـــل عـــادى من النوبة يسمي راجا يسكن بالقرب من مدينة تالودي من الناحية الجنوبـــية يمتهن الزراعة ولا تبعد داره عن المدينة إلا بنحو ثلاثة كيلومترات يقال إن هـــذا الرجل من عامة النوبة وليس له ممارسات كجورية ولا صلة له باستعمال العـــروق قـــد ساقه القدر وهو يسير على حافة الجبل فإذا هو يجد نفسه أمام ثعباناً هـــائلاً مقطـــوع على نصفين فهاله الأمر وتملكه الرعب وفكر أن يهرب من هذا المنظر المخيف حرصاً على حياته وشمر عن ساقيه لكن الثعبان الذي به رمق من الحياة ناداه قائلاً لا تخف واسمع ما سأقول إن أنت أتيت بالنصف المنفصل وقربته مني ووضعت مكان الجرح بالقرب من مكان الجرح الآخر ستعود لي الحياة وستجد منـــي كل عون ويكون سبباً لثراء عظيم لك ولأولادك من بعدك فتردد الرجل قليلاً

خوفاً ان يكون قد خدعه وربما لو فعل ذلك وعادت له الحياة ربما عضه وسبب له الأذى ولا زال هــو في تردده خاطبه لمرة الثانية لا تخف ولا تدع الفرصة تفوتك وســأكون بجانــبك وصــديقاً لك فاطمأن قليلاً وجمع شجاعته وأخذ يقرب الجزء المفصــول نحــو الأصل وهو يرتجف خوفاً من الثعبان الذي يتكلم وكيف يلتصق وشــاء القــدر أن يلــتحم الجزءان ويصبح ثعباناً كما كان لا أثر لجرح وعاد سليم الجسم وتنفس الرجل الصعداء وسكن جأشه قليلاً وظل ينتظر الوفاء بالعهد وما هي نوع هذه المساعدة التي ستكون سبباً في ثراء عظيم فخاطبه قائلاً أنا في إمكاني أن أعطــيك مالاً ولكن أخشى أن يزول ولو بعد حين أما أن أعطيك شيء من الحكمة لــتعالج بهــا المرضي وسأكون بجانبك وأتعاون معك وهذا مورداً لا ينضب معينه فــأي الخيارين أحب إليك فاختار الحكمة وهو خيار موفق لأن المال لأبد أن يزول عاجلاً أم آجلاً هذه هي حقيقة هذا الرجل كما تناقلتها الأفواه ولاكتها الألسن ولا علم لنا إن كانت خرافة أم حقيقة ففي كلا الحالتين تجد كثيراً ممن ذهبوا للعلاج رجعوا كما ذهبوا ومنهم من يدعي أنه شفي من آلامه التي كان يعانيها ومنهم من يقول أن صحته تزداد تحسناً كل يوم .

ونحــن لو وقفنا أمام هذه الظاهرة وقفة فاحصة وعما تروجه الإشاعات في مثل هذه الأعمال التي تعتبر خارقة للطبيعة كما حصل لهذا الرجل مع الثعبان تجعل الإنسان في حيرة فهل هذا الثعبان من الجن وهل في مقدور الجن التحكم في إعادة الحياة لجزء منه انفصل عنه وانقطع النخاع الشوكي وانكسرت السلسة الفقرية وإن كــان يملك مثل هذه الخواص فلم عجز عن القيام بعملية التقاء الجزئيين دون طلب الإعانة من قوة خارجية ولو قيل إن هذا الرجل رأي ذلك رؤية مناميه لكان الحديث مقبولاً عقلياً ويدخل في باب رزق ساقه الله إليه لينقله من حالة العسر إلى اليسر أما أن يقــال بمثل ما قيلت عثر عليه وفي وضح النهار ودار بينهما الحوار مما يغلب الظن إنها رواية وتمثيلية من نسيج الخيال وذريعة اتخذها لجلب الناس إليه وإيهامهم بأنــه يعمل بوحي خارجي مأموراً وإن الفكرة من نسيج الخيال أو ما شاكله يكون

هذا الرجل من العبقرية والنباهة لدرجة يعجز عن وصفها العقل .

صنع البارود

عندما دخل الجيش التركي فاتحاً للسودان كان يحمل أسلحة نارية في أشكال مختلفة رغم أنها تعتبر بدائية بالنسبة للتطور الذي حدث فيما بعد لكنها كانت كافية لإدخـــال الـــرعب في شعب أعزل يحمل السيف والحربة وتفتك به فتورده موارد المـــوت ، والحـــرب بطبيعـــتها يـــوماً لك ويوماً عليك فوقع الكثير منها في أيدي السودانيين بعد المعارك الضارية التي استطاع الشعب السوداني أن ينتصر فيها وهم يســـتعملونها فـــي حـــربهم القبيلة وما لبث إلا وقد نفذت ذخيرتها وسقط في أيديهم وأصبحت البندقية بمثابة عصا للتهديد وحمل العكاز أحسن منها حالاً وبما أن القول بأن الحاجة أم الاختراع وأخذوا يتلمسون ويجربون بعد أن استعانوا بخبراء أجانب من الأتراك حتى توصلوا إلى تصنيع البارود محلياً ومن مواد محلية وبطريقة سهلة لا تحتاج إلى كبير عناء ولا تكاليف مادية وأول خام لهذه الصناعة يأتي من حظيرة الغـــنم ومن تراب أرضها التي تكون قد أصابه البلل بسبب تبول الغنم تحفر أرض هذه الحظيرة على عمق خمسة سنتيمتر تقريباً ويوضع هذا التراب داخل جرار من الفخار المحروق ثم يصب عليه الماء ويحرك بعصي خشبية وبعد التمازج ورسوب التـــراب علـــى القاع يصفي هذا الماء ويوضع على جرة أخرى ويوقد تحتها النار ســـاخنة وهـــي تقلي لمدة أكثر من ساعتين تجد أن الماء قد تبخر أكثره وقد خلف رواســـب على شكل الشب المعروف قد تولد نتيجة الأملاح الكامنة في بول البهائم ترفع الجرار عن النار حتى يبرد ويصفي الماء وتبقي الرواسب التي هي على هيئة الشب وتنشر على الشمس حتى تجف ويؤتي بمادة أخرى هي الكبريت الأصفر وهو فـــي شـــكل حجارة صفراء تستورد من مصرِ وكان في تلك الأيام في متناول اليد ويسحن سحناً دقيقاً ويجيئوا بكمية من الفحم العادي ويسحقونها سحقاً ناعماً ثم تخلط الثلاثة أنواع بكميات مناسبة إلى هنا يكون قد توصلت إلى مادة البارود بحق ولكن هناك عقبات أخرى فمن أين يجدوا الظرف النحاسي فهم يحتفظون بالفارغ ليعيدوا

تعبئته مرة أخرى وبعد أن يخرجوا قطعة النحاس التي تحت الطرف الفارغ وعلى شكل دائري ويسوونها ويحشوا مكانها بكبريت خاص سريع الالتهاب ويعيدوا قطعة النحاس المنزوعة إلى مكانها ثم يحشى الظروف من هذا البارود ويوضع في رأسه قطعـــة مـــن خشب الأبنوس بعد أن تسوى ليسد مكانة الرصاصة إن لم تتيسر مادة الرصاص ففي الأبنوس ما يؤدى وظيفة القصدير أو الرصاص .

ومن الأسلحة التي كانت تستعمل آنذاك نوع يسمي الشكشكو عبارة عن بندقية مقفــولة من تحت ولها فوهتها من فوق لا وجود لمكان ظرف يؤتي به من الخارج فهي تحشى بالبارود من أعلاها ثم تغطي بخرقة من قماش وتضغط عليها بواسطة سيخ من الحديد لئلا ينساب البارود ويتسرب ثم يوضع من الكبريت سريع الالتهاب في مكان خاص من البندقية وعند اللزوم توضع قطع الحديد أو الرصاص بين فوهة البندقية وتوضع قطعة من القماش لنفس الغرض وتكون بذلك جاهزة للاستعمال .

ومن مخلفات تلك العصور ما يسمي أبو جقرة بنوعيه القصير والطويل ونوع ثالــث يســمي المــرمطون هذه الأنواع الثلاثة موجودة ومستعملة حتى جاء الحكم الثنائي وللآن.

الخـــيل

عـــندما دخلــت القبائل العربية وبدأت هجرتهم نحو السودان سواء كان عن طـــريق مصـــر أو عن طريق الدول العربية التي تقع على حوض البحر الأبيض المتوسط من الناحية الغربية للسودان وكانت هجرتهم عن أوطانهم طلباً للمرعي بعد مـــا أصـــاب الجزيـــرة العربية من جفاف وضيق في المعيشة وعدم الأمن بسبب الحـــروب وضـــعف الحكـــومات ولا شك أن السودان كان في ذلك العهد أكثر أمناً وسلاماً وأرغد عيشاً وكان قبلة فيمموا شطره وهم يسوقون أنعامهم متنقلين من بلد إلـــى بلد ولما كانت الرحلة طويلة وشاقة وتكتنفها المخاطر من قطاع طرق أو من ناحـــية الحـــيوانات المفترسة التي تعترض سبيل القوافل فلا يمكن الدفاع عنها إلا بوجـــود الخـــيل فالعربـــي يرى أن الحصان من مستلزمات حياته البدوية ويعتني

بتربيتها وإعدادها للطوارئ وقد يبيت ليلته على الطوى ليأكل حصانه فتربية الخيل وتحسين نسلها هو جزء من حياته وقد قيل إن هناك أحاديث كثيرة تحث على اقتنائها منها ما جاء في هذا المعني ركوبها عز وبطونها كنز وقيل أن رسولنا الكريم قال فيها (الخير معقود بنواص الخيل) وبعد أن طاب لهؤلاء العرب المقام واستقروا في نواحي السودان المختلفة استهوتهم الغابات المليئة بالحيوانات كالأفيال والزراف وغيرها فبدأت تراودهم فكرة تربية الخيول والعناية بها وتوظيفها لصيد الزراف وبعد التجارب العديدة اهتدوا إلى فكرة ترويض الخيل وهجره أي منعه من أكل العشب بعد أن يكون قد أكتنز لحمه يعد له مربطاً خاصاً لا يقدم له إلا الذرة وملح النطرون وفروع شجر الخشخاش وهو شجر مر المذاق يأكل من فروعه ولحاه وبهذه الطريقة ينقص وزنه تدريجياً وما أن يحين موعد الخروج به لمطاردة الصيد يقوموا بعمل ترويضه صباحاً ومساءاً بأن يجري مسافات قصيرة تزداد قليلاً كل يوم إلى أن يصل إلى عدة كيلومترات فعندما يجتاز هذه المرحلة يكون قد اكتسب قوة الاحتمال المطلوبة دون أن يفتر أو يتعب وغالباً ما يقيسوا قوة الاحتمال هذه بنسبة احتمال الزراف الذي من طبعه الجري إلى مسافات طويلة . صيد الزراف من أجل لحمه وهو من أجود أنواع اللحوم قاطبة وهو عمدتهم في حياتهم اليومية بعد أن يقدد ويجفف على حرارة الشمس أو على نار هادئة وبعد إعداد الحصان إعداداً كاملاً يجب إعداد الفارس ولابد من مؤهلات خاصة بأن يكون خفيف الوزن قوى الساعدين يجيد ركوب الخيل وفي مهارة ويستطيع الحركة أثناء عدو الحصان وأن يكون يقظاً ليتفادى المعوقات وهم يخرجون إلى الصيد في جماعات وبعد دخولهم الغابة ومواجهة الصيد يعين كل منهم طريدته ويطلق عنان فرسه وهو ممسكاً بحربه ذات قناة طويلة يطعنها بين وركيها كلما سنحت له الفرصة حتى تعجز عن الجري ويسقط على الأرض وليس للزراف قروناً يدافع بها عن نفسه فيميل إلى الحيلة والمكر فيقصد الأراضي الوعرة ذات الشقوق الكثيرة ليعوق سيرها لأن خف الزراف أكبر من حافر الحصان مما يضطره أمام هذه

الطبـيعة من تخفيف سرعته ويجد الصيد فرصته للابتعاد من العدو المطارد ومنها المـرور بين شجرتين متقاربتين فيمر بينهما بقوة جسمه فتنفتح المسافة بينهما فلما يخـرج تعـود إلـى مكانها الطبيعي فإذا ما صادف وجود الحصان بالقرب منهما أصـطدم بهـا لاشـك فيلحق الأذى أما الحصان أو الفارس وتفادي هذه المخاطر متـروك ليقظة الفارس وملاحظة ذلك ليعطي كل موقف وزنه الخاص وتجده دائماً أي الـزراف إذا وجـد نفسه على أرض ذات شقوق أحنى رقابه لينظر موقع ظلفه وبـذلك يعـرف الفارس أنه أمام أرض ذات شقوق فيقلل من سرعة الحصان حتى ترفع هي رؤوسها .

تتقارب قيمة الخيل وتتفاضل بعضها على بعض مراعاة لتكوينها الطبيعي فإن كانـت تحمل قدراً من صفات التفاؤل فهي ذات قيمة عالية أما إن حصلت قدراً من علامات التشاؤم فهي غير مرغوب فيها مهما بلغت من جمال الصورة أو اللون أو سرعة العدو فمن الصفات المحببة عند المشتري أن يكون مخمس أي أربعة حجول فـي رجليه وغرة في جبهته وأن يكون أسود أو أشقر حريري أي لامع الشعر ولا بـأس مـن أن تقتصر الغرة على الجبهة أو تتدلى إلى شفتيه وأن كان الحصان ذا أربعة حجول بدون غرة فهو أقل قيمة من الأول وإن كان له غرة وثلاثة حجول في رجليه إلا اليمني فهو مرغوب فيه يسمونه مطلوق يمين أما إن كان طبيعة الحصان لا حجـول له ولا غرة فيه فهذا يسمي بطيخة مقفولة وأنت وحظك قد تجلب الخير الكثير وقد يحصل العكس أما أن كانت فرسه أنثي ولها أربعة حجول وغرة صغيرة فهـي تدخل مع نوع التفاؤل وإن كانت ثلاثة ورجلها اليسرى خالية من الحجل هي في قمة التفاؤل يقولوا عنها مطلوقة يساره والغرة ديناره تعني أولاد الأم كان سبعة قفاري أما ما يرونه بجلب النحس لصاحبه إذا كان له غره سابلة تميل إلى أحد أنفيه يقولـوا عنه صاحبه دائم البكاء وأنفه تسيل ماؤها وان كان له حجلين أماميين هذا وحلان (أي في الطين) لا يستطيع صاحبه من الفرار أو النجاة أما أن كان حجليه خلفيتين فهو سكاكات هذا غير مرغوب فيه أما ما كان حجله واحد في يمينه فهذا لا

محال يقتل صاحبه أما أن كان حجلين واحد أمامي وواحد خلفي فهذا مشكل أو مقيد وأشكالها كثيرة ومتعددة لا يمكن حصرها في حيز ضيق مثل هذا أما اللون العسلي والبيدي من الألوان المحببة أما الابط أو ما به أكثر من لون غير مرغوب فيه أما الحصان البيدي أي ذا لون حمامي(16) بالنسبة للحمير يعتقد بعضهم أنه من الجن فلا يطلقون العنان عند أو بعد غروب الشمس لاعتقادهم انه يطير بصاحبه ويقال عنه أمثال أشبه بالخرافة حيث انه طار بصاحبه ولم يعد ولم يعثر على جثته ولذلك أمسكنا عن إيراد مثل هذه الأشياء التي ليس لها ما يساندها من أدلة أو براهين .

والعربي بطبعة ميال إلى التفاخر بما يملك سواء كان من الخيول أو مواشي فإذا ما سمع حصانه وهو يصهل تجده ينادي (مورت صابون الفقر) وكلمة مورت معناها المورث من الجد أو الأب وصابون الفقر معناه أنه يزيل الفقر والعدم ما دام هو عنده .

وللخيل طرق عديدة في تأديبها وعلى حسب اختبار صاحبها فالعرب الكثير منهم يفضلون الخيول الهادئة الطبع سلسة المران لان طريقة ركوبها عندهم هي الاعتماد على الرمح بعد أن يضع قدمه على الركاب أما البعض الآخر بما في ذلك طبقة التجار لا يعجبهم هذا النوع من الأدب فيميلون إلى النوع الآخر وهو كثير الحركة عند الركوب يشعرك بحيويته ونشاطه ولهذا النوع مروضون معروفون فعندما أمسكت بعنانه وضعت قدمك على الركاب انطلق جارياً وأنت لا زلت معتمداً على قدمك هذا ولم تصل إلى السرج وإذا ما وقفت عنه أو انزلقت قدمك من الركاب وقد شعر بذلك يقف بجانبك وهذا النوع من الأدب محبب بين طبقات الشباب لأنه رمز للقوة والحيوية مما يثير إعجاب الفتيات زد على ذلك المهارة في الركوب ، وبهذه المناسبة تحضرني حكاية عندما كنا في منطقة الليري وكانت قبلة لبعض قبائل العرب الرحل في فصل الصيف طلباً للمرعي وكنا نعشق الخيول الجميلة فإذا ما وجد أحد التجار حصاناً أو فرسه أنثى وراقت له في نظره يغري صاحبها بالمال حتى يبيعها وفي هذه المرة وقع الاختيار على فلو حديث الأدب فأخذ

يســاوم صاحبه حتى اتفقا وقبل الثمن ورجع إلى أهله أما التاجر المشتري فأرسله إلــى المروض ليغير من طبعه وأدبه القديم وبعد أسبوع جاء البائع نادماً وقد وجد كثيراً من اللوم من أهله وعشيرته وهو ما جاء إلا طالب فضل وليس له حق فتدخل العقلاء من التجار وأشاروا على التاجر المشتري بأن يرد له حصانه فقبل متجاوزاً كــل ما أنفقه عليه في الأدب الجديد فرح الرجل وأمسك بمقوده وهم بالركوب على طــريقته الأولــى معــتمداً على قناة الرمح فما أن فارقت قدمه الأرض حتى شب الحصـــان جارياً فسقط الرجل على ظهره وطارت رمحه وضج كل السوق بما فيه من رواد ووقف الحصان معاود فعلته فسقط على الأرض فساءه هذا الموقف حيث أصــبح مكــان للسخرية والمهانة واحتار في أمره ماذا يفعل وأخيراً رد الحصان لصاحبه وهو يقول (خربت الخيل يا جلابه) .

داء الكلب (السعر)

داء الكلــب مــن الأمراض الخطيرة التي تصيب الإنسان والحيوان والكلاب أكثــر الحيوانات التي تتعرض للإصابة بهذا المرض وتنتقل العدوى بطريقة العض أو اللعــاب فمــن طــبع الكلاب أن تعض بعضها بمجرد لقائها بسبب ذلك ينتشر المرض ويمكن علاجه في أطواره الأولى يحقن المصاب في بطنه حول سرته بإبر غلــيظة مؤلمة أثبتت التجارب فعاليته أما في أطواره الأخيرة فلا يجدي معه علاج ولمــا كان المصل المستحضر يحتاج لحفظه في درجة خاصة من الرطوبة يحتاج إلــى ثلاجــات لان حــرارة الطقس تفسده والثلاجات ليست في متناول كل إنسان خصوصاً بين العرب الرحل تكثر الإصابات بين حيواناتهم بسبب تربية الكلاب جنباً إلــى جنب مع الحيوانات مما تفرضه طبيعة الأرض فهم يكثرون من تربية الكلاب بغرض الحراسة من اللصوص وسارقي المواشي وحراسة المواشي من الحيوانات المفترســة كالأســد والنمر والذئب وبحكم اختلاط النوعين الكلاب والمواشي وفي موقــع واحد خصوصاً بين قبائل العرب في منطقتي دارفور وكردفان فيقع التالف بيــنها وبمجرد إصابة الكلب بالمرض يبدأ في عض كل من حوله من كلب أو بقرة

أو حمـــار فينتشـــر المـــرض وفي ذلك ما يهدد بإبادة الثروة الحيوانية ولكن عندما قابلتهم صعوبة حفظ المصل إلا داخل ثلاجات صرفوا النظر عنها وتوصلوا بطريقة أو أخرى للبديل وهو علاج ثبتت فعاليته في الطائر المسمي (أبو ندلك) وهو طائر معروف سبق وصفه في غير هذا المكان وبطريقة سهلة بان يؤتي بهذا الطائر بعد ذبحه وإزالة ريشه ويوضع علي قدر ويضاف إليه كمية من الماء ثم يوقد تحته النار لمـــدة طويلة حتى يذوب اللحم ويمتزج بالماء حتى يصير في شكل شوربة ويؤخذ جـــرعة مـــن هذا المستحضر ويضاف إليه من الماء علي قدر ما يكفي الحيوان ثم يشـــرب الحيوان هذا الماء وهو يصلح في الحالتين كعلاج وكوقاية يكسب الحيوان مـــناعة لمقاومـــة المكـــروب وهنا لابد من وقفة تأمل في خاصية هذا الطائر الذي يســـرح ويمرح أمامنا ولا نري له قيمة ولا نعطيه وزناً غير نظرة المسافر إليه إذا اعترض طريقه مما يشعره بالتشاؤم والطيرة(17) وهو يحمل بين طيات لحمه دواء نافعاً للإنسان والحيوان.

وأنا إذ أذكر كل ذلك لا أدعي بأني جئت بشيء جديد بل أعلم تمام العلم بأن الكثيـــر مـــن العلماء والمتخصصين في علم الحيوان في منطقتي دارفور وكردفان ضـــمنوا ذلـــك فـــي تقاريـــرهم السنوية وأيدوا ملاحظات في غاية الدقة والأهمية ورفعوها إلى الحكومة أو قد تخطاها إلى المحافل الدولية والذي أري من واجبي أن أدلـــي بدلـــوي معهـــم حيث لا ضرر ولا ضرار إذا رأى غير أنه تكراراً لا طائل وراءه ولكنـــي غيـــر ذلك بل يضفي على الموضوع أهمية خاصة تلفت النظر لهذا الطائـــر وما يحويه من علاج باستعماله بهذه الطريقة البدائية التي فرضتها الحاجة تحت نظر الحكومة وسمعها فهل حركت ساكناً وهل فكر مجلس الأبحاث الطبية في طـــريقة الاستفادة من هذا الطائر وما هي العقبات التي اعترضت طريق تنفيذه إذا ثبت لها بالتحليل المعملي أنه حقيقة ما قيل فيه .

وقـــد شـــاهدت حالتين أحدهما بالليري وقد أصيبت امرأة بهذا المرض وهي نوباوية من لفوفا جيء بها وهي مقيدة اليدين وفي حالة تدر الشفقة والعطف وتحز

فـــي الـــنفس مما وصلت إليها حالتها من البؤس حيث كانت تمزق جسمها بأسنانها وتقلم أصابع يديها والدم يتساقط من أعضائها ومن فمها وهي تصيح وتهزئ بكلمات (يا أخواني أدوني زول آكله) ومرة تقول (لحم الناس حلو) والمصاب بهذا المرض ينفـــر من الماء ولا يريد النظر فيه و لا يشرب منه وكانت المريضة حبيسة غرفة نحـــو ثلاثـــة أيام لم ينقطع صياحها ولم تذق للنوم طعماً بعدها فارقت الحياة بسبب تمكـــن الـــداء منها وكثرت ما نزفت من دم . أما الحادث الثاني فقد كان المصاب حمـــاراً بـــدأت عليه الأعراض وبنفس الأفعال حيث بدأ يأكل ذنبه بادئ الأمر ولما انتهي منه بدأ بأرجله فأنكشف أمره وأطلق عليه النار وأحرقت الجثة وكل آثار الدم خوفاً من أن تأكله هرة أو كلباً .

الرمـــل(18)

الرمل معروف لدى كل إنسان في البلاد العربية في باديتها وحضرها أشتق لـــه هـــذا الاسم من المكان الذي يخطط فيه وهي الأرض الرملية لسهولة ظهور النقاط التي هي أساس الرمل والرمل هذا مجهول المصدر والمؤلف فالتاريخ لم يشر إلـــى مألفه ولا جنسه ولا المكان الذي جاء منه حتى أمهات الكتب القديمة لم تذكر شـــيئاً من ذلك مع أن التاريخ سجل اسم صصه بن داهر هندي الأصل بأنه مخترع الشـــطرنج وأشـــار إلى مخترع النرد وهو اردشير بن بايك أحد ملوك الفرس كما أورده الصـــولي فـــي كتابه أدب الكتاب ولم يذكر شيئاً عن الرمل بينما الرمل بين الرســـوم والأشكال في كتاب شمس المعارف الكبرى ومشروح شرحاً وافياً ليقربه مـــن ذهن القارئ لكنه لم يتعرض إلى اسم المخترع ولكن إذا نظرنا إلى التسميات التـــي أطلقـــت على أصول الرمل هي عربية وتدل على أن مخترعه عربياً وكانوا شـــديدي الـــتعلق بـــه لمعرفة الغيب المجهول في كل ما يتعلق بحياتهم اليومية في جاهليـــتهم وبعـــد إسلامهم شأنهم في ذلك شأن المصريين في قراءة الكف والفنجان وهـــم يعطـــونه أهمية خاصة لمعرفة المستقبل وكان وقفاً على الكهنة والسحرة منذ أقدم عصور التاريخ قبل أن يصبح علماً يدرس ويتخذ منه مهنة لكسب العيش .

أما الرمل بالنسبة للعرب كان أكثر أهمية بما له من صلة بسفرهم وحضرهم وصـــيدهم وبمـــا يخشى من أن يصاب بمكروه اتخذوا منه وسيلة لمعرفة ما يكنه الغـــيب في طياته وكخيرة يؤمن بها إيماناً كاملاً ولما جاء الإسلام نهى عنه ونهى عـــن تصديق المنجمين ولكن رغم هذا النهي لازالوا يمارسونه كخيرة في سفرهم وفي خروجهم للصيد وكان لابد من استشارة الرمالي ليري إن كانت الرحلة سليمة أو يعـــوقها عائـــق فإن أشار عليه بالعدول فهو مستجيب لا محالة وإن أشار عليه بالمضـــي قـــدماً . وانتقل الرمل من موطنه الأصلي هي جزيرة العرب انتقل إلى الســـودان مـــع العرب فانتشر في جميع أنحائه حتى أخذت عنهم الأجناس الأخرى كالنوبة وغيرهم إلا القبائل النيلية كمديرية أعالي النيل وبحر الغزال والاستوائية فلا وجود للرمل بين السكان الأصليين ولهم طريقتهم الخاصة في هذا المضمار كالودع الـــذي تمارســـه العجائز من النساء فعرب البقارة بحكم ظروفهم وخروجهم للرعي بمواشيهم وكثرت الحيوانات المفترسة زاد تعلقهم بهذه الاستخارة فكانت السبب في نشـــرها وتعلق كل إنسان لتعلمها فمن علاماتها ما يوحي بالتشاؤم ومنها ما يوحي بالـــتفاؤل الحســـن فمنه ما يشير إلى قمة التفاؤل الحسن أن تكون الخاتمة (جودله) فصـــاحبها يكاد يعتقد أن ما هو مقدم عليه في حكم المضمون إما قمة التشاؤم الذي يـــرى صاحبه الإقلاع وعدم التقدم إذا وقعت النتيجة (حمره) وهي لون الدم ولكل خاتمة تأويلها شراً كان أم خيراً وهذا التفسير والتأويل يكون على قدر المران الذي أكتســـبه الرمالي من طول الممارسة وهنا لأبد من ذكر مثل لما وصلت إليه درجة الإتقـــان حتـــى صار صفة تدرس وفناً يتبارى فيه كل من نال خبرة ففي قرية من قـــري الليري جاء شاب عند الأصيل ومر على أرض رملية نظيفة ناعمة الملمس وعلـــى طرف القرية طاب له الجلوس ووجد في الرمل ما يغري بعمل الرمل قطعاً للوقت وعلى سبيل التسلية ولكن لابد من نية ينويها وكان له علاقة غير شريفة مع امرأة متزوجة وبدأ عملية الرمل ليري إن كان زوجها موجوداً في داره وبوصوله إلـــى الـــنهاية تبين له إن الزوج غائباً والمرأة وحيدة في دارها فلعب الشيطان في

رأسه واستعجله لملاقاة الحبيبة وقد أنساه أن يمحو آثار الرمل المخطط وأخذ عصاه وذهب مسرعاً وبعد قليل جاء زوج المرأة ماراً على تلك البقعة فلفت نظره عملية الرمل هذه وكان بارعاً أيضاً في علم الرمل فتتبع عملية النقل ووجدها صحيحة وجاءت الخاتمة فأوحت له نفس الإيحاء وتأكد من الغرض الذي عمل من أجله ومثل هذا الوقت والشمس قد أدركها المغيب لا يوجد من يكون بعيداً عن داره إلا أنا ربما يكون المقصود فذهب مسرعاً نحو بيته فوجد الرجل والمرأة وهما في خلوة مشبوهة فقبض عليه وقدمه للقضاء والأمثلة كثيرة ولا بأس من ذكر حادث آخر.

في يوم من الأيام حصل عطل في خط التلفون ما بين الليري وتونجه في وقت الخريف وكثيراً ما يحصل ذلك العطل بسبب الاحتكاك من الزراف على أعمدة التلفون عندما تشعر بقرصة الذبابة وهو نوع خاص كبير الجسم لها قرصة حادة تقلق الحيوانات ومن شدة ضغط الاحتكاك على العمود ينكسر العمود وتسقط الأسلاك على الأرض فتسبب العطل وقد احتاطت مصلحة البريد والبرق بتعيين شخصين لكل منهما حماراً يحمل عليه متاعه وأدوات المصلحة الأخرى وزودتهم ببندقية للطوارئ وكانت الأعشاب طويلة تغطي وجه الأرض وفي أثناء سيرهم جاءهم الظلام وأخذوا مضاجعهم وكان بينهما سوء تفاهم وكان المبيت بالقرب من الشارع الرئيسي وطريق المارة ما بين الليري وتونجه وهو مطروق على الدوام لا يخلو من مسافر فأنتهز أحدهم هذه الفرصة ليوقع صاحبه في جريمة وهو الرئيس المسئول وأثناء نومه أخذ صاحبه البندقية وخبأها في مكان أمين وكانت الأرض صخرية لا يظهر عليها أثر القدم ففي الصباح لم يجد سلاحه فسأل صاحبه وقال ربما مر بهم مسافر وهم في نومهم فأخذها فاحتار في أمره وقد قام بتفتيش المنطقة فلم يجد شيئاً ولم يستطع الاستمرار في الرحلة وأمر صاحبه بالرجوع وكانت أول قرية تصادفهم في طريق العودة هي قرية دلاس وبها رجل يجيد معرفة الرمل فذهبا إليه وقصا عليه القصة فقام بعملية الرمل تكررت عملية الرمل مرة مرتين ثلاثة دون أن يقول شيئاً وسأله الرجل عن كثرة المحو وهو لا يقول شيئاً قال أن

عملية الرمل تأتي بحالة غريبة لم أجد لها تفسيراً مما زاد في حيرتي فالبندقية موجودة لم يتصرف فيها إنسان وليست في يد إنسان ولا علي ظهر دابة لكنها في موضع غريب وشاذ لا هي في الأرض ولا معلقة في الشجر فرجاه بأن يعيد الكره فكانت النتيجة كسابقتها وأخيراً بعد إلحاح ورجاء وافق على الذهاب إلى مكان الحادث ووصلوا المكان وناموا في نفس المكان وفي الصباح بدأت عملية الرمل بعد أن حملوا معهم كمية من الرمل لأن المكان أرض صلبه وقام وأخذ اتجاه خاص ثم جلس وبسط الرمل ثم قام وانحرف قليلاً عن اتجاهه إلى أن وصل إلى نقطة قال فيها للرجل إن البندقية في هذه المنطقة فلا وجود لها في الأرض ولا على فروع الأشجار فكل منا يبحث بطريقته ولم تمض ساعة حتى وجد شجرة مجوفة الوسط كأنها كانت بها خلية نحل ثم انتزعت فادخل يده في جوفها فاصطدمت يده بجسم فإذا هي البندقية .

التميمة والحجاب

التميمة خيط معقد يتدلى من عنق الإنسان هي من عمل الكهنة والسحرة في عصور ما قبل التاريخ لعلاج المرضي وطرد الأرواح الشريرة عن الإنسان يمارسون أعمالهم هذه بغرض الكسب المادي ولغرض سيطرته وتقوية مكانته الاجتماعية وقد قويت شوكتهم خصوصاً في مصر وعلى عهد الفراعنة وكان عندما يشكو المريض من علة أصابته لجأ الى الكاهن أو الساحر فيأتي بالخيط وينفث فيه ويعقده ثم يربط في مكان الألم وقد بين ذلك في القرآن الكريم في صورة الفلق أما الحجاب بصورته المعروفة حالياً لم يكن له وجود بل استمد وجوده بعد ظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم ووجدوا فيه شفاء لكل داء ودواء لكل مرض كما جاء على لسان الرسول ﷺ (خذ من القرآن ما شئت لما شئت) وأجاز الرسول ﷺ الرقي (العزيمة) بقراءة بعض الآيات على مكان المرض قد مارسها الكثير من الصحابة وقد أجازها ولو لغير المسلم بقصد الدعاية للإسلام ولا مكانة للمنفعة الشخصية في ذلك العهد تغيرت بعدها الأحوال وأطلت المنفعة برأسها وظهرت للوجود طبقاً لما

يعانيه الفرد في الجزيرة العربية مهد الإسلام الأول من شظف العيش وقسوة الحياة وازدادت الرقعة وانتشر الإسلام فعم بقاع الأرض وخلا الميدان من الرعيل الأول من الصحابة وجاءت طبقة التابعين وبدءوا يستنبطون من آيات الكتاب والسنة ما يعالجون بعض الأمراض واجتهدوا في ذلك فكانت ثمرة ذلك ولادة الحجاب وهو آيات قرآنية وأدعية بشفاء المريض وقد استنكرها البعض بحجة أن الرسول ﷺ لم يفعلها وغض الطرف البعض بحجة أن فيها نفعاً للمسلمين لكن إن أردنا أن نضع الأمور في مكانها الحقيقي نجد أن الكثير من الناس قد استقلوا الدين كمطية للوصول للقيادة أو كسب المال الحرام بشتى الوسائل ودخلت الشعوذة والدجل الميدان حتى فارقت الدين كنتيجة لممارسات خاطئة وإيهام الناس بأن لهم احترام من الجن يساعدونهم ويأتون بأخبار الغيب كل ذلك لسلب أموال الناس وهناك طبقة معتدلة لا يمارسون مثل هذه الأعمال المخالفة لما جاء به الدين الحنيف واتخذوا طريقاً وسطاً ولا تمانع م لبس الحجاب ما دام هو آيات قرآنية وأدعية أنزلها الله لخدمة الإنسان والانتفاع بها كالرقي من العين قد ثبت أن الرسول ﷺ قال (كلكم معيانون إلا من بورك فيه) وعنه قال (من شك في العين فقد كفر) وقد جعل من المعوذتين رقي للعين تقرأ ثلاث مرات صباحاً ومساءاً والأدعية كثيرة بين صفحات الكتب ولذلك أجتهد العلماء وتوسعوا في هذا الميدان على قدر اجتهاده وجمعوا الآيات الكريمة والأحاديث وضمنوها كتبهم واتخذوا منها أوراد تتلي صباحاً ومساءاً أما أمر الجن أيضاً ثابت بالكتاب والسنة وعلاجه بواسطة المشائخ المتمكنين أصحاب الأقدام الراسخة في الدين وبعد شفاء المصاب يعمل له حجاب لطرد الجن عنه وهي لم تخرج من الآيات القرآنية والتعاويذ التى تطرد الجن وموضوع الحجاب هذا يجرنا الى استعمالات أخرى لها فوائدها بين المسلمين وهو حجابي يبطل عمل السلاح ولا يخترق جسمك وهو متفرد الجوانب لكل جانب آياته الخاصة فالسلاح الناري له حجابه الخاص ويكون شامل على بقية الأسلحة الأخرى البيضاء لها آياتها الخاصة ولا يتثني لكل إنسان أن وجد هذه الآيات سواء بطريق نقلها من حجاب أخرى فلا

تؤدى وظيفتها فمثلاً عندنا في النيل الأبيض محصور هذا الامتياز والقدرة في بيت واحد هو الشيخ البشير ود مضوي وأولاده وأحفاده وهو من البيوتات العريقة يسكن العلــيقة شــمال كوستي وبها خلوة لتحفيظ القرآن منذ أكثر من مائتي عام لم تخمد نارهــا حتى يومنا هذا ويؤمها الطلاب من جميع أقطار السودان وكان يحكي عن الشيخ البشير قوله لاتباعه (الحمد لله الذي أعطانا سر السلاح والجناح) يقصد بذلك إبطـــال عمل السلاح كما أعطاه سر طرد الطيور كالزرزور الذي يفتك بالمزارع وكـــل هذا مجرب وكثير من الناس ما يلجئون إليه عندما يشعروا بوجود هذا الطير الذي يهددهم والسلاح الأبيض كالحربة والسيف والسكين لها آياتها الخاصة وكمثال لإبطـــال مفعول السلاح كان الشيخ طبق شيخاً على قرية تيرا شمال الليري يعود (محـــل آبـــار الماء) ليورده الماء فإذا برجل يعترض طريقة وفي يده حربة طويلة حادة وخاطبه قائلاً (أبيت ما تفك طريقي) وأمسك بالحربة بكلتا يديه وطعنه بها في بطـــنه ووقع على الأرض من شدة الصدمة وتدخل الحاضرون وحالوا بينهما ولكن الحـــربة لـــم تحدث جرحاً ولم تنزف دماً غير أن مكان الطعن قد تورم ونقل إلى منزله وكانت تربطنا به علاقة صداقة ذهبنا إلى زيارته في منزله وأردت أن أتأكد إن كان هناك جرح فلم أجد أثر غير التورم الذي أحدثته قوة الصدمة ورأيته يلبس الحجاب ويقول لولا هذا لكنت اليوم في عداد الموتى والأمثال كثيرة والطريق نحو العلــيقة مفتوح ومطروق لمن يريد المزيد . ومن أنواع الحجب الأخرى ما يسمي النجسه والكلمة مشتقة من النجاسة وصاحبها لا يحتاج الى طهارة في حالة حملها وهـــي قلـــيلة التكالـــيف يلجـــأ إليها الصعاليك والاشقياء ويقوم بكتابتها الدجالون والمشـــعوذون ومفعـــولها محـــدد وقد تفقد صلاحيتها ويفسد مفعولها إذا أكلت فول ســـوداني أو وطأت بقدمك على جلد حديث السلخ وأشياء أخرى تفسد مفعولها وكل هـــذه الأنـــواع من الحجب جاءت مع الذين وفدوا من إقليم دارفور فهي معقل هذه الأعمـــال قـــبائل الفلاتـــه وهم الذين جاءوا بكل أنواع الشعوذة وتنوع فروعها مما يســـمونه علـــم الحـــرف وامتلاك الجن ومعرفة الغيب . وهناك أقوال تروي عن

مشايخنا الصوفية الذين لهم القدم الراسخ في علم الحقيقة يقولون أن النار لا تحرق لأنهـا نـار ولا يتأتى لها ذلك إلا بالقدرة الإلهية التي مصدرها كن فيكون كما أن السـلاح مهما يكن قاطعاً لا يعمل إلا بعد كن فيكون وفي اعتقادهم من يؤمن بغير ذلك فهو في عداد المشركين والمعني الظاهر من هذه الأقوال إن الله القادر بقدرته والمتصـرف بإرادته والذي بيده كن فيكون هو المتصرف أولاً وأخيراً ولا شيء يؤدى وظيفته دون كن فيكون ولدينا أمثال كثيرة تناقلتها الألسن وتوارثتها الأجيال مفادها وأنت تسمع باسم الشيخ فلان المجمر فما معني المجمر.

من المعروف والذي لا يتطرق إليه الشك إن كل من أتصل نسبة بالرسولﷺ فـلا تحرقه النار فعندما يشك الناس في نسب أحد ويدعي أنه شريف ولم يصدقه أحـد عمد إلى بناء بيت من القش ودخل وسطه واشعل فيه النار وتأتي النار على القش والحطب وتصبح رماداً تذروه الريح ويخرج هو سالماً لم تصبه النار لا قليل ولا كثيـر مما يثبت قول أهل الحقيقة أن النار وخلافها لا يؤدى عملها إلا بعد كن فـيكون ولا شك أن في السودان مجمرين عديدين ومعروفين وكلمة مجمر مأخوذة مـن جمر الذهب أي قد أزال شوائبه وكل ما علق به من مواد أخري ومثلاً آخر معروف ومدون في كتب تقرأ على مسامع الناس منذ أجيال تقول الرواية إن رجلاً علـى أيام السيد أحمد بن إدريس ﷺ هذا الرجل أدركته الصلاة وهو يحمل في يده قطعة لحم داخل كيساً من القماش فوضعها جانباً ودخل في صفوف المصلين وكان السـيد أمام القوم وبعد انتهاء الصلاة أخذ الكيس وأتي داره وأعطاه للزوجة وجلس في انتظار العشاء مرت الساعات وهو يرقب مجيء العشاء ولم يجد بدا من أن يأتي المرأة ويسألها عن سبب التأخير فتجيب المرأة بأن ما جاء به من اللحم لم تؤثر فيه النار رغم الحطب الجذل والنار المتأججة فرفعت له قطعة منها فإذا بها حمراء كما وضعتها أول مرة فأخذ منه العجب مأخذاً وفي الصباح جاء الرجل ليحكي للسيد ما حصـل فأجابه قائلاً إن الرسول ﷺ قد بشرني بأن النار لا تحرق ولا تمس كل من صلي معنا فلا غرابة إن لم ينضج اللحم هذا الحادث مثبت في مناقب السيد أحمد بن

إدريس تأليف السيد إبراهيم الرشيد رضي الله عنه .

وآخـــر ما يمكن أن أقدمه كمثل آخر جاءت على لسان رجل يهودي عربي تــنقل بين جميع الدول العربية وزار السعودية (الحجاز وقتها ومكث في الحرمين الشـــريفين ســـنين عديدة وهو يخفي يهوديته ويظهر الإسلام وكان كل وقته يقضيه داخـــل الحرمين الشريفين وينام في أروقتها حتى ساقته قدماه ودخل السودان تحت اســـم الشريف وكان يؤم الناس في صلاتهم المكتوبة والأعياد مرت الأيام والسنون ولـــم ينكشف أمره إلا في أخريات أيامه وتبين للناس أنه يهودي ولم ينكرها وكان طيب القلب يخالط الناس في سرائهم وضرائهم وقد حكي لنا في مرة وكنا نفر قليل ممن يصطفيهم يميل إليهم هو يقول هذا سر لا يجب إفشاؤه قلنا هات قال على أيام وجودي في الحرمين الشريفين المكي أو المدني لا أذكر أيهما قال لطول العهد قال اشتاقت نفسي للحم الحمام ووجود الحمام بهذين الحرمين ظاهرة كثير العدد يسرح بين الحجاج آمناً وله مونه من القمح والشعير بالمخازن يطرح في ساحات الحرم ولا يصـــيبه أذى مـــن الناس قال وفي غفلة من الناس أمسكت بزوجين منها وقمت بتجهيـــزها ووضعتها على النار فمرت الساعات الطوال وأنا اجزل الوقود وأشعل الـــنار تحـــت القدر فلم تعمل النار ولما أخذ مني اليأس أردت التخلص منها خوف افتضاح الأمر فلفتها في خرقة وهي حمراء وعمدت إلى أقرب مرحاض وأودعتها فيه . بشيء من الفضول سألته ألم تقنعك فعلتك هذه بتخليك عن دين اليهودية لتعتنق الإسلام بعد أن ظهر لك وتبينت هذه المعجزة التي ساقها الله لك لينقذك من الضلال وبشري للمسلمين ونذيراً لمن كفر فأجاب في برود لم تؤثر في عقيدتي فقلت صدق الله العظيم حيث قال (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) صدق الله العظيم.

كاكا التجارية(19) واحداثها الدامية

كاكـــا الـــتجارية من الأماكن المشهورة منذ العهد التركي وأبان حكم المهدية ونالـــت شهرتها لوقوعها على الشاطئ الغربي من نهر النيل وعندما كان النيل هو

السبيل الوحيد الذي يسلكه التجار وهم على مراكبهم الشراعية من ناحية أما الناحية الأخرى تواجد العرب من قبيلتي سليم وأولاد حميد واختلاطهم مع الشلك في فصل الصـــيف ممـــا جعلها مركزاً تجارياً هاماً وقد سميت بهذا الاسم نسبة لامرأة تدعي كاكـــا(20) تسكن على شاطئ النيل وترسو عندها المراكب وهي تجيد اللغة العربية وتقـــوم بـــدور المتـــرجم ما بين التجار وقبائل الشلك سكان المنطقة الأصليين ولا يعـــرفون مـــن العربية إلا قليل وعندما جاء الحكم الثنائي جعل منها ميناء للجبال الشرقية لمديرية جبال النوبة فالأرض تخضع لإدارة مديرية أعالي النيل أما الإدارة فمشتركة فيها فرقتين من البوليس واحدة تابعة لجبال النوبة وأخر تابعة لأعالي النيل وكاكـــا كمركـــز تجـــاري يلعب دوراً هاماً من الناحية التجارية حيث يؤمها وكلاء الشـــركات الذين اتخذوا الخرطوم محلاً لرئاسة هذه الشركات ويرسلوا مناديباً لهم لمشترى المحاصيل آتى تتمثل في الذرة بأنواعه والفول السوداني والسمسم والصمغ بنوعيه والعسل وشمعه والماشية بأنواعها وكانت بها معاصر تديرها الحيوانات قبل ظهور المعاصر الحديثة هذا هو تاريخها التجاري ولها تاريخها فيما يتعلق بسكانها الأصـــليين وهـــي قبـــيلة الشلك يقولون كما تناقلتها الأفواه عندما وقع الخلاف بين نـــيكانق وداقـــي في فشودة استقر الرأي على أن يفترقا وأن يقيم نيكانق في فشودة ويرحل داقي وسار حتى بلغا كاكا وفي خور شمالها بقليل وكان بيد أحدهما كوكاباً يقـــال أنه من فضة وغرزه في نصف الخور وقال من هنا نفترق وودع كل منهما الآخـــر فمكان هذا الكوكاب أصبح علماً بارزاً ومقدساً ورجع نيكانق ، ويدخل هذا المكان ضمن الطقوس عند اختيار المك إذ خلا المقعد بأن يركب الكجور وهو أكثر من شخص ومعهمَ المك المرشح ويأخذون خروفاً إلى أن يصلوا إلى مكان الكوكاب فـــي منتصف الخور فيرمي بالخروف فإن غاص ولم يظهر له أثر فقد قبلت الآلهة هذا الشخص المرشح وإن عام ونجا معني ذلك إن الآلهة لم تقبل فيعيدوا النظر في ترشـــيح أحد أخوته هذا تعريف مقتضب عن كاكا ولما كانت عليه قبل أن تخربها أيـــدي التمرد في يوم مشهود كنت في طريقي من ملكال إلى كوستي على ظهر

باخرة نيلية وهي تحمل عدداً من الركاب علاوة على فرقة من الجيش في طريقها للخرطوم بعد أن انتهت مدة خدمتها في الجنوب وقد تسلمت فرقة أخرى على حسب قانــون الجــيش وكان وصول الباخرة في ميناء كاكا نحو الساعة الرابعة صباحاً وكــنت قــد هــيأت نفسي لمقابلة معارفي من التجار وكانت قبائل العرب والشلك يجتمعون على الميناء لعرض بضائعهم ومصنوعاتهم على ركاب البواخر ومن هذه المصــنوعات البــروش والسباتات والبنابر والعناقريب والسمن والخراف والدجاج وأشــياء كثيــرة أخــرى وكانت الميناء تضيق بهم من شدة الزحام ألغت الباخرة مراسيها ولم نجد في الميناء غير رجل واحد والحرائق في المدينة تكاد تجعل من اللــيل نهــاراً من شدة الأضواء من أثر الحرائق في البيوت وكان مشهداً يحز في النفس فخرجت لأقابل هذا الرجل وقد تبينته على الضوء المنبعث من ثريات الباخرة فــإذا هو من معارفي وهو يرتدي قميصاً من الكاكي وبيده بندقية وهو يرتجف من شدة الانفعال فقلت له ما الخبر ومالي أراك بهذه الحالة وأنت في حالة انزعاج قال قــد أغار على المدينة عدداً من المتمردين وأخذوا يقتلون كل من صادفهم وأشعلوا هــذه النيران لولا أن رأوا نور هذه الباخرة القادمة لما بقي على أرض كاكا حياً لا يتورعون عن قتل الأطفال والنساء والعجزة والرجال قلت كم فقدت من الأسرة قال امــرأتين وطفلــين قد أحرقوا داخل القطية التي يسكنونها فعزيته وقلت هل أصاب الســوق شي من الخراب قال لا أدري لأني كنت مشغولاً بالدفاع عن بقية الأسرة فقلــت إن بالباخرة فرقة من القوات المسلحة تحت إمرة ضابط فهيا بنا نقابله ونرى مــا هو فاعل فعند وقوفنا تحت سلم الدرجة الأولى فإذا بمهندس الوابور على السلم وشرحنا له الموقف وعرضنا عليه وجهة نظرنا في مقابلة الضابط المسئول وتقدمنا حيث يقيم الضابط فقام من نومه ليلقانا وتفهم الموضوع واتفق مع المهندس ليرسل إشارة مستعجلة إلى مقر القيادة بملكال لتشير إليه بما يفعل فجاء الرد ونحن وقوف بــأن تظــل الباخــرة راســية في الميناء لمدة أربعة وعشرين ساعة وتقوم الفرقة بالمحافظــة علــى الأمــن الى حين وصول النجدة وبطلوع الشمس انتشر كل من

بالباخرة وأخذنا في دخول البيوت بحثاً عن مجروح أو مصاب لنقوم بإسعافه وكانت جثث الموتى ملقاة على الأرض في فناء الدور وكان منظراً رهيباً يقشعر منه جسم الإنسان بعد ذلك أستقر الرأي على جمع الجثث ومواراتها بالتراب وحفرنا حفرة واحدة وأخذنا في جمع الجثث حتى بلغت أحد عشر جثة وصلينا عليها وقطعنا أغصان شجر النيم اخترناه لمرارته مما يساعد على منع التعفن ثم أهلنا عليهم التراب ولكن للحق أن أقول إننا لم نجد لهم أكفاناً لأن السوق ليس فيه شيء من القماش ولذلك جعلنا من ملابسهم أكفاناً وهي ملطخة بالدماء ليلقوا الله بها ويشكو ظلم الإنسان إلى أخيه الإنسان بعد أن فرغنا من هذه المهمة توجهنا نحو نقطة البوليس وكانوا بخير لم يصب منهم أحد وكان الجاويش المسئول يحكي كيف حاصرتهم نيران الأسلحة ومنعتهم من الخروج من دارة النقطة لم يستطيعوا أن يؤدوا واجبهم والدفاع عن مواطنيهم وكان أكثر النار تطلق علينا من ناحية النهر واتخذوا من جزع الشجر تلك ستاراً يمنعهم طلقاتنا فذهبت نحو الشجرة ووجدت عدداً من الظروف الفارغة ووجدت أثر دم على الأرض يتصل بشاطئ النهر مما يدل على أن المعتدين جاءوا بمركب شروك عن طريق النهر واتخذوا من الشجرة ساتراً وبدأ إطلاق النار وقد أصيب برصاصه إثناء تبادل النار مع البوليس وحمله رفاقه الى داخل المركب وفروا به وتحت شجرة كبيرة تتوسط ساحة النقطة كنا نقف تحتها ولا زال البوليس يصف الواقعة فإذا بأحد الوقوف يرفع طرفه إلى أعلا الشجرة فإذا بشخص يستتر بأغصانها وهو أعزل لا سلاح له فأشار عليه الجاويش بالنزول فتردد بادئ الأمر ولما هدده بإطلاق النار عليه نزل وهو خائف يتردد وأشار العقلاء من الحضور بألا يؤذوه ويتركوا أمره للقوة التي ستجيء بعد قليل ليستفيدوا مما عنده من معلومات ويدلي بمكان المعسكر الذي فروا نحوه وما أن وصل الأرض قيدوه وأدخل السجن وتفرقنا نبحث عن جثة أو إنسان وفي الطرف الغربي من المدينة لاح لي بياض وكأنه كومة من قماش فاقتربت منه فإذا هو أحد المتمردين قد أصيب بعيار ناري في بطنه ولقي مصرعه وهو يرتدي قميصاً ورداء

من الدمورية وقد انتفخت جثته وتورمت حتى ارتفعت رجله ويده ورجعت وأبلغت البوليس ودخلنا بيوت الشلك القريبة من دائرة السوق فوجدناها خالية من أهلها ولم تصـــلها يد التخريب مما يدل على الاتفاق مع المتمردين على أن تنحصر الأضرار بســكان المدينة فقط ولما جاء الفرج بوصول الباخرة خافوا مغبة عملهم هذا بإيواء الخارجين الذين قتلوا هذه النفوس البريئة وخافوا من أن يكون بالباخرة قوة مسلحة ويلقــوا نفس المصير فهربوا وتركوا بيوتهم مفتحة الأبواب ونجوا بجلدهم . قضينا ســحابة نهارنا في المدينة ولا زال الدخان يتصاعد من أنقاض البيوت وجاء الليل ورجعــنا للباخــرة وبعد انتهاء المدة المحددة تحركت الباخرة وأخذت طريقها نحو الشــمال ولا نــدري مـــا فعلــته السلطات بعد ذلك هل وصلت القوة وتتبعت أثر الخارجين .

حواشي الفصل الثالث

(1) أهله يعتزون به ويسمونه الكريس كمل نومك جبل الزريعة الخاتي الشريعة .

(2) كانت هذه الرحلة في عام 1929م

(3) اعد باحث نرويجي يدعى لايف رسالة علمية عن قبيلة لفوفا وقد قابلته في منتصف

السبعينات بالليري وامتدت المعرفة حتى الخرطوم واستطاع لايف ان يبني علاقات وثيقة مع المواطنين من نوبة وعرب وسكان الليري وقد صدرت دراسته في كتاب وتمت ترجمته الى اللغة العربية .

(4) أتخذه النميري شعاراً للجمهورية بدل وحيد القرن.

(5) السيد نصر الدين من كبار تجار الليري واهله من الدويم ومن ابنائه حسن وعباس الذين عملوا بالتجارة والزراعة .

(6) بابكر الرشيد موطنه ام غنيم على النيل الابيض استقر في امدرمان فيما بعد .

(7) توفي السيد بابكر الرشيد قبل عدة اعوام وذلك اثناء اعداد الكتاب للطباعة وكان قد هاجر الى الاراضي المقدسة واستقر بها ودفن هناك .

(8) هذا المنظر كان في الماضي وربما فترة الثلاثينات التي عاش فيها الوالد وعمل بمنطقة الليري وقدر لي زيارة الليري للمرة الاولى في منتصف الخمسينات فلم اشاهد مناظر العرب بهذه الصورة ، وعندما زرتها للمرة الثانية في مطلع السبعينات كان الوضع مختلف تماما حيث جميع الرجال والنساء والفتيات في كامل ملابسهم .

(9) اسرة المقابيل جعلت من مركز تالودي بجبال النوبة مقراً لهم وقد اصابوا فيها تجارة واسعة وامتدت اعمالهم التجارية لتشمل العديد من مدن الجبال وكل ذلك من ازمان بعيدة وحتى وقت قريب .

(10) سفاهة SAFAHAH الموقع E ٥٥– ٢٦ من مصايف التجاره على بحر العرب

N ٤٧ – ٩

(11) السبيب : شعر ذنب الزراف او ذنب الفيل ويستخدم كزينة للرجال والنساء ويضاف اليه بعض الخرز حيث تتزين به النساء على الرقبة والرجال على ايديهم او ارجلهم .

(12) الكواهلة من القبائل العربية الرعوية والتي تهاجر في رحلتين في الصيف حيث الجفاف شمالاً الى الجنوب حيث المياه والمرعى جنوباً .

(13) يا أبي .

(14) تالودي TALAWDI الموقع E ٢٣ – ٣٠
N ٣٨ – ١٠

(15) رجل تالودي ظهر واشتهر في مطلع السبعينات من القرن العشرين ابان فترة مايو وقد لاقى شهره واسعة وله قصص وحكايات تروى بين العامة والخاصة .

(16) اللون الرمادي الفاتح

(17) بعض القبائل العربية تتخذ من هذا الطائر مؤشراً للتفاؤل والتشاؤم ، فعندما يركب الانسان متجها نحو جهة معينه فيقابل هذا الطائر جاسما على الارض فيقوم باستنفاره فان طار نحو الجهة المقصودة فهو فال حسن ولكن ان طار عكس الجهة المقصودة فما على المسافر الا العودة من حيث اتى .

(18) الرمل يطلق على صاحبه اسم الرمالي وحتى سنوات قليلة ماضية كان تواجد بعضهم تحت الاشجار في بعض المواقع بالخرطوم أمرا مألوفاً يصطادون البسطاء ويحملون الرمل داخل شنطة خاصة .

(19) كاكا KAKA الموقع E ١١ – ٣٢ احدى مراكز مديرية اعالي النيل
N ٣٦ – ١٠

(20) اسم كاكا من الاسماء السائدة بين قبائل النوبة مما يوحي بأن المرأه المعنية نوباويه .

الفصل الرابع

عثمان أحمد محمد نور

ذكريات صياد

نصف قرن من الزمان
بين الغابات والأحراش والجبال بجنوب السودان وجبال النوبة

(تابع) الفصل الرابع

معذرة وتنويه :

عذراً للقارئ الكريم فقد سقط سهواً الجزء الأول من الفصل الرابع ، وعليه نرجو أن تضاف هذه المجموعة لتكون في بداية الفصل الرابع ليستقيم وضع المتن والهوامش وأخذت الأرقام من ٢٤٠/١ إلى ٢٤٠/٤٧ .

الناشر

بحر الغزال

أول رحلة خارج مديرية أعالي النيل

وضعت الحرب(١) أوزارها بعد الانتصار الذي حققته جيوش الحلفاء والهزيمة التي لحقت بجيوش النازية وعادت الحياة إلى طبيعتها إلى ما قبل الحرب والمصانع التي دمرتها الحروب بدأت الحياة تدب فيها من جديد ورجعت بعضها إلى عملها بعد أن حولتها ظروف الحرب إلى مصانع حربية ونتيجة لذلك فقد غمرت الأسواق كل أنواع البضائع وتوفرت كل السلع وأصبحت في متناول كل طالب وقد قضت على السوق الأسود قضاء مبرماً من كثرة المعروض وقلة الطلب وفي آخر رحلة وأنا عائد من مدينة كوستي وقد تخلصت من آخر ما بيدي من بن ووصلت ملكال وكنت أفكر في الفراغ الذي ينتظرني وأن أعيد ممارساتي التجارية داخل مدينة ملكال أم ابحث عن مكان وفجأة جلس بجانبي على مقعد رجل من معارفي وخاطبني قائلاً هل لك في رحلة إلى واو عاصمة بحر الغزال عسي أن تجد ما تشتريه من بضائع ومحاصيل ومنتجات وقد لا تستغرق الرحلة أكثر من ثلاثة أسابيع قلت على شرط واحد أن تكون أولاً عن طريق جوبا وليس شامبي وأن نأخذ طريقنا مروراً بغرب الاستوائية لأني قد سمعت الكثير عن أنزارا ومصنعها وما يتبعه من منشآت ونتمتع بما يقال عن مناظرها الطبيعية فوافق .

أخذنا طريقنا على ظهر باخرة نيلية من ملكال وهي تمخر عباب النهر لمدة أسبوع كامل وكانت رحلة ممتعة حيث رأينا أمامنا أسراب الفيل وهي ترعي على شاطئ النيل وسط التيجان وقصب البردي الذي يغطي وجه الماء لمسافات طويلة وعلاوة على المدن الرئيسية التي تقوم على شاطئ النيل حتى بدت على الأفق مآذنه الجامع تبشر المسافر بوصوله إلى مدينة جوبا وكلما سرنا قليلاً ظهرت معالم أخرى إلى أن ألقت الباخرة مراسيها على الميناء وقد التقينا بشلة من أبناء الكوة الذين يعملون بسوق المدينة أمثال خلف الله الشيخ وأبو القاسم محمد أبو القاسم وعلى عبد

المجيد وعبد الحي حسن كرار رحمهم الله مكثنا بينهم لمدة ثلاثة أيام في انتظار عربة تقلنا عن طريق الزاندي وكنا موضع حفاوتهم وتقديريهم في اليوم الرابع جاء أحد تجار مريدي المشهورين وهو محمد احمد عنترة رحمه الله بعربة لوري لم تكن بيننا وبينه سابق معرفة وقد أبلغوه عن عزمنا فرحب بنا وبعد انتهاء المهمة التي جاء من أجلها وهي نقل بضائعه ركبنا العربة وأخذ طريق ياي مريدي وهو طريق خلوي غير مطروق كثيراً لكنه قريب أكثر من غيره من الطرق المؤدية إلى مريدي وكان الليل مظلماً والجو بارداً وروائح الزهور تعطر الجو كأنك داخل حديقة غناء وصلت العربة مريدي في نحو منتصف الليل والناس نيام فأدخلنا منزله وأعطي كل واحد منا سريراً وغطاء حيث البرد قد اخذ منا مأخذاً وجاء بالشاي الحار فشربنا وقد خفف عنا كثيراً من وطأة البرد وفي الصباح أخذ بيدنا حيث يسكن الأخ محمود حاج مهدي(٢) وأخوه عباس وكانت مفاجأة لهما حيث لم يتوقعوا مثل هذه الزيارة وكانت الدعوات تتقاطر علينا من كل تجار مريدي(٣) ممن نعرفهم وممن لم نعرفهم كانت أقامتنا نحو أسبوع ولم نجد عربة لمواصلة الرحلة فتبرع الأخ محمود وقدم لنا عربة بوكس كان يملكها لنصل إلى أنزارا وكان هو نفسه يرافقنا مروءة منه لا يريد أن يوكل أمرنا للسائق ومررنا بسوق يامبيو وبعد أن طفنا حول المدينة وتعرفنا على معالمها وأخذنا قسطاً من الراحة وكان الطريق سهلاً معبداً وبارحناها بعد قليل ولما وصلنا مشارف انزارا طالعتنا مباني من القش كثيرة وتبين لنا أنها مدينة العمال الشماليين الذين يعملون في المنشآت التابعة للمصنع وهم من أبناء الشمال المهرة بينهم البناء والنجار وعلى رأسهم المهندس القدير السيد أمين عيسي فقابلونا بالترحاب ومكثنا معهم بعضاً من الوقت ثم دخلنا انزارا لنشاهد مصانعها ومنشآتها وكانت بحق مدينة عظيمة ومن منشآتها مصانع للصابون ومعاصر للزيوت ومخازن للبن ومصنع للدمورية وهي تنتج أحسن أنواعها وفرع للبحوث الزراعية ومحطات تجارب وقد احتوت على أنواع كثيرة منها تجارب زراعية

وإنتاج الهبهان الذي أجري عليه التجارب ونجح نجاحاً باهراً ومنها الزنجبيل وأنواع كثيرة وقد نجحت التجارب على كل ما يستورد من الهند أو جزر الهند الشرقية من توابل وخلافها حيث تقارب الطقس في جميع منطقة الزاندي أو غرب الاستوائية وبعد أن وجدنا عربة لوري في طريقها لواو وودعنا محمود وسارت بنا العربة إلى أن وصلنا طمبره مقر رئاسة سلاطين الزاندي حيث مقر جدهم الأول ومؤسس الدولة قبل مئات السنين توقفت العربة قليلاً ثم اتجهت بنا نحو مدينة واو عبرنا نهر بشري بواسطة بنطون والقينا عصا التيسار إذ حللت ضيفاً على الأخ بشير محمد خير(٤) والرشيد محمد البشير رحمهما الله حيث سكنا في قطية يملكها أحد اليونانيين بالقرب من خور صغير يصب في نهر الجور ومقام عليه جسر خشبي ينادونه كبرى التكتكه ليصل بين مدينة واو وقرية سكني الأهالي يسموها المقطاع (أي عبر النهر) فكنت أشاركهم سكني هذه القطية ليست ككل القطاطي فإنها تمتاز بموقع جميل وعلى مساحة من الأرض تطل على هذا الخور وحولها عدداً من أشجار المنقا وسط هذه الأشجار بنيت مسطبة على ارتفاع خمسة وسبعين سنتيمتر للجلوس عليها ليلاً تفادياً للزواحف والحشرات يؤمها في كل مساء جوقة من الشماليين ومن بينهم الأخ الفاتح الماحي(٥) الذي كان يشغل وظيفة أمين مخازن المديرية رحمة الله عليه وكانوا يقضوا لياليهم في سمر مع بقية الرواد وهم كثرة ويفصل هذه القطية عن حلة فلاته شارع رئيسي من ناحية الغرب وكان حظر التجول مفروضاً على المدينة من الساعة العاشرة مساء وقوة البوليس تجوب وسط وأطراف المدينة على ظهور الخيل ويساق للحراسة كل شخص لا يحمل فانوساً مضيئاً ولقلة انتشار الفوانيس وعدم البطاريات بين الأهالي لهم حق استعمال عوداً من الخشب يوقد أحد طرفيه كجواز مرور وبعد قضاء نحو أسبوعين أراد مرافقي أن يرجع إلى ملكال وقد راقت في نظري وقد فكرت في فتح متجر بها ويشجعني الأخ الفاتح والحاج بشير وقررت التخلف وودعنا صاحبنا وقام إلى ملكال

واستأجرت دكاناً صغيراً من الشيخ يوسف المليح الذي تربطني به صداقة قديمة منذ العشرينات فقدم لي كل مساعدة وهيأ الدكان وبدأت العمل بما يشبه كنتين في حي ولكن كانت حركته التجارية لا بأس بها .

مدينة واو رغم أنها عاصمة مديرية بحر الغزال وأكبر مدنها وتعتبر من المناطق المقفولة في عهد الاستعمار إلا أن هذا المنع لم يطبق التطبيق الحرفي كما هو في بقية المدن الأخرى لأن العرب بحكم وجودهم في مصيفهم (سفاهة).

مدينة واو مع اتساع رقعتها وكثرت سكانها من أجناس مختلفة كالفلاته الذين استوطنوها من قبل مائتين من السنين إذا أضفنا إليهم بعض الأفراد من قبائل العرب الذين فقدوا مواشيهم وامتهنوا مهناً أخرى وعرب الرزيقات والمسيرية هم يحملون منتجاتهم من سمن وجلود ومواشي بغرض بيعها في سوق واو كل ذلك من العسير تطبيق قانون منع الدخول ولذلك يدخلونها وهم على ظهور خيلهم وعلى ظهور دوابهم الأخرى دون أن تعترض السلطات ولكن يطبق هذا القانون على كل وافد من التجار الشماليين بحذافيره ولم نجد متنفساً ولا تساهلاً إلا بعد تنفيذ توصيات مؤتمر جوبا(٦).

كانت الحياة في المدينة رتيبة وجامدة خصوصاً بين طبقة التجار ويعزي ذلك إلى تقدمهم في السن كانوا فوق الخمسين سنة ولم يكن بينهم شباب إلا القليل كعمال مع ذويهم وبطبيعة الحال ليس لديهم نشاطات رياضية ولا ثقافية أما طبقة الموظفين لهم ناديهم يقضون فيه جزء من الليل وكانوا قليلو العدد أما بعد الانفتاح وبدأت الهجرة فجاءت التجارة بشباب طموح فعمروا النادي وجعلوا منه منتدى يجمعهم كل مساء للعب الورق وكانت أعين الاستعمار بصيرة لئلا تدخله السياسة وأوكلوا أمر الرقابة إلى مأمور المركز وضباط البوليس الشماليين وكان يرأس النادي في ذلك العهد السيد حسين احمد عثمان الكد(٧) وكان يشغل رئيس حسابات المديرية وقد اشتهر بوطنيته التي لا غبار عليها رغم أن نشاطه محدوداً لقلة الموظفين والتجار

الذين ينتسبون للنادي لكن الاستعمار يخشى من استغلال النادي لأغراض سياسية فعملوا جاهدين على تنحيته عن رئاسة النادي وجاءت الانتخابات وترشح السيد حسين احمد عثمان وترشح ضده مأمور المركز وقامت الدعاية المغرضة التي تصاحبها بعض التهديدات من جانب السلطة فجمع المأمور حوله طبقة من التجار وأغراهم بالوعود وحذا حذوه ضابط البوليس ورشح بعض التجار كأعضاء في اللجنة التنفيذية إذا فازوا بالرئاسة فطبقة التجار إذا وضعت مصالحها في الحسبان فلا شك أن المأمور هو قبلتهم وتقربهم له أجدى بكثير من الانتماء إلى حسين وأعوانه وجاءت الانتخابات وظهرت نتيجة الانتخابات بالاقتراع السري بفوز المأمور وشلته و لم يغب علينا إن المأمور وضابط البوليس هما عينا الحكومة التي ترصد وتسجل حركات كل شخص في المدينة وإبلاغها يومياً إلى سعادة المدير المستر وأين ويعرف من اللغة العربية الكثير ويكاد يصل إلى درجة المستشرق وكان يزور النادي في أغلب الأوقات ويلعب الورق وهو الوحيد من البريطانيين الذين يهتمون بزيارة النادي ليقضي بعض وقته في لعب الورق فكانت لعبة الوست هي التي يمارسها ولها طاولتها الخاصة معه وجود لعبة الكنكان وكانت طريقة اللعب هي بخروج المهزوم لأن غالباً ما يكون المنتظرون كثيرون بطريقة الحجز للأقدم ولما يجئ دور سعادة المدير يكون قد اختار زميله لا فرق عنده من أن يلعب مع تاجر أو موظف وفي مرة تصادف أن يكون زميله من الموظفين ضد اثنين من التجار كنت أنا أحدهم فلما أخذ مجلسه قال مباراة اليوم الإدارة ضد التجارة فلمن ستكون الغلبة فضحك كل من في النادي إنها لفتة بارعة منه وللحقيقة أقول قد خسر المباراة فقام ضاحكاً وهنأنا بالفوز وكان سياسياً بارعاً وقد تجلي ذلك في موقفه عندما وقعت مشادة كلامية بين الفاتح الماحي أمين مخازن المديرية مع نائب المدير المشرف على المخازن وله حق الجرد في أي وقت يشاء حصلت المشادة الكلامية بينهما وكان الفاتح لا يخاف أبداً وله مواقف مشهودة مع الإنجليز وهم في أوج

السلطة من هذه المواقف عندما أضرب طلبة كلية غردون عام ١٩٣٢ كان هو من ضمنهم ولما لم تجد الوساطات من زعماء السودان قفلت الكلية أبوابها وعاد الطلبة إلى أهليهم ورجع الفاتح إلى موطنه الكوة وجاء نائب مدير الدويم تصحبه زوجته على ظهر جوادين لمقابلة باخرة نيلية فترجلا عن جواديهما وكان الفاتح يقف على شاطئ النهر فأمره النائب بأن يمسك بمقود الجواد ليساعد زوجته في نزولها من ظهر جوادها فقال بالحرف (أنا موش خدامك) فوقعت هذه الكلمة كالصاعقة ورأي فيها أكبر إهانة تلحق به فاستشاط غضباً وتلفت يمنة ويسرة فلم يجد من يستعين به على القبض عليه ليودعه السجن وذهب الفاتح عائداً إلى المدينة فأرسل النائب إلى عمدة المدينة وقدم له أوصافه كاملة فمن باب تهدئة الخواطر قال العمدة أن هذا الولد الذي وصفته له لوثة في عقله وقد تحصل هذه النوبات كثيراً مما يجعله يتصرف تصرفاً غير سليم وعلى كل حال أنا سأقوم بمعاقبته بالجلد وأترك لي يا سعادة النائب هذا الأمر فسري عنه قليلاً وترك الأمر له ولكن هذه المرة وباصطدامه مع نائب مدير بحر الغزال وهو رئيسه المباشر فمن يكون له شفيعاً وكل يري قد أصابه شئ من الإهانة ففكر الفاتح قليلاً وآثر أن يسبق النائب ليبلغ الأمر إلى سعادة المدير قبل أن يسبقه النائب فتوجه نحو مكتب المدير وطرق بابه فأذن له وكان منفعلاً وهكذا يبدو فقال يا سعادة المدير إني مريض بضغط الدم وعندما يسئ إلى سعادة النائب بهذه الطريقة وأنا أخشى على حياتي فأمره بالجلوس على أريكة بجانب المكتب وأخذ يتلطف معه في الكلام حتى هدأ روعه وطلب نائب المدير فلما وصل أجلسه بجانب الفاتح وقال له أن الفاتح أخوك وأن إنك لا تعلم بأنه مصاب بضغط الدم لما حصلت بينكما قال لا علم لي بذلك قال يجب أن تتسامحا أمامي ولا يحصل بينكما مثل ذلك مستقبلاً وتسامحا وخرجا كأخوين .

كانت مياه نهر الجور في أيام فيضانه تغطي جزء كبير من الأرض شرق مدينة واو لما تنحسر المياه تصبح هذه الرقعة من الأرض مخضرة مليئة بالحشائش

تقصدها أنواع الصيد المختلفة خصوصاً غزالة الحمراية ترعي ليلها كله في هــذه المنطقة بإعداد كبيرة وكنا لا نألف لحم البقر وقد لا يلائم طعمه كل إنســان فنعمــد إلى صيد الغزلان لنشبع رغبتنا من لحمها اللذيذ وكان يرافقني عبد الوهاب عبد الله أحد التجار وكان شاب قوى البنية ففي أول رحلة وكــان مــاء النهــر لا يتجــاوز الركبتين بعد صلاة العشاء قطعنا النهر وكانت ليلة شديدة الظلمة وتجولنا في إنحاء التونج فعثرنا على قطيع من الحمراية وأصبنا واحد منها ولما كنا نحــن اثنــين لا ثالث لنا فقد شمرت عن ملابسي لا قوم بمساعدته في حملها لأنها فوق طاقة شخص واحد من حيث كبرها فلما رأي منى ذلك قال على الطلاق لا تحملها معي فأنا كفيل بها فقلت من المستحيل أن تستطيع حملها قال عليك بندقيتك فقــط فجمــع قوامهــا وربطها بحبل وجلس على الأرض وأراد أن يضعها على رأسه فلما أستوي قائمــاً تمايل وترنح وسقطت منه على الأرض فقلت له أنت أمام أحد خيارين أما أن تحمل جزء على قدر ما تستطيع حمله أو نرجع لنأتي بمن يساعدك فلم يرضــه الحلــين فقلت إذن أطع أمري بأن نجرها بالأرض حتى نلقيها في النهر وبعدها نجرها وهذا أنسب الحلول فوافق ولما بلغنا المدينة ووصلنا الشاطئ الغربي أدخلت في روعــه بأن إذا عثر بنا أحد البوليس أو رجال حرس الصيد فسنقضي بقية ليلنا في الحراسة لمنع التجوال ليلاً فبعد أن أيفرغنا بطنها من الفرث والمصارين إلا الكبد ورفعتهــا فوق كتفه وسرت أمامه وكان البيت لا يبعد كثيراً من شاطئ النهر وصلنا وكانــت عقارب الساعة تقارب منتصف الليل بعد ذلك قام بتحمير الكبده وأكل أكثــر مــن نصفها وأغلق الباب خلفه وانصرف بعد أن أمرته إلا يوقظني من نومي للأكل وفى المساء ذهبت إلى النادي قدمت دعوة لبعض الموظفين وبعضاً من التجار للعشــاء معي وجئ بالعشاء حلة كبيرة مليئة باللحم غنية بالسمن والبصل وصحن آخر ملــئ بالمحمر ومد البساط وضعت فوقه الحلة والصحن وحوله الرغيف فكانت أكله دسمة وتتكرر هذه الدعوات كلما أصبنا غزلاً وأصبح عدد الرواد يزداد في كل مرة كــل

واحد يجر معه صديقه وكانت أيام مشهودة تحمل كل معاني التآلف والتكاتف وكانت قد نالت إعجاب الجميع . وفي أحد الأيام وقد أصبت بوعكة أقعدتني عن الخروج للصيد وكان الفاتح بجانبي واتفق الفاتح وعبد الوهاب أن يقوما بهذه المهمة وكان الفاتح يملك سلاحاً نارياً وخرجا ولما جاءا بعد طلوع الفجر صفر اليدين وقلت ما الخبر قال أثناء اللف والدوران في ظلمة ونفور الصيد والجري وراءه قد تهنا وسط التونج ولم نميز الشرق من الغرب ولم نهتد إلى النهر واختلفنا فهو يقول نسير اليمين أقول لا أنا أقول نسير نحو الشمال هو يقول لا حتى أخذ منا التعب وجلسنا على الأرض ونحن نسمع وقع أقدام الذئاب قلت له إن ما يقال عن كديس بت المني سينطبق علينا الليل وقال ماذا قيل عنه قال اشتكي أحد المزارعين من وجود الفيران التي تقتلع البذور فجاء بكديس (هر) وسرحه في المزرعة ولما جاء في الصباح وجد الفيران قد أكلت الكديس فإن نحن لا زال نختلف سنقع بين براثن الذئاب التي تسمع عواءها فانصاع إلى الأمر بعد قليل قد وجدنا أنفسنا على شاطئ النهر ولكن أين تقع مدينة واو من مكاننا هذا وقررنا المبيت على الشاطئ حتى مطلع الفجر قلت ألم تفكر في إلقاء قشة على النهر ليتبين لكم اتجاه التيار فتمشوا عكسه قال لم تراودنا هذه الفكرة إنما مشينا دون هدى حتى طالعتنا أنوار المدينة.

يقال أن الحاجة أم الاختراع كانت الطيور التي تتجمع على شاطئ النهر بأعداد كبيرة من وزين وفكنج وكان أحد الفلاته من سكان مدينة واو يري هذه التجمعات وهو عاجز عن أن ينال منها شيئاً وكان نحيل الجسم قصير القامة كجسم الشاعر بشار بن برد قال :

وإن بين بردي جسم ناحل   لو اتكأت عليه لا تهدم

ففكر ملياً وجا بقطعة من القماش وجمع كمية من ريش الطيور المختلفة وأخذ في نظمها وتثبيتها على القماش وجعلها في شكل قميص يرتديه فكان يزحف على ركبتيه تارة وعلى بطنه حتى يدخل وسط الطيور فيقبض على واحدة منها واستمر

على ذلك وشاع الخبر حتى وصل سعادة المدير فطلبه وصادر منه القميص بعد أن لقي جزاءه من السجن وقال له انك تحتال على الطيور وهذه طريقة ممنوعة قانوناً.

شامبي والكجور (٨)

الكجور وأثره في حياة المجتمع البدائي

في عام لم تجود السماء كما وعدت وكان برقها خلب وسحابها لا يأتي إلا بالرزاز فأصاب الأرض الجفاف ولم يجني الأهالي محصولاً يعتمد عليه وكان التخوف من حدوث ضائقة أو مجاعة وفي ذلك ما يعرض الثروة الحيوانية للتلف بيعاً كان أو ذبحاً وهذا مالا يرضيهم وتحسباً لما يجئ به المستقبل لابد من عمل يخفف من وطأة هذه المجاعة أو يبعد شبحها وكان ميعة شامبي (بحيرة صغيرة)(٩) هي المنقذ الوحيد الذي يرون فيه الخلاص وشامبي تابعة لمديرية أعالي النيل وقد اتخذتها مديرية بحر الغزال ميناء لها على نهر النيل وهي لا تبعد كثيراً عن مركز يرول أكبر مدن بحر الغزال بعد واو وقد كانت بها معصرة حديثة للزيوت لاستيعاب محصول السمسم الذي يزرع في مساحات واسعة يأتي بمحصول جيد وإنتاج وفير وبدأ يغزو الأسواق بإنتاجه ويباع بأسعار رخيصة وقد سد حاجة أكثر أسواق بحر الغزال من هذه السلعة غير أن يد التخريب قد لحقته في السنين الأخيرة وأصبح أثراً بعد عين وقد ساهم مساهمة فعالة في تحسين دخل الفرد علاوة على التحسن الذي طرأ على اقتصاديات المديرية .

وميعة شامبي غنية بأنواع السمك المختلفة لاتساع رقعتها واتصال أحد أطرافها بنهر النيل وقد وجد فيها السمك مأوي ومرتعاً خصباً لما ينبت في أطرافها من قصب البردي وأهلها من قبائل الدينكا القاطنين حولها يلجئون إليها دوماً لصيد السمك لاستعمالهم اليومي لكن هذه المرة تختلف عن سابقتها حيث الطلب أكثر وكل فرد يريد أن يقتني أكبر كمية ويطمع في المزيد وهنا يكمن الخطر وتقع المشاكل والمنازعات بين الأفراد وربما شملت القبائل فكيف القبائل فكيف الوصول إلى السلم

والتحاشي من حدوث مجابهة ودون ذلك خرط القتاد فاجتمع العقلاء من بين القبائل وقرروا الاتصال بالكجور لينالوا رضاه ويعطيهم الضوء الأخضر لممارسة صيد السمك ويطلبوا منه الدعوات لئلا يحدث ما يعكر صفو الأمن بين القبائل وقام الوفد والتقى بالكجور في منزله وطرحوا له الفكرة وشرحوا له القصد وأبدوا له تخوفهم من حدوث فتنة لكثرة الأعداد التي تدخل الميعة سواء بقصد أو بغير قصد وألحوا عليه بعمل طقوسه المانعة لما يحدث من شر فوعدهم خيراً واقترح عليهم أن يتقابلوا غداً على شاطئ الميعة من ناحية السوق وكل العاملين به من التجار الشماليين ولما جاء الغد والتقي الجمعان وكان الكجور وسط كوكبة من رجاله وهو يمشي الهوينى وفي أبهة وعظمة وهو يتوكأ على عصاه المريشة والمزينة بأنواع الخرز وقد ربط عليها إعداد من أجراس النحاس الصغيرة وهي ترن رنيناً موسيقياً أثناء تحركها وفي طرفها الأسفل كوكاب صغير ليسهل غرسها في الأرض وسار الوفدان نحو الشاطئ وتبعتهم طبقة التجار بدافع من حب الاستطلاع وتقييماً للموقف وماذا يقول وقفوا جميعاً على حافة البحيرة وتقدم الكجور وأمسك بعصاه السحرية وبكل قوته غرزها على طرف الماء وبدأ يتكلم بكلام وفي لهجة المتوسل وفي صوت هادى وبلغة مفهومة ما معناه يا اللاهي أوجدي (قن دونق جدي الكبير) إن هؤلاء القوم جاءوا يطلبون منة أن تسمح لهم بصيد السمك أولاً وثانياً أن تمنع عنهم الشر وأنا جئت إليك متوسلاً وراغباً في مساعدتك بتحقيق كل ما يطلبونه رحمة بالعجزة والأطفال الذين هم أولادك فأمنع عنهم الشر وآتهم الخير تغيرت بعد ذلك سحنته وأغمض عينيه وأخذ يتفوه بكلمات غير مفهومه وهو يتصبب عرقاً لم تستمر هذه الحالة إلا بضع دقائق ثم غير من لهجته إلى كلامٍ مفهوم وقال بعد ثلاثة أيام سيموت السمك ويطفو على وجه الماء وسوف لا تجدوا مشقة ولا تعب وكل إنسان يجد حوجته منه دون استعمال حربة أو كوكاب وتستمر هذه الحالة لمدة ثلاثة أيام أخرى وسيكون الناس في محبة ووئام ولن يصيبهم مكروهاً غير حادث واحد وبعد

أيام قليلة سيدخل المدينة حيوان مفترس ويتصدى له بعض الأهالي فيقتل منهم شخصاً ويتعرض أحد التجار إلى أذى بسيط عبارة عن جروح غير أنها ليست مميتة وكان من بين التجار من يجيد لغة الدينكا فنقل الحديث إلى بقية التجار فكانت مفاجأة وكان كل الجمع في حالة إصغاء يستوعبون كل صغيرة وكبيرة تخرج من فيه ويضعوا لها وزنها استمر هذا الموقف ما يقرب من ساعة كاملة ثم بدأ يعود إلى حالته الطبيعية شيأ فشيأ حتى إذا ما عاد إلى وعيه رفع عصاه من مكانها وجلس الجميع عل الأرض يمسحونها تحت أقدامه بأيديهم تجلة واحتراماً وتفرق الجمع كل منهم سلك طريقه وانتشر الخبر بين القبائل واستعدوا جميعاً في انتظار اليوم الموعود وأصبح شغلهم الشاغل يحصون ساعات الليل والنهار يستعجلون حلول اليوم المرتقب ومضت الأيام الثلاثة وأشرق شمس اليوم الرابع حتى بدأت الآلاف من الناس تتقاطر نحو البحيرة وقد رأوا العجب السمك يطفو على وجه الماء منه ما هو ميت ومنه ما يتقلب وعلى وشك أن يموت وهم يجمعون حتى زالت الشمس من كبد السماء ووجدوا أن ما لديهم يزيد عن حمل كل فرد فأوقفوا الجمع وحملوا ما جمعوا إلى دورهم وقضوا بقية يومهم في تقديده ونشره للهواء وكانت فرحتهم عظيمة لما أصابوا وبعد انتهاء الثلاثة أيام أختفي المنظر وعادت البحيرة كسابق عهدها وكانت ظاهرة غربية حقاً لم يروا لها مثيلاً قبل ذلك وكان حديث الناس أما طبقة التجار بعد رأوا أن النبوة الأولى قد تحققت ولم يبق إلا الشطر الآخر الذي يهمهم كانت حيرتهم شديدة وكان حديثهم في مجتمعاتهم فما العمل وما هي الحيطة التي يمكن عملها لتفادي هذا الحيوان ومن أين يجئ ليلاً أم نهاراً وهكذا شغلتهم الهواجس وما هو نوع الحيوان ومع وجودها وهي تحوم حولهم تكثر الأفيال ووحيد القرن والقرنتي وبقية الحيوانات الأخرى وهي تحوم حول السوق وتسمع وقع أقدامها وأنت ترقد على فراش النوم هذا من ناحية أما الناحية الثانية من هو الضحية الذي يسوقه القدر ليكون كبش الفداء وكان الواحد منهم من شدة الحذر أن يتلمس

الأرض موضع قدمه قبل أن يضعها وهم يعلمون أن الحذر لا يمنع القـدر مـرت الأيام وفي أحد الأيام وكل تاجر أمام متجره وكان سيد أحمد بوبي(١٠) يجلس على مقعد فإذا بصياح وولولة تأتي من ناحية منزله وكانت به عائلة أحـد أقربائـه(١١) يشاركه سكني الدار فقام مسرعاً وكان المنزل يقع خلف الدكان مباشرة فكـان أول داخل للدار وما وطأت قدمه الباب الخارجي حتى رأى نمراً كبيراً يطارده عدداً من الأهالي وقد احتمي بحظيرة للغنم وخشي سيد احمد أن يفتك النمر بمن فـي الـدار فدخل وراءه فوثب عليه النمر ووضع يديه على كتفي سيد احمد فأمسك بهما بأيدي قوية وأبعدهم عن كتفيه خوفاً أن يتمادى على جسم سيد أحمد ويصل إلـى رأسـه فيعمل أنيابه فيه وفي ذلك تهشم جمجمته وأخـذ يتصـارعان وامـتلأت السـاحة الخارجية بالناس ولم يجرأ أحد للدخول عليهما وكانت المقاومة والصراع وقد شعر سيد أحمد بأن النمر لجأ إلى الحيلة وقد لف ذيله في أحد رجلي سيد أحمـد ليدفعـه للخلف ويكون الذيل بمثابة قيد يمنعه الحركة فيسقط على الأرض وبـذلك يسـتطيع الوصول إلى رأسه فتعمل أنيابه وتتهشم الجمجمة لكن سيد احمد كان يقظاً وفطـن للحيلة وانتهز فرصة اشتغال النمر متلمساً أرجل سيد أحمد واستل سكينته وغيبهـا بين ضلوعه وقد أخطأت موضع القلب بقليل فوجد النمر أيضاً فرصته في تحريـر أحد يديه فمال على رأس سيد أحمد لكنه كان أسرع منه إذا أراد أن يطعنه في عنقه لكن لم يتمكن بل تعرض إلى عضة منه أدمت ساعده وغرس أنيابه لكـن الطعنـه كانت مميتة ونزف منه دم غزير مما أفقده قوته وترنح وسقط على الأرض ورغـم سقوطه على الأرض لم يجد سيد أحمد بداً من أن ينهال عليه طعنـاً حتـى فـارق الحياة وأخيراً تبين أن النمر هجم على أحد المساجين عنـدما كـان مختبـئ بـين الأعشاب الطويلة فمر أحدهم بالقرب من المكان وكانوا يقيمون بحش العلف لخيول البوليس المقيمين بالنقطة ووثب عليه وهشم رأسه وتصايح المسجونون وهرب نحو الدار فلقي مصرعه على يد سيد احمد وكانت أصابته في كف يـده اليمنـي حيـث

غرس أنيابه فيها مما سبب له عجز بسيط في حركة اليد وعطلت العضة أحد الأعصاب في الكف وأسعف حيث نقل إلى مستشفي رومبيك وكان موقفه هذا يستحق التقدير وإن دل على شئ يدل على شجاعة تامة ومروءة فائقة(١٢).

فما قول القارئ الكريم في تنبؤات هذا الكجور من أين استوحاها أمن شيطان يتغمصه ويتكلم هو بلسان الشيطان عندما كان يتكلم بطريقة لا شعورية وغاب عن وعيه فهل هو في هذه الحالة يتلقى وحياً من شيطانه هذا ما نجهله ولا يستطيع الخوض أكثر من ذلك وللكجور خاصية لا يشاركه فيه أحد وقد يرتدي جلداً من جلود النمر ويربط وسطه بحزام من القماش الملون الفاخر ويضع على رأسه قبعة مصنوعة من سعف النخيل ومحلاة بأنواع الريش الزاهي الألوان بالإضافة إلى ريش النعام الأسود المتدلي حتى يلامس كتفيه وفي يده عصاه التي سبق وصفها أما من ناحية حياته اليومية فهو يعيش عيشة رغده بحكم ما تدره عليه كجوريته من بهائم صغيرة وكبيرة وهو يمارس العلاجات لبعض المرضي ومحاولة إزالة العقم بين الرجال والنساء بطريقة استعمال العروق وخلافها وهو يملك من البقر والغنم ما يكفيه لاحتياجاته الضرورية وغير الضرورية وقد ترفعه كجوريته هذه إلى مصاف الأغنياء في البلد .

البترول يطل برأسه وسط مدينة واو

اختير لمدينة واو موقعاً يتناسب مع مسئوليتها التاريخية روعي فيها مستقبلها القريب والبعيد من حيث أنها أكبر المدن في ذلك القرن السوداني مما جعلها تزداد عمرانياً وعلى مر الأيام اختير لها أرض حجرية على الشاطئ الغربي من نهر الجور وكل مبانيها من الحجر الأحمر الذي يقال أنه يحتوى على خام الحديد فدواوين الحكومة ومنازل البريطانيين والموظفين والمتاجر والمنازل كلها مبنية من هذا الحجر إذا استبعدنا قرى الأهالي وشوارعها مستقيمة ونظيفة جميلة المنظر تعطيك منظراً المدن الرئيسية في شمال السودان وبها مولد كهربائي ووابور لضخ

المياه أنشأ حديثاً أما في عهودها الأولى كانت حاجتها من مياه الشرب من النهر وكان النهر في زمن الفيضان يتغير لونه مما يحمله من طمي وفي أيام الصيف تقف مياهه عن الجريان وتنحصر مياهه في برك ومستنقعات يفسدها عدم الجريان ولذلك عمد التجار الشماليين منهم والأجانب بحفر الآبار لتوفر لهم احتياجاتهم من مياه نقية صافية فتجد في كل بيت بئراً ففي أحد منازل اليونانيين وجد صعوبة في حفر البئر بسبب ما تعترضه بعض الصخور في باطن الأرض ولم يتقلب عليها إلا بعد جهد جهيد حتى توصل إلى الماء وبدأ يستعملها إلى أكثر من عشرة سنوات وفي صباح أحد الأيام شعر بتغير في لون الماء واختلاطه بطبقة دهنية تطفو على السطح لها راحة الغاز فاتهم عامل الناموس الذي يحمل معه دائماً زجاجة تحتوي على زيت محروق ليصبه على البرك والمستنقعات ومحلات توالد الناموس فشكي ذلك إلى مفتش الصحة وكان السيد مصطفي الشعار هو القائم بأمر الصحة هناك فجمع العمال وأجري التحقيقات وكل منهم ينكر ولما لم يتوصل إلى نتيجة رجع إلى الخواجة واعتذر له ووجهه أن يجند أربعة أو خمسة من العمال لقطف الماء حتى تجف البئر وبذلك ترجع المياه نقية صافية .

جيء بالعمال وبدأ العمل فكلما رفعوا دلوا من ما البئر ازدادت كمية الزيوت الطافية وانتشر ريح الغاز وكان مفتش الصحة يقف بجوارهم فداخله الشك من أن يكون هذا نتيجة عمل من عمال الصحة فأخذ عوداً يابساً ومر به على سطح الزيت الطافي وأشعل ثقاباً وقربه من العود المشبع بالزيت فإذا هو يلتهب وتوقد كالسراج ومن هنا لابد أن يبلغ ذلك إلى مفتش المركز وجاء ورأي بعينه وبلغ بدوره مدير المديرية فأمر بوقف العمل في البئر وأخذ عينة من الماء في زجاجه وأرسلت إلى الخرطوم لعملية التحليل ولما كنت أنا موجوداً في تلك الأيام وسمعت بالحادث آثرت أن أتأكد بنفسي (وليس من رأي كمن سمع) فتوجهت نحو مكتب المفتش الصحة وسألته عن جلية الخبر فأخذ زجاجة من فوق رف وعلى صحن صب جزء من

محتويات الزجاجة وجاء بخشبه ومر بها على سطح الماء وأشعل عوداً من الكبريت فإذا بها تلتهب وتولع والرائحة غاز ما في ذلك من شك مر الأسبوع تلو الأسبوع ونحن نتلهف لمعرفة النتيجة بما سترد به الخرطوم بعد التحاليل اللازمة مر أكثر من شهر ونحن على أحر من الجمر وفي أحد الأيام جاءني السيد الشعار ليقول وصلت النتيجة وقررت أن ليس هناك من غاز ولا شيء يشبه الغاز إنما الحصل أنه نتيجة تسرب بعض الزيوت (زيت الطعام طبعاً) من مخزن بالقرب من البئر ووجد طريقه إلى باطن الأرض وهي حجرية واشتداد حرارتها احترق الزيت وأعطي هذه الراحة وبعد أن خف وزنه انساب حتى وصل إلى البئر فقلت للسيد الشعار هل اقتنعت بهذا التعليل فأجابني بأنه كلام مصطنع لا يمت إلى الحقيقة لا من قريب ولا من بعيد إذا أضفنا إلى ذلك عدم وجود أي مخزن بجوار البئر هذا من ناحية أما من الناحية الأخرى ما هو حجم الزيت المتسرب الذي أحدث هذا الكم حتى لوث كل المياه المستخرجة من البئر التي تقدر بعشرات الأمتار المكعبة قلت إذن هو من باب التضليل عمد إليه المستعمر وعاد إلى في الغد ليقول إن الحكومة قد أمرت بردم البئر بالحجارة والأسمنت حتى سطح الأرض وقد حصل ولا زالت هذه البئر موجودة وأثرها بين فما معني هذا الردم الذي كلف الحكومة مبلغاً من المال كان يمكن أن تمنع من أخذ الماء منها ولكن المستعمر قام بعمله هذا ليخفي كل معالم هذه البئر وما تحويه من سر فهل في ذلك ما يشجع الحكومة الآن بحفر بئر بالقرب من الأولى أو أن تعيد فتحها وإزالة ما علاها من حجارة وأسمنت كي يعرف ما بداخلها إن كان هو حقيقة بترول أم غاز طبيعي وهو لا يبعد عن سطح الأرض إلا بأربعة أو خمسة أمتار وإني لموقن بعد أن توفرت المعلومات بوجود بترول في السودان فلاشك إن واو ستكون أولى هذه المناطق بسبب وجود بشائر تشير إلى وجوده على سطح الأرض القريبة .

الصاعقة وما تحمل من موت

عندما يرسل البرق ضوءه وترى في ظلمة الليل البهيم كل ما حولك وكأنه النهار وتعلم تمام العلم أنه نذير رعد قاصف يحمل بين طياته صاعقة تأتي على كل ما غشيته فإذا فكرت وأمعنت في تفكيرك عن أساس هذه الظواهر وما تحمل من موت ودمار تخافها كل مخلوقات الله وتشعر بخطرها لا فرق بين الحيوان والإنسان وكنت أتسأل دائماً عن السر الكامن وراء هذه البرق والصواعق وعن مصدرها نجد الجواب بأن علماء الطبيعة يصفونها بأنها نتيجة تفاعلات كهربائية وفيزيائية تحدث بطبقات الجو العليا ولو غصنا في معني الآية الكريمة وفي شيء من التأمل وهو قول الله عز وجل (وأنزلنا من السماء فيها من برد) .

فمن طبيعة البرد أن يكون جسماً كثيفاً فلو أنزله الله بهذه الكثافة لأهلكت الحرث والنسل بل شاءت مشيئة أن تجعل من احتكاك السحب تياراً كهربائياً يولد الحرارة وتنتشر فيذوب البرد ويصل إلى الأرض قطرات مائية لا خطر منها والدليل الذي يثبت صحة هذه النظرية أو يقربها من معقول الإنسان العادي يلاحظ في بعض الأحيان عندما يصل الطقس على درجة عالية من البرودة وتكون كثافة السحب وتماسكها ويبدأ نزول المطر فينزل في أحجام كبيرة يهرب منها الإنسان والحيوان لأنه نزل قبل أن يجد الحرارة الكافية التي تذيب البرد مما يكون تراكم الثلوج التي تغطي وجه الأرض ولكن هناك سؤال يحتاج إلى إجابة والسؤال هو هل الصاعقة عبارة عن جسم صلب أم هي مجرد تيار كهربائي يغشي جسم الإنسان أو الحيوان فيؤدى بحياته وأنا أسوق لك حدثاً شاهدته بعيني ولك بعد ذلك أن تجيب عن السؤال أو تمتنع أو تؤمن بأنها جسم أو غير جسم فتقتنع .

كنت أجلس داخل متجري بواو وكانت السحب قد غطت وجه السماء سوداء متراكمة تكاد تلامس الأرض من كثافتها وأخذ البرق يرسل ومضاته والرعد يزمجر وبدأت قطرات المطر تتساقط في غير غزارة فإذا ببرق يكاد يذهب

بالأبصار أعقبه صوت رعد كأنه طلقة من مدفع من الوزن الثقيل حتى ارتجت الأرض تحت أقدامنا فتعالت صيحات الناس وانقلب إلى بكاء وعويل من الميدان الذي يتخذه الأهالي كسوق لبيع الخضر والفاكهة وأشياء كثيرة أخرى وجاءت الأخبار ثلاثة من الأهالي قد أصابتهم الصاعقة وكان رزاز المطر قد توقف أغلقت باب المتجر وسرت نحو مكان الحادث وفي أثناء سيري لاحظت على الأرض وهي حجرية صلبة شاهدت أثر وكأنك قد جئت بمطرقة قلمت رؤوس الحجارة وتطايرت بعض أجزائها من مكانها الطبيعي وهي في طريقها نحو السوق المشار إليه وكلما تقدمت كان أثرها بينا يحفر في هذه الصخور إلى مكان الحادث حيث كان يجلس ثلاثة أشخاص كل يعرض سلعته فأصابت الأول فتركته جثة هامدة أما الاثنان الآخران فكان لا زال بهما رمق من الحياة وجاءت عربة وحملا إلى المستشفي وعادت لهما الحياة أما جثة القتيل فلم أجد فيها أثراً لجرح أو قطرة من دم ونزولاً على أن الإصابة نتيجة لجسم أصطدم به فالأثر على الحجر الذي مر به هذا التيار وأخذ في تقطيع رؤوس الحجارة يدل على أنه من تأثير جسم صلب وكان الميت من قبيلة الجور على ما أذكر ومن عاداتهم أن من يموت من أثر الصاعقة لا يرفع من مكانه حتى يؤتي بشاة تذبح في مكان الإصابة ثم يحمل لبلدة لتكمل إجراءات الدفن(١٣) .

بحر العرب

زيارة إلى سفاهه وحولها قبائل العرب

بحر العرب اسم قديم موغل في القدم ولك أن تقول منذ أن دخلت عرب الرزيقات والمسيرية السودان واضطرتهم ظروف الجفاف في شهور الصيف ليجدوا مكاناً يأويهم وتجد مواشيهم المرعي الواسع الفلاة حتى وجدوا ضالتهم في بحر العرب وهو يقع شمال مدينة أويل التي تسكنها قبائل الدينكا وبعض فصائل الجور وهي عبارة عن فيوض وتيجان ومستنقعات يخلفها وراءه ذلك النهر الصغير والذي

تزيد من رقعته مياه الأمطار الغزيرة فكان لزيارات بعض قبيلة الرزيقات لمدينة واو وهم على ظهور خيولهم الجيدة ويحملون أسلحتهم النارية منظراً يدخل في الروع وحب الاستطلاع وزيارتهم في هذه المنطقة ومن هنا بدأت الرغبة في زيارة سفاهه لأضيف إلى ما عندي من معلومات أشياء جديدة من ناحية حياتهم ومعيشتهم وهل هي سفاهة صحيح اسماً على مسمى كان ذلك حافزاً إلى الزيارة للمنطقة وجاء من يخبر بأن عربة لوري ستقوم في رحلة تجارية لمدة يومين وقلت في نفسي فرصة طيبة فاتصلت بصاحبه فوافق لأنه يعمل كتاجر متنقلاً على العربة وأخذنا طريقنا ولما ظهرت على الأفق البعيد خضرة الأشجار أشار صاحبي بأنها تباشير تدل على قربنا من منطقة سفاهه وفي نحو الساعة الرابعة بعد الظهر وجدنا تجمعات تحت ظل الأشجار هم رجال يلعبون لعبتهم المفضلة (ضاله)(١٤) وأعوادها المفروشة على الأرض وقابلونا بالترحاب وكان للنساء تجمعاتهن الخاصة ولهن بيوت صغيرة من القش يأوون إليها ليلاً . أصبح الصباح وقمت راجلاً طفت على الأماكن القريبة فتوصلت إلى أن اسم سفاهه لا ينطبق عليها تماماً لأني وجدت الرجال والنساء يعملون في صيد الأسماك من نوع القرموط(١٥) ويجففوا لحمه بعد أن يقددوه كشرموط ثم يعرض على حرارة خفيفة عن النار خشية أن يصيبه التعفن أو يعرض على الهواء تحت حرارة الشمس ثم يحزم وينقل إلى الأسواق أما النوع الثاني هو ما يسمونه (المندجي) وهو عبارة عن أسماك صغيرة(١٦) وتوضع على حفرة في الأرض ثم يقوم بعجنها على بعض بواسطة أعمدة من خشب على طريقة (الفندك) ثم يصنع منها على شكل قوالب كقمع السكر ثم نعرض على التجفيف تحت حرارة الشمس علاوة على إنتاج السمن البلدي من الألبان المتوفرة مما يجمع منه يعد بمئات الصفائح وقد دخلت في الآونة الأخيرة صناعة الجبن وتنقل أصحابها معهم أينما ساروا هذا عمل الرجال والنساء أما الشباب من الجنسين بحكم عدم المسئولية التي تقع علي عاتقهم فهم يقضون نهارهم في لعبة الضالة والليل في

حفلات الرقص ولعب النقارة ومنطقة سفاهه هذه ليست قاصرة على العرب بل تجد بينهم من الدينكا والجور وهم القبائل المختلفة ديناً وعادة فالجواب سـهل ميسـور حيث أن هذه التجمعات ليست بحديثة العهد بل تمتد جذورها إلى مئات السنين وكان مصدرها في بداية الأمر الخوف نعم الخوف مما يملك العرب من خيول وأسـلحة نارية ومن المعروف عندهم أن الحصان هو من أدوات الحـرب ومعـداتها وهـم يتحاشون الوقوع في حرب غير متكافئة يعملون أنهم لا أخوة متحـابين لا يحـدث بينهم ما يعكر صفو الأمن والشباب عرضه لإثارة الفتنة بـين هـذه طاقـة لهـم بمواجهتها قد تتعرض أموالهم وبناتهم للسلب وقد تغيرت الأحوال تـدريجياً عنـدما بدأت بعض القبائل العربية بالتزاوج من بناتهم وأصبحت المصاهرة لهـا قداسـتها واحترامها بين الطرفين وعملت في تلطيف الجو ومعايشتهم في سلام ولم يتغيـر الحال بعد أن عمت الفوضى جميع مناطق الجنوب ودخول الخوارج الغابات وأخذوا يفتكون بالأهالي العزل فلا زال قبائل العرب يتوافدون نحو سفاهه وقد وضعوا في حسابهم كل ما يجئ به الغيب وأعطوه وزنه واستعدوا له لأن المسألة مسألة حياة أو موت لأن ظروف المرعي التي لم يجدوا لها بديلاً تفرض عليهم ركوب المخـاطر مهما بلغ الثمن أو كان حجم التضحية علاوة على ما يجدونه من تشجيع من الأهالي ليدرءوا عنهم هجمات الخوارج ويحموهم من ممارستهم من سـلب ونهـب وقتـل الأرواح البريئة هذه هي سفاهه في جملتها(١٧) .

علاج نفسي

بعد عودتي من رحلة سفاهه وجدت أحد أبناء العرب الذين يعملـون فـي تجارة السمك المجفف ما بين مراكز مديرية بحر الغزال وجدتـه ينتظرنـي أمـام الدكان وقال أنا أريد أن أصدقك القول عسي أن أجد منك العون وقال منذ ثلاثة أيام مضت أنا لم أنق للنوم طعماً وقد شعرت بالضيق والكآبة ويرجع السبب إلى بعض أخواني الذين يشاركوني السكن في حجرة واحدة بعد أن نفذ ما كان معي من سجاير

بعد صلاة العشاء وهممت بالخروج بحثاً عن السجاير فقام أحدهم وقدم لي لفافة فيها خليطاً من السجاير وكمية من البنقو فامتنعت من أن أصب منها شيئاً لأني أعلم ما يترتب عليها وعلى متعاطيها ربما أذهبت عقله وتحت إلحاح شديد على أن آخذ شفطة واحدة فأخذت شفطة وأخرى فإذا بالأرض تموج تحت أقدمي والبيت يدور ويلف فأسرعت نحو فراشي وتمددت وتغطيت ببطانيتي لكن الدوار لم يفارقني وصرت أتقلب في فراشي إلى أن طلع الفجر فقمت متثاقلاً وصليت الصبح وللآن لم يعاودني نشاطي ولم استطع مزاولة عملي لأني مشدود الأعصاب وأري خيالات تتراقص أمامي منها ما هو مزعج ومخيف ومنها ما هو مسر وكنت أنتظر رجوعك بفارق الصبر فأيقنت أن قلت له لا علم لي بالعلاجات والأدوية فقد يصيبه اليأس وتزيد حالته سوءاً وربما يفقد عقله فلابد من علاج نفسي فقلت له أنا ممكن أعطيك دواء ولكن بشرط ألا تعود لمثلها أبداً فقال نعم لك ذلك قلت أذهب من مكانك هذا إلى شاطئ النهر واشتري كمية من السمك على قدر ما يكفيك لوجباتك الثلاثة تكون سليقة لا تضيف إليها إلا الملح وقليل من البصل وتأكله بارداً وأن تكثر من شرب عصير الليمون والبرتقال وتأخذ مضجعك بعيداً عنهم لئلا تزعجك حركاتهم وفي صباح الغد عد إلى مرة ثانية .

عاد في الصباح وسألته عن حاله قال فعلت كل ما أمرتني وأكلت من السمك غير أن مشاركتهم لي لم أجد كفايتي معهم والكمية القليلة التي أصبتها كانت كافية لتذيقني طعم النوم وقد نمت أكثر من خمس ساعات قلت عاود الكره وأكل منه حتى تشبع وجاءني في اليوم الثالث ليشكر وقد عاد له نشاطه ونومه.

وأنا عندما أعطيته هذه الوصفة استناداً على أعمال الذين يتعاطونها لأنهم دائماً ما يميلون إلى تناول الأشياء الحلوة منها خليط السمسم والسكر وقصدت بالليمون والبرتقال تقوية دمه وحذرته من المنبهات كالقهوة والشاي الأحمر وقد نجحت الوصفة وأخذ يعالج بها غيره.

قبيلة البلندا حبل بندا والحرب النفسية

قبيلة البلندا هي إحدى القبائل التي تسكن جنوب غرب مدينة واو تشاركها السكن في هذه الرقعة قبيلتي الأندقو وبعضاً من بطون قبيلة كريش التي نزحت عن وطنها الأصلي منطقة راجا وكل هذه القبائل الثلاثة تتفق في كثير من العادات بحكم المواطنة منذ مئات السنين فهم يتخذون من الزراعة مهنة رئيسية وأهم محاصيلهم الذرة والذرة الشامية والفول السوداني والسمسم واللوبيا بأنواعها والبفرة(١٨) وكان دخل الفرد السنوي ما يكفي لحياته وحياة أسرته ثم يقضوا بقية العام في شبه عطالة يدخل الغابة يحمل حربته وقوسه وكنانته يلتمس من الصيد ليعود به إلى داره وكانت هذه حياة القبائل الثلاثة المتجاورة والمترابطة ولم يطرأ عليها التغيير إلا بعد أن دخلت صنعة أرجل العناقريب من شجر المهوقني الذي ينمو بكثرة في تلك الأرض بواسطة آلة صغيرة بسيطة تدار باليد تسمي المخرطة لأنها تشبه من حيث الشكل والمعدات وطريقة دورانها نفس الآلات التي تستعمل حالياً في سوق أمدرمان خراطة سن الفيل والأبنوس مما يدل على أنها انتقلت من هناك بواسطة العمال الذين كانوا يمارسون هذا العمل بمدينة أمدرمان فنالت رواجاً كبيراً لكثرة الأشجار وتنوعها خصوصاً شجر المهوقني الذي يعتبر هو الخامة الأساسية لأرجل العناقريب(١٩) وبعض المصنوعات الأخرى ووجود شجر الأبنوس الذي يصنع كتحف فنية ومطعمة بالسن أو بقرون البقر يقتنيها ميسورو الحال للزينة وما وصلت هذه الآلة تلك المنطقة حتى عشقها كل رجل وأخذت في الانتشار بسرعة وأخذ يتعلمها كل إنسان حتى دخلت كل بيت وأصبحت تدر عليهم دخلاً يومياً لا يستهان به وغيرت من مجري حياتهم وتحسنت حالتهم المعيشية حيث يأخذ الفرد منهم مما صنعه ليبيعه في الأسواق ويشتري كل متطلبات البيت بعد دخول هذه الصناعة الجديدة . دخلت السعادة كل بيت وأثر النعمة ظاهرة على وجوه الفتيات من حيث اقتناء الملابس الغالية والزاهية الألوان وشعرت بأنها عضو له وزنه في المجتمع

بعد أن كانت كما مهملا بين الحقول والمزارع شعثاء غبراء كلــون الأرض التـــي تعمل بها هذا التقدم الذي شمل كل فئات وقبائل بحر الغزال إلا قبائل الــدينكا قــد تخلفت عن الركب الذين شغلتهم تربية الماشية والزراعة عمن سواها ومما ساعدهم على ذلك طبيعة الأرض والمناخ المعتدل أكثر مما لدى القبائل الأخــرى ورجــل الدينكا أكثر حيوية بحكم الغذاء الذي تربي عليه منذ الصغر وهو اللــبن والســمك وهما من العناصر المهمة لتقوية جسم الإنسان تمده بسعرات حراريــة تزيــد مــن نشاطه وطاقاته التي تدفعه للعمل إلى هنا نكون قد بينا السمات المشتركة بين القبائل الثلاثة وبقية القبائل في منطقة بحر الغزال عامة وقد فاتنا أن نذكر عاملاً هاماً لــه أثره في هذا التجانس والتمازج إلا وهو غزو الزبير باشا وأعوانه لتلــك المنــاطق وإخضاعها لحكمه مما حذا بالأكثرية من الرجال باعتناق الدين الإسلامي ثم تقلص ظله بعد ذلك بدخول الكنائس وتأييد الاستعمار لها وكانت الحرب الباردة عوان بين المسلمين القدامى وبين التبشير بدين المسيحية إلى أن انقرض ذلك الجيل وانفــردوا بالأجيال الحديثة واستطاعوا أن يلعبوا دورهم بعد أن غاب أبو شــنب(٢٠) وكانــت هيئة الكنائس العالمية التي تمدهم بالمال والمؤن وكان الغرض الأساسي هو محاربة ومحو كل أثر للعرب سواء كان من حيث اللغة أو عادة اللبس لكنهم فشلوا في ذلك حيث أصبحت أصيلة في نفوسهم ولا يمكن الرجوع عنها وللبلندا ميزة خاصة بــين قبائل بحر الغزال وهي معرفتهم بخواص عروق الأشجار منها ما يســتعمل للشــر ومنها ما يعمل للخير وعلاج الأمراض المختلفة كالباطنيــات والأورام والجــروح وهذه العروق منها ما يشرب ومنها ما يعلق على الأعناق ومنها مــا يــربط علــى الأذرع وعقيدتهم من حيث النفع والضرر عقيدة راسخة بين كل طبقــات الشــعب هناك وهم يخشونهم وهي تباع وتشتري من الكجور صاحب الخبرة ولهــم طــرق عديدة في استعمالها أن كان المعمول له ارتكب جرماً كبيراً يستحق المــوت دفنــت هذه العروق في قبر ميت وأن كان الجرم لا يستحق الموت فتــدفن العــروق بــين

الأثافي وأماكن إضرام النار بحيث لا تحترق ويكفي أن تصلها حرارة النار فالمعمول له يشعر دائماً بالحرارة تسري في جسده وفقدان الشهية للطعام وينتحل جسمه وبمجرد شعوره بهذه الإرهاصات يبادر بالذهاب إلى الكجور بعد دفع شيء من المال مادياً كان أو عينياً فيعطيه الدواء اللازم وهذا المنظوم من العرق معروف باسم (حبل بندا) أما إن كان المرض بسيطاً فلا يحتاج المريض إلى دفع شيء من المال كالشرب الباطنية والجروح البسيطة .

ولكن هل تعرف مدى تأثير حبل بندا على معنويات الناس هناك واعتقادهم بنفعها وضررها أسوق لك هذه الحكاية عن شاهد عيان عايشها بنفسه دخلها كوسيط مصالحه بين المتنازعين وكان أحد التجار المقيمين في أبَّا(٢١) وهي قرية على الطريق الرئيسي الذي يربط ما بين مريدي يامبيو مارا بمنطقة غرب الاستوائية حتى إقليم بحر الغزال ولا تبعد عن مدينة مريدي إلا بنحو ستة وعشرين ميلا تقريباً وبها سوق وسكانها من قبائل الزاندي ومن عادة التجار أن يشربوا شاي الصباح مجتمعين في فناء السوق بعد أن يفتحوا متاجرهم . يقول الراوي فإذا برجل قادم أشعث أغبر يحمل سلاحاً نارياً ويلبس بنطلوناً من الكاكي وقميصاً كنغولياً يدخل السوق عن طريق الغابة جاء يجر رجليه جراً من شدة الإعياء والتعب ورغم ما علق بوجهه من غبار ووعثاء السفر تبدو على ملامحه أنه ميسور الحال موظفاً ذا مكانة مرموقة في مجتمعه وقابلناه بترحاب وأكرمنا وفادته ويتكلم اللغة العربية بلهجة لا بأس بها وبعد أن ارتاح قليلاً بدأ يقدم نفسه ويكشف عن شخصيته وهويته والمهمة التي جاء من أجلها وقال اسمه جوزيف شوانغو وهو من قبيلة البلندا ببحر الغزال وانتخب عضو في الجمعية التأسيسية وهو الآن في إجازة وعنده رخصة صيد للأفيال وبما أن منطقة بحر الغزال فقيرة من هذا النوع حتى الموجود منها صغاراً من ناحية السن والجسم ولذلك اخترت هذه المنطقة لعلمي أنها غنية وعامرة بأنواع الحيوانات المختلفة واتخذت خبيراً من أهل المنطقة وقد نجحنا في مهمتنا إذ

التقينا بأحد الأفيال وأطلقت عليه النار وقد أصبته إصابة قاتلة غير أنه هـرب بما بقي له من رمق بعد أن نزف دماً ونحن الآن نتتبع أثره منذ يومين وسـنجده ميتـاً وما جئت إلا لنشتري بعض احتياجات الرحلة وتركت الخبير يسير على أثر الـدم وكان أحد الحضور يسمي مايكل مندليو كان بوليساً إلى أن وصل إلى رتبة جاويش وبعد التقاعد عين كرئيس طلبه يعمل في إصلاح الشارع كان ينصت باهتمام بـالغ لكل ما يقول وفي سرعة تسلل عن المجلس وهو يضمر شيئاً لا ندريه وبدافع مـن الغيرة والحسد اتصل باثنين ممن يثق فيهم فأثار حفيظتهم بأن ما قام به هذا الرجـل يمس كرامة القبيلة يجيء من بحر الغزال ويدخل ديارنا دون اعتبار للسـلطان ولا البوليس فأنا أشير عليكم برأي صائب تنادي في كل أهل القرية للخروج للغابة فإذا عثرنا على الفيل ندعي أن أحمد إدريس وهو الذي إصابة ويكون نصيبه السن ولنا اللحم واحمد إدريس هذا يحمل بندقية ٣٧٥ عادة لا ترقي بأن يسـمح لهـا بصـيد الأفيال كانت مؤامرة محبوكة الفصول أمنوا عليها جميعاً وعلـى الفـور أرسـلوا الرسل يحثون الناس على دخول الغابة فلم تمض ساعة ونصف الساعة حتى عثروا على الفيل ميتا وعملوا في جسمه بالتقطيع كل على قدرته ونزعوا السن وفي أقـل من ساعتين كان اللحم قد دخل البيوت ولم يبق إلا الفرث وبعد قليل جـاء لأحمـد إدريس من يقول له إن ضيفاً ينتظرك في الدار فلما وصل وجد السن داخـل بيتـه وشرحوا له المؤامرة وهذا نصيبك هي السن فاعتبره رزقاً ساقه إليه أمـا الخبيـر المتتبع للأثر رأى وبفراستهم المعهودة رأى تجمع الطيور وعلى رؤوس الأشـجار وكان يطير من الفرح وهو واثق إن هذه التجمعات من طيور وصقور ما هـي إلا على جثة الفيل فهرع نحوها وما أن أقترب من المكان حتى سمع ضوضاء النـاس وبوصوله مرقد الفيل لم يجد إلا آثار الفرث وبقية عظام مبعثرة هنا وهناك فأصيب بصدمة نفسية عنيفة ورجع وهو يضرب أخماس باعشـار فـالتقي بصـاحبه فـي منتصف الطريق وأخبره ما حصل فرجع غضبان أسفاً وتوجه مـن تـوه لنقطـة

البوليس وفتح بلاغاً ضد أهل القرية ككل وقبل أن يقوم البوليس بإجراءاتــه وجــد التجار أنفسهم في موقف حرج بتورط أحمد في هذه القضية وأي إجراء يتخذ هــو وضع أحمد في الحراسة وسيتعرض لعقاب صارم وقد يصل إلى درجة مصــادرة السلاح ولم يسلم من عقوبة السجن أو الغرامة تحت مواد كثيرة فلهذه الاعتبــارات فكر تجار المنطقة لوقف فتح البلاغ ويقدموا الأجاويد لإصــلاح ذات البــين بــين الفرقاء وقد بدأت المشاورات أولاً ومع مدبري المؤامرة وتوصلوا إلى حل وسط هو أن يعطوه السن فذهبوا إلى الضيف بعد أن شرحوا له الموقف بعدم إمكان الحصول عل اللحم بعد أن تفرق في جميع أنحاء المنطقة ومنهم من باع ومــنهم مــن أكــل وأصبح جمع جزء منه ضرب من المستحيل ومن باب المال تلته ولا كتلتــه خــذ السن واستعوض الله لتخفيف بعض ما لقيت من خسارة فرفض رفضا باتــاً وقــال اللحم بالنسبة إليه أهم بكثير من السن وهذه حقيقة إذا وضعنا في الحسبان أن اللحــم سيقدمه كهدية للذين انتخبوه وساعدوه في الانتخابات حتى وصل إلى العضوية فماذا يقول لهم بعد عودته من هذه الرحلة فإن سئل أين اللحم فماذا يقول لناخبيه على أثر هذا الشعور بالمساءلة أصر على الرفض ولكن الوسطاء لازالوا به حتــى أقنعــوه فخاطبهم قائلاً أنا سأترك الأمر كله لأخذ السن ولا غيرها من أجل تدخلكم في الأمر واعتبروا الأمر منتهياً وشكروه على حسن صنيعه ثم قال معقباً ولكن هناك شــيء يجب أن تعلموه أنا من قبيلة البلندا المعروفة لدى كل سكان الجنوب بأن حبل بنــدا هو ملكاً نستخيره على من نريد نفعه أو ضره فالذين قاموا بهذه المؤامرة أنهم قــد نجحوا في تنفيذها أو إنتصروا على كغريب في المنطقة سوف يجد كل منهم علــى قدر نصبه في المؤامرة أما الذين هم رؤساء المؤامرة فسيجدون مغبة ما صنعوا في القريب العاجل وعلى وجه التحديد إن هم عيدوا معكم عيد الميلاد هذا العام أنا لــم أكن بلندا وكان لم يبق للعيد إلا شهرين اثنين وأزيدكم علماً وإيضاحاً ســتكون أول الإرهاصات صاحب السلاح الذي أقحموه في المؤامرة فجــزاءه عنــدي إن هــذه

البندقية لا تقتل بعد اليوم ولا دجاجة ومراعاة لغربته فلن يصيبه أذى إلا البسيط فشكروه وغادر المنطقة متجهاً نحو أهله وهو مكسور الخاطر بما لقيه من خيبة أمل بعد تلك الفرحة العظيمة التي بني عليها آماله العراض يمر اليوم بعد اليوم فإذا بنزلة معوية تنتشر بين السكان في شكل وبآي لكنها سليمة لم تحصل وفيات وخفت حدتها أما صاحب السلاح أحمد فكان قلق النفس وفي صباح أحد الأيام علا الصياح والناس تنادي الزراف يمر بمقربة من السوق فجري خلفه كل إنسان بحربته أو قوسه وأخذ احمد بندقيته وشق طريقه بينهم ووجد فرصته في واحد منها يمشي في المؤخرة فاختاره من بين السرب وما كاد يضغط على الزناد وإذا بحشرة تنزل بين عينيه وتلسعه أغمض منها عيناه ولم يتمكن من رؤيا ما حوله وشعر وكأن جمرة من النار أو شهاب أنقض عليه ابتعد السرب وظل هو ممسكاً برأسه الذي كاد أن يتصدع من شدة الألم وبدأ الوجه في التورم ووجد من بعض المارة ما يساعده للوصول إلى منزله وكادت العيون أن تخرج من محاجرها من شدة الورم واستمرت الحالة لمدة أسبوعين ثم بدأ التحسن إلى أن تم شفاؤه وأصبح سوء الطالع يلازمه فالبندقية لم تصب شيئاً وساءت حالته لأنها كانت مصدر رزقه وهو يعتمد عليها وعلى أثر موجه النزلة التي أصابت المنطقة كانت إصابة اثنين من أعضاء المؤامرة كانت أصابتهما قاتلة فماتا معاً في يوم واحد . بقي على قيد الحياة رأس المؤامرة وقد رأى ما حل بصاحبيه فجن جنونه وطار صوابه وأيقن أنه ميت لا محالة وأصبح يتخبط تخبط العشواء يبحث عن وسيلة تنقذه من هذا الموت ففكر في اعتناق الدين الإسلامي ربما يجد فيه ما يكذب تلك النبوة فاستشار أحد التجار الذي أشار إليه إلى مدير المدرسة وذهب إليه ليلقنه مبادئ الإسلام . وفي أحد الأيام طرق باب داره رجل يعرفه وبشره بأنه جاء إليه يحمل هدية قيمة من محمد قاسم نائب الدائرة الذي كان يعمل معه كداعية حتى فاز وتقديراً لخدمته وأتعابه التي تكبدها من أجله يقدم له هذه الهدية وهي عبارة عن بندقية ٣٧٥ مغنم ومعها كمية

من الذخيرة وهو سلاح غالي القيمة يخول لحامله صيد الأفيال بطريقة قانونية وكاد أن يطير فرحاً وبدأت الآمال العريضة تداعب أفكاره ويري بذلك أنه قد وضع قدمه على المدرج الذي سيفضي به إلى قمة الثراء العظيم وسيكون أغني أغنياء المنطقة ويتحسن موقفه الاجتماعي بما ستدره عليه هذه الهدية من مال لكن الهواجس تطفي على الأمل فتنغض من مضجعه ويطير النوم من عينيه ويسهر الليالي ويئن أنات مكبوتة تحطم معنوياته كالجرح الغائر تظنه قد برئ وهو يخزن في داخله القيح والنتن وكان يقابل المهنئين ولا يجد سلواه إلا بعد أن يخرج إلى السوق وبما يمنونه به من مستقبل زاهر بهذه الهدية التي هبطت عليه من السماء وهو لا يدري إن السم النقيع الذي يرقد تحت الدسم خرج كعادته من بيته ليتناول مع التجار قهوة الصباح فإذا برجل من معارفه يرتدي ثياب الغابة وهو يحمل حربته ويتنكب قوسه وكنانته وخاطبه قائلاً إنني خرجت مبكراً لأجد شيئاً من الصيد فإذا بجاموس يرعى منفرداً بالقرب من هنا فأشار عليه أن يخفض صوته لئلا يسمعه من يسبقه عليه ويفسد عليه خطته وغشي بيته وأخذ بندقيته وأسرعاً في مشيتهما ودخلا الغابة وفي طريقه تقابل مع امرأة تمت إليه بصلة النسب وهي تقتلع من ثمار البامبي لعمل الفطور لزوجها ولعيالها فخاطبها قائلاً أكثري منه وبعد قليل سنمدك باللحم ونتمتع بطعام دسم فتمنت له التوفيق شقا طريقهما في وسط الغابة وكان الجاموس لم يبرح مكانه فرماه بطلقة فأصاب منه جرحاً فوق موقع القلب بقليل فنزف دماً وجري والدم يتساقط على الأرض وتتبعا الأثر ولكن الجاموس بحيلته المعروفة ومكره المعهود وحباً في الانتقام من مطارديه قطع مسافة ميل واحد ثم انثنى راجعاً واتخذ له مخبأ بالقرب من مكان تساقط الدم وعينيه تراقبهما وهما يسيران وانحصر كل تفكيرهما في أثر الدم وهاهو لا زال يسير أمامهم نسيا حقد الجاموس ومكره فخرج عليهم من مكمنه كالسهم فقذفه الرجل الثاني بحربته فلم تعمل في جسمه وقصد الرجل الذي يحمل السلاح فوخزه في بطنه حتى ما سقط على الأرض غرس قرنه على بطنه

ثانية ودفعه إلى أعلى حتى شق بطنه وفتح صدره وأخذ يعمل في جسمه بقرنيه وبرجليه حتى تركه قطعة من اللحم والجاموس يلغ ما تساقط من دم الجثة وكلما هبت نسمة من الريح حركت طرفا من ملابسه ظن أنه لازال به رمق من الحياة فيعود إليه وبأظلافه حتى اختلط العظم باللحم أخذ بعد ذلك طريقة للغابة وكان الرجل قد هرب لما رأى ما حل بصاحبه وذهب ليبلغ الخبر إلى أهله فجاءوا ولفوه في قطعة قماش صغيرة ووجدوا البندقية قد انكسرت إلى نصفين مما يدل على أن المفاجأة قد شلت تفكيره فأمسك بالبندقية من ماسورتها وضرب بها الجاموس مما سبب لها الكسر فذهب هو والبندقية وذهبت معه أماله العريضة وصدق من قال من حفر حفرة لأخيه وقع فيها ويقول المثل السوداني في هذا المعني (يا حافر حفرة السوء وسع مراقدك فيها) .

نرجع إلى التاجر الذي كان دوره ثانوياً في المؤامرة لكنه لقي من العقوبة فوق طاقته فالبندقية لم تصب شيئاً كلما ذهب إلى الصيد أما أن يخطئ الهدف أو يفر الحيوان من بين يديه حتى ساءت حالته المالية وبعد سبعة أشهر تقريباً أرسل البلنداوي خطاباً لأصدقائه الذين أكرموه في المرة الأولى ويعلمهم بأنه جاء لصيد الفيل وهو لا يبعد كثيراً عنهم فاتفق الرأي على أن يذهبوا له في مكانه ويرجوه أن يفك الحصار الذي فرضه على البندقية ومعهم صاحبها بعد أن جمعوا نحو المائة جنيه ليقدموها له وبعد وصولهم تمنوا له التوفيق في مهمته هذه المرة وطلبوا منه أن يعفو عن هذا الرجل الذي تعرضت مصالحه للخطر ويكيفه عقاب هذه البندقية لم تأت بقرش واحد منذ أن فارقتنا وخذ هذه الهدية منا فرفضها بادئ الأمر وقبلها بعد إلحاح وأمسك بالبندقية وتفل في فوهتها وتكلم بكلمات لم نفهمها ومسح بيديه على جوانبها وأعادها إليهم وقال إني قد عفوت عنه وأنفك الحصار وسارت الأمور سيرها الطبيعي .

صلاح سالم في واو

سئمت مدينة واو وحياتها الرتيبة ذات الثلاث شعب السوق والبيت والنادي لا تجد فيها ولا أثر لجديد يطالعك في المستقبل القريب وبسبب الفراغ الممل تجد نفسك تتمسك بحلقة مفرغة لا طرف لها لمن لا يعتاد الحياة في مثل هذه الأجواء رغم ما لقيت من احترام كل الطبقات فقد كنت عضواً في لجنة النادي التنفيذية ونلت احترام طبقة التجار حيث كان الاستعمار إمعاناً منه في تشديد قبضته على الجنوب ووضع العراقيل أمام كل ما هو عربي محافظة على العزلة التامة المفروضة على سكان الجنوب فكانت النشرات التي تخرج عن دواوين الحكومة والإعلانات والعطاءات تصدر باللغة الإنجليزية وكل دواوينها لا تجد في دفاترها كلمة واحدة باللغة العربية ولما كنت رغم إنجليزيتي الضعيفة أقوم بترجمتها إلى العربية في كل ما يختص بالتجار وكنت الوحيد الذي يعرف اللغة الإنجليزية من طبقة التجار وكمثل لوضع العقبات أمام انتشار اللغة العربية ففي حالة ما إذا أردت أن ترسل برقية لأحد مراكز بحر الغزال ولو تجارية يجب كتابة الكلمات العربية بحروف لاتينية لأن موظف البريد والبرق هو من أبناء الجنوب ولم يتعلم الإشارات البرقية إلا بالحروف اللاتينية فهو يكتبها وقد لا يعرف معناها إذا استثنينا عواصم المديريات الجنوبية الثلاث تقبل برقيات باللغة العربية لأن رؤساء المكاتب من أبناء الشمال رغم ذلك لم ترق في نظري حتى لو أرسلت النظر إلى المستقبل البعيد لم أجد فيه بارقة أمل تبشر بمستقبل أفضل وكنت كثيراً ما أفكر عندما أخلو بنفسي وأقارن بين مدينة واو بمدينة ملكال القي البون شاسعاً والفرق عظيماً في كل أوجه الحياة وفي مستقبل الأيام وكنت أقول في نفسي على من ألقي التبعة وأنا الذي اخترت هذا المكان المنفي طوع إرادتي ولم يجرني إليه أحد وكنت أجد في واو سجناً واسعاً لكنه غير انفرادي وقد أفضيت بهذا القلق الذي يساورني لبعض الأخوة الذين يزورون القطية لموقعها الجميل تهديها نسمات الليل عبير الزهور ونور

الأشجار مما يجعل منها حديقة وتزيد من الشعور بالنشوة وهم يعاقرون بنت الكرم تارة وبنت العود تارة أخرى فتكسبهم زهو الطاؤوس والشعور بالعظمة وكنت أجلس على طرف من المجموعة حيث أني لم أشاركهم في شيء منها لأني لم أذق طعمها في حياتي ولكن من باب المثل القائل (مجبور القناص على صحبة الكلب) قلت بحت لأحد أصدقائي بما تساورني من هواجس وقد لا تطول إقامتي في واو ربما أرجع إلى ملكال وكان يري مثل رؤياي وما هي إلا شهور قليلة حتى تسلمت برقية من الأخ عبد الرحيم نمر(٢٢) رحمة الله رحمة واسعة حيث نقل في وظيفة باشكاتب للمديرية الاستوائية بجوبا ومحتواها أن اصفي حسابي وأعمالي وأقوم لجوبا بأسرع فرصة ممكنة تنفست الصعداء وقلت جاء الفرج فأخذت في إعداد العدة للتخلي عن واو والتوجه إلى جوبا(٢٣) ووجدتها كما تركتها منذ سنتين لكن قبضة الاستعمار الحديدية قد ارتخت شيئاً قليلاً بعد الاضطرابات التي عمت العاصمة المثلثة ومطالبة الشعب بحق تقرير المصير وانعقد مؤتمر جوبا وقد خرج بتوصياته المعروفة ونشطت الأحزاب الشمالية وانفتحت أبواب الجنوب أمام الشماليين وعند وصولي إلى جوبا استطعت أن استخرج رخصة تجارية ورخصة جزر بسوق نمرة ٣ وهو حديث النشأة وكنا ثمانية وسارت الأمور طبيعياً غير أن الجو السياسي تنتابه نزعات متعددة وتيارات مضادة فالإنجليز يحرضون الشعب ويدعوهم إلى التمسك بوحدتهم وعدم تأييد الأحزاب الشمالية والعمل على استقلال الجنوب وانفصاله عن الشمال وكان من بينهم دعاة الوحدة بين مصر والسودان وفئة أخرى تنادى باستقلال السودان وفي هذا الجو المكهرب أقصى الملك فاروق عن عرشه وتولت الثورة زمام الحكم بزعامة اللواء محمد نجيب والبكباشى جمال عبد الناصر وازداد الموقف تأزماً وجاء وفد من أعضاء الثورة المصرية من بينهم الصاغ صلاح سالم(٢٤) والشيخ الباقوري(٢٥) وعصمت عبد الجواد(٢٦) كصحفية مرافقة للوفد وطافوا على أنحاء المديريات الثلاثة فكان لبعض زعماء الجنوب

مواقف بناءه تريد الوحدة وأخري معارضة تعمل للانفصال تنفيذاً لرغبة السادة الإنجليز وكان أكثر زعماء الاستوائية مع الوحدة سلاطين وموظفين بارزين وعندما قام الوفد بزيارة مديرية بحر الغزال واجتمعوا على مائدة مستديرة التي قام بإعدادها السادة الإنجليز وحشدوا كل أعوانهم وأنصارهم وحمي الجدل فمنهم من استجاب لصوت العقل ومنهم من أبت عليه منفعته أن يستجيب وعلى رأسهم استانس لاوس بياساما وهو من أصل فوراوي تربي في كنف الكنسية وتعلم في مدارسها وكان يبدي معارضة شديدة أمام الوفد وينادي بعدم جلاء الإنجليز ويعدد من حسناتهم متناسياً مساوئهم وخرج الوفد وهو غير راضي عنه ورغم ما ابدي في الاجتماع من معارضة خرج معهم مودعاً وعلى القرب من المكان وعلى قمامة تتجمع فيها النفايات وعلى الطريق الرئيسي رأوا بعض الصبية وهم عراة الأجسام يبدو عليهم الهزال والضعف وهم ينبشون القمامة ويلتقطون فتات الموائد التي تلقي في القمامة من فضلات الخبز التي ترميها بعض المنازل المجاورة من تجار وموظفين فما كان من الصاغ صلاح سالم إلا وأمسك بذراع استانس لاوس ولفت نظره إلى موقع الصبية قائلاً لاشك أنك تؤمن بأن هذا من حسنات الإنجليز أبناء عمومتك يأكلون من القمامة لا فرق بينهم وبين الكلاب الضالة عراة الأجسام فهل بعد ذلك من ذل وإهانة تلحق بالإنسان الذي كرمه الله من بين خلقه فهنيئاً لك وأنت تمثل السوداني الخائن لوطنه ولم يستطع أن ينطق بحرف واحد وقد ظن الكثيرون ممن شاهدوا هذا الموقف وما ألقاه السيد صلاح سالم من درس قاس على استانس لاوس فيه الكفاية بان يرعوي عن غيه ويغير من موقفه من القضية لكنه تمادى في غيه حتى النهاية هذا باختصار ما كان عليه الموقف السياسي أبان زيارة الوفد المصري وقد صادف نجاحاً عظيماً بين طبقات الشعب مما جعل اسم صلاح سالم على لسان كل جنوبي في بحر الغزال حيث كان يشاركهم الرقص في الاحتفالات التي أقيمت تكريماً للوفد وسجلت كل هذه المواقف في صور فوتوغرافية حملها معه إلى مصر وكان يطلق

عليه في السودان الصاغ الراقص .

دكتور أحمد السيد حمد(٢٧) :

عندما وجدت الأحزاب فرصتها أرسلت مندوبيها ليقوموا بالدعاية استعداداً للانتخابات الذي تقرر إجراءها في القريب العاجل فأول من وصل إلى مدينة جوبا الدكتور أحمد السيد حمد وحل ضيفاً كريماً على السيد عبد الرحيم نمر رحمة الله عليه لما تربطهم من صلة القربى وفتح باب داره له ولزائريه على مصراعيه رغم أنه يعلم أن موقفه هذا سيجلب سخط الإنجليز عليه وهو موظف فكيف يأوي خصومهم للعمل ضدهم ولكن شجاعته المعهودة والمعروفة لديهم ووطنيته فوق الوظيفة وفوق المنفعة الشخصية وهيأ له غرفة بنملية خارجية تطل على الشارع وهي جزء من البيت الواسع الذي يسكنه وهو منزل حكومي بالقرب من الكنيسة والمستشفى أفسح المجال أمام مقابلاته الشخصية والدكتور أحمد غني عن التعريف فهو قطب من أقطاب الوطني الاتحادي وأحد مؤسسيه وهو دعامة من دعاماته جاء مندوباً عن الحزب ليجمع حوله مؤيدين لهذا الحزب فأخذ يقيم الليالي السياسية في الميادين العامة ويؤمها جمع غفير من المواطنين شماليين وجنوبيين رجالاً ونساء فيقف على المنصة خطيباً معدداً مساوئ الاستعمار وما وصلت إليه البلاد على أيديهم من تأخر في جميع النواحي طيلة الخمسين سنه التي قضوها وهم كالكابوس يجثمون فوق صدور هذا الشعب ولم تكن نسبة التعليم فيه إلا أقل من ٥% بالنسبة للسودان ككل وتحدث عن الجوع والعرى والجهل والمرض حيث كل ذلك من صنع الاستعمار الذي ما حل على قوم إلا ألبسهم ثوب الذل والمهانة فالاستعمار هو ألد أعداء الإنسانية وان أسباب التخلف الذي نعاني منه الأمرين ونحن نعيش القرن العشرين لا زال بعض اخوتنا وبناتنا وأبنائنا يلبسون جلود الحيوانات والبعض عراه لا يجدون ما يستر عورتهم وكان التصفيق الحاد يقاطع كل جملة وكان المستر ايفن جونز هو المفتش المسئول في المدينة كان يندس وسط الصفوف يسترق السمع

وكانت الليالي تتوالى في جميع أحياء المدينة وعدد الحضور يزداد كما كثرت الزيارات ليلاً ونهاراً وهنا شعرت بالمسئولية بصفتي أكبر سناً من الأخ عبد الرحيم والسني محمد خير وكنا نقيم سوياً في المنزل شعرت بالمسئولية التي تقع على عاتقي وهي السهر على سلامة الدكتور أحمد وأخشى مكر الإنجليز وإلحاق الأذى به أثناء نومه في فراشة في نملية غير مسلحة إلا بسلك النملية الضعيف الذي يمكن تمزقه بسهولة ثم يدخل حيث ينام الدكتور فكنت أقضي ليلي ساهراً وأقابل كل طارق وكانت الاجتماعات تتوالى تجتمع وتنفض في سبيل عمل لجنة للوطني الاتحادي وإيجار دار لها وطريقة تمويلها وحث الجنوبيين إلى الانتماء لهذا الحزب وكان أحد الجنوبيين ممن عرف بولائه للإنجليز كان حريصاً على حضور كل هذه الاجتماعات وقد غاب مرة فاقترح أحد الحضور بطرده عن الاجتماع بتهمة ولائه وهو جاسوس لحساب الإنجليز وحيث أن المفتش ايفن جونز مفتش المركز والمسئول عن مدينة جوبا يأتي منزله يومياً ويمكث معه نحو الساعة أو أكثر فرد عليه الدكتور احمد إننا ليس لدينا ما نخفيه من الإنجليز ونحن أصحاب حق نجري وراءه ومن واجبنا كرسل وطنية أن نصدق الناس القول ونشخص الداء ونقدم الدواء وعلينا رسالة يجب أن نؤديها نحو إخواننا الجنوبيين ولا نتركهم ألعوبة في أيد الاستعمار ليجعلوا منهم جنوب أفريقيا أخري فالواجب علينا تبصيرهم بما يحاك ضدهم وضد السودان ككل قبل فوات الأوان فكان الدكتور احمد وقد أقام الليالي السياسية في ميادينها العامة في كل المديريات الجنوبية الثلاث وقابل الزعماء وسلاطينها وكانت علاقته بهم قوية ومتينة محبوب من جميع الأوساط غيور على وطنه ومواطنيه وكان له القدح المعلى في إرساء قواعد الوطني الاتحادي ورسوخ مبادئه بين صفوف الجنوبيين الذين لازالوا يذكرونه بالخير . فإن أردت أن أسوق مثلاً لهذا التأييد الذي لقيه الدكتور احمد وخوفاً من أتهم في أمانتي في نقل الحوادث أو أتهم لانحيازي إلى طائفة أو حزب أقولها صريحة أن ميلي للاستقلاليين

أكثر بكثير من ميلي إلى التحزب هذا هو مبدئي الثابت الذي لن أحول عنه قيدا نملة ولم تحدثني نفسي يوماً أن أغير من هذا الاتجاه وفي أحد الأيام بعد وصول السيد الدكتور أحمد بنحو شهر تقريباً جاء وفد من حزب معروف له مكانته جاء بأقطابه وبكل ثقله لكسب بعض الجنوبيين والانضمام لهذا الحزب أقام الوفد ليلة سياسية في مدينة جوبا داخل منطقة السوق وحضرها جمع غفير من الناس أغلبهم من الشماليين وكانت ليلة تحدث فيها رئيس الحزب وأقطابه البارزين وكانت ليلة تعتبر ناجحة من حيث ظاهرها لكثرت الحضور وفي الغد أعلنوا عن قيام ليلة في منطقة سكن الأهالي أمام منزل الخليفة عبد الفراج وهو مواطن شمالي قد أستوطن مدينة جوبا منذ إنشائها وكان رئيس المحكمة الشعبية اصطفت الكراسي وتألقت الأنوار وجاء الناس رجالاً ونساءً وجاء الوفد بعرباتهم واعتلى المنصة الرئيس يقول كلمته إيذاناً بافتتاح الليلة وقال بسم الله الرحمن الرحيم فوقف أحد الحضور واسمه نورين ورفع إصبعه طالباً الكلمة فأمسك المتحدث عن الاسترسال وأعطاه حق الكلمة فقال له يا سيد أدينا الفاتحة أما كل هذا الجمع المحتشد قد تمت مبايعتهم للدكتور احمد السيد وجلس فما كان من الوفد إلا أن قاموا وتوجهوا لعرباتهم دون أن ينبثوا ببنت شفه وتفرق الجمع وهو يضحك هذا الموقف لا يحتاج إلى تعليق فهو أن دل على شيء إنما يدل على الحب العميق الذي يكنه شعب الجنوب نحو الدكتور أحمد فما جمعه حوله من شعبية لم يجدها سياسي لا شمالي ولا جنوبي وقد خلف وراءه ذكري لا تنسي مهما أراد شانئوه التقليل من دوره الوطني أو ينالوا من أمانته وكرامته فالتاريخ كفيل بتسجيل مآثره وما قدمه لوطنه شيء مشهود وهنا عندما أكتب هذا النذر اليسير من مواقفه لأن المجال ليس تاريخي إنما ذكريات فردية فإن في مذكراته التي يحتفظ بها ما يجلو الغامض وينير الطريق أمام كل طالب حقيقة فليتقدم الدكتور احمد لنشر مذكراته(٢٨) على الملأ لأنها ليست ملكاً له بل هي ملكاً للشعب السوداني وملكاً للأجيال القادمة وله حق الإطلاع عليها فهي المرجع لكتاب

التاريخ ليأخذوا الحقائق عن مصادرها قبل فوات الأوان.

جاءت الانتخابات وتعددت رحلاته بين المديريات الثلاثة الجنوبية يراقب اللجان فيوماً يطير إلى بحر الغزال ليقوم بتنظيم العمل وبعدها إلى ملكال وكان في فترة غيابه يترك لي أمر مراقبة المفتش ايفن جونز وتحركاته المشبوهة وإن أكتشف كل خطواته وأرسل بها برقية إلى المستر سكومارس الهندي الجنسية الذي اختير لحياده لمراقبة الانتخابات وكل يأمرني بأن أبعث كل يوم ببرقية أتهم فيها المفتش لتدخله السافر في سير الانتخابات وكنت أفعل ذلك حتى جاءت النتيجة المشرفة ولا أذيع سراً إن كل ما قمت به من خدمات كانت على حسابي الخاص لم أتقاضي عليها مليماً واحداً ولو قيمة البرقيات التي أرسلها كل يوم عن سير الانتخابات وكشف دور الإنجليز بغرض التلاعب في حرية الانتخابات ولكي لا اغمط الناس حقوقهم فقد قامت اللجان الحزبية بدورها كاملاً وبكل أمانة ولم يعطوا المستعمر فرصة التدخل في مجريات الأمور مما جاء بانتخابات نظيفة مبرأة من كل عيب.

عضوية مجلس بلدي جوبا

قبل الانتخابات بنحو عامين لانت قبضة الاستعمار وتشبثوا بإنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذه السفينة المتهالكة وقد تقاذفتها الأنواء من كل جهة فأعلنوا عن قيام مجلسين واحد يختص بالإشراف على مدينة جوبا والآخر لريفي جوبا فالشيء الملاحظ ومعروف ليس من باب إعطاء السلطة لأهلها إنما للسيطرة على الأعضاء والانحياز لجانبهم وكانت الفكرة ليست غائبة على أحد وفتحوا باب الترشيح للعضوية وقسمت مدينة جوبا لعدة دوائر وقد تقدم كل راغب وعلى حسب الشروط المطلوبة إلا دائرتين اثنين الأولى دائرة المستشفي وتقدم السيد الدكتور عثمان أبو عكر(٢٩) حيث كان حكيمباشي المستشفي في آخر لحظة بقيت دائرة واحدة ولم يبق لقفل باب الترشيح إلا ساعة واحدة فاجتمع بي الكثير من سكان الدائرة فألحوا على

بأن أملأ أورنيك الترشيح وكنت حقاً زاهداً فيه لكن تحت ضغطهم وإلحاحهم ملأت الأورنيك وتوجهت نحو ضابط الانتخابات فكانت دائرة الملكية نمرة ٣ ووجدت أمامي الدكتور أبو عكر جاء لنفس الغرض وسلمنا الأورنيك ورجعنا وأخذت الأرانيك طريقها وتخطت كل العقبات من طعون وغيرها وجاءت الانتخابات وأعلنت النتائج فكان فوزنا بالتزكية وأعلن عن عقد المجلس في أول جلسة له للتعارف حيث لا وجود لأجندة عمل دخلوا الأعضاء قاعة المجلس وجاء المفتش ايفن جونز وهو الرئيس دون منازع بحكم وظيفته فلما اكتمل العقد وجلس المفتش على كرسي الرئاسة ونظر في وجوه الأعضاء ووجد من بينها الدكتور أبو عكر جن جنونه واحمر وجهه واستشاط غيظاً عندما علم إن فوزه بالتزكية أبدى اعتراضاً على هذه النتيجة وقال انه لا يؤمن بهذا الفوز ولابد من استشارة للسيد المدير لفتح باب الترشيح من جديد لتلك الدائرتين وأصر على موقفه فمن الواضح من إثارة هذه الزوبعة هو خوفاً من الدكتور أبو عكر المعروف بوطنيته وشجاعته ووجوده بين أعضاء المجلس سيضع العقبات والعراقيل أمام نواياه في خلق جبهة موالية لهم فطلب الكلمة الدكتور أبو عكر فلم ير بدا من الإجابة على طلبه وقال السيد الرئيس أنك لم تكن على إلمام تام بقانون الانتخابات فإن جهلته أو تجاهلته فإن فوزنا بالتزكية حق كفله القانون لا غبار عليه وقد مر بكل مراحله وإننا نتمسك بحقنا الذي كفله لنا القانون إلا أن يحل المجلس بأوامر عليا أو تتم فترة العضوية وجلس ثم طلب الكلمة السيد عبد السلام عثمان وهو من التجار المشهود لهم بحسن الإطلاع وذو ثقافة ووطني غيور ومحل ثقة كل سكان جوبا وقال السيد الرئيس إن القانون صريح ولا غبار على أحقية العضوين الذين تم فوزهما بالتزكية والقانون المعمول بع في جميع أنحاء العالم يجعل منهما عضوين شرعيين رضينا أم أبينا فلنترك الجدل الذي لا طائل من ورائه فلنتكاتف ونعمل لرفعة هذه المدينة بدلاً من إضاعة الوقت ولم يكن أمام الرئيس إلا حلاً واحد هو رفع الجلسة لحين إعلان آخر

وأعلن عن موعد الجلسة الثانية ودخلنا القاعة وجاء الرئيس وأخـــذ مقعـــده علـــى كرسي الرئاسة ولم يبد اعتراضاً على وجودنا ولم يشر إلى الجدل الذي أثاره فـــي الجلسة الأولى مما يدل عل أنه لم يجد تجاوباً مع المدير واستسلم للأمر الواقع .

الدكتور عثمان أبو عكر كان شوكة في حلق الإنجليز

في أحد الأيام زارنا الدكتور عثمان أبو عكر في مكتبنا التجاري الذي نشغله أنا والطيب محمد علي(٣٠) فجلس بيننا ليقول للطيب أريد منك ومن الأخ إبـــراهيم أبو طربوش وكانا من أعضاء الحزب الوطني الاتحادي البـــارزين أريـــد خدمـــة مستعجلة وفي تكتم شديد وسرية تامة ولجأت لكما لأنكما مصدر ثقتي ولا يشك أحد في أمانتكم ووطنيتكم وأشرح لكم الأمر جاء من يطرق باب منزلـــي (الحكـــومي) زائر لم اعرفه وقد تبين لي من سحنته ونوع ملابسه التي يرتديها أنه غير سوداني يتكلم الإنجليزية بطلاقة وبأسلوب راقي مما يدل على أنه مثقف ثقافة عالية وعلـــى تعليم رفيع المستوى وبعد أن أكرمت وفادته أعطيته حقه كضيف قال وفي أدب جم لا أريد أن يدخلك شيء من الشك عن أمري أو تأخذك الظنـــون بـــأني متطفـــل أو طالب مساعدة مادية وما جئت إليك إلا بعد أن علمت عنك الكثيـــر مـــن وطنيتـــك وكرهك للاستعمار وأمانتك وأن يوغندا القطر المجاور للسودان يعاني مـــن وطـــأة الاستعمار وإذلاله للشعب ونهب خيراته وثرواته لصالح التـــاج البريطـــاني ومـــا تحركت من وطني يوغندا إلا بعد أن تأكدت من أن كفاح الشعب السوداني قد آتـــي أكله وهو على وشك أن ينتزع حق تقرير المصير من بين فكي الأسد البريطـــاني وإنك تعلم أن للشعب اليوغندي قضية وهو يكافح من أجل هذا الحق المسلوب وأنـــا لا أكذبك إن قلت إني الرجل الثاني بعد الكباكا المعتقل في لندن إن لم يكن في أحـــد سجونها فهو مقيد الحركة لا يسمح له بمغادرة لندن والتهمـــة الموجهـــة لـــه هـــي تحريض الشعب للثورة ضد الاستعمار فشعرت بالمسئولية وجا دوري ولابـــد مـــن عمل شيء فالتقاضي عنه عار وجبن وآثرت أن ادخل لندن مهمـــا كلفنـــي الأمـــر

لأدافع عن حق الكباكا في العودة إلى شعبه ودخلت السودان متنكراً ولكن كيف الوصول إلى ذلك والسودان الباب الوحيد الذي أستطيع الدخول منه ولكن الصعوبة تبرز في عدم معرفتي للغة العربية وبمجرد أن يصل إلى علم الإنجليز إني من يوغندا فتساورهم الشكوك وسأحرم من مواصلة سفري فشكرته على حسن نيته وثقته فوعدته سوف لا نألوا جهداً لبلوغ غايتك إن شاء الله فمن رأيي الآن وقبل أن ينكشف أمره للسلطات أريد أن تؤجروا لوري خاص خال من أي بضاعة يمر على المراكز وعلى نقاط البوليس وكأنه لوري خاص محلي لا شبهة عليه وينتظرنا بالشاطئ الشرقي في العصر بعد أن يدخل البنطون في دور منتصف النهار ثم يبتعد قليلاً عن موقف البنطون وأنا سأجيء في أخر دور للمعدية لتكون أمامه فرصة الليل بأكمله حتى يدخل ملكال قبل فتح مكاتب الحكومة ولا يقف إلا أمام مكاتب الري المصري ليسلم كبير مفتشي الري رسالة ليعطي الأمر أهميته ويقوم بعملية الترحيل بواسطة بواخره النيلية إلى الخرطوم وبنفس السرية ويعملوا لسفره إلى مصر فإن استطعنا إنجاح الخطة الأولى ومرت بسلام يكون نحن قد قمنا بواجبنا كسودانيين أما ما تبقي من الخطة فهو يقع على عاتق الحكومة المصرية ولا أظن أن هناك عقبة تعترضه أرسل الطيب في طلب أبو طربوش وحكي له كل ما جاء على لسان أبو عكر جهزوا لوري واختير له سائق أمين وحملته المعدية إلى الشاطئ الشرقي وسارت الأمور على حسب الخطة الموضوعة وانقطعت الأخبار إلى ما يقرب من شهر كامل حتى سمعنا بوصوله لندن بدأ يدافع عن قضية الكباكا خاصة وقضية يوغندا وقد نجح في مسعاه للمرة الثانية ويعود الفضل في ذلك للسودان عامة وللدكتور أبو عكر خاصة بمساعدة الطيب وأبو طربوش وكم من جنود مجهولون يعملون في الخفاء خدموا من أجل وطنهم وخدموا الإنسانية دون أن ينتظروا وراء ذلك جزاء ولا شكورا وقد ضحي الدكتور عثمان أبو عكر بمستقبله ووضعه على كف عفريت عندما علمت السلطات وصول نائب الكباكا ودخوله

السودان وبمنزل الدكتور أبو عكر تعرض منزله للتفتيش الدقيق لكنهم لـم يعثـروا على مكانه حتى كتب له النجاة إلا رحم الله إبراهيم أبو طربوش وأطال الله عمـر الطيب محمد على لما قام به من دور إيجابي في مساعدة شعب يوغندا الشقيق ومن الأمانة أن أقول إن هذا الضيف لم يدفع مليماً واحداً في هذه الرحلة كلها كانت على نفقتهم الخاصة مراعاة لحسن الجوار وللدكتور عثمان أبو عكر مواقف كثيرة أطال الله في أيامه فقد خدم قضية السودان في الجنوب وخدم قضية يوغندا من حيـث لا يعلم أهلها(٣١).

الرجـــاف :

الرجاف جبل لا يطلق عليه اسم جبل إلا مجازاً وهو عبارة عـن صـخور متراكمة ومتراكبة ولا تعدوا أن تسمي تل وهو لا يرتفع عن الأرض إلا قليلاً على شاطئ النيل لا يبعد عن جوبا إلا بنحو سبعة أميال وهو معـروف اكتسـب هـذه الشهرة منذ حكم الخليفة عبد الله حيث كان منفي لكل المغضـوب علـيهم أو رأي الخليفة التخلص منه خوفاً من المؤامرات التي ربما أطاحت بحكمه فكـان مقبـرة لكثير من رجالات السودان المعروفين بشجاعتهم والرؤوس المفكرة والذين كـانوا من القادة للجيوش أبان الثورة المهدية ضم رفات الكثير من القادة والزعماء .

لما جاء الاستعمار البريطاني جعلوا منه مركزاً تجارياً هاماً كي يربط بـين السودان المستعمرة الجديدة وبين يوغندا وكانت البواخر النيلية القادمة من الخرطوم تلقي مراسيها في مدينة الرجاف ثم تعود راجعة ولما كان مجري النيل بين جوبـا والرجاف ضيقاً تعترضه بعض الصخور واشتداد التيار وضغطه الشديد مما يعرقل سير الملاحة هذا من ناحية أما الناحية الأخرى كان هذا الجبـل الصـغير يحـدث إزعاجاً وفزعاً للسكان المقيمين بالقرب منه بسبب الرجفة الأرضية التي تصدر عنه في فترات متقاربة لم تكن من الشدة التي تستطيع أن يحصل منها ضـرر للمبـاني ولهذا السبب رأت الحكومة نقل المركز من الرجاف ونقل رئاسة المديرية إلى جوبا

في موقعها الحالي سمي بالرجاف بسبب الأرضية فكانت في ما مضـــي حقيقـــة لا تتعدى هذه الرجفة أو الهزة الأرضية سكان المناطق المحيطة بالجبل وقد تمتد إلى مدينة جوبا ولكن في السنين الأخيرة أصبحت شيء يذكر وقد ينـــذر بإرســـال دوي بحركة يمشي تحت الأرض له دوي وكأنه قطار يمشي تحت أقدامك ثم تعقبه حركة الاهتزاز وفي آخر مرة شاهدته كانت أكثر اهتزازاً وحركة حيث تساقطت بعـــض البضائع عن الرفوف في المتاجر وقد حصلت هذه الرجفة ليلاً بعد منتصف الليـــل بقليل مما جعل الكثيرون يخرجون إلى العراء خوفاً من سقوط المبـــاني خصوصـــاً الذين يسكنون الطوابق الثانية في المدينة وقد شمل تأثيرها مدينة بور مما يدل على أن تحته بركاناً قابل للانفجار بعد الزمن أم قصر لكن الشيء المعروف بـــان ميـــاه الأنهار بعذوبتها(٣٢) لا تكون بركاناً إنما مياه البحار والمحيطات لما تحملـــه مـــن ملوحه التي تولد الغازات تحت طبقة الأرض فيحصـــل منهـــا الانفجـــار وبســـبب ارتجاف الأرض في مراحله الأولى وهكذا شيئاً فشيئاً حتى تنصهر المعادن من شدة الحرارة في باطن الأرض إلى أن يعمل فتحة وتخرج فحمه وحجارته فمدينة جوبـــا مهددة عاجلاً أم آجلاً سواء أنفجر الرجاف كبركان أو اقتصر على الهـــزات ولـــو ازدادت قوة الهزة لتصدع البنيان أما المباني ذات الطابقين فلا محالة ســـتنهار فـــي أقل من عشرين سنة إن استمرت رجفات الجبل التي نراها في تصاعد وتزداد قـــوة في كل مرة أقوى من سابقتها(٣٣) .

جوبا يوغندا والتخطيط المبكر لفصل الجنوب :

كل الأبواب تكاد تكون مفتوحة على مصراعيها أمام الزائر ليوغندا يحمـــل تأشيرة دخول أولاً يحملها لا أدري إن كان هذا الانفتاح سياسة مرسومة لهـــا مـــا وراءها أم بغرض تجاري بين مستعمرتين متجاورتين ما دامت سهلة ميسورة ومن غير متاعب ولا صعوبة والعملة المتداولة بين الســـودان ويوغنـــدا وهـــو الشـــلن الإنجليزي(٣٤) وكنت قد استطعت أن أتحصل على تأشيرة دخول وكنت أترقب قيام

أول عربة تجارية فجاء الأخ حمزة الشيخ وقد عقد العزم لزيارة يوغندا فأبديت رغبتي لمرافقته فلم يعترض وقال موعدنا صباح بعد غد وأخذت العربة طريقها نحو الجنوب في طريق معبد غير أنه غير مسفلت لاحظت بمجرد خروجي من مدينة جوبا وجود لافتات كتب عليها حرف S وعدد الأميال وبدأت استعرض كل أسماء الأماكن التي تقع على حافة الطريق من قري ومدن سودانية لم أجد منها ما يبدأ بهذا الحرف فقلت لحمزة ما معني هذا قال حرف يشير إلى اسم سروتي وهي مدينة كبيرة داخل يوغندا على الفور أدركت حقيقة الإشاعة التي مفادها أن الاستعمار البريطاني يسعى لفصل جنوب السودان وضمه إلى يوغندا قلت إنها ليست إشاعة لكنها نية مبيته ومخطط يسير نحو الظهور والعمل له تدريجياً وفي تكتم شديد وهذه أول لبنة توضع لبناء وتنفيذ المخطط تسير بنا العربة في جو غائم والأشجار الخضراء على جانبي الطريق وشذي الزهور تحمله النسمات يضفي على المكان جواً شاعرياً والطريق يمتد أمام ناظريك في استقامة دونه النظر أن اليد الهندسية التي قامت بتخطيطه يد بارعة فنية إلى أن وصلنا إلى نقطة بالقرب من جبل نوملي حيث نقطة بوليس تؤدى دور نقطة جمارك حيث لا جمارك ولا رسوم مفروضة وهي آخر حدود السودان لفت نظري قول حمزة وهو يخاطب السائق خذ حذرك واحترس أنت أمام الهاوية وبدأت العربة تخفف من سرعتها وتسير سيراً بطيئاً بنمرة واحد وهي تصعد على جبل نملي على طريق ضيق على حافة الجبل من ناحية اليمين والهاوية من ناحية الشمال عميقة مظلمة أقل انحراف بالعربة نحو اليسار أو غفلة من السائق معناه سقوط العربة إلى قاع الهاوية بما فيها ومن عليها والمصير واضح غير محتاج إلى توضيح العربة تسير نحو القمة بحذر شديد والقلوب معلقة والسائق يعاني الصعوبة في التحكم في عجلة القيادة إلى أن استوت على القمة فارتاحت نفوسنا قليلاً حيث تجاوزنا منطقة الخطر نحن الآن وقد وضعنا أقدامنا على أرض يوغندية وبعد أن تجاوزنا نقطة بوليس الحدود وهي كمثيلتها من

ناحية السودان من ناحية الإجراءات أشياء شكلية لا رسوم ولا أوراق تعطي واصلنا السير ولا بد هنا من عبور نهر النيل للضفة الأخرى ووجدنا بنطون مصنوع محلياً يعمل بماكينة أشبه بماكينة قندران ويديرها محركين اثنين مثبتين على جانبي البنطون ذات دولاب مزود بألواح خشبية لضرب الماء اقلنا البنطون إلى الضفة الأخرى وأخذنا طريقنا إلى سروتي بعد أن مررنا على قري كثيرة لكنها لم تبلغ من حيث السعة والأهمية ما لسروتي وكاد الليل أن يرخي سدوله فواجهتنا بناية جميلة على حافة الطريق وطالعتنا مئذنة تدل على أنها قائمة على مسجد فدخلنا السور وعلمنا أن لهذا الجامع ملحقات منها استراحة معدة لإيواء الضيوف نظير شلنين لليلة الواحدة وهي نظيفة ومعدة إعداداً تاماً لراحة الضيوف من حيث المنافع والحمامات غير أن لا وجود لمطعم بداخلها وكان مؤسسها من الجالية الباكستانية وفي الصباح قمنا بالطواف حول المدينة وكانت جميلة من حيث النظافة عالية البنيان وفي أطرافها مزارع البن والشاي وقصب السكر وما يتبعها من مصانع صغيرة تنتج الصابون وتطالعك أشجار النخيل التي من ثمارها يستخرج الزيت الذي يدخل في صناعة الصابون أراضيها كبقية أراضي يوغندا من ناحية الخصوبة والطقس البارد يساعد كثيراً في عملية إنتاج المحاصيل كالبن والشاي وخلافها بعدها دفعنا ما علينا من حساب وبدأنا نسير نحو كمبالا العاصمة فلاحت لنا من البعد مبانيها المبنية على رؤوس الجبال ومتباينة الألوان منها الأصفر والأبيض والبني مما يزيد من جمالها الطبيعي حيث الخضرة والأشجار الباسقة والميادين الخضراء دخلناها وبدأ النظام المدعوم بحركة البوليس على دراجاته البخارية وعلامات المرور المثبتة على كل تقاطع وسير العربات محدد السرعة ليس أقل من ستين ميلاً في الساعة فإن شعر بوليس الحركة الذي يمشي خلفك بأنه تسير أقل من ذلك تقدمك قائلاً هذا الشارع ليس ملكاً لك أعطي الطريق للمارة وإلا تكون عرضة للإجراءات القانونية والطريق ذو شعبتين .

وعلى جانب الطريق لفت نظرنا لافتة كتب عليها فندق كمال أو كامب من هذا العنوان تبين لنا أن صاحبه عربي ووقفت بنا العربة أمامه وبعد الإجراءات المطلوبة احتلينا غرفة ذات سريرين ولها توابعها من ملحقات أخرى غيرنا ملابسنا وأخذنا قسطاً من الراحة وكانت الغرفة في الطابق الثاني نزلنا للطابق الأرضي حيث يوجد بوفيه تابع للفندق وهو عبارة عن صالة واسعة وبه مقاعد وطاولات موضوعة بطريقة جذابة وتقدم لك أنواع المشروبات الروحية علاوة على القهوة التي تقدم مصحوبة باللبن الحليب أما الشاي فلا وجود له إلا في أماكن خاصة وكما أن المطاعم على جناح آخر قمنا بطواف للتعرف على جوانب السوق وحول الفندق خوفاً من أن نضل طريقنا وكانت النظافة من أبرز معالم الفندق ويقدم خدماته بسرعة وعناية وعلى باب كل غرفة من الداخل جرس لطلب الخادم وكان طبقة الخدم كلها من الجنس اللطيف تقوم بتغيير الفرش وتسويته كل صباح وكل مساء وتأتي بأي طلب من البوفيه من مشروب أو قهوة لك ولزائرك وتقدم لك إدارة الفندق قهوة الصباح مجاناً رغم أن المبلغ الذي يدفعه النزيل كأجر يعتبر زهيداً إذا قورن بالخدمات والراحة تقدم القهوة على براد متوسط الحجم وجك من اللبن وكمية من السكر تزن أكثر من ربع رطل مع ثلاثة قطع من البسكويت مقابل شلن واحد وهذه الكمية تكفي لثلاثة أشخاص وهي تقدم لفرد واحد مما يدل على أن الأشياء كلها رخيصة ومتوفرة وبأسعار رخيصة رغيف العيش كبير ونظيف . واللحوم بأنواعها لحم الدجاج البيض السمك المحلي منه والمستورد والزبد المربى كل ما تطلبه في متناول اليد وبطريقة لا ترهق جيبك . الشوارع واسعة العربات كثيرة لدرجة الازدحام والبوليس ساهراً على النظام مراقبة إشارة المرور المضيئة لافتة على كل منطقة طريق الطقس بارد الشمس المحجبة بالغيوم ترسل ضوء لا حرارة فيه طيلة الفصول أرضها جبلية ذات لون أحمر وكل دواوين الحكومة ومساكن البريطانيين على رؤوس الجبال أما سكانها أغلبهم من الهنود الذين يعملون في

التجارة وهم يسيطرون على اقتصادياتها سيطرة تامة علاوة علـــى المــزارع ذات المساحات الواسعة وهي تنتج كما اسلفنا السكر والبن وخلافـــه وأكثــر تجـــارتهم مربوطة بالهند وبعض ما تنتجه المصانع في الجزر البريطانية ومن اليابـــان فـــي القليل النادر أما منظر مدينة كمبالا في الليل هي عبارة عن ثريات كهربائية معلقـــة على رؤوس الجبال وهي ترسل ضوءها القوى المختلط بخضرة أشجار البســاتين والميادين تمثل حدائق بابل المعلقة . نحن نسير على الأقدام نقرأ كل لافتة مكتوبـــة على واجهة كل بناية كعادة الغريب الذي يجئ لأول مرة لقطر أجنبي لفت نظـــري لافتة على واجهة أحد الأبواب كتب عليها طبيب أسنان فقلت لصاحبي لابـــد مـــن زيارته لأني أشعر بمضايقات كثيرة من ناحية الأسنان الصـــناعية التـــي عملتهـــا بالخرطوم وهي عرضة للكسر تحت أي ضغط مما يدل على أن المادة المصـــنوعة منها من المواد الرخيصة الهشة . ولجنا الدار ووجدنا الطبيب وهو هندي الجنســـية ورحب بنا ترحيباً حاراً بعد أن علم إننا من السودان وجلسنا على مقعـــدين أمامـــه ابدي لنا استعداده لأي خدمة فخلعت الطاقم من فمي وقلت له هذا من صنع أطبـــاء أجانب دخلوا السودان بغرض اكتساب المال لا أمانة لهم يميلون إلـــى الغـــش فـــي معاملاتهم مع زبائنهم وهو مصنوع من مادة رخيصة لا تصمد أمام أي ضغط هذا هو الطقم الرابع وهو قابل للكسر في أي لحظة فقلبه بين يديه وقال صـــحيح هـــذه المادة رخيصة وهشة فقلت أريد البديل بشرط أساسي القوة والمتانة قال لـــك ذلـــك وأعطيك المهلة الكافية للتجربة وبدأت المساومة على القيمة مداولات لم تطل اتفقنـــا على ألف شلن أي ما يعادل خمسين جنية سوداني ودفعنا نصف القيمة وقال في الغد في مثل هذا الموعد تجدوه جاهزاً بعد أن أخذ في عمل المقاسات اللازمة .

رجعنا إلى الفندق وغشينا البوفيه لتناول القهوة قبل العشـــاء وجلســـنا أمـــام طاولة ذات أربعة مقاعد وقف أمامنا شاب هندي وحيانـــا بتحيـــة المســـاء باللغـــة الإنجليزية طبعاً فرددنا عليه وأمرناه بالجلوس فأخذ مقعده بيننا ألتفت نحوي وقـــال

من نوع الذي ترتديه يدل على أنك عربي قلت نعم قال من أي بلد قلت من السودان وما الذي جاء بكم قلنا بغرض الزيارة لقطر مجاور ويجب أن نتعرف على الكثير من إخواننا هنا حيث العادات ونزور المعالم البارزة للعاصمة فارتاح قليلاً على مقعده وبدأ يكشف لنا عن شخصيته وقال أنا هندي كنت طالباً بجامعة أكسفورد ونلت شهادة الهندسة من جامعتها ولي أخت متزوجة من هندي يعمل تاجراً في هذه المدينة وجئت زائراً وعرضنا عليه أن يطلب شيئاً من الشراب فاختار القهوة واستطرد قالاً ولي رغبة بأن أقدم لكم خدمة دون مقابل لأن أختي وزوجها وضعا عربة تحت تصرفي وأنا تحت أمركم طول مدة إقامتكم هنا فشكرناه على شعوره وبعد صمت قليل شغلتنا رنات فناجيل القهوة بادرنا بدعوة خزان جنجا الذي يبعد نحو خمسين ميلاً من كمبالا فوقع في قلوبنا موقعا حسنا فهي فرصة سانحة لا نتركها تمر دون الاستفادة منها فاجبنا بصوت واحد متى تكون الزيارة ؟ قال : غداً في الساعة السابعة صباحاً كونوا على استعداد وهم بالانصراف فدعوناه للعشاء فاعتذر وغادرنا وجاء الموعد فإذا بجرس الغرفة يرن فإذا به يحثنا على الخروج أخذنا مقاعدنا وانطلقت بنا العربة تنهب الأرض على طريق مسفلت وكأنها لم تمش على أرض إنما تمخر عباب ماء هادئ تنساب انسياباً دخلنا مدنية جنجا مدينة صغيرة هادئة جميلة المباني على الطراز الإفرنجي وتركنا العربة وعلى مدخل الخزان وسرنا على الأقدام وقد هالنا ما رأينا كيف اختير هذا المكان بالذات لإقامة هذا السد أولا بني هذا السد عند خروج مجري النيل من بحيرة فكتوريا التي تبلغ مساحتها أربعة وعشرين ألف ميل مربع وهي تضم بين شواطئها ثلاثة دول هي تنجانيقا(٣٥) ويوغندا وكينيا وثانياً وقوع السد بين جبلين يجري نهر النيل بينهما وهنا تكمن الخطورة إن أرادت يوغندا أن تحرم السودان ومصر من ماء النيل إلا بقدر ما تسمح به مما يجعل السودان ومصر تحت رحمتها تفقدنا الخزان وعلوه وعرضه وطوله ووجدناه له ستة أبواب ثلاثة منها مغلقة تماماً وثلاثة مفتوحة لتوليد

الطاقة الكهربائية التي تمد يوغندا بالكهرباء وإدارة المصانع وكان الماء يصب من ارتفاع عشرين متراً تقريباً ومن هذا الارتفاع الشاهق تصب المياه ولها دوى يصم الآذان وتري السمك من الحجم الكبير يتقلب على وجه الماء من جراء سقوطها وارتطامها بالقاعدة مع قلة عمقها والخطر الثاني الذي يكمن وراء ذلك هو أن أي زيادة تنتج من كثرة الأمطار يمكن رجوعها لداخل البحيرة دون أن يسبب ضغطاً على مبني الخزان كانت هذه ملاحظاتي وأنا أسير فوق الخزان وأصابعي تشير إلى الاستعمار بتهمة هذا التخطيط الذي ما وراءه من سوء نية قضينا وقتاً ممتعاً على ظهر الخزان ونحن ننتقل بين النهر ومصب المياه إلى ما بعد منتصف النهار ودعنا الخزان وطفنا بالعربة حول المدينة وهي صغيرة نسبياً وتوجهنا شطر العاصمة ووقفت العربة أمام دار فخمة ذات حديقة منسقة تنسيقاً فنياً وفي وسطها ميدان صغير تغطيه النجيلة الخضراء وطرق باب الدار وقابلنا الزوج وحيانا ثم امرنا بالدخول وجلسنا على طاولة يحفها خمسة مقاعد وسط الميدان وجاءت الزوجة وهي تحمل صينية يتوسطها أباريق الشاي واللبن وفي صحن آخر شيء يشبه الحلو مر من حيث اللون وخمسة ملاعق حوله صب الشاي وكل منا أخذ كوبه فكنت في حيرة هل ارفض محتويات الصحن ومن أي شيء مصنوع وأخذ كل من الأربعة ملعقته ملأها من ما في الصحن ووضعها في فمه وألحقها بجرعة من الشاي قلت احسن أجرب قبل الرفض فإذا به مصنوع من الدقيق المخلوط بكمية من الزنجبيل والسكر لذيذ الطعم مستساغ مع جرعة الشاي غاب عنا قليلاً من الوقت مرافقنا وقد اعتلي سطح البناية ثم عاد وقال بما أن القمر في أعلى مراتبه من حيث الظهور لقد أعددت لكم مرصداً صغيراً يمكنكم من رؤية سطح القمر بوضوح وذهبنا إلى أعلى وكنا نتناوب الرؤيا وكلما انحرف القمر من وسط المنظار إعادة إلى مكانه قضينا معهم وقتاً طيباً وشكرناهم وقد رافقنا إلى الفندق وقد حان موعد الدكتور وقد وجدنا كل شيء جاهز وبعد عمل التجارب والإصلاحات اللازمة قدم لي قطعة من

الشكولاته ولحمزة أخرى في حجم بيضة الدجاجة يقلب عليها مادة الكاكاو جرب أمامي وأمضغ بقوة وأعمل فيها بأسنانك حتى لا تحتاج للرجوع إلى ثانية وكانت التجربة ناجحة ودفعنا ما تبقي له من استحقاق وخرجنا من عنده شاكرين فلا انسي له إخلاصه وأمانته حيث لازال يعمل بحالة جيدة رغم ما مضت عليه من سنين تعد بخمسة وثلاثون عاماً أو أكثر قليلاً(٣٦) .

قضينا بكمبالا نحو أسبوع كامل وكان كافياً حيث تعرفنا على المدينة ومعالمها ودور الحكومة وبعض مناطق سكن الأهالي في الأرياف الذين يسكنون القطاطي المصنوعة من القش وبعض بيوتات مصنوعة من الصفيح الذي يستورد من السودان عن طريق اللواري بواسطة تجار محليين بقي علينا أن نزور انتبي(٣٧) مقر الحاكم البريطاني وحاشيته وبها المطار فشددنا نحوها الرحال ودخلناها ولم نجد فيها الصورة التي رسمها الخيال لمدينة واسعة ذات مباني عالية وسوقها الواسع فكانت المفاجأة فلم نجد إلا مباني قليلة لكنها فخمة وجميلة وذات ميادين واسعة وخضراء تعمل الماكينات في قصها وتسويتها يومياً وهي ملاعب الأطفال مع مربياتهم في ظلال وارفة ونسيم عليل وزنابق الزهور المختلفة الألوان تحيط بالميادين .

وعلى شاطئ البحيرة أقيم مرفأ على أعمدة حديدية أمتد نحو مائة متر أو أكثر داخل البحيرة وعلى ارتفاع أربعة أمتار في عرض خمسة أمتار أرضيته من الخشب وله حاجز على ارتفاع متر هذا المرفأ ليقف عليه سكان انتبي من البريطانيين طبعاً لصيد السمك في أيام العطلات وفي عصر كل يوم للترفيه وقتل الوقت وكنا نجلس على طرف من هذه الميادين وقد مر بنا عدد منهم وهم في طريقهم إلى البحيرة فلم يسألنا أحد رغم خلو المنطقة من أي مدني رغم أني كنت ارتدي الجلابية والعمامة وبعد أن زرنا معالمها أخذنا طريقنا إلى كمبالا .

مواجهة مع مدير الاستوائية إبان فترة حكومة عبود

كان الهمس يدور بين أوساط الشماليين موظفين وتجار مما لهم اتجاه سياسي كلجـــان الأحـــزاب يدور هذا الهمس عن اعتقال الشيوعيين في العاصمة وتوزيعهم على سجون المدن الكبيرة المختلفة فكان معاوية إبراهيم(39) والتجاني الطيب(40) قد اختيـــر لهم سجن جوبا وبما لنا من صلة القرابة بالسيد معاوية ليس من المروؤة أن نتقاعس وأن نوليه ظهرنا وهما في محنتهم هذه وفي غربة كهذه فلابد من مقابلتهم مهما كلف الأمر وكان مأمور السجن وقتها السيد ميرغني محمد علي ولم تكن بيننا وبيـــنه سابق معرفة وكان الأخ السني محمد خير(41) يشاركني نفس الاهتمام وأشار على بأن نلتقي به في مكان غير مكتبه الرسمي ونطلب منه العون والمساعدة لتذليل كـــل عقبة تعترض طريق زيارتنا لهم فزرناه في منزله وشرحنا له القصد من هذه الزيارة وللتأكد من أن هذه الإشاعة حقيقة أو هي مجرد شائعة فأكد لنا ووجدنا عنده الكثير من العطف عليهم وهو لا يألوا جهداً في تخفيف متاعب السجن وأشار علينا بـــأن نلقاه يوم غد في مكتبه في الساعة العاشرة صباحاً وذهبنا بطريقة سرية أخذ بأيديـــنا وأدخلـــنا المكـــان المخصص لهما ووجدنا روحهم المعنوية عالية وهم في شـــجاعتهم المعهودة وعدم المبالاة قالوا هذه الاعتقالات بالنسبة لنا شيء متوقع فإن خرج أحدنا من منزله يضع في حسابه ربما لا يعود فلا يزعجكم ما نحن فيه وبعد فترة وجيزة خرجنا منهم وكنا نلقاهم الفينة بعد الفينة وميرغني بإنسانيته يسهر على راحـــتهم ولكـــن لم يرق في نظرهم هذا الاستسلام والرضوخ إلى الحكومة القائمة فأعلـــنوا عن الإضراب عن الطعام لم تنفع معهم توسلاتنا ورجاءنا واستمر الحال وســـاءت حالـــتهم الصحية والسيد ميرغني يقوم بتبليغ الأمر يومياً للسيد علي بلدو مدير الاستوائية وهو يتجاهل ولما خارت قواهم وبلغوا يومهم العاشر وهم يمسكون عـــن الطعـــام أمـــر الســـيد المدير بأن يرسل إلى حكيمباشي المستشفي ليزورهم ويخاطـــبهم للـــرجوع عن هذه الممارسة التي تقضي على حياتهم وان لم يستجيبوا لطلـــبهم حقنوا بالأدوية والفايتمينات ليعاودهم النشاط وبعد الزيارة رجع إلى السيد

المدير وقال إنهم لم يستجيبوا لنصحه وهم في حالة إعياء شديد ورفضوا الحقن ولا يمكـــن استعمال القوة معهم لإجبارهم لأن حالتهم الصحية لا تتحمل أي مقاومة أو ضـــغط فاختـــار بلدو فيما يعمل وأخيراً أرسل لنا أنا والسني محمد خير ليشرح لنا الأمر ونحن نصغى كأننا لم نعلم شيئاً وقال من المفيد أن تذهبوا لهم وتقنعوهم عن العـــدول عن هذا الصيام وخرجنا بعد أن وعدناه وقلبنا الأمر على وجوهه المختلفة أنـــا والســـني وقد سبق أن قمنا في إقناعهم لكننا لم ننجح فالرأي أن نصحب معنا بعض كبار التجار فاخترنا السيد عبد السلام عثمان والسيد عمر محمد عمر والسيد عكاشـــه محمـــد احمد والسيد حسن طه وذهبنا جميعاً إلى مأمور السجن وقادنا إلى حـــيث يرقدون وبعد أن أشعرناهم بتعاطفنا معهم وخاطبهم السيد عبد السلام وكان رجـــلاً مـــتعلماً مـــثقفاً يجيد التحدث في كل موضوع قال ما معناه إننا نعلم أن لكم مبادئ لا تحولون عنها ولديكم فلسفة في الحياة ورسالة تعملون من أجلها بكل السبل وهـــذا مالا يلومكم عليه أحد ولكن سلاحكم الذي اتخذتوه سلاح الإضراب هذا فإن نـــتائجه عكسية ومصيره معروف فإن مات أحدكم فقد مات جندي محارب مدرب والكفـــاح المثمر هو ما يأتي من جندي قوي البنية وقبل أن يقولوا شيئاً قلت لهم إن هـــؤلاء النفـــر الـــذين تـــرونهم أمامكم هم خيرة تجار جوبا لهم مكانتهم في جميع الأوساط فإن لم تستجيبوا لهم وتنزلوا لإرادتهم فلن تجدوا عطفاً من أحد وعقب على كلامـــي السيد عمر محمد عمر قائلاً نرى من واجبنا أن نتكاتف ونكون يداً واحدة وبمـــا لنا من تجارب في الحياة لزم علينا أن ننصح بعضنا فأنا أرجو رجاء خاصاً بـــأن ترجعوا عن إضرابكم هذا بعدها نتعاون جميعاً في حل المشكلة إن كان هناك مشـــكلة فقال التجاني بعد أن شكرهم على هذا الاهتمام وتكلفهم مؤنة الحضور إلى هنا فإنهم سيتخلوا عن إضرابهم لخاطركم وهو سلاح في أيديهم يمكن استعماله في أي وقت شاءوا فشكرهم الحاضرون فقلت إلى السيد ميرغني أشر عليّ بنوع الطعام الـــذي يلائم صحتهم وهم في مثل هذه الحالة وما تقبله طبيعتهم بعد هذا الطوى قال اتركوا لي الأمر فإني سأهيئ لهما الطعام المناسب تدريجياً حتى يعودوا إلى حالتهم

الطبيعــية ورفــض أن يقبل أي شيء نقدمه وبعد يومين دخلوا في إضراب للمرة الثانــية فرجعنا إلى الوفد لنأخذ رأى سعادة المدير في ذلك دخلنا على سعادة المدير ولما علم ما جئنا من أجله انقبضت أسارير وجهه وشعرنا بالغضب يبدو على وجهه وقــال كان الواجب أن تذهبوا لهم وتقنعوهم بالعدول عن رأيهم بدلاً من أن تأتوني هنا فلا شيء عندي أقوله لكم والباب مفتوح أمامكم لزيارتهم وتنصحونهم قلت قد فعلــنا ذلــك في المرة الأولى غير أنهم لم يستجيبوا هذه المرة وخرجنا منهم غير راضــين فهمس عبد السلام في أذني قائلاً إن المدير ليس له حق التصرف في مثل هــذه الأمور إنها سياسية بحتة لا يتصرف فيها إلا وزير الداخلية وهو معذور وفي الغــد أرســل لهم أحد الإداريين يحمل أوراقاً يريد أن يتحرى معهم وطلب منهم الحضور لمكتب المأمور حضروا وجلس الإداري وشرح لهم مهمته فقال أحدهم من أنــت ومــا نوع الشهادة التي تحملها والتي بموجبها يحق لك أن تحقق معنا هات شــهادتك هــل تحمل شهادة قاضي وفي أي درجة قال هو ضابط إداري كلف بهذا الأمر من قبل السلطات قالوا له أرجع من حيث جئت فإنك غير مؤهل فجمع أوراقه وذهــب وبعــد يومــين طلبنا الزيارة فسمح لنا وكنا ثلاثة أنا والسني وإبراهيم أبو طربوش واصطحبنا معنا الشريف نور الله قاضي شرعي المديرية وكان تقياً ورعاً يــبدو علــى وجهــه سمة الصلاح جئنا به لنبدي النصح عسي أن نجد الاستجابة فوجدناهم قد زادت حالتهم سوءاً انتحلت أجسامهم وتقاربت خطاهم من شدة الإعياء ولمــا لم تثمر معهم كل وساطة خرجنا وصممنا على إرسال برقية لوزير الداخلية بصورة للسيد مدير المديرية مهما كانت النتيجة جاء فيها ليس من المروءة في شيء من يري الإنسان أخيه الإنسان وهو يموت موتاً بطيئاً وهو يقف مكتوف الأيدي لا يســتطيع عمــل شيء كما حصل لمعاوية إبراهيم والتجاني الطيب في سجن جوبا ودخلــوا في إضراب عن الطعام منذ شهر وقد انهارت قواهم وفقدوا الحركة فإننا نناشــدكم باســم الإنســانية عمل شيء يرد عليهم حياتهم ومعاملتهم كبشر ووقعنا بأســمائنا وبعــد يومــين جــاء السيد ميرغني ليقول وصلت برقية لسعادة المدير

بمعاملــتهم معاملــة خاصــة وطلب منا بعض الأشياء كالأمواس للحلاقة وصابون للحمــام وأشــياء أخــرى ولم تمض إلا أيام قلائل حتى جاء الأمر بالإفراج عنهم وسفرهم للخرطوم . '

رحلة إلى الكنغو

الاســتعمار البلجيكي وقبضته الحديدية في فترة ركود تجاري يشعر الإنسان بضيق من رتابة الحياة لا تنوع فيها النادي محلاً للعب الورق ليس فيه نشاط ثقافي دور الأحــزاب همهــا النشاطات الحزبية والدعاية واتفقنا نحن الثلاثة حمزة الشيخ والطــيب محمــد علــي وأنا على أن نقوم بزيارة إلى أبا وهو مركز تابع للكنغو البلجيكي وأقلتنا عربة بوكس وهي لا تبعد إلا بنحو ثمانية وعشرين ميلاً من يأي(42) مدينة سودانية على الحدود وبحكم هذا الجوار وتداخل السكان وتبادل الزيارات لم تكن هناك رقابة على الحدود ومدينة ياي السودانية تتعامل مع الأهالي بالعملتين الســودانية والبلجيكــية نســبة لتداخل السكان ونشاط العمل التجاري والتبادل بين الشعبين واستبدلنا بعض النقود من التجار وأخذنا طريقنا نحو أبا ونحن في طريقنا للمديــنة وجدنا طريقاً جانبياً ينعطف نحو اليمين وخطر لنا أن نأكل وجبة الإفطار قــبل دخولنا المدينة وسرنا في هذا الطريق فإذا به يدخل مزرعة غنية بشجر البن والشــاي وأشجار الفاكهة الأخرى وجدولاً يجري ماؤه رقراقاً وتحت شجرة برتقال يتدلــى ثمــرها كعناقــيد العنب تكاد أغصانها تلامس الأرض من ثقل الثمر فرشنا مشمعاً وجلسنا للفطور وإذا بصوت عربة يدنوا رويداً رويداً حتى وقفت بالقرب من عــربتنا ونزل منها رجل أبيض وكان يقتفي إثر عربتنا فصاح في غضب وخاطبنا بلغــة لم نفهم منها شيئاً فخاطبناه باللغة الإنجليزية فلم يفهم هو الآخر شيئاً وصاح أخــر مردداً نفس النقمة وبعد ذلك تعطلت لغة الكلام وخاطبناه باللغة العالمية التي يفهمهــا كل إنسان أصم كان أم أطرش ألا وهي لغة الإشارة وفهم غرضنا وضحك ثم أنصرف .

دخلنا مدينة أبا وتوجهنا نحو دور الحكومة وتمت الإجراءات وأخذنا طريقنا

نحو السوق الذي لا يعدوا أن يكون في حدود أربعة أو خمسة متاجر يمتلكها البيض من بينهم اثنين من اليونان ولم نجد بها ولا تاجر واحداً من السود دخلنا أول متجر وكــان ليوناني وجدنا معه أحد أبناء جلدته ويعمل تاجراً بجوبا نعرفه ويعرفنا بدت على وجهه علامة الإحراج وكاد قميصه أن يبتل عرقاً من شدة ما لقيه من إحراج والســبب معــروف لدينا هو أن الاستعمار البلجيكي لا يقل عن جنوب أفريقيا من حيث التفرقة العنصرية فالأسود أو الملون لا مكان له مع الأبيض ولا يرفع ببصره لينظر في وجه الأبيض ولا يدخل في متجر من متاجر البيض .

وهــو يقف لأداء التحية لكل أبيض ويخلع قبعته من على رَأسه التي تكون غالــباً مــن ســعف النخيل يقف ولو لتاجر يوناني ومن حق هذا الأبيض أن يودع السجن أي من السود دون ابدأ الأسباب أو عرضه على محكمة إلى أن يرضي عنه لكــن بشرط أن يدفع تكاليف أكله مدة حجزه بالسجن وقد لا تساوي القرشين يومياً ويمنع أن يحي الأبيض الأسود أو ملون ومن هنا بدأ الحرج على وجه صاحبنا بينما هــو يعلم أن الشعب السوداني له احترامه بين البلجيكيين أنفسهم ولا يعاملونهم كما يعاملــون الكنغوليــين ولكنه كان جباناً والخوف المتأصل في نفس كل يوناني من الحــاكم لا تفارقه مهما بلغ ولو تقدم واعتذر لما آخذناه على هذا التجاهل ولو بدر هــذا الموقــف من صاحب المتجر لعذرناه واستثناء السودانيين عن تطبيق القانون لكثــرة تــردد تجــار ياي فهم يجدوا كل احترام من طبقة الحكام ومن التجار فهم يقدمون لك القهوة والشاي ولا تمييز بينهم .

اشــترينا كــل طلباتنا حتى امتلأ البوكس ورجعنا إلى جوبا وبعد أيام جاء التاجر اليوناني ليعتذر فلم نستمع له ولم نعره نظرة بعد ذلك اليوم حتى من التجار الآخرين الذين علموا ما بدر منه في ابا وأخذوا يلومونه على ما فعل .

رحلات صيد حول مدينة جوبا

كانــت العطلــة الأســبوعية في المديريات الجنوبية هي يوم الأحد ليتفرغ الجنوبــي للصــلاة في الكنيسة فهو العطلة الرسمية الذي تقفل فيه دواوين الحكومة

أبوابها . أما يوم الجمعة فقد يسمح للمسلمين منذ منتصف النهار ليؤدوا الفريضة في المساجد فكنا نجد في يوم الأحد فراغاً كبيراً فنلجأ إلى الرحلات داخل الغابات بغرض الصيد وقد اقتني الكثير من التجار بنادق خرطوش وفي أمسية أحد الأيام كنت أجلس أمام دكان السيد عبد الله زيدان جاء عبد العال محمد احمد وعبد المنعم شمه وأبدوا رغبتهم بأن أهيئ لهم رحلة صيد لتجربة الأسلحة التي لم يجدوا الفرصة لاستعمالها ولكي ينالوا شيئاً من دجاج الوادي فوعدتهم خيراً ووجدت من السيد مصطفي حاج الأمين التبرع بعربته اللاندروفر ويقودها محمد احمد أبو ساطور واتفقت مع أحد العمال من أصل مصري كان يعمل كرئيس طلبه لإصلاح الطرق ما بين جوبا وملكال وتركاكا مارا بجبل لادو اتفقت معه على أن ينتظرنا في أول معسكر في الطريق لنستعين به كخبير ومن عماله إذا ما اصطدنا حيواناً كبيراً وكان يحمل سلاحاً نارياً وجاء يوم الأحد وأخذنا طريقنا نحو المكان المعين ولما اقتربنا منه ولم يبق بيننا وبينه إلا خمسة أو ستة أميال وقد بدأ السهل المبسط بالقرب من الجبل وأعشابه الخضراء في ذلك الصباح الجديد فإذا بصوت الذخيرة وفرقعتها تدل على أن جماعة مسلحة سبقونا على دخول الغابة ووجدوا سرباً من الصيد وكنا قد لاحظنا أثر عربة تسير أمامنا فأشرت على السائق بالوقوف تحت أشجار الكوك وهو نوع من الشجر ذو حجم كبير ووجدنا أثر دجاج الوادي ومحل حفرياته ليلتقط الحب فأشرت على أصحاب بنادق الخرطوش أن يبحثوا عن دجاج الوادي تحت هذه الأشجار ولا تتفرقوا وجدتم أم لم تجدوا وتركت العربة الشارع وأخذنا طريقنا نحو التوج السهل المحيط فلاح لنا على الأفق غبار يدل على سرب من الصيد فارا من صوت الذخيرة وتركنا العربة على حافته وأشرت على السائق أبو ساطور أن يجلس تحت هذه الشجرة وأن يهيئ نفسه لتسلقها إذا ما كان هذا الغبار أثارة سرب من الجاموس وأسرعت في مشيتي لاعترض طريقه وهو يجري فجلست على الأرض وأعطيته فرصة المرور أمامي بنحو خمسين متراً وما أن سنحت لي الفرصة حتى أطلقت عليه النار فأصبت بقرة كبيرة فوقعت على الأرض

وكانت عجلة تجري وراءها فلما سقطت البقرة وقفت العجلة بجانبها فرميتها بطلا أخري فجرت واختبأت في رقعة من الأرض لم تنال الحرائق منها وكانت كجزيرة صـــغيرة تغطـــيها الحشـــائش الطويلة فلم اسر وراءها لكني تتبعتها ببصري حتى اســـتقرت وســـط هذه الحشائش وكنت أرقب حركة المصابة حتى قمت وجئتها من ورائهـــا ويدي على الزناد خوفاً من مكره ومهاجمته فوجدتها قد ماتت وأشرت إلى صاحبي بالمجيء فقام من مخبئه وقد بدأ على وجهه السرور قلت أجلس هنا وأنا قد أصـــبت جاموســـاً آخر واختفي بين هذا القش ومشيت بحذر أراقب وأنصت وأمد البصر يمنة ويسرة حتى رأيتها تقف والدم ينزف فرميتها بطلقة أخري فسقطت ميتة ومن هنا ذهبت سكرة الرغبة والطمع وجاءت فكرة كيف رفعها فوق العربة ونحن خمسة فقط أخذنا طريقنا بالعربة بحثاً عن جماعتنا ووجدناهم تحت ظل الأشجار ولم يعثـــروا على الدجاج وبادرونا سائلين ماذا أصبتم وقد سمعنا صوت الذخيرة ثلاث مـــرات قلـــت مســـرعاً غـــزلان اثنين فقط هيا بنا لنرفعها فوق العربة فبدت على وجـــوههم الفـــرحة وما أن وقفوا أمام الجاموس الميت أصابتهم الدهشة الممزوجة بالفـــرحة قالـــوا رحلة موفقة فقال لهم أبو ساطور اتظنوا إنها الوحيدة فإن بين هذا القـــش واحـــدة أخـــرى حاولنا المستحيل رفع واحدة منها لم نستطع وأخيراً بدأ لنا الاستعانة بالأهالي وقصدنا معسكر عمال الطرق فجئنا بأربعة منهم ومعهم فؤوسهم وسلخنا الجلود وأفرغنا بطونها من أمعاء ومصاريين وقطعناها أجزاء ليسهل رفعها وفرشـــنا الجلود على أرضية العربة ورفعنا اللحم وتركنا محتويات البطون للعمال ورجعنا إلى جوبا فالجاموس الكبير كان من نصيب تجار جوبا الذي وزع عليهم في مـــنازلهم أمـــا الصغيرة فكانت من نصيب تجار نمرة 3 كانت هذه أول رحلة بعد التمـــرد وفـــي الغد جاء رئيس العمال الذي أخلف ما وعد جاء ليعتذر وهو يتحسر علـــى أن مجيء الجماعة له جاء من غير وعد وأخذوه معهم وهو غير راض ولم يجـــيدوا الرماية ورجعنا كلنا دون أن نصيب شيئاً وكان عدد الجاموس كبيراً وعدد الأســـلحة كثيرة وكل إنسان يطلق النار وفر الجاموس من صوت الذخيرة دون أن

ننال منه شيئاً .

كانت رحلات الصيد هي سلوتنا الوحيدة التي تنسينا شيئاً من الأحزان والرواسب التي خلفتها حركة التمرد وبعد أسبوعين جاءنا محمود حاج مهدى من مريدي وهو أحد الذين اكتووا بنارها وفقد أموالاً طائلة نتيجة حرق ونهب كل المحلات التجارية في مريدي وخرجوا منها على ظهر لوري عنوة بعد تبادل إطلاق النار مع الفئة المتمردة(43) وله علاقات وصداقات مع إبراهيم أبو طربوش والطيب محمد علي وأرادوا أن يرفهوا عليه برحلة صيد وكان أبو طربوش يملك عربة لاندروفور وبيده سلاحاً نارياً وللطيب صلاح موزر 375 صنع إنجليزي وتم الاستعدادات ليوم غد الأحد وكان الطيب دوماً يقول إذا التقينا يوم غد بالجاموس فاتركوا لي الأمر لأريكم كيف يصطاد الجاموس وسأعمل فيه بالقتل حتى تقولوا كفاية فكنا نضحك ونقول له لك ذلك وفي مساء السبت اتفق الرأي الجمع هنا على أن ندخل السينما لنقتل الوقت وأخذنا مكاننا بين المشاهدين وبدأ العرض فإذا بنا نشاهد على الشاشة أسراب من الجاموس وهي تهاجم الناس في أكواخهم وتعتدي على المارة والهرج والمرج يسود القرية فيفروا لرؤوس الجبال وتسلق الأشجار منظر رهيب فقال الطيب متسائلاً ما نوع هذا الحيوان المهاجم قلنا هذا هو الجاموس الذي تتمنى لقياه في يوم غد قال إن كان هذا هو الجاموس فإني منذ الآن أعلن تنازلني على عدم منازلته والوقوف أمامه أخذنا طريقنا في الصباح بعد أن حملنا معنا وجبة الفطور كاملة وسرنا في طريق جوبا تركاكا في نفس التوج بالقرب من جبل لادو غير إننا دخلنا الناحية الشرقية من التوج بدل الغربية فلاح لنا شبح تيتل يقف على قنطور عال في وسط التوج وحيداً فتركنا العربة على حافة التوج لوعورة الأرض داخل التوج ومشينا قليلاً في اتجاه الحيوان فأمسك أبو طربوش بيدي قالاً إن التيتل يتحفز للهروب لما شعر بوجودنا فارميه بطلقة من هنا فإن أصابته نكون قد نجحنا وإن لم نصبه فنعتبره هرب ونبحث عن حلافه فأمن الباقون ورقدت على الأرض وأطلقت عليه النار فجري جرياً سريعاً فسألوني هل أصبته

قلت نعم لكن الطلقة انحرفت قليلاً عن موقع القلب وأصابة الرئة هيا نتتبع أثر الدم ووصـــلنا القنطور ووجدنا أثر واضحاً كأنه ماسورة مفتوحة وفي طرف الغابة بعد الـــتوج دخل وسط شجرة متدلية الأغصان فوجدناه يقف على مستنقع بين الدم وهو يتـــرنح للسقوط فجلسنا على شجرة أخرى بالقرب منه نرقب تحركاته فإذا به يسقط علـــى الأرض فتسارعنا نحوه وذبحناه وفتحنا بطنه واستخرجنا الكبد وجهزنا منها فطـــوراً دســـماً وقـــبل أن نجلس حول المائدة سمعنا أزيز محرك وهو يعلو تارة ويـــنخفض تارة أخرى مما يدل على أنها تحاول الخروج من الوحل فأبدوا الرغبة فـــي الـــذهاب نحو مصدر الصوت ومساعدته لأنه ربما يكون جاء لنفس الغرض وغاصـــت عربته في الطين فقمنا الثلاثة بعد أن تركنا الرابع لتهيئة الطعام ونحن نســـير نحـــو مصدر الصوت حتى وصلنا العربة ووجدنا بداخلها شخص واحد هو نائب مفتش مركز جوبا اسمه مصطفي جاء بغرض الصيد فنشلنا العربة من وحلتها وركبـــنا معـــه عـــربته الكومر حتى وصلنا ومد السماط وهو عامر بأنواع اللحوم المحمرة والمشوية فكان وجبة دسمة وطاب لنا المقام في تلك الشجرة الباردة وكان الشاي والقهوة نصب كلما خلا الكوب وقدمنا أخيراً للزائر نصيباً من اللحم لأنه بعد ذلك لم يجد حيواناً يصطاده حيث الشمس قد أوشكت أن تستقر على كبد السماء وكل أنواع الصيد يكون قد دخل بين الأشجار الكثيفة فقبلها شاكراً وسرنا في طريقنا حتى جوبا .

اهتماميُ ينصب في اقتناء رقعة أرض أعمل منها مزرعة نموذجية

رأيـــت فـــي منطقة الاستوائية مركزاً تجارياً ينبئ بمستقبل باهر بعد رحيل المستعمر والانفتاح على الشمال ربما أجد فيه ما يشبع طموحي من الناحية التجارية والزراعية وقد انصب اهتمامي نحو الحصول على قطعة أرض أعمل منها مزرعة نموذجية متنوعة الأغراض وهذه الفكرة ليست وليدة أفكار فطيرة طارئة بل نتيجة دراسات منذ وجودي بمديرية أعالي النيل وتقدمت بعدة طلبات على عهد الاستعمار وقبضته الحديدية على الجنوب وكان نصيبها الرفض وبالخط العريض وكنت اجدد

الطلب كلما وجدت أو ظننت أن الفرصة سانحة فلم يحالفني التوفيق حتى بعد رحيل المستعمر تقدمت بطلب في مركز فنجاك وكان عل رأسه السيد فريجون مفتشاً وجئت خصيصاً لتقديم الطلب وهو عبارة عن ألف فدان تزرع ذرة حول جبل الزراف وهي على درجة عالية من الجودة والخصوبة وجوها المعتدل يبشر بمحصول وفير يساعد الذرة ليسد احتياجات بعض المراكز المجاورة وبدخول الآلات الزراعية بتلك المنطقة ما يساعد الأهالي على توسيع الرقعة الزراعية وضعت كل ذلك في الحسبان وتقدمت بالطلب إلى مفتش المركز الذي أحاله إلى مدير المديرية بعد أن أوصي عليه أما النتيجة كانت الرد لا رفضاً ولا إيجاباً وتقدمت بطلب آخر في مركز الناصر ولقي نفس المصير(44) .

وعندما تخليت عن إقليم أعالي النيل واستقر بي المقام في الاستوائية وتحصلت على رخصة تجارية وأخرى صحية لأعمل كجزار في سوق نمرة ثلاثة وقد بدأت بتجارة الحبوب التي تحتاج إلى مساعد فطلبت من الأخ حسن حمزة(45) للعمل سوياً فتولي هو الإشراف على مخازن الذرة وكان من نصيبي مراقبة الجزر ومشترى الحيوانات للذبيح اليومي مستعيناً بما لدي من خبرة سابقة في مضمار البقر وتقدير قيمتها فكنت في بعض الأحيان عندما ينضب معين سوق جوبا من الأبقار التي مصدرها قبيلة البارية أو المندرى وهي أجود الأنواع لكنهم غير ميالين إلى البيع ولذلك نجد نقصاً بالنسبة لمتطلبات المدينة ذات السوقين أحدهمًا في مدينة جوبا والآخر في نمرة 3 فكنت ألجأ إلى مدينة توريت في الضفة الشرقية وكلما طرأ نقص واحتجنا إلى المزيد وكنت كثير التردد إليها وسوقها يجمع بين نوعين من البقر الأول النوع المحلي يربيه اللاتوكه وهن جيد وخال عن الأمراض أما النوع الثاني مستورد من كبويتا وهو نوعية غير جيدة وتحمل مكروب الحمي الفحمية التي هي مصدر خطر على الإنسان والحيوان وكنت أتحاشى الوقوع في مثل هذا النوع لتشديد الرقابة عليه من سلطات الصحة في جوبا وحرق اللحمة في أقل شبهة في حمله لهذا المكروب معني ذلك أن توريت ليست بالغريبة علي وكنت

أري إنهــا مركزاً تجارياً هاماً وبعد أن فعلت الفرقة التي تمردت في توريت فعلتها بعــد أن تجــردت عن إنسانيتها وقتلت الأبرياء من النساء وأطفال ونهب الأموال وأحرقت بعض المتاجر وفرت من المدينة بأسلحتها وذخيرتها ولم تدخل الغابة كما هــو مشــاع بل اندست بين أهاليها بادئ الأمر وبدأت مناوشاتها كجماعات تهاجم القــرى المعزولة هدفها المال ولما لم تجد من يتتبعها أو يجري وراءها من الجيش السوداني استفحل أمرها وقويت شوكتها حتى عمت كل مراكز الجنوب وقراه وبعد عودتــي مــن ملكال جاءني أحد معارفي ليقول إن أحد تجار توريت وهو سوري عــرض متجــره للبيع بعد أن خربته يد المتمردين ونهبت ما فيه من بضائع وقتل وكيله وقد عزم على ترك السودان نهائياً . ويستحسن أن نشتريه فقلت أعطني مهلة يــوم واحد وأتني في الغد وجاء الغد وقابلنا صاحب المحل وكان ينزل ضيفاً على أحد التجار اليونانيين واتفقنا ودفعت القيمة نقداً بعد أن اشترطت أن يعطيني فرصة ثلاثــة أيــام لكي ألقي نظرة على المكان ومبلغ الدمار الذي لحقه فهو أي صاحب الملــك مقــيد بهذا البيع أما أنا في حل إلا بعد انقضاء فترة الثلاثة أيام ووافق على شــروط البــيع وكان الطريق مطروق وتسير العربات بين توريت وجوبا بشكل لا ينقطع فذهبت على إحدى هذه العربات التجارية ونزلت ضيفاً على الحاج مصطفي حاج الأمين وألقيت نظرة عامة على مباني السوق ومنازل التجار لم يصبها خراب إلا هــذا الــدكان قد أحرق وامتدت ألسنة النيران وألحقت بعض الأضرار بالمنزل الــذي يعتبر جزء من الدكان وهي عبارة عن بناية واحدة بني الدكان في الواجهة وخلفــه بني المنزل وكانت الخسارة قليلة والتلف بسيطاً وقد وجدت بعض تجارها القدامــى قد سبقوني إليها وعلى وجوههم الحزن والكآبة لا فاه يفتر ولا ثغر يبتسم لان كــل شــخص منهم قد فقد من ذويه عدداً من الرجال والنساء والأطفال وكان مصطفي يأخذ بيدي ويجوب بي أطراف المدينة بحثاً عن الجثث التي رمت بها تلك الأيــادي الآثمة وقد عثرنا على الكثير منها بين الحشائش الطويلة وواريناها الثري أرواح بــريئة ذهــبت لملاقاة ربها وهي تشكو ظلم الإنسان على أخيه الإنسان(46)

وكانت حالة الطوارئ قائمة لكن من غير تشدد ولما كانت مهمتي إصلاح ما خرب من الدكان والمنزل فلابد من استبدال الخشب الذي أتت عليه النيران وعمل رفوف وأبواب للدكان وكانت مصلحة الغابات قد أقامت نقطة بفنييها وعمالها في موقع يسمي كتري وإقامة مناشير تعمل بالطاقة الكهربائية التي تتولد من تساقط المياه من أعلى الجبال ولها دوي فبدأ للحكومة الاستفادة من هذا التيار وجاءت بالمعدات وركبت الأجهزة ودارت المناشير وألحقت بمصلحة الغابات وكانت المياه المتساقطة تكون بحيرة صغيرة على أرض حجرية وقد ساعدت هذه البحيرة في نزول قطع الخشب الثقيلة.

كانت مدينة توريت بعد عودة الحياة لها أرسلت السيد عربي عبد الباسط كأول مفتش بعد التمرد ومهما قلت عنه من شجاعة وأمانة ووطنية لم أجد من التعبير ما يعطيه حقه فهو إنسان وإداري بمعني الكلمة محبوب بين موظفيه وطبقة التجار وأول ما قام بعمله هو إحياء النادي كمكان يجمع بين جميع الطبقات من عمال وموظفين وتجار بعد أن عين لجنة تمهيدية وقد نالني منها شرف السكرتارية وهو رئيسها كل ذلك لتلطيف الجو الذي يسوده الحزن والكآبة كنا نقضي وقتنا ونسهر في النادي بين لعب الورق على شكل اتيام متنافسة وكنت أراسل الصحف في الخرطوم بكل صغيرة وكبيرة فيما يتعلق بالأمن وتحركات الخوارج بما لدي من بطاقة صحفية كمراسل لصحيفة العلم وكانت رسالتي غير قاصرة على صحيفة العلم بل تعداها حتى شمل الرأي العام والأيام والسودان الجديد وكنت أرسل أغلبها بالتلغراف وكانت تنشر تباعاً وكنت حريصاً لإرسال صورة لمدير المديرية وكان السيد علي بلدو وكنت أرسلها تحت اسم ع . نور أي عثمان نور وكنت داماً أرسلها إلى السيد وزير الداخلية لما كثرت وتعددت الرسائل التي تنشرها الصحف عن عدم الأمن والاستقرار وأصابع الكنيسة التي تحرك بها الفتنة في ظلمة الليل مما يهدد بانفجار الوضع من جديد فإن قطع رأس الحية لا يكفي ولها ذنب يتحرك مما أضطر حكومة الخرطوم بانتداب السيد زيادة أرباب(47) وكان قد عهد له بوزارة

التـــربية والتعلـــيم أرسل كمندوب من الحكومة للتأكد عما ينشر في الصحف وهل يطابـــق الواقع فاستبشرنا خيراً واعددنا العدة لنضع أمامه الحقائق ولما كان التعليم تابـــع للكنيســـة وكـــان الطلبة منقسمين إلى قسمين قسم يؤيد الكنيسة وتتملكه روح الانفصـــال والقســـم الثانـــي يعارض سياسة القسس وعندهم الكثير بما يؤيد صدق دعواهم من وثائق تثبت تورطهم في شئون السودان الداخلية وقد جمعنا حولنا عدداً مـــن هؤلاء المعارضين ليلتقي بهم السيد زيادة وكتبت تقريراً مفصلاً يقع في نحو عشرة صفحات وصل سعادة الوزير إلى مدينة جوبا مكث بها يوماً واحداً وبارحها نحـــو تـــوريت تحـــف عربته عربات من الجيش والبوليس كحرس إلى أن وصل تـــوريت ودخل منطقة الجيش وبعد زيارة قصيرة طلب مقابلة القسس وزارهم في مواقـــع الكنيسة بعد أن تخطى منطقة السوق ورجع بنفس الطريق إلى حيث ثكنات الجيش وبعد تناوله الغداء مع قائد الحامية وضباطها مر علينا بحرسه للمرة الثانية متجها نحو كبويتا وحز ذلك في نفوسنا وشعرنا بإهانة متعمدة وإن الذين استشهدوا باعـــوا نفوسهم في سوق النخاسة بثمن بخس غير مقدر من الذين مشوا على جثثهم الطاهـــرة وداسوها بالنعل ليصلوا إلى كراسي الحكم واجتمعنا في النادي مساء ذلك الـــيوم مـــا بـــين ساخط ومؤنب وتجرده من الإنسانية ورمي بالخلق السودانية في قمامـــة التعالـــي والتـــرفع وكان من واجبه كسوداني أن يتقدم بالعزاء لأسر الذين استشهدوا ويزور تلك المقبرة الجماعية ويترحم على أرواحهم ولو لدقائق لكن أبت علـــيه كبـــرياؤه أن ينزل إلى طبقة الشعب حيث يراها هو نوع من المذلة اجتمعنا وأقر الجمع على إرسال برقية تلوم الوزير في ما بدر منه ورأى البعض الآخر أنه لا يســـتحق حتـــى اللوم لأن تصرفه هذا تصرف صبياني وأرسلت البرقية في هذا المعنـــي زد علـــى ذلـــك قد أضاع فرصة الاجتماع الذي خططنا له يجتمع ببعض الطلـــبة ويســـتمع لوجهات النظر ليرفع تقريراً شاملاً عن كل وجهات النظر لكنه اكتفي بمقابلة القسس وأهمل طبقة التجار بقصد أو بغير قصد .

ما يسمونه الوبر كلمة إنجليزية بمعني السلك هذا السلك قائم على أعمدة قوية يــنحدر من أعلي إلى اسفل وله بكارات متدلية بواسطة أسلاك بنفس المتانة وعلى أطــراف ســلكين منها خابور من الحديد ليغرز في جسم الخشبة وترفعه بواسطة رافعــات ثم تنزل مسرعة نحو الأرض فتغوص في الماء ولها مراقبين من العمال يفكــوها ويــنقلونها بواسطة الماء إلى نقطة معينة حيث يسهل رفعها على عربات قائمــة علــى مجري حديد إلى داخل مبني المنشار والخشب له أفران تحت درجة خاصــة مــن الحرارة لوقايته من التشقق ويرص على أرض مسطحة فوق بعضه لــيحفظ مســتواه خــوف الاعــوجاج والتلوي وكان يعمل منه الكثير ، فمن شجر المهوقنــي تعمل الفلنكات التي تربط عليها قضبان السكة الحديد وقد اغني الحكومة عن استيراده من خارج السودان ، ويعمل من شجر يسمي المرايه ألواح ومراين في مختلف الأحجام ومكتوب على واجهة كل فرن تاريخ قفله وتاريخ فتحه وصلاحيته للتصــدير أما الأخشاب التي يصيبها شيء من التلوي أو قطع صغيرة توضع عل أكــوام تــباع كنفايات وبأسعار زهيدة وكنت أشترى هذا النوع من الأكوام أرحله بواسطة العربات التجارية وقد سبق أن زرتها قبل التمرد وكان بها تاجراً واحد هو الســيد عوض الله العوض من أهالي أم دوم وقد كان أحد الذين استشهدوا في مدينة تــوريت رحمهــم الله جميعاً وكان متجره عامراً وهو يسكن منزلاً مبني بالحجارة والأســمنت وكان المنزل على مساحة كبيرة من الأرض مقام عليها حديقة تحتوي علــى الكثير من أشجار الفاكهة وأماكن خاصة لأنواع الزهور المحلية التي لا تقل نضرة وشذي عن المستورد الذي له مكانة خاصة بالقرب من بعضها ومن الغريب حقاً إنك لا تجد أثر لزير أو جرة ماء أو قلة لمياه الشرب لأن الماسورة القائمة في وســط الــدار كافية لتعطيك ماء بارداً في برودة الثلج حيث أنها ممتدة من نبع في الجــبل لــه شبكة تمد منازل الموظفين والعمال من هذا الماء البارد وكل المواسير تجدها حتى في الميادين مفتوحة تصب ماءها ليل نهار وكانت مصلحة الغابات لها ورشة ملحقة بهذا المنشار لتصنيع الخشب كأثاثات منزلية تمد السادة الإنجليز بكل

احتياجاتهم منها وما فاض يباع للموظفين والتجار ترددت على منشار كترى مرات عديدة كلما شعرت بنقص الخشب لتكامل مبني الدكان وتأسيسه .

استشهاد بعض أفراد الجيش

بينما تسير العربة التي تحمل بعض أفراد الجيش من كبويتا في طريقها إلى جــوبا وقــبل أن تصــل تــوريت هناك جبل صغير قائم بالقرب من الشارع فإذا بالرصــــاص ينهال عليها من ناحية الجبل وهم يستترون خلف هذه الصخور فردوا علــــى الــــنار بالمــــثل دون أن يروا أحد فاستشهد منهم نحو ثلاثة من رتبة جاويش فســــاروا في طريقهم حتى وصلوا مدينة توريت فشاع الخبر بين التجار والموظفين والعمال فتجمعنا في صعيد واحد وسرنا نحو ثكنات الجيش وبعد أن قدمنا التعازي وهــنأنا الــذين نجــوا إلى أن وارينا أجسامهم الثري والناس قد غشيتهم موجة من الحزن وقد قرر التجار قفل متاجرهم حداداً عليهم .

وكــنت أري إرســال برقية لوزير الداخلية مكرر لإحدى الصحف لأذكرها الآن وبصــورة إلى مدير الاستوائية وكانت البرقية في حدود هذا المعني "الخرطوم لازال فــي نوم عميق والخوارج يتصيدون أفراد الجيش كتصيد العصافير" ونشرت الصــحفية نــص البــرقية ورأى السيد علي بلدو ما يمس كرامته فاستشاط غضباً وأرسل برقية للمفتش مستعجلة تحمل رغبته في زيارة توريت واللقاء بطبقة التجار والعمال والموظفين ، لا ادري مجيئه هذا بإيعاز من سلطات الخرطوم أم بناء على شــعوره بالمسئولية وأرسل للمفتش السيد عربي عبد الباسط وقد كان السيد المدير غير راض عنه وأرسل من يخلفه وهو السيد يوسف محمد سعيد وقبل أن تتم عملية التســليم وأنتشر الخبر وبعد الظهر بقليل دخل المدينة تتقدمه عربة من الجيش وهم بكامــل عــدتهم الحربية ومن خلفه عربة محملة من قوة البوليس بهيأتهم الرسمية وتــوجه نحو مبني المركز وكنا قد تجمعنا أمام مكتب المفتش دخل المكتب بعد أن صــافح عربي ويوسف وأخذ مقعده خلف منضدة المفتش وأمر بالدخول فدخلنا من غيــر نظــام وامــتلأت جــوانب المكتب ووقف السيد عربي بجانب سعادة المدير

وصادف وقوفي بالقرب من السيد مصطفي وافتتح الكلام السيد عربي ليقول إن السيد المدير جاء ليتفقد أحوالكم وأحوال المنطقة ويقف بنفسه على الحقائق من ناحية الأمن وخلافه وسكت فقال المدير قبل كل شي أنا عايز أعرف من الذي يراسل الصحف في الخرطوم تحت توقيع ع . نور فتقدمت خطوة وقلت أنا يا سعادة المدير واعتدل في مقعده وقال ما اسمك ؟ قلت عثمان نور ، وعملك ؟ قلت تاجر ، قال أنت تراسل الصحف بصفتك شنو وما هو الغرم الذي أصابك وجعلك تكتب بهذه اللهجة قلت أولاً أنا اعتبر نفسي مندوباً عن جريدة العلم واحمل تفويض وأدخلت يدي في جيبي لأقدمه له فقال لا أريد أن أراه بموجب هذا لتفويض أراسل الصحف الأخرى أما الغرم الذي وقع علي أنا لا أكتب عن نفسي إنما أكتب لصالح المجموعة وبصفتي فرداً منها ومن واجبي أن الفت نظر الشعب السوداني ككل ليعرفوا ما يدور في هذه المدينة بعد الذي حل بأهلها من قتل جماعي ، قال ما قولك في الأمن ؟ قلت غير موجود بالمرة، قال وما دليلك ؟ قلت الحال المعاش وفي كل ليل أو نهار نسمع صوت الطلقات من كل جانب من جوانب المدينة ونحن كتجار لنا فروع في القرى المجاورة يديرها بعض أبناء اللاتوكه منذ أن وقع التمرد وفرضت حالة الطوارئ لم نجد الفرصة لعمل جرد لهذه الفروع ، قال وما المانع؟ قلت انعدام الأمن ، قال أنا أرى غير ما ترون من ناحية الأمن فأذهبوا إلى أماكن الفروع ولن تصابوا بأذى ولا يعترض طريقكم ،قلت تحت مسئولية سعادة المدير ؟ قال لا ، وضحك كل من بالمكتب مما أثار غضبه ، قلت يا سعادة المدير إن الأمن غير موجود وحتى داخل المدينة وأنت لا شك عندك نفس الشعور ، قال من أين لك ذلك ؟ قلت قبل إثارة هذه البلبلة كنت أنا وغيري نسلك طريق جوبا توريت دون أن نحمل سلاح إلا العصي ولكن الآن أنت جئت بأكثر من ثلاث عربات محملة بالجنود وبكامل أسلحتهم وذخيرتهم أليس ذلك بما يوحي بأن الأرواح في كف عفريت وفي هذا الأثناء رفع علي السيد وهو وكيل محمد عثمان حاج الأمين رفع يده طالباً الكلام فأشار عليه السيد عربي وقال يا سعادة المدير أنا شاهد عيان منذ

انــدلاع الشرارة الأولى وقد أصبت بجرح من طلقة وقد التجأت للكنسية بعد دخول الليل وأسعفت وتحت مسئوليتي بعض الفروع بالقرى فهل يسمح سعادة المدير بأن اصــطحب فرقة من قوة البوليس لأطوف على هذه الفروع من وقت لآخر لأطمئن علــى سير العمل فيها ؟ قال لا يمكن ذلك فللبوليس وظيفته الخاصة ، فقال له علي الســيد كيف تقول أن الأمن مستتب والحكومة لا تسمح بإعطاء التاجر قوة تساعده علــى مــراقبة عملــه التجاري ، وقال طلب أخير أعطونا قوة بوليس لنجمع هذه الفــروع بمــا فــيها من بضائع ، قال المدير ولا هذه ، فضحك الجمع ثانية فازداد غضبه فأراد السيد يوسف أن ينقذ الموقف فنادي بأحد رجال البوليس وقال خذ علي السيد واضعه في الحراسة ورفع يده أحد العمال وأعطي الكلمة وقال إن التجار غير متعاونــين مع العمال وكلما أصبح الصنف قليلاً احتفظوا به لأنفسهم فالسوق اليوم خــال مــن بصل وسمن مما أثار الضحك للمرة الثانية وأشار علينا بالخروج من المكــتب وتركناه مع مفتشيه وبعد قليل خرج وركب ورجع الى جوبا ورجعنا نحن ثلاثــة لننظر في أمر علي السيد ودخلنا على السيد يوسف وقلنا ما رأيك في علي الســيد الــذي أدخلته الحراسة قال أنا لم افعل ذلك إلا بدافع الشفقة على السيد علي بلدو(49) خشيت ان يصاب بصدمة لأنه مصاب بمرض السكر هذا من ناحية أما من الناحية الثانية إن الجدل قد طال دون جدوى فقصدت أن انهي هذا الموقف والزمن قــد لا يمكــنه مــن الوصول إلى شاطئ جوبا قبل الغروب ونادى للبوليس وأطلق سراحه .

اغتيال أحد أفراد البوليس برتبة أمباشي

ســوق توريت من الأسواق التي تعتمد أساساً على الأهالي الذين يأتون من القرى المجاورة وبعد أن يقضوا حاجتهم من السوق يرجع كل فرد منهم إلى قريته وغالباً ما يخلو السوق بعد الساعة الثانية بعد الظهر وتقفل المتاجر أبوابها وفيما بعد الســاعة الــرابعة سمعنا صوت ثلاث طلقات تأتي من الناحية الجنوبية من المدينة وهي منطقة خالية من السكان إلا مزارع صغيرة تابعة لأفراد البوليس بين الأشجار

الكثـيفة ممـا يشـجع الخوارج للتربص بأفراد البوليس الذين لا زالوا في الخدمة ويتهمونهم بالعمالة بقصد الحصول على السلاح والذخيرة والملابس الرسمية وحالة الطـوارئ المفروضة تعطي الحق لكل بوليس أن يحمل سلاحه استعداداً للطوارئ وبدافع الفضول وحب الاستطلاع أخذت سلاحي وسرت نحو مصدر صوت الذخيرة وكـان مفتش المركز غائباً في جوبا وحل مكانه نائبه وهو من أصل نويراوي مر علي وهو يركب دراجة وقال لي إلى أين؟ قلت إلى مصدر هذه الطلقات ، قال وما شـأنك بهـا هل أنت مكلف بحراسة الأمن ولم تحمل هذا السلاح؟ قلت دفاعاً عن الـنفس ، قال تدافع عن نفسك أمام دكانك أو منزلك. شعرت بأن روح الكراهية قد بـدت واضحة بين كلماته ونبراته وهو يخاطبني بكلمات استفزازية وهي بادرة لم تكن مألوفة فقلت في نفسي يجب أن أرد عليه بنفس اللهجة التي بادرني بها فقلت له قانـون الطـوارئ زد علـى ذلك حق الدفاع عن النفس وأشار إلى أن أرافقه إلى المكـتب وسرت خلفه وفتح مكتبه وجلس على مقعده وأخذ ورقة من درج المكتب وقـال ضـع البندقية في هذا الركن قلت هذا ما لا يمكن هذا سلاحي لم ارتكب به جـريمة ولـم استعمله ضد أحد فأنت لك حق التحقيق معي إن كنت ترى أن هناك مخالفـة للقانـون ولـيس للسلاح دخل وبدأ يسأل الاسم العمر والإجراءات الأولية فشـعرت بأن فرصتي الوحيدة هو أن اتخذ من المراسلة ذريعة بجانب التجارة ولما سـألني عن المهنة قلت تاجر ومراسل صحفي فرفع يده عن الورقة وقال هل بيدك ما يثبت بأنك مراسل معتمد قلت نعم وقدمت له البطاقة فقرأها ثم ردها وقلت له إن هـذه الـبطاقة تخول لي الدخول في ميادين الحرب وبين المحاربين فوضع الورقة جانباً ووقف قائماً وخرجت فوجدت بعض التجار قد علموا بالحادث فسألوني وقلت لا شـيء وقـد اتضح أمر الطلقات بأن الامباشي فلان وهو من أبناء الجنوب كان يـركب دراجـة ويحمل سلاحه وفي أحد المزارع القريبة من المركز أطلق عليه مجهـولاً النار فأخطاءه ووقع على الأرض وكان أمامه قنطور عالي فاتخذه ساتراً وزحـف علـى الأرض ولما اقترب من القنطور فإذا بطلقة أخرى تأتي من خلف

القنطور واتبعها أخري فأصابته إصابة قاتلة وجردوه من سلاحه وملابسه وذخيرته وركــب الدراجة واختفي بين الأشجار وجاء الجيش بعد فوات الأوان وقام بتفتيش المنطقة ولم يجد إلا الجثة ترقد على بركة من الدم وطريق العجلة وهو يدخل الغابة

وصول السيد ميرغني عبد النور(50) ليخلف السيد يوسف محمد سعيد

السيد يوسف محمد سعيد لم تطل إقامته معنا حيث جاءه النقل لمركز كبويتا وحــل محلــه الســيد ميرغني عبد النور وهو من الضباط الإداريين القدامى الذين ســنحت لهم فرصة الخدمة في جميع مناطق السودان المختلفة حتى بلغ مفتش أول وكــان له شجاعة في اتخاذ القرار كسابقيه عربي ويوسف ذو أخلاق عالية شريف الــيد نزيه اللسان واندمج بكليته في مجتمعنا وكانت له رئاسة النادي بحكم وظيفته كمــا جاء السيد مصطفي حاج الأمين ليشاركنا همومنا وليأخذ نصيبه من هذا القلق ويسهر كما سهرنا وأول ما قام به اقتراح أن يكون نومنا في حجرة واحدة في منزله حــيث كنا جارين ومصطفي هذا رجل كريم شجاع لا يخاف أبداً وهو الأخ الأكبر للســيد محمد عثمان حاج الأمين وكان أبوهما صالحاً يحفظ كتاب الله عاملاً بما فيه لا تفــارق يــده غرفة القرآن طول نهاره وله مواقف مع الإنجليز خصوصاً عندما وقــف المستر بار في طريق إقامة مسجد جوبا ، وكان بار هذا قد عمل في الحرب العالمــية الأولى وأصيب في عينه اليمني فعين في السلك الإداري حتى وصل إلى رتبة نائب مدير الاستوائية وكان فظاً غليظ القلب مستعمر يحمل كل طبائع وأخلاق المســتعمر وكأنــه ولــد وتربــي في جنوب أفريقيا وبكثرة الطلبات وتحت إلحاح ومواقــف أمــثال حاج الأمين احمد وحاج الأمين الطيب وهم من أثرياء الاستوائية اســتطاعوا أن ينتــزعوا المــوافقة بواسطة سلطات الخرطوم وقام أول جامع في المديرية الاستوائية هذا هو والده ، وقد ورثا هو وأخوه محمد عثمان ثروته المالية وخصاله من كرم وشجاعة ومن حب الأهالي لحاج الأمين . هذا وقد كان في مركز يــاي شاب من أصل جنوبي خصه الله بملكة صنع التماثيل من الطين وبني لحاج الأمين تمثالاً في حجمه الطبيعي وهو يجلس على بساط ويرتدي قميص ومن فوقه

ثـــوب كعادة أهل السودان ويمسك بين يديه غرفة من القرآن فمر مفتش مركز ياي علـــى الصـــانع وهو يضع يده على اللمسات الأخيرة فاعجب بالتمثال إيما إعجاب ووجـــد في الشاب ملكة لابد من تشجيعه فوقف بجانبه وأمره عندما ينتهي من أمر التمثال يقابله في المكتب وبعد الفراغ ذهب له وتولى أمر حرقه بالنار ليتحمل وطأة الأمطار وباشر عملية الحرق المفتش نفسه وأقام له قاعدة رفعه عليها على ارتفاع متـــر ونصف المتر بعد أن مسح الثياب بالجير الأبيض وأعضائه الظاهرة كالوجه والـــيدين والقدمـــين بالسواد وهو لونه الطبيعي وكان مشهوراً بالبادرابي نسبة إلى الســـادة الشـــيخ العبيد ود بدر وأولاده الذين حفظ القرآن على أيديهم إلا رحمة الله علـــيهم جميعاً ومد في أيام محمد عثمان وعلي السيد هذه نبذة قصيرة من حياة هذه الأسرة قضتها الضرورة ولا شك أبداً بأن محمد عثمان يحتفظ وهو الرجل المثقف بمذكراته وستلقى نصيبها من النشر في القريب العاجل إن شاء الله وهو لا يبخلّ بما عنده من مآثر خالدة للتاريخ .

في ليل شديد الظلمة والسحب الخفيفة تحجب ضوء النجوم ونحن نتهيأ للنوم وقد تجاوزت الساعة العاشرة مساء وقبل أن يداعب النوم أجفاننا إذا بصوت طلقات ناريـــة تشق سكون الليل تحمله الريح من ناحية ثكنات الجيش وكنا دائماً في حالة استعداد للطوارئ فكنا ننام وعلى صدر كل منا سلاحه المحشو وذخيرته في حقيبة يد بجانبه قمنا مسرعين ووقفنا قليلاً أمام الباب المطل على الشارع نكتشف الطريق فـــلا حـــركة ولا ضوضـــاء وكنا نستتر وراء الشجيرات القائمة كسورين للشارع والبيت وكان بجوار المنزل وعلى الشارع الرئيسي يقوم دكان كبير مهجور ومغلق الأبـــواب وله فرندات بالزنك تحيطه من جهاته الثلاثة وقصدناه بغرض إننا نجعل مـــنه ســـاتراً من حيث نرى ولا يرانا أحد ففي سرعة تمكنا من الوصول إليه فإذا بمنادي ينادى من تحت البناية (قف عندك) فكانت المفاجأة والظلام يحجب المنادي عن أعيننا وهم قد عرفونا فإذا هم ثلاثة من رجال البوليس يقومون بحراسة السوق وقـــد أخذوا يلوموننا على خروجنا في مثل هذا الظلام وهم قد أخذهم الشك في قيام

إنســان مــن مرقده ليعرض نفسه للخطر وقالوا إلى أين أنتم ذاهبون؟ قلنا لمعرفة الحاصــل الذي أدى إلى إطلاق النار ونجتمع في صعيد واحد خير من نؤخذ على غــرة ، قالوا أرجعوا قلنا لابد من الوصول إلى منزل السنوسي وكان على الطريق الشــمالي من المدينة ولما رأوا إصرارنا ذهبوا معنا إلى أن وجدنا جمعاً من التجار وقالــوا كنا نلعب الورق على ضوء رتينة فلما سمعنا الطلقات أطفأنا نورها ولما لم نســمع صوت لإطلاق النار ولا حركة من ناحية الجيش رجعنا وفي الصباح جاء أحــد الضــباط ليعتذر عن الإزعاج الذي حصل على يد أحد الجنود وهو في حالة ســكر وهــيأت له الخمر بعض خيالات أطلق على أثرها النار وكان التعاون بين طبقتي التجار وضباط الجيش على درجة عالية .

النــعام

يــتواجد النعام بأعداد كبيرة في منطقة شرق الاستوائية لأن طبيعة الأرض واعتدال الطقس من أهم الأسباب التي تجعله يتوالد ويزداد كثرة إذا أضفنا إلى ذلك قلة المكان وتجمعهم في قرى وعدم انتشار الأسلحة النارية ومنطقة توريت بالذات عامــرة بهــذا النوع وكلمة النعام تطلق على النوعية ككل ذكوراً وإناث ككلمة ابل ولكن ذكر النعام له اسمه الخاص ويسمي الضليم ويتميز بسواد ريشه وبياض في أطــراف جناحه والأنثى تسمي الربداء هذه هي الأسماء العربية ثم حرفت فالضليم ينادوه هضليم والربداء سميت ربده ولريشه تجارة رائجة منذ مئات السنين يصدر إلــى جميع أنحاء العالم وقد اقترن اسمه باسم سن الفيل حيث كان الصنفين تتصدر التجارة الخارجية وكان طريق الأربعين الذي يبتدئ من الفاشر حتى يصل أمدرمان ومــنها إلــى مصر هذا الطريق هو طريق القوافل التي تأتي محملة من سن الفيل وريش النعام علاوة على أصناف أخرى . والنعام جميل في مشيته سريعاً في عدوه لا تــناله الخيل ولا الجمال ولحمه يؤكل عند العامة في القرى والأرياف وقد عافه ســكان المــدن المتحضرة لراحة لا تقبلها النفس . والعرب القدامى وصفوا النعام بالجبن حتى قال شاعرهم :

أسد على وفي الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر

ولكن عندي ما ينفي هذا الزعم ويفند هذا القول استناداً على ملاحظات اكتسبتها بطول الممارسة والاحتكاك به ومعايشتي له في بواديه وإني أرى هذا الشاعر قد ظلمه حيث وصفه بالجبن والذي عده جبناً أنا أراه حيلة وخداع فأنثى النعام عادة تبدأ في عملية البيض في أوائل فصل الخريف عندما تكسو الأرض الحشائش وتخضر أوراق الأشجار التي تضع بيضها بينه لتخفيه عن الأنظار ويجئ دور الحضانة يكون زمن الخريف قد ذهب إلا أقله ويبدأ التفقيس مع أول فصل الشتاء فتذهب خضرة الأشجار وتتبدد كثافة الحشائش فتسير في الأرض مكشوفة وصغارها تتبعها فاذا رأت إنسان يسير نحوها أطلقت ساقيها للريح والصغار تجري خلفها حتى إذا ما وجدت مخابئ للصغار تركتهم وراءها وتعود للشخص المتتبع وتقترب منه وتأتي بحركات من جناحيها تطويها وتنشرها وتضرب الأرض برجليها وترخي رقبتها وتمدها بغرض التخويف فان وجدت الإصرار منه لجأت إلى الحيلة فهي تمشي بالقرب منه من غير أن تنال منه وتبتعد قليلاً وهكذا تستدرجه حتى تذهب به في اتجاه معاكس من مكان صغارها ثم تعدو وبسرعة الرياح وتلحق بصغارها وقد تلجأ إلى هذه الحيلة أيام الحضانة خوفاً من العثور على البيض فهو يؤكل وفارغه يباع للزينة في بيوت الأغنياء بعد أن يحلي بالخرز الملون ليضفي جمالاً على الصوالين بين ثريات الكهرباء ويعطي منظراً خلاباً يدخل البهجة في نفس الزائر له شعر ناعم وجميل يعمل منه مراوح يد تستعمل في أيام الحر وكثيراً ما تغنى بجماله شعراء الأغنية السودانية كما قال أحدهم في وصف شعرها الكثيف المتدلي (هضليما زوزه ديس النيه) الهضليم سبق أن عرفناه هو ذكر النعام والزوزة مشية من مشيات النعام ما بين الجري والسير البطيء العادي مثل (الكربته) عند الإبل فهو في مشيته هذه يرخي من جناحيه فينسدل الريش حتى يكاد يمس الأرض ويهتز اهتزازاً بإيقاع جميل منتظم والريش كناية عن الشعر الغزير والنية صفة للبنت عند سن المراهقة وتكثر هذه التشبيهات والاستفسارات في إقليم كردفان بين

الشباب فاسمع ما تقوله واحدة منهن :

الصيد ورد سمعن حسه   هضليم جويا ربيده كسو

بهذه الأبيات تخاطب أترابها من الفتيات اللائى تجمعن في الساحة التي تجمع شباب القرية من الجنسين للسمر وإقامة حلقات الرقص وقد أبطأ الفتيات قليلاً وقد سئمن الانتظار وفجأة تناهي إلى سمعهن صوت يدنوا رويداً رويداً مما يوحي بأنهم في طريقهم للساحة فجادت قريحتها بتلك الأبيات وكلمة صيد كثيرة الورود في قصائد شعراء الأغنية كناية عن الفتيات وهي تلفت نظرهن نحو الصوت وكلمة كسو معناها في لهجة أهالينا في كردفان معناها أفسحوا المجال ووسعوا من الدائرة معاني جميلة وموسيقي أجمل ووصف الهضليم والربداء ليس قاصراً على شباب كردفان وقد ذكره شاعرنا الفحل الأستاذ إبراهيم العبادي في قصيدته التى مطلعها

يا سايق الفيت أقيف سنده   بالدرب التحت قصاد ديار هندا

إلى أن قال يقصد العربة في سيرها (تسابق الربدا) ومناسبة هذه القصيدة معروفة وقد أعيدت مرات ومرات بواسطة الإذاعة وهند هذه كانت تسكن منطقة سنجة وفي موقع يسمي الشلال قبل أن يرحل أهله إلى منطقة الرماش وكلا الموقعين لا يصل بينهما إلا أميال قليلة وهذه المنطقة معروفة وهي على شاطئ النيل الأرق غنية بأنواع الصيد مع كثرت النعام ولذلك ورد في القصيدة مسابقة العربة والربداء حينما نفرت من أزيز محركات العربة وصوت عجلاتها وهي تضرب الأرض فيزيد من نفور الربداء وكلما ازدادت في سرعتها زادت سرعة العربة خلفها مما أثار الغبار وقال (تسابق الربداء) .

لاغاني البنات في منطقة كردفان لون جميل غني بالمعاني والتشبيهات وتمس موسيقاها أوتار القلوب وتمتلك مشاعر الإنسان استمع إلى هذه الفتاة التي شغفها الوجد وقد كانت على موعد مع حبيبها فأبطأ فلما خامرها الشك وحرارة الانتظار تذوب في أوصالها وخشيت أن يكون لحق به أذى أو أصابه مكروه فقالت وهي تخاطب خياله الذي يداعب مخيلتها :

سحابي يا الدوديت   زرقنت ما كـــبيت

الليلة وين أمسيت   يا لرتينة ضو البيت

أنظــر إلــى هــذين البيتين وأمعن النظر فيهما معني ومبني أليس فيهما ما يستحق الإشادة بقائلها وما أنطوت عليه من استعارات جميلة وإيماءات ظريفة .

فتراثنا الشعبي الكردفاني جديرة بأن يدون ويستحق قائلها كل تقدير أمثال :

الغالي تمر السوق   كان قسموا ما يحوق

زولا سنونه بروق   فـــي محكمه زنوق

كــل بــيت من هذه القصيدة يعتبر تحفة فنية ولوحة قد أبدع رسمها يد فنان موهــوب وتعبــر كلماتها عن حب صادق وما تتمتع به الفتاة الكردفانية من ملكة شــعرية لا تقــل روعـــة من أدب عمر بن أبي ربيعة ولهن أغاني باللغة الدارجية المتفشية في منطقة الحمر والكواهلة مثل قولهن:

أبا دول ســد الـــــدور   اتحاسدوا ورقدوا خلوني برا

سألت أمي قالت ما بتدري   سألت أبوي قال فقير بقري

حـــوت البيت قعــد يبكي   دمـــوعي ديل بللن صدري

وأمثال ذلك كثير وقد أدخلت هذا النذر اليسير لتكون حافزاً للمثقفين من أبناء كـــردفان لـــيولوا عنايتهم الخاصة لهذا التراث الشعبي والذي يمثل أجيالاً مع تفشي الأمـــية بيـــنهم جـــاءوا بأجود أنواع الشعر فعلى عاتق أبناء كردفان تقع المسئولية وعلـــيهم أن يأخـــذوا عهداً مع بعضهم أن يألفوا اللجان وجمع هذا التراث الذي له قيمـــته التاريخية في كتاب أو أكثر يا حبذا لو سجل هذا الشعر على أشرطة بنفس نغمة البنات التي لها رؤيتها الخاصة بتمديد كلماتها في صوت رخيم كما كن يفعلن في ساحات الرقص وليالي السمر .

ولنعد إلى حيث بدأنا عن النعام هناك مثل شائع بين الناس يقول (دهن النعام بشـــيله جلـــده) يقال عادة لمن يريد يضع الأمر في غير موضعه فيقع الفشل وليس لـــدى ما يثبت أو ينفي صحة هذا المثل وللنعام شحم كشحم الدجاج بين جلده واللحم

وفـــي بطـــنه وقد يصل إلى ست من الجوالين يستعمل كعلاج للأعصاب المتصلبة يمسح على ظاهر الجلد وهو معروف بهذه الخاصية بين كل سكان السودان ويطلبوه ويحتفوا به لهذا الغرض .

جبل نقاشوط ودخوله التاريخ

عندما يبارح المرء مدينة توريت متجهاً شرقاً نحو مركز كبويتا يطالعك جبل عال هو جبل نقاشوط دخل التاريخ بعد أن كان نكرة وغير معروف لا يذكر إلا من ســكان المنطقة ولكن بعد انقلاب السيد إبراهيم عبود حيث نفي إليه السيد إسماعيل الأزهــري والســيد محمد احمد محجوب والسيد علي عبد الرحمن وبعض أعضاء الأحزاب البارزين حماية للانقلاب وهو جبل عال علواً شاهقاً وعر المسالك وجوه رطــب تكاد مياهه أن تتجمد من شدة الرطوبة هذا الجبل وماله من ميزات يستحق بــدل أن يكــون منفى يؤسس على سطحه فنادق سياحية يجلب كل الأجانب لجمال الطبــيعة والأرض الــرملية والهــدوء بعيداً عن أضواء المدن وضوضائها ومكاناً مناســباً لقضاء شهر العسل للعرسان دون إرهاق للجيوب ولا تبديد للأموال ولهذا الجبل ميزة أخري لو علم بها العرسان لاموه من جميع أنحاء إن لم اقل العالم لقلت الســودان ، منها تواجد شجرة معروفة باسم (قرفة ناقشوط) تؤدى وظيفة الحبوب المنشــطة الباهظة التكاليف ، ولا غنت عن جميع المستحضرات الطبية المستعملة في هذا المجال مما يرهق ميزانية العريس وهي عبارة عن قرفة شجر خاص ينمو بكثــرة علــى مســاحات واسعة فوق الجبل وبأطرافه ، تجفف القرفة تحت حرارة الشــمس وتسحن سحناً ناعماً يأخذه الإنسان عن طريق الفم بأحد الوسائل التالية أما وضــع المســحوق في ملاحة أو صحن ويأخذ قطعة من اللحم تغمزها فيه (وكأنه شــطة) ثم تأكل حتى تكتفي أو تمزجه بقليل من عسل النحل وتأخذ منه يومياً ثلاثة معالــق صــغيرة في الصباح والمساء أو بطريقة ذره على كوب الشاي أو القهوة وتشربه وليس له خلفيات ولا رواسب تضر بصحة الإنسان وهو مجرب من بعض الطــبقات الــذين اضطرتهم طبيعتهم للبحث عن علاج لهذه الحالة التي تفشت بين

الطــبقات المترفة مما أرهق الميزانية وأقلق الراحة وهدد مستقبل الأسر ولو أقيمت الفــنادق وتوفــرت فيها سبل الراحة ووجدت الدعاية اللازمة لهذا المصيف ومما يحــتوي علــى ميــزات كثيرة لدر على السودان أكثر من 30% مما يحتاجه من العملات الصعبة(51) .

وبعد تخطيك لمنطقة ناقشوط بقليل تجد أن الطبيعة قد أصابها شي من التغيير إلــى أن تصــل مدينة كبويتا وقد تحول الطقس إلى جو حار جاف والأرض رملية تــنمو فيها شجر الكتر واللعوت والطندب والأراك نفس الأشجار في وسط السودان وتســكن هذه المنطقة أي منطقة كبويتا قبائل كثيرة منهم التبوسا وهم أكثر نفراً من غيــرهم يمــتازون بقوة الأجسام ولهم صبر في تحمل المتاعب ويمتهنون الزراعة وتــربية الماشية علاوة على تربية الحمير ،أي والله الحمير لا بغرض الركوب أو استعمالها في حمل الأثقال لا بل تربي للاستفادة من لحومها وألبانها فهي تحلب كما تحلب الشاه وتذبح للأكل ولها أجسام كبيرة وكأنها البغال ولها رعاة وزرائب خاصة بهــا بجانب الزرائب الأخرى من بقر وغنم ويجاورونهم من الناحية الشرقية قبيلة تســمي (التركانه) وهم أصحاب أبل من نوع يغاير ما هو معروف عندنا في شرق الســودان وغــربه مــن حيث التكوين الجسماني فهي قصيرة القامة وعلى ظهرها سنامين ذات وبر كثيف وهم رحل بين حدود السودان وكينيا ويوغندا وأثيوبيا وجبل بــوما هذه الرقعة التي تعتبر خالية شجعتهم كثيراً على قطع الطرق ونهب وسرقة المواشي ولديهم من الأسلحة النارية مما لا يوجد بين القبائل التي تسكن هذه المنطقة وهــم مدربون على استعماله مما شب من الطوق فهم يجيدون الرماية ولا يخطئون الهــدف مما أثار الرعب بين تلك القبائل وهم دخلاء على السودان جرهم المرعى وطاب لهم السلب والنهب بين تلك القبائل .

وهذه المنطقة المحصورة بين هذه الدول الأربعة تدل على أنها غنية بالمعادن كالذهب والبترول وربما معادن أخرى قيمة كاليورانيوم وخلافه ولابد من أن يأتي الــيوم الــذي تجد كل هذه الثروة المطمورة تحت الأرض ستتكشف بعد أن أخذت

ثــورة الإنقاذ الوطني مقاليد الحكم وأخذت الأمور بجد وفتحت أبواب السودان على مصراعيه أمام المستثمر الوطني والأجنبي بالشروط التي تكفل للمستثمر حقه دون تفــريط في حق الدولة وإني لجد متفائل بأن في القريب العاجل سنجد السودان قبلة الأنظــار من كل دول العالم ليس في أفريقيا فحسب بل كل دول العالم لما يتمتع به مــن إمكانــات هائلة زراعية كانت أم صناعية وسيمد العالم إنشاء الله بكل حاجته وسيصــبح السودان في سنين قليلة يابان القرن الحادي والعشرين وإن قلت اليابان ولــم أقــل أمريكا لأني أري المستقبل يشير بأصابعه نحو اليابان لأنه يمشي نحو المســتقبل بخطى سريعة ثابتة مما أزعج أمريكا نفسها ولا أشك إن استمرت ثورة الإنقاذ الوطني على مبدئها هذا سيجيء اليوم الذي يخيف أمريكا وغيرها من الدول الصــناعية إذا أعــددنا العدة وتوصلنا إلى التكنولوجيا الحديثة وطيعناها في زيادة الإنتاج واكتشاف ما بباطن الأرض من كنوز.

وحيد القرن يسكن الاستراحة

فــي طــرف المديــنة مــن الناحية الجنوبية الشرقية تقع مدينة توريت تقع الاستراحة كانت معدة لنزول الضيوف من الأجانب وكانت خالية من الرواد وبعيدة عن سكن الأهالي وكان طواف البوليس ليلاً يمر بالقرب منها فاكتشف وجود وحيد القرن يأوي إليها ويقضي نهاره بداخلها ويخرج ليلاً مع فصيله ليرعى فجاء أحدهم أشــار إلــى الخطر من وجوده على حياتهم أثناء أداء دورهم في الحراسة وكانت المديــنة هادئــة نسبياً بسبب حظر التجول وكانت الحركة قليلة إلا من حول النادي فذهــبت للسيد ميرغني عبد النور المفتش المسئول وطلبت منه الإذن بقتله قال هذا الحــيوان لا يسمح بقتله إلا في حالات نادرة وبواسطة سلطات عليا ولكن سأرسل بــرقية إلى مصلحة وقاية الحيوانات اطلب منها السماح بضربة خشية أن يتعرض أحد لمهاجمته وجاء الرد مخيباً للآمال بعدم التعرض لهذا الحيوان ولتابعه وسترسل المصلحة بمندوبها للعمل بطرده دون أن يتعرض للأذى وبعد يومين جاء أحد رجال حــرس الصيد يحمل قنابل يدوية فارغة المحتوي تحدث انفجاراً مزعجاً مما يحمل

على الحيوان إلى الابتعاد من المنطقة ونفذ ما جاء من اجله وفر هارباً ولم يعد .

و أثناء وجود السيد ميرغني كنت شديد الحرص علي اقتناء سلاح ناري من ذوات الأعيرة الكبيرة التي بمقتضاها يسمح لي بصيد الأفيال وكنت ابحث عنه في كل مكان فعرض عليّ أحد التجار اليونانيين بندقية من اكبر الأعيرة ذات ماسورتين ثقــيلة الوزن وعرضها عليّ وبعد فحصها أعجبت بها ومن شدة الفرحة لم يخطر ببالي بان أقوم بتجربتها على سبيل التحقق من صلاحيتها ومن حيث إصابة الهدف الدقــيق وهــل ذخيــرتها في متناول اليد هذا كله لم يخطر ببالي زرته في مكتبه وجلست علي أريكة جانبية وقلت جئت أستشيرك في موضوع قبل أن أتقدم رسميا بطلب انك تعلم هوايتي للصيد وبيدي سلاح لا يسمح لي بصيد الأفيال ووجدت عند الخــواجة بندقــية عرضــها للبيع وأعجبت بها وجئت أستشيرك فان وجدت عندك التوصــية على الطلب تقدمت وإلا تركت الأمر فضحك وقال هل تعلم أن الخواجة يــريد التخلص منها لأنه منذ أن وقعت في يده لم يستطيع ضرب طلقة واحدة منها لقوة الطلقة وهو يريد بيعها بناء على نصيحتي فان اشتريتها فمن الذي يضربها لك قلــت أنــا قــال اسأل مجرب هل تفتكر اقوي أنا أم أنت قلت أنت طبعاً قال عندما ذهــبت صيد الفيل قبل شهرين استلفتها منه وقلت طلقة واحدة منها تكفي لقتل الفيل وقــبل أن نلتقي بالفيل حاولت تجربتها على جاموس اعترض طريقنا فرميته بطلقة مــنها فإذا بقوة الطلقة أجد نفسي واقعاً علي الأرض ومثلاً آخر ما رأيك في دكتور غلــندر من ناحية القوة بالنسبة لك قلت لا توجد مقارنة قال حصل له ما حصل لي بالضــبط ممــا جعلنا نردها إليه دون أن نستعملها مع الأفيال ففكر في الأمر جلياً وعلــى ضــوء كــل ما تقدم إن كنت مصرا على شرائها فأنا في إمكاني أن أجئ بالأرنيك وآخذه بيدي وانتزع الموافقة من سعادة المدير فاقتنعت وشكرته وانصرفت

ضباط الجيش يشاركوننا النادي ويجدوا فيه سلوتهم

كــان النادي محل تجمعاتنا نقضي فيه أول الليل وكان مزودا بجميع أدوات اللعــب مــن اللعــب بالــورق وتنس الطاولة والشطرنج والطاولة والدومنا

واســـتطعنا أن نغري بعض الضباط بقضاء فترة من وقتهم في النادي وكان منهم السـيد عبد الله الطاهر بكر وكان برتبة يوزباشي فكانوا يداومون الحضور يوميا وكـنا نخرج خلسة لنصطاد الغزلان ببندقية مورس وفي الليالي المظلمة حيث كنت أجـد نفسي نفوراً من أكل لحم البقر لسببين الأول كنت احمل رخصة جزر بسوق نمرة 3 بجوبا وكنا عندما لا نجد كفايتنا من الوارد المحلي من البقر أو الضان نلجأ إلى توريت وفيها نوعين من البقر المحلي المتوالد في منطقة اللاتوكة والنوع الآخر مسـتورد مـن كبويتا وقيمة النوع الأول يساوي ضعف قيمة النوع الثاني لان هذا الـنوع المستورد من مناطق كبويتا يحمل الفيروس المسبب للحمي الفحمية وتنتقل للإنسان عن طريق أكل اللحم وكنا نلاحظ إن سلطات البيطري تقوم بالكشف الدقيق علـى الحيوانات الواردة من كبويتا باستخراج غدة داخل فخذ الثور وتشقها نصفين فاقـل اشـتباه بالإصابة تعرض اللحمة كلها للحرق بالنار زد علي ذلك عدم جودة النوعية من اللحم عندما تضع قطعة لحم في فمك تشعر بأنك تأكل في ألياف لا طعم فـيها وينطبق ذلك علي اللحم الضان المستورد منها هذا ما نلاقيه من شدة الرقابة والاهتمام بصحة الإنسان و الآن بعد أن فقدنا هذا الاهتمام فالإنسان من طبعه ميال إلى المزيد من الربح فكان الذبح في اغلب الأحيان يكون من المستورد لرخص ثمنه والتسـعيرة واحـدة وهامشية الفحص وعدم الاهتمام بالفحص الدقيق ومن هنا بدأ الـنفور فكـنت اعـتمد اكثر الأحيان على لحم الصيد وقد ساعدني على ذلك السيد مصطفى حاج الأمين حيث وضع عربته تحت إمرتي متى شئت وكنا نقوم برحلات أسبوعية كل يوم أحد لنصطاد الجاموس أو التيتل وفي توريت نوع خاص من هذا النوع أصفر ذهبي لامع يمتاز لحمه بالجودة .

أمـا نوعية الضأن في منطقة كبويتا فهو قصير القامة وقصير الذنب يتجمع شـحمه حول ذنبه ككتلة واحدة يكاد يعجز عن حمله إذا ما وصل إلى درجة معينة من الشحم أما بقية لحمه فلا تجد فيها شحم ولون لحمه احمر قاني يميل إلى السواد عند وضعه على النار غير مرغوب ولا مستساغ رخيص القيمة ولذلك كنت اعتمد

علـــى الأخ عـــبد الله طاهـــر بكر في الخروج إلى منطقة الطيارة حيث نجد أنواع الغزالان المختلفة كلما احتجنا إلى لحم وكنا نخرج في أيام الآحاد مع الأخ مصطفى حـــاج الأمـــين لصـــيد الجاموس وتوزيعه على بقية التجار دون مقابل وكانت أيام تـــوريت مـــن احســـن الأيام التي قضيتها في الجنوب إلى أن اضطرتني الظروف لتركها والتوجه نحو مريدي .

حواشي الفصل الرابع

(1) نهاية الحرب العالمية الثانية كان في عام 1945م .

(2) محمود وعباس حاج مهدي : اشقاء وموطنهم الكوه وهما من الاقارب ومحمود صديق حميم للـــوالد ورفيق صبا وظلا متلازمين بمريدي والكوه والخرطوم ، وكثير من رحلات الصيد التي سيأتي ذكرها مرتبطة به .

(3) مريدي MARIDEI الموقع E ٤٣ – ٣٣ من المراكز الهامة بغرب الاستوائية وسيأتي الحديث عنها لاحقا .

٤٠ – ٨ N

(4) الســـيدان بشير محمد خير والرشيد محمد البشير من مواطني الكوه وتربطهم بالوالد صداقه قوية وزمالة امتدت من الكوه منذ طفولتهم وتوطدت بعد ذلك عندما شبوا عن الطوق وظلت هـــذه الصـــداقة عامرة بينهم حتى انتقلا لرحمة مولاهما . وكلاهما حاج بشير وحاج الرشيد أسســـا أعمـــالاً تجاريـــة ناجحة بمديرية بحر الغزال وبعد التمرد انتقل حاج الرشيد للعمل بامدرمان وتطورت اعماله عندما بنى مصنعاً للثلج ما زال قائماً ويديره الآن أبناء أخيه سيد احمـــد لان حـــاج الرشيد لم ينجب . وحاج بشير استقر بالكلاكله وله مجموعة من الاولاد والبنات .

(5) الفـــاتح الماحـــي مـــن عمـــراب الكوه ولد ودرس الاوليه بالكوه وتخرج من كلية غردون التذكارية والتحق بالعمل الحكومي في وظيفة بالمخازن وتزوج من الخرطوم بحري . وكان مشهوداً له بالوطنية وله مواقف ساخنة مع الاداريين البريطانيين منذ كان طالباً بكلية غردون الـــتذكارية وكانـــت تربطة صداقة قوية مع الوالد . وبعد تقاعده بالمعاش جاء ليستقر بالكوه ولكن المنيه عاجلته وتوفى ودفن بالكوه ، وهو عم الدكتور التجاني الماحي .

(6) مؤتمر جوبا عقد في عام 1947م تقريباً .

(7) لعـل الـوالد يقصد حسن احمد عثمان وهو توأم حسين وكلاهما من مؤسسي مدرسة ابي روف ومن رواد الخدمة الوطنية ولهم مواقف مشهودة ضد الادارة البريطانية وكانا من رواد المذهب الفابي Fabian وهو مذهب من مذاهب الاشتراكية الغربية .

(8) شامبي SHAMBE الموقع E ٤٦ – ٣٠
N ٠٧ – ٠٧

(9) ميعة شامبي معروفة ببحيرة نو (NO) وهي المنطقة المخطط قيام قناة جونقلي بها من اجل شـق قـناه لتوفير المياه ومن اثارها ربما تجف البحيرة او على الاقل يتقلص حجمها كثيراً وللمؤلف كتاب مخطوط عن (قناة جونقلي واثارها البيئية والاقتصادية) تحدث فيها باسهاب عن سلبيات القناة والكتاب ما زال مخطوطاً .

(10) السـيد سـيد أحمـد بوبي من اهالي الكوه عمل فتره من الزمن في شبابه بمدينة الكوه مزاولاً اعمال الزراعة والتجارة وما لبث أن لحق باهله ومعارفه من رجالات الكوه العاملين بالجـنوب وبعد تدهور الاحوال الامنية فيما بعد عاد الى الكوه لتمضية بقية ايامه حتى توفي لرحمة مولاه .

(11) كانت عائلة السيد عثمان فقير وهو ايضا من اهلنا بالكوه .

(12) قابلت المرحوم سيد احمد بوبي في اواخر ايامه وكان جارا لنا بالكوه ورايت اثار النمر علـى ذراعـه وكفـة يده وقص علي نفس الرواية ولكنه اضاف بان بعد سقوط النمر على الارض هجـم عليه الاهالي واوسعوه طعنا بالحراب ، وقال لي بلهجة ساخرة خربوا علي الجلد ! !

(13) الـثابت علميا ان الوفاة تنتج من اثر الصعقة الكهربائية لان الصاعقة ما هي الا شحنة كهـربائية عالية يتبعها تفريغ هوائي كبير يؤدي الى اعصار يقتلع كل ما يعترض طريقه . وهـناك الاعتقاد السائد بان الصاعقة تحمل معها سيفا فلذلك يلجاون الى الحفر والبحث عن هذا السيف المزعوم والذي يقال بانه سيف بتار لا شبيه له .

(14) ضالة لعبة شعبية منتشرة في في اواسط السودان وخاصة بين العرب البقارة فهي تتكون من عدد من اعواد الخشب الرقيقة يبلغ مجموعها حوالي اربعين عودا لكل فريق ويمكن ان يلعـبها شخصان او اربعة او اكثر (36) ويعمد كل فريق على وضع اعواده بطريقة خاصة تضمن له التغلب على صاحبه كما في الشطرنج .

(15) القرموط : نوع من السمك يعيش في الاماكن الضحلة والخيران ويمكن ان يصل وزنه الى اكثر من عشرة كيلو وجلده املس ويميل الى السواد ويمتاز بخاصية العيش خارج المياه لمـدة طويلة لانه يتنفس من مسام جلده اضافة الى الخياشيم ويعتبر لحمه من لحوم الدرجة

الثالثة . ولحمه خالي من الدهون وعندما يجفف يطلق عليه اسم (الكجيك) .

(16) هي في العادة اسماك لا يتعدى طولها 10 – 15 سم ويطلق عليها الحميلات والكواره والشلباية والعر .

(17) شـــهدت مـــناطق الالتماس هذه فيما بعد معارك شرسة دارت بين المجموعات العربية المسلحة من البقارة (المراحيل) وبين قبائل الدينكا التي تسلحت ايضا بجانب السلاح الابيض بالســلاح الــناري الــذي حصلوا عليه من المتمردين فكانت الاغارة على القرى والقطعان والسبيّ والنهب متبادلاً بين الفرقاء . ولكن الاتفاقيات والعهود التي ابرمت بين الفريقين فـــي الســنوات الاخيرة خففت كثيرا من تلك المعارك . ولم تصبح تلك المصايف كما كانت فـــي الماضي الذي يتناوله المؤلف او تلك الاحوال التي كتب عنها د . فرانسيس دينق في كتابه (رجــل يدعى دينق ماجوك) الذي تناول حياة المسيرية بقيادة بابو نمر والدينكا بقيادة والده السلطان دينق ماجوك .

(18) البفرة : نوع من انواع البقوليات يشبه البامبي ولكنها تكون باحجام اكبر ويستخدم بدلا عن الخبز .

(19) العناقريب : وهي السراير البلدية وكان يطلق عليها (المخرطة) ونالت عناقريب واو هــذه شــهرة واســعة وكانت من مستلزمات الزواج والختان بأن يجلس المحتفى به في هذا العنقريب لزوم " الجرتق ".

(20) غاب ابو شنب ولعب ابو ضنب " مثل سوداني " أي عندما يغيب القط يلعب الفأر .

(21) أبّا : ABBA

(22) الســيد عبد الرحيم نمر (رحمه الله) ابن خالة المؤلف وزوج شقيقته تخرج من كلية غــردون وبعد فصله من الكلية اثر اضراب الطلاب في عام 1932م عمل مدرساً بمدارس الاحفــاد ثــم عمــل مترجماً ابان الحرب العالمية الثانية وسافر مع قوة دفاع السودان التي شاركت في حرب الصحراء بليبيا بعد ذلك عمل في السلك الكتابي الى ان وصل الى وظيفة باشــكاتب مديــرية وبعــد الاستقلال عمل سكرتيرا لمجلس الوزراء في اول وزارة وطنية برئاسة السيد اسماعيل الازهري . توفي بملكال في مطلع السبعينات .

(23) وفقاً للاحداث فقد جاء الوالد الى جوبا حوالي عام 1953م تقريباً .

(24) الصاغ صلاح سالم وهو من اعضا ء مجلس قيادة الثورة المصرية وقد اوكلوا له ملف القضــية الســودانية ، واستطاع ان يبني علاقة متينه ووثيقة مع زعماء السودان وسلاطين الجنوب .

(25) الشيخ أحمد حسن الباقوري : من خريجي الازهر وتولى وزارة الاوقاف المصرية وكان من المشايخ المقربين لقادة الثورة المصرية.

(26) عصمت عبد الجواد : صحفية مصرية كانت تعمل بمؤسسة اخبار اليوم وبنت علاقات واسعة مع السياسيين السودانيين .

(27) الدكتور احمد السيد حمد : القطب والسياسي المعروف من رواد الحركة الوطنية ومن مؤسسي الحزب الوطني الاتحادي ثم حزب الشعب الديموقراطي اوقف حياته على العمل الوطني والسياسي منذ ان غادر السودان في العشرينات لتكميل تعليمه بمصر حيث حصل على ليسانس الحقوق من جامعة فؤاد الاول ثم فرنسا حيث نال درجة الدكتوراة في القانون من الجامعات الفرنسية واصبح السكرتير العام لحزب الشعب الديمقراطي ثم السكرتير العام لحزب الاتحادي الديمقراطي في عام 1967 م ، كان وزيرا للري عقب ثورة اكتوبر 64 – 1965 م ووزيراً للتجارة 67 – 1968 م حتى قيام مايو وتعرض لمحاكمة جائرة في عام 1969م وحكم عليه بالسجن ولكن اطلق سراحه فيما بعد وانضم الى حكومة مايو بعد المصالحة الوطنية في عام 1976 م وعمل وزيراً للمواصلات.خرج من السودان معارضا لثورة الانقاذ الوطني وكان احد اعمدة التجمع الوطني واستقر بالقاهرة ، وعاد مؤخراً للخرطوم بعد اعادة الانقاذ له منزله المصادر وبداية الوفاق الوطني شارك في العمل الوطني في كل مراحله وحتى يومنا هذا (2002م) وتربطة صلة قرابة بالوالد .

(28) نسبة لما يربطنا من صلة وعلاقة حميمة مع الدكتور احمد السيد حمد وكنت في السنوات الاخيرة اتردد عليه بمنزله وفي زياراتي للقاهره كنت ازورة بشقته بمدينة المهندسين وفي كل تلك الزيارات كنت اطالبه واحثه على كتابة مذكراته بصفته شاهد عصر . لانه باختصار السياسي السوداني الوحيد الذي لازال يعمل بالساحة السياسية وقريبا من مركز القرار منذ مطلع الثلاثينات وحتى بداية القرن الواحد والعشرين أي قرابة السبعين عاما . ولكن حسب علمي لم يكتب شيئا من هذا ، وارجو ان اكون على خطأ .

(29) الدكتور ابو عكر من الرعيل الاول من الخريجين الذين عملوا بالحركة الوطنية وقد اجج نيران الوطنية في كل المدن التي عمل بمستشفياتها قبل الاستقلال تولى رئاسة لجنة السودنة تلك اللجنة التي قدر لها ان تستبدل الادارة البريطانية بادارة سودانية وقد نجحت في ذلك .

(30) السيد الطيب محمد علي : مسقط رأسه الدويم وتربطه بالوالد صداقة متينه وهو اخ الحسن محمد علي وبدوي وعبد الله وفضل الله ، وبعد تدهور الاحوال الامنية بجوبا عاد الى

الخـــرطوم ليؤسس عملا تجاريا ناجحا وسكن بامدرمان (حي الامراء) وكان الوالد يزوره في عمله بالخرطوم او منزله بامدرمان كلما جاء الى العاصمة .

(31) انظـــر قارئـــي الكـــريم هذه واحدة من الخدمات الوطنية التي قدمها ابناء السودان الى اشـــقائهم في يوغندا واخيراً يأتي موسفيني ليكافئ السودان بدعم حركة التمرد وتغذية نعرة الانفصـــال بالنسبة للجنوبيين وينسى او يتناسى عامداً الدور او الادوار والمواقف التي وقفها الشـــعب الســـوداني ممـــثلاً في امثال أولئك المواطنين للاحرار من ابناء يوغندا حتى نالت استقلالها وتحررت .

(32) ربمـــا لا يكون هذا التفسير مقبول علمياً . فالزلازل تحدث بسبب تصدعات في طبقات بـــاطن الارض وعلى اعماق سحيقة حيث لم تستقر الارض تماماً في بعض المواقع وتكون الصـــخور منصـــهرة فتخرج في شكل نافورات بعد ان تفجر الجبل وهو الامر الذي نشاهده كثيراً على شاشات التلفزيون حيث تدفق الحمم كالسيل .

(33) حـــدث فـــي مطلـــع الثمانينات هزة أرضية قوية بمدينة جوبا أدت الى تصدع المباني وانهيار الكثير منها ومن ذلك مباني جامعة جوبا التي تعرضت الى خراب شديد بفعل الهزة

(34) الشـــلن الانجليـــزي : كانت العملة المتداولة بالسودان قبيل الاستقلال والجنيه كان به عشرون شلناً .

(35) تانجاتيقا : وكانت تضم كل من زنزبار وتنزانيا .

(36) ظل هذا الطقم ملازماً للوالد طوال حياته حتى بلغ الكبر وقارب المائة عام فصار الطقم اكبـــر من الفك بعامل الكبر وضمور الفكين . أي حوالي خمسين عاماً وفي هذا شهادة لذلك الهندي النطاسي البارع .

(37) عنتبي ANTBEE

(38) معاويـــة ابراهيم سورج من ابناء الكوة ومن اهلنا السورجاب اعتنق المذهب الشيوعي مـــنذ ان كـــان طالـــباً بمدرســـة حنـــتوب الثانوية فصل منها وتعرض للسجن والمحاكمات والملاحقـــات ، تـــدرج فـــي مناصـــب الحزب الشيوعي السوداني حتى وصل الى منصب السكرتير التنظيمي واشتهر بشجاعته ومواقفه البطولية كان احد قادة الانقسام إبان فترة مايو ، توفي الى رحمة مولاه .

(39) التجانـــي الطيب : احد قادة الحزب الشيوعي وعضو المكتبة المركزية وظل في قيادة الحزب حتى نهاية عام 2002م عند اعداد هذا الكتاب للطبع .

(40) السني محمد خير بدرية من اهلنا بالكوه عمل بالتجارة والأعمال الحره بمدينة ملكال ثم

انـــتقل للعمل بجوبا صار عضواً في المحكمة الاهلية وعضو اللجنة التنفيذية للحزب الوطني الاتحادي بجوبا كان من الشخصيات المحبوبة ولها صداقات حميمة مع القادة الجنوبيين وظل علـــى صـــلة بهم حتى بعد عودتهم للشمال واستقراره بالكوه وفي اواخر ايامه اصيب في بصره توفي الى رحمة مولاه .

(41) ياي YEI الموقع E ٤٠ - ٣٠ احدى مدن غرب الاستوائية
٠٤ – ٠٥ N

(42) السيد محمود حاج مهدي صديق وزميل للوالد منذ أيامهم بالكوه واستمرت هذه الصداقة حتـــى يومـــنا هذا ، والسيد محمود حاج مهدي من الجيل الثاني الذي عمل بالجنوب واستقر بالمديـــرية الاســـتوائية واســـس عملا تجارياً ناجحاً وكان من اوائل التجار الشماليين الذين حصـــلوا على تصديق مزرعه تقوم بزراعة البن ولكن قيام التمرد دمر كل شيء وقد كتب العـــم محمـــود تجربته تلك ونشرت بالرأي العام وهي تجربة جريئه تنم عن شجاعة وحسن القـــيادة فقد استطاع بقيادته الرشيده لمجموعة التجار واسرهم ان يقودهم ويخرج بهم بلوري مـــتهالك واســـتطاع ان يقـــاوم المتمردين ببعض بنادق الخرطوش حتى تمكنوا من الخروج ومغـــادرة مـــريدي واتجهوا نحو بور ومنها الى ملكال . وقد اختير عضواً في لجنة حصر خسائر التجار وكان ممثلاً لهم في تلك اللجنة .

(43) تحققت هذه الامنية عندما حصل الوالد على مشروع زراعي آلي بمنطقة الرنك باعالي النـــيل مشـــتركاً مع عمنا المرحوم عبد الرحيم نمر وكانت مساحته الفي فدان وعندما ترك الرنك تحت اصرارنا تقدم بطلب للحصول على قطعة ارض زراعية لتكون مزرعة بالقرب مـــن قـــرية الكعاكـــة وهي على قطعة مساحتها حوالي أربعمائة فدان مشاركة مع ابن خالنا البروفسير محمد النصري حمزه ولكنها لم تنجح كما كان متوقعاً منها .

(44) السيد حسن حمزة وهو خالنا شقيق والدتنا كان يعمل بالتجارة والزراعة بالكوه وانضم للعمل مع الوالد بمدينة جوبا للعمل سوياً في تجارة الذرة وابان فترة التمرد تعرضت تجارتهم الـــى خســـارات فادحه مما قادهم الى فقد راسمالهم واتعاب اخرى من الدائنين ، رجع خالنا حســـن حمـــزه واستقر بالكوه الى ان توفي بها الى رحمة مولاه في نهاية الستينات . وكان رجـــلاً صادقاً وأميناً وامضيت طفولتي بجانبه بالكوه نسبة لغياب والدي بالجنوب وقد علمني الكثير وأشرف على تربيتي ، رحمه الله رحمة واسعه .

(45) كانت توريت هي بؤرة التمرد في اغسطس عام 1955م عندما تمردت الفرقة الجنوبية بها وقتل معظم ضباطها الشماليين واغتيل معظم التجار السودانيين بالمدينة مع اسرهم ويكفي ان اســـرة واحـــدة فقدت جميع افرادها (وهي اسرة الشيخ الفزاري فقدت حوالي 22 فرداً

)وللتفاصيل انظر تقرير اللجنة الذي صدر عن تلك الاحداث وأصدرته وزارة الداخلية في ذلك الوقت واعادة طبعه " مركز الدراسات السودانية " ففيه قوائم باسماء الشهداء والمفقودين

(46) السيد زيادة ارباب تولى وزارة التربية في عهد حكومة عبود (1958 – 1964م) وربما اسفرت زيارته تلك عن طرد القساوسة الاجانب من الجنوب فالثابت قد اصدر قرار من وزارة الداخلية السودانية في عهد حكم عبود قراراً بطرد القساوسة من الجنوب لتدخلهم السافر في شئون السودان الداخلية .

(47) كاتري KATIRE الموقع E ٤٧ – ٣٢
N ٠ – ٤

(48) السيد علي بلدو كان من الرعيل الاول من الاداريين الذين قاموا بسودنة الوظائف الادارية (مدير مديرية) وقد جاء إلى المديرية الاستوائية في ظروف بعد التمرد فكانت مهمته صعبة وشاقة ولكنه اشتهر وعرف بالنزاهة وقوة القرار وفي عهده اتخذ قرار طرد القساوسة الاجانب من الجنوب وكان ذلك من أخطر القرارات التي اتخذت في عهد عبود نسبة لسطوة الكنيسة بالداخل والخارج .

(49) السيد ميرغني عبد النور من الجيل الثاني من الاداريين الذين سودنوا وظائف الممفتشين البريطانيين ولد بحي ابو روف بأم درمان وسكن الخرطوم اثنين وتنقل في الكثير من المراكز الادارية بالسودان حتى تقاعده بالمعاش .

(50) نأمل ان يتم كل هذا بعد عودة السلام للجنوب واستقرار أوضاعه فالمعروف لا سياحة مع عدم الاستقرار .

الفصل الخامس

مريدي(1)

مريدي من اكبر مدن الاستوائية من حيث اتساع الرقعة وكثافة السكان تقع على بعد (250) ميلاً من جوبا وسكانها الأصليين هم الزاندي الذين يسكنون الرقعة من بعد نهر بوشرى جنوب غرب مدينة واو ببحر الغزال ماراً بطمبرة وتعتبر عاصمتهم ، وانتشروا بعدها حتى مندرية وتعتبر اكبر القبائل عدداً ولهم حضارة قديمة ضاربة فــي القــدم . هذا التعريف البسيط قد فتح أمامي نافذة للحديث عن تاريخ السودان وكــنت أقــول وفي كل مناسبة إن تاريخ السودان الحقيقي لم يكتب بعد فكل كاتب اعــتمد ونقل عن مؤلفين لا أقول باحثين عن طبقة المستشرقين عملوا فيها خيالهم وتصوراتهم لا صلة لها بالحقيقة والذين نالوا شهادات في ما أسموه تاريخ السودان والــذي اعتبــر على مر السنين مرجعاً لكل كاتب ما هو إلا زيفاً وفيه الكثير من التضــليل للأجــيال القادمة فلنخاف الله فيهم والأمانة تقتضي أن نلقي ظلال الشك علــى كل ما كتب ليكون لهم حافزاً لتقصي الحقائق ولكي لا نبخس الناس أشياءهم ولنعطــي كل ذي حق حقه وقع في يدي بحث للدكتور محي الدين صابر أطال الله عمره في مجلد كبير عنوانه بحث مستفيض عن اصل الزاندي(2) ومن أين جاءوا ، ومن هم الرواد الأوائل ، وقد ذكرهم بالاسم وضمنه الكثير من عاداتهم وإن استعان بــبعض ما كتبوه بعض الكتاب الأجانب في هذا المجال غير انه لم يعتمد عليها ولم يكــتف بها إلا من النواحي العلمية ولكنه جرياً وراء الحقيقة دخل الغابات والبيوت وجلس أمام الشيوخ المعمرين جلس معهم ونام على عنقريب القنا وشرب من ماء المســتنقعات واكــل البفــرا والبامبي واختلط معهم وتعلم لغتهم وسأل عن الكثير وخــرج ببحث حقيقي مدعوماً بالصور ويعتبر هذا البحث هو اللبنة الأولى وأساساً صالحاً لكتابة تاريخ السودان فكل من لم يتكبد هذه المشاق ويبحث عن الحقائق في أماكــنها فــلا يحق له أن يسمي ما كتب تاريخاً للسودان بل رواية ذات فصول من نســيج خيال مستشرقين أجانب وبحث محي الدين صابر هذا يعتبر موسوعة علمية وقد قرأته من ألفه إلى الياء رغم كبر حجمه ولعدد صفحاته خرجت منه وأنا مؤمن

إيمانـــاً صـــادقاً إنها الحقيقة التي لا يتطرق إليها الشك انه يستحق أن نقول أساساً صالحاً لكتابة تاريخ السودان الحقيقي . ومن هذا المنطلق وجب علي أن أناشد طبقة المثقفـــين الحادبـــين على تاريخ السودان بأن يعقدوا مؤتمراً ويكونوا لجاناً يجوبوا أنحـــاء الســـودان المختلفة بعد أن تتبنى الفكرة الحكومة وتضع لها ميزانية خاصة ويحذوا حذو هذا الرجل العظيم ويأتوا بالحقائق ويضعوها بين يدي الحكومة وعلى الحكـــومة أن تجمعهـــا فـــي كتاب بذلك نكون قد أرضينا ضمائرنا وتحاشينا لعنة الأجيال القادمة لأنه لا زال هناك بعض المعمرين على قيد الحياة فسيجدون عندهم مـــا يساعد على تحقيق هذه الأمنية . وأنا إذ اكتب هذا أرى من بعيد الأصابع تشير نحوي أنى قد أجحفت أو قللت من قيمة ما كتبوا في هذا المضمار فردي عليهم أن يأتونـــي بمؤلـــف دخل منطقة تالودي حيث يسكنها اكثر من أربعين قبيلة لكل قبيلة جـــبل ولكـــل جبل لهجته الخاصة وعاداته وهم تجمعهم كلمة النوبة ولا يفصل بين القبـــيلة والقبـــيلة إلا أمـــيال قليلة فمن أين جاءوا من هم الجدود الأوائل وكيف تم وصولهم إلى هذه المنطقة وحدث عن بقية القبائل ولا تبالي إذا استثنينا بعض قبائل العرب التي دخلت السودان بمواشيهم طلباً للمرعى سواء كان من ناحية الغرب أو مـــن طريق البحر الأحمر أما الذين دخلوا السودان عن طريق مصر بعد أن ضاق بهـــم الحـــال في مصر وأقاموا مع النوبيين في الشمال فأصولهم تحتاج إلى بحث خاص .

هـــذا ما كان يثقل كاهلي ولم أجد الفرصة للتخلص منه وهو كأمانة يجب أن يحملهـــا غيري بعد أن وضعت يدي في مواضع الداء فعلى الشباب المثقف البحث عـــن العـــلاج اللهم إني قد بلغت فاشهد فمن أراد المزيد عن قبائل الزاندي فليرجع إلي الكتاب المذكور آنفا .

ومريدي نفسها معروفة منذ أوائل الفتح الثنائي حيث تقابلت الجيوش الزاحفة من الشـــمال بقيادة البريطانيين مع الجيوش البلجيكية وجهاً لوجه مع بعضها في مكان مـــريدي الحالـــي لم تقع بين الجيوش معركة وآثروا المفاوضات السلمية وبعد اخذ

ورد اتفــق الجانبان بأن ترجع الجيوش البلجيكية إلى نقطة معينة نحو الغرب ولكن قبل الوصول للمكان المعين بأميال قليلة استبد بهم الطمع ونزلوا دون ذلك واصبح الحد الفاصل بين الدولتين . انتقل إليها المركز من امادي داخل حدود المورو أقلية بالنســبة للــزاندي الذين تأخذهم العزة لعراقتهم وما المورو إلا بعض الرعايا فكان سلاطين الزاندي يلاقون متاعب كثيرة للوصول إلى امادي وظهر التأفف والاستياء علــي وجــوههم حتــى وصــل إلى درجة الشكوى البينة ففكر المفتش لعلاج هذه الظاهرة واستقر الرأي علي نقل المركز إلى مريدي ومما ساعده على تنفيذ الفكرة بعض العوامل الطبيعية والاختلاف الظاهر بين الموقعين أولاً موقعها الجغرافي ثم مــياهها العذبة النقية التي لها منابعها من بين الصخور ، صافية وعذبة وباردة زد علــى ذلــك نهرها الجاري الذي لا ينقطع جريانه طيلة العام الذي منبعه في داخل الكونغو - ويخترق بعض أراضى الزاندي حتى يصب في نهر النيل - يكونان رافداً مــن روافــد النيل أرضها حجرية بلون احمر تحفها من جميع جهاتها جبال عالية دائمة الخضرة أشجارها باسقة خضراء .

عندما رحل الجيش البلجيكي عن مريدي ترك بعض المخلفات على الهضبة العالــية التي كان يقيم عليها ترك بعض القطع الحربية عبارة عن مدفع كبير لقوا صعوبة في سحبه حيث يحتاج إلى قوة وجره الجيش السوداني إلى حيث مكانه الآن أمام مدخل المركز أما المدفع الصغير الذي خلفوه وراءهم لا زال موجوداً على هذه الهضــبة بعد أن بنت حكومة السودان عليها استراحة هذا من الناحية الجنوبية أما الشمالية كانت تقوم قرية صغيرة اسمها بدير وكان يقيم فيها مندوب عن عربي دفع الله(1) أحــد قواد جيشه عندما كان عربي حاكماً لهذه المنطقة واتخذ من مكانها الآن حظائر لبقر التجار .

سبق أن أوردنا أن البلجيك حطوا رحالهم قبل أن يصلوا إلى الموقع المتفق علــيه ممــا تســبب عنه فصل أخوين من سلاطين الزاندي كل منهما سلطان على منطقة إلى يومنا هذا فأحدهم تابع لحكومة السودان والآخر تابع إلى الكنغو البلجيكي

والغــريب في الأمر أن هذا الانفصال احدث تغيراً في تقاطيع الوجوه واللون والدم ويســتطيع الإنســان أن يميز بين الكنغولي والسوداني بسهولة لكن الكنغولي اكثر نشــاطاً وحــيوية بما أدخل البلجيك من محاصيل زراعية كالشطة والأناناس والبن والمــوز والبفــرة وتوسعوا في زراعتها ولا يخلوا بيت من بيوتهم من جناين من المــوز والباباي والمنقا والتبليون وبمثابرتهم على العمل استطاعوا أن يستغلوا هذه المحاصيل والتوسع في زراعتها فكان عائدها كبيراً واكثر ما في السودان من هذه المحاصيل دخل عن طريق الكنغو أما استعمال المخدرات التي تزرع في مساحات واسعة في كلا البلدين غير تعاطي الكنغولي لها اقل من السودان الذين أدمنوا حتى أقعــدتهم عــن العمــل واخلدوا للراحة والخمول بسبب تأثير المخدرات .أما سكان مــريدي فخلــيط مــن الأجناس فالزاندي هم سكان الأرض الأصليين والابوكاية والمــندو والــباكا كل هذه الأجناس تكاد تكون انصهرت في بوتقة واحدة من حيث العــادات والطــباع وفي حياتهم الاجتماعية مع احتفاظ كل قبيلة بلغتها أما الزواج فالمهــور قليلة قد لا تتجاوز الثلاثة جنيهات هذا بعد دخول الاستعمار أما قبله كان الزواج بالحديد كالحراب والملود والطلاق غير معروف عندهم بالمعني الصحيح بل يهجرها .

أمــا دفن موتاهم تحفر حفرة للميت حفرة عميقة تم تتزوي جانباً نحو نصف المتر وتوضع الجثة ومعها ملابسه وحذاؤه وآلات التدخين وأدوات الأكل ليستعملها بعــد عــودة الــروح إليه كما يعتقدون وتقام ليالي المأتم بعد شهور من الوفاة بعد التحضــير لهــا من ذبائح وخمور ومأكل للمعزين بعدها يضعوا الحجارة المنحوتة علــى القبــر على شكل هرم يرتفع نحو مترين ونجد عليها لمبة غاز وأواني أكل إيمانــاً بعودة الروح وهم يتشاءمون من الدار التي حصلت فيها الوفاة فينتقلون إلى مكان آخر ويتركوا وراءهم مزارعهم من جناين للفاكهة وغيرها ويسمونها البابابة ومعرفة باسمة هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل تكاثر أشجار الفاكهة في كل مكان من الغابات بين غابات الزاندي ومن أراد التوسع فليرجع إلي كتاب الزاندي لمؤلفه

الدكتور محي الدين صابر السابق الذكر .

ومنطقة الزاندي لا يعيش فيها البقر ولا الغنم بسبب تكاثر الذباب المهلك لهذه الحيوانات أما الدجاج فموجود بكثرة .

وهم كأفارقة يقضون معظم لياليهم في الرقص ولكل قبيلة طريقة خاصة من حيث الحركات أما الآلات الموسيقية عندهم متشابهة بعضها ما يشبه الربابة ومنها ما يشبه الاورغن وقد تكون مأخوذة أساساً منها غير إنها من صنع محلي ومن اختراعاتهم الخاصة صندوق صغير مصنوع من خشب خفيف وله جرائد من حديد تصف وتثبت على واجهته ويحمل باليد ويضرب على جرائد الحديد فترن رنيناً موسيقياً وهي تستعمل لتساعد المسافر وتزيد من نشاطه على مواصلة السير .

أما صيد الحيوان فهو نوعان فردي وجماعي ، فالفردي يحمل حربته وقوسه وكنانته ويدخل الغابة أما الجماعي يكون غالباً بعد انتهاء فصل الخريف وتجف الحشائش يعملوا خط نار في منطقة تقرب مساحتها من عشرة أميال مربعة في أماكن تجمع الحيوانات أما بغرض المرعى أو يحتمي فيها سحابة نهاره وفي يوم محدد يجيء كل فرد يحمل شبكة مصنوعة من لحاء الأشجار أشبه بما تصنع لصيد السمك غير إنها اكبر فتحة ثم تربط على قوائم خشبية متراصة بحيث لا تترك ثغرة ينفذ منها الحيوان وعلى ثلاثة جهاتٌ وبعد عملية التسوير يرجعوا ليشعلوا النار من الناحية الرابعة وتفر الحيوانات من النار فتصطدم بالشباك وهو يتمادى عليها للخلاص منها وتعمل الحراب فيها ولكل فرد صيده ويشترك في هذه العملية الرجال والنساء أما صيد الأسد والنمر فله طريقة خاصة والذئاب أيضاً ، تقطع الأخشاب على طول مترين تقريباً وتفرز على الأرض على صفين متقاربين على قدر جسم الحيوان وكلما سار خطوة كلما ضاق وفي شكل مخروطي إلى أن يتصل الطرفان ويوضع حيوان صغير كالشاه داخل مكان مأمون لا يصل إليه الحيوان وهو يراها ويحاول الوصول إليها وكلما مشى خطوة يضيق المكان حتى يجد نفسه وهو عاجز من التخلص من هذا القيد وفي الصباح يطعن بالحربة حتى يموت .

وللحــيوانات الأخرى صيدها الخاص كالزراف وأبو عرف والكتمبور والجاموس يفــتل حــبل مــن جلد البقر أو الصيد في حجم مناسب ويربط على وسط كتله من الخشــب يســتطيع الحيوان جرها وفي طريق الحيوان تحفر حفرة صغيرة يوضع فــوقها حبل له عين ليسهل ربط الحيوان ثم يخفوه بشيء من القش أو التراب وعند مرور الحيوان تغوص رجله في الحفرة ويتعلق بها الحبل وكلما رفس ونفض رجله أحكمــت الــربط وكلما جرى جرته الخشبة المربوطة على رجليه حتى يعجز عن الحــركة وهــذا الــنوع معروف بين كل قبائل العرب ويسمونه الضقل لكل قبائل الجنوب مهارة فائقة في تتبع الأثر ولو مر على صخرة صماء أو اختلط بأثر آخر كمــا أنهم يمتازون بحدة السمع ويمكن تمييز الصوت سواء كان مصدره حيوان أو ريــاح فطبيعة العيش وقوة الحياة خلقت لهم ميزات قل أن تجدها مجتمعه في قبائل أخرى .

وبهذه المناسبة لبعض الحيوانات تصرفات أشبه بتصرفات الإنسان فمثلاً الأسد وهو يتتبع فريسته ويمشي خلفها بكل حذر لئلا يلفت انتباهها فإذا وطئ قدمه عود خفيف وانكســر واحدث صوتاً عضه بأنيابه وتتخفى نفسه حذر أن يلتفت الحيوان الآخر ويفسد عليه خطته .

وصف الجاموس

قــبل أن ندخل غابات مريدي الكثيفة ونلتقي بالجاموس يجب أن أعطيك فكرة عن هذا الحيوان الذي لا نعرف عنه إلا القليل . الجاموس من فصيلة البقر وهو نوعان الألــيف مــنه ويــوجد في مصر يربى داخل الحقول والمنازل وهو على ما اعتقد مهجــن لإختلاف الشكل والهيئه في كثير من التكوين ، أما النوع الآخر البري فهو مستوحش يشبه البقر مع الفارق البسيط فالفحل منه ليس له سنكيت وله قرنان ليست كقــرون البقر ولا الجاموس الأليف لان قرونه لا تقوم على طرفي رأسه من فوق الأذنين إنما تقوم على الجبهة حتى تقطيها في عرض خمسة عشر سنتمتر أو اكثر عريضــة تغطي الجبهة كلها لا تجد بين القرنين إلا بقدر إصبعيين وتنمو عريضة

مـــن أساســـها حتى تصل إلى ارتفاع خاص تتكور قليلاً وتنسحب شيئاً فشيئاً حتى تصـــير رقـــيقة تخترق أي جسم وقد تكبر هذه القرون إلى أن تصل نحو المتر بين القرنين لا يخترقها الرصاص شرس الطباع حقود ماكر شجاع لدرجة بعيدة يهاجم في إصرار يحاول دائما أن يدخل قرنه تحت فريسته لرفعه بقوة ثم يلقاه بقرنه فإذا ما أصاب البطن أو الصدر فتحها إلى نصفين وان لم يجد فرصته لقرنه فهو ينهال علي جسم الإنسان بأظلافه بكل قوته يدوسها حتى يمزق جسمه وهو يجأر ويخور بصوت عالي ولا يترك للإنسان عضلة إلا أدماها وإذا وجد الإنسان فرصته وتسلق أعلـــي الشجرة وقف تحتها وهو يراقبك وينظر إليك حتى إذا ما شعر بالجوع رعى حول هذه الشجرة ثم يعود ليلقي عليك نظرة ولا ينتهي هذا الحصار ولا ينفك إلا إذا اشتد به الجوع أو العطش أو جاء إليه الليل .

يخـــتلف الجاموس عن البقر في طريقة مشيته فالبقر تمشي مطأطأة الرأس أمـــا هو فيمشي ورأسه على مستوي جسمه أي مرفوع الرأس وانفه مرفوعة حتى يصعب على الصياد ضربه على جبهته بسبب القرون التي تغطي الجبهة أو بسبب ارتفـــاع الـــرأس والأنف وعلى الصياد في هذه الحالة أن يرميه في النحر رغم أن النحـــر لا تعتبـــر مقتل سريع إلا إذا أصاب السلسلة الفقرية أو النزيف بعد مدة قد تطـــول ومـــن مكره إذا أصابه شخص برصاصة وجرحه أو بسهم من قوسه سقط علـــى الأرض لا يحـــرك عضلة من جسمه ويشعرك بأنه ميت فإذا ما اقترب منه وثب عليه ومزقه إرباً إرباً والذكور منها كبيرة الجسم خصوصاً الرقبة فهي تتضخم ويكثر لحمها ولا يستطيع شخص حملها ولا يُجد في لحمه مزقه من شحم أما الإناث قد تجد في بطنها قليل من الشحم بعد أن تفطم وليدها ويشاركه في هذه الظاهرة إذا استثنينا القرنتي ووحيد القرن .

وللجاموس خاصية قد لا تجدها في الحيوانات الأخرى إلا القليل الجاموس مما يدل على شجاعته محاولته دائماً على مساعدة بعضه إذا ما سمع صوت استغاثة من جاموس آخر وهو يعيش في أسر بحيث البقرة تتبعها بناتها كلها مهما بلغ عددها

إذا رقدت الأم ورقدت حولها البنات ، والبنات يرقد حولها البنات إلا الفحول وهكذا نجـد الأســرة كلهـا تــرقد في دائرة واحدة وفي المشي كذلك فعند سماع صوت الاستغاثة ترجع البنات نحو الصوت لإنقاذه من الخطر ظناً منها أن حيوان افترسها أو جاموساً آخر عمل بقرونه فيها . أما طريقة مساعدة الأفيال لبعضها ستأتي عند الكلام عنها . لحم الجاموس من أجود أنواع اللحوم سريعة الهضم لا تشعر بثقله في معدتك مهما أسرفت منه لا رائحة لها كأنواع اللحوم الأخرى غير أن الكبد منه غير جيدة ولا مستساغه ولكن لسانه فهو أكلة الصياد المفضلة وللصيادين أكلة خصوصاً وجـبة العشـاء يساعدهم علي ذلك المناخ البارد والرطوبة الشديدة التي تمتاز بها مـنطقة غرب الاستوائية هذا الجو المشبع بالرطوبة يؤثر كثيراً على جسم الإنسان الذي يحتاج تحت ضغط هذا الجو إلى تناول الحراريات ليعيد للجسم نشاطه ويعطيه مـناعة ليـتحمل مثل هذا المناخ ومن المعروف أن عسل النحل له هذه الحراريات الشـيء الكثيـر وعسل النحل متواجد في كل الغابات منها ما هو مربى في مناحل معلقـة بين الأشجار وهو ما لا يتجرأ أحد على الوصول إليه والبعض الآخر الذي يلد على القناطير أو بين أعواد الشجر فهو ملكاً مشاع لكل جان وكان العمال يجنون مـنه الكثيـر ولنا منه نصيب الأسد وكنا نأتي بقطعة اللحم المحمرة ونغمسها في العسل ونأكل منها الكميات الكبيرة حتى نكتفي وفي الصباح تجد نفسك خفيفاً كأن لم يصبك تعب قبلها .

وأنـي وأن اصف الجاموس بهذه الصفات لم اقصد إدخال الرعب والخوف في قلوب الذين يأتون من بعدنا إنما القصد أسمى من ذلك هو أن يلم الإنسان بكل ما عند هذه الحيوانات من خصال وطبائع وأن يلقاه وهو واثق من نفسه عالماً بكل شي لـئلا يؤخذ على غره ، ومن نصيحتي للأجيال المقبلة على أن لا يصطاد الجاموس كـل مـن يملـك سلاحاً نارياً إلا بعد يرافق مرات عديدة من ذوي الخبرة بصيد الجاموس وهو كثير الحيل وعظيم المكر والدهاء .

نبع ساخن طبيعي

على الشارع الرئيسي الذي يربط منطقة الزاندي بالقرب من منطقة السلطان جامبو تجد ما ساخن ينبع من بين الصخور في ارض حجرية وترى له فقاقيع وكأنه علـــى قـــدر تحته نار يقرب من درجة الغليان له رائحة كرائحة الطلع أو الزرنيخ محصـــور هـــذا المنبع في مساحة لا تزيد عن مترين في مثلها وفي وسطها تمكن الإنسان من الجلوس وسط النبع ولا يستطيع الإنسان أن يدخل يده في هذا الماء من شـــدة السخانة وإذا كان بيدك خاتم من فضه تحول لونه إلى لون ظهري جميلاً لا يفارقـــه لعده أيام فأغلب المسافرين في هذه الطريق يغتسلوا في هذه العين الساخنة وبمجرد جلوسك على الصخرة القائمة وسطها يعمك البخار وتشعر وكأنك في حمام (ساونا) وطريقة أخذ الماء منها هي أن تخطفها خطفاً وتمسح بها جسمك ومما تجدر الإشـــارة إليه أن الذين يسكنون بالقرب من هذا المنبع الساخن تجد أجسامهم ملساء سليمة لا أثر لجرح قديم ويتمتعون بصحة جيدة لأنهم يداومون على الاستحمام من هـــذا النـــبع ويقـــال أن مياهه كبريتية وكان الكثير من البريطانيين يعسكروا نحو اليومـــين فـــي هذه المنطقة ليتمتعوا بالحمام في هذا النبع الساخن لو وجد من يبني علـــيه حمامات مقفولة وهيأ للزوار سبل الراحة لأمه كل المرضى خصوصاً الذين يشـــكون من آلام الروماتزم أو الرطوبة التي لم يتوصل الطب الحديث لعلاج ناجع لها ولأغنت الكثيرون عن السفر لحمامات حلوان وكان يقال إن جهات دنقلا قطعة أرض مشهورة باسم العقب لها خاصية في علاج الكثير من أنواع الأمراض الجلدية وأنواع الروماتيزم بطريقة بدائية حيث أن المشرفات علي العلاج نساء طاعنات في السن تحفر الحفر في الرمل على عمق الثلاثين سنتيمتر ويرقد الإنسان ويهال عليه التراب إلا رأسه من مطلع الشمس حتى نحو الساعة التاسعة صباحا فيتصبب العرق مـــن جسمه ويلتصق التراب بجسمه ثم يكشف عنه التراب وتبدأ المرأة في التدليك فـــي كـــل أنحـــاء أعضاء الإنسان ثم يقدم له وجبات خاصة مغذية من بينها التمر وطبـــيخه وبعذ أيام يجد نفسه قد تعافى .كان هذا قبل بناء السد العالي أما بعده فقد غطت مياه السد كل هذه المناطق بالمياه وبذلك فقدنا ضمن ما فقدنا منطقة علاجية

كـــان يشد لها الكثيرون الرحال بغرض العلاج من هذا المرض الذي اقعد الكثيرين عـــن الحركة أقلقهم وحرمهم من متعة النوم من شدة ما يجدونه من آلام ليلاً . فهل إذا تغيرت الأحوال واستتب الأمن فهل نجد من يعتني بهذا المنبع الساخن ويرقى به إلى مصاف الحمامات في مناطق حلوان للاستفادة منه وتخفيف حدة المرض الذي انتشر بين الناس وتفشى بين الرجال والنساء لدرجة اقعد الكثيرين عن الحركة ولم يجدوا علاجاً بعد أن عجز الطب الحديث .

اختيار الخبير الكفء من أهم مقومات الرحلة

في أول أيامنا ونحن نستعد للخروج للرحلة اعترضتنا عقبة يجب أن نزيلها قـــبل أن نـــتقدم خطوة ألا وهي الخبير ذو الخبرة بالغابة ودروبها مواقع الماء فيها وبمـــا أن محمـــود حـــاج مهـــدي من التجار الأوائل في هذه المنطقة وبحكم عملة الـــتجاري اكتســـب خبرة ولَمّ حوله بعض الأصدقاء من الأهالي الزعماء البارزين وكانت الرحلة على أطراف نهر مريدي فأشاروا إلى رجل اسمه بتبا وكان محمود قد استهوته عملية الصيد هذه ووجد فيها من راحة البال ومتعة لا تعادلها متعة فكان مرافقـــي فـــي كثيـــر من الرحلات أخذت العربة تشق طريقها ومعنا ما يزيد عن عشـــرين عاملاً كلهم من قبيلة الدينكا إلى أن وقفت بنا أمام داره وكانت الشمس قد أذنـــت للمغـــيب وجاء مرحباً وشرحنا له القصد من هذه الرحلة فسر بذلك سروراً عظيماً وكان خبيراً من الطراز الأول قوي العضلات مفتول السواعد ضخم العظام يجيد رمي السهام له ملاحظات في الصيد وأحواله اكتسبها بطول الممارسة وكثرة التجارب لا تجده في بيته إلا نادراً وهو لا يرتدي من الملابس إلا ما يستر العورة ويحمل حربة وقوساً ويتأبط كنانته حاد السمع . وفي الصباح الباكر سار بنا متتبعاً شاطئ النهر وهو مورد كل الحيوانات فوجدنا اثر الجاموس رجع نحو الغابة بعد أن شرب من النهر واقتفى أثره حتى لحقنا به هو يرقد على الأرض ومن المعروف أن الجامـــوس لا يرعـــى بعـــد الساعة التاسعة صباحاً لأن هناك ذبابة سوداء صغيرة اسمها(ام بزيور) تدخل في عينيه فتقلقه ولا يفتح عينيه إلا للضرورة وهناك سبب

آخــر يقال إن الجاموس لا يفرز عرقاً بسبب عدم المسام في جلده ولذلك يلجأ إلى الظل بمجرد شعوره بحرارة الشمس هذا هو الاعتقاد السائد صحيحاً كان أم خطأ ، ولما كانت الذبابة تسبب له قلقاً وهو يغمض عينيه فكيف يتقيها فجعل حرساً لا يرقد ولا ينام بل يظل واقفا حتى إذا ما شعر بأي خطر جرى وتتبعه بقية السرب ويصل عــدد الجامــوس الحــراس في بعض الأحيان إلى ثلاثة أو أربعة على قدر تعداد السرب فكنا نركز اهتمامنا لضرب الحرس فعندما يسقط الحرس ويهب السرب من نومه يبحث عن اتجاه الحرس ويدور حول المكان ونحن نطلق عليه النار بعد ذلك يدرك مصدر الخطر فيتولى هارباً بعد أن نكون قد تحصلنا على ما يكفي في يومنا هــذا وكانــت نحــو ست جواميس على الأرض وكنا نمنع أي فرد من العمال أن يتحــرك من مكانه إلا بعد أن يسمع الصفارة كل ذلك لئلا يتعرض شخص لخطر الجاموس وقد علمتنا التجارب الكثير من مكر الجاموس وهو اكثر الحيوانات دهاء ومكــرا يــتماوت وهــو لازال فيه بقية روح فكنا نأتيه من ناحية ظهره والبندقية محشوة بالذخيرة والإصبع على الزناد ونضربه بأرجلنا فإذا ما تحرك منه أي عضو أطلقنا عليه النار وفي هذه المرة بعد أن اختبرنا خمسة منها وجدنا لازال يفتح عينيه ويغمضــها واخــذ الخبيــر حربته وطعنه في مذبحه وسال منه دماً غزيراً وطعنه أخــرى وثالثة فإذا به يثب قائماً وكنت ومحمود نقف على رأسه من الناحية الثانية ووجــد الخبيــر أمامــه وهجم عليه وولى هارباً والجاموس من ورائه فلم نستطيع إطلاق النار عليه خشية أن نصيب الخبير وكنا نرقب الموقف باهتمام وأيدينا علي الــزناد ولكــن الخبير اكثر منه خداعاً ولما اقترب من شجرة اجتازها بنحو مترين والجامــوس يضايقه فلف بسرعة نحو الشجرة ولم يستطيع الجاموس أن يلف بهذه الســرعة إلا بعــد أن أخــذ وقتاً تمكن منه الخبير بالتعلق بأغصان الشجرة ووقف الجاموس تحت الشجرة فرميته بطلقة فوقع على الأرض وأشرنا عليه بالنزول وقال "هــو لســع مــا موت ، دقوه تأني" ورماه محمود وكانت القاضية فنزل من اعلى الشــجرة وهــو يردد " دا كلام شنو يا ربنا " قالها ثلاث ثم أردف قائلاً " لازم في

حاجة بطال في البيت " معني ذلك تشاءم من هذه الحادث وفي المساء جاء من يقول لــه إن أخــتك في حالة خطرة وتطلب حضورك فاستأذن لزيارتها وأذنا له بعد أن أعطيناه جزء من اللحم وعاد في اليوم الثاني بعد أن اطمئن على صحتها .

الجاموس يشرب دمه

صــدق أو لا تصدق فهي الحقيقة المجردة عن الفرض فقد رأيت بعيني وشــاهدت بنفســي هــذا المنظــر وعلى بعد أمتار وسمعت بأذني صوت رشفته وامتصاصــه للدم ولسانه يلعق شفتيه لما علق بها من دم بينما كنت أسير في وسط الغابة وأنا والخبير نتقدم العمال وتلفت يمنة ويسرة ونرهف السمع ونحن نسير علي ارض صــلبة حجرية فإذا بجاموس اسود اللون ممتلئ الجسم وكأنه بيت من شعر يسير وحيداً ويرعى وحيداً وفي مثل هذه الحالة يطلق عليه مجازاً (دوربرا) صفة تطلــق على المساجين المضمونين الذين يحق لهم السير خارج السجن دون حارس والأســباب الحقيقية التي تضطر الجاموس على الحياة منفرداً دون بقية السرب هي أساســاً كبر السن عندما يبلغ الجاموس كبر السن تقل مروءته ولا يستطيع الوقوف أمــام الصغار في حالة المعارك التي تنشب بينها كفحول وسط السرب وهو يشعر بالضعف أمامها فيترك المراح فينفرد مؤمناً بنظرية (البقاء للأصلح) وتكون هذه الحــياة الانفــرادية قد زادت طبعه حدة يهاجم كل من يعترض طريقه دون هوادة أطلقــت علــيه الــنار فسقط على الأرض ونزل الدم من جنبه وكأنها ماسورة ماء مفــتوحة حتى تجمعت على جنبه بركة من الدم ولما كانت المواجهة من غير ساتر ورآني أمامه وعلى بعد أمتار حاول القيام فخانته قوائمه ووثب أخرى فعجز ووجد بــركة الــدم أمامــه فعمــد إليها وبدأ يشرب منها وينظر إليّ في شراسة ويحاول الــنهوض ثم يعود إلى الدم ويشرب تارة يلعق بلسانه شفتيه المتخضبة بالدم واسمع بأذنــي امتصاص الدم كل ذلك وأنا اعلم إن الإصابة قاتلة وكنت غير مكترث مما يأتــي بــه من أفعال ولكن كسب للوقت أطلقت عليه رصاصة أخرى فتمطى على الأرض وكانت دهشة الخبير عظيمة وهو ينظر عن بعد هذا الحادث وطول التأني

أمام هذا الخصم العنيد وجاء يلومني على صنيعي هذا وقال " يابا أتظن انك ستنجو لــو استطاع الوقوف علي رجليه " قلت: " كنت اعلم كل ذلك وأنا مقدر لكل موقف وأعطيه ما يستحق من وزن لأني متأكد من أن الإصابة قاتلة " ولكن هذا الحيوان الذي أثار فضولي وقلت لابد أن أتابع أفعاله هذه حتى النهاية لأن هذه أول مرة أرى حيوان يشرب دمه بهذه الطريقة الملفته للنظر وخارقة للعادة .

قوة ملاحظة الخبير

فــي رحلة كان معنا الخبير بتبا توغلنا في الغابة ووجدنا آثار الجاموس وقد تشابكت وتداخلت منها ما يسير نحو الشرق ومنها ما يشق ناحية الغرب واختلط الحابل بالنابل واحتار الخبير أي سرب جاء بعد الآخر فادخل إصبعه في روث لقيه أمامه قال محمود ولم ذلك ؟ قال قياس درجة الحرارة هي الدليل لقياس الزمن كلما كــان بــارداً يكــون وقت مروره مبكراً والعكس صحيح مضى بنا مقتفياً اثر أحد الســربين وبعد ساعة والخبير يقف تارة ليرسل سمعه ثم يسير إلى أن أشار علينا بالوقــوف وقــال الجامــوس قريب من هنا أشار إلى العمال بأن يضعوا أحمالهم ويخلدوا للسكون وعدم التحدث تقدمنا في حذر مع مراقبة تغيرات الريح بما نحمل مــن رماد خصيصاً لهذا الغرض لان الجاموس وبقية الحيوانات حاسة الشم عندها قوية إلى أن وصلنا مرقده وبدأنا نطلق النار والجاموس يدور ويلف دون أن يعرف مصدر الذخيرة ولما أصبنا العدد الذي يكفى ليوم واحد أوقفنا الضرب وفرت البقية وكــل مــنا يعد الطلقات التي ضربها وبعددها تكون الإصابات وبعد المرور عليها والــتأكد من موتها تبين لنا أن واحد منها مفقود ربما كان جرحه غير مميت وبدأنا نبحث عن آثار الدم فعثرنا على اثر الدم وتتبعناه وإذا به يقع في شرك أحد الأهالي وهو عبارة عن سلك طايع مربوط بين شجرتين جاء الجاموس ماراً بين الشجرتين وادخــل عــنقه ولم يستطع الخلاص منه ولحسن الصدف جاء صاحب الشرك مع زمــيل لــه والتقينا أمام الحادث وادعى إننا ضربنا الجاموس بعد أن تعلق بالشرك ونحــن ننفي ذلك واستدلينا على ذلك بأثر الدم الذي كنا نسير خلفه وأخيراً اقتنعوا

وطلـــبوا منا شيء من اللحم ليعودوا بهم إلى أهلهم فلم نبخل عليهم أعطيناهم جزء مـــن اللحـــم أخـــذوه وهم شاكرين وفى اليوم الثاني خرجنا من المعسكر وكان أحد أقـــارب شيخ القرية لما سمع صوت الذخيرة جاء وطلب أن نعطيه لحم نظير عمل يـــؤديه فكـــان يسير ضمن العمال والتقينا بالجاموس أصبنا عدداً منه وقبل أن نقوم بالاختـــبار والـــتأكد مـــن موتها وخوفاً على حياة العمال فإذا بالرجل يمسك حربته ويجـــري نحـــو اقرب جاموس وهو واقع على الأرض ونحن نصرخ وننادي بأن يـــرجع فلـــم يأبه للنداء وقذف الجاموس بحربته فوثب من مرقده واتجه نحوه لكني كـــنت أسرع منه فرميته بطلقة أردته قتيلاً ورجع الرجل وهو يرتجف من الخوف وقـــام محمود وزجره وطردنا الرجل بعد أن نال حقه من توبيخ ولوم لأن في ذلك مسئولية تعرضنا للمساءلة والحساب سواء من السلطات أو من أهله إذا ما تعرض للموت ولقي مصرعه .

اثر الجاموس على الصخر

تخلـــف محمـــود هذه المرة وأخذت العربة وهي تحمل العمال وبقية المواد والآلات الأخـــرى إلـــى أن ألقيـــنا الرحال أمام دار بتبا فقضينا ليلتنا في بيته وفي الصباح سار على شاطئ النهر ليجد أثر الجاموس وهو يرد الماء ليلاً فلم يجد أثراً فشـــق طـــريقة نحو الغابة وقال ربما ورد المستنقعات والبرك سرنا طويلاً ومشينا كثيراً ومررنا بأرض صخرية مرتفعة عن سطح الأرض قليلاً وتنحدر تدريجياً إلى أن تســـتوي مع أرض فأمسك بيدي وقال بعربته المكسرة "تعال شوف حاجة بتاع ربـــنا هـــو عملو كيف " معنى ذلك أنظر إلى قدرة ربنا وأخذ يسير وأنا خلفه حتى وقف أمام أثر عدد من الجاموس لا يقل عن خمسين جاموساً ترك أثر رجليه على هـــذه الصخرة متحجراً فرأيت العجب وتتبعت الأثر صعوداً ونزولاً يمتد هذا الأثر إلـــى اكثـــر مـــن خمسين متراً على هذه الأرض الصخرية وتستطيع أن تميز أثر الصغير والكبير منه وهذا الأثر ليس بغائر في الصخور كأثرة في الطين المبلل بل يـــبدو وكأنـــه حليه من سن الفيل على قطعة من الأبنوس كما يفعل الخراط بالقطع

المحـــلاة مما يدل على أن الأثر عندما كانت الأرض رخوة طينية ثم جاءت الرياح حاملـــة معهـــا الأتـــربة والرمال وملأت الأثر ومرت المنطقة بفترات جفاف حتى تجمـــدت الأرض وكم كانت فرحتي عظيمة وكنت أسمع كثيراً وفي جهات السودان أثـــر لقدم إنسان على صخر جامد ويقولون عنه أنه أثر الشيخ فلان كان يتخذ هذا المكان بغرض العبادة والتنسك وها أنا أمام أثر لحيوان وليس لإنسان وكنت أتباطأ كلما أشار عليّ بالقيام وكنت أفكر كيف حصل هذا من جفاف أصاب المنطقة حتى وصل إلى درجة التحجر وهذا المشهد مرت به فترة لم تعقبه ولا مطر بسيط يزيل هـــذا التراب والرمل من مكانه وكم كانت فترة الجفاف أن أردنا أن نحددها السنين وكـــيف عـــاده الدورة الفلكية وجعلت هذه المنطقة ذات مطر لا ينقطع لمدة تسعة اشهر سنوياً وكنت أفكر وأقول في نفسي لمثل هذا الأشياء التي تبدو غريبة ومخالفة للعادات وغير مألوفة لمثل هذا تعلقت نفوسنا بدخول الغابات وتسلق الجبال ودخول الكهـــوف والمغـــارات وركوب المخاطر ولا زال خيالي يجرى وراء عدد السنين والحقب التي مرت على هذا الحادث فلم أوفق وتركت التقدير لعلماء الطبيعيات ودنا منـــي ولســـان حالـــه يقول إن استهوتك هذه فهناك ما هو اعجب وخاطبني بلغته المكســـرة "عاين يابا الجبل داك في راجل وماريه بتاعه قاعدين على كراسي كان انـــت عاينو من بعيد تقول ناس وكان جيت قريب تلقاها حجر ووراء منهم مرسوم علـــى الحجر طيور وحيوانات " فقلت في نفسي أهي تماثيل فرعونية لتقارب الشبه بمـــا قالـــه وقد نسيت الصيد ونسيت كل شيء وتعلقت نفسي بالوصول إلى الجبل المشار إليه حتى أرى بعيني وأشاهد ذلك وابني معلوماتي على أساس ليس من رأى كمن سمعا ، وخاطبته قائلاً "ففي يوم غد نمشي الجبل " وقال " إن الوصول إليه في مـــثل هذه الأيام ضرب من المستحيل لإنعدام الماء وليس بيننا وبينه بركة ماء ولا نهر يجري لكن الوصول إليه في مبادئ الخريف سهل وميسور وهي منطقة خالية غيـــر مأهولة وقد هجرها الحيوان بسبب انعدام الماء وقد انحصر كل تفكيري في هـــذه القصة التي يزويها شخص لم ير مثلها حتى إني أقول رواية من نسج الخيال

وأشك في صدقة وما معنى الرسوم المبينة خلفهم أهي اللغة الهيروغلافية ولو استطعت أن أراها بنفسي وتأكدت عن نوعيتها وقارنت بينها وبين التماثيل الفرعونية ولو وجدت قليلاً من التشابه لتغير وجه التاريخ ولأنقلب رأساً على عقب إن لم يكن بالنسبة للسودان ربما بالنسبة للجنوب وكيف وصلت الحضارة الفرعونية إلى هذه المنطقة النائية ولا طرق وكنت مصمماً على الوصول لهذا الجبل الذي يقوم على الأفق البعيد أول هطول الأمطار غير أن حركة التمرد كانت السبب وللآن يراودني هذا الحلم إن كان في العمر بقية وساد الأمن ربوع الجنوب كما أني مستعد أن أرافق كل من يستهويه هذا الكشف الذي له أثره التاريخي في السودان وأني خبير بموقعة وكأني أراه الآن أمامي وأعرف الطريق إليه فهل أجد من بين الشباب المتحمس تشجيعاً لبلوغ هذه الغاية .

هذه التماثيل المشار إليها إن صحت فلا شك إنها تماثيل فرعونية فهذه الحضارة من أين جاءت وكيف جاءت حتى وصلت لهذه البقعة البعيدة كل البعد عن العمران وهل هناك آثار أخرى في باطن الأرض تستوجب التنقيب . إن حيرتي في هذين الأمرين انسياني رحلة الصيد واستحوذ على تفكيري أثر الجاموس الذي أعقبه الجفاف الذي لا أستطيع تقديره بالسنين ولنترك ذلك لعلماء الطبيعة وان الدورة الفلكية التي انقلبت رأساً على عقب من جفاف حارق إلى أمطار غزيرة لمدة تسعة أشهر في العام هذا اللغز المثير الذي لازلت أبحث له عن حل والجدير بالذكر أن الأشجار التي تنمو في بعض المناطق الاستوائية تشعر كحديثة النمو وليست كبيرة الجذوع مما يدل حقيقة على أن هذه المناطق أصيبت بجفاف أزال كل ما عليها من حياة وأصبحت أرض صحراوية لا نبات فيها ولا حيوان إني لأنادي في علماء الطبيعة أن يولوا هذا الأمر اهتمامهم ويزوروا هذه المناطق ليكتبوا عن هذه الحقيقة وهي تعتبر من صميم حياتهم وعملهم وجزء من تاريخ السودان ليبنوا تنبؤاتهم عن المستقبل وعن الدورة الفلكية التي نحن في أول درجاتها وما سوف تتمخض عنه المستقبل القريب منه والبعيد وأنا على استعداد تام لمرافقتهم في كل

رحلة ليستفيدوا من بعض ما لدي من معلومات .

أبولو مفتش الشفخانات

جاءني محمود ذات يوم وألقى إلي هذا السؤال أتعرف ابولو قلت نعم مفتش الشفخانات وصديقك ويتردد على دكانك دائماً قال هذا صحيح لكنه هو أكثر من صديق هذا الرجل حسن الأخلاق طيب المعشر مخلص ووطني رغم انه من أبناء المورو لم ينحاز إلى حركة التمرد عندما نشبت وكان تحيزه للشماليين الذي يرى انه قد غدر بهم ولا يستحقون الموت بهذه الصورة بشكل واضح رغم الإغراءات والتهديدات وله اليد الطولى في إنقاذ حياة التجار الذين تعرضوا للحصار وكان يمدنا بالمعلومات وتحركات الخارجين ونواياهم قلت سمعت عنه في مناسبات كثيرة قال بما نكافئه قلت مهما قدمتم له يعتبر قليلاً بالنسبة إلى ما قدم كنت دائماً أفكر ما هو نوع الخدمة التي أقدمها ولو مني أنا منفرداً إن لم تكن بصفة جماعية وقد جاءني اليوم وطلب مني أن أمد له يد العون في الوقت الذي لا يملك درهماً ولا ديناراً وقد فوجئ بموت إبنه الذي كان طالباً بكلية الحقوق بجامعة الخرطوم وقد بني عليه آمالاً عراض حيث سيكون عوناً له في كبره وهو قد أحسن تربيته وكان وقع الصدمة عليه شديداً كادت أن تؤدي بحياته لولا صبره وجلده . والآن وقد قرب إقامة ليالي المأتم على حسب عادة أهل البلد والاستعداد لكل ما يلزم من التكاليف وعلى رأسها ثور يذبح غير التكاليف الأخرى ولما كان الثور في هذه الأيام صعب المنال بسبب قطع الطريق ما بين رومبيك ومريدي فرجاؤه أن نقتل له جاموساً واحداً كمساعدة وبذلك نكون قد قمنا ببعض الواجب ووافقت وبعد أيام قلائل أقلتنا العربة إلى منزله الريفي في منطقة كريكا حيث موطنه الأصلي وبين أهله وعشيرته ولا تبعد كثيراً عن الشارع الرئيسي فتجمع حولنا أهله وأبنا عمومته ورجعت العربة وفي الصباح بدأ الزحف نحو الغابة وأخذ كل عامل حمله من المعدات سرير سفريه ومراتب وصفائح ماء وجوالات فارغة وسكاكين وفؤوس وأنواع الآكل المختلفة والذين كانوا بصحبتنا هذه المرة أكثر من سابقتها لان أبولو

اصــطحب معــه بعض أهله كخبراء وعمال ولم تمض ساعة ونصف الساعة من دخولنا الغابة ولا زالت النسمات الباردة تهب والشمس تبدو وكأنها قمر حيث فقدت حــرارتها وأرســلت ضوءها وفي سهل أمامنا وأعداد كبيرة من الجاموس يرعى ويــتلاعب فرجعنا للخلف دون أن يشعر بنا لنعطيه الفرصة حتى يصل محل نومه ولجأنــا إلى ربوة عالية لتناول طعام الإفطار قمنا بتتبع الأثر بعد أن تجاوز السهل تفــرق علــى أسراب وكل سرب أخذ مرقدة في شكل جماعات وقام الحراس لأداء مهمــتهم في الحراسة سرنا قليلاً وأشرنا إلى ابولو بأن يجلس وتقدمت أنا ومحمود وأخــذ كــل منا مجلسه على مسافة عشرة أمتار ليتسنى لنا الدفاع عن بعضنا وقد انفرد كل منا نحو سرب وكان يقف أمامي ثوراً أسود كبير كأحد الحراس وصممت أن أبدأ به أولاً وجاءت الإشارة ببدء الضرب وأطلقت أول رصاصة نحو هذا الثور وهــب القطيع من نومه وهو يلف ويدور ونحن نطلق عليه النار ومن كثرة إطلاق النار انفرد من القطيع نحو ستة أو سبعة وجاء يجري نحونا من غير قصد فسمعنا صوت ابولو ينادي قوموا وما بينا وما بين السرب إلا أمتار قليلة ولو قمنا كما أشار علينا لوجد فرصته لمهاجمتنا لأنه كان يجري من غير هدى فلم نستجيب وكان يتبع بعضــه بعضــاً كل واحد خلف الآخر ورميت التي تجري في المقدمة في نحرها وسقطت علي الأرض وتعثرت بها كل واحدة فتقع على جسم الراقدة على الأرض حتــى كانــت كومة كبيرة من الجاموس ثم قامت وانحرفت جانباً وهربت وإنجلى الموقف بعد أن أصبنا ستة منها وأعطينا ابولو الخيار ليختار أكبرها وقد خطر ببالنا أن نقدم شيئاً من الشواء إلى ضيوفنا لأنهم استضافونا في بيوتهم والغابة بيتنا يجب أن نكرمهم وتركنا الأمر إلى ابولو فأمر بحفر حفرة عمقها خمسين سنتيمتر وملؤها حطــباً وأشــعلوا فيها النار ولما صارت جمراً أخلاها منه ووضعه في قاع الحفرة وأعــاد الجمر إلى مكانه ووضع عليه طبقة من التراب وانصرفنا عنه وبعد تفقدنا الجامــوس الميت تبين لي أن الجاموس الأسود الذي رميته بالطلقة الأولى ليس من بــين الــرقود فلفت نظر محمود لهذه الملاحظة وقلت لا شك انه سيموت علي بعد

أمتار لان الإصابة قاتلة وإني لواثق منها ولابد للبحث عنه واخشي أن انتشر العمال في الغابة لجمع الأخشاب أن يكون لهذا الجاموس بقية من رمق فيهاجم أحد العمال فلفتـنا نظـر العمال لهذا الأمر ومنعنا أي عامل مبارحة هذا المكان حتى نعرف مصير هذا الحيوان ونحن في حوارنا هذا سمعنا صوت قطيع آخر يرقد قريب من مكانـنا وقـام محمود وابولو وتوجهوا نحوه ولكني أصررت على البحث عن هذا الجامـوس وأخـذت طريقي في الاتجاه الذي سلكه بقية الجاموس عند هروبه وما مشيت اكثر من مائة ياردة حتى رأيت جثة جاموس يرقد على الأرض وخشيت أن يكون عنده بقية من حياة فجئته من خلفه وأنا علي استعداد ولما اقتربت منه وجدته ميـتاً فأمسـكت بصفارة ونفخت فيها فاستجاب محمود بصفارته وجاء ومعه ابولو وأرسـلنا فـي طلـب العمال ليجمعوه مع بقية الجواميس الأخرى وبعد أن تناولنا غداءنا من ذلك الشواء وكأنه اخرج من فرن فكانت وجبة لذيذة مكثنا في هذا المكان نحـو خمسـة أيام نخرج في كل يوم لنضيف عددا آخر من الجواميس ولما انتهت الـرحلة رأيـنا أن المـوعد المحدد لإقامة المأتم قد قربت فمن حسن المجاملة أن نحضـرها معهم وانتقلنا للعربة وأعلن رسمياً عن اليوم المحدد وبدأ المعزون في التقاطـر علـى العزبة بأعداد كبيرة رجالاً ونساء وشيب وشباب حتى ضاقت بهم السـاحة وبـدأ الصـراخ والعويل ومن أغرب ما رأيت المرأة والبنت تقع علي أم رأسـها ويصـطدم رأسها بالأرض الحجرية وتتدحرج على الأرض وتقلب الهوبه وتتشـقلب ثلاثـة أو أربعـة مرات متتابعة غير مكترثة لما يصيبها من جراء تلك العملية القاسية التي لا تخلو من خطورة من أن تصاب بكسر في العظام أو رضخ فـي العضلات وبعد قليل يدخلوا للمكان المعد لشرب الخمور واكل اللحم **ويعودوا لهذه العملية التي تستغرق يوم** كامل بعدها يكونوا قد قاموا بواجب العزاء وأعطوا المـيت مـا يستحقه من تقدير و يبدءوا في الرجوع من حيث أتوا وعندما جاءت العـربة لتقلنا إلى مريدي تقدم ابولو وشكرنا علي هذه المساعدة القيمة والتي جعلت من أهله كلهم ينظرون إلينا بعين التقدير وقد رفعت من مكانه من بينهم واعتبروها

خدمة إنسانية لا يرجو من ورائها كسب مادي وما قدمنا نحن في هذا اليوم لا يفي بحقه وتمني لهم العافية وودعناهم وبدأت رحلة الرجوع .

قصة قــرد

الكثير من قبائل السودان يأكلون لحم القرد علي اختلاف مللهم وديانتهم ويصفونه بجــودة اللحــوم ويهتمون بصيده بشتى الوسائل وبحكم تواجد القردة وتكاثرها بين الغابــات وهــي مســرحه ومأواها أما رؤوس الجبال فحصنه المنيع الذي يجد في كهــوفها ومغاراتهــا وبــين صخورها ما يحمي صغاره من الحيوانات المفترسة والصــيادين فإذا وجد إنسان قطيع منها تبعه متخفياً بين أشجار الغابة . ولما كانت الأســلحة المســتعملة في تلك الحقبة من الزمان أسلحة بدائية هي الحربة والفؤوس بالنســبة لســكان المناطق الجنوبية وبعض جبال النوبة والحربة محدودة المدى لا يستطيع المرء أن يرمي بها حيوان إلا على المدى القريب والسهم ابعد مدى فالذين يجيدون استخدام الفؤوس اكثر حظاً ممن يستعملون الحراب . ومنطقة مريدي غنية بأنــواع القــردة مختلفة الأشكال بسبب تكاثر أشجار الفاكهة التي تنمو بين الغابات دون رقــيب وتجد القردة المرتع الخصب والأهالي يتربصون بها ويتعاونون على صيدها .

فــي ذات يوم كان أحد الأهالي يتربص بقطيع يرعى أمامه ويمشي وراءها متخفياً وراء أغصــان الأشجار يحبو تارة ويرقد على الأرض تارة أخرى إلى أن اقترب مــن واحــد منها كبير الجسم وفير اللحم فانتزع سهماً من كنانته ووضعها في كبد قوســه وشــده شــداً محكماً ، رمي به ذلك القرد فأصابه إصابة قاتلة ووقع على الأرض وقــام الرجل مسروراً لما أصاب في هذا اليوم من صيد سمين فلما اقترب منه جحظت عيناه واعترته الدهشة عندما وجد بجانب القرد المصاب حربة صغيرة فطار صوابه وجن جنونه عندما وجد الميت إنساناً يلبس فراء من جلد القردة بعد أن احكــم تفصيلها راس القرد أمامه هو نفس القرد وذيل طويل يتبعه وهو يمشي علي أربع وفي هيئته لا تداخل الإنسان شك انه قرد حقيقي ولما أفاق الرجل قليلاً ورجع

إلـــى صـــوابه انتزع طرفاً من الفراء عن وجهه فإذا هو أحد معارفه ورجع يجر رجليه جراً من شدة الصدمة وذهب من توه إلى نقطة البوليس وشرح الحادث وقام البوليس بمشاهدة المكان على الطبيعة وعرضت القضية أمام محكمة كبرى فحكمت المحكمة ببراءته وإطلاق سراحه ورموا اللوم علي الميت .

جاموسان يتصارعان

كان حبل الأمن مضطرباً ودخول الغابة نوع من المجازفة وقد إعتدت دائماً كلمـــا هممت أن أقوم برحلة صيد أن أتقدم لمكتب البوليس واعلم الضابط المسئول وهيـــئة مكتبه بأني سوف أقوم برحلة صيد في المنطقة الفلانية وأعينها فكان جوابه التقلـــيدي " والله يـــا عم عثمان ليس من حقنا أن نمنعك وليس لدينا من الحق بان نصـــرح لـــك وأنـــت اعلم بما يجري في الساحة وحالة الأمن وتحركات الخوارج المنبثـــين بـــين القـــرى والغابات " وكان ردي " ما جئت اطلب إذناً وأنا مقدر هذه الظـــروف ولا أريـــد إحـــراج أحد أو القي عليه مسئولية ولكن غرضي الوحيد إذا وصل بلاغ بان شخصاً مقتولاً في هذه المنطقة فهو أنا فابحثوا عن الجثة " وكانت كلماتـــي مثيرة للضحك بين الحاضرين فأودعهم وانصرف وقال الضابط "إلى أين اتجاهك هذه المرة ؟ " قلت "منطقة السلطان علي مدرجي " . وشقت العربة طريقها وفـــي منتصف الطريق تراءت لنا عربة بوكس تسير نحونا وأشار علينا بالوقوف وقفت العربتان ونزل منها السلطان علي وبعد تبادل التحايا قال أريد أن الفت نظرك بـــان في الطريق جاموسان يتصارعان منذ يومين وقد تسببا في قطع الطريق خوفاً مـــن مهاجمـــتها وأنا عندما اقتربت منهما أمرت السائق أن يدخل بالغابة تفادياً لما يمكن أن يحدث لنا وأنا انصح بان تتبع طريقاً وسط الغابة ولا تحاول صيدها لأنها فـــي حالة هياج واخشي أن تعتدي عليك وشكرته واخذ كل منا طريقة وقلت للسائق وهـــو من اصل زاندي لا تفارق الطريق الأصلي حتى أشير لك بذلك وسرنا قليلاً فرأينا الغبار يملأ المنطقة فأمرت السائق بان يقف على بعد ونزلنا وتقدمت وحدي وجئـــتها مـــن ناحـــية الغابة واقتربت منها واصبحا علي مرمى النار وهما لازالا

يتصـــارعان ولم يشعرا بوجودي فأطلقت النار على واحد منها فأصبته فوقع على الأرض وهو يخور فكثف الثاني هجماته عليه ظناً منه انه تقلب عليه فرميته بطلقة وأصبته وجرى والدم ينزف منه ولم اتبعه . واستحسنت أن انظر في أمر هذا أولاً وتقدمت نحوه في حذر شديد وإصبعي على الزناد وجئته من خلفه وضربته برجلي مـــرة ثانية وثالثة فلم أجد منه ما يوحي بان به رمق من حياة ونفخت في الصفارة إشـــارة التحـــرك فجاءت العربة وأنزلنا ما عليها من متاع ورفعنا الجاموس فوقها وكتـــبت جواب لمحمود ورجع لمريدي وأخذنا طريقنا وسط الغابة بحثاً عن الآخر وتتبعنا الدم فوجدناه ميتا جاءت العربة ورفعنا الجاموس فوقها واصلنا سيرنا حتى منـــزل ابوقو من اصل موراوي نحيف الجسم طيب القلب لكنه خبير ممتاز يعرف دروب الغابـــة ومواقع المياه وفي الصباح أخذ حربته ولبس لباس الغابة ومعنا كل العمال ونحن نتلفت ونبحث عن أثر الجاموس فأمسك الخبير بيدي وأشار بيده نحو قنطور تحت شجرة فرأيت ثعباناً كبيراً من ما نسميه أبدرق أو ما يسموه في أوربا بالكوبـــرا وسمه قاتل كان يقف على ذيله على ارتفاع متر ونفخ حلقه حتى صارت كحجـــم كرة القدم فتناولت منه بندقية المورس وأخرجت من جيبي ذخيرتها ورميته بطلقـــة فوقع على الأرض وهو يتلوى وحملنا عليه بالعصي حتى مات . استغرقت الـــرحلة نحـــو أسبوع وقد كان نصيبنا نحو عشرة من الجواميس رجعنا بعدها إلى مريدي ووجدت السلطان علي يجلس أمام دكان عباس حاج مهدي وجلست بجواره وقد علم بتعرضي للجواميس المتصارعة والتفت إلى عباس " يابا دا ما تخلوه يدخل الغابة براهو لأنه يضرب الجاموس وهو يجلس على الأرض مكشوفة مع الجاموس وأنـــا أخـــاف يهاجمـــه الجامـــوس " والـــتفت نحوي قائلا " أنا ما منعتك من لقاء الجاموسيين؟ قلت وجدتها فرصة سانحة بوجوده علي الشارع والعربة بين أيدينا كي نسد سوق مريدي بلحم طازج فكيف لا استغلها فضحك وقال ربنا كريم عليك وقلت لـــه من الجاموس الآخر مررت على أولادك أعطيتهم جزء من اللحم قال قد علمت ذلك وأنت مشكور .

وبدأت احكي له عن نار كانت في الطريق مما أزعج السواق وتخوف منها قال كيف قلت وصلت العربة متأخرة قليلاً ولم تنتهي عملية الشحن إلا بعد المغرب وأخـذنا طريقنا قبل أن نصل إلى الطريق الرئيسي رأى السواق ناراً على الطريق والـتفت نحـوي قـائلا (يابـا) قال رأيت تلك النار قلت نعم قال هي من عمل المتمـردين يضـرمونها لتلقـي ضوءها على الطريق ليتمكنوا من إصابة العربة بأسلحتهم ولا شك أنهم علموا بدخولنا في الغابة فكن على حذر وأضرب في المليان فكـن مستعداً والبندقية مليانه فطمأنته قائلاً انك تعلم إن رصاصتي لا تخطيء أينما وجهـتها ليلاً أو نهاراً وسأضرب في المليان كما قلت ولكن المهم أنك لا تقف ولا تقلل من سرعة العربة ولو أطلقوا علينا النار بل سر في طريقك لان ظلمة الليل لا تمكنهم من إصابة الهدف وكلما مشينا قليلاً يقول استعد وأنا أقول لا يداخلك الخوف مـا دام أنـا معك النار تقترب منا شيئاً فشيئاً والعمال من الخلف سكوت كأن على رؤوسهم الطير حتى مرت العربة بالقرب منها ولم نجد حولها إناس غير أنها موقده علـى شجرة جافة وهبت عليها الريح فاشتعلت قلت للسواق انت كنت خايف وليس في الامر خوارج قال أنا افتكرتهم عرفوا العربية وعرفوا أنك بداخلها بعلمهم بأنك لا تخطئ الهدف ولذلك تحاشوا لقائك قال السلطان علي وهو يضحك والله الكلام دا يمكن صحيح.

مقتل السلطان صالح مدرجي

لـم يمـض علـى رجوعي من الغابة إلا سحابة ليل البارحة وفي التاسعة صباحاً جاءت عربة البوليس لتقف أمامي وينزل منها ضابط البوليس بعد أن تبادلنا عبارات التحية بعد غيبة استمرت عشرة أيام ثم قال إن قائد الحامية يطلب مقابلتك الآن بمكتـبه قلـت أنا بالذات قال نعم وأول ما خطر ببالي أنه علم بدخولي الغابة وأراد منعـي مـن هذه الرحلات بقصد الحفاظ على حياتي وركبت بجانبه وسارت العربة نحو منطقة الجيش وأنا شارد الذهن أفكر في الذي حدا بالقائد أن يرسل في طلبي فإذا بصوت ضابط البوليس يقطع علي تفكيري ليقول هل سمعت بأن السلطان

صالح مدرجي اغتالوه أمس في منزله بعد أن هاجمته فئة من الخوارج قلت لا علم لـــي بـــذلك وكانت العربة قد وصلت أمام مكتب القائد والباب موصد والحرس قائم بسلاحه يمنع الدخول لما وقفت العربة خرج أحد الضباط وأمر بدخولنا ولما دخلت وجـــدت جمع من الضباط والقائد يجلس وراء منضدة ولاحظت وجود محمود حاج مهدي وحسين إبراهيم زيدان بين المجتمعين وفي شكل مؤتمر ومحمود وحسين من أهم تجار مريدي وأكثرهم حيوية ولهم إطلآعات واسعة ومعلومات عن الأهالي وقد شاركا كأعضاء في مؤتمرات كثيرة كانت تعقد أيام الاستعمار وكان لهم دوراً بارزاً ،كثيراً ما كان يعمل به المفتشون البريطانيون ، وجلست على مقعد خال ووجه لي سؤال قائلاً هل علمت بمقتل السلطان صالح ليلة البارحة قلت عرفت ولكن قبل قليل ونحـــن في طريقنا إلى هنا قال بصفتك انك تدخل الغابات ومعرفتك التامة بدروبها ومداخلها فأي طريق سلكوه بعد أن نفذوا خطتهم قلت الشيء الذي يتبادر إلى الذهن وهم غالباً ما يكونوا من أهل المنطقة المجاورة وقد درسوا كل السبل التي تكفل لهم الســـلامة ولـــيس أمامهم إلا مكاناً واحداً هي سلسلة الجبال التي تقع جنوب منطقته وهـــي حصينة ومنيعة وعرة المسالك متراصة لا فاصل بينها بحيث يصعب على الإنســـان تسلقها إلا بصعوبة غير أن لها مدخل واحد يقع في الجنوب الغربي ينفتح علـــى غابـــات كثـــيفة وأشجار عالية وهذا المدخل للحيوانات المختلفة ووسط هذه السلسلة فسحة من الأرض تكسوها الأعشاب وبها مستنقعات ماء تحتفظ بمائها إلى الخريف الثاني ولا تجف وهي كافية للحيوان وللإنسان قال القائد كل هذه المعلومات تطابـــق ما قاله محمود قبل قليل وواصل حديثة قائلاً هل أنتم على استعداد لمرافقة الجيش كخبراء قلت نعم وفي أي وقت وأبديت ملاحظة في حالة تقد الجيش لا ندخل المـــنطقة مـــن الناحـــية الشـــمالية بل بعد أن نترك الجبال خلفنا ونأتها من الناحية الجنوبـــية ونتسلق الجبال تحت ظلمة الليل ونباغتهم مع طلوع الفجر لأن الخوارج ينصب تفكيرهم في حراسة المدخل الرئيسي ويضعوا كل استعداداتهم على المدخل بين الصخور وكما قال القائل (يؤتى الحذر من مأمنه) قال إذاً كونوا على استعداد

لليوم الذي سنحدده وشكرنا على ما أدلينا به من معلومات تنير الطريق أمام القوات المسلحة . مرت الأيام والأسابيع وأسدل الستار على الحادث ولا أذيع سراً إن قلت إن عدم تنفيذ الفكرة الجيش وليس من جانبنا رغم إننا نعلم خطورة ما نحن مقدمون عليه ولكن للقوات المسلحة عذرها لأن الوقت خريف والحشائش عالية لا يمكن أن تـــرى إنساناً أو حيواناً ولو على بعد متر واحد والأرض كلها مبللة بمياه الخريف ووجـــدوا تتبع أثرهم فيه خطورة على أفراد الجيش وآثروا إرجاء ذلك إلى ما بعد الخريف وبعد ذلك حصلت متغيرات كثيرة وكثرت على الأهالي وانفرط حبل الأمن

تذمر الجيش بمريدي من عدم اللحم

بعـــد انتفاضـــة أكتوبر التي أطاحت بحكومة الفريق إبراهيم عبود وجاءت الحكومة المعينة التي اختير لرئيسها السيد سر الختم الخليفة وكان بينها السيد كلمنت مـــبورو كوزير للداخلية وكان الهدوء في الشمال وتنفس الصعداء وانزاح الكابوس وتنســـم عبيـــر الحرية أو هكذا كنا نتوقع قام السيد كلمنت بطواف على المديريات الجنوبـــية لا بغـــرض تهدئة الخواطر وإزالة آثار الماضي وما علق بالنفوس من شـــوائب بل كان يلقي على مسامع الجمهور وفي الميادين العامة المكتظة بالأهالي كلمـــات التحريض وإثارة الفتنة وتذكيرها من جديد بصورة مكشوفة وعندما وصل إلى مريدي التقى بالجموع المحتشدة التي امتلأت بها الميادين في وسط المدينة وقام فيهم خطيباً يأتي بعبارات التحريض بكل صراحة وان أنسى لا أنسى قوله وبأعلى صوته أنتم اليوم أحرار في وطنكم ولا يستطيع بعد اليوم أن يلحق بكم أذى فالبندقية التـــي في يد العسكري من الجيش مفتاحها عندي وفي جيبي هذا وأنا ذاهب به إلى الخـــرطوم ولـــن تتفجـــر بعد اليوم طلقة واحده إلا بإذني فما معنى هذا أليس هو التحـــريض المكشوف لإلحاق الضرر بالشماليين وقد نسى أو تناسى سعادة الوزير بمـــا لديـــه من خبرة وطول اختلاطه بطبقة التجار والذين عمل معهم كإداري في مواقع كثيرة في شمال السودان وجنوبه لا يهمهم تهديد والذين استمعوا له الآن هم نفـــس الـــذين وقفـــوا وقفـــة رجل واحد أمام المتمردين وصمدوا بكل شجاعة ولم

يستطيعوا أن ينالوا منهم نيلاً إلا من الذين شاءت مشيئته تعالى أن يستشهد قبل أن يلحقٍ مكان التجمع وكان القصد من كل هذا الكلام وضع الفتيل على برميل البارود وعلـــى اثـــر ذلك ظهرت موجة من الاستفزازات من بعض الشبان المتعصبين أما طبقة الأهالي فلم يؤثر فيهم قوله وكانت الأعمال تسير سيرها الطبيعي ولكن كلامه أثر على بعض النفوس المريضة وقطعت طريق رومبيك مريدي وهو طريق يغذي مـــريدي بالبقر الذبيح اليومي مما فرض شبه حصار على منطقة الزاندي ككل مما جعـــل الـــرعاة عرضة للضرب ونهب الأبقار مما سبب أيضاً ندره أو انعداماً لهذه السـلعة الحيوية وكانت الضائقة أكثر وقوعاً على جنود الفرقة المرابطة في مريدي وهم من عرب كردفان ومعهم عوائلهم مما سبب أيضاً قلقاً للقادة والمسؤولين .

وفـــي يوم من أيام رمضان كنت أجلس أمام دكان الأخ عباس حاج مهدي جـــاء السيد حسن محمد الأمين قائد الحامية بعربته وجلس بيننا يبدو على ملامحه شـــرود الـــذهن والتفكيـــر العميق في شيء يخيفه في صدره ولما لم يجد بداً من الإباحـــة به التفت نحوي وقال يا عم عثمان فالتفت إليه بكليتي أستمع إليه انك تعلم أن كـــل أفراد الحامية الموجودة هنا من العرب فيهم من هو أعزب ومنهم من هو رب أســـرة تقـــيم معه وأطفاله والفريقين صياماً ولا يخفى عليك أن شهر رمضان يحـــتاج إلى الكثير من الزيادات في المأكل والمشرب عن المعتاد في بقية الشهور ونحـــن الآن فقدنا أهم عنصر يساعد الجسم على تحمل الصيام ألا وهو اللحم وإني لأشعر بوجود تذمر بين صفوف الجنود مما يقلقني ويلقي عليّ مسؤولية هذا النقص والنساء الأطفال في حالة عدم رضا مما سبب ضغط على الرجال وهم عاجزين عن عمـــل شـــيء إلا الشكوى وأنت تعلم أن وزير الداخلية أصدر أمراً بمنع أي طلقه تضـــرب مهما كانت الظروف وجئت أطلب منك خدمة بسيطة هي أن تضرب لنا جامـــوس واحد رغم انك صائم وكان محمود في إجازة قلت خدمة بسيطة لا تكلف شـــيئاً قـــال متى قلت في أي وقت تشاء قال انتظرني حتى استشير المفتش ، وكان وجاء في الغد ليقول استعد ليوم غدٍ في الساعة الخامسة صباحاً وفي الوقت المحدد

جـــاءت عـــربتان واحـــدة كومر بها سواق وجاويش أما الثانية بها أربعة والسائق بأسلحتهم وسلكنا طريقاً جانبياً يسير بين القرى قصدتها لأنها غنية بالجاموس وفي أثناء مرورنا على أحد الكباري وعلى بعد خمسين ميلاً تقريباً وتقوم على أعمدة من الخشـــب لاحـــت لنا ورقة على خشبه تحركها نسمات الضحى ونزلت عن العربة وأمســـكت بالورقة مكتوب عليها باللغة الإنجليزية (من فضلكم عودوا إلى بلادكم واقـــتلوا صـــيدكم واتـــركونا مع صيدنا .) ولما شرحت إلى الجاويش محتواها قال أعطينيها لأقدمها للسيد قائد الحامية وقلت لهم سنجد هذا الكبري عند عودتنا محطماً لكـــنه لـــن يعـــوق سيرنا لأن أرضه صلبه وسهل العبور ولم نسير إلا قليلاً التقينا بالجامـــوس فنـــزلت عـــن العـــربة وتقدمت خطوات وأطلقت عليه رصاصة فوقع المصاب وفر بقية السرب تركت أمره للجماعة ليقوموا بعملية السلخ وتقطيعه قوائم لأنـــنا لا نســـتطيع رفعه فوق العربة ومشيت وراء السرب وحدي إلى أن أدركته ورميت آخر فوقع وعلى سماع صوت الذخيرة جاء الجاويش ووجد الجاموس الثاني فقلـــت هل لكم في ثالث قال لا لأننا نحن أقلية وفي حالة صوم فرشنا الجلود على أرضية العربة ووضعنا كمية اللحم فوق بعضها وأخذت العربة طريقها نحو مريدي ومـــررنا بالكبري فوجدناه سليماً وبوصولنا لمنطقة الجيش اتجهنا نحو منزل القائد وخرج على اثر صوت العربات ورأى من كمية اللحم ما انشرح له صدره وانطلقت أســـارير وجهـــه فأمر الجاويش أن يضعها بين ثكنات الجيش ويقوم بتقسيمها على الأســـر وقفت العربتان وسط الثكنات في ميدان واسع بين صفوف المعسكر وشاع الخبـــر بـــين النساء فخرجن من منازلهن وهن يزغردن والتف حولي عدداً منهن والـــزغاريد تمـــلأ جوانب الميدان يبشرن بأيديهن وأنا في انتظار عربة تقلني إلى السوق وجاء القائد ليقول للجاويش التقسيم يكون على أساس للعازب كوم وللمتزوج كومـــين وضـــج المكـــان بالزغاريد مرة أخرى وأخيراً أقلتني العربة إلى مريدي وانفرجت أزمة اللحم وكنت كلما سمعت الزغاريد أمتلئ انتفاخاً أمثل صورة الأسد لعلمي أن النساء تأخذهم الفرحة والتقدير لكل من يقوم بصيد حيوان مفترس كالأسد

والفيل والجاموس .

مهيد ورخصة الفيل

تسلمت خطاب من أحد معارفي يعمل بالتجارة برومبيك أحد مراكز بحر الغزال يرجوني فيه أن اقدم خدمة إنسانية لصديقه السيد بانقا الذي يعمل مديراً لمدرسة رومبيك الابتدائية وقد تحصل على رخصة فيل وقد تم نقله للشمال بعد أن قضى فترة عمله في الجنوب ونحن بما لدينا من ثقة نطلب حضورك لمرافقته في هذه الرحلة لأنه لأول مرة يمنح مثل هذا التفويض بعد الفراغ من قراءة الرسالة طرحتها جانباً ورأيت فيه طلب غير معقول واستكثرت حتى الرد عليه بلا أو نعم وبعد الظهيرة وفي موعد الغداء جاء محمود وعباس يسألاني عن رأيي في الخطاب الذي جاءك من رومبيك قلت هل من المعقول أن أرافق شخصاً في رحلة كهذه احتمال الخطر فيها أكبر من فرصة السلامة وبعد حوار لم يطل أقنعتهما بالرفض ولا مجال للعودة للكلام في هذا الموضوع وسوف لا أكلف نفسي مؤنه الرد عليهم لئلا نفتح باب الأخذ والرد وبعد أيام قليلة فاجأنا السيد مهيد ونزل ضيفاً على الأخ عباس حاج مهدي وفي اليوم الثاني من وصوله جاء محمود وعباس وثالثهم مهيد ودخلوا عليّ حيث أسكن وبدأ الحديث في موضوع الرحلة وأنا أرفض في إصرا وقلت لهم هل يشرفني أو يشرفكم إذا أصابني مكروه في هذه الرحلة أن يقال أني كنت مستأجراً ويقولها كل من لا يعرف الحقيقة زد على ذلك ما هو موقف أولادي بعد نعي أليم يكن هذا الحادث سبة لهم وعار عليهم فاتركوني وأبحثوا عن غيري فمنطقة مريدي عامرة بالصيادين المتفرغين لمثل هذا العمل ولما لم يجدوا استجابة انصرفوا غير راضين وفي مساء اليوم نفسه رجعوا ليعيدوا نفس النغمة وأنا أرفض وهم في توسلاتهم وأخيراً لجاء محمود لحل وسط أن أرافقه كمدافع في حالة مهاجمة الفيل وهو لم يألف مثل هذه المواقف وحديث عهد بالوقوف أمام هذا الحيوان وكل مهمتك الدفاع عن حياته وقد لا تستغرق الرحلة أكثر من أسبوع وتحت الضغط الشديد قبلت مكرهاً وقلت له إن منطقة مريدي في هذه الأيام خالية

عـن الأفيال الكبيرة لأنها نزحت نحو الكنغو فمنطقة شمال يامبيو أغنى خصوصاً ونحـن فـي موسم المنقا التي تقصدها من جهات الكنغو ومناطق أفريقيا الوسطى المتاخمة لحدود السودان . وفي يوم غد أخذنا طريقنا نحو يامبيو ونزلنا ضيوفاً على السـيد إبـراهيم أحمد رحمه الله وعمنا بكرمه المعهود وأشار علينا أن نقصد قرية بـرقو ووصلناها في وقت العصر ووجدنا بها تاجرين أحدهما من أبناء كردفان أما الآخـر فلاتي من الذين استوطنوا مدينه واو فقابلونا بالترحاب وشرحنا لهم المهمة التـي جئنا من أجلها وطلبت منهم أن يعينوننا بخبير ذو كفاءة عالية ومعرفة تامة بتحـركات الأفيال ومواقع المياه وجاءوا به وفي الصباح اتجهنا نحو الغابة وكانت الغابـات كثيفة ملتفة الأغصان يجد الإنسان صعوبة المرور من بينها فإذا بالخبير يستوقفنا وينصت قليلاً ويشير نحو أشجار كثيفة فإذا بحركة أفيال تتلاعب وسط نهر صـغير يجري مياهه وهنا المحك فتقدم نحوي مهيد وقال أصارحك القول وما كان لـي أن أقول ولكن الظروف قضت بذلك أنا لأول مرة أدخل الغابة لملاقاة حيوان مفتـرس وأخشى إن تقدمت مع قلة خبرتي بمتطلبات الموقف من حيث اختيار سير الـريح أو الوصول إلى نقطة إطلاق النار أو مكان مقتل هذا الحيوان الكبير وأقل خطأ فسيعرض الرحلة للفشل وقد واتتنا الفرصة فلا تدعها تفلت من بين أيدينا فخذ البندقية وأنا أمشي خلفك فوجدت نفسي في موقف غاية الحرج فامتثلت للأمر تحت توسلاته وأخذت منه السلاح وكانت البندقية من عيار كبير ولها ماسورتان فأشرت إليه بالرجوع إلى الجماعة وكان من بينهم أحد رجالات الفلاته كان يسير معنا من بـاب المجاملة ويهيئ نفسه لتسلق أطول شجرة إذا نفرت الأفيال بعد سماع الطلقة الأولـى لأنهـا تهرب وتنتشر في الغابة طلباً للنجاة وتقدمت قليلاً ثم أخرجت كيس الـرماد مـن جيبي ونثرته في الهواء لأتبين اتجاه الريح ووقفت على شاطئ النهر وجـدتها ثلاثـة أفيال صغيرة ووزن السن أقل من السعر القانونية انسحبت قبل أن تشـعر بوجودي وقلت إنها صغيرة ولا تستحق قال نحن في حالة اضطرار بالنسبة للـوقت كـنت تضـرب واحد منها قلت إن القانون صريح وسيعرضك للمحاكمة

ومصادرة السن ولا لزوم للاستعجال وان أنت مصر على قتل واحد منها فلا زالت الفرصة أمامنا متاحة هيا خذ البندقية وأنا أحميك فاعتذر وقال هيا نبحث عن غيرها في أثناء حوارنا سمعت على البعد الفلاتي يقول همساً (انه خاف) فأسررتها في نفسي ولم أجب وارتفع النهار قليلاً وبدأ الطقس يتغير ويميل إلى الحرارة وهو الوقت الذي تنشط فيه الذبابة التي تزعج الحيوانات وتدخل عيونها بأعداد كبيرة مما يضطر الحيوان للجوء داخل الخمائل المظلمة ونحن نسير فإذا بدرب فيل كبير يعترض طريقنا وتتبعنا الأثر ودخل بين أشجار متدلية الأغصان وسط حشائش عالية فأومأ الخبير بيده نحو شجرة أمامنا وأشرت عليهم بالرجوع وتقدمت ووقفت أمام الشجرة ولكن لظلمة المكان وتدلي فروع الأشجار لم أستطع التمييز بين الرأس والذنب وهو على بعد عشرة أمتار فقط وأنا أقف وأنظر إلى جسم الحيوان ولم أجد الضوء الكافي لأتبين الرأس وهم يشيروا علي بالضرب وأنا امسك بالسلاح وعلى أهبة الاستعداد وانحصر كل اهتمامي نحو هذا الجسم الهائل وكميات الذباب تجبره ليغمض عينيه ولم تمض إلا دقائق حتى بدت منه حركة تبين لي أنها أذنه فأطلقت عليه النار في داخل ثقب الأذن فسقط على الأرض ثم وثب قائماً وجرى وجاءوا يسألونني هل أصبته قلت نعم وأشرت على الخبير أن يتتبع الأثر وستجد الدم في طريقه فلما وصلنا لم نجد أثراً مما جعل الكثيرون يتغامزون وأنا أشعر بهذه الحركة غير مكترث بما يقولون ومشينا ما يقرب من المائة متر فإذا به وسط أشجار عالية خالية أرضها من الأعشاب وتقدمتهم قليلاً ورفعت البندقية لأرميه فإذا هو يترنح للسقوط فأمسكت ووقع على الأرض فصفقت للجماعة تصفيقاً حاداً متواصلاً فإذا به يثب قائماً فبادرته بطلقة أردته قتيلاً فجاء المهنئون والكل يشد على يدي ويد السيد مهيد فلما سكنت جوانبه مشيت وحدي أختبر موته فوجدته قد فارق الحياة ولما كانت الرحلة طويلة لم نصطحب معنا عمالاً واعتمدنا على العمال المحليين أرسلنا للتجار خبر هذا الانتصار العظيم وأخذت النقاقير تضرب الفيل مات الفيل مات لأن الزاندي لهم طريقة في إرسال الأخبار بأسرع من التلغراف فمثلاً

للمفـــتش إذا قام من مكان يقصد مكان آخر فله ضربة خاصة في النقارة يعرفها كل مـــن يســـمعها وللفـــيل ضربته الخاصة وللجاموس ضربة خاصة وبعد قليل بدأت النقاقيـــر تضـــرب والـــناس تتقاطـــر نحونا وكل شخص يحمل من الثمار الموز والأنانـــاس والمنقا والبفرا والمشروبات بأنواعها واستطعنا نزع الأسنان وحشوها بالتـــبن منعاً من أن يصيبها التشقق ومكثنا نحو أسبوع في هذا المكان بعد أن جف اللحـــم وربطـــناه فـــي شكل حزم وجاءت العربة ووصلنا مركز يامبيو وبعد إتمام الإجراءات القانونية من دفع المبلغ حسب قانون الصيد وتم وزن السن ووضع عليها الرقم وتمت الرحلة بسلام .

رحلة الخطر مع أبوقو

رأيت أن منطقة ابوقو قد وجدت الفرصة الكافية من الهدوء حيث لا إزعاج بالنسبة للحيوانات . وقفت العربة أمام داره فرحب بمقدمنا وقال كنت قد عزمت أن أذهـــب إلى مريدي وأدعوكم لزيارة المنطقة وقد بدت الدار نظيفة وأشجار الفاكهة خضراء يانعة وثمارها تتدلى وكأنها الثريات من شدة صفارها مع خضرة الأغصان يكســبها لـــوناً جـــذاباً وجنـــى لنا منها الكثير وقد بدت على وجهه علامات الفرح والســـرور حـــيث سيصيب من هذه الرحلة كمية من اللحم مما يغطي له احتياجات أطـــول مدة ممكنة ليتفرغ هو للزراعة وكنا نحسن معاملته وطيب معشره لا نبخل عليه بشيء ونعطيه أكثر مما يجب وفي الصباح حمل رمحه وأمسك بقوسه ونفض الغبار عن كنانته ووضعها على ذراعه وسلك بنا طريق الغابة ونحن والعمال نسير خلفـــه واقتـــربنا من المكان الذي كان يقصده وهو أرض منخفضة تحتفظ بقدر من المـــاء ثم تجف تدريجياً وتنمو الأعشاب فيها مما تجد الحيوانات مرعاها ولما دنونا مـــنه أشـــار للعمـــال بالوقوف وتقدمنا في حذر وعلى طرف منه رأينا قطيع من الجاموس يرعى فتوجهنا نحو العمال وتحت شجرة وارفة الظل بعد أن أزالوا عنها الأعشـــاب وعيدان الخشب جلسنا تحتها وتناولنا وجبة الإفطار وما تبعها من قهوة وشـــاي إلـــى أن حانـــت الساعة العاشرة وكانت فترة كافية ليصل إلى مكان نومه

والــذباب يفعــل فعلته في عيونه فيغمضها رغم أنفه وتتبعنا أثره ووجدناه قد أخذ مــرقده فــي أرض قــوز رملــية متماسكة الذرات وفي مساحة تعلوها الشجيرات المتناثــرة والجاموس يرقد في شكل جماعات وقد غفلت الحراس عن أداء مهمتها حــيث جئــنا عكس اتجاه الريح ونمشي في حذر شديد دون أن نبدي حركة وكان الكلام قاصر على الإشارة فتركته يقف حيث هو وتقدمت قليلاً وأطلقت النار الطلقة بعد الأخرى فوجد فرصته بعد أن أمسكت وخلف وراءه خمسة من الجواميس وكنا دائمــاً لا نقــتل منها إلا بالقدر الذي يستطيع العمال إنجازه فعلى قدر عدد العمال وإمكانــاتهم نقــدر عدد القتلى والعمال ينقسموا إلى جماعات منهم من يقوم بعملية السلخ ومنهم من يقوم بتمديد الجلود على الأرض وبأوتاد صغيرة لئلا تتكمش ومنهم مــن يقطــع الخشب وهكذا وتحت شجرة وضع السرير المفروش وحوله صناديق المأمورية وبدأ الطباخ يعد عدته لتهيئة الغداء وأمرت ابوقو بأن يأخذ صفيحة فارغة ويأتيــنا بماء نظيف إن كان هناك ماء نظيف فعلق قوسه وكنانته على فرع شجرة قــريبة وحمــل رمحه والصفيحة وغاب عنا قليلاً وعاد هرولة ليقول إن قطيعاً من الجامــوس يــرقد على مقربة من هذا المكان فقلت إن الذي بين يدينا يكفي بالنسبة للعمــال قال نضغط على أنفسنا وأنا بنفسي سأعمل معهم ولا ضرر إذا زدنا العدد باثنــين فقــط فحملــت الســلاح ومشينا فوجدنا القطيع واقفاً وتبدو عليه علامات الانــزعاج من فرقعة الذخيرة وكانت في المقدمة بقرة تمشي نحونا فرميتها بطلقة فأصــبت النحر فجرت والدم يسيل غزيراً وقصدت مكاني يتبعها عدد من الجاموس فرميتها برصاصه أخرى ووجدت نفسي أمام موقف لا يجدي معه إطلاق النار وأي حــركة تبدو مني ستشعره بوجودي والبندقية بها ثلاث طلقات فقط وعدد الجاموس كبيــراً وضــعت البندقــية فوق رجلي بعد أن تربعت دون أن أبدي حركة وقعدت وكأنــي عــود مــن خشب وساعدني على ذلك اللبس الكاكي ولونه يقرب من لون الأرض ومر القطيع على يميني وعلى بعد متر واحد ولما كانت اثنين منها مصابة إصابة مباشرة ونزف الكثير من الدم كانت تجري مغمضة الأعين وبقية القطيع كان

عندما يمر بجانبي ويشعر بأني إنسان ينط ويرفع رجله الخلفية بغرض إصابتي كما تفعـل الحميـر تعمل رجلها بالرفس حتى ذرات التراب المتطايرة من هذا الرفس تصل إلى وجهي فلا أتحرك وكان ابوقو يقف بجانبي عند بداية الضرب ولما تحرج الموقـف وشـعر بمهاجمة الجاموس زج بنفسه في شجره كبيرة يابسة واقعة على الأرض وحشـر نفسه في داخلها بحيث لا يصله الجاموس المهاجم وبعد قليل خرج مـن بـين الأغصان وقد نال جسمه بعض الخدوش وابتعد الجاموس وخرج ابوقو ووقـف أمامي وهو يضع يديه على صدره وينحني نحوي وأنا ما زلت أجلس على الأرض وأخذ يتلمس أعضائي عضو عضو ويقول (يابا انت فيّ ، يابا ربنا كريم) ويعمـل بـيده كالمروحة فوقفت على قدمي وقلت هون عليك أنا بخير وهدأت من روعه ومشينا نحو موقف الجاموس فوجدنا الاثنين قد ماتت وأشرت عليه أن يمشي نحـو مكـان الماء وأنا أحرس الجواميس من الصقور لئلا تنهشها أو تعدو عليها الذئاب ويأتي ببعض العمال لنقلها إلى هناك . كان الحقيقة الموقف رهيب الجاموس يجـري نحونا من غير قصد والمصاب منها مشغول بإصابته يجري ليجد مخرجاً ويحاول الابتعاد عن منطقة الخطر يجري وهو مغمض العينين ولو فتح عينيه لرآنا ولـدارت بيننا معركة ما كنا سنسلم منها أبداً أما بقية السرب كان يجري تبعاً لامه المصابة ولم يظن أن الخطر محدق بها فمر الموقف بسلام .

رحلة على نهر مريدي

كـان علينـا أن نغيـر اتجاهـنا ولا نكثـر من التردد على منطقة واحدة واستحسـنت أن تكـون الـرحلة على نهر مريدي نزلنا في بيت الكبيته رئيس فئة محدودة من أهله ووجدت انقتوا وهو يعمل كرئيس طلبة لتصليح الكباري ولما كان الجسر على نهر مريدي قد أصابه التفكك أو التصدع من شدة ضغط مياهه الجارية وهـو يقوم على أعمدة من خشب وقوائمه من خشب أيضاً جاء مع جماعة كعمال ليصـلحوا هذا الجسر قبل أن ينهار وكان يحمل بندقية عيار 375 مقنم حيث كان يعمـل فـي قوة البوليس على عهد الاستعمار ولما تم مدته القانونية أعطي تصديقاً

ليشـــتري هـــذه البندقـــية وعين رئيساً للعمال كمكافأة له على خدماته اتفق صاحب المنزل الذي جئنا من اجله ليرافقنا في هذه الرحلة فوافق دون تردد ولما علم انقتوا غرضـــنا وأصـــبحنا ونحن نتهيأ للخروج للغابة فإذا به جاء يحمل سلاحه يريد أن يشـــاركنا هذه الرحلة وعلى مورد من موارد النهر وجدنا آثار الجاموس وقد ورد المـــاء ليلاً ودخل الغابة انه قريب من هنا واقتفينا أثره فقلت له أي لانقتوا صاحب السلاح فلنفرض إننا التقينا مع الجاموس فكيف تكون طريق الضرب فأجاب نضرب ســوياً ونقتســم لكل منا جاموساً قلت أنا لا أوافق لكني أنا أعطيك الفرصة الأولى تضرب إلى أن تكتفي قتلت أم لم تقتل بعدها ستكون الفرصة لي ولكل منا ما أصاب فلم يرضيه هذا الحل وقبله على مضض وبينما نحن نسير فإذا بالجاموس ينقسم إلى قســمين واتجهــت كل فرقة طريقها المغاير وقال اختار أحد الطرفين واخترت ما انشـــق نحـــو اليمين وسألت شيخ الحله وأعطيته الخيار هل هو مرافقي أم سيرافق انقتوا فاختار انقتوا فقلت كان الأجدر بك أن ترافقنا نحن لأننا ضيوفك ونحن نحتاج إليك لترشدنا إلى مكان المياه ودروب الغابة فأبى وقال بعض العمال نحن لا نحتاج إلى مساعدة أحد وقد سبق أن زرنا هذه المنطقة وعرفنا فيها كل مكان فأتركه يمشي مـــع زمـــيله وافتـــرقنا وسار كل منا نحو الأثر الذي اختاره ولم نذهب بعيداً حتى أدركـــنا الســـرب وهو يرقد على الأرض وتقدمت بعد أن هيأت لكل جماعة منهم موقـــف بالقرب من الأشجار لتسلقها في حالة انتشار هذا المراح الكثير العدد ربما يجد أمامه بعضاً منهم فتهاجمه وقصدت أحد الحراس رميته فوقع على الأرض وهو يجـــأر فهب المراح من نومه وأخذ يجري ويلف وأنا أطلق عليه النار وأصبت ستاً منها وكانت كافية لعملنا اليومي فأوقفت الضرب وأعطيته فرصة للهروب وتأكدت مـــن مـــوتها جاءوا مسرعين ووجدوا الظروف الفارغة لا زالت متناثرة في مكان الضـــرب وخاطبنـــي قائلاً من هذا المكان كنت تضرب الجاموس أجبت بنعم قال بممارســـتك هـــذه ستجد نفسك في يوم من الأيام وأنت على قرن جاموس قلت وان كـــنت أنت مكاني ماذا كنت فاعلاً قال نصعد إلى أعلى الشجرة ونضرب من هناك

تفادياً لأخطاره قلت هذه طريقتكم وطلبوا مني بعد الاعتراف بالغلطة التي ارتكبوها شـيئاً من الكبدة فلم أعاملهم بالمثل وأعطيهم من كبودها ورأسين وجانباً من الضلع فأخذوها شاكرين ورجعوا عنا ونحن نمارس عملية الصيد هذه يومياً إلى أن وصلت إلـى ثلاث عشر جاموساً وعبأنا اللحم في الجوالات ورحلناها مع الجلود إلى بيت الـرجل ونحن في انتظار العربة التي تقلنا إلى مريدي فكان يضرب كفاً بكف ندماً ويلعـن حظـه العاثر الذي رماه مع انقتوا وهو ينظر إلى نصيب العمال من اللحم والعظم الشيء الكثير وهو يتحسر والحقيقة أنا قصدت أن أعامله بمثل ما عالمنا به لان نواياه كانت سيئه لما تجاهلنا وفضل الذهاب مع أحد بني جلدته وكنت أتوقع أن يخـتار مـرافقتنا لأننا سبق أن زرنا هذه المنطقة وكان نصيبه من اللحم ما جعله يشـكرنا وتركناه وهو يعض بنان الندم وأخذ درساً قاسياً ربما لا يقع في مثله مرة أخرى .

فـي ليلة تهب نسماتها الباردة وعلى مائدة عامرة بأنواع المشروب منها ما هـو مسـتخلص من عصير العنب ومنها ما هو مستخلص من البلح وأنواع أخرى وكان حولها محمود والطيب محمد علي ونجم الدين أبو طربوش وقد كنت رابعهم ولحم الجاموس المشوي يأخذ مكانه من المائدة وتلاعبت الأهواء وسكتت الأصوات إلا مـن رنـين الكؤوس وفعلت فعلها في الرؤوس وأنا أنظر واضحك من بعض تصـرفاتهم لأني لم أذق طعمها في حياتي وإذا بالطيب يقترح أن نقوم برحلة صيد إلـى نهر سوى نقضي على شواطئه بعض الأيام واختمرت الفكرة ووجدت تجاوباً وتأيـيداً وأتفق الرأي على أن يقوم الطيب بقيادة العربة اللاندروفر لما كان الطريق طويلاً أمامنا والشارع معبداً ويقوم بتعبيده وإصلاحه طائفة من العمال الذين يقيمون علـى أطرافه في شكل معسكرات وعلى رأسهم شيخ ، والعربة تسير بأعلى سرعة لها ونحن مشغولون في حديثنا كلمة من هنا وكلمة من هنا حتى وصلت العربة إلى منعطف في الطريق فإذا بعربة أخرى تأتي من الطريق المضاد وتسير بسرعة فائقة وتـواجهت العـربتان فـإذا بالطـيب ينحرف نحو الشمال في زاوية حادة ليتفادى

التصادم ولكن وجد نفسه أمام حفرة على عمق أربعة أمتار وعلى طول عشرة أمتار حفــرت بواســطة عمال الشارع ليأخذوا ترابها لردم الطريق وفي قوة ضغط على الفرملة وأمسك بفرملة اليد ووقعت العربة عل حافة الهاوية ولم يبق بينهما إلا نحو اثنــين ســنتيمتر فقال الطبيب مسرعاً أنزلوا لو رفعت رجلي من الفرملة أو حركة فــرملة الــيد ستتدحرج العربة إلى الهاوية أنزلوا وأتركوني وحدي ونزلنا وأمسكنا بصــندوق العــربة مــن الناحية الثانية لنعيد إلى العربة توازنها فاستطاع أن يعيد ســيطرته علــيها وخرج بها من هذا المأزق وعادت العربة الأخرى بمن فيها من ركــاب ووجــدوا الموقــف سليماً لم يصدقوا ما رأوه وبعد تبادل عبارات التهاني بالســلامة صرحوا بأن مجيئهم كان بغرض نقل الجثث والمصابين فمنهم من يقول نــرجع بهم إلى لبرنقو وآخر يقول أحسن نقلهم إلى سرسيبو حيث المستشفي الكبير ليسعف من كان حياً أما واحد منا أصر على نقلهم إلى مريدي حيث يوارون الثرى مــع ذويهــم واثــنوا على الطيب ومهارته في القيادة ولولا ذلك لتردت العربة في الهاويــة لم ينج منكم أحد وكان لنا أن نصل إلى مدينة طمبرة أولاً ثم نأخذ طريقنا نحو سوى لم تبق بالمدينة أكثر من نصف ساعة وكانت كافية لمقابلة التجار وشددنا الرحال نحو سوى وهو نهر جاري وقادنا الطريق إلى الاستراحة التي بناها السادة الإنجليز على شاطئ النهر وهي مبنية من الطين وسقفها من القش وبها نملية قائمة على جنبين تقيك ليلاً والذباب نهاراً نظيفة وعليها حارس وبيده دفتراً وقلماً ليسجل عليه الزائر اسمه كاملاً وهو يقوم بخدمتك في كل ما تحتاج إليه من دجاج أو بيض أو ســمك ويمــدك بالحطب وإشعال النار وماء الحمام كل ذلك نظير خمسة قروش عــن كل ليلة وفاتني هنا أن أذكر السيد سليمان شميس أطال الله عمره كان قمندان بوليس يامبيو وكان من الرجال الأفذاذ في أخلاقه ومعاملاته لا تشعر أبداً أنت أمام موظــف أو قمندان بوليس متواضع للحد البعيد وطني يضحي بأي شئ إذا تعارض مع وظيفته محبوباً من جنوده ومن جميع طبقات الشعب كان يسند إليه وظيفة ضابط مــباحث في القضايا الغامضة وبمهارته يستطيع إظهار الحقائق وهذا قليل من كثير

فقضـــينا ليلتنا في منزله وكانت تربطه بمحمود والطيب صداقات قوية في الصباح سـلمنا خطاب لأحد السلاطين هناك وبوصولنا سلمناه الرسالة وأعطانا بعضاً من أهله ليرافقونا ويقوموا على خدماتنا وقضينا ليلتنا بالاستراحة والنسمات الباردة تأتي مـن كـل اتجاه وصوت خرير الماء المنساب بين الصخور وتكسر الأمواج على الصـخور فـي صوت هادئ والنوم يداعب عينيك تعطيك متعة خاصة وإحساس بالنشـوة وأصـبح الصـبح فأخذنا أسلحتنا أنا ومحمود وتركنا الطيب ونجم الدين بالاسـتراحة وكنا نتسلق الجبال تارة ونسير على سفوحها تارة أخرى فلم يصادفنا فيها شئ من الصيد وقد انتصف النهار وجلسنا تحت شجرة لنأخذ قسطاً من الراحة وعلى مقربة من الجبل فإذا بجماعة من القردة كبيرة الأجسام تتواثب على الصخور القـريبة وعلى مرأى منا وقف أمامنا أحد المرافقين وحيانا تحية عسكرية وبعد أن ضـرب رجله على الأرض انتباه ووضع كفه فوق جبينه كأنه أمام رئيسه وقال يا أفندي اقتلوا لنا واحد منها وكان يجلس أحدها وكان كبير الجسم على صخرة عالية وهو يرسل ضحكات وقهقهة فتناول محمود بندقية المورس ورماه بطلقة فأصابه في رأسـه فوقع من على الصخرة والدم يتساقط من مكان الطلقة وجروا نحوه ففرحوا فـرحاً شـديداً وجـاءوا به ووضعوه أمامنا لنتصرف فيه فقال لهم محمود هذا لكم وللسـلطان فازدادت فرحتهم صعدنا الجبل بعد أن تركوا أحدهم لحراسة القرد وفي منتصـف الجبل دخلوا بنا في مغارة أو كهف من الكهوف فإذا نحن داخل صالون واسع يقوم على صخرة كالأعمدة في تنسيق جميل أرضه رملية بارد كأن به مكيف هـواء ولـه فوهة على سطح الجبل مفتوحة ترسل الضوء داخل الصالون ووصلنا الفـوهة فإذا بها مفتوحة على سطح الجبل وعلى ميدان واسع مستوي وعلى جانبيه أثـر حفـر صـغيرة وكأنها مراحيك للغلال فسألناه عن سر تواجدها بهذه الكثرة وتـزاحمها جنباً إلى جنب قالوا إن هذا المكان ملجأ لكل سكان هذه المنطقة يلجئون إليه أثناء الغارات التي تشنها العصابات بغرض السلب والنهب فيجتمعوا بهذا الجبل ويسـكنوا أياماً حتـى ينجلي الموقف وهذه الفتحة التي في أعلا السقف ينفذ إليها

الحراس عما يجري حول الجبل وسبب علوه يجعل الأرض تحته مكشوفة إلى أبعاد بعيدة وسط الجبال رجعنا للاستراحة ولم نجد أثر لحيوان وفي اليوم الثاني تتبعنا النهر ووجدنا حوله معسكرات عديدة على شاطئيه وهم يجمعون السمك بعد تقديده ولهم طريقتهم في صيد السمك وهي عبارة أقفاص مصنوعة من الخوص بطريقة فنية وهي من طبقتين واحدة داخل الأخرى توضع بين الصخور ويجرى الماء من بينها فيدخل السمك في الطبقة الثانية وتتسع كلما ضغط السمك حتى يدخل ولا يستطيع الرجوع كما أن لهم نوع من الشباك صغيرة تثبت بين الصخور وتجد الواحد منهم يقفز من صخرة إلى أخرى ليراقب الشباك ويستخرج ما علق بها من سمك هكذا عمله ليل نهار مكثنا نحو ثلاثة أيام وقد سددنا ما علينا من أجرة الاستراحة وكتبنا ملاحظاتنا عن الاستراحة والخفير ليقدمها للمفتش عندما يأتي المنطقة .

هذه أول رحلة تعتبر فاشلة مادياً غير إننا اكتسبنا متعة روحية ومعنوية لا تقدر بقيمة وتمتعنا بأكل السمك الذي كان يعمر مائدتنا في كل وجبة لأن نهر مريدي فقير من هذه الناحية وكان على أواخر أيام الاستعمار قد فكر في إقامة أحواض لتربية السمك على شاطئ نهر مريدي وفعلاً عمل أول تجارب له ونجحت غير أن الذين جاءوا من بعدهم لم يعطوا الأمر أهميته ونامت الفكرة ولم تجد من الاهتمام القدر الكافي .

السلطان على مدرجي يتعرض للاغتيال

السلطان على مدرجي هو أحد سلاطين المورو ورث هذه الوظيفة القيادية عن أبيه وكان مسلماً وقد ورث أبيه عقيدته الدينية كما ورث مكانته الاجتماعية كما كان في أخوه صالحاً اغتالته الخوراج في بيته وهو يؤدى عمله كسلطان في منطقة أخرى كما سبق أن بينا في غير هذا المكان أما على مدرجي لا يخفي إسلامه وقد أخذ الطريقة الأحمدية الإدريسية عن الأستاذ هاشم الإدريسي الذي التقي به وهو في طريقه من الخرطوم إلى جوبا وحفظ عنه أورادها ومن أوائل السلاطين في الإقليم

الاستوائي الذين طلبوا المساجد وتزويدها بالأئمة والمدرسين لتعليم الأهالي مبادئ الدين الإسلامي وكان ذلك على أيام السيد علي بلدو عندما كان مديراً لهذا الإقليم وقد بنيت المساجد وبدأ بداية طيبة وقد بني له مسجداً بالقرب من منزله وقد جذب بعض الأهالي وكانوا يتعلمون المبادئ الإسلامية في عصر كل يوم حتى جاء التمرد الأخير بقيادة جون قرن وقد خرب كل هذه المساجد منها ما حوله إلى محل بيع الخمور البلدية رغم معارضة بعض السلاطين ومحاربة الكنائس لمثل هذه المؤسسات الدينية قد شهد التاريخ الكثير منها وفي مختلف الدول التي ارتدت بعد إسلامها كأسبانيا مثلاً وغيرها كثير . وهناك ملاحظة يجب الوقوف أمامها طويلاً وهي لماذا هذه الاغتيالات موجهة ضد المسلمين من السلاطين فهناك أصابع الاتهام تشير نحو مؤسسات خاصة لها ضلع في هذا التوجيه بغرض إضعاف الحركة الدينية التي بدأت تنشط من جديد والخوف الشديد من أن يدخل في قلوبهم وللسلطان علي مقرين أحدهما بين أهله وعشيرته وهو الرئيسي والآخر بالقرب من مركز مريدي يأوي إليه عندما يتطلب الأمر وجوده للعمل في حالات عقد الاجتماعات أو استمرار المحاكم لعدة أيام وفي أثناء تواجده في هذا المقر هجم عليه الخوارج ليلاً وأشعلوا النار في القطيه التي هو بداخلها فلما انتشر الضوء وملأ الساحة فتح باب القطيه وانهال عليه الرصاص وقد أدرك حقيقة الأمر وما هو فيه من خطر فوضع نفسه في الظلام وعلى الباب بحيث يرى ولا يرى وبدأ إطلاق النار من الجانبين وكان يحني ظهره ليرى تحركاتهم على ضوء النار لقصر باب القطيه فإذا برصاصة تصيبه فوق كتفه وتسير بين الجلد الخارجي واللحم حتى استقرت في آخر السلسلة الفقرية دون أن تمسها فلم يلقى لها بالاً وصمد مكانه وهو يرقب تحركاتهم فتربص به أحد الخوارج وباغته من الخلف وهو يدب دبيباً ولما كانت فوهة البندقية خارج الباب وقد غمرها الضوء فإذا به يقبض عليها بكلتا يديه وينتزعها منه فوثب عليه من داخل القطيه التي لا زالت تعمل فيها النار ليمسك به فوقعت يده على بندقية كان يحملها المتمرد فجذبها منه فوجدها بندقية خرطوش

ويتحرج الموقف هو يملك بندقية بدون ذخيرة وهم بيدهم بندقية بدون ذخيرة وأصبح بـــين نارين وكلاهما الموت المحقق فان بقى داخل القطيه مات محترقاً وان خرج مـــات أمـــا بحراب أو من سلاح ناري آخر وبينما هو يفكر في أحد الأمرين فإذا بالفـــرج يأتيه ترسله العناية الإلهية وتظهر أنوار عربات الجيش وهي تحمل النجدة بعد أن سمعوا دوي الرصاص الذي شق سكون الليل وفر الخوارج وأخلوا الساحة لما شعروا بنور العربات تتجه نحوهم وصل الجيش وأنقذ الموقف ووجد ثلاثة من الخـــوارج قـــد لقوا مصرعهم ونقل السلطان إلى المستشفى حيث أجريت له عمليه ســـريعة لاستخراج الرصاصة من ظهره ولما كانت منطقة السوق قريبة من مكان الحـــادث استيقظوا من نومهم على صوت إطلاق النار وقد أمسك كل تاجر بسلاحه ووقفـــوا صـــفاً في اتجاه الصوت استعداداً للطوارئ وأصبح الصبح وانتشر الخبر وقمـــنا نســـير نحـــو داره لنرى الحاصل دون أن نعلم أنه نقل إلى للمستشفى وفي الطـــريق تبين لنا ذلك وعرجنا نحو المستشفى ووجدناه بحالة جيدة ورجع البعض إلـــى السوق أما أنا فذهبت إلى الدار مباشرة وتفقدت مكان المعركة ومكان جلوسهم وأخـــذت الـــتقط بعـــض الظروف الفارغة لمعرفة نوع السلاح الذي كان يستعمله الخـــوارج فـــوجدت مـــنها ظروف من عيار 303 عيار سلاح الحكومة والبعض خـــرطوش عادة وفي أثناء تجولي بين حديقة المنزل وجدت نقاط من الدم فتتبعتها حتـــى قادتنـــي إلـــى شخص يلقى مصرعه بين شجرة موز وشجرة برتقال فناديت بعـــض أفـــراد أسرته وأشرت إليه والدم حوله لم يجف بعد وهو جثه هامدة وكنت أزور الســـلطان علـــي في المستشفى كثيراً مع بقية التجار إلى أن تم شفاؤه وكانت تربطني به صداقه مركزها الغابة وسببها الجاموس .

الصاعقة تهشم الشجرة التي نحن تحتها

للمـــرة الثانـــية نشد الرحال نحو برقو والتي سبق أن زرتها في رحلة سابقة وكـــان مـــوقعها الطبيعي الغني بالأشجار الباسقة وخضرتها اليانعة ومياهها العذبة تجعل ذكراها عالقة بالأذهان وكانت غاباتها غنية بالأفيال لموقعها بالقرب من زائير ويسكنها قبيلة البنقو وهم يتكلمون لغة قريبة الشبه بلغة الشلك كما أن هناك من يقول إنهـــا بطن من بطون الشلك وهم قوم مسالمون يمتاز طبعهم بالهدوء والتسامح وقد يسأل سائل عن السبب الذي جرنا لقطع كل هذه الأميال وما ميزتها عن سائر القرى الأخـــرى أقول الأسباب كثيرة التي بموجبها اخترنا برقو منها موقعها بالقرب من حدود زائير وانفتاح الطريق بينهما مما جعل رحلة الأفيال آمنة ومطمئنة وقلة رواد المـــنطقة لصيد لهذا الحيوان وتكاثر النوع الكبير منها وتجد حمايتها وسط الأشجار الكثيفة ومرعاها وبسبب وعورة المسالك والأحراش والخيران وجبالها الحمراء التي تـــتخللها خضرة الأشجار فالذي يقصدها لا يقصدها بغرض صيد الفيل فحسب بل للمتعة النفسية التي يشعر بها الإنسان ولا يجدها إلا من أعطي ذوقاً سليماً وشعوراً رقـــيقاً تجـــد أن الأجانب يشدون الرحال ويركبون الطائرات ويعبرون المحيطات للوصـــول للسودان ينشدون هذه المتعة التي يجدونها في أنواع الحيوانات التي تملأ الغابـــات وهي حرة طليقة بين هذه الطبيعة الجميلة ولا يوزنونها بميزان كم كلفت وكـــم أتعـــبت فهي فوق كل ذلك فما بالنا نحن الذين حبانا الله بهذه النعمة والمتعة ونحن نحرم أنفسنا وهي في متناول اليد وننظر لها دائماً من منظار ضيق وهي من الناحـــية الماديـــة والمادة في حياة الإنسان ليست هي كل شيء ولما كانت الرحلة طـــويلة ولا تخلـــو مـــن مشـــاق وفي أرض تختلف طبيعتها عن مريدي فرأينا أنا ومحمود أن نقوم وحدنا ونترك العمال ما دام يمكن الاستفادة من العمال المحليين إذا أصـــبنا شـــيئاً وصلنا يامبيو ونزلنا ضيوفاً على السيد إبراهيم أحمد رحمة الله عليه وهـــو غنـــي عن التعريف بعد أن زودنا ببعض المعلومات وأخذنا طريقنا وبعد أن بارحـــنا أنزارا وتركنا أزو خلفنا أخذنا طريقاً جانبياً متجهاً نحو الشرق وعلى بعد خمســـة عشر ميلاً تقريباً وقفت العربة أمام دكاني عبد الله ونوح ووجدتهما كسابق

عهدي بهما وقابلونا ببشاشتهم المعهودة وضمرونا بكرمهم وأفردوا لنا مكاناً خاصاً لراحتنا الكاملة طلبنا منهم أن يزودونا بخبير ذو إلمام بالغابة وكان النهار يمر بطيئاً ونحـــن نشـــتاق إلـــى دخول الغابة وتم اختيار الخبير وعرضنا عليه أن يأتينا في الصباح وجاء الخبير وقد ارتدينا لباس الغابة بنطلون طويل من الكاكي وقميص منه يحـــتوي على أربعة جيوب بزراير لوضع الذخيرة وجرابات صوف طويلة وكبك وغطـــا للـــرأس مـــن الصوف لها فتحه أمام العينين وتتدلى حتى تغطي العنق إلى الصـــدر لتقي الإنسان من البرد ارتفعت الشمس قليلاً وتساقطت قطرات الندى من علـــى الأغصان والحشائش وانقشع الضباب قليلاً الذي يحجب ضوء الشمس تقدمنا الخبيـــر ونحن نسير نحو الغابة نلتمس الفيل مظانه ومحلات تواجده فيدخل بنا بين أشـــجار كثـــيفة متشابكة الفروع والأغصان ولم نجد بداً من الحبو على الركب ولا وجـــود لضوء الشمس ظلال متصلة وكنا من باب الحيطة نحمل معنا صباعات من الطباشير الأبيض لنصبغ به الضبانة من البندقية من اسود إلى ابيض ليسهل رؤيتها تحـــت هذه الظلمة أما كيس الرمل فهو رفيقنا في كل رحلة لم يتخلى عنا ولم نتخل عنه لأنه عدتنا في اختيار اتجاه الريح وبين هذه الأشجار ظهر أمامنا ميدان خفيف الأشـــجار وعلى جانب منه يجري نهر صغير يفيض في زمن الخريف حتى تغطي مياهه هذا الميدان مما يساعد على نمو نوع من القصب من فصيلة البوص أجوف الـــبطن ذا قشـــره صـــلبة تحدث فرقعة إذا ما وضع الإنسان قدمه عليها وتكسرت وتحـــت شـــجرة طويلة تقف ثلاث أفيال وعلى مسافة مائة من الأمتار فكيف التقدم قلـــيلاً نحـــوها وهذا القصب يقف في طريقنا والأفيال حادة السمع والشم غير أنها قصيرة النظر وأقل فرقعة من هذا النبات سيلفت نظرها وتهرب ولما لم نجد وسيلة لـــتفادي هـــذه القصبة ولو أردنا تغيير الاتجاه فالريح تشكل عقبة أخرى وقفنا قليلاً للتشـــاور فاســـتقر الرأي على أن نطلق عليها النار من مكاننا هذا والمسافة ليست ببعيدة بعد أن نختار أحد الثلاثة نرميه بطلقتين وكانت أثنين منها متساوية من ناحية الجســـم وحجم السن وقد اخترت أحدها غير أن محمود اختار الآخر فانقدت لرأيه

واختياره وأطلقنا عليه النار فسقط على الأرض واتجهت الاثنان نحونا تجري نحونا فأطلقـــنا النار في الهواء بغرض التخويف فغيرت اتجاها وتقدمنا نحو المصاب فإذا به يعبر النهر ولم نجد صعوبة في عبور النهر حيث كانت بالقرب منا شجره طويلة قـــد جـــرفها تيار النهر مما جعل منها جسراً يصل بين الجانبين فعبرنا النهر فوقها ومشـــينا حـــيث يرقد الفيل ولما كنا على مقربة منه شعرنا بأنه لا زال به بقية من روح فبادره محمود بطلقة على أم رأسه فارتعش هذا الجسم الهائل ثم سكن ووجدنا من سوء الطالع أن أحد سنيه مكسور منها قدر النصف غير أننا لم نصب بخيبة أمل لان الســـن الأخـــرى سليمة وكبيرة والجزء المتبقي من المكسورة لا بأس به وبعد خمسة أيام بعد أن نجحنا في مهمتنا بقى علينا تنفيذ وصية إبراهيم أحمد بأن نضرب لـــه فيلاً إذا صادفنا حتى يلحق بنا بعد أسبوع وكنا نرى أن من حقه علينا أن ننفذ وصـــيته لأنه صديق ورجل ذو مروءة وكرم دخلنا الغابة من جديد يتقدمنا الخبير وكلمـــا سمعنا حركة أفيال وجدناها صغيرة لا تستحق فنتحاشاها وإذا بالقدر يرمي في طريقنا فيلاً كبير الجسم طويل السن داخل شجرة ملتفة الأغصان وكأنها عرين الأســـد يقابلنا بوجهه فرميته بطلقة عند بداية الخرطوم مما يلي الرأس وهذا المكان يعتبر مقتل لقربه من مكان المخ ويسمونه العرب (الكبايه) فوقع على الأرض ثم هـــب قائماً وجرى قبل أن أتمكن من رميه بأخرى لان البندقية ذات ماسورتين من عـــيار كبير وأخذ يجري والدم يسيل غزيراً ونحن نسير على أثر الدم والدم يزداد أثره على الأرض مما يمني النفس بأنه سيقع قريباً ويزداد نشاطنا ونحن نقتفي الأثر دون الشـــعور بالتعب إلى أن شعرنا بأن الشمس قد أدركها المغيب مما يجعل اقتفاء الأثر تحت هذه الظلمة غير ممكناً فاستحسنا المبيت على الأثر لنتبعه في الغد وكيف المبيت ونحن في حالة جوع شديد فاستسلمنا للواقع وافترشنا الأرض وأضرمنا النار لنجد من ضوءها الرطوبة والبرد وتعطينا قليلاً من الدف فما مستً أجفاننا منة من النوم حتى بدأ الجو في التغير والسحب تتراكم والبروق تتوامض واسود الأفق وبدأ المطـــر فـــي النزول وكأنه أفواه القرب وما زمجر رعد من ناحية إلا تجاوب معه

آخــر مــن الجهة الأخرى وابتلت ملابسنا وسرى البرد أوصالنا والنار التي كانت تشتعل قد أصبحت في خبر كان بفعل الماء المنهمر ولا واقياً لنا من ضربات المطر إلا جــذع شــجرة نقف تحتها ونسند ظهورنا عليها وهي طويلة الساق ذات فروع وأغصــان قليلة على رأسها تعطي منظر النخلة غير أن ساقها أرق وقد خيم علينا السكون فإذا بالبرق يضيء الأفق ويجعل من ظلمة الليل نهاراً ساطعاً أعقبه صوت صاعقة تصم الآذان وتزلزل الأرض تحت أقدامنا والشجرة التي نسند ظهورنا عليها تــتلوى وتهتز ونسمع منها صرير وخشخشة وكأنها أفعى تسعى فابتعدنا عنها قليلاً وبدأ هطول المطر يخف تدريجياً حتى توقفت وقمنا بمحاولة لإشعال النار من زناد كــنا نحمله لان الكبريت لا يعمل هناك لشدة الرطوبة وبعد جهد جهيد استطعنا أن نــتغلب على الطبيعة بما أصاب الحطب والأعشاب من بلل حتى المناديل التي كنا نحملهــا أبــت أن تعمل فيها النار ولكن وجدنا في فروع الأبنوس خير معين لأنها صــماء ولا مســام فيها لتمتص الماء وجلسنا حول النار حتى جاء النهار وكنتيجة لهطول الأمطار قد انمحى أثر الدم المتبوع وتبخر الحلم الذي كان يراودنا ووجدنا الشــجرة قد تشققت من أعلاها إلى أسفلها وكأنها ثوب مبتل أحكم لفه ليتساقط منه المــاء وأصــبحت هامــدة وانكمشت أوراقها من وقع الصاعقة عليها واتجهنا نحو الأمــاكن المأهــولة ودخلنا دار رجل كبير السن وله بنات وجلسنا تحت ظل مظلة ونحن نغلب الجوع والتعب جاءتنا المرأة وهي تحمل صحناً عليه كمية الموز الكبير الحجــم يطلق عليه سن الفيل لكبر حجمه غير أنه أقل حلاوة من الأنواع الأخرى وبعد أن أخذنا قسطاً من الراحة شكرناهم وأخذنا طريقنا نحو برقو ووجدنا إبراهيم أحمــد وصــل وكانوا قلقين عندما سمعوا إننا ذهبنا على اثر الفيل المصاب ولولا المطر لعثرنا عليه .

تهــيأنا في اليوم الثاني بعد أن غيرنا الاتجاه نزولاً على رغبة الأهالي وسرنا وسط الحشائش العالية التي لم تمتد إليها يد النيران فإذا بحركة تصدر من جانب من وسط غابتها فتبين لنا انه قطيع من الأفيال تسير وسط هذه الحشائش فتصديت لواحد

يمشي على طرف من القطيع فرميته بطلقة فجرى خلف السرب وتبعنا السرب ولما كـــان السرب كبير الحجم أضاع منا أثر الدم ونحن نسير خلفه وكلما طالعتنا حركة نظـــن إنهـــا صادرة من الفيل المضروب إلى أن دخلنا حدود زائير من غير قصد فســمعنا حركة أفيال ترعى قلت لمحمود وإبراهيم أقيما هاهنا حتى أنظر في أمرها حتـــى إذا لاحـــت لنا فرصة وجود فيل كبير سأرجع لكم لنرميه رمية رجل واحد لنقضـــي علـــيه وتقدمت نحو الصوت فكانت الأشجار متشابكة الأغصان وخلصت مـــنها فإذا بي أمام فيل أنثى يتبعها فصيلها وعلى بعد عشرة أمتار تقريباً فشخصت عيناها وجحظت حتى كادت تخرج من محاجرها ورفعت أذنيها وقد شعرت بعملها هذا بأنها ستهاجمني لا محالة وكنت أمام أمرين لا ثالث لهما إما أن أقتلها وإما أن تقتلني فآثرت بأن آخذ بأخف الضررين فأصبتها في رأسها لم يغب عني أن عقوبة قتل أنثى الفيل الغرامة أو السجن أو الاثنين معاً مع مصادرة السلاح وسقطت على الأرض ووجـــدت الفرصـــة سانحة لانسحب من موقعها وأبتعد قليلاً تفادياً للخطر ورجعـــت إلـــى رفاقي وقلت (شيلو شيلتكم لقد ضربت فيل أنثى لما لم أجد بد من الخـــلاص مـــنها) وجئنا لنراها إن كانت قد ماتت حقيقة وكنا نتمنى ألا يكون ذلك تفادياً للمسؤولية ولما رأتنا مقبلين نحوها وثبت قائمة فأطلقوا النار عليها دفعة واحدة فســقطت وفارقت الحياة ونجا فصيلها وعلى أثر صوت الذخيرة تجمع حولنا بعض الأهالـــي والأفـــيال تتصارخ وتجري هنا وهناك وتتعثر في بعضها وهي في حالة خوف وفزع وأمرنا الأهالي بالا يقترب منها أحد حتى يجيء رجال وقاية الحيوانات وكـــان بيته بعيداً عن هذا المكان وداخل حدود السودان وجدناه في بيته وشرحنا له الموقـــف وجـــاء معنا لمكان الحادث ووجد أثر موقع قدمي من مكان إطلاق النار ومكـــان مصرعها واخرج شريط متر وقاس المسافة فوجدها اقل من عشرة أمتار بقلـــيل وكـــان الأهالـــي ينتظرون منا أمراً عما يفعلوه باللحمة فقلنا لهم نحن لسنا بأصـــحاب حق بل الحق في يد هذا الرجل واصدر أمره بتقسيم اللحم على الأهالي ويحـــتفظوا له بحقه بعد أن أمر عليهم أحد أقاربه ثم اقتادنا نحو نقطة البوليس في

بــرقو وفتح بلاغ ضدنا أنا ومحمود وقد أشرنا على إبراهيم احمد أن يأخذ طريقة ليامبيو ولو أشرنا إلى إبراهيم احمد بأنه الضارب وصاحب الرخصة لاعتبروه عمل الجريمة وهرب وهذه قضية أخرى فتحملنا التبعة أمام البوليس وقد كتب في تقريره بعد أن ثبت على الأرض بعض الأوتاد الخشبية على آثار الجريمة وبوصولنا برقو وجــدنا إبــراهيم اخذ طريقه ليامبيو حيث كان قد تورمت رجلاه بسبب الحشائش ولإنقــاذ الموقف وأصبحنا أنا ومحمود مقبوض علينا وبعد قليل جاءت عربة لوري فــي طــريقها إلــى يامبيو وركبنا العربة تحت حراسة أحد البوليس وصلناها بعد الساعة الثامنة مساء ذهب اللوري مباشرة إلى نقطة البوليس ووضعنا في الحراسة أمام الحارس وقد كلفنا السائق بأن يبحث عن إبراهيم أحمد ويعلمه بالخبر وبعد قليل جــاء إبراهيم أحمد يرافقه مفتش المركز وضابط البوليس وهم يضحكون فقال وهو يخاطــب مفــتش المركز أن بوليس برقو أخطأ في تصرفه هذا لأنهم لا صله لهم بالحادث أنا صاحب الرخصة وأنا الضارب وفتحت في مركز البوليس بلاغ باني أنا الضــارب فما ذنب هؤلاء وأمر المفتش بإخلاء سبيلنا بكفالة مالية ليوم غد الساعة التاســعة صــباحاً وفــي الــوقت المحدد عرضت القضية أمام نفس مفتش المركز وبحضور ضابط البوليس كممثل اتهام وبعد الاستجواب اللازم لإبراهيم أحمد كمتهم ونحــن كشــهود لصالح إبراهيم شطبت القضية واعتبرها القاضي دفاع عن النفس وأرسلت أوراق القضية لمدير الثروة الحيوانية مع السن للنظر في أمر السن وكان الســيد محمود أبو سنينة مديراً للثروة الحيوانية بجوبا فأيد الحكم مع مصادرة السن لصالح الحكومة .

نابانقا وحمامة السلام

نابانقـــا تقـــع في الجنوب الغربي من مركز مريدي ولها موقعها الاستراتيجي لمـــوقعها الحـــدودي بـــين زائر والسودان وكل سكانها من قبيلة الزاندي وهي من المـــناطق التـــي شطرها الاستعمار وفصل بين أبناء العمومة الواحدة وجعل طائفة مـــنهم تابعـــة للكـــنغو البلجيكـــي والأخرى تابعة لحكومة السودان كما بينا سابقاً ويمتهـــنون الزراعة والصيد علاوة على اهتمامهم الخاص بتربية النحل إن لم تكن هذه التربية بطريقة علمية مدروسة لكنهم يقومون بتهيئة الجو المناسب لتوالد النحل بعمـــل حظائـــر من لحاء الشجر في طول متر أو أكثر ثم يغطى طرفها من نفس اللحـــاء ولـــه ثقب يمكن ذبابة النحل من الدخول والخروج في سهولة تامة وتمسح باطـــنها بقليل من العسل رائحته الذبابة فيدخلها بعد أن تعلق على رؤوس الأشجار وتثبت بين الأغصان ولذلك كانت تمد سوق مريدي بأجود أنواع العسل وكدت على وشـــك السفر في إجازتي السنوية فلا بد من شيء من العسل وكمية من البن على قـــدر فتـــرة الإجـــازة وكان بها أربعة من التجار الشماليين ونقطة بوليس برئاسة أمباشـــى كمـــا أن بها فرقة من الجيش تحت قيادة ضابط برتبة يوزباشى مهمتهما حراســـة الحدود والمحافظة على الأمن فكان الكنغو في حالة فوضى بسبب الحرب الأهلـــية الدائـــرة هـــناك بعد موت الزعيم بترس لوممبا وكان كل الثوار الموالين للرئيس لوممبا يعسكرون على الحدود السودانية وهم يكنون للسودان ولشعبه العداء ويعتبرون أن السودان بتخاذله أو تباطئه مع جهات أجنبية كانت لها أثرها الفعال في عـــدم خلاصه من معتقله وإنقاذ حياته كان هذا هو الاعتقاد السائد بين جميع الثوار وهـــم يرون أنفسهم بين حربين حرب معلنة بينهم وبين جنوب الكنغو وأخرى غير معلـــنة وهـــي بينهم وبين السودان وكان دخولهم للسودان بطريقة فردية ليجدوا ما يحـــتاجون إليه كالدواء وأنواع الأقمشة وكان يأوون إلى أحد التجار اسمه عبد الله الفكي يتكلم لغة الزاندي كأحد أبناءها وكان يجيدها كتابة بأحرفها اللاتينية وكثيراً ما تصله خطابات منهم بواسطة نساء منهم وهن يدخلن خلسة ويخرجن خلسة دون أن

تعلم سلطات الجيش أو البوليس ومثلهم في ذلك مثل من قال :-

ومن نكد الدنيا على المرء أن　　　　يرى عدواً ما من صداقته بد

كــنت أجلس أمام متجر عبد الله الفكي دائماً لما تربطني به من علاقة القربى وفي ذات يوم وقف أمامه شاب على دراجة وتصافحا وطالت المحادثات بينهما بلغة الزاندي وأنا أستمع إلى حديثهم كأنه لغة الطير لا أفهم منها شيئاً وأخيراً التفت إلى عــبد الله وقــال هذا الشاب من ثوار الكنغو المرابطين على الحدود في معسكرات كبيــرة وكثيــراً مــا يعتمدون عليّ في قضاء احتياجاتهم وكثيراً ما اقترحت عليهم دخــول نابانقــا بطريقة علنية وسوف لا تجدون معارضة من جهة السلطات لكنهم رفضوا والشاب يقف أمامنا صامتاً فقلت لعبد الله قل له إذا وجدتم إذن من السلطات هــل انــتم داخلون فرد قائلاً هذا موضوع لا أستطيع البت فيه إلا بعد أن أعرضه على القادة هناك قلت لعبد الله أكتب له خطاباً بهذا المعنى وننتظر الرد . غداً حمل الخطــاب وجاء الرد بالموافقة وتوجهت فوراً إلى قائد الحامية وشرحت له الموقف وما سيحملونه معهم من بن وسن الفيل ومصنوعاتها الأخرى وأشياء كثيرة ستعود بالفائــدة عليــنا جمــيعاً فوافق بشرط واحد على ألا يدخلوا المدينة بأسلحة بعد أن وجــدت المــوافقة مــن قائد الحامية أن آخذ رأي البوليس فعرضت عليهم الفكرة ووافقــوا بعــد يومين جاءت عربة صغيرة تحمل أربعة من الثوار من ذوي الرتب المتوســطة كطليعة وقفت العربة أمام دكان عبد الله . وكان في الطرف الجنوبي من الســوق وقابلــناهم مقابلــة جميلة وأكرمنا وفادتهم بعد ذلك ذهبنا سوياً إلى نقطة البولــيس الذين رحبوا بهم بدورهم كما لقوا نفس الترحيب من قائد الحامية وذهبنا جمــيعاً إلى السوق وكان لحسن الصدف أن أحد التجار يضع صورة للزعيم لوممبا على واجهة الدكان فلفت نظر عبد الله قلت له قل لهم إن الشعب السوداني يكن كل الاحتــرام للزعيم لوممبا وكان من امتنانه أن يعيش لوممبا ليحرر الشعب الكنغولي من دول الاستعمار وأكبر دليل على صدق ما قلته هذه صورة الزعيم تضعها على واجهة المتجر كذكرى لهذا الوطني الغيور والمناضل وفقده ليس خسارة على شعب

الكونغــو فحسب بل هو فقد القارة الأفريقية كلها حيث كانت تنتظر على يده الشيء الكثير ولما رأوا الصورة جثوا على ركبهم أمام الصورة ودخلوا في صلاة من أجله ثــم قاموا خاشعين قال بعضهم ما كنا نعتقد أن في السودان من يعرف هذا الزعيم حقه وكنا نعتقد خطاء أن للسودان ضلع في موت هذا الرجل العظيم والآن وبعد أن علمنا ما يكنه الشعب السوداني من حب لثورة الكنغو بقى علينا من جانبنا أن نزيل كــل الرواســب التي علقت في نفوس الثوار وسوف تتحسن العلاقات في القريب العاجل وفي الغد سيدخل المدينة عدداً من الثوار وهم يحملون الكثير من السلع وفي الغــد جــاءت عربة لوري محملة بالبن وبهذا فتحت التجارة بين الشعبين واشترينا الكثير من سن الفيل المصنعة والخام ونشطت التجارة وكان التعامل بالعملتين ولكن بتحفظ ولما كانت الأمانة تقتضي إعطاء كل ذي حق حقه ولا نبخس الناس أشياءهم فــان مــا قــام به الأخ عبد الله الفكي من دور يمثل حمامة السلام وفي يده غصن الــزيتون يلــوح به لإصلاح ذات البين وإزالة الرواسب ما بين الثوار الكنغوليين والشــعب السوداني دون أن يقول له أحد وليس أقل من الدور الذي قام به الدكتور عثمان أبو عكر في خدمة القضية اليوغندية وبذل من ماله الخاص ما بذل لا ينتظر مــن وراء ذلــك جــزاءاً ولا شكورا وكان الغرض أسمى بكثير وأقيم هو تحرير الشعوب من ربقة الاستعمار وتسلط الإنسان على أخيه الإنسان وسعيه الدؤوب على إذلالــه واحتقاره لهما رسلا سلام لكل هذا المفهوم وكانا يعملان في هذا الظلام ولم يجــدوا حتى الآن من يسلط عليهما الأضواء الكاشفة ليظهروا أمام الشعوب كرسل ســلام وتكــتب اسميهما في سجل العظماء الذين ساهموا في استتباب الأمن وإزالة الجفوة بين الشعوب المتجاورة والعيش بسلام فلهم مني ومن عرف لهم هذا الجميل المقدر آلاف التحايا وعلى الله حسن الجزاء .

المنجم والكهف المهجور

فــي ليلة صافي السماء إلا من بعض السحب المتفرقة والجو معتدل يميل إلى البــرودة كلمــا مضت ساعة من الليل كنا نجلس أنا ومحمود في فناء الدار وأمامنا

جهـــاز الراديو نوجهه للاستماع للإذاعات الخارجية مرة ونعيد ذكريات أيام مضت وتقادم عليها العهد ولم يتطرق إليها النسيان وقف بجانبنا تاجراً يونانياً مؤجراً لأحد دكاكين محمود وقد جاء لتوه من مدينة جوبا جلس بيننا قليلاً ثم استأذنني بأنه يريد الــتحدث مع محمود منفرداً فأذنت وقاما ومشيا قليلاً ثم وقفا مدة طويلة تقرب من ساعة كاملة عاد بعدها محمود إلى حيث نجلس وانصرف الخواجة فسألته هل هناك حدث غريب فقال نعم قلت أي سر هذا الذي اختصك به قال هو سر وغير سر قال إن الخـــواجة عندما كان بجوبا وهو يتعشى مع الخواجة كوستى يمانز أحد التجار الـــبارزين فـــي مدينة جوبا من أصل يوناني سأله إن كان يعلم أو يسمع عن مكان مـــنجم للـــذهب يستغله أحد البريطانيين مع بعض الأعوان من أجناس أخرى ومن المشـــاع انـــه فـــي ضاحية من ضواحي مريدي ولما كنت حديث عهد بمريدي لم استطع الجواب عليه ووعدته أني سأتيه بالحقيقة في أسرع فرصة ممكنة وسأتصل ببعض التجار الذين لهم معرفة بتاريخ هذه المنطقة ولم أجد من بين التجار أعرف مـــنك وبثقتـــي فيك وقاطعته قائلاً وبماذا وعدته أجاب وعدته بأني سأبذل قصارى جهدي وآتيه بالنتيجة لأني أنا شخصياً لم أسمع بشيء من هذا القبيل فضحكت وقلت معقباً تبذل قصارى جهدك في هذا الموضوع ليستغله لمصلحته وهو الأجنبي الذي مـــص دم هذا الشعب منذ أكثر من أربعين سنه حتى وصل إلى هذا الثراء الفاحش أما كفاه ذلك حتى يسخرنا لخدمته ويقعد على القناطر المقنطرة من الذهب والفضة علـــى حسابنا وينظر لنا من علٍ وكأننا خدماً له هذا الخواجة المتغطرس الذي عمل مـــع الاستعمار فان فعلت هذا تكون ارتكبت أكبر حماقة في التاريخ وما الذي يمنع أن بحثـــنا عـــنه لنستغله لمصلحتنا ونحن أولى بثروات بلادنا من أن نقدمها هدية للأجانـــب قال أنت على حق وقد جال بخاطري كل ما ذكرت وما شرحت لك ذلك إلا لأخذ الرأي وبماذا تجيبني وأنا مقتنع من أول وهلة بأننا أولى منه .

مضـــى نحـــو أسبوع ومحمود يبحث عن الرجال الذين عاصروا ذلك العهد وأخيراً شاروا عليه بأن فلان يسكن أبا كان شاب يعمل معهم كساعي للبريد وأبا لا

https://maktbah.net

تــبعد أكثر من ستةٍ وعشرين ميل أخذنا عربة وسألنا عن الرجل والتقينا به وسألناه أســئلة كثيــرة تتعلق بالموضوع وقال هو لا يعرف طبيعة عمل هؤلاء الناس ولا يعــرف شــيء اسمه الذهب بل كنت أودي عملي كساعي على ظهر دراجة أحمل الرســائل مــن والــى مريدي وهو لا زال يذكر مكان معسكرهم وقلنا له هل أنت مســتعد لتذهب معنا إلى هناك قال لا مانع قلنا لا تتغيب وترقب مجيئنا وكن على اســتعداد عــدنا ونحن نتكتم على الخبر مستترين تحت رحلة صيد اعتيادية ولكن حســين زيدان صديق لنا جميعاً ارتاب من تحركنا من أبا والى أبا على غير العادة وخامــره الشك في أن تكون رحلة عادية لا بد أن في الأمر سر نخفيه فصارحناه بكل شيء فأصر على أن يرافقنا في هذه الرحلة ولأول مرة فجمعنا عدداً من العمال وعــدداً مــن الصــاجات وبعض الفؤوس وأخذنا طريقنا بعد أن مررنا بأبا وأخذنا الرجل وسلكت العربة طريقاً جانبياً وقطعنا مسافة تقدر بنحو مائة وخمسة وعشرون ميلاً أشار علينا بالوقوف وقفت العربة بعد أن أفرغت حمولتها حمل كل عامل حملاً وأمــرنا الســائق بالرجوع إلى مريدي ودخل بنا الغابة بين الجبال والأشجار وبين صــخور زرقــاء كالكحل في شكل ملفت للنظر وسألت محمود قال إنها تحمل خام الحديــد فيها ومن أجود الأنواع وكثيرة تغطي مساحات كبيرة هذا ما هو بادياً على ظهــر الأرض أما الذي تحت طبقات الأرض لا شك انه أغنى بكثير يتواجد بكثرة وثقــيلة الــوزن مما يوحي بأن نسبة الحديد فيها كبيرة وكما هي لامعة تحت أشعة الشــمس اعترضنا نهر جاري وعلى شاطئيه تقف الأشجار شامخة خضراء تغطي ماء النهر مما تكسب ماءه برودة وصفاء وعلى بعد أمتار يقوم جبل صغير وتحت قاعدتــه نفقــاً محفــوراً لا يزيد عن متر واحد وعرضه متر ونصف المتر تقريباً وحططــنا الــرحال بعد أن أشار إلينا الخبير بذلك كنا ننظر إلى هذا الأخدود الذي ترقد بداخله تلك الثروة العظيمة التي تنتظرنا وكم نالوا منها هؤلاء الأجانب انتهزوا بدائية السكان ونهبوا ثروتهم هذه علامات تدل دلاله واضحة بأنه مكان المنجم ، هذا الحفر الذي كلف الكثير من الأموال واستغرق الكثير من الوقت وموقعه من شاطئ

النهر لهي علامة تؤكد هذا المكان المعني وبعد فترة راحة قصيرة قمنا نتجول حول هـذا الجبل وقد وجدنا حفريات أخرى في أماكن متعددة وعلى صخور صماء أشبه بالآبـار غيـر أن الأمطار والسيول قد ردمت ما يقرب من نصفها مما تحمله من تـراب وغثاء السيل وقد فتحت أمامنا مجالاً أوسع للتفكير هل هذه الحفريات عملت للتنقـيب وأخيراً وجدوا ضالتهم داخل هذا الجبل وركزوا على هذا الحفر حتى بلغ هـذا المـدى عدنا وجلسنا أما المدخل وقلت لصاحبي سأدخل هذا النفق وأنظر ما بداخلـه فرفض محمود وقال هل تعلم أن هذه الحفرة كم من السنين قد مرت عليها وهـي مهجـورة وهـي تحمل في جوفها عدة مخاطر منها انعدام الأوكسجين أولاً وثانـياً ربمـا تكون مأوى للأسود أو النمور أو الذئاب والحيات الأخرى كالأصلة والثعابـين الكبيـرة التي تحمل بين جنبيها السم القاتل لهذه الأسباب مجتمعة أنا لا أسـمح بدخولك أبداً ولو أدى الأمر إلى فشل الرحلة قلت يا محمود ألم يخطر على بالك قول أبو القاسم الشابي:-

ومن لا يحب صعود الجبال   يعش أبد الدهر بين الحفر

ومـثل مصري يقول (ما فيش حلاوة من غير نار) ومثل ثالث (ان الشهد دونـه ابر النحل) قال أعلم ذلك ولكن لسنا في حاجة لركوب مثل هذه المخاطر وقد فاتـك قـول المصري (أبعد عن الشر وغني له) وبعد أن فندت آراؤه الواحدة تلو الأخرى قلت له إن احتمال وجود حيوانات وحيات صحيح وفي سلاحي علاج ناجع لهـا ونـور الـبطارية التي تحمل في جوفها خمسة حجارة تعطيني الضوء الكافي لتحيل ظلمة الكهف إلى نهار فالعقبة الوحيدة هي احتمال انعدام الأوكسجين وهذا لا يكون إلا على أبعاد بعيدة داخل الجبل وليس هناك ما يجبرنا إلى أن نصل إلى تلك الأعمـاق ولـي رجـاء واحد هو أن تسمحوا لي بالدخول لبعض الأمتار بغرض التعـرف علـى طبـيعة الحجـارة ونوعها وسأنبئكم ببعضها للاختيار وبعد جدل استطعت أن انتزع الموافقة بشرط إن لا تزيد على خمسة أمتار وكان المدخل على ارتفـاع متـر واحـد مما لا يسمح للإنسان بالمشي على قدميه إلا على الركبتين

فحشوت سلاحي بالذخيرة وأمسكت بالنور الكاشف وسميت الله ودخلت وما تقدمت قلـيلاً إلا سـمعت محمـود ينادي ارجع كفاية وأنا أقول أنا لا زلت أتأمل جدران الحائط ولم أبدا السير إلى الداخل وأنا أمشي يتقدمني النور الكاشف ومحمود ينادي وأنـا أجيب حاضر خلاص سأبدأ في رحلة العودة وكنت قد قطعت نصف الطريق لآن النور الكاشف قد وصل نهايته وأصبح الكلام في مسمعه كأننا في أعماق البئر وقد أزعجهم هذا التمادي وعلى أثر الضوء المنبعث من النور أحدث بعض الحركة فـي أخـر الحفر وأيقنت أن هناك كائناً حياً في آخر الحفرة واستعدت قول محمود وهل هذه الحركة صادرة من حيوان مفترس يقضي سحابة نهاره ويخرج ليلاً إذن إن الأوكسجين موجود وبدأت أفكر إن كان حيوان مفترس وأطلقت عليه النار فكيف يجد طريقة للخروج والمسافة لا تعدو وأن تكون متراً واحداً أو أزيد بقليل إذاً الحذر ، كما يجب التدقيق في الرماية لتكون الرمية قاتلة وتقدمت قليلاً والحركة تزداد ولما وصلت على بعد عشرة أمتار من مكان الحركة تبين لي إنها حركة الوطواط يتطاير هنا وهناك فعدت أدراجي وكان طوله حوالي ثلاثين متراً وبدأت عبارات اللوم على فعلي هذا ووجدت أطراف هذه الحفرة من الصخور الهشة وتعطي لمعه عند تسليط الضـوء عليها فقلت في نفسي هذا هو خام الذهب وما نسميه في العربية (بالتبر) أخـذت فأساً وعدت إلى داخل الحفرة أهدم جدرانها وجئت بكمية منها وأخذ محمود وحسين بعملية تكسيرها وذهبوا إلى شاطئ النهر وأخذوا في تخليصها من الحجارة فجـاؤا بكمية كبيرة منها ذات لون أصفر براق لكنه خفيف الوزن وأخيراً تبين لنا إنهـا (مايكـة) قلت في نفسي هذه خطوة أولى ولا بد من البحث عن نوع آخر من الحجـارة لنضعها تحت الاختبار وجئت بكمية أخرى ومن جهة أخرى فوجدنا إنها مادة (مايكة) أيضاً وأعدنا الاختبار مرات وكانت النتيجة واحدة فأصابتنا خيبة أمل وتبخر الحلم الذي كان يراودنا .

ومـا دمـنا قد فشلنا في سعينا وراء الذهب فلنطوعها إلى رحلة صيد وتركنا العمال على شاطئ النهر وسرنا مع الخبير وصلنا إلى أرض صخرية ذات نتوءات

حجـرية وعلـى جانبيها تتجمع أشجار غزيرة خضراء خرج علينا جاموساً وحيداً أزرق اللـون كبيـر الجسـم وقـد تلطـخ جسمه بالطين فزاده سواداً على سواده فاستوحشـنا عـندما رآنـا أمامه ووقف قليلاً فلم أمهله حتى رميته بطلقة وأردفتها بأخـرى خوفاً من أن يهاجمنا لقرب المسافة بيننا فكانت طلقتين متجاورتين قضين علـى حـياته بعد أن سقط على الأرض والدم ينزف وكنا نحمل معنا آله تصوير صـغيرة أخذنالـه عـدة صـور استمرت الرحلة نحو أسبوع وقد أصبنا عدداً من الجواميس غطت معنا تكاليف الرحلة .

عدنا إلى مريدي ولا زال شغلنا الشاغل هو موقع المنجم أو قل الكنز المفقود ونحن لا نألـوا جهـداً عن البحث وشعارنا هو قول حكماء العرب (لو تعلقت همة المرء بالثـريا لنالها) بدأ النشاط من محمود من جديد وكثرت اتصالاته بالرجال المسنين وجـاء لـي في يوم من الأيام ليقول بأنه أمسك بطرف الخيط آخر ربما يقودنا إلى المكـان الحقيقـي لهذا المنجم وفي مكان آخر أقلتا العربة ونزلنا ضيوفاً على أحد التجار وقابلنا مفتش المركز وشرحنا له الموضوع وما جئنا من أجله وكان من أبناء السـودان العاملـين مثقف ثقافة عالية فأرسل عربته وجاءت بسلطان المنطقة وبعد بعـض الاستفسـارات قال كنت في ذلك العهد صغير السن وكان أبي هو السلطان وكانـوا هؤلاء النفر يزورون أبي من وقت لآخر يحملون بعض الأكياس الصغيرة إلـى أن يصلوا المركز وكان أبي لا يعلم محتويات هذه الأكياس ثقيلة كان بداخلها حجارة أو حديد وهذا المكان معروف عندي ويمكن أن أذهب معهم إلى هذا المكان . سـألنا عن سبب توقف العمل هناك وأين ذهب القائمون بالأمر قال كبيرهم مات بسـبب جاموس هجم عليه بعد أن أصابه بطلقة بغرض توفر اللحم للعاملين معهم ولهـذا السـببَ توقـف العمل وقد عزمنا على زيارة المكان فاتفق الرأي على أن نتحصـل علـى تصديق مبدئي فشكرناهم جميعاً وعدنا إلى مريدي وتقدمنا بطلب واسـتمرت المكاتـبات بينـنا وبين وزارة المعادن ووصل التصديق المبدئي وأن نعطـيهم المسـاحة وربطها بمعلم ظاهر لا يتزحزح كجبل مثلاً أو نهر جار أو ما

شـــابه ذلك ، وقبل أن تكتمل الإجراءات قام التمرد الأخير وازداد العنف وما كان ذلـــك بمشيئتنا عن عزمنا لولا أن السيد حسن محمد الأمين الذي كان قائد الحامية بمـــريدي في مجلس بعيد عن الرسميات حلف لو تحركتم شبر واحد بغرض دخول الغابة أو الخروج من منطقة مريدي لحددت إقامتكم بما لدي من سلطات وعلى أثر ذلك توقف نشاطنا في هذا المضمار نترك الأمر إلى الذين سيأتون من بعدنا لتكملة الإجــراءات وإننا إذ نحتفظ بهذا السر الذي أشرنا إليه بطريقة غامضة ولا نريد أن نقــوم بتوضيح أكثر من ذلك لأن لنا الأمل في أن يسود الجنوب الأمن والاستقرار ونتابع بقية الإجراءات وان لم نكن نحن بالذات فلمن يأتون بعدنا .

صالح وعزه

مـــن الأشـــياء التـــي تسترعي اهتمام الزائر لمنطقة مريدي خاصة وكل جزء من مناطق الزاندي ويلفت نظره الأسماء العربية بين أوساط النساء كعزه وزلفى وستنا ونفيســـة وحبيـــبة وكل أسماء النساء عربية خلافاً لما نسمعه بين الرجال فالأسماء العربية قليلة ولا شك أن انتشار هذه الأسماء له أسباب منها دخول العرب ومنذ أقدم العصـــور واختلاطهم ومشاركتهم السكنى في تلك الأماكن الوعرة التي تعتبر بحق مـــن مجاهـــل أفريقيا وإذا سألت من هي عزة هذه لا يعدم من يجيبك بأنها زوجة صـــالح الـــذي كان نائباً لعربي دفع الله الذي فرض حكمه على هذه المنطقة لفترة طـــويلة ولا زال هناك جبل وسط الجبال الأخرى معروف بجبل صالح وله زوجة تمـــثل دور الملكـــة وقـــد أعد لسكناها بين غابات كثيفة وأخذت هذه الغابات شهرة عظـــيمة خصوصـــاً بـــين سكان منطقة مريدي وزاد من شهرتها وجود شجر البن المنتشـــر بـــين الغابات في مساحات واسعة ولما كانت النفوس ميالة بطبعها على معـــرفة كـــل غريب بدأ الشوق ينازعني لزيارة هذه المنطقة فعرضت الفكرة على الأخ محمود لما له من معرفة بتاريخ هذه المنطقة وسمع عنها الكثير فوجدت عنده نفس الرغبة.

كانـــت العربة تنهب الأرض نهباً عندما وجدت الطريق أمامها سهلاً معبداً لا نتوء

فيه ولا شروخ وهي تسابق الريح ويسابقها ، والسائق يبذل الكثير من الوقود ليزيد من سرعتها في جو غائم لطيف يميل إلى البرودة وأفكاري تسابقها لذلك المكان وأنا أمنـــي النفس بتلك المتعة الروحية التي تنتظرني على سفح جبل صالح وفي أواسط غابــات عــزة متعة روحية من نوع أخر حيث نشاهد الآثار التي خلفها هذا البطل العظــيم وهو يعسكر بجنوده وسط هذه الجبال وبين الغابات التي تملأ جوانبها كل أنــواع الحــيوانات المفترســة ونحرز قصب السبق وننال شرف الأولوية من بين الــتجار الذين سبقونا بعشرات السنين وكان بجانبي صديق الغابة ورفيق الرحلات الأخ محمود وهو يتغنى بالأشعار المناسبة كلما مر بغدير ماء أو مستنقع أو منظراً خلابــاً فســقته يد الطبيعة وما أكثرها ونحن في شرود الذهن وتشتيت الأفكار نعيد ذكــريات الماضي البعيد ونتصور ذلك القائد العظيم الذي هجر وطنه وأهله يجوب كل هذه الفيافي ويخوض التيجان والمستنقعات متحملاً كل المتاعب في سبيل غايته ويخــتار هذا المكان ليكون مستقره ومأواه مع جنود من أجناس مختلفة أغلبها من المرتــزقة وفجــأة تقطع علينا تفكيرنا صوت ضربات خفيفة من على ظهر العربة ليقول قد وصلنا مشارف الجبل فلتقف العربة وترجع إلى مريدي أفرغنا العربة من حمولتها من عمال ومتاع وحمل كل عامل ما يستطيع وتقدم الخبير القافلة ونحن من وراءه علــى حــذر وأسلحتنا محشوة بالذخيرة تحسباً لأي طارئ وآثار الحيوانات تغطي الأرض تسير وآذاننا صاغيه وأحاسيسنا مرهفة ويسود السير صمت رهيب حتى وصلنا جبل صالح الذي يقع وسط جبال أخرى متناثرة حوله وكانت الساعة قد تجــاوزت الواحدة ظهراً واخترنا موقعاً مناسباً لإقامتنا وقام العمال بعملية تنظيف المكان وإزالة الأعشاب تحت الأشجار الكثيفة استعداداً للمبيت وبعد أن أخذنا قسطاً مــن الراحة قمنا بجولة حول الجبل بحثاً عن القلعة التي يكون قد بناها هذا الرجل العظيم ليحمي نفسه وجيشه من غارة مفاجئة من عدو متربص طال البحث فلم نجد أثــراً إلى تلك الثكنات التي قضت عليها السنون المتعاقبة وعفت الأمطار علي كل اثر . لم نعثر علي قطعة من حديد ولا بقية لإناء من فخار فالمطر الغزير والسيول

المـــنحدرة من أعلى الجبال لم تترك أي أثراً حتى لقبور الموتى وقد عاودنا الأمل مـــن جديـــد بعد هذا اليأس بأننا سنجد شئ ولو القليل في يوم غد عندما ندخل غابة عـــزة وحـــل ســـكناها وهي في ابهتها وعظمتها وبين حشمها وخدمها أما قصرها المشـــيد مـــن الحجارة والسور العظيم الذي يقوم حوله أو هكذا كنا نتخيله وبزغت شـــمس الغـــد ومـــلأت الأفق بأشعتها و أخذنا طريقنا وهي لا تبعد كثيراً وتقع من الناحـــية الجنوبـــية من جبل صالح وكان كل من حوله غابة كثيفة ظلماء إذا افرد الإنســـان إصبعه لم يكد يراه من شدة الظلمة وقد استوطنتها الحشرات والبراغيث والأفاعي والحيات الكبيرة أما الحيوانات الأخرى فتنتشر علي أطراف الغابات . أما مـــا يلفت النظر وجود مجري على سفح الجبل وعلى شاطئيه أشجار عالية متصلة الأغصـــان مـــن أعلاها مما يدل على انه كان نهراً جارياً يمد صالح وجيشه بماء الشـــرب ثم توقف عن الجريان بسبب عوامل طبيعية ومن اثر ذلك وجود شجيرات صـــغيرة في وسط هذا المجري الذي لا يزيد طولها عن خمسة أمتار وهي حديثة النمو مما يدل على توقف جريانه لم تمر عليه إلا عشرات السنين ، أما غابتها فغنية بأنـــواع الأشجار المفيدة منها شجر البن وشجر الكمبه نوع يستعمل مع القهوة بدل الهـــبهان وشـــجر الخيزران الذي كان يصنع منه كراسي الجلوس والمناضد وهي تنســـج مـــن أغصانه المرنة وكان مصدر رزق الكثيرين من أبناء الزاندي وبقية القبائل المجاورة حيث يقومون بصنعها وبيعها في الأسواق بأعداد كبيرة ولابد من وقفة أخرى أمام شجرة البن فمن جاء به ومن أين دخل المنطقة وكثرت التساؤلات ولـــم نجد جواباً شافياً أو مقنعاً إلا مجرد تخمين وظن فمنهم من قال إن صالحاً لما كان يعسكر هو وجنوده وأعوانه يكثرون من شرب القهوة فالحبوب المتساقطة قبل أن تمســـها الـــنار بـــدأت في النمو عندما حل فصل الخريف ، وساعدها على ذلك التـــربة والطقس الملائم ، ولما تبين ذلك لصالح وأعوانه اخذوا في بذر المزيد من البذور وتعهدوها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن . وهناك قول آخر بان البن دخـــل السودان عن طريق الكنغو وهذا اقوي الاحتمالين . هنا ملاحظة هامة يجب

الوقوف عندها يقول علماء النبات أن شجرة البن يصيبها العقم أو يقل إنتاجها إذا لم تقلم فروعها بعد ست سنوات من تاريخ ثمارها فكيف ينطبق ذلك على غابات البن داخـــل منطقة عزة الذي فرض عليها المفتش البريطاني حظراً لا يدخلها أحد وأي شخص يجدوا معه كمية بن أو الكومبه أو الفلفل وهي من الأشجار التي تنمو بكثرة وجـــنوا مـــنها الأهالي فوائد كثيرة ببيعها في الأسواق، فمن وجد عنده شيء منها يعـــرض نفسه للعقوبة ، وسبب هذا الحظر وجود الذبابة التي تحمل فيروس مرض النوم وهي لا تعيش إلا في الأماكن الرطبة المظلمة وهذا الجو هو نفس الجو الذي يـــنمو فيه شجر البن والكومبه في غابات عزة مما يضطر الأهالي لدخولها بغرض جنـــي محصول هذه الأشجار لبيعه في الأسواق فيعرض للسعات الذبابة التي تحمل مرض النوم وقد تظهر أعراضه في تضخم بعض الغدد حول الرقبة وهو في طور الحضانة الأولى التي يمكن التغلب عليها أما المرحلة الثانية هو لجوء المريض إلى الـــنوم العميق دائماً وفي هذه الحالة يكون نسبة الشفاء منه تقدر بخمسين في المائة أمـــا في أطواره الأخيرة التي لا يجدي معها علاج هي دخوله في نوم عميق يشبه الغيبوبة وفقدان الشعور بكل ما يحدث حوله وذويه هم الذين يطعمونه بوضع الطعام فـــي فمه وهو يزدرده دون شعور منه ويعطوه الشراب بهذه الطريقة إلى أن يؤدي بحـــياته وقـــد أنشـــيء مستشفى خاص لعلاجه في الأطوار الأولى بمدينه سرسيبو بالقـــرب من انزار وبذلك منع الأهالي منعاً باتاً من هذه الأماكن وقد جندت وزارة الصـــحة أتـــيام تمر على جميع مناطق الزاندي للكشف عن المصابين وكنا نمشي مختارين كلما وجدنا تيماً ونعرض أنفسنا للكشف مع الأهالي لأننا نحن أكثر تردداً ودخـــولاً فـــي مـــثل هذه المناطق خلسة عند فصل جني الثمار فيقلموا فروع البن ويحملونها بعيداً عن أماكن الحظر ويلتقطوا الحبوب خوفاً من أن ينال منهم القانون كمـــا يـــتفادون لسعة الذباب وبعملهم هذا أي تقليمهم لفروع البن يجدد البن نشاطه ونموه بصورة أفضل .

ومـــن الأشجار الأخرى أشجار المنقا والموز بأنواعه والبرتقال والليمون والأناناس

بنوعيه النوع الأول هو النوع المستورد من مناطق الكنغو المختلفة وهو أكبر حجماً وأكثـــر حلاوة وأغني نكهة وقد نجحت زراعته في مناطق جنوب السودان المختلفة حتى في منطقة بحر الغزال وفي مدينه واو حيث حددت له مساحة واسعة وانشأ له مصـــنع تحـــت اسم مصنع تعليب الفاكهة وقد بدأ بداية حسنه لكن عبثت به بعض الأيادي فلحقه التخريب وتوقف عن الإنتاج أما النوع الثاني وما يسمى بالبلدي فهو يخلـــو من الحموضة لا يساوي شيئاً إذا ما قورن بالنوع الآخر وقد أهملت زراعته في السنين الأخيرة وتوسعوا في زراعة النوع الآخر .

وفـــيها أنواع من الأشجار الأخرى التي يمكن توظيفها لعمل الأثاثات المنزلية من حـــيث اللون والنعومة ونسيج طبقاتها وتماسكها في أطوال متفاوتة لا اعوجاج فيها ولا نتوءات .

ومن أشجارها المفيدة البقدي محيط جذعه قد يصل إلى أكثر من مترين كان الأهالي في عهودهم الأولى يصنعون منه ملابس كأردية وقمصان بطريقة حز لحاء الشجر مـــن جوانبه الأربعة ثم تدق دقاً خفيفاً لتتساقط عنه تلك القشرة الخفيفة العالقة على ســـطحه الخارجـــي يكون بذلك قد تحصل على قطعة قماش قابلة للتفصيل والخياط بالإبرة والخيط من القطن ويعطيك لون الكاكي وقابلة للغسيل ولا يصيبه التقلص أو الانكماش مرنة لطيفة في الملبس.

وهـــناك أشجار أخرى تفرز صمغ اللبان لا يختلف عن المستورد كما توجد أنواع أخـــرى فـــي بعض جهات السودان المختلفة كمنطقة جبال النوبة وغيرها وقد تفنن الـــبعض في طريقة الاستفادة منها كبخور دون أن يحتاج إلى وجود جمر ومبخرة فهم يصنعونه على هيئة شمع الإضاءة بعد أن يتوسطه خيط من القطن لإشعال النار فهو يعطيك الضوء في الحجرة كما يؤدي وظيفة البخور .

فـــي مناسبة قبل ذلك ذكرت أن سكان منطقة غرب الاستوائية لا يموت الفرد منهم إذا ضـــل طريقة وسط الغابات الكثيفة من أثر الجوع لان كل غاباتها غنية بأشجار الفاكهـــة كما انه لا يموت عطشاً حتى وان لم يصب ماءاً جارياً أو مستنقعاً فهناك

نبات متسلق يتمدد على فروع الأشجار في شكل حبل يصل سمكه إلى ستة سنتمتر ويحمل في جوفه كمية من الماء ما لا تجده في أي نبات أخر لا رائحة فيه ولا يشوبه لون كماء الأنهار عذباً صافياً يصلح لعمل الشاي والقهوة والشرب أيضاً وطريقة استخراج هذا الماء هي أن تعمل جرحاً بآله حادة على هذا الفرع وعلى بعد واحد متر من هذا الجرح تقطع هذا الفرع وتضع تحته إناء فارغاً فتتساقط المياه وتتقاطر إلى أن تجد كفايتك .

كما توجد بغابات عزة نبات خلوي على شكل نبات البامية شكلاً وثمراً لكنه لا يحمل في جوفه حبوباً حمراء تشبه حبوب الرمان وله طعمه وطعم الكركدي غير انه أكثر حلاوة من النوعين .

فغابات عزة رغم ما تكتنفها من ظلمة وكثافة في أشجارها المتشابكة الفروع والأغصان وجوها الرطب وتكاثر أشجار الفاكهة بأنواعها المختلفة تغري الكثير من الحيوانات إلى اللجوء إليها حيث تجد أمنها واستقرارها .

دخلنا الغابة ونحن نمشي على حذر خوفاً من الأفاعي والحيات الكبيرة كالأصلة وأبو درق من الثعابين وقد تجده ملفوف تحت جذع شجرة أو بين حجرين وأول ما التقينا ونحن في أول الغابة سلطان القرود وهو أسود اللون ناعم الشعر يتحلى ببياض بين كتفيه متواجد بكثرة وهو يميل إلى تسلق الأشجار من أن يمشي على الأرض وله طريقته إذا ما أراد أن ينتقل من شجرة إلى أخرى فهو يلف ذيله الطويل على غصن الشجرة ويرمي بجسمه معتمداً على ذيله ثم يميل شمالاً وجنوباً ثم يثب نحو الشجرة الأخرى فيتعلق بأغصانها وهو قادر على عمل هذه العملية ولو كان يحمل صغيره الذي يمسك بأيديه على بطن أمه إن كان صغيراً وان كان كبير فهو يركب على ظهر أمه ومن أسباب تجمعاته في مثل هذه الأجواء قلة الرواد من الصيادين بسبب المنع المفروض ثم تواجد أشجار الفاكهة وفي متناول صغاره كما يجد في أشجارها العالية حمايته وحماية صغاره من الحيوانات المفترسة كالنمر والذئب وهذا الحيوان هادئ الطبع لا خطر منه جميل المنظر ضحوك يداعب زائره

فـــي غير خشونة ولا شراسة وهو من الحيوانات المحظور قتلها لقلة النوع وندرته والخوف على انقراض النوعية .

وغابـــة عزة عامرة بالنمور غير إنها لا تظهر للعيان بسبب كثافة الغابات ووعورة مســالكها وهو من طبعه ميالاً إلى صيد القرود لان آكلي لحم القردة يصفونه بأنه أجــود أنـــواع اللحوم وألذها وربما النمور تفضله عن غيره لما وجدت فيه بعض الخصائص ولذلك كلما وجدت منطقة عامرة بالقرود أعلم إنها عامرة أيضاً بالنمور ، والنمــر نــوعان نمر الفروع وهو شديد البياض وشديد السواد فاحمه وتكثر فيه الـــنونات (حـــرف ن) المستقيمة جميل الهيئة خفيف الحركة في وثباته يميل إلى تســلق الأشجار والاحتماء بأغصانها ليسهل مراقبة فريسته للانقضاض عليها وهو يقــع علـــى فريسته من أعلى الشجرة ويعمل فيها بأنيابه ومخالبه الحادة مما يجعل الإنسان يعمل له ألف حساب أثناء مروره تحت الأشجار وهو يرفع سن الرمح فوق رأسه خوف مهاجمة النمر ، أما النوع الآخر يسمى نمر الدكة وهو أكبر حجماً من نمر الفروع ولون بياضه يميل إلى الصفرة وقلة نوناته المستقيمة يميل إلى الاختفاء بـــين أغصان الأشجار المتدلية على الأرض أو بين الحشائش الطويلة لا يميل إلى تســلق الأشــجار بسبب كبر جسمه ويختفي في بعض الأحيان في الحفر المهجورة وكلمـــة دكة معناها كوم التراب وهو شرس الطباع يميل للغدر والحيلة ومن أكثر الحـــيوانات حذراً يفر من سماع أي صوت أو يختبئ من طبعه الخوف ولذلك تجد القطيع من القرود لا يرعى إلا إذا أقام حراساً لمراقبة الجهات الأربعة هذه الخصلة لا تـــوجد عـــند الحيوانات إلا الجاموس والقردة فعلى الحارس الحراسة بعين ثاقبة وعـــند شـــعوره بالخطـــر سواء كان مصدره إنساناً أو حيواناً صاح بأعلى صوته وجـــرى فتنبه القطيع . أما لو غفل عن أداء مهمته وأصاب القطيع شيئاً من مكروه فالويل للحارس تقلم فروع الأشجار وتنهال عليه ضرباً وهو يصيح ويستغيث حيث لا مغيث ويلقى عقابه على ما فرط .

قلـــنا إن كـــل شـــئ في غابة عزة تجد فيه اختلاف عن نوعه في الجهات الأخرى

فدجاج الوادي مثلاً يختلف عن ما بغابات عزة فالمعروف في جميع مناطق السودان تجد لونه الأسود ودوائر بيضاء أما في عزة وبعض مناطق الزاندي يختلف فالسواد يأخذ لون ظهري جميل لامع أما الدوائر البيضاء مشربة بخضرة على لون ظهري جميل لامع وعلى رأسه ريش كريش النعام أسود لامع أما لون الرأس وما حول عينيه دوائر رمادية مشربة بخضرة لبنية بهذه الألوان المتجانسة تقودك إلى الاعتقاد ان هذه المخلوقات خلقت لزينة الأرض قبل أن تخلق للأكل والعبث بها . تمر بك هذه الأسراب وتسترعي انتباهك بجمالها وهي تحمل هذه الألوان الزاهية .

الببغاء السوداني

الببغاء طائر معروف لدى جميع الأوساط السودانية بأنه له ملكة تقليد الإنسان وترديد بعض الجمل الكلامية في نبرات يفهمها كل من يسمعها كما توحي نغمات الموسيقى أو صوت الزنبارة وتقتنيه بعض الطبقات العليا والأثرياء من الناس ويحتفظوا به في أقفاص جميلة ويهيئوا له الجو المناسب ليؤنسهم ويؤنس الزوار وهي تقوم بترديد ما يغنون من عبارات على أيد مدربين ويتواجد عندنا في السودان من هذا الطائر بين غابات برقو وبندلا من الناحية الغربية المتاخمة للحدود الكنغولية مع اختلاف في اللون فالمستورد منه يحمل اللون الرمادي أما الموجود عندنا فهو أخضر زرعي ربما اكتسب هذا اللون من تأقلمه وتأثره الموجود عندنا بالطبيعة التي حوله والبيئة التي يعيش فيها حيث كل الذي حوله أشجار خضراء وهي السمة الغالبة على الطبيعة طيلة أيام السنة وربما تغير لونه إلى رمادي إذا عاش بعيداً عن الغابات والمناطق الخضراء مثله كمثل دويبه قريبة الشبه بالتمساح بعد خروجه من البيضة شكلاً وحجماً وتسمى الحرباء وهي بطيئة الحركة أقل كثيراً مما توصف به السلحفاة في سيرها وقد تتعرض إلى كثير من الأذى بسبب هذا العجز ولذلك أعطيت هذه الخاصية لتستطيع تغيير لونها على لون البيئة التي تعيش فيها وكنا نحن لا زلنا صغاراً نداعبها ونأتي بالأوراق الملونة ونضعها عليها ففي دقائق محدودة نجد إنها قد تلونت بلون الورقة ونكرر المشهد مرات ومرات .

كمـــا إننا نشاهد بعض الطيور المهاجرة التي تدخل السودان في أوائل فصل الشتاء كالطائـــر الـــذي نسميه أم قيردون تأتي بلونها الأخضر الذي يميل إلى صفرة ولما يمضـــي عليها أسبوع أو نحو الأسبوع حتى يتغير لونها إلى رمادي وبعض السواد في أجنحتها وبطوق أسود على عنقها والأمثلة على ذلك كثيرة فالببغاء الذي يعيش بينـــنا لـــم يجد من العناية والتدريب حتى نتمكن من الحكم إن كان هناك فارقاً بين النوعـــين من حيث استيعاب ما يلقى عليه وهل هو يملك نفس المقدرة أم لا ولكن بحكم معايشتي لها بين غاباتها وتفننها على الأغصان لا أرى فارقاً بين النوعين إذا وجد المدرب الكفء الذي يوليه العناية مع إن من بين شبابنا الآن من يهوى تربية الطـــيور والعـــناية بها لكنه لم يجد فرصته ليلقى التجارب على هذا النوع لأسباب أمنية حالت دون الوصول إلى تلك الأماكن في وقتنا الحاضر .

بندلا - واستدراجنا إلى الوقوع في الفخ

بموجب الرخصة الممنوحة لمحمود والتي تخول له بمقتضاها صيد ثلاثة من الأفيال فكـــنا نخـــتار الوقت المناسب ونقيسه بمقياس الزمن بالنسبة إلى موسم الهجرة ففي مـــنطقة مـــريدي لا تخلـــو من الأفيال ولكن لكثرة الرواد من حملة الرخص الذين يضعوا في الحسبان قليل الربح مع الراحة خير من الكثير منه مع التعب ولما كان هـــذا ليس من طبعنا وما كان لنا أن نقيس بمقياس الربح والخسارة ولكن كنا نهتم بالمتعة الروحية قبل كل شيء وبعد أن جمعنا مجلس شورى وأنا ومحمود ووضعنا أمامنا خريطة مريدي والأماكن التي دخلناها سواء وراء الجاموس أو وراء الأفيال فلم نجد بينها ما يمكننا من قتل الثلاثة وبالحجم الذي نريده فاستبعدنا منطقة مريدي ووضـــعنا أمامـــنا خرطه يامبيو فاستبعدنا بعض جهاتها وأخيراً وقع الاختيار على مـــنطقة بـــندلا حـــيث نجد الفيل بنوعيه ، نعم هو نوعان نوع يسمى العربي وهو متوسط الجسم تمتاز نوعية سنه بالبياض ناعمة النسيج مما يجعلها تزيد من قيمتها الشرائية ب 20% من غيرها أما النوع الثاني فهو الكنغولي كبير الجسم سنه رفيعة وطويلة يميل لونها إلى الصفرة خشنه النسيج جافة عرضة للتشقق إذا ما تركت في

العراء ولم تغطى بالقش وما دمنا في موسم المنقا فخير مكان نراه مناسباً هي بندلا التـــي تقع على بعد خمسة وأربعين ميل شمال مدينة طمبرة وفي الطريق الرئيسي المؤدي إلى مدينة واو وبموجب جواب زودنا به الأخ إبراهيم أحمد عليه رحمة الله معـــنون باســـم رمضـــان عبد التام التاجر الوحيد بالمنطقة ومن أبناءها يتكلم اللغة العـــربية وهو صديق لإبراهيم أحمد وسلمناه الخطاب وكنا محل رعايته واهتمامه وطلبنا منه أن يختار لنا خبير من أهل ثقته ليسير بنا نحو تواجد الأفيال ونحن نقدم لـــه الأجر المناسب في نهاية الرحلة فجاءنا برجل كبير السن وتم الاتفاق معه على ما سيتقاضاه من مال . جاءنا في الصباح الباكر وهو يحمل معداته كاملة وسلك بنا الطريق الرئيسي لمسافة سبعة أميال حتى وصلنا إلى جسر على نهر صغير واتجه ناحـــية الغـــرب وتجولنا في الغابة فلم نجد أثراً لفيل رجعنا بعد أن أدركنا الغروب ونحـــن نقف على رأس الكبري فقضينا فريضة الصلاة ثم سلكنا الطريق الرئيسي والذي لا زال أمامنا سبعة أميال ونحن نجر أرجلنا جراً من شدة ما لقيناه من تعب فحملنا أنفسنا فوق طاقتها من صبر وجلد حتى وصلنا الدكان ولما شعر رمضان بما لدينا من تعب هيأ لنا حماماً ساخناً بعدها تمددنا على الأسرة وشعرنا ببعض الراحة فســـألنا هل لقيتم الفيل فأجبنا بالنفي فبدت علي وجهه علامات الدهشة والاستغراب وفـــي اليوم الثاني عجزنا عن الخروج للغابة وفي اليوم الثالث خرجنا وعدنا بنفس الـــتعب ونحن نحمل خفي حنين وكاد اليأس أن يأخذ منا مأخذ . وفي أحد الأيام جـــاء رجل في مقتبل العمر مفتول العضلات وجلس أمامنا وبدأ يهمس بكلام علي قـــدر مـــا يســـمعنا خشية أن يسمعه أحد وقال لما رأيت كثرة ترددكم علي الغابة وتعـــودوا صفر اليدين وقد أخذتني الشفقة بكم لأني اعلم نية هذا الرجل يعمل علي تضـــليلكم لأنه يحمل سلاح ناري فكيف يقودكم لمكان الأفيال وأنا أقول لكم الحقيقة إن أردتـــم الأفـــيال فما هي من هنا ببعيد فان رضيتم بي خبيراً واتبعتم نصيحتي فـــإنكم ستجدون أنفسكم أمام الأفيال قبل الساعة الثانية عشر منتصف النهار وجهاً لوجه فبادره محمود قائلا إن صدقت فيما قلت لتنال منا مائة وخمسون قرشا مكافأة

لـك كلمـا أصـبنا فـيلاً أما إن لم نصب فضحك وقال سأكون معكم حتى النهاية وسـتجدوني غداً أمام داري التي تقع على الطريق الرئيسي على بعد ميل ونصف الميل مـن هنا وسأنتظركم على الطريق وكان هذا المبلغ المعروض يعتبر مبلغاً كبيـراً يسـيل إليه اللعاب . قمنا في الصباح ووجدناه في انتظارنا وسلك بنا شرق الشـارع علـى العكـس بما كان يمشي بنا الخبير الأول ولم يطل بنا المسير حتى سمعنا حركة الأفيال ، وتقدمنا قليلاً فإذا بها تمشي متراصة خلف بعضها ، فتباطأنا في مشينا حتى وقفت الأفيال تحت شجرة وكشفنا اتجاه الريح.وتقدمنا وتركنا الخبير وراءنـا ولمـا وصـلنا نقطة معينة وقفنا لإختيار واحد منها وتم الاختيار وأرسلنا طلقتين في وقت واحد فخر أكبرهم صريعاً وانقسمت البقية على فريقين ثلاث منها اتجهـوا نحونا فأرسل لها محمود طلقة تحذير فغيرت اتجاهها واتجه الفريق الآخر نحـو الجـنوب وتقدمنا نحو المصاب وخوفا من أن تكون له بقية على حياة بادره محمود بطلقة في أم رأسه فارتعش رعشة عظيمة سكن بعدها وكانت القاضية وأقمنا معسكراً في المكان نفسه وكان في النية أن لا نمشي وراء الأفيال الاثنين إلا بعد أن ننتهي من تجفيف اللحم وتخزينه عند رمضان مكثنا في هذا المكان نحو خمسة أيام اخـذ محمـود السنين إلى الدكان على أن نجمع بقية اللحم لنقوم برحلة جديدة بحثاً وراء الفيلـين المستبقيين . جاءني خطاب من محمود يطلب مني أن اجمع كل شئ والحضـور إلى بندلا بأسرع فرصة ممكنة وتعرض إلى موضوع الأمن بعبارات مقتضـبة مـن غير توسع والخوض فيها بعبارات صريحة مما جعلني اشعر بان شيء قد جد في الموقف الأمني جمعت كل شئ وأخذنا طريقنا نحو بندلا فوصلناها قـبل منتصـف النهار وبدأ في تفصيل الحادث الذي اضطره لطلب حضوري بهذه السرعة بعد قيامي منك جلست في هذا المكان إذا بعربة لوري تجاري يمر بالقرب مني في سرعة جنونية وتقف على بعد عشرة أمتار نزل منها سائق شمالي ومشي نحـوي فقمت وصافحته وقال لي ماذا تفعل هنا قلت في رحلة صيد قال ألم تسمع بحـادث بشري قلت لم اسمع شيئاً قال جاء إلى نقطة بوليس بشري جماعة في زي

الأهالي وقالوا للامباشي أن أحد الأهالي قد ارتكب جريمة قتل في منطقة قريبة من هــنا والجاني رفض أن يسلم نفسه وطلبوا منه أحد البوليس بسلاحه ليساعدهم على إلقــاء القبض عليه ، ساروا جميعاً يتوسطهم البوليس فلما حانت لهم الفرصة وثبوا علــيه وثــبة رجــل واحد وقتلوه وجردوه من سلاحه وذخيرته حتى ملابسه أيضاً وتركوه ملقي على الأرض وقال لي السائق هيا بنا اركب معنا وشكرت له مروءته واعــتذرت بحجــة إن لي أخ ولا زال بالغابة ولكن لي مطلب واحد بأن تأخذ مني مكــتوباً وتسلمه لإبراهيم احمد يداً بيد وسألته أين يبيت ليلته هذه قال يامبيو نفسها وكتــبت له الخطاب وربما تصل العربة صباح الغد قلت له هذا الرجل صادق في أقــواله لأننا لو قارنا بين أقواله وكلام (م) الدينكاوي الجنسية الذي ابعد عن عمله ربمــا يكــون بســبب نشاطه السياسي وعدم ولائه وإخلاصه ومما يدل علي ذلك اختــياره للعمل التجاري في هذه المنطقة بالذات لبعدها من أعين الرقباء مع التباين الظاهــر بيــنه وبين الأهالي من قبيلة البنقو وهو من الدينكا وليس فيها من العمل التجاري ما يغري ففي مدينة واو أوسع مجالاً واكثر راحة إن كان غرضه تجاري ولا تربط بين القبيلتين أي علاقة لا في الطباع ولا في العادات ولا اللغة ولو نظرنا لكــل هــذه الاعتــبارات ونظرنا إليها نظرة فاحصة يتراءى لنا من خلالها أشياء غامضــة ومؤامــرات تدبــر وهو مكلف بتنفيذها من جهات لا تريد الظهور على المسرح وربما زيارته لنا من قبل أيام تدخل ضمن هذا المخطط بغرض استدراجنا ليوقع بنا في فخ لما سمع بأننا في رحلة صيد الأفيال وفشلنا في الوصول إلى غايتنا لمــدة أسبوع كامل فانتهزها فرصة وعملاً بالمثل القائل (يؤتي الحذر من مأمنه) ظنا منه إننا سنستجيب إلى هذا الإغراء حيث قال إن الأفيال في منطقتنا ترعى على مرأى منا ونحن نجلس أمام الدكان ومما زاد في طمعه وحرصه علي جرنا لمنطقته مــا معــنا من أسلحة هي عبارة عن ثلاث بنادق رصاص وأخرى موريس ونحن اثنــين وكانت الفرصة أمامه سانحة أما أن يقدم لنا خدمة ويعطينا اثنين من أعوانه لــيحملوا عنا السلاحين أو أن يقول اتركوها في الدكان ولا لزوم لحملها معكم وفي

كلا الحالتين خطر على أرواحنا وإلا ما معنى أن يقطع كل هذه الأميال مشياً على الإقـدام ليدعونا للصيد في منطقته وهو يحمل سلاح ناري 375 مقنم يصلح لصيد الأفـيال واذا قدر له أن يخلص منا ويستولى على هذه الأسلحة إضافة إلى سلاحه كافية لقطع الطريق ما بين طمبرة و واو بعد أن تجمع حوله عصابة من المرتزقة ويـنال منه مرتبه من رؤسائه ربما يمدونه ببعض السزج من الأهالي ولو أسلحتهم قوساً وسهاماً قال محمود وقع في خاطري كل ما ذكرت في نفس الوقت الذي كان يعرض فكرته مع إصراره الشديد مما يوحي بان وراء كلامه هذا خطة مدبرة كلف بها أو من بنات أفكاره لكنه قد غابت عنه أشياء لم يضعها في اعتباره هي أولاً يعلم مدة وجودي بين هؤلاء الناس أكسبتني كثيراً من الخبرة من ناحية نواياهم واعرف حسن نية المرء منهم وسوئها مجرد أن يفتح كلامه أما الفخ الذي نصبه وكان يعتقد إننا من السذاجة بمكان حتى نصدقه فيزدردنا لقمة سائغة كما غاب عنه اعفته الغابة لـم يضـع فـي حسبانه أننا خرجنا من دائرة المدن وقطعنا مئات الأميال ودخلنا الغابات وهي موطن الخوارج والمتمردين واضعين نصب أعيننا المواجهة المحتملة فـي أي لحظة ونعلم تمام العلم إننا هدفهم المقصود وضالتهم المنشودة ننام الليالي الطوال في العراء بين الأحراش معتمدين علي الله سبحانه وأسلحتنا وعزيمتنا وهذا شأننا منذ أن قامت الفتنة وامتلأت الغابات بالخوارج والمرتزقة لا نتهيب اللقاء بهم ولا نخشـاه بما اكتسبنا من مهارة في الرماية تمكننا من إصابة الهدف ليلاً كان أم نهاراً فهم الذين يعملون لنا ألف حساب قبل أن نعمل لهم حساباً واحد فقلت يكفيه انه ذهب وهو يجرجر ثوب الندم ويعض أصابعه من الحسرة إذا وجد نفسه أمام من لا تلين شكيمتهم ولا ينقادون وراء الوعود البراقة . هذا وقد جاءت العربة و أقلتنا إلى مـريدي . ووجـدنا الخبر قد شاع وملأ المدن والقرى وقد قابلونا بالتهاني وبدعوا يسـألونا كيف كان سفركم فقلنا الأمر جد بسيط لأننا كنا نتوقع مثل هذا الموقف في كل رحلاتنا فما كنا نشعر بشيء غريب.

حواشي الفصل الخامس

1- مريدي MARIDI الموقع E ٢٨ – ٢٩ من مراكز غرب الاستوائية
N ٥٥ – ٤

2- كــتاب الزاندي هي رسالة الدكتوراه التي أعدها الدكتور محي الدين صابر ونال به درجته العلمــية بالجامعــات الفرنســية في علم الانتروبولوجيا . وقد ترجمت الرسالة إلى اللغة العربية وأضاف إليها المؤلف بعض المباحث وحذف بعضها لتناسب القارئ العادي. والدكتور محي الدين صابر المدير السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وتولى أيضاً وزارة التربية والتعليم وهــو فــوق ذلــك عمــل بالصحافة بجريدة الزمان وسياسي دخل البرلمان عن الحزب الوطني الاتحادي بدوائر أهله النوبيين بشمال السودان وهو من رجالات الحركة الوطنية وصاحب نشيد المؤتمــر " صرخة أروت دمي " تقاعد مؤخراً واستقر بمنزله بالصافية بالخرطوم بحري (توفي لرحمة مولاه) .

3- عربــي دفــع الله من التعايشة وتربطه صلة قرابة بالخليفة عبد الله التعايشي وكان من أمراء المهديــة ثــم عين أميراً على الاستوائية ومركزه الرجاف عام 1890م خلفاً لأبي قرجه وقد دافع عربــي دفاعاً قوياً عن حدود السودان الجنوبية إبان غزو البلجيك بقيادة أمين باشا ولكنه هزم في عــام 1897م وتــراجع إلى دارفور وإنضم إلى قوات علي دينار واستمر معه حتى عام 1916م وسقوط مملكة الفور وقتل بها .

الفصل السادس

البلبل

كنت مستلقي على فراشي في حوالي الساعة الخامسة صباحاً وقد انتشر ضـــوء الفجـــر ونحـــن على سفح جبل صالح لفت نظري صوت طائر يغرد بين أغصان الشجر وتذكرت قصيدة احمد شوقي أمير الشعراء في مطلعها :-

صداح يا ملك الكنار ويا أمير البلبل

قد فزت منك بمعبد ورزقت قرب الموصلي

قرأت عن البلبل وسمعت عنه الكثير دون أن أراه أو أن اسمع تغريده الذي يوصف بأنه يلعب بالألباب ويأخذ بمجامع القلوب وأنا على ما أظن الوحيد الذي لم يجد فرصـــته للتمـــتع بهـــذا اللون من التغريد الذي ذكره الشعراء والأدباء والعشاق في أشـــعارهم وبالغـــوا في إطرائه والثناء عليه وعلى ما أظن أن البلبل لا وجود له في شـــمال ووسط السودان بسبب جفاف الطبيعة وصحاريها الرملية مما يخالف بيئته التي تلائم حياته ووضعت كل اهتمامي بان أراقبه حتى طلوع الشمس لأرى هيئته فتبين لي إنهـــا طيور تعيش في شكل جماعات فحجمه كالقمري رمادي اللون لامع الريش يميل إلى زرقة لامعة يجر وراءه ذيلا طويلاً وهو يعيش بين أشجار الفاكهة ويقابل الصباح بالتغـــريد في موسيقي هادئة حالمة وفي نغمات شجية فما سكنت مجموعة إلا وجاءتها مجمـــوعة أخـــرى ولها مواقف ومقاطع تقف عندها قليلاً تبدأ من جديد مما يزيد من روعـــة الإيقاع لا ادري إن كان هذا هو البلبل المعني أو من أشباهه من حيث التغريد والـــنغمة فان لم يكن هو فهو جدير بهذا الوصف إن لم يكن بالاسم وقد ورد ذكره في كثير من شعر الغزل أو شعر السادة الصوفية حيث قال أحدهم :

أما تنظر الطير المقفص يا فتى إذا ذكر الأوطان حن إلى المغنى

يفرح بالتغريد ما بفؤاده ويطرب أرباب العقول إذا غنى

وهي إشارة إلى البلبل غير خافية ونعته له بهذا الوصف لا ليذكره بمجالس الطرب والغناء بين الخرد الغيد وهم يعاقرون بنت الكرم بل هم فوق ذلك وابعد بل غرضهم مـــن هـــذه الذكرى ذكرى مجالسة مع ليلاه التي يراها في خياله ويسهر من اجلها

الليالي الطوال عله يجد منها نظرة تفرح عنه ما يلاقي من شوق وهيام وما ليلاه إلا الذات الإلهية ، هذا وقد سمع من الطير الحبيس بين أقفاصه بما سمع فكيف لو سمع منه وهو حر طليق يتغنى كما شاء وبما شاء بين الأغصان اليانعة والمروج الخضراء وهي تسحر الألباب وتأخذ بمجامع القلوب ربما طار صوابه وخرج عن كليته ودخل وادي الهيام وجادت قريحته بقول قد يتخطى حد المعقول كما قال شاعرها :

ولا تلم السكران في حال سكره   لقد رفع التكليف في سكر عنا

فهو لا يقصد السكر الذي ينتج لتعاطيه الخمر المعروف لدينا فلا شك انه أي من المخمور مطالب ومؤاخذ بكل عمل يأتيه أما السكران نتيجة خمر وهمية معنوية تجرده من معقوليته ويقع في ما تراه أو تحسه شيئاً يستحق المؤاخذة فهو يري أن هذا العمل لا لوم عليه قد يراها البعض من الناس إنها حالات فيها الخروج من الدين ويراها البعض الآخر إنها مرتبة عليا من مراتب الدين قد قصر دونها من يقول بالرأي الأول .

نساء يدخلن التاريخ

إن أبواب الشهرة أمام المرأة العربية أو المستعربة كانت موصدة منذ أقدم العصور بسبب وضعها الاجتماعي حيث مجالها المحدود ويقتصر دورها في إدارة البيت ورعاية الأسرة والعناية بالزوج وتربية الأطفال وقد حافظت على هذا المستوى راضية أو مكرهة كان ذلك قبل أن يعرف القرن الواحد والعشرين الذي أطل برأسه وهو يحمل في طياته مدنية غريبة استهواها بريقها وأحدث الكثير من التعديلات في حياة المجتمع فوجدت فرصتها في التعليم والظهور في كافة الميادين وقد عم كل دول العالم ، منها ما دخلته راضية ومنها ما دخلته مكرهة فالسودان كجزء من هذا العالم المتغير دخل هذا المعترك فيما بعد النصف الأول من القرن العشرين أما النساء اللاتي نلن الشهرة قبل ذلك يعتبر عمل اقتضته الضرورة كالحروب الأهلية والقبلية عندما كان حكم الغاب هي السمة الغالبة علي حياة الناس وكان دورها

تشـــجيعي وحث الرجال على الصبر عند ملاقاة العدو أمثال مهيرة بت عبود وبت مسيمس أما دور تاجوج كان عاطفي وكاد جمالها أن يوقع القبيلة في حروب ، هنا لابـــد مـــن الإشارة إلى الملكة آمنة حيث كان دورها قيادي بحكم إنها زوجة المك خوجلـــي أحد ملوك الفونج على جبال جنوب شرق وسط السودان وكانت تشاركه إدارة المملكة ولها مقابلات ولها مكانتها في مجلس الشورى وهذا الدور الذي لعبته إبان حكم زوجها مما أوجب اعتقالها في عام 1918م إن لم تخونني الذاكرة على يد الاســـتعمار وقـــد حملـــتها باخرة كانت مخصصة لمديرية النيل الأبيض وقد ألقت مراسيها في رصيف الكوة وقد شاع الخبر بان الملكة آمنة جئ بها في هذه الباخرة وكنت يافعاً في السنة الأولى الابتدائية من كلية غردون لعب حب الاستطلاع دوره فصـــممت علـــى أن أراهـــا ودخلت الباخرة وكانت تجر معها صندلاً وبالقرب من الدرجات التي تؤدي إلى اعلى الصندل شاهدت امرأة تجلس على سرير وبين يديها صـــبي تداعبه امرأة أعطيت شئ من الجمال متوسطة الطول غير بدينة تمسك في يـــدها سبيب من الزراف أو من ريش النعام له مقبض من الذهب الخالص تستعمله لطرد الذباب لم أجد حولها إلا خادمة واحدة .

وبعد أن قدمت هذه النبذة اليسيرة عن بعض نساء شمال الوادي وجب علينا أن نعطـــي المـــرأة في جنوب الوادي حقها فلنبدأ بمديرية أعالي النيل عندما تسير بك الباخرة أو المركب الشراعية نمر علي ارض رملية نظيفة يسكنها خليط من الشلك وقبـــيلة ســـليم وأولاد حميد كانت كاكا البلد معروفة لدي التجار منذ العهد التركي عندما كانت التجارة على ظهور المراكب الشراعية فما هو دور كاكا المرأة دورها الحقيقي إجادتها للغة العربية وما تحمل هذه المراكب من بضائع مختلفة منها الحديد المصـــنع والأقمشة والخرز والملح وأشياء كثيرة أخرى وسكان المنطقة من الشلك فمـــن هـــنا بـــرز دور كاكـــا حيث تقوم بدور المترجم ولما كان البيع عن طريق المقايضـــة فلابد من اخذ ورد حتى يتم الاتفاق فكانت تقع على عاتقها مسئولية كل ذلـــك خصوصـــاً فـــي فض المنازعات وتهدئة الخواطر وتلطيف الجو بين الشلك

والتجار القادمين حاول الاستعمار كثيراً لتغيير هذا الاسم العربي لكنه لم يفلح ولما عجــز أضاف إليها كلمة التجارية فكانت تسمى كاكا التجارية وسرعان ما تلاشت كلمة التجارية وأصبحت كاكا مجردة.

وهناك امرأة أخرى اسمها نصرة وكانت تسكن على شاطئ نهر سوباط مع بقية أســرتها ولمــا كانت المراكب الشراعية المحملة بالبضائع تمخر عباب النّهر حتى تصــل إلى حيث تسكن نصرة لتؤدي دورها كمترجمة في منطقة يسكنها النوير ، ولمـــا النويــر يعرفون بالأنفة والشعور بعزة النفس ولا يرضى الضيم فكانت هي لمكانتها عندهم لقيامها بحل المشاكل وتتدخل في حالات البيع والشراء لكن لم يبين لــنا الــتاريخ من أي قبيلة هي أو من أين جاءت ويغلب عليّ الظن إنها من اصل شــمالي وربما ترجح بعض الروايات إنها من صعيد مصر وبعد انتهاء مدة خدمته جــاء بها إلى وطنه ولما جاء الحكم الثنائي ووجد هذا الاسم الذي حاول أن يمحوه لمــا يحملــه مــن اسم عربي وجد في ذلك صعوبة لكنه استطاع أن يبدله من اسم التأنيث إلى اسم التذكير فأطلق عليها اسم الناصر وهو المركز المعروف للان .

خور زينب

عــندما دخل الاستعمار جنوب السودان ولا أريد بجنوب السودان ككل إنما أشير إلـــى منطقة أعالي النيل إذا استثنينا منطقة الشلك الذي أذعن لحكم الدخيل حيث من طبعه المسالم واختلاطه من اقدم العصور بالشماليين أما المستعمر فقد لقي صعوبة في إخضاع النوير فكانت طبيعة حياتهم لا ينقادون إلى حاكم ولا لرئيس قبيلة فكل رجــل هو الحاكم في أهله كلما كثر أبناؤه فهو سيد الموقف ومهاب . ولما كانت قبائل النوير في فوضى تسيطر عليها شريعة الغاب القوي يأكل الضعيف والإنجليز يعــرفون كل ذلك ولا حيلة لهم ولا يريدون أن يضحوا بأحد من رجالاتهم فيتصلوا بالــتجار ليؤدوا دور كبش الفداء فيعلنوا عن منطقة كذا قد أصيبت بمجاعة وتحتاج إلى كمية من الذرة لإنقاذها من المجاعة أو تخفيف وطأتها فعلى كل تاجر يريد أن يقــوم بهذه المهمة الإنسانية أن يتقدم لسلطات المديرية بطلب مبيناً ما لديه من ذرة

والحكومة غير مسئولة عن حياة التاجر أو ممتلكاته وبعد أن يؤدي التاجر دوره المحفوف بالمخاطر فمنهم من تحلو له الإقامة ومنهم من يرجع وفي العام الثاني يصل المفتش المعين بعد أن وجد الاطمئنان هذه باختصار عملية الاستدراج التي تتبعها الحكومة فان قتل التاجر مثلاً اتخذتها السلطات ذريعة للتدخل في حملة تأديبية كما يسمونها وان استطاع التاجر عيشة بسلام جاء المفتش ليقول للتاجر بكل عنجهية (دا البلد بتاعي وأنا عايزك هنا) .

ولما كانت لغة النوير غير منتشرة بين أوساط التجار بسبب نفورهم من هذا الدخيل وتقوقعهم على أنفسهم فلا بد لمتحدث ليقوم بدور المترجم . وفي مرة ظهر الإعلان الكيدي يشير إلى منطقة حوض نهر الزراف وبما أن حوض نهر الزراف واسع وسكانه من قبيلة النوير ولهذا النهر رافد يخترق المنطقة متعرجاً بين قراها وحلالاتها هذا الرافد يحمل اسم خور زينب ولا زال يعرف بهذا الاسم هي حلقة الاتصال بين التجار والنوير الذين يعيشون على بدائيتهم لا يعرفون كلمة واحدة عربية فكانت زينب خير رسول تؤدي وظائف عده والى وقت قريب كانت المراكب الشراعية هي الوسيلة الوحيدة لنقل البضائع عبر هذا الخور قبل انتشار العربات .

إقليم بحر الغزال

هناك ميناء على نهر الجور يطلق عليه اسم مشرع الشول لهذا المشرع تاريخه القديم وزاد من شهرته عندما مر به الزبير باشا في العهد التركي وأعوانه أمثال كركساوي وعربي دفع الله وغيرهم ممن بسطوا نفوذهم على تلك المناطق حتى حفرة النحاس وديم زبير في أقصى الجنوب الغربي من مدينة واو ولا زالت ذكراهم وآثارهم شاهدة لهم بالدور الحضاري الذي قاموا به وانتشار اللغة العربية ودخول الإسلام في تلك المناطق يرجع الفضل في كل ذلك إليهم ولما جاء الاستعمار وأراد تشويه سمعة هؤلاء الرجال عمد إلى إلصاق تهمة تجارة الرقيق بهم وأضاف إلى اسم المشرع كلمة الرق وسماه مشرع الرق هذا الاسم لم يخطر على بال أحد من الشماليين وإنما هو من عند المستعمر الذي أراد تشويه دور

الشـــماليين ويقلل من عملهم البطولي والحضاري الذي نقلوه إلى تلك البقاع النائية إذن هي كيد الاستعمار والاسم الأصلي المعروف به هو مشرع الشول وكانت محل احترام كل زائر ودورها هو دور المترجم بين قبائل الجور والدينكا والبنقو .

نساء يدخلن التاريخ في منطقة مريدي

أمـــا في إقليم الاستوائية فدور المرأة يختلف عن دور اللائى سبق أن تحدثت عنهن وكان دورهن قيادي وهو من أصل زاندي والذي حصل يعتبر انقلاب وتطور غير معهـــود بالنسبة إلى ما كان عليه وضعها الاجتماعي في سابق عهدها وهذا الحديث يجـــرنا للـــبحث عن أصل الزاندي وهذا ما ليس في استطاعة أمثالي لان مثل هذه الـــبحوث علـــم قائم بذاته يدرس في الجامعات ويحتاج إلى مؤهلات خاصة وله ما وراءه مـــن شـــقاق ومتاعب وقد تعرض الدكتور محي الدين صابر لكل ذلك أثناء بحـــثه عن تاريخ هذه القبيلة ودخل الغابات ولا شك أن مهمته كانت شاقة وعسيرة وأول عقبة تعترضه جهله باللغة وثانيها حياته المعيشية في مجتمع بدائي يأكل لحوم الفئران ولحوم الميتة وهو الرجل الذي قضى حياته طالباً في السودان ومصر وفي خارجهـــا في البلاد الأوروبية التي تختلف اختلافاً بيناً في حياة الغابة وقد قابل كل ذلـــك بعـــزم الرجال وذلل كل الصعاب وتعلم اللغة وضحى بالكثير من ماله ووقته واتصل بالرجال المسنين واستسقى معلوماته وبنا عليها بحثه على أصول ثابتة وان استعان ببعض المراجع الثبوتيه من بعض ما كتب في هذا الشأن على أيدي أجنبية حتى خرج البحث مستوف لكل ما يحتاجه طالب علم أو طالب بحث أو طالب بحث تحت اسم.

فأنـــا بدوري الفت نظر القارئ الكريم لهذا الكتاب إن أراد الاستزادة ولي الحق أن أقول انه الشخص الوحيد من السودانيين والأجانب(1) ممن كتبوا عن تاريخ السودان بحق حيث استقى معلوماته من مصادرها الحقيقية مدعومة بأدلة وبراهين لا يتطرق إلـــيها الشـــك ولـــم يطلـــق عنانه للخيال أو التفكير في إدخال شيء ليس له صلة بالموضـــوع أو وقع في المظان ولذلك أقول انه كتب جزء من تاريخ السودان أما

الـــذين تطـــرقوا لهذا الأمر وأسموه مجازاً تاريخ السودان وما هو بتاريخ السودان وكـــان من رأيي أن يسموه مراحل الحكم في السودان أو حياة الشعب السوداني منذ العصور القديمة فتاريخ السودان لازم يبدأ أولاً بعلم الأجناس وكيف تواجدت وكيف اتحـــدت وكيف كونت لغتها الخاصة ومعاملاتها مع جيرانها وعاداتهم وأنا إذ أورد هذا نتيجة حيرة عندما أفكر في سكان السودان الأصليين وممن سكن منهم الجنوب خاصـــة ، فـــان أردت أن أشرك القارئ معي في هذه الحيرة خذ مثلاً سكان جبال الـــنوبة مـــنطقة تالـــودي وهي تعتبر مركز تجمع أكبر عدد من قبائل النوبة وهم يسكنون جبال متقاربة من بعضها وقد اختلفوا في العادات واللغة وطرق حياتهم فما معنـــى ذلك هل كل جبل جاء من منطقة مغايرة وجاءوا بعاداتهم وبلغتهم ومن أين جاءوا ومن الغرائب إن الكثير من هؤلاء الأجناس يبدأ اسمهم بحرف الكاف(2) مثلاً (كـــندرمه - كـــروراك - كلكـــده) وغيرها كثير وبعد رد هذه الفروع إلى أصولها بالبحث الدقيق هي وغيرها من بقية القبائل يمكن أن نقول هذا هو تاريخ السودان . أظـــن القلم قد استرسل وانحرف ناحية ودخل في متاهات وهو لا زال يريد التادي غيـــر أنـــي آثرت كبح جماحه والرجوع إلى ما نحن بصدده عن نساء في الجنوب يـــدخلن التاريخ . كان المقر الأول لمملكة الزاندي نسميها مملكة لأن كلمة سلطان خلقها الاستعمار على طمبرا وهو الجد الأول الذي استقر في المنطقة المعروفة بهذا الاسم جنوب واو وكان كلما ولد ولداً وبلغ مبلغ الرجال جعله والياً على منطقة ولها حـــدودها وإداراتهـــا الخاصة وهو المسيطر على كل جزء منها يحكم فيها بما شاء وعلـــى ذلك كل السلاطين في هذه المنطقة هم من سلالة العائلة المالكة التي مقرها طمبـــرا إلى يومنا هذا وعندما جاء الاستعمار لم يستطع أن يغير من هذا النظام أو أن ينال منه وعندما وجدت المرأة حريتها بعد أن كانت كما مهملاً تنفست الصعداء وبـــدأت تنظـــر إلى الحياة نظرة تختلف عما كانت عليه المرأة في عهودها السابقة وتطلعت للمزيد رغم أميتها وعدم تعليمها فقد دخلت في أول تجربة لها عندما خلا كرســـي الرئاســـة في منطقة المندو بوفاة السلطان سعيد خلفه ابنه السلطان مزيكة

مكــث فيها مدة من الزمن ثم وافته المنية عرض المنصب بعد ذلك إلى أخيه الذي كــان يشغل وظيفة حكومية فرفض التخلي عن وظيفته الحكومية فاختاروا أختاً لهم تسمى بثينه وعينت سلطاناً وهي الآن تقوم بمهام الرئاسة خير قيام تترأس المحاكم وتصــدر أحكامهــا مــن غير خوف ولا وجل وهي محبوبة من شعبها ورؤسائها ورصــفائها من السلاطين الآخرين ولما لم يمر على تعينها كسلطانة إلا شهور قلة حتــى خلا منصب آخر بموت السلطان موسى الذي خلف أباه السلطان انجيما الذي كــان سلطاناً على هذه المنطقة المسماة باسمه وهي تبتعد كثيراً عن مركز مريدي وبعــد أن وافت المنية السلطان موسى اختار الشعب بالإجماع أخته سكينه لكرسي الرئاســة وهــي تؤدي عملها بكل حزم واقتدار وأثبتت أن المرأة جديرة بأي عمل يــوكل إلــيها ولا تقــل عن الرجل بحال من الأحوال وإجماع الرجال على اختيار المــرأة لقــيادة الــرجال وتوليها وظيفة حكومية كهذه إنما يدل دلالة واضحة على الوعي الكامل الذي انتشر في أوساط الجنوبيين .

الهجليج

قبل أعوام بثت الإذاعات المختلفة من جميع دول العالم المتقدمة في مجالات العلــم المختلفة وجندت كل وسائل إعلامها المرئية منها والمسموعة والمقروءة بأن هــنالك خطــراً يحيق بجميع الدول النامية من مجاعات قد تفتك بالإنسان والحيوان والغــرض من هذا كله لفت نظر الدول المعنية لتلافي هذا الخطر المحدق مما حدا ببعض الدول لمنع قطع الأشجار والمزيد من غرسها وزيادة الرقعة المزروعة من الأرض كغابات وتشديد الرقابة عليها وصونها مما يعوق نموها ومما لا شك فيه أن السودان يعتبر في مقدمة الدول النامية المعنية قبل كل شيء بأن تفتح أعينها لترى مــا يهدد كيانها ويعمل بجد واجتهاد لدرء المخاطر المتمثلة في الزحف الصحراوي مما اضطر الحكومة لعمل تجارب حول مدينة الخرطوم وغرس نوع من الأشجار ليقــي المديــنة من الأتربة والأعاصير التي تهب فتقلق سكان العاصمة فأقاموا ما أســموه بالحزام الأخضر لكن القائمين بأمر هذا المشروع لم يعيروا نوعية الشجر

المغروسة أهمية ربما اعتمدوا على الخبراء الأجانب ولم يكن للعلماء من أبناء السودان دور فيه لأن لو لعلماء السودان يد أو كلمة مسموعة لاختاروا شجر الهجليج كبديل لهذا النوع الذي يؤدي وظيفة واحدة هي تلطيف الجو ومنع تحركات الرمال وبقليل من التفكير لو استبدل بشجر الهجليج وما يحويه من فوائد قد لا نجدها في أي شجرة تنمو محلياً أو مستوردة فشجرة الهجْليج كلها فوائد فماذا تعلم عنها ، امسك أولاً ثمرة اللالوب وقد دلت التجارب وبعد أن خضع للتحليلات اللازمة ووضع تحت المختبرات العلمية اثبت انه علاج للبلهارسيا في أطوارها الأولى وقد بدأ الاستعمار اهتمامه بهذه الشجرة وأمر بعدم قطعها والتوسع في زراعتها كان ذلك على أيامه الأخيرة وكانت البلهارسيا من الأمراض المستوطنة مثلها مثل الملاريا خصوصاً في منطقة الجزيرة المروية وشواطئ النيل الأبيض والأزرق لتواجد القواقع والمحار الذي تعيش عليه هذه المكروبات وتساعد على انتشاره الذي أودى بحياة الكثيرين من شباب هذه المناطق مما اضطر الحكومة بإقامة مستشفى أبو عشر وزودته بمصل الانتيمون ولثمر اللالوب فوائد أخرى تجميع الطبقة الحمراء ووضعها في قربة تباع في الأسواق الشعبية بواسطة العرب الرحل الذين يقومون بجمعها وحفظها وتسمي (السرنا) وأكلها يساعد كثيرا في عملية الهضم ومن الملينات لطبيعة الإنسان كما انه علاج لمرض الدسنتاريا بعد بل كمية منه في الماء ومزجها ويشرب منقوعها في الصباح ، ويقتل الكثير من أنواع الديدان في المعدة هذا ما يتعلق بثمرة اللالوب من خارجها فلننتقل لداخلها بعد كسر قشرتها الصلبة وغلافها السميك نجد حبه أشبه باللوز أو حبة الفول السوداني يطلق عليه اسم الدملوج ولهذا الدملوج فوائد منها علاج يسميه الطب بقرحة المناطق الحارة أو ما شابهها وكل قرحة في الجسم يصعب برؤها بأن يحرق كمية منها ثم تطحن إلى أن تصير عجينه وغسل الجرح بالماء الساخن ثم وضع العجينه عليه فلم تمر فترة حتى يبرأ الجرح تماماً ، ومن فوائده بعد غليه علي النار لإزالة المرارة التي يحتويها لان مرارته كمرارة الترمس وهو يؤدي نفس وظيفة الترمس بعد غليه

يعرض على حرارة الشمس ليجف ويؤكل كتسالي سريع الهضم ويساعد كثيراً في إزالـــة سوء الهضم وتنشيط المعدة خصوصاً إن أكله مع البلح يعطيك وجبة كاملة ولهــذه الحبة فائدة أخرى اكبر مما ذكرنا وهي احتوائها علي كمية من الدهن مما يـــزيد عمـــا تحـــتويه حبة الفول السوداني بجميع أنواعه ويستخرج زيته في وقتنا الحاضـــر بطريقة بدائية وهو حرق كمية منه حيث يصل إلى درجة حرق البن في استعمال القهوة ثم يطحن حتى يصير عجينه ثم ينزع الزيت بواسطة اليد هذا الزيت رغـــم تعرضه للتلوث والأتربة يعطيك زيتاً حقيقياً يمكن استعماله في جميع اوجه الطبخ ويقال انه من أجود أنواع الزيوت المستخرجة من الحبوب الزيتية إذا استثنينا زيـــت الزيتون أو السمسم فهو أجود بكثير من زيت الفول أو زيت البذرة . أما لو وجـــد العناية الكافية واستخرج زيته بواسطة المعاصر الحديثة لأصاب الكثير من الـــزيوت بالبوار المنتج محلياً أو مستورد وسيأتي اليوم الذي يجد فيه الدملوج سوقاً رائجـــة مادام أوجدت معاصر حديثة لاستخلاص زيت عباد الشمس فدور الهجليج ســـيجيء قـــريباً ونكون قد وصلنا إلى درجة الاكتفاء الذاتي واستغنينا عن استيراد الـــزيوت المســـتوردة بعد أن نوظف بعض الأنواع لصناعة الصابون وسنجد من مشـــتقاتها نوع من السقدة كعلف لتسمين الماشية وبعد ذلك لابد من إلقاء نظرة علي الشجرة الأم ما فيها من منافع فمن خشبها تصنع الكراسي التي يطلق عليها كراسي الخيـــزران وهي لا تمت إلى الخيزران لا من قريب أو من بعيد ولازال هذا النوع صـــامداً أمام هذا التحدي بعد أن عملت المصانع علي هيئته من الحديد والبلاستيك ولـــو القيـــنا نظـــرة عامـــة علـــي أثاث المنزل الحديث تطالعك الأسرة والترابيز والطقاطيق المخروطة وفي أشكال جميلة وكلها من خشب الهجليج وهي تحف فنية تغنـــي عن المستورد وأنا لا أفي لهذه الشجرة حقها إذا لم اذكر إن اللحاء الخارجي مـــن هذه الشجرة تؤدي وظيفة الصابون في غسل الثياب وقد كانت تستعمله العرب الـــرحل حيث لا يتوافر الصابون وهو يقوم بتنظيف الثوب مهما علق به من مواد دهنية ويغير لونها من كثرة تراكم الوسخ حتى تصل بلون الثوب إلى درجة السواد

ولا يحـــتاج منك لكبير عناء بل تفصل قطعة اللحاء وتضعها في إناء تصب عليها الماء المطلق وبعد قليل ينظف الثوب وليس لديه رائحة كريهة كما لبعض الصابون الـــذي تخرجه مصانعنا والرائحة الذي تلازم الثوب مما تشمئز منه نفس الكثيرين وكان يسمونه (صابون الفقاري) أي في متناول يد كل فقير وقد يقول قائل انك قد أطنـــبت في ذكر هذه الشجرة ووضعتها فوق كل أنواع الأشجار الأخرى فهل من مـــزيد أقول نعم إن صفقة الناعم الذي ينمو عند مبادئ فصل الخريف يصلح لعمل ادام للعصـــيدة ويقوم بوظيفة الملوخية والبامية وتعطيك طعم لذيذ كما انه يقول من ثمـــر اللالـــوب يستخرج أجود أنواع الخل الذي له دوره في الموائد بين الطبقات الميســـورة الحال وأنا لا أدعي بان ما رويته هنا عن هذه الوصفات نتيجة أبحاث علمية بل اعتماداً على التجارب ومن وصفات الدواء التي يقدمها الطبيب البلدي .

أظننـــي قـــد أعطـــيت هـــذه الشجرة حقها على قدر المستطاع من الناحية المادية فالـــواجب يقضـــي أن ننظـــر إليها من الناحية الروحية فيما اغلب سكان السودان يتـــبعون الـــدين الإســـلامي علـــي تعدد طوائفه واختلاف مشاربها وتعدد المشايخ الصـــوفية كـــل علي حسب اجتهاده وتفقهه في الدين يهيء السالك في السير علي الطـــريق القـــويم بذكر ما يسميه الأساس في الطريقة بأعداد معينة صباح ومساء ومـــنها القـــيام بالليل ودخول الخلوات والتفرغ للعبادة والوسيلة الوحيدة التي تقوم بضـــبط الأعـــداد هي المسبحة الألفية ووجدوا في اللالوب ما يضعونه بأنه سريع الإجابة مما ذكره الكثيرين من شعراء الصوفية وجعلها اقرب المسالك لبلوغ السالك مراده و أطنب في مدها وعلو كعبها بالأخذ بيد السالك نحو غايته ومراده وقد تبوأ منهم كرسي الولاية العالية بسبب هذه اللالوبة .

وفائـــدة أخيرة أضيفها هي الغلاف الصلب الذي يضم البذرة وبعد استخراجها ففي هذه الأجسام الصلبة تصلح وقوداً لعواسة الكسرة بدل الخشب والفحم .

أمـــا الحـــث على التوسع في زراعة هذا النوع من الشجر لهي ضرورة تقتضيها المصـــلحة العامـــة بعد أن كان تخلو بعض الأقاليم بعد أن كانت عامرة بهذا النوع

واختفت عن الوجود بسبب سوء الاستعمال وفي غفلة من مصلحة الغابات .

وأنـــا أرى بعملـــي هذا قد تطاولت كثيراً على حقوق هيئة الغابات التي هي جهينة الحقائق لم تترك شاردة ولا واردة إلا بحثتها بحثاً وأصدرت توصياتها وملاحظاتها لكنها لا زالت حبيسة الأدراج وعلى أرشيف المصلحة لم تجد فرصتها لترى النور لا تقصير منهم في واجباتهم وإنما لأسباب أخرى خارجة عن إرادتهم وأنا إذ عمدت لهـذا الشـــرح المســـتفيض لهذه الشجرة وخلافها لا لشيء إلا إثارة حفيظة بعض القائمين على هذه البحوث للرد على ما كتبت في أي خطأ ارتكبته ووصف وحقيقة دون قصد لتصحيح المسار وتعميم الفائدة .

ولا يفوتنـــي هنا أن أذكر هذه الواقعة في عام أو أعوام أقيم معرض زراعي بمدينة تالـــودي بعد أن أعلن عنه بمدة كافية ليأت كل مزارع بمنتجاته الزراعية ورصدت لـــه جوائز مالية لكل فائز واشتركت كل مناطق جبال النوبة التابعة للمديرية واسهم كـــل مـــزارع بنصيب فمنهم من جاء يقود ثوراً بذل له العناية حتى أصابته السمنة ومنهم من جاء بعنزة حلوب أو شاه سمينه ومنهم من جاء بالكدروك وتكاد بطنه أن تمـــس الأرض مـــن الســـمنة وهكذا في كافة الميادين وفي ميدان واسع خطط لهذا الغرض وأقاموا رواكيباً للجلوس تحتها لعرض المنتجات وكان معرضاً رائعاً تحت إشـــراف وزارة الزراعة والغابات وكان لمصلحة الغابات جناحها الخاص عرضت فـــيه جمـــيع أنواع الحبوب الغذائية والزيتية وقد جئت خصيصاً لمشاهدة المعرض وكنت أسير بين المعروضات التي جاء بها الأهالي إلى أن وصلت الجناح الخاص بالمصلحة وكان يقف أمام كل صنف خبيراً زراعياً ليشرح لكل زائر كل ما يتعلق بالصنف المعروض بالتفصيل ويجيب عن كل تساؤلاتك وقفت أمام معرض الحبوب الـــزيتية وكانت أنواع الفول السوداني كثيرة لكل صنف مكاناً خاصاً وعليه ديباجة مكتوب عليها اسم الجهة التي جيء به من خارج السودان كيوغندا وزائير ونيجريا وكينـــيا وما جيء به من مناطق السودان المختلفة كالزاندي مثلاً وكردفان أو شرق السودان وغرب الإستوائية على العموم كل مناطق السودان التي تهتم بزراعة الفول

السوداني فكنت أسأل وهو يجيب إلى أن تطرقت إلى سؤال بأن أمامي أنواع كثيرة من الفول السوداني هل يمكنك أن تعطيني فكرة أيها أغنى زيتاً من غيرها فلم يجد جواباً حيث قال إنها أنواع كثيرة مستوردة من خارج السودان ولدي من المعلومات وفكـرة زرعهـا كخبيـر زراعي ونموها والتربة الصالحة لكل نوع والمدة التي تستغرقها لغاية الحصاد والتي تفيد المزارع وأن يختار الصنف الذي يصلح مع تربة أرضـة ونحـن نزوده بالنصح والإرشاد والبذور اللازمة غير إننا لم نضعها تحت الاختبار من ناحية محتوياتها الزيتية ولكن بالنسبة إلى الصنف المزروع عندنا في السـودان يمكنني القول أن أكثرها زيتاً هو ما يزرع في منطقة كردفان مع صغر حبـته يليها ما يزرع في مناطق دارفور يلي ذلك محصول الزاندي أما في الطبقة الـرابعة هو الكنغولي قلت شكراً . لي سؤال أخير ما رأيك في زيت اللالوب قال هـذا أول سـؤال أسـأله لم يتطرق إليه غيرك قال زيت اللالوب من أجود أنواع الـزيوت وزيـته أكثر بكثير عما تحتويه حبة الفول لكنه لم يتواجد بالكميات التي يمكن عرضه في الأسواق لتغطية احتياجات المستهلك ولو وجدت له معاصر حديثة لأقبل عليه الجمهور دون غيره من زيت البذرة أو زيت الفول فشكرته للمرة الثانية وأردت الانصـراف فاستوقفني ونادى زميلاً له وقال إن هذا الأخ استحق الجائزة عـن أحسن سؤال يطرح الغرض منه المصلحة العامة واستحقها بسؤاله عن زيت اللالوب فناولني قفص يحتوي على دسته من البرتقال فأخذته وانصرفت شاكراً.

البـــن

عرف البن منذ أقدم العصور واختلفت الروايات في أول من اكتشف البن وجعل منه مشـروباً عـمّ المعمورة ولعدم المصادر بين أيدينا التي نعتمد عليها تجاوزنا هذه المرحلة واكتفينا بدخوله السودان ومما لا شك فيه كان دخوله عن طريق مصر وقد جاء به الأتراك ولما كان العرب الرحل من الجزيرة العربية قد دخلوا السودان عن طـريق مصـر جاءوا معهم بهذا المشروب وكان قاصراً على الطبقات العليا من رؤسـاء وحكام وأغنياء بعد أن توفر في الأسواق أخذ العامة في استعماله كشراب

مـــنعش يزيل الكسل وترتاح له النفس يفتتح به كل بيت يومه مع إشراقة كل صبح جديـــد لما في اعتقادهم انه يجلب الفال الحسن اعتماداً على بعض الروايات تروى عـــن الولي الصالح أبو الحسن الشاذلي لا ندري مدى صحتها أم هي مجرد دعاية لهـــذا المشروب على أيامه الأولى ففي بعض المزاعم ما الصق به من اسم (قاضي الحاجـــات) ومن هذه الدعاية نال درجة عظيمة من الأهمية وقد بدأت في تعاطيه الأغلبية من سكان السودان أسوة بسكان العالم ومن هنا برز دوره في اقتصاد الدول المنـــتجة لـــه فتوسعت في زراعته وبدأت في تصديره وكان من الممكن أن يكون السودان من بين الدول المصدرة لو وجد الرأس المفكر والعقل النير وبدأت زراعته محلياً في المنطقة المحصورة ما بين ياي بالقرب من مدينة جوبا حتى مدينة طمبرة هذه الرقعة من الأرض على سعتها وتقدر بملايين الأفدنه من إقليم غرب الاستوائية صـــالحة لزراعته وزراعة الشاي والكاكاو وشجر المطاط والبنجر وقصب السكر وجمـــيع أنواع التوابل التي نستوردها من الهند وجزر الهند الشرقية إذا أضفنا إلى ذلـــك جـــودة التربة ومناسبة الطقس ووفرة الأمطار التي تستغرق تسعة أشهر من العـــام ومـــنها ما يكفي للري دون اللجوء إلى ري صناعي كما لنا مساحات أخرى واســـعة في مناطق شرق الاستوائية في المناطق المتاخمة إلى حدودنا مع يوغندا - كينـــيا وأثيوبـــيا وفـــي بيان أعم أقول إن نصف مساحة السودان صالحة لنمو البن وخلافـــه والـــتجارب القديمة تدل على ذلك ولقد وجد في غابات عزة وجبل صالح بالقـــرب من مريدي وعدم زراعته يعزى لأحد سببين أما العقل المفكر أو الإهمال والتقاضـــي في عهد الاستعمار والحكم الثنائي فلو فكر محمد علي باشا عندما كان والياً على مصر وركز اهتمامه على زراعة هذا المحصول بدل التنقيب عن الذهب على سفوح جبال فازوغلي والانقسنا وأسس المنشآت وجند الجنود واستجلب الرقيق وبعـــد خسارات كبيرة ومتلاحقة في الأرواح والأموال أصيب بخيبة الأمل حيث لم يجـــد منه حتى ما يغطي التكلفة فلو بذل هذا المجهود وركز على الزراعة واستفاد مـــن تجارب عزة لكانت مصر والسودان من أغنى دول العالم ولكانت حظنا اليوم

وإنتاجنا منه يفوق إنتاج البرازيل وأثيوبيا وعندما جاء الاستعمار الثنائي تباطأ عن قصـــد أو عن غير قصد عن فتح هذا الباب واكتفى بزراعة القطن وهو لا يقل عن عائـــده مـــن مشروع الجزيرة وقد يكونان معاً مصدراً رئيسياً يعتمد عليه اقتصادنا ويبدو لي إن الشركة القائمة في حكم السودان لها أثرها في هذا التقاضي والإهمال لان نـــوايا الحكومَة البريطانية التي تخفيها وتعمل له جاهدة في الخفاء هو استبعاد الحكومة المصرية عن حكم السودان ليصبح مستعمرة بريطانية خالصة لما فيه من كنوز ومعادن وارض صالحة لكل شيء ومصر تتشبث به خوفاً من السيطرة على مياه النيل ومنابعه أن يقع تحت سيطرة المملكة المتحدة فتسيطر على مقدرات مصر والنـــيل هو شريان الحياة بالنسبة لمصر والسودان وبريطانيا تنتظر في اناه مشوبة بالقلـــق حتى بدرت أول بادرة في عام 1924م بعد أن قام بعض السودانيين بحركة انـــتماء إلـــى اللـــواء الأبيض ووقع ما يشبه الثورة فاتخذت منها ذريعة لإبعاد كل مصـــري عن السودان ولما كان لها ما أرادت شعرت ببعض الارتياح وبدأت تفكر في تحسين حالة الجنوب وأنشأت محطة أبحاث في أنزارا لزراعة البن في مساحات ضـــيقة حول أنزارا نفسها وتراخت عن هذا الحماس بمجرد نشوب الحرب العالمية الثانـــية وهـــب الســـودان على أيدي أبناءه المخلصين وأخذوا يعملون على ترحيل المســـتعمر ولمـــا انتزع استقلاله من بين أنياب الأسد البريطاني كانت التجارب قد اكتملت وظهر نجاحها وعلى أيام الحكومة الوطنية فتح باب أمام الرأسمالية الوطنية والشركات لتدخل الجنوب لزراعة البن واستبعدوا الطلبات الفردية وقد تم التصديق لبعضها لكنها في مساحات ضيقة نسبياً كانت نقاط الأبحاث تمدهم بالشجيرات فبدأ المزارعون اهتمامهم ونشاطهم ومنهم من جاء بخبراء أجانب ليتولى إدارتها ويرعى نمـــوها بطرق علمية مدروسة ومنهم من باشر عمله بنفسه وكان التوسع يزداد كل عام وقد اكتمل نمو بعض هذه الأشجار واتت أكلها وأنتجت محصولاً يبشر بمستقبل باهر حتى اشتد أوار نار الفتنة وعاث الخوارج في الأرض فساداً فأحرقوا المزارع وقتلوا الحراس وزهد الأجانب وانهوا عقود اتهم المبرمة ورحلوا إلي أوطانهم وبهذا

الرحيل فقدنا خيرات كثيرة يقوم بها بطريقة عفوية في اكتشاف بعض أشياء لم يدر بخلدنا إنها ذات قيمة أو تحتوي على منافع أخرى ، خذ مثلاً كان أحد الأجانب قد أبرم معه اتفاقاً على إدارة مزرعة الأستاذ خضر حمد رحمه الله فأول ما بدأ به بجانب شجيرات البن أخذ يزرع على أطراف المساحة المخصصة لزراعة البن أشجار الباباي الفاكهة المعروفة وهذا النوع من الأشجار سريع النمو وجيد المحصول وفي عام واحد وجد أمامه مزرعة واسعة من هذا النوع وأتت بثمر بكميات كبيرة فجاء بمشط حديدي كالذي يستعمله شبابنا في ترجيل وتمشيط شعره وأخذ يغرز أسنانه في جسم الثمرة التي تشبه الشمام فيسيل منها مادة بيضاء تشبه اللبن يضع تحتها لوح من الزجاج وهذا السائل سريع الجفاف فعندما يمتلئ اللوح أزاحه ليضع بدله لوحاً آخر ويضع هذه الألواح وما علق به من لبن في مخزن له رفوف صنعها خصيصاً ثم يمر على السائل بسكينة تقتلع هذا السائل ويضعها داخل أكياس من النايلون ويحكم ربطها ويرسلها إلى وطنه بطريق الجو خارج السودان فسأله أحد أصدقائه من الشماليين عن هذا اللبن فأجابه باقتضاب انه يدخل في صناعة العقاقير الطبية وفي اعتقادي إن هذه الإجابة للخروج من المأزق أو ما نسميه في لغة الجرائد (للاستهلاك المحلي) فان صدق في قوله هذا أم لم يصدق فان لهذا اللبن فائدة غائبة عنا ونحن أمام هذه التجربة التي أفسحت لنا المجال وأتاحت لنا الفرصة للتعرف على محتويات هذا اللبن والسودان مليء بهيئات البحوث ومراكزه المتعددة وعلماؤه المشهود لهم بالكفاءة في هذا المضمار أشير إليهم ليضعوا هذه الثمرة تحت المجهر وأن يخضعوها للتحليل الدقيق وينشروا نتيجة هذه التحاليل للاستفادة منها ومع تواجد هذه الأشجار بأعداد كبيرة ويمكن التوسع في زراعتها في بعض مناطق الجنوب .

وبعد أن تبينا زراعة البن وأهميته بما يوجب التوسع بقدر الإمكان لكن كيف التوصل إلى ذلك وأمامنا عقبات منها ونحن نسمع وتطالعنا الأخبار عن مؤتمرات تبثها الإذاعات المسموعة والمرئية والمقروءة بأن هذه المؤتمرات التي اختير لها

الصفوة المتعلمة والمثقفة من أبناء السودان لعلاج مشكلة الجنوب والعمل على حلها حـــلاً ســـلمياً وبعـــد المداولات والمناقشات المستفيضة التي اتسمت بالصراحة كما يقولون استقر الرأي بما يشبه الإجماع أن يكون نظام الحكم هو التقسيم إلى ولايات (الفيدريشـــن)أو الفدرالي أو سمه ما شئت هو أنسب الحلول الذي يمكن أن يؤدي إلـــى ســـلام دائم حيث يرضي جميع الفرقاء فهل هذا هو حقيقة الحل الذي يصلح أساســـاً لحـــل شـــامل وكامل ينشر الطمأنينة والاستقرار في نفوس السودانيين مع اختلاف عاداتهم وثقافاتهم وأعراقهم ترضى عنه جميع الفرقاء فالجواب على ظاهره نعم أما الخبراء ببواطن الأمور يجيبون بلا لما يساورهم من شكوك بحكم المعايشة الطويلة والتغلغل في أوساطهم ومجتمعاتهم وعرف الكثير من نواياهم وعايشتهم ما يقرب السبعين عاماً وأنا لست متشائماً ولا أريد أن أسبق الأحداث فمن مما لا شك فـــيه أن التخريب الذي شمل بعض ما شمل معصرة الزيوت التي أنشأت في مدينة يـــرول عاصمة منطقة البحيرات أقيمت هذه المعصرة لتوفير الزيت لسكان المنطقة واســـتيعاب محصول السمسم وبأسعار مجزية تجلب للمزارع فائدة كبيرة وكل ذلك لمصلحة سكان المنطقة خاصة والجنوب عامة .

ثانياً حرق وإتلاف كل الآلات والمعدات والمنشآت التي استجلبت لحفر قناة جونقلي وهي المؤسسة الاقتصادية التي خطط لها منذ ما يقرب من مائة عام أو تزيد .

ثالـــثاً التخـــريب الذي أصاب مشروع أنزارا وملحقاته من مصانع وورش أبحاث ومصنع نسيج بعد أن أغرق الجنوب بالدمورية المتينة التي فاقت جودتها المستورد

رابعـــاً حرق مزارع البن في كل من أنزارا ومريدي بعد أن آتت أكلها وهي تبشر بمحصول جيد وعائد كبير وقد نزح أهلها وخلفوها ورأوهم تحت ضغط التمرد .

خامساً الضغط على الخبراء الأجانب الذين يعملون في التنقيب عن البترول وتعطيل عملـــيات التنقـــيب فـــي الكثير من مناطق البترول بالجنوب حتى اضطر الخبراء للرجوع إلى أوطانهم بسبب اضطراب الأمن والتهديدات التي تصابحهم وتماسيهم.

سادســـاً التسبب في تعطيل المعامل البيطرية في مدينة ملكال وما يؤديه من خدمات

لصالح الثروة الحيوانية في جميع مناطق الجنوب بعد أن ازدهر وأصبح يكفي حاجة السودان من الأمصال الواقية للحيوان والأمثال على ذلك كثيرة .

فالسؤال الذي يفرض نفسه هو (هل الرؤوس المفكرة من أبناء الجنوب الذين ائتمناهم اليوم هل تغيرت نظرتهم نحو أبناء الشمال) هذا السؤال ليس من السهولة بمكان أن يجيب عليه شخص مثلي محدود الثقافة لم يدخل معترك السياسة ولكن الخبرة المكتسبة من التجارب يدخل في نفسي شئ من الريبة والتشكك في إخلاص النية حتى لو قام نظام الولايات واخشي ما أخشاه أن يكون قبولهم لهذا النظام قد بيتوا النية لإستدارج الشماليين ليكونوا اللبنة الأولى والأساس للانفصال ولو إلى حين ونكون ذلك قد فرطنا وأخذنا علي غره وتصيبنا لعنة الأجيال القادمة ويتهمونا بالغفلة وعدم النظرة البعيدة التي خطط لها المفاوض الجنوبي ونكون بذلك قد فرطنا ومن باب الاحتياط لكل ما سيجد في المستقبل يجب عند كتابة الدستور أن يكون صريحاً حاوياً وبكل ضبطه بحيث لا يجد حكام الولايات ثغرة يتعدون بها إلى العبث بالسودان الواحد ، وأن ينص في الدستور أن تكون الأرض لمن يفلحها لا فرق بين شمالي وجنوبي وما تحتويه الأرض من كنوز بباطنها سواء كانت مناجم أو بترول نكون خاضعة للحكومة المركزية لا تدخل ضمن اختصاصات حكم الأقاليم ويكون حل المنازعات في الأراضي المملوكة للشماليين بواسطة الحكومة المركزية لضمان حق المستثمر الشمالي من تطاول الحاكم الجنوبي وأن تكون الإدارة مشتركة في الشمال وفي الجنوب على حسب الكفاءة وأن يفتح الجنوب أبوابه أمام العرب الرحل سواء كان بغرض الرعي أو الاستيطان أمثال الرزيقات والحمر والحمر المسيرية وخلافهم ليحصل التمازج بين المواطنين سواء كان بالمصاهرة أو بخلافها ليعيشوا كإخوان في قطر واحد هذا قليل من كثير مما يجب الاحتراس منه والنظر للمستقبل البعيد بعين الاعتبار .

ومن أهم ما يجب الإشارة إليه هي إشراك الحكومة المصرية بمندوب عنها عند وضع الدستور لأنها هي الأخرى لها تخوفها من أن ينص الدستور عن أشياء نراه

ليس من مصلحتها إذا ما وجد الجنوب ثغرة في الدستور ليعمل على الانفصال وبما أنهـا أمـة عريقة سبقتنا في ميادين العلم والحضارة فالواجب الاستفادة من علمها وخبرتها وبعد نظرها إلى المستقبل البعيد ولا تخضع إلى احتجاج من يحتج بإبعادها بحجـة إنها مسألة داخلية ليس لدولة أجنبية ليس لدولة أخرى حق التدخل فيها وما اسـتفحال دور قـرنق وأعوانه إلا بسبب إلغاء معاهدة الدفاع المشترك بيننا وبين الحكـومة المصرية فليس لبقاء لدولة تعتمد على إمكاناتها الخاصة والعدو يتربص عليها بالمرصاد.

الأسـد

من منا لا يذكر في فترة دراسته الأولى أو فترة ما بعدها انه قرأ في كتب المطالعة أو في غيرها من بطون الكتب بما يفيد بأن الأسد ملك الغابة والمسيطر عليها وفي بعض الأحيان يقال انه ملك الوحوش هذه التعابير أصبحت صفه ملازمة كلما ذكر اسـمه وصار متداولاً بين الناس حتى ألفوه ووصل إلى درجة التسليم بصحته عند الكثيرين منهم ولم نجد من ينكرها أو يتطرق إلى تفنيد هذه المزاعم أو تعرض إلى تحليلها تحليلاً دقيقاً بعد أن أخذها الناس باعتبارها قضية مسلم بها فهل بعد ذلك في إمكان المرء أن يأتي بجديد مغايراً لهذه النظرية التي طغت على مفاهيمهم ورسخت فـي أذهانهم مهما قدم من أدلة وبراهين لشذوذه عن القاعدة وللناس عذرهم بسبب عـزلتهم في ديارهم بعيداً عن دنيا الحيوان ولكن الحق يقال أن المسؤولية تقع على عاتقنا ومن الأمانة أن يقولها قبلت أم ردت استناداً على أحقيتنا في إبداء الرأي بعد أن دخلـنا الغابـة وتجولنا في جنباتها والتقينا بكل ساكنيها من وحيد القرن والفيل والجاموس والأسد وبقية الحيوانات الأخرى وقد تغيرت عندنا هذه النظرة وتبين لنا أن الأسد ليس أشجع من فيها ولا أقوى ساكنيها فمن أين له هذه الصفة ومن منحها إيـاه فلـو أمعنا النظر واتقنا التفكير تبين لنا أن مصدرها الجزيرة العربية وبحكم طبيعـتها ومناخها الصحراوي من محيطها إلى خليجها لا توجد بها غابات تصلح لسكنى الأجناس التي لا يهنأ لها العيش إلا بين الغابات كالفيل مثلاً لأن حياته تعتمد

علـــى أكل فروع الأشجار الخضراء ووحيد القرن يعيش على الأعشاب الخضراء والجامـــوس لا يطيب له العيش إلا في الغابات ليستظل بوارف ظلالها ويرعى فيها ولكن الأسد تستوي عنده الحياة بين الغابات والصحاري وأين ما وجد الحيوان لأنه يعـــيش على أكل اللحوم وهي في متناول يده على الصعيدين ولذلك ذكر الأسد في الشـــعر العربي ووصفوه بالشجاعة وبالغوا في الوصف ولم نجد ذكراً لوحيد القرن ولا الجامـــوس لســـبب واحـــد هو خلو المنطقة من هذه الأنواع وبذلك حق لهم أن يصـــفوا ويـــبالغوا ولم نجد من يقلل من شجاعة الأسد غير بيت واحد نجد فيه أن الشـــاعر يشـــير إلى أن الأصلة أشجع منه ولنا في هذا الزعم ما يفنده إحقاقاً للحق والبيت لشاعر عربي :-

تغدو الذئاب على من لا كلاب له وتخاف صولة المستأصل الأسد

وللبـــيت معنـــى ظاهر لا يحتاج إلى شرح إلا كلمة (المستأصل) اشتقت من اسم الأصلة وهي نوع من الزواحف أشبه بالحيات والثعابين لكنها كبيرة الجسم وطويلة قـــد يصـــل طـــولها إلى أربعة أمتار أو أكثر فالشاعر أورد هذا البيت موضحاً أن الذئاب تخشى الكلاب وتخافها أما الأسد فهو أيضاً يحجم عندما يتعرض للأصلة أو لكـــل إنســـان نال شجاعة الأصلة مما يضفي على الأصلة صفة ليست من طبعها وحتـــى هذا البيت الذي اشتهرت به عندي ما يفند قولة هذا إن ليس للأصلة شجاعة يتقيها الأسد أو يخشاها ونحن الذين التقينا بها بين الأحراش وعلى شواطئ الأنهار وعلى ضفاف المستنقعات التي محل سكناها واكتساب قوتها من صيد غافل أو شاه ســـاقها حظهـــا العاثر أن تمر بالقرب منها فتنقض عليها وتلف جسمها الهائل حول جسمها الضعيف حتى تفقده حركته ثم تضغط عليها حتى تختلف أضلاعها وتموت ثم تبتلعها شيئاً فشيئاً وكانت تفر من أمامنا إذا ما تقابلنا وجهاً لوجه ولم نحاول مرة واحدة الصمود أو الدفاع أو إبداء مقاومة وكثيراً ما وقعت بين أيدي أفراد ويقتلونها بالفـــؤوس ولم نسمع أي فرد وقع فريسة لأصلة أو أصيب بأذى من جراء تعرضه لها لأن جلدها قد ارتفعت قيمته ارتفاعاً جنونياً فاصبح يطلبها كل من عثر على أثر

لزحفها ليعمل فيها بفأسه .

وللأسد طباعه الخاصة يعرفها كل من له صلة بالغابة ، منها عدم تعرضه للإنسان أن تــركته تــركك إلا في حالة الجوع الشديد وهو من أكثر المخلوقات صبراً على الجوع وقد تمضي عليه قرابة الأربعين يوماً لا يجد ما يقتات به ففي هذه الحالة يجد نفســه مضطراً للبحث بما يقم به أوده وفي فترة الستينات وما قبلها من هذا القرن وأنــا فــي مدينة رومبيك بمديرية بحر الغزال ترد لنا الأخبار من قرى الدينكا بأن أســداً قد اقتحم منزلاً في أثناء الليل واختطف طفلاً بين أحضان أمه وآخر افترس رجــلاً وامرأة من المسنين . إما إذا تعرضنا إلى تصرفات أنثاه التي نناديها باللبوة وهــذه لهجــة محلــية أما اسمها بالعربية (اللباءة) فهي مغرورة متغطرسة شرسة الطباع حمقاء تحاول كثيراً مهاجمة الإنسان إذا اعترض طريقها خصوصاً إن كانت تقود أشبالها خوفاً عليها من السطو وبهذه المناسبة لا بد أن نورد هذه القصة والتي بطلهــا الحاردلو شاعر البطانة يقال إن أحد الرجال مر بشبل من أشبال الأسد وهو فــي حالة صغره وفي غفلة من أمه أخذه بين يديه وذهب به إلى السوق ربما لبيعه أو لتمــتع عامــة الــناس بالنظر إليه فمر به الحاردلو واستنكر هذا العمل وضمن شعوره هذين البيتين :-

جــابوك في المدن ساكت وضبعه　　أمك في الحريم ماها السهوك سميعه

نترت ناس أبوك اللي الرجال لويعة　　وانت كان كبر جنبا تقلب البيعه

وفــي رواية إن الحاردلو لم يكن مع وفاق مع الخليفة عبد الله إبان حكمة وكثيراً ما سمع الخليفه عن إنكاره ومعارضته للمهدي عبر عنها في أشعاره فاحتال عليه فلما تمكــن مــنه وضعه تحت الإقامة الجبرية أي ما يسمونه ملازمة الفروه بمعنى انه يــلازم الصــلوات فــي المسجد تحت أعين الرقباء مثله كمثل بعض رؤوس قبيلة الشكرية وفي أثناء ذلك جاء رجل بشبل ووضعه أمام الخليفة فتذكر الحاردلو وأراد أن يمتحن شاعريته فأرسل في طلبه فلما مثل بين يديه خاطبه قائلاً صف هذا الشبل بأبــيات شــعرية فقال الأبيات السالفة الذكر . فان صحت هذه الرواية أو تلك فلا

خلاف على الأصل ولا يغير من مضمون القصة وتعتبر هذه الأبيات من أحسن ما قــيل في وصف الأسد في شعرنا القومي ولها معاني سامية لو تذوقها الإنسان ولا بــأس مــن أن نتعرض لشرح بعض الكلمات العامية التي وردت فيها إتماماً للفائدة وتقــريبها من أذهان القراء فكلمة (درادر) معناها شدة التعب (ضبعه) من الضباع بخروجك من عرينك مما يسبب هلاكك (سهوك) المرأة التافهة (سميعه) المرأة التي تتقــبل النميمه ممن تنقلها إليها بعض النساء (النترة) هي النهرة (لويعه) من اللوعة وهــي شــدة الخوف (جنبا) معناها صعباً (تقلب) ترد (البيعة) ولها معنيين منها ما يكــون بين شخصين بائع ومشتر ورد السلعة المباعة إذا ظهر فيها عيباً وهو حق مشــروع ، أمــا البيعة الأخرى هي إجماع الناس لمبايعة الأمير أو الوالي أو رأساً للقبــيلة فالــرجوع مــنها من أصعب الأمور ولا يستطيع الإنسان نقضها بعد هذا الإجماع أو يقف في طريقها إلا من له مكانة اجتماعية وسنداً جماهيرياً يأتمر بأمره ويضحي من أجله وهذا ما عناه الحاردلو في شعره .

ومــن صــفات الأسد الملازمة له عزوفه وترفعه عن أكل الميتة التي لم تكن من ضرب يده إمعاناً في عزة النفس وهو يستعمل يده اليسرى بعد الاعتماد على يمناه وبهــا سمي (الأعسر) فان أصابه ما يعوق استعمال يسراه لجأ إلى الحيلة وللتخفي بــين الأعشــاب ليــنقض علــى صيده ويعمل بها أنيابه وها نحن قد قدمنا بعض خصائصــه وان كانــت لا تخلــو من محامد وتسامح لكنها لا تغير من نظرتنا في معارضــتنا علــى هذا العرش انه بوجود وحيد القرن الذي دلت التجارب ومواقفه الجــبارة انه أشجع وأقوى سكان الغابة وهو أحق بالملك منه يليه في المرتبة الثانية الجامــوس أمــا الأسد نفسه فمكانه الدرجة الثالثة ونترك الرابعة للفيل وبهذا السلم المــتدرج لم نأت به اعتباطاً ومن عندياتنا إلا بعد مواقف وممارسات هي حصيلة نصف قرن من الزمان أو أكثر بقليل مع الحيوانات في غاباتها وبين الأحراش مع هوامها ونحن إذ نضع هذه المعايير إثباتاً للحقيقة التي لم يتطرق إليها غيرنا مع إن الكثيرين ممن وصلوا إلى درجة صياد يؤيدوننا ويؤمنون بصحة وجهة نظرنا لكنهم

لم يجدوا فرصتهم لإبداء رأيهم أو تدوين ملاحظاتهم وإني لمدرك وأحس بأن هناك مـــن يخالفـــنا ويعتبـــرنا أننا نعوم عكس التيار بسبب هذا الخروج عن القاعدة فان يصفوننا بالقدم والعوم عكس التيار خير لنا من أن يصفوننا بأننا (إمعة) وما قدمناه من أدلة وبراهين ليست نقلاً عن أفواه ولا ظناً إنما هي مشاهد ومواقف وقفناها فمن أصـــدق قـــولاً ممن يقول إني شاهد عيان وقد أدعم هذا القول بدليل آخر قد شاهد الكثيـــر مـــن الـــناس أثـــناء زيارات فرق أجنبية وصلت السودان تعرض عرض أكروباتها ومنها ترويض الأسود وهو فرد واحد يسوق أمامه قطيع من الأسود وفي يـــده صـــوتاً يخـــيفها به وللأفيال مثل ذلك رأيناها كما تذعن لأمر المروض فهل يستطيع أن يأتينا بأحد حاول ترويض قطيع من وحيد القرن أو سرباً من الجاموس هـــذا ما لم يحدث حتى الآن فإني أهيب بكل من رأى رأينا هذا أن يسعى جاداً في تصـــحيح المســـار لينير الدرب أمام الأجيال القادمة لئلا تقع في ما وقع فيه عامة الناس من خطأ .

التمساح - (1)

التمســـاح يعتبر من فصيلة الزواحف لتوافقه لكثير من الزواحف من حيث التكوين والطـــباع والعادات ولا يمكن رده إلى فصيلة الحيوان رغم كبر جسمه وحياته التي تشـــبه حياة الحيوان وقد خصته الطبيعة بأن يعيش برمائي لحماية صغاره ولا تجد فرصـــتها لتعيش على صغار السمك قبل أن يقوى على ممارسة ومطاردة وافتراس الإنســـان والحـــيوان ثانياً كعادة الزواحف ولجوئها إلي التخفي في طريقة اقتناص فريســـتها ولـــيس في مقدورها باستعمال القوة كالحيوانات المفترسة الأخرى ولذلك وجـــدت فـــي الأنهـــار والمستنقعات خير معين لها ويكثر تواجده في حوض النيل الأبيض والأزرق وروافدها من المنبع إلى المصب وكانت قبل سنوات قليلة مصدر خطر وإزعاج على كل وارد ماء إنساناً كان أم حيوان فلا يأمن الوارد على حياته ويخشـــى وهـــو في عقليته أن يجد نفسه بين فكي تمساح كثير ما يميل إلى الحيلة والغوص في الماء في أماكن الورود في انتظار الوارد فيهجم عليه وهو عنه غافلاً

ولا يعمـــد إلى مطاردة فريسته على اليابسة إلا في حالات نادرة إما بسبب الجوع الشـــديد أو أن يكـــون قد قويت بنيته واشتد ساعده أو أن يظفر بقطيع من الغنم قد تخلف عنه راعيه أو بعيداً عنها أو شخصاً ينام في العراء على مقربة من الشاطئ فيضـــطر للجري وراء فريسته حتى يدركها ويبطش بها كان ذلك قبل سنوات قليلة وقبل أن تحل بها الكارثة عندما وجدت جلودها سوقاً رائجة وتجارة رابحة وفتحت الدول الغربية أسواقها واستقبلتها المصانع وتلاقفتها الأيدي وفتحت الحكومة أمامها أبـــواب التصـــدير وكانـــت تجارتهـــا وقفاً على اليهود الذين نزلوا الأسواق بثقلهم وصـــرفوا الأموال وبذلوها بسخاء فأول من اهتم بها هم الفلاتة وجندوا أنفسهم وما لديهم من إمكانات من مراكب صغيرة وجابوا عرض الأنهار وشواطئها في الليالي الظلمـــاء مستعملين الأنوار الكاشفة حتى هجرت الأنهار عندما اشتد عليها الضغط وشـــعرت بالخطر وقد يظن البعض إن هذا القول على سبيل المبالغة لكنها الحقيقة التـــي شاهدت وأنا اكثر الناس تجوالاً بين الغابات وقد شاهدها غيري الكثير والآن وبعـــد أن خلـــت الكثير من مناطق السودان من هذا النوع ولم يبق منه في بعض المـــناطق إلا القليل النادر وهو يسير بخطى واسعة نحو الانقراض ومن هنا يبرز ســـؤال أوجهه إلى الجمعيات والهيئات التي أوقفت نفسها للمحافظة علي البيئة قبل الحكـــومة والســـؤال هو (هل خطر التمساح علي الإنسان والحيوان بالدرجة التي تبرر إبادته بهذه الطريقة وهو مخلوق كسائر مخلوقات الله خلق ليعيش وإني لست مبالغاً في القول إن قلت أن بعد أعوام قليلة تساءل الجيل القادم عن ما هو التمساح وكـــيف كان يعيش ولا يجدوا ذلك إلا رسمه في الكتب والأوراق فعلى هذه الهيئات أن تقـــف بحزم وتلفت نظر الحكومة لوقف هذا العبث والفساد المستشري وما حاق بالثـــروة البيئية والطبيعية وان تحميها بسن القوانين الرادعة وتطبيقها على كل من يبعث بها.

وللتمســـاح خصائص قد لا تجدها في الكثير من أنواع الزواحف الأخرى فمثلاً تصرفاته وإلهاماته في أوقات البيض والتفقيس فأنثاه تسمي الصفيرة لأن لونها يحمل

الطابــع اللامــع مما يجعل الإقبال علي صيدها اكثر من ذكورها التي تسمي اللدر وهــو يميل لونه للسواد وجلده خشن الملمس والتماسيح من المخلوقات التي تعمر طويلاً كالنسور والعقبان والحيات والأفاعي والأفيال ومن خواصه انه خلق من غير لسان ولا أضراس وله أنياب حادة وموضوعة بطريقة خاصة يدخل كل ناب منها بين نابين ويسمي عاشق معشوق في لغة النجارين وتسبب له مضايقات كثيرة عندما تــتقدم بــه الســن لأنه هو الوحيد من بين المخلوقات الذي يحرك فكه الأعلى وان سائرها يحرك فكه الأسفل فكلما تقدم التمساح في السن غلظت أنيابه فتضيق المسافة بــين الأنــياب بعضها عن بعض هذا من ناحية أما الناحية الأخرى إن راس الناب يكــون حاداً ورقيقاً فيحفر حفراً على الفكين بسبب اشتداد الضغط فتتشابك الأنياب وتلتصق بعضها ببعض فيتعذر معها فتح الفم إلا بصعوبة ولا يتسنى له ذلك إلا بعد أن يصطدم بجسم غليظ كالحجر أو جذع شجرة تساعده علي ذلك وقد يفقد فرصته فــي بعــض الأحــيان بسبب ذلك التشابك للنيل من فريسته ويعجز من فك أنيابه وغرزها في جسمها وتجد فرصتها في النجاة وفي مثل هذه الحالة يلجأ إلى طريقة أخــرى ضــرب الفريســة بذيله الطويل حتى تفقد وعيها وحركتها على المقاومة فيضعها تحت إبطه ثم يغوص بها في الماء حتى تموت إن كانت ضعيفة الجسم أما إن كانــت مــن الأنواع الكبيرة الجسم كالبقر وغيرها فانه يعمد إلى الركوب على رأســها كــي يغرقها في الماء فهو عندما يقوم بكل هذا المجهود يسلم تماماً إن ما اصــطاده لــيس ملكاً له ولا ما غنمه يضمن أن يأكله لأن في جوف الماء من هو أقــوي منه فكثيراً من الحالات ما تعترض طريقة شلة من أبناء جنسه وتحاول أن تنتــزعها مــنه فيدخل في معركة قوامها اكثر من واحد وكثير ما شاهدنا مثل هذه المعارك في عرض النهر بين ثلاثة أو أربعة منها وهي في حالة حرب مع بعضها فهــذا يهجــم وذاك يفر وذاك يغوص وذاك يطفو وتستمر هذه المعركة لأكثر من ساعتين وقد تنتقل المعركة إلى اليابسة مما يعطي الفريسة فرصة النجاة إن كان بها شــيء مــن الحياة لاشتغالها ببعضها إلى أن يتحقق المثل القائل (البقاء للأصلح)

ويكسب المعركة ويفوز بالفريسة ويأخذها ويذهب بها بعيداً ويخفيها بين الأعشاب ثم يعود لها بعد تفرق الجمع وله في الأكل طريقة خاصة فهو يقطع قطعة من جسمها ثم يهرسها بين أنيابه لتتكسر العظام ويهزها هزاً شديداً حتى تتناثر العظام وتتطاير حـــوله ثـــم يرميها إلى أعلى ويتلقاها بفمه ثم يزدردها هكذا إلى أن يأخذها ويأخذ كفايته منها ثم يخفي ما تبقى منها ليعود إليها في الغد .

وكـــنا نعتقد ونحن في حداثة سننا مما نسمعه من حكايات الحبوبة التي تكون عادة ليلاً عندما نأوي إلى الفراش وتكون من وسائل جلب النوم بإراحة الجسم من التعب الذي يلقاه أثناء النهار وكانت تقول إن الكلب هو الذي سرق لسان التمساح فكنا كلما رأينا كلبا يرد الماء ناديناه قائلين (سيد اللسان جاك) فيترك الماء ويولي هارباً وهو يتلفت في جرية ولكن الحقيقة إن هروبه بسبب صياحنا عليه وتلفته خشية أن يجري الأولاد خلفه ويرموه بحجر .

أما طريقة وضع الأنثى للبيض فهو العجب فالأنثى عندما يحين وقت البيض تخرج وتتجول في الأماكن القريبة بحثاً عن الأرض الصالحة وتبدأ بتجاربها في اكثر من موضـــع حتـــى تجـــد مـــا يلائمها من التربة فتحفر حفرة نحو ستين سنتمتر عمقاً وخمســـين عرضاً وتفرغ كل ما بداخلها من بيض واحدة تلو الأخرى ثم تدفنه دفناً محكمـــاً تعود بعدها إلى النهر وكنا نرى إن بعض الحفر التي تركها هي من باب الـــتمويه والتعمية والتضليل خوفا أن يعثر علي البيض أحد لأن بعضهم يأكله ولكن الاعـــتقاد السائد هو عدم صلاحية التربة بعد فراغها من هذه العملية فهي لا تعود إليه ولا ترجع إلى مراقبته ويكون عادة في الأسبوعين الأخيرين من شهر يونيو من كل عام فهي تنتهز فرصة الأمطار والأعاصير التي تسبق الخريف ليساعدها علي محو آثار أقدامها وتسوية الأرض التي وضعت فيها بيضها وتسويته بالأرض حتى تحـــين ساعة التفقيس وتكون غالباً في أواخر شهر يوليو فتعود إليه دون أن تضل طـــريقها ومن هنا يأتي العجب الذي يعجز العقل البشري عن أدارك كنهه ولا يجد حلاً لهذا اللغز المحير ولا تفسيراً ولا تأويلاً غير الرجوع إلى قدرة الخالق العظيم

الذي احسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين وكما يقول بعض الصالحين (إن الله قـادر أن يضـع سره في اضعف خلقه) والغريب في الأمر هو أنها أي أنثـى التمسـاح قد قضت اكثر من شهر بعيدة عن مكان بيضها ثم تأتي في الوقت المناسب بالساعة والدقيقة في الوقت الذي يكون قد آن أوآن خلاصه من ذلك القفص ليـبدأ حـياة جديـدة فتجئ الأم وتحفر هذه الحفرة وتكشف عن غطائها من رمال وتراب وتسمع طقطقة البيض وهو يتفتح عن صغارها وهي تراقب الموقف وتساعد الـذي وجد صعوبة للتخلص من قشرة البيض حيث تخلصه ويعتلي ظهرها وتسير بحملها في بطء شديد حتى لا تتساقط عن ظهرها حتى تصل شاطئ النهر ويدخلوا المـاء ويعيش من الوهلة الأولى على كسب قوته من صغار السمك فكيف أحصيت الليالـي والأيـام لمدة اكثر من شهر بقليل وجاءت في الوقت المعين لوقت التفقيس وصغارها في انتظار عودتها لتخرجهم من هذا القبر ليشقوا طريقهم في الحياة وهذه الظاهرة تجعلنا نؤمن بأن لهذا الكون خالقاً ومدبراً يسيره في خط وطريق مرسوم لا إرادة لإنسـان فـيها ولا تحكم فالله وحده هو المسيطر فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

والتمسـاح يبيض مرة كل عام ويتراوح عدد بيضه من عشرين في أول بلوغه ثم يتـزايد العدد كل عام حتى يصل إلى اكثر من ثلاثين بيضة وبيضه يؤكل وهو في حجـم كرة الطاولة ابيض يميل إلى الحمرة وكما إن القبائل الأفريقية والعرب الذين يقطـنون شواطئ الأنهار يأكلون لحمه خصوصاً لحم ما يسمونه الوزيره أو العكوه وهو أول الذيل مما يلي الأرجل الخلفية يقال أن لحمه يعطي الجسم مناعة ومقاومة ضـد مرض الرطوبة ووجع المفاصل كما يسميه بالعامية فان القينا نظرة فاحصة علي سكان الجنوب والذين يعتبر غذاؤهم الرئيسي لحم السمك والتمساح نجد إن هذا الاعـتقاد لا يخلـو من الصحة لأنك لا تجد من بينهم من يشكو من هذه الأمراض مهمـا طال به العمر أو أدركتهم الشيخوخة فهو لا يعاني ألم المفاصل ولا رطوبة تقعده عن الحركة فما رأي الطب الأطباء والباحثون.

لــيس خاصــية البــيض والعودة إليه بعد مدة تطول أو تقصر ليست قاصرة علي التمساح وحده بل هناك ما تشاركه في هذه الخصوصية السلحفاة فهي تضع بيضها بــنفس الطــريقة ثم تعود إليه بنفس الإلهام والشعور فتجده وقد دخلته الروح وهو يتــنازع الخــروج وتعود بها إلى النهر أما الورل فهو المشارك الثالث الذي يتابع بغريــزته نفــس الطريقة وبمناسبة ذكر الورل وروده هنا وجب علينا أن نصحح بعــض مــا علــق بأذهان الناس ونرد كل شئ إلى اصله مبينين نقط التوافق بين النوعــين ونقــاط الخلاف بينهما وللان الكثير من يعتقد أن الورل هو ابن التمساح الخاسر الذي خالف طبيعة جنسه وانف دخول الماء وآثر الحياة البرية حتى اصبح مضرب مثل لكل شخص ينشق عن اخوته ولم يصادف نجاحاً في حياته فيقولوا عنه (بقى ورل) لكن الحقيقة أن لكل من التمساح والورل نوعية ولكل منها جنس قائم بذاته له حياته الخاصة فالتمساح يكبر جسمه حتى يصل إلى ثلاثة أو اكثر قليلاً من الأمــتار بينما الورل لا يزيد عن المتر الواحد كما إن التمساح يحرك فكه الأعلى وهــي مــن خواصه التي لم يخص به الله من خلقه حيواناً أم إنساناً بخلاف الورل الذي يحرك فكه الأسفل كما أن التمساح خلق من غير لسان وجعل للورل لسان ذا شعبتين ليثني له الأطباق علي فريسته ويضعها بينهما في شكل كماشة لئلا تفلت من قبضــته كما انه لا يستطيع العيش داخل الماء والورل نوعان نوع يحلو له العيش بين الغابات والأشجار ويكتسب اللون الأغبش ولحمه يؤكل كما أن هناك من يقول إن هــذا النوع يوجد في الجزيرة العربية ويخرج لصيده الملوك والأمراء بغرض لحمــه بتغيير في الاسم حيث ينادونه (الضب) أما الضب المعروف عندنا الذي يسكن المنازل ويتسلق الحيطان فهو (الوزع) كما أن في السودان له ما يأكلونه أما النوع الثاني فهو ما يسكن بالقرب من الأنهار والمستنقعات ويكتسب اللون الأخضر علــى لــون الحشائش التي يعيش فيها وغير مستساق اللحم لا يؤكل إلا للضرورة ومــن بعض القبائل . ومن الملاحظ أن التمساح عندما يخرج من الماء ويرقد على اليابسة يفتح فاه لمدة طويلة فكان الظن انه يشرب الهواء ويختزنه بين رئتيه ليستفيد

مـــنه أثـــناء عــومه فـــي الماء ليمكث أطول مدة ممكنة ولكن بعد طول المراقبة والملاحظة وجدنا الحقيقة غير ذلك وقد سبق أن ذكرنا أن أنيابه الحادة تعمل حفراً فـــي الفكين الأعلى والأسفل وتمتلئ هذه التجاويف بفضلات اللحم مما يسبب تعفنها وديـــداناً صـــغيرة تعيش بين أنيابه فتزعجه مما يضطره لفتح فاه وهناك نوع من الطيور صغيرة تدخل بين فكيه وتلتقط الفضلات وما معها من ديدان فيجد في ذلك راحة فهو لا يؤذيها ولا يتعرض لها وهي الطيور الوحيدة التي تربطها معه معاهدة حســن الجــوار وعدم اعتداء كما يقول السياسيون ونحن قد بينا اوجه الخلاف بين النوعين نرى من الواجب أن نذكر بعض نقاط التي يلتقي فيها أو يتفقوا عليها وهي قليلة محصورة في طريقة البيض والتفقيس والهيكل الخارجي .

أما طريقة صيد التمساح في عصور ما قبل انتشار الأسلحة النارية بواسطة البدينقة وهـــي مســتعملة لــلآن بــين القبائل النيلية انظر الشكل نمرة وعلى أيد أشخاص معروفين وذو خبرة اكتسبوها بطول الممارسة والمران فعندما يفتك التمساح بإنسان أو حيوان أو يكثر تردده على موارد المياه و يخشوا الناس خطره يرسلوا في طلب أحــد هؤلاء المتخصصين فيتعرف أولاً عن مكان نومه أثناء ساعات النهار ووقته الـــذي يخـــرج فيه ويأوي إليه ويراقبه ويمهله حتى ينام فيزحف الصياد على بطنه دون أن تصـــدر مـــنه حـــركة تيقظه إلى أن يقف بجانبه إلى أن يقف وهو ممسكاً بالبديـــنقة علـــى يده وينهره قائلاً (جر) كما يقال للكلب فيقوم فزعاً فيبادره بطعنة تغــوص في لحمه ويهرب نحو النهر وهو يجر حبل البدينقة خلفه والعمود مربوط بطرف الخيط فكلما غاص في أعماق الماء فالعمود طاف يدل على مكانه ثم يتبعوه بمـــركب ويمســكوا بالحبل فكلما طفى على وجه الماء طعنوه بأخرى وهكذا حتى يمــوت هذه إحدى الطرق . أما الطريقة الثانية إن كان التمساح جوالاً لا يستقر به قرار ويمر على الكثير من موارد المياه يربط له سخل صغير من الماعز لأنه عادة كثير الاختفاء ويختبئ الصياد بالقرب منه فعندما يشعر التمساح بوجود السخل يشق طريق ليفترسه فعند خروجه من الماء يجري مسرعاً نحوه فيعترضه الصياد بطعنه

بالبديــنقة فيــرجع إلى النهر والصياد يتبعه بنفس الطريقة الأولى وهذه اشد خطراً علــى الصياد من الطريقة الأولى . أما الطريقة الحديثة التي كان أول من استعملها الفلاتــه بواســطة الــبطارية يجوبون طول النهر وعرضه يرسلون ضوءها شرقاً وغــرباً في الليالي المظلمة وهم على ظهر مراكب صغيرة فبمجرد ما سطع النور علــى عينــي التمساح تبدو حمراء كالنجم أو كشهاب من نار فيسلط عليه الضوء والمــركب يــتقدم نحوه ببطء والنور الكاشف قد اخذ ببصره حتى يدنو منه فيطعنه بالديــنقة ثــم استبدلت البدينقة بالفأس يضرب بها على أم رأسه فيموت في الحال وبهــذه الطريقة السهلة اصبح المقتول منها في الليلة الواحدة قد يصل إلى أربعة أو خمسة فأخذ عدد الصيادين يزداد يوماً بعد يوم ولما كانت أسعار الجلود قد إرتفعت إرتفاعــاً جنونــياً إســتهوت الكثير من أولاد البلد فدخلوا هذا المعترك واخذوا في إســتعمال الأسلحة النارية (بنادق الخرطوش) بدل البدينقة والفأس ودخلوا الأنهار والمســتنقعات في رحلات بعيدة تستغرق أياماً عدة حتى كادت أن تخلو منه الأنهار ومياه المستنقعات بسبب الفوضى وغفلة الحكومة وإني إذا أدق ناقوس الخطر بكلتا يــدي لان انــبه الحكومة من غفلتها وان تقوم بمسئوليتها وتشعر بواجبها وتتمسك بحقهــا وتفرض حمايتها علي هذا النوع من المخلوقات حفاظاً على البيئة وتنقذ ما يمكــن إنقاذه بعد ما أصابه من قتل وتقتيل وكثير ما خطر ببالي وأنا أفكر في هذا المصــير الــذي ينتظره وهو الإنقراض لا شك كنت أقول (هل خطورة التمساح سواء كان على الإنسان أو الحيوان ما يبرر قتلة وإزالته من الوجود) وما أظن ذلك ، فهو مخلوق مثله كمثل الحيوانات المفترسة الأخرى ويجب حمايتها ومن حقها أن تعيش وإني لأرجو من الهيئات التي جندت نفسها لحماية البيئة أن تنضم بصوتها أو أن أضــم صــوتي مع صوتها وإنني لمؤيدها دون تحفظ في مهمتها الإنسانية حتى تســتجيب الحكومة وتعمل على إنقاذها وليس هذا النداء الصارخ من جانبنا بقصد حماية التمساح فحسب بل يشمل كل الحيوانات البرية الأخرى التي تعرضت للفتك بعد الفوضى التي حلت بالجنوب .

وللتماسيح حيل كثيرة لصيد فريستها منها في العشرينات من هذا القرن وأنا في مدينة ملكال تعرض أحد الأشخاص اسمه (جنا فروه) اسم اشتهر به وهو يعمل حمال في السوق من قبيلة الشلك أطلق عليه هذا الاسم من الشماليين اشتقوه من لباس أمه للفروه . وفي ذات يوم نزل الماء ليستحم فاختطفه التمساح وكان هذا التمساح كبير الجسم يتعرض لكل إنسان يرد الماء حتى اصبح مصدر خطر فشكوا الناس إلى مفتش المركز فاتصل بقائد الحامية واختير أحد الجاويشية المهرة في الرماية واخذ سلاحه وهو يجوب ويؤم المشارع لثلاثة أيام لم يظهر له أثر وفي اليوم الرابع بعد الساعة العاشرة صباحاً شعر بشيء من العطش فوضع سلاحه علي الأرض ودخل الماء ليروي ظمأه فما أن وصل الماء ركبيته حتى هجم عليه التمساح وشق طريقة في عرض النهر يحمل فريسته(3) .

الحنظل

التعرض للتعريف بمثل هذه الأشياء الصغيرة التي يعتبرها البعض غير ذات موضوع فقد يراها البعض الآخر ضرورية لإتاحة الفرصة أمام من لا يعرف ، فان بعض هذه الأشياء ذات منفعة خاصة للإنسان والحيوان لان الحيوان جزء من حياة الإنسان ويجب العناية به ومن هذه الأشياء نبات الحنظل وهو معروف من قبائل العرب منذ اقدم العصور وله فوائد كثيرة .

فالحنظل نبات يشبه نوع من البطيخ الذي نسميه الخدج او العلج من حيث الأوراق والثمار والحجم أما اللون فهو ذو خطوط يميل إلى الصفار كلون البطيخ الروسمان ينبت كثيراً في القيزان الرملية من جهات كردفان ودارفور وبعض قيزان النيل الأبيض وهو مر المذاق لا يعادله في مراره إلا المر الحجازي أو الصبر السفطري وهي مستحضرات طبية يليه من مجموعات نباتات ذات مرارة والحنظل يضرب به المثل للدلالة على ذلك ما ذكره عنترة بن شداد في شعره :

لا تسقني ماء الحياة بذلة   بل فاسقني بالعزة كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة بجهنم   وجهنم في العزة أطيب منزل

وكما ذكرته المغنية الكردفانية في قولها :

اسمك تقيل يافلان   زي حنظل القيزان

هذه المغنية تتحدث بلسان أجيال ما قبل غزو المدينة الحديثة التي غيرت الكثير من المفاهيم تحت شعار المدنية كما غيرت في الكثير من عادتنا عندما كانت المرأة تتحاشى أن يرد ذكر اسم حبيبها أو زوجها على لسانها وان مرارة الحنظل أهون عليها وأكرم من يجري إسم الزوج المحبوب على لسانها إحتراماً وتقديراً وقد تناديه في حالات الاضطرار باسم ولده يا أبو فلان أو ببنته أبو فلانة ،ولا انسي حادثاً وقع وأنا لا زلت في سن الخامسة والعشرين من عمري عندما تشاجر زوجان وبلغ الخصام ذروته ويأس الأجاويد من إصلاح ذات البين طلبت الزوجة الطلاق فرفض الزوج وعادت الأجاويد مرة أخرى ليجعلوا حداً لهذا الخصام بالطلاق فلم يفلحوا ولم يستجيب الزوج وفي جلسة جمعت الكثير من أهل الطرفين وقفت المرأة وقالت بصوت عال سمعه الجميع (يا مصطفي أنت داير مني شنو) فمصطفي هو اسم الزوج فاعتبرها اكبر إهانة وإساءة لحقت به أن تناديه باسمه أمام الجميع وقال (انت قنعت حقيقة) فطلقها في الحال .

ومن خصائص الحنظل وهو نبات يتمدد علي وجه الأرض ويغطي مساحة كبيرة ويظل يحتفظ بخضرته طيلة فصل الخريف وحتى نهاية فصل الشتاء مما يجعله يحافظ على صفات التربة يمنع تحرك الرمال الذي تزوره رياح الشتاء العاتية مما يسبب الزحف الصحراوي الذي نشكو منه ونخشاه وللحنظل فوائد أخرى في علاج الكثير من الأمراض كالأورام الخارجية من لبابة وفي علاج بعض الأمراض الباطنية كما هو علاج لكثير من الجروح التي تصيب الإنسان وبهذه المناسبة أقول قد أصيب أحد أصدقائي بحكة في ساقيه يظهر على شكل بثور خفيفة وتسبب له أكله فيهرشها بأظافره فيسل منها ماء بسيط وفي اليوم الثاني تتطور إلى قرحة وعرض الحالة على الأطباء واستمر الكشف والعلاج فلم يجد فتيلاً وأخيراً قرروا أن الإصابة نتيجة عدم وصول الدورة الدموية لهذه المنطقة من الأرجل وجاء طبيب

بلدي وبعد الكشف أمره باستعمال القطران بعد غسل الجروح بماء ساخن وتنظيفها جيداً ثم مسحها بالقطران بقطعة نظيفة أو خرقه من قماش ولما كان القطران يسبب آلامــاً قد لا يتحملها المرء فلا بأس من تخفيفه بإضافة كمية من زيت السمسم ولم تمــر فترة أسبوع حتى ظهر تحسناً على الجروح واستمر في التحسن حتى جفت وبــرئت نهائــياً والقطران علاج معروف عند جميع قبائل العرب منذ القدم عندما تصــاب الإبــل بالجــرب وهو مرض فتاك تنتقل عدواه بواسطة الاحتكاك فيعدي الأجرب السليم حتى يعم كل القطيع مما يفتك بالكثير منه إن لم يجد العلاج وطريقة علاجــه ســهلة فيؤتى بالبعير الأجرب ويعقل من قوائمه الأربعة وهو بارك على الأرض على شاطئ النهر أو الغدير ويصب عليه الماء ويؤتي بطوبة حمراء وحجر خشــن ويحك به مكان الجرب حتى تسيل دماؤه ثم يمسح عليه بالقطران ولما كان القطران شديد الألم مع الجروح يحاول البعير أن يرقد على الأرض ليحتك بها ففي هذه الحالة يربط على صدره عود من الخشب يمنعه من الرقاد فيظل قائماً تعاد هذه العملــية مــرتين أو ثلاثاً فيتم الشفاء وقد ذكره الحاردلو شاعر البطانة المعروف بقوله :

الليل والنهار واحد علي العميان　　　واللوم والشكر واحد علي السجمان

عز الراس دهن عز الحريم وليان　　　عز الخيل لجم عز العرب قطران

ضمن الحاردلو هذه الأبيات من الحكم ما تستحق الوقوف عندها طويلاً فلا شك أن اللــيل والنهار سيان عند الأعمى الذي فقد بصره لأنه يعيش في ظلمة لا يميز بين الــنهار و اللــيل مادام فقد حبيبته والسجمان هو الشخص الذي يعيش على هامش المجتمع المتبلد الشعور والإحساس راض بالمذلة والهوان وهو عكس الطموح وعز الرأس دهن إشارة إلى أن الشعر عندما يجد حاجته من الدهن الذي يغذي بصيلاته فيــنمو نمــو حسناً يزيد من غزارته ويمنعه من التساقط فيصبح سلساً لامع السواد وهــو مــا يزيد من جمال المرأة وكثير ما تغني الشعراء به ، أما قوله عز الحريم وليان فهي ابلغ حكمة وأجمل إشارة لإختيار الزوجة الصالحة المثالية عندما تكون

مطـيعة لولي أمرها من الرجال الذين من حولها والقائمين على تربيتها على النهج الصحيح وكثيراً ما نسمع من الخاطبين عند إجتماعهم مع أهل الفتاة يقولون (نحن مـا جئـنا نخطـب امرأة فحسب بل جئنا نخطب رجالاً) لأنهم هم الملجأ والملاذ والـرجوع إلـيهم إذا ما وقعت جفوة فالمرأة التي تحترم أولياء أمورها تعمل ألف حساب لأي خطوة قبل أن تخطوها احتراماً وتقدير لهم كي لا تضر بسمعة ولا تقلل من مكانة أولياءها الاجتماعية هذه هي المرأة التي أوتيت من رجاحة العقل الشيء الكثير الذي ستجد ثوابه عند الله والناس .

أمـا قوله عز الخيل لجم وهو جمع لجام فاللجام بالنسبة للفرس شئ لابد منه ليكبح من جماحه لان الخيل تعد من اقوي الحيوانات أقواها شكيمة وأصعبها مراساً ولذلك كانـت اللجـم هـي الإدارة الوحـيدة التي أذلت من كبريائها وقللت من غرورها واستطاع الإنسان أن يجعل منها حيوان ذلولاً يسيره وفق إرادته .

أمـا المقطع الأخير من البيت الأخير هو عز العرب قطران له معناه ومغزاه بحكم عملهـم بتـربية الحـيوان وتوفير سبل الراحة له ولو على حساب راحته هو فهم يفضـلون مجاورة المرعى وقرب الكلأ ولو بعدت موارد المياه فالماء يمكن توفيره بواسـطة حملـه على الدواب ففي حالة الورود بواسطة الجمال تعمل له قرب من جلـود البقر وتسمى السقاء كلمة عربية فصحي لأنها اكبر وتناسب حمل الجمل أما إن كانـت الـوارد حماراً فيعمل له قرب من جلد الشاه وان كان الوارد إنساناً ولا يسـتطيع حمـل القربة فله السعن وهو ما يصنع من جلود صغار الضأن أو المعز وفي كل الحالات الثلاث لابد من مسحها بالقطران لأنه يقوم بترطيبها ويجعلها مرنة لئلا يكون عرضة للتكسير إذا جفت ويجعل منها اكثر تحملاً وأطول بقاء وللقطران نكهة محببة لدى شارب الماء .

بقي علينا أن نعرف كيف يستخرج القطران ومم يستخرج القطران يستخرج من كل الحـبوب الزيتية كحب البطيخ والسينان وبذرة القطن والقرطم والحنظل وهو أجود الأنـواع ويلـيه مـا يستخرج من القرطم في الدرجة الثالثة ما يستخرج من بذرة

القطـــن أمـــا طريقة استخراجه فهي طريقة بدائية مستعملة منذ اقدم العصور وهي عـــبارة عن برمتين من الفخار توضع الحبوب في واحدة منها وتوضع على فتحته قطعـــة من الفخار مخرمة الوسط تكون كمصفاة ثم يؤتى بالبرمة الأخرى الفارغة تكـــون مـــن اســـفل وتوضع مقلوبة أي ملاقاة الفوهتين بالطين بطريقة محكمة ثم توضـــع داخـــل حفرة ثم توقد النار سواء كان خطيفا حطباً أو روث البقر فتحترق الحـــبوب وينساب زيتها داخل الإناء الفارغ وبذلك تكون قد تحصلت علي القطران ويطلق عليه اسم الركاب .

التيلبون

فـــي بعض الأحيان ينتابك شعور بان الاستعمار البريطاني إذا القينا نظرة عامة على العناية التي أولاها الاستعمار البلجيكي وسعيه الحثيث نحو تقدم مناطق نفوذه كإدخـــال بعـــض المحاصـــيل الزراعية كأشجار المنقا والباباي والأناناس والبفرة والقشطة والتيلبون وغيرها كثير وكل هذه الأنواع دخلت السودان عن طريق الكنغو البلجيكي دون أن يكلف الاستعمار البريطاني نفسه للعمل لإدخال شئ واحد لتحسين وضع الفرد أو يزيد من دخله إذا استثنينا سلعة القطن وكان غرضه من ذلك تشغيل المصانع الإنجليزية بتوفير مادة الخام جرياً وراء مصلحة المملكة المتحدة غير ملق بـــالاً علـــى فائـــدة السوداني فالتيلبون الذي موضع حديثنا اليوم هو دخيل جاء به البلجـــيك وهو شبيه بما نسميه عندنا في السودان بأم أصابع نوع من النبات يحمل حبوبه بيـــن أفرع تشبه أصابع اليد ومن هذا الشكل إتخذ إسمه ، يتواجد هذا النبات (أم أصـــابع) في الخيران والأماكن المنخفضة ولها حبوب تشبه حبوب الجرجير مـــن حيث الحجم أو أدق وبنفس اللون يؤكل ويعمل كعصيدة خصوصاً عند حلول المجاعات وله تأثير كبير علي انفراج الضائقة وإسمه عندنا (الكوريب) والتيلبون هـــو نفس الفصيلة غير انه يمتاز بكبر الحبة وهو يزرع أما النوع الأول فهو نبات بري لرعي الحيوان . والتبليون يزرع في جميع مناطق الاستوائية وبعض مناطق بحر الغزال ويحصد بكميات كبيرة ويعتمد عليه سكان المنطقة كغذاء رئيسي كالذرة

وهــو ذا قيمة غذائية عالية ويضعونه في مرتبة الدخن من الناحية الغذائية أما قشه فــلا قــيمة له نسبة لعدم وجود الحيوان أما لو استطعنا أن ندخله في شمال ووسط الســودان كعلــف للبهائم وتسمينها في الأماكن التي تروى رياً صناعياً لاغنانا عن زراعــة أبوســبعين او البايونيــر الذي نستورده بالعملات الصعبة فقيمة التبليون الزراعية عالية بالنسبة للإنسان وله قيمة لاشك للحيوان ،وما تحتويه هذه الأصابع من كميات من الحبوب لا يستهان بها ومن هذا المنطلق يجب أن ارفع يدي مشيراً نحــو هيئة البحوث الزراعية لتعطني الكلمة لأقول لو استنبط من التيليون هذا كما تفعل بالحبوب الأخرى أستنبط منه ما يلائم طقس وسط السودان ثم نثره بالطائرة أو بطريقة أخرى علي أرض البطانة بدل ما طالعتنا به وزارة الإعلام قبل سنتين بأن الحكومة الأمريكية بصدد جلب بذور الأعشاب الخلوية ونشرها على ارض البطانة ونحــن بين أيدينا البديل الذي لا يكلف خزينة الدولة ولا الحكومة الأمريكية إلا بما اقل من ربع التكاليف زد على ذلك أن قصب أبوسبعين أو البايونير لا تأكله أو تأتي علــى القصــبة كلهــا إلا البقر والحيوانات الكبيرة أما الضان والماعز فإنها تأكل أوراقهــا فقــط لصــلابة عودها أما التيلبون فتأكله كل أنواع الحيوان دون استثناء وبــذلك يكــون اعم فائدة من غيره واصلح للتسمين وفي زيادة كميات اللبن عند البهائم .

كما يمكن لتعميم زراعته وريه بواسطة الطلمبات الصغيرة عن طريق الحش المرة بعــد المــرة ويروى لينمو من جديد كالنجيلة بعد أن تكون حبوبه فوق طور اللبنة ليزيد من قيمته الغذائية .

وللتبليون فوائد أخرى في مناطق إقليمي بحر الغزال والاستوائية وهو يصلح لعمل مشــروب يسمي (البنقاره) وهو يشبه لحد كبير مشروب العسلية(4) المعروف عند ســكان وســط السودان وهو مسكر إذا اختمر ومغذي في أطواره الأولى وفيه من المــواد الغذائية وما يحتويه من سكريات ما للعسلية والمشروب الآخر الذي نسميه (الحســوه) وطريقة عمله هي نفس طريقة عملية العسلية يغلي علي النار ثم يصفي

بواسـطة مصـافي مـن القماش بعد ملئها وتعليقها علي عمود ويوضع إناء تحتها بتقاطر من خلال مسامها على الإناء ولها أوعية خاصة إذا أريد تخميرها للحصول علي نشوة السكر وقيمتها بالنسبة للبيع فهو اغلى قيمة من (الكني مورو) وهو اسم للمريسة واقل من قيمة زجاجة الخمر العادية أقول العادية لأنها نوعان فالعادية هي ما تخرج من التقطير المباشر من مختمر الذرة أو التبليون أو الموز وأنواع أخرى مـن الحـبوب أما الذي نحن بصدده يسمي (خمسة علي واحد) بان تعاد خمسة زجاجـات مـن النوع الأول إلى قدر آخر على النار للتقطير لاستخلاص زجاجة واحـدة وهذه الزجاجة تصبح كحول صرفه إن لم تكن اقوي وأخف من البيرنو لا تقـل عـنه هـذا النوع من الاستنباط لم يكن معروفاً عند الأهالي إنما جاء به أحد الغربيين الذين استوطنوا منطقة غرب الاستوائية كتجار ربما يكون يوناني الأصل ثم انتشرت الفكرة حتى عمت مناطق بحر الغزال وغيرها وقد رأيت بعيني استعمال هـذا النوع من الخمر لتطهير الجروح الدامية بدلاً عن السبيرتو وأنواع المطهرات الأخـرى وللجماعة الذين يتعاطون هذا النوع لهم أساليبهم في اختيار النوعية من حيث الجودة يصب قليل منه على قطعة قماش ثم يشعل عليها النار فهي تحرق كل اثـر لهذه الكحول إلى أن تخمد ولا تمس القماش أما إذا لم تلتهب ردوه إلى البائع تحت حجة (هـو مـوية) .

متنوعات

عـندما خطر لي أن اكتب هذه الذكريات وما اعترض حياتي من أحداث وأشياء غـربية كـنت قـد آلـيت علي نفسي أن أتوخى الصدق وان لا أميل إلى المبالغة والمغالاة في الوصف وان أنمق الكلام وأطوع الرواية لأقحم عليها بطولة صناعية هي من نسج الخيال كما يفعل بعض الروائيين وهذا ما اتبعته وتقيدت به لكن هناك بعـض الملاحظـات لابد للقارئ الكريم أن يفطن إليها أو تخطر بباله والكتاب قد شـارف إلـى نهايته فيقول فيم قضى نصف قرن بين الغابات والأحراش أفي هذه الـرحلات القلـيلة الذي أثبتها في هذه الصفحات فجوابي له ليس هناك تناقض بين

العـــنوان والدافع وقد قلت أني لم اقدم على تدوين كل الرحلات التي قمت بها طيلة نصــف القرن هذا إنما اختصرت على تدوين المواقف والحوادث ذات الشأن التي تســتحق الذكــر التـــي يجد فيها القارئ الكريم متعته ولو أرسلنا القلم على سجيته وأطلقنا له العنان حتى فيما سطرت لملا حيزاً من الورق ومدة من الزمن ولا زال في الذاكرة شرحاً أوفى واعم ولكن آثرت في الوقت الحاضر أن اكتفي بما قل ودل

وبما أن هناك بين الغابات حيوانات أخرى لها خطورتها لابد من أن اذكر منها شيئاً تعميماً للفائدة مثل كلب السمع وهو من الحيوانات الشرسة ولها هيئة الكلب من حــيث الــوجه والأرجل والوجه الطويل غير أن لونه كلون الذئب يسير في شكل جماعـــات يتصـــيد الغــزلان والتيتل والكتمبور وبين هذه المجموعات القليل منها اللاحــق أما البقية تعيش على حسابه وعالة عليه وقد يجد فرصته بعد نزول المطر تبتل الأرض فيجد الصيد صعوبة في الجري بعد ابتلال الأرض فتغوص أظلافه في الطين فيجد كلب السمع فرصته لانقضاض عليه وهي يكون مجموعة تعاونية بمعني الكلمة فمن خواص المجموعة حمايته من المطر بالوقوف فوق كل كلب سريع ليجد نشـــاطه بعد أن قامت المجموعة بحاميته من المطر والبرد فالسريع منها يقتل ولا يأكل بل يقتل ويتركها وراءه ليلحق بأخرى وهكذا من ورائه تأكل المجموعة . أما خطره على الإنسان عندما يلقاه منفرداً وهو في حالة جوع فأول ما يعتمد عليه هي إثارة التراب ليملأ عينيه ثم ينقض عليه وبعمله هذا يشبه عمل الذئاب.

ومـــا دمت قد ذكرت كلب السمع لابد من ذكر حيوان صغير في حجم الهر وهو أبا دريـــان حــيوان أحمــق شرس اسود اللون شجاع يهاجم الإنسان قبل أن يهاجمه خصوصاً إذا وجدته مع أنثاه في وقت اللقاح فانه لا يفارقها غيوراً عليها وإذا مرت الأنثى بغصن شجرة أو قشة في الطريق لا مس جسمها رجع إليها وقطعها بأسنانه الحـــادة تخافــه كل الحيوانات الصغيرة آكلة اللحوم أو آكلة القش ويتجنب الإنسان لقـــاءه لأنـــه يعمل جاهداً للوصول إلى كعب الرجل يعمل على أسنانه في عصب الـــرجل الخلفـــية ، مـــن خواصـــه أن جسمه لا تخترقه الأسلحة النارية والبيضاء

كالحـــربة والســـكين ولا تميته إلا العصا في أم رأسه ولذلك يتحاشى المرء ملاقاته وكما انه ليس من الحيوانات التي يؤكل لحمها .

أبو شوك

وهو نوعان نوع صغير يطلق عليه اسم القنفذ وهو معروف يعيش في كل مناطق الســـودان ويأكـــل العشـــب يتكور وينطوي علي نفسه بعد أن يدخل رأسه ورجليه ويصبح كره من شوك عندما يشعر بأي خطر مداهم وله عداوة متأصلة مع الثعابين فمـــا وجدنا ثعباناً إلا وتعرض له.واخذ يتمرغ عليه بشوكه حتى يدمي جسم الثعبان وينشر السم في جسمه فيميته .

أمـــا ما يسمونه نعجة أبو شوك فهو اكبر حجماً من النوع الأول يكثر ويعيش داخل الجحـــور مـــع أولاده ولا يخرج للرعي إلا ليلاً يحمل فوق ظهره شوكاً طويلاً قد يصـــل طول الواحدة إلى ثلاثين سنتيمتر زاهية الألوان حادة الأطراف وهو يتحكم فـــيها يطلقها كالسهام تغوص في الجسم ومؤلمة ويصطادونه بالكلاب المدربة لان بعـــض الكلاب تخاف نباله أما الذين يمارسون صيده من الأهالي فهم يلبسون فراء الحـــيوان للوقاية من هذه السهام فهي لا تقي إنما تخفف من وطأتها وهو بطئ في جريه يمكن للإنسان اللحاق به ويصطادونه من اجل لحمه الذي يصفونه اكثر الناس إنها من اللحوم المفيدة للإنسان خصوصاً أمعاؤه لان حياته تعتمد علي أكل عروق الأشجار وهي تغنيه عن طلب الماء طول فصل الصيف ويقال أنه إذا جففت أمعاؤه بما تحتويه من فرث تشفي الكثيرين من الأمراض الباطنية بعد غليها وشربها وتزيل كثيـــر مـــن الأورام الخارجية بطريقة لبخها فوق الأورام أما لحمه من ألذ اللحوم ويصل وزنها إلى خمسة كيلو .

ويتواجد في كثير من أنحاء السودان وفي الأماكن الهادئة البعيدة عن العمران وفي المناطق الزراعية ليتغذى من مخلفات المزارع من حبوب متساقطة وغيرها ويتوالد بكثـــرة بمعدل خمسة أو ستة للأنثى الواحدة ولا تخرج صغاره للرعي معه إلا بعد أن يـــنمو شوكها وتجد القدرة والسيطرة عليه في حالة الدفاع عن النفس ويعتمد في

عيشه على الأبوين حيث يأتي بما يحتاجون إليه من غذاء.

البطيخ

قــد يتبادر إلى الذهن ونحن نضع هذا العنوان إننا نستهزأ بعقول الناس باعتبار أن البطيخ شئ معروف عند كل سكان السودان يقومون بزراعته ويباع في أسواقهم فما هــو الجديد الذي غاب عن عقول الناس منذ آلاف السنين ويحتاج الآن إلى تعريف وأنا إذا اكتب عن البطيخ لم اقصد هذا النوع المعروف عندنا ويعتبر من الكماليات ولــيس لــه مكانة في حياة الناس إنما اعني نوع آخر يزرع في إقليم كردفان في مساحات واسعة ويحصد ويختتزنه الأهالي للاستفادة منه طيلة فصل الصيف عندما ينضــب معين الماء وتجف مياه البرك والمستنقعات ويقل مخزون الماء من شجر التبلدي فأي أنواع البطيخ هذا انه نوع خاص يسمي الكردفادني يلعب دوراً هاماً في حــياة سكان تلك المناطق عند حلول فصل الصيف وتتباعد موارد المياه . وقشرته الخارجــية قــوية وسميكة ذات خطوط خضراء تميل إلى السواد وصفرة في بقية الجســم بين الخطوط لبه أبيض يميل إلى الصفار عند النضوج حلو المذاق قد تفوق بعض أنواع الفاكهة حتى قصب السكر والعنكوليب ويعتمد عليه سكان القرى عندما يصعب الحصول على الماء وفي هذه الحالة يلجئون لإستعمال هذا البطيخ وله قوة احتمال للتخزين بسبب قشرته السميكة وهو يحتفظ بكينونته دون أن يتعرض للتلف أو التمــزيق لا فــي أجزائه ولا في محتوياته وهو يحمل بين لبابه كمية كبيرة من الماء الحلو يكفي لشخصين أو ثلاثة على حسب حجمها يأكلون لبها فتزيل عنهم ألم الجــوع والعطش ويشربون ماءها لتزيل عنهم حرقة العطش وينتفع بقشرها كعلف للدابة وطريقة استعمالها لا يقطع بالسكين كشرائح كما هي العادة في المدن بل يقطع على نصفين ويقدم كل نصف أمام شخص أو اثنين ، وتستعمل الأيدي بغرز الإنسان أصــابعه فــي لبها وينتزع جزء منه ويضعه في فمه من هذه العملية تنساب المياه غزيــرة ترســب في القاع وبعد الفراغ من عملية أكل اللب تتوفر كمية من الماء يشــربها إما طريقة التخزين فهي لا تحتاج إلى ثلاجات ولا آلات حديثة بل يوضع

علـــى سيداب أو على الأرض مباشرة في شكل هرمي فوق بعضه تظلله قطية من القش لتغطية حرارة الشمس وتغطى بسياج من القش أيضاً لتخفف عنه تأثير غلواء ريح السموم .

وإذا أوردت ذلــك لــيس لأهميته في حياة الكردفانيين فحسب بل قصدت به أيضاً وسيلة لأتوصل بها إلى غاية أضعها في شكل سؤال أمام هيئة البحوث لا لأنال بها أســبقية ولا مــبادرة بل سؤال من يجري وراء حقيقة أو جاهل يريد أن يتعلم لا اكثــر ولا اقل والسؤال هو بعد أن تأكد عندنا وجود كمية كبيرة من مادة السكر في هــذا الــنوع فهل من الممكن استخلاصه من هذه العصارة بعد تنقيته من الشوائب العالقة به وإيجاد طريقة لانتزاع وتبخير الماء الزائد للحصول على نوع من العسل يصــلح كنوع ثان مع عسل القصب ، أو نوع من المربة وإعطاء الاعتبار اللازم لمســألة التكالــيف . وهذه مناسبة طيبة ذكرتني اختباراً وقع أيام حكومات ما بعد الاستقلال كان السيد منصور محجوب يشغل وظيفة وكيل أول وزارة التجارة وكان مكتبه قبل نقلها إلى مكانها الحالي يقع بالقرب من المسله على تقاطع شارع الجامعة وعلــى عــبد اللطيف بالخرطوم تطل واجهته على الشارع الرئيسي وكنا نسير مع الأخ المــرحوم عــبد الرحيم نمر طيب الله ثراه وكانت عقارب الساعة تقترب من الســابعة مســاء لفــتت نظرنا الأنوار المضاءة والنوافذ المفتوحة تدل على وجوده فدخلــنا البــناية واستأذنا للدخول فأذن لنا ووجدناه يجلس وأمامه علبة من الصفيح يفحص محتوياتها ويكتب علي أوراق أمامه فقدم لنا هذه العلبة وهي مليئة بمسحوق ابــيض ناصع جميل طلب منا نتذوق طعمه فإذا هو سكر قال هذا السكر مستخرج من ذره الفيتريته المعروفة استخلص في مصانع خاصة بعد أن طلبت الوزارة ذلك وأرســلت كمية من ذره الفيتريته وكانت النتيجة وجود سكر يمكن استخلاصه لكنه كثيــر الــتكلفة لا يصلح معها طرحه في الأسواق وبيعه للجمهور بأسعار مناسبة ولذلك صرفت الحكومة النظر عن التفكير في طريقة الاستفادة منه في هذا المجال فإنــنا نحمد للحكومة موقفها هذا وتفكيرها في إيجاد بدائل أخرى لاستخراج السكر

مـــن غير قصب السكر والبنجر الذي سيجيء دوره بعد آن يستقر الجنوب وتزرع المســـاحات مـــنه ويمكن الاستفادة منه كنوع آخر لاستخلاص السكر خصوصاً في مـــنطقة غرب الاستوائية حسب صلاحية المناخ والتربة تتيح الفرصة أمام الحكومة أو المســـتثمرين الأجانب فرصة الاستفادة منه دون تكلفة تذكر نسبة للأمطار التي تستمر تسعة اشهر متوالية ولا يحتاج إلى ري صناعي وبذلك قد تساعد قلة التكلفة فـــي انخفاض الأسعار بالنسبة للمستهلك إن لم يصلح لشرب الشاي يمكن الاستفادة مـــنه في صنع أنواع المربة أو كعسل لتقينا عن استيراد هذا النوع وغيره بواسطة العملات الصعبة ونكتفي ذاتياً من مواردنا المحلية .

حب العروس

لا يخـــتلف اثـــنان بـــان الـــذهب معدن نفيس غالي القيمة وقد ارتفعت قيمته في السنوات الأخيرة أضعاف أضعاف ما كانت عليه قبلها ولذلك وضع له ميزاناً خاصاً شديد الحساسية يتأثر بالكبيرة والصغيرة ليعطي كل ذي حق حقه بائعاً كان أم مشتر فـــإذا ما جئت للصائغ وعرضت عليه قطعه من الذهب وضعها على الميزان قائلاً إنها تزن نصف أوقية إلا ثلاث حبات مثلاً فما هي هذه الحبات وما وزنها ما جعلها تلازم وتتدخل في وزن الذهب وتعتريك الدهشة لو علمت إنها حب العروس حمراء اللون بها دائرة سوداء على رأسها وهي ثمرة نبات متسلق من فصيلة اللوبيا وينمو فـــي الأرض الطينية التربة المخلوطة بالرمال وفي الأجواء التي تميل إلى الرطوبة ويكـــون معدل الأمطار فيها فوق الوسط كمناطق اعالي النيل والاستوائية ومناطق بحـــر الغـــزال وهذا الحب له خاصية لا تجدها في كل أنواع النباتات الأخرى من حـــيث الاحـــتفاظ بشـــكله ووزنه لان بعض النباتات الأخرى تتأثر في حالة وجود كفايتها من الري فتحافظ على مستواها من النمو فيأتي ثمرها محتفظاً بشكله ووزنه وفـــي حالة عدم الري الكافي تضمر الثمار وينقص مستواها من حيث الوزن . أما حب العروس هذا لا يتأثر بقلة مياه الري ولا بكثرتها وهو في كلا الحالتين يحتفظ بـــوزنه وحجمـــه ولذلك اصبح ملازماً لأوزان الذهب كما انه يستعمله المشعوذون

فـــي أبخرتهم التي عبارة عن اللبان والقرض والشب بطرد العين الشريرة والجدير بالذكـــر إني لم أجد ولم اسمع عنه انه يؤكل رغم انه من فصيلة اللوبيا ولم اجرب مقدرة النار على التأثير فيه إن استعمل كبليلة .

من هو الصياد

للوصول إلى مرتبة الصياد لاشك إنها شاقة وعسيرة وليست بسهلة ميسورة كما يتصـــورها الـــبعض بـــل تحـــتاج إلى مؤهلات خاصة منها ما هو مكتسب بعامل الممارســـة الطـــويلة والتجارب المريرة ومنها ما هو من جبلة الإنسان كالشجاعة والصبر وسرعة البديهة وحضور الذاكرة فما كل من يجيد الرماية أو إصابة الهدف يســـمي نفسه صياداً لأن مواقف الصيد كثيزة ومتعددة ولكل موقف يتطلب شجاعة خاصة وقلب خاص فالقلب الذي معك وأنت أمام الدورة المثبتة لتتعلم عليها الرماية يختلف عن القلب الذي تواجه به حيوان كلبي عرف وهو حيوان يشبه الحصان قوة وجســـماً والقلـــب الذي تلافي به بقية أنواع الصيد الأخرى يختلف عن القلب الذي تـــواجه بـــه الأسد وهذا السلم المتدرج مثله كمثل الطالب الذي يبدأ حياته التعليمية بالروضـــة ثم يتدرج إلى أن ينال الدكتوراه وبما أن المثل القائل (لكل مقام مقال) فهـــو ينطبق على الصياد فلكل موقف يقفه الإنسان أمام الحيوان له قلبه الخاص خذ مثلاً قال الشاعر : -

أفاطم لو شهدت ببطن خبت　　　　لقد لاقي الهزير أخاك بشراً

فـــي قصيدة طويلة كنا نحفظها ونحن في السنة الثالثة كتاب وكان يصف موقفه مع الأســـد وكـــيف صـــال وجال معه وهو على ظهر فرسه فلما رأى أن الفرس ربما يصـــبيه شـــيء مـــن الوهن أو الخوف ترجل عنه ووجد الأرض اثبت منه ظهراً وبتصـــرفه هذا برهن عن شجاعة فائقة . وقال شاعر آخر ربما يكون أبو الطيب المتنبي :-

وما أنا بصياد الأرانب مثلهم　　　　ولكني على حياتهم ألح القفرا

اثـــبت فـــي قصيدته هذه ما يقيد أن صيد الأرانب يختلف عن صيد الحيوانات التي

تسكن القفرا مثل السباع والأفيال والجواميس البرية ولي هنا ملاحظة لابد أن أبديها مـــع اخـــتلاف الـــزمن واختلاف نوعية الأسلحة المستعملة في العصور الوسطي كالســـيف والرمح والسهم هذه هي الأسلحة التقليدية التي تستعمل في الحروب وفي الصـــيد فإذا قارنا بين من يلاقي الأسد بالسيف اكثر شجاعة من ممن يلاقيه بالرمح فالمواقف تختلف فالأول ليس بينه وبين الأسد إلا متر واحد وهو طول السيف ، أما موقـــف الـــذي بيده الرمح فقناة الرمح في حدود أربعة اذرع وهو يعلم إذا أصاب فريســـته لا يمكن الوصول إليه لان الحيوان كلما حاول الوصول إليه فسنان الرمح يغرز في جسمه وأما رامي السهم فموقفه كالرامي بالسلاح الناري في العهد الحديث وهذا التباين في المواقف الثلاثة لا يجعل الفارق كبيراً في درجات الشجاعة كما إننا لا نـــريد أن نقلـــل مـــن درجة الشجاعة بعد ظهور الأسلحة النارية الحديثة ولكن التفاوت في الدرجات لازال موجوداً يشعر به كل إنسان .

وهـــناك بعـــض المـــؤهلات التي يجب أن يكون سلاحه محشواً بمجرد أن أطلق رصاصـــته الأولـــى بطـــريقة تلقائية وان يصغي للصدى الذي ينعكس من إصابة رصاصـــتك للحيوان وأن تعرف إن هي كسرت عظماً أو اخترقت اللحم ولكل حالة صـــوت يعـــرفه الصياد بحكم ممارسته الطويلة وحضور الذاكرة كل ذلك قبل أن يســـمع انفجار البارود وخروجه من فوهة السلاح وهذه حالة لا يعرفها الكثير من الصيادين ويروا في ذلك مبالغة قد يؤدي إلى الكذب لكنها الحقيقة التي لا مراء فيها وقـــد لا تجد بين كل عشرين صياد واحداً منهم عرف مثل هذه الحالة أو شعر بها وهناك حالة أخرى معروفة ومشاهدة لكنها بين طبقة معينة من الصيادين هي وقوع الحـــيوان علـــى الأرض قبل انفجار البارود وحالة ثالثة هو أن تنظر إلى الحيوان وينكمش أو يرتعش جسمه قبل انفجار أيضاً هذه الحالات المذكورة قد لا يدركها إلا من أوتي قدراً من حضور الذاكرة ورباطة الجأش وحدة السمع .

في حالة مهاجمة الحيوان سواء أصيب بجرح أو أخطأته الرصاصة فلا تتحرك من مكانـــك ولا تطلق النار عليه أثناء جريه نحوك إلا بعد أن يقترب منك ولا تقم إن

كنت جالساً مع السيطرة على أعصابك فان أي حركة منك تفقد الكثير من السيطرة علـيها وعلى الموقف وأي رجفة تصيبك تجعل رمايتك خبط عشواء ودون جدوى فتقع في الخطر .

اعلم أن للصياد كمبيوتر طبيعي وفي لحظات قصيرة ويختصر الوقت ويعطيك النتـيجة لتتصرف بمقتضاها أسرع بكثير مما أنتجته المصانع الحديثة ولنا تجارب في ذلك كثيرة ، منها بينما كنا نسير أنا ومحمود والخبير نقتفي اثر جاموس أصابته طلقـة لم تبلغ منه مقتلاً وكان الخبير في المقدمة ومحمود خلفه وكنت أسير خلفهم مـر الخبيـر أمـام شجرة قائمة على طرف الشارع تتدلى أغصانها حتى تلامس الأرض وتنمو تحتها أعشاب طويلة تتشابك أطرافها مع أغصان الشجرة ومر عليها محمـود وجاء دوري فلما جاوزتها بنحو عشرة أمتار تقريباً ونحن نمشي مطمئنين مـادام الخبير يمشي وراء الدم لكن الجاموس بمكره وحيله بعد أن تجاوز الشجرة وابـتعد عنها قليلاً قفل راجعاً واحتمى بأغصان الشجرة المغطاة بالأعشاب الطويلة كـل ذلك للتمويه والتعمية ليجد فرصته في مهاجمة متتبعيه قبل أن تصلنا الإشارة من الخبير بأنه غير اتجاهه لنزداد حذراً سمعت وقع أظلافه يندفع ورائي في سرعة شديدة والتفت ورائي فإذا هو يهاجمني من الخلف واشتغل الكمبيوتر الطبيعي ومر بذاكرتي شريط الحادث وأوحي إلي لو ضربته وهو مقبلاً نحوي فأصيبه في نحره وهـو مكان غير مميت ولكن لابد من عمل شئ يغير من اتجاهه فليس مكاناً يمكن أن يثنـيه عن مهاجمتي إلا الجبهة ولعلمي أن الجبهة مغطاة بالقرون وضع طبيعي واختـراق الطلقة لهذا القرن ضرب من المستحيل فأطلقت النار عليه فأصبت قاعدة القـرن وقـوة الصدمة كانت كافية لتغيير اتجاهه فانحرف نحو اليمين ودخل بين الأعشـاب انظر إلى الزمن الذي مر على حيوان يجري وراءك ما بينكما إلا نحو عشـرة أمـتار وبين النتيجة التي توصلت إليها عن طريق الكمبيوتر الطبيعي وكم اختصـر من الزمن وأعطى النتيجة وتصرفت بوحي منه ولو اختل أو تأخر عليّ قدر نصف الثانية لكانت النتيجة موتاً محققاً.

وعلى الصياد أن يتحاشى ضرب الأفيال إن كان القطيع كبيراً لسببين أولاً إذا أصبت فيلاً وهو وسط السرب يجد مساعدة منها فتتقدم الأفيال لمساعدته بان يضعوه بين فيلين يسنده كل واحد من ناحية ويجروا به المسافات الطويلة ولا يتخلوا عنه إلا إذا عجز عن الحركة من شدة الإصابة أما الثانية ففيها خطر على حياة الصياد نفسه لان الأفيال وهي في غفلتها أثناء رعيها إذا فاجأها صوت إطلاق النار لا تعرف مصدره فتجري على غير هدى وتدور في محيط ضيق وربما يجدك ويعثر على مكانك فتهاجمك وقل أن تنجو منها وفي ذلك أمثال كثيرة ، منها كان لنا أخ صديق معروف بشجاعته يحمل سلاحاً نارياً 375 عادة وكانت على تلك الأيام أن سلطات الثروة الحيوانية لا تمانع من إعطاء حاملها رخصة لصيد الفيل واسمه عبد الله كرار وخرج نحو غابات نهر السوباط بعد أن تحصل على الرخصة اللازمة وكان معه جماعة من الأهالي يستعين بهم في مهمته فوجد سرباً من الأفيال على ارض خالية من الأشجار إلا القليل المتفرق منها واتجه نحو اقرب واحد منها ورماه بطلقة فهاج السرب وماج ولا يدري إلى أين يذهب فإذا بفيل يجري من غير هدى فوجده أمامه ولما شعر عبد الله بالخطر الذي داهمه من الخلف رمى السلاح بعيداً لئلا يكسرها الفيل بخرطومه ووضعه على الأرض واخذ يعمل فيه برجليه وخرطومه حتى اصبح قطعة من اللحم لا عظم فيها وتركه وانصرف مع بقية السرب ووصل الخبر ونقل إلى مثواه الأخير ألا رحم الله عبد الله كرار .

كما إنني أحذر من التعرض لأنثى الفيل عندما تمشي مع صغيرها فهي شديدة الحرص عليه فهي تهاجم بشراسة كل منّ يعترض لطريقها خوفاً على صغيرها .

كما إن الصياد لا يتعجل الوصول إلى الحيوان المصاب إلا إذا تأكد من موته لان من طبع بعضها المكر والخداع .

أن يصحب معه زناد (ولاعة) لان الكبريت لا يعمل في الطقس الرطب وان يكون بين معداته صفارة ليستعملها للفت نظر مرافقه .

وان يحمل معه كمية من الرماد ليعرف به اتجاه الريح وهذا قليل من كثير لكنها

تعتبر مبادئ أساسية من ضروريات الصياد .

رخصة الصيد

استطعت في عام 1926م أن انتزع من بين فكي الأسد البريطاني الموافقة لمشترى بندقــية رصاص رغم أن الجو السياسي كان ملبداً بالغيوم ولم تمضي على أحداث 1924م إلا ســنه واحــدة وبضع شهور ولا زال المستعمر يجد مرارتها في حلقه وعندما عقدت العزم على تنفيذ ما كان يداعب خيالي من اقتناء هذا السلاح شعرت بــان هناك بعض العقبات قد يتخذها المستعمر ذريعة لرفض هذا الطلب منها حداثة الســن حيث كنت لم أتجاوز العشرين عاماً إلا بأشهر قليلة وخشيت أن يضعوا في الحســبان سوء استعمال هذا السلاح فأقع في المحظور ثانياً لتوقيت حركة 1924م لازالــت عالقــة بالأذهان ثالثاً خلافاً للعادة المتبعة وهي أن تطلب بندقية خرطوش أولاً بحجة ضرب الطيور لاستعمالك اليومي وأنت بعيد عن المدن وضعت كل هذا في الحسبان وكنت أتوقع الفشل اكثر من فرصة النجاح رغم كل هذا لم تثنيني عن عزمــي وتقــدمت إلى مفتش مركز ملكال بطلب رسمي وسلمته يد بيد ولم يحتاج الأمــر إلى حوار طويل فواجهني بأول سؤال عن طبيعة عملي فأجبت وكيلاً لأبى المقــيم بســوق ملكال وعملي هو التجول بين قري الأهالي ثم قال ولم طلبت هذا الســلاح قلت لان عملي التجاري يقتضي أن أسافر علي ظهر دابة وكما تعلم ان الغابــات والأحــراش كلهــا مليئة بالذئاب والأسود والنمور مما يسبب خطراً على حياتــي وحــياة الدابة التي اركبها فأمسك بورقة وكتب عليها قد تصدق إلى فلان الفلاني بمشتري بندقية رصاص ووقع عليها بإمضائه وناولني إياها وقال عندما تجد الســلاح احضر معك هذه الورقة فكدت لا أصدق وبهذه السهولة خرجت من عنده وأنا أكاد أطير فرحاً متي اصل السوق لأخبر الأصدقاء وبهذه المغنم وأنا أباهي به من هم اكبر مني سناً ولقد كانت هذه الواقعة حديث الناس في مجمعاتهم حيث كنت اصــغر تاجــر يملــك بندقية رصاص وقد فشل الكثيرون في اقتنائها وكانت أمنية الكثيــرين ممن سبقوني ولم يحصلوا عليها وكانت رخص الصيد غير معروفة في

تلــك الأيــام ولا يوجد حرس للصيد لان قانون رقابة الحيوانات لم يصدر إلا بعد عشرة سنوات بعد ذلك حيث ظهر إلى الوجود 1935م وعندما انتقل عملي التجاري إلــى الليــري بجــبال النوبة لم يظهر القانون وكان الأهالي يمارسون عملية صيد الحيوانات البرية دون رقيب وانتقلت بعملي التجاري إلى مديرية بحر الغزال فكانت اكثــر فوضــي رغم صدور القانون حيث كانت الرقابة قاصرة على الحظائر التي تقــوم بحراســتها أفراد حرس الصيد أما في الأماكن الأخرى فلا تجد رقابة ولكن عندما انتقلت إلى إقليم الاستوائية فكان الضبط والربط وكثرة التجنيد لحماية الصيد وفــي كــل غابة وفي كل قرية تجد مسئول ولذلك لابد من استخراج رخصة صيد وهي ثلاث درجات أ–ب–ج .

فالأولــى غالــباً ما يقتنيها حملة الأسلحة ذات العيار الكبير لتكون نواة لاستخراج رخصــة لصيد الفيل وتسمح السلطات لحاملها بأعداد كبيرة وكثيرة على حسب ما يحــتويه الجــدول وقيمتها ست جنيهات أما حرف ب– غالباً يختارها الأجانب لقلة حيواناتها لكن تحتوي على بعض حيوانات نادرة وقيمتها جنيهان . أما الحرف ج– فهــي الأكثــر تداولاً بين الصيادين لان حيواناتهم اكثر خصوصاً في أنواع الصيد الصغيرة كالغزلان بأنواعها وقيمتها جنيهاً واحداً .

هــذا بالنســبة إلى بقية الصيد الأخرى أما بالنسبة إلى الأفيال فان لها رسوم خاصــة يدفع بعضها فور استخراج الرخصة الخاصة ويدفع الجزء الباقي بعد قتل الفــيل وبعد وزن السن وإعطائها نمرة وبذلك تصبح جاهزة للبيع وهذه الإجراءات تعمــل كاحتياط لئلا يلتبس الأمر على المسئولين من أن هذه السن مرت بمراحلها الاعتــيادية رغم وجود الوصل المالي توضع على السن بطريقة ختمها بالنار على ظهر السن .

أما الأسلحة التي تمنح بموجبها رخصة الفيل وعلى حسب ما شهدت في الأقاليم الجنوبية فهي تبدأ من375 مقنم عادي375 مقنم هولاند آند هولاند وهذا الأخير من أجــود الأنواع التي أخرجته المصانع البريطانية ويحمل في جوفه خمسة طلقات ثم

404 وهـو يختـزن في جوفه خمسة طلقات أيضاً غير أن هذا السلاح قد أوقفت الحكومة تداوله بين أفراد الشعب حيث جعلته وقفاً على حرس الصيد بعد ذلك وجب أن نذكـر 450 و550 وهذين النوعين ذو ماسورتين أشبه ببندقية الخرطوش ولا يسع إلا لطلقتين فقط وهنا تقتضي الأمانة أن ابدي ملاحظة في غاية الأهمية لينتفع بها من الذين يأتون من بعدنا أن كتب لهذه الثروة أن تنمو بعد ما لحق بها من قتل وتقتيل حتى يكاد أن يصل إلى درجة الإبادة وأنا ابدي هذه الملاحظة إنما هي نتيجة ممارسـات طويلة من حيث طبيعة الحيوان وأماكن تواجده ووجدت لزاماً عليّ أن ألقـي نظرة على هذه الأسلحة فمن المعروف أن كل ما كان العيار كبيراً معناه أن الطلقـة اقوي تأثيراً على الحيوان وهي التي صنعت خصيصاً لتناسب هذا الحيوان الضخم غير اختلاف البيئة وطبيعة الأرض لها تأثيرها مما يجعل بعضها لا يصلح اسـتعماله فمـثلاً أن كـل أنواع الأسلحة المذكورة أعلاه وغيرها صالحة في إقليم أعالـي النـيل وإقليم بحر الغزال وإقليم شرق الاستوائية لان هذه البقاع ليست بها غابات كثيفة تحجب عنك رؤية الصيد فيمكنك أن ترمي الفيل على بعد مائتين ياردة أو اكثر وفي حالة مهاجمة الفيل يمكن وان تستعمل سلاح ذوات الماسورتين عندك فرصـة لتحشو سلاحك وتزوده بطلقتين وتنظر المهاجم لان الوقت كاف لديك وهو يجـري نحوك أما في مناطق غرب الاستوائية فالموقف يختلف فالغابات كثيفة ولا تسـتطيع أن تجـد فرصتك لرؤية الفيل الأعلى بعد خمسين ياردة على الأكثر ففي حالـة هجوم الفيل لا يعطيك الفرصة لحشو سلاحك إن كان من ذوات الماسورتين لقـرب المسافة مما يسبب خطراً عظيماً على الصياد فكلما كان السلاح يختزن في جـوفه أربعـة أو خمسة طلقات يعطي صاحبه فرصة للدفاع عن نفسه في غابات الاستوائية، وأنا إذا ابدي هذه الملاحظات لأضعها بين يدي الهواة الذين يمارسون هذا العمل بغرض الهواية لا للكسب المادي أما الذين همهم المال أو الشهرة فعليهم أن يصطحبوا من جنود حرس الصيد ليكون عوناً لهم في حالة الهجوم لان الهاوي يجد لذته ومتعته في التصدي للحيوانات بنفسه لا يميل إلى مصاحبة حرس الصيد .

صورة لرخصة الصيد

اورنيك مالي إيرادات نمرة 16

وزارة الثروة الحيوانية

مصلحة الصيد والأسماك

رخصة صيد عادية

صادرة بموجب قانون رقابة الحيوانات البرية سنة 1935م

الاسم

العنوان

محل الإقامة

حامل البندقية نمرة

ماركة

عيار

نمرة رخصة السلاح

منصرفة من مديرية

مصرح له برخصة اعتيادية حرف

وبهذا صرح له لصيد وقتل الحيوانات وفي نفس الأماكن كما هو موضح بالجدول الأول من قانون رقابة الحيوانات حسب المسموح له به في حدود درجة هذه الرخصة

الرسم البالغ قدره جنيهاً

تحصلت بالإيصال نمرة تاريخ

توقيع

مدير الثروة الحيوانية والأسماك

فرصة لن تعود

حرفي (لو وليت) للتمني وهما الحرفان الملازمان للإنسان في جميع أعماله

وتصرفاته ولا يستطيع الفكاك منها ولا التخلي عنها في حالتي النجاح والفشل وفي حالتي الغنى والفقر ففي حالة الفشل يقول لو فعلت كذا لكان النجاح اكبر مما أصبت وفي حالة الفشل يقول لو فعلت كذا لكان الفشل اقل مما حدث وهي من طبيعة الإنسان التي خلقت معه ويرجع ذلك كله إلى الطمع وحب الخير وعدم الرضى بالقليل أو بالذي أصاب ومن حكم الشيخ فرح ود تكتوك في هذا المعني وفي حالة زراعة السمسم قال (اب تقاة هدم السواه ندم الخلاه) قالوا كيف ذلك قال إذا زرعت وأصبت وفرة في المحصول تقول لو توسعت في الزراعة لأصبت الخير الكثير وفي حالة الفشل تقول لو لم ازرعه لسلمت من هذه الخسارة الفادحة أما معنى قوله (أب تقاة هدم) عادة السمسم عند حصاده يربط على شكل مجموعات متراصة رؤوسها إلى اعلي وبعد الجفاف وتفتح اللالوبة التي بداخلها حب السمسم يؤتي بمشمع أو ثوب من الدمورية وتفرش على الأرض ليصبوا عليه السمسم معنى ذلك انه لا نقاه له كالذرة ولا يدق بالعصي فهذا المثل ينطبق علينا تماماً ولم نشعر بالندم إلا بعد فوات الأوان وبسبب ضيق ذات اليد وعدم توفير الإمكانات وصعوبة الحصول على آلة التصوير السينمائية منها والعادية ومما يحتاجه الموقف من إجراءات تبعاً لذلك أقول ضاعت الفرصة ولن تعد نحن الذين تسلقنا الجبال الوعرة ودخلنا الغابات المظلمة وعايشنا الحيوان في مرعاه وداهمناه في أماكن نومه وعرفنا الكثير عن عاداته وتحركاته فان كنا نملك آلة تصوير سينمائية وقمنا بتسجيل كل هذه المواقف التي حواها هذا الكتاب لكان إثباتاً بالدليل القاطع الذي لا يتطرق إليه الشك أو طبع علي شريط سينمائي لكان لدينا الآن رصيداً يعتز به السودان وللفت نظر الدول العربية وغيرها ولقصده الملوك والأغنياء والسياح بغرض الترفيه لما يحويه من مناظر طبيعية خلابة وحيواناته كالأفيال وكيف تعيش وسط الغابات وكيف تجمعاتها على شواطئ الأنهار والمستنقعات وهي حرة طليقة وكيف يساعد بعضها البعض في حالة تعرضه للإصابة سواء من جراء إصابته بنيران الصياد أو مرض ألم به وكيف يتعاون بني جنسه معه للبعد به من منطقة

الخطـر وكـيف يسعى الصياد بين الغابات المظلمة والمتشابكة الأغصان للوصول إلـيها ومـواقفه معهـا في حالة الهجوم وكيف كان التخلص منها وفي حالة تتبع الجامـوس وكـيف يعـيش في أماكن رعيه وكيف التجمع في أماكن نومه وكيف تجمعاته في شكل اسر كل أسرة ترقد متجاورة وكيف تحمي بعضها بعضاً في حالة إصابة واحد منها وكيف تستجيب لنداء الاستغاثة من واحد منها وكيف يتعرض إلى الأسـد إذا مـا فتك بأحد صغارها وكيف ينقض عليه بقرونها الحادة رد على ذلك ووحـيد القرن من حيث ندرته وبتواجده في بعض مناطق بحر الغزال وقد لا تجده فـي بعـض مـناطق أفريقيا وكما أن السباع والنمور والذئاب وبقية أنواع الصيد الأخرى التي كانت تعج بها غابات جنوب السودان أصبحت اليوم خالية تماماً بسبب القـتل والتقتيل لغير ضرورة حتى تعرضت بعض أنواعها إلى درجة الإبادة لكثرة الأسـلحة الـنارية التي دخلت جنوب السودان بعد الفوضى التي عمته الذي كانت إحدى نتائجه إفلات زمام الأمر من يد الحكومة وعاثت الخوارج في الأرض فساداً ولـم يسـلم منها حتى الحيوان فقد عملوا فيه بالقتل والتقتيل إلا ما هاجر منها إلى الدول المجاورة بحثاً عن الأمن هناك ولا أذيع سراً إن قلت أن هذه الحالة قد تسببت في خسارة كبيرة على السودان بفقدانه هذه الثروة الحيوانية البرية ويحتاج بعد ذلك مـا لا يقل عن عشرين عاماً لتستعيد مكانته في عالم السياحة بشرط أن تصادر كل الأسـلحة النارية التي دخلت الأقاليم الجنوبية إبان هذه الفترة وتجريد الأفراد منها وإعدام ذخيرتها ومنع صيد الحيوان مع زيادة حرس الصيد ومراقبة الغابات مع منع دخـول أي ذخيـرة إلـى مناطق الجنوب وبذلك نستطيع حماية ما تبقى منها ليجد فرصـته فـي الـنمو والتوالد وأنا عندما بدأت باللائمة على نفسي على ما فرطنا لأسـباب كثيرة فما عذر الحكومات الوطنية المتعاقبة أو الاستعمارية بعد أن بقيت جاثمـة علـى صـدرونا نحواً من الخمسين عاماً أو تزيد قليلاً والتي كانت لديها الفرصة لتقوم بتصوير هذه الحيوانات وترصد تحركاتها في أفلام سينمائية بغرض الدعايـة إلـى أماكن السودان المختلفة الغنية بمناظرها الطبيعية وحيواناتها لكانت

ثروتنا منها اليوم لا تعادلها ثروة بسبب إقبال الملوك والأمراء والأغنياء لتتمتع بهذه الطبيعة والسياح والأجانب ولكن عائدها من العملات الصعبة اكثر بكثير من بقية مواردنا الأخرى ونحن نرى أن الفرصة قد ضاعت بالنسبة لنا في هذا المجال إلى الأبد غير أن الفرصة أمام الدولة لازالت سانحة لتعيد ما فقدت إذا اتبعت الطريق الصحيح في حماية الحيوان وتشديد الرقابة عليه وإنزال العقوبة الصارمة على كل من تسول نفسه بالعبث أو أن ينال منها خصوصاً حيوان الزراف الذي من طبعه يكاد يكون البقاء ولذلك يكون سهل المنال واخشى ما أخشاه أن يكون قد عبثت به يد الخوارج ووصل إلى درجة الإبادة هذا ما حدى بي إلى دق ناقوس الخطر ولفت نظر الدولة إلى ما حاق بهذه الثروة من فتك وتقتيل وسبق كتب لها النجاح من هذه الحيوانات فقد أخذت طريقها إلى الدول المجاورة بحثاً عن الأمن والاستقرار ولا أذيع سراً إن قلت أن هذه الحالة أضرت كثيراً في موقف السودان السياحي الذي كان قبلة الأنظار من السياح الأجانب ولن تجد الدولة فرصتها في إعادة مكانتها إلى عالم السياحة ألا باتباع الأتي :-

مصادرة كل الأسلحة التي دخلت جنوب السودان بطريقة غير مشروعة إبان فترة الحرب التي شنتها قوة الخوارج وإبادة الذخيرة وإعدامها ومنع رخص الصيد لمدة اقلها عشرين عاماً حتى يجد الحيوان فرصته واطمئنانه للتوالد والتكاثر كما اقترح بتجنيد اكبر عدد ممكن من حرس الصيد لحراسة الغابات التي تؤمها الحيوانات البرية واعتبارها حظائر مقفولة لا يسمح بالصيد فيها ولا في غيرها ولا بالقرب منها .

وان يكون حرس الصيد هذا خاضعاً لسلطة السلطان أن يوافيه بالتقارير نصف شهرية وان يرفعها السلطان بدوره لولاة الأمر في المراكز وباشتراك السلاطين في المسئولية بأخذ الأمر طابعاً جدياً ولا يجد إنساناً الفرصة في التلاعب ولا التحايل على القوانين وان تمنع إشعال النيران الموسمية التي تأتي على الكثير من الزواحف والحيوانات الصغيرة كفأر البوص وأبو جماعات والغزلان وتسبب في قتل كثير من

ذبابة النحل علاوة على تعطيل نمو الغابات كما تمنع استعمال الشباك بسببها تشعل النيــران بغرض الصيد هناك ملاحظة لو سأل سائل أين يجد إنسان الزاندي الذي يعــيش فــي الأريــاف أيــن يجد حوجتّه من اللحم بعد هذا الحصار الذي فرضته الضـــرورة أقول صحيحاً إن رجل الزاندي يحتاج لشيء من اللحم إن لم يكن يومياً فهــو أسبوعياً على الأقل أقول على الحكومة أن تدخل الأغنام في المناطق التي لا توجد فيها الذبابة أمثال منطقة امادي والمورو وجهات مريدي وداخل منطقة يامبيو ومــا حــولها وكــل مناطق طمبرة وان تؤخذ هذه الأغنام من مناطق بحر الغزال وأعالــي النــيل وهي سريعة التأقلم بسبب تقارب الطقس وملائمة التربة كما يجب علــى الحكــومة مساعدة الأهالي في تربية الدجاج بأعداد وفيرة ولو وجدت الدولة فرصــتها بان تستورد الأرانب الأليفة لتلك المنطقة تكون قد ساعدت كثيراً في حل المشــكلة المؤقــتة أما مناطق جنوب النيل الأزرق والمناطق المتاخمة لحدودنا من جهــة أثيوبيا فلا حوجه لأحد للحم في قتل الصيد إن حيث وفرته في الأسواق وقد حوجته من الأسماك من الأنهار والخيران في هذه المناطق تفرض أمام كل شخص يحمــل ســلاح ناري كما يطبق هذا القانون على مناطق غرب كردفان وكل إقليم دارفــور وليس هذا كل شيء وما هي إلا ملاحظات أرى على ما عندي من تفكير ضــيق قصــدت به لفت نظر المسئولين دون أن أتطاول وادعي أن المسئولين في وقايــة الحــيوانات أو بالثروة الحيوانية قد أهملت هذا الجانب ولم تضمنه تقاريرها وتوصياتها ولكن من باب (إيد علي إيد تجدع بعيد) أي أريد أن أضم صوتي إلى أصــواتهم المنادية بتشديد الرقابة والقائمين على المحافظة على البيئة وأمثال السيد محمــود أبو سنينة الذي هو جهينة الخبر والذي قضى في هذه المصلحة مما يكسبه خبرة بالكثير عن الحيوان وقد نجده عنده كثير من الأفكار والمقترحات ويا حبذا لو زودته الحكومة وردوه إلى العمل في الجنوب لرئاسة هذا الجانب لما له من خبرة اكتســبها من دخول الغابات ومراقبة الحيوان في أماكنه وما كان ميالاً إلى الراحة والتراخي في مكتبه بل كان دائم الحركة وان توضع بين يديه اكثر من عربة ينتقل

بها وحرسه من موطن إلى موطن لوقاية الحيوان وملاقاة المارقين والمخالفين فهو عالم ومرجع في كل ما يتعلق بالحيوان ولديه الملاحظات ولا شك انه دون مذكراته ومقترحاته وضمنها علاوة على التقارير المصلحيه فلا شك أن لديه مذكرات خاصة يحتفظ بها فأمثال هؤلاء الرجال يجب أن لا ينتهي عملهم ببلوغهم السن القانونية لأنهم يحملون أفكاراً ومعلومات قيمة علاوة على تجربتهم وتحملهم مشاق العمل داخل الغابات مما لا يتوفر لدى الكثيرين من موظفي هذه المصلحة وعلى الحكومة أن تأخذ بيده فننشر مذكراته للاستفادة منها ويكون كمكافأة على ما بذل وضحى في سبيل هذه المصلحة التي كانت على أيامه في الجنوب رياضاً وجناناً وكان الربط والنظام أولى مبادئه .

الخاتمة

ليس في مقدور إنسان يأتي عملاً ما ويظن انه يرضي ذوق كل الناس مهما أتقن أو بذل من جهد في سبيل ذلك بسبب اختلاف الأمزجة والتفاوت في درجة الثقافة ومن حيث التفكير

و النظرة وتباين الرؤى فمن بينهم من يستحسن هذا العمل وقد يستهجنه آخرون وفي المثل القائل (زينة قوم شينة آخرين) يأتي هذا مصداقاً للواقع المعاش وهي من طبيعة البشر فأمام الإنسان والحالة هذه طريقان الإقدام والإحجام فان اعتمد على الشجاعة وجعل من اللامبالاة ديدنه وسلك الطريق الأول وبنى ملكة على التفاؤل وترك الحكم للجمهور وهم أصحاب الحق في تقييم العمل فقد أصاب نجاحاً ولو لقي بعض الفشل وان يضع نصب عينيه الحكمة القائلة (إن الفشل هو أول درجة في سلم النجاح) وقد عودنا التاريخ في الكثير من الحالات بأن يكتب المؤلف كتاباً اليوم في موضوع ما وقد لا يعجب الكثير من القراء وقد نال إعجاب آخرين يرون انه إرتقى به إلى قمة البلاغة والبيان فتتلقفه الأيدي ويعتبر من احسن ما كتب في هذا الموضوع أما أن اختار لنفسه الطريق الثاني هو الإحجام واثر السلامة فقد جنى على نفسه وحكم على عمله بالفشل خوف النقد والتجريح وهذا ما

لا يسلم منه حتى عباقرة الرجال من أدباء ومفكرين وشعراء وقد أوشكت أن أقع في هذا الخطأ وكما سبق أن أوضحت قبل ذلك لكن الأبناء قد كان لهم القدح المعلى في تبديد المخاوف ولا أنكر للأصدقاء دورهم في الضغط على ومن بينهم الأخ محمود الحـــاج المهـــدي الذي كان رفيقي في الكثير من هذه الرحلات كان يقول من باب التشـــجيع (نحن لا زلنا نعض بنان الندم على ما فرطنا وتركنا الفرصة تفلت من بين أيدينا لسبب أو لآخر ولم نقوم بتسجيل كل هذه المواقف في صور فوتوغرافية عاديـــة بعـــد أن عجزنا عن الحصول على آلة تصوير سينمائية لتنير الطريق أمام أجيالنا المقبلة وأجيال ما بعد الاستقلال نضع بين أيديهم صورة حية وتسجيلاً كاملاً لكـــل هـــذه المواقف فلم إذن هذا التواني والتقاعس عن تدوين الذكريات وتضمينها كتيـــباً يكون نبراساً يهتدي بنوره كل من جاء بعدنا وقد رأيت الإشراقة إلى الظلمة ألـــيس في ذلك ما يثير اهتمامك وإني وقد نلت ما فيه الكفاية من اللوم على التباطؤ والآن بعـــد أن عقدت العزم على النول تحت رغبتهم وبعد أن شارف الكتاب على نهايـــته وقبل أن أضع القلم واطوي صفحاته وجب عليّ أن أبين ما قصدته بعملي هـــذا غايـــة بعيدة كل البعد عن الكسب المادي كما يتصوره بعض الناس لقد نشأت والكل يعلم نشأتي بين أسرة ميسورة الحال بحمد الله لم أذق مرارة العيش ولا قسوة الحياة لما أصاب والدي من نجاح في عمله التجاري مما شجعني على ممارسة هذه الرياضة بدافع الهواية وقد توفرت عندي من أسبابها منذ الصغر وقبل أن يصل إلى مداركي إنها رياضة الملوك والأمراء وأغنياء العالم وهي غريزة أصلية في نفسي وطـــبع كـــل عربـــي منذ القدم حتى جاء الإسلام واقرها ولم ينكرها إلا في أوقات خاصة كقوله تعـــالي (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم) صدق الله العظيم.

وقـــد ذكرت بعض هذه الأسباب وأوعزت ذلك لوجود السلاح الناري وفي متـــناول يدي والتسامح معي في شبيه مواقفه حتى صارت هذه الرياضة جزء من حياتـــي بجانب عملي التجاري أمارسها في أيام العطلات وفي أوقات الفراغ وتحكم

مقتضيات هذه الرياضة لا تخلو من مخاطر ومواجهة مع الحيوانات المفترسة أثناء التجوال وكانت تجري ذكراه في مناسبات على لساني أو على لسان أحد الشهود فيصفها السامع بأنها تراث شعبي عظيم وذكريات قيمة يجب أن لا تضيع بسبب الإهمال وفي جمعها فوائد عظيمة تستفيد منها الأجيال القادمة .

فنزولاً عن رغبتهم قصدت بهذا العمل المتواضع فتح الباب على مصراعيه أما من يريد التوسع في هذا المضمار حيث لم يتوفر هذه المعلومات لسوداني غيري وان وجد فهي حبيسة الأدراج والاضابير لم تر النور لسبب أو لآخر وان كان بعض الأجانب قد تطرقوا لهذا الموضوع في كتيبات بلغة أجنبية لم تجد من ينقلها إلى اللغة العربية للاستفادة منها .

وبحكم ممارستي لهذا العمل الذي اكسبني خبرة وتجمعت لدي معلومات ومما لاقيت من مواقف مثيرة مع الكثير من الحيوانات فليس إثباتها بهذه الطريقة بقصد التعريف بشخص والمباهاة أو التفاخر والذي وصل بعضها إلى درجة التهور وكان بعضها محل لوم وعتاب من معي من الرفاق فليس من طبعي هذا التفاخر لكنها الحقيقة والصدق الذي إلتزمته وكنت أرى أن دوري هنا دور المعلم أو المرشد يضع الحقائق أما الطالب ويحذره من مغبة الكل وعدم الاهتمام لا ليخفيه ليزهد في التحصيل بل ليعلم أن الدرب طويل شاق ويتطلب منه مثابرة وعناية وإني وان لم اكن معلم اليوم ومرشده فللغد وليس الغد ببعيد وللأجيال القادمة وسيجدون أنفسهم في أمس الحاجة لمثل هذه المعلومات ليأخذوا منها العبرة والدرس ولينتفعوا من تجارب الآخرين قبل الدخول في عالم مجهول وأنا إذا ركزت على الأجيال القادمة لان هذه الأجيال التي لازالت على قيد الحياة فقدت فرصتها فخلو الساحة من صيد وصياد في تلك الرقعة الواسعة التي يصل مساحتها مساحة دولة من دول أوربا إلا وهي جنوب السودان الذي كان موضع فخرنا واعتزازنا مما كان عليه من ثروة حيوانية وكانت نظرة العالم له كمنطقة سياحية قبلة الأنظار ومجل اهتمام العالم والسياح الأجانب وقد تلاشي ذلك الحلم الذي كان يداعب مخيلتنا وضاعت الأماني

بعـــد أن دوت طلقات المدافع واشتركت معها أصوات الرصاص من بنادق سريعة الطلقـــات تحصـــد الحيوان حصداً وعاثت في الأرض فساداً قتلاً وتقتيلاً من غير ضرورة فنفق أكثرها إلا من حيوان كتبت له النجاة وفر نحو الدول المجاورة ينشد الأمـــانُ والطمأنيـــنة فان استطعنا أن نسكت هذه الأصوات وأخلينا الساحة من هذا الســـلاح وهي من أوجب واجباتنا في الوقت الحاضر لاشك أن الحيوان عائد بسبب اخـــتلاف طبـــيعة الأرض بـــيْن السودان والدول المجاورة والفارق الكبير والتباين الظاهر فاتساع الرقعة وقلة السكان والطبيعة التي توفر سانحة لينمو ويتكاثر ويتوالد فـــان وفرنا له المناخ المناسب فتسترد الأرض زينتها وتعود الحياة إلى ربوعها من جديد وسيجيء اليوم الذي تعيد الأرض مجدها وتعود للغابات رونقها وبهاؤها فتغني بلابلها ويصدح كنارها على أغصانها اليانعة ويختلط زئير الأسد وعواء الذئب مع غثاء الشاه إن استطعنا أن نقوم بواجبنا نحو حماية هذه المخلوقات التي يحق لها أن تعـــيش وبذلـــنا في ذلك أقصى الجهد وجندنا كل طاقاتنا المادية والبشرية نكون قد حققـــنا إنســـانيتنا وكنا أهلاً للخلافة في الأرض وحملناها أمانة على عاتقنا ونحن مؤمنون بأداء الرسالة بجد وإخلاص .

أيها القارئ الكريم إن هذا الكتاب الذي أضعه بين يديك لم يضم بين دفتيه كل الـــرحلات والانطـــباعات فهـــي كثيرة وكثيرة جداً وقد تجاهلت الكثير منها لأنها رحلات عادية لم أجد فيها يستحق الذكر وقد تجاوزتها خوف التكرار الممل وأدخلت مكانهـــا بعض الطرف والحكايات بغرض إدخال السرور والبهجة في نفس القارئ الكريم كوسيلة للترويح للنفس بعد عودته من عمل مضن أو شغل شاق وقد ضمنته أيضـــاً بعـــض الوقائـــع التي في ذكرها ما يفيد الأجيال القادمة أو أجيال ما بعد الاســـتقلال الذين لم يجدوا فرصتهم لزيارة الجنوب وهو في قصة جماله من حيث الطبـــيعة الفاتـــنة والمـــاء المنهمر الذي يجري صافياً من ينابيعه وهو زلالاً عذباً وناهيك عن حيواناته التي تختال زهواً بين أبناء جنسها فيضيف للأرض جمالاً على جمالها وزينة على زينتها .

والآن بعــد أن نضــب معــين الذاكرة وبخلت بالمزيد وانطوت على بقايا تحتاج الغــوص وتغليب رأينا في ذلك مضيعة للوقت فآثرنا الوقوف حيث نحن إلا إنها لم تبخل بالقليل على قدر ما يفي ديناً أغرقنا فيه كرم رجل مريدي الفذ ألا وهو عباس الحــاج المهــدي شقيق محمود الذي قاسينا معه كل هذه المتاعب التي كنا نعتبرها مــتعة لا تعادلهــا مــتعة ووقفنا بجوار بعضنا عن النكبات فليس غريبا أن يكون كفرسي رهان من حيث الشجاعة والكرم وتقاسما كل خصلة حميدة .

كــان عباس من ابرز تجار مريدي بيته كعبة كل ضيف ودكانه قبلة كل زائر يحمــل بــين جنبيه قلبا رحيما يعطف على العجزة والمساكين طلق اليد كثير البذل طــيب المعشــر حسن الخلق وله الفضل الأكبر في نجاح هذه الرحلات ومن أولى أياديــه علينا وضع عربته وسائقها وما تحتاجه من وقود تحت امرنا طيلة سنوات عــدة أقولها من غير مبالغة ولا محاباة وقد تصل بعضها إلى ما يزيد عن المائتين من الأميال في الرحلة الواحدة دون أن يتقاضى مليماً واحد بقصد تشجيعنا فأنى لنا المقــدرة علــى الوفاء لمثل هذا الدين الذي غمرنا به من رأسنا إلى أخمص أقدامنا وأمــام عجزنا هذا رأينا أن نحيله إلى من وهبه هذا الكرم وحسن الخلق أن يتولى عنا الجزاء ونرفع أيدينا في حضرته يديه اكف عن الضراعة بان يجزيه كل الخير وبما هو أهله وان يلبسه ثوب الصحة والعافية ويشفيه(5) مما ألم به انه السميع العليم وبالإجابة جدير ونعم المولي ونعم النصير قال الشاعر :-

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وأقول في الختام بسم الله وبسم الله اختتمت وعلى الله توكلت حسبنا ونعم الوكيل ولا حــول ولا قــوة إلا بــالله العلي العظيم واصل واسلم على سيدنا محمد وعلى آله واتباعه في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله .

عدت على التو من صلاة المغرب ووضعت المذياع على منضدة أمامي لاستمع إلى نشرة الأخبار وكنت حريصاً على متابعتها لئلا يفوتني شئ من قرارات مجلس ثورة الإنقاذ الوطني وقبل أن أدير مفتاحه سمعت طرقاً بالباب ودخل الزائر فإذا هو السيد

الســر عمــر مدير المدرسة المتوسطة للبنات ورئيس لجنة التنيسق للاحتفال بالعيد الــرابع والثلاثين للاستقلال فابتدرني قائلاً إني موفد من قبل لجنة الاحتفال لا نقل إليك قرارها القاضي بتكليفك بإلقاء كلمة نيابة عن الرعيل الأول لأنك ممن عايشوا تلــك الأحداث وذلك في الساعة الثامنة من صباح يوم بعد غد أمام الحشود وجموع المســيرة بعــد طــوافها بشوارع المدينة ابتهاجاً بهذه المناسبة الحبيبة وبعد نهاية المســيرة ســيخاطبها السيد الضابط الإداري بالإنابة ونيابة عن مجلس قيادة الثورة يعقبه السيد ديومة ليقول كلمة المدينة ومن ثم يجئ دورك لتقول كلمتك .

فاعــتذرت لســببين الأول لضعف الذاكرة والثاني لتتجمع أحداث طال عليها القدم وعفــت الذاكــرة عن الكثير من أحداثها فهلا سمحتم واخترتم غيري قال هذا قرار اللجنة ولا يمكن الرجوع عنه فلابد من مساهمتك بقدر المستطاع ولا تثريب عليك ولمــا لــم أجــد مناص من أن أجيب لهذا المطلب وكانت أخيراً هذه القصيدة التي أوردها هنا لتكون خاتمة لهذا الكتاب رغم إنها لم تكن من الجودة بمكان ولكن جهد العقل والله سبحانه وتعالي ولي التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

1990/1/1م

قفي يا أخت عاصم وأصغ لشاديها

واعملي الفكر إمعاناً في مراميها

ولا تلقي القول على عواهنه

فالأمر بالخواتيم رهن أو بعض ما فيها

يا أختِ عاصم نحن اليوم في عرس

دفع آباؤك المهر غال يساويها

عروس ابتا النوق العصافير مهرا

وارتضيت الروح أو دم يروي أراضيها

هي الأوطان في دم كل حر ضريبتها

حين الفداء أو نادى مناديها

تواثب بنوها كالأسود في كل فج

لينقذوا وطناً من ويلات يقاسيها

وتصدي لها الأزهري يحمل أمانتها

وحوله فتية شرعوا سمراً عواليها

ثورة الحديد والنار أحلى مظاهرها

فما تقاعست فواطمها وما توانت هَناديها

عقدوا العزم والقوا الحلف بينهم

الأوطان تحميها وتعادي من يعاديها

ما كلت عزيمتهم يوما ولا وهنت

والموت ينهال من جنباتها وحواشيها

ما ناموا ولا هنيء الدخيل بنومه

وزلزلوا الأرض حتى مادت رواسيها

وتنادوا للحرب واستلوا سيوفهم

ومن دم الأعادي ارووا صوديها

ومن مؤتمر الخريجين أولى شرارتها

كلما خبت اعدوا لها ما يزكيها

أحرقت ما حولها واشتد أوارها

وعمت البلاد أقاصيها أدانيها

أبلو بلاء حسناً في سبيل نصرتها

والحسنين شعاراً فاز من يلاقيها

ولما لم يجد الدخيل غير الرحيل بداً

أمام عزم الرجال في قراها وبواديها

رحل عنا وهو يداري وجهه خجلاً

من هزيمة لحقت به نكراء يعانيها

أنزلت رايات الذل وهي منكبة

وأخذت مكانها راية العز في سواريها

مرت الأيام على مر الجديدين دوره

تمخضت عن رجال همهم موقع كراسيها

عمت الفوضى واستشرى الفساد ضحى

والأمن مزعزع الركن في كل نواحيها

وأطلت المحبوبة برأسها في كل مرفق

هذا ابن أخت وصهر واختالوا بها تيها

بلا علم ولم يأخذوا من الأيام تجاربها

غيران الوزير من أقاربه وهو حاميها

وضاقت الأرض بساكنيها بما رحبت

وضج الشعب من فوضى وكل من فيها

تسير البلاد نحو هاوية لا قرار لها

و قاب قوسين أو اقرب كان ترديها

نستجدي الشعوب هم دوننا كرماً

يتعالوا ونطاطئ الرأس نداريها

بعنا ماء الوجوه كمن بارت تجارته

وضاعت ارومتنا فمن كان يدانيها

وما بخلت سماؤنا يوماً ولا

الأنهار جفت في مجاريها

فما معنى المجاعات التي تلازمنا

شغل الولاة بخاصتهم من معانيها

والأرض تأكل قوتاً مخزوناً بباطنها

وفي الجنوب موتى لم نأخذ بأيديها

يد التخريب قد نشطت معاولها

هدما الأرض والعمر أيضاً مبانيها

واليوم تصايحت بومات من خرائبها

وأخريات من جنبات الوادي تناغيها

فأظلمت الدنيا في وجه كل أبي

عزيز النفس جاء بعد اليأس راعيها

من بين صفوف الجيش انبري عمر

وصحب له اختارهم للهوجاء حاديها

تجمع الشعب وطغت فرحة كبرى

تعالى صوتهم (اخذ القوس باريها)

انزاح كابوس اقلق مضاجعنا

حزبية ضعفيه هي من صنع بانيها

وفي كل يوم يد بيضاء تطالعنا

بإصلاح جديد لما أفسدت أيد باغيها

بذلوا خوفنا أمنا والفساد نزاهة

والحرب سلماً وهو جزء من مباديها

يا أخت عاصم أخت في الجنوب تنادي

هل لك أن تجيبي أو أن تواسيها

قد عضها ألم الجوع وناء بكلكل

بعد ضعف الضلوع شبت تراقيها

تبكي صغاراً لها والموت يحصدهم

بكاء الثاكلات وما جفت مآقيها

قولي لجون إن كنت من عيسى وملته

فما المانع أن تكون من حواريها

والسلم اصل في الملتين دون مري

ولن تجد منقذاً إلا في تآخيها

نحن نبني للسودان مجدا أنت تهدمه

وعلى النقضين أيان تلاقيها

إنا جنحنا للسلم فاركب سفينتنا

وأنت آمنا قبل أن نطوي مراسيها

واعلم أن للسلم دربا نحمي مسالكه

وللموت حوضاً ترده فتنهشك عواديها

ونحن أبناء قوم طابت ارومتهم

لا أسد تخيفها ولا يخشوا صواريها

الاسم	عن طريق	عدد الأميال
جوبا - مريدي	السلطان جامبو - الشارع الرئيسي	250
جوبا - مريدي	عن طريق ركن	190
جوبا -ياي	طريق فرعي	100
ياي -أبا	أول مركز للكنغو	38
مريدي - رومبيك	عن طريق مامبولو	235
مريدي _ يرول	عن طريق مامبولو	126
مريدي _ شامبي	عن طريق راس أولو	35
مريدي _ أنقا مندي	عن طريق ياي جنوب مريدي الحدود بين مريدي والكنغو	14

مريدي _ باكندو	طريق فرعي جنوب غرب مريدي	22
مريدي _ السلطان	انجيما شمال غرب مريدي	36
مريدي _ كريكا	عن طريق مندريه (قرية أبولو)	40
مريدي _ أنجيما	عن طريق نهر مريدي(قرية يتبا)	46
مريدي _ السلطان	علي مدرجي شمال غرب مريدي قرية أبفو	16
علي مدرجي _	كليسو جنوب شرق	40
مريدي _ كيري	نهر مريدي _ بور طريق فرعي علي مدرجي	21
مريدي _ يبا	الطريق الرئيسي مريدي انزارا غرب مريدي	26
مريدي _ نابانقا	جنوب غرب طريق فرعي	50
مريدي _ نافورا	السلطان عثمان بروكا شمال غرب	120

الاسم	**عن طريق**	**عدد الأميال**
مريدي _ يامبيو	87- انزارا 15برقو 35	137
مريدي _ طمبرا	150 سوى شمال طمبرا بندلا 45 طريق رئيسي	195
مريدي _ جبل صالح	وعزة جنوب شرق طريق فرعي	35

ملحوظة :-

كل المقاسات في الجنوب على أساس الميل المقاسات نهاية وقوف العربة بعدها يبدأ السير على الأقدام والتجول داخل الغابة وقد يستغرق الأميال الكثيرة .

بعض هذه المناطق قد تكرر زيارتها مرات كثيرة في العام الواحد .

أصوات الكلمة العربية

تـوجد بــين قبائل العرب في منطقة الليري بعض كلمات عربية لا يستطيع الإنســان فهمها لما أصابها من تحريف وهي متداولة وفي جميع أوجه الحياة أذكر منها على سبيل المثال حتى يمكن فهمها إذا ما وجد بعضها بين هذه الذكريات :

الكلمة	معناها
التلمه	الأرض البور تزرع للعام الثاني
ساريا	الأرض تزرع سنوياً
الكلنكي	الحد بين زرعين
الشوبتيه	الملود
الجرايه	الملود أيضاً
الكمبله	ربطه السمسم
العرانه	القفه أو النطع
الحجله	كلمة عربية فصحي معناها الستر وجمعها ستاير
الحجيل	تصغير حجله فصحي
حِرَبْرَه	نوع من القش يلون بالتقته
الجنقو	الثوب القديم
الهميده	قطعة من برش قديم
الرهابه	الهبابه لتوليع النار
السفين	سرج الثور
التَّاشه	اللبدة للثور من اللحاء
الكلول	البرمه
التكُولْ	بخسه صغيرة واسعة الفم
التبريب	الحوض لسقاء البهائم
الرنبوبه	الدلو من القرع .

أم صنفلويه الكيس من القماش

التكزه من جلد لحمل الزيوت

الكوزي محل سكني الرحل

الكوز محل مبيع اللبن

التكه حفرة الدجاج الذي يبيض فيها

أم جماديه أرض تحتها ماء تغوص رجلك مجرد وطئها

أم سابو الصمغ عندما يبتل بالماء ويجف ثم يعرض للبيع

النَّزعه ضفيرة من سيور الجلد

القنجه ثوب الدمور البلدي

المانجير الملح كان يعمل على هيئة قمع السكر

اللوكدايه الراكوبه

الكلب شعبه توضع على مدخل الدار لئلا تتخطاها البهائم

المقرح طريق بين جبلين

الشغال الشرقوق من أدوات القهوة

الضرابه الويكه

الدّوَال الركاب للخيل

الفاعوص لجام الخيل (بلدي)

العلكه شمع العسل

الكنراكه الدملوج مستخرج من اللالوب

الدندور عيدان شجر الدوم يحمل السقف

النجاج زعف ملفوف ينسج به العنقريب(السرير البلدي)

أم كجيجي مجموعة من أعشاب ذات ريحة تستعمل كدهان للشعر

ام درناحه العنتت (حشرة معروفة)

شاكدين لكن

بحين	منَ الصباح أو مفاجأة
انتحن	أصابته المحنة أو الحيرة
اللدينه	بعد بكره
السويبه	مخزن المحصول
الشلكاية	الحربة
طربن	أي سنين حاد
السندالي	الحداد أو الصائغ
المكاني	الترزي
الدُلَه	الجلد
أم كريملات	البرنوق
الشكنابه	القرعة الكبيرة
الدِبلَّه	نبات يؤدي وظيفة الكربونات للملاح
التفرك	التدليك
الطَّمِرْ	الطعن بالحربة
الجرديق	الغناء بالمدح أو الهجاء
الهداي	المغني
أم كي كي	آلة موسيقية ذات وتر واحد من السبيب
النوغابه	الحرباء
الدفار	الحجاب الطويل للمرأة
الربق	مجموعة من الحجب تلبسها الفتاة على جانبيها
خنس	أي خز تفادياً للتصادم
أم مباط	عيش الريف
الفولة	مستنقع من الماء
اللضا	مستنقع من الماء

لاض فعل ماضي بمعني رجع

الشوافه المرآة

الرقابة المرآة

العلجه نوع من البطيخ يستعمل حبه كتسالي

السرنه لحم اللالوب يسلب ويوضع على أوعية ويؤكل

القاطر السن أو الناب للإنسان

الدرمود معسكر الصيادين في الغابة

البوشاني الذي يمدح بغرض الكسب

عَرَّد فر من المعركة

الخنفر الظفر أو المخلب

الدُّواس القتال

السيبه الهمله

التجاضن المزرعة حول الدار

الكمكلى وهو الخارج عن الانتساب لإحدى التجمعات البرامكة والترك

السباره هم حكام الصراع

ابو خدبح المشاي بالنسيمه

ملباط المدعي بغير حق

مُوَرَّتْ الموروث من مال ومتاع

كَوْ لا

بَتًّا تاني بمعني العوده الى الشيء

الديناب الحجرة المبنية من الطين

الخلقات الثياب

القندر سنابل الذره بعد الدق

الدقوني المشكاب

الدالايه الدرب

الخمال خرز يربط على صلب المرأة

نَوَّه الآن

الرهد المستنقع الكبير من الماء

الرهيد تصغير رهد

مارن لين الملمس

العطفه مظلة تربط على ظهر البعير

الشقدف أو الثور لوقاية النساء والأطفال

الشبريه من المطر وحرارة الشمس أثناء سير القافلة

الدبلوك الدردوم

الكدو الغبار

العلج من فصيلة البطيخ ينمو على القيزان حبه يستعمل للتسالي

حواشي الفصل السادس

(1) بالنسبة للاجانب لا بد أن نشير الى كتابات البروفيسور Evans . Pritchard عن النوير وكتابات Howell عن الشلك ولمن يرغب في المزيد عليه بمكتبة السودان بجامعة الخرطوم.

(2) حرف الكاف وهو في معظم لغات ولهجات النوبة أداة تعريف مثلاً مدنهم كادقلي ، كلكده ، كوارا ، وكالو . وجلالهم : جبل كجول ، وجبل كاي وجبل كاكجو وجبل كرندي . وفي اسماء الرجال : كوه – كوندرفه – كوكو – كاجا – كاكوم – كبنقا .وفي اسماء النساء كاكا – كاشا – كالا – كالو .

ولتاريخ ولغات النوبة يمكن الرجوع الى كتاب The Nuba / by Nadel وهو من مطبوعات جامعة اكسفورد ويعتبر من أهم المراجع الاساسية عن قبال جبال النوبة .

(3) في التراث الشعبي السوداني يرد التمساح كثيراً ومن أشهرها تمساح الشايقية بالشمالية ابان فترة الحكم التركي الذي فتك بالانسان والحيوان على طول نهر النيل بمنطقة الشايقية وتقول الرواية ذهبوا الى المادح المشهور حاج الماحي الذي دعا على التمساح في قصيدة طويلة تتألف من حوالي خمسين بيتاً استطاع فيها أن يستغيث ب 99 ولياً من أولياء الله الصالحين المشهورين في السودان – وتقول الرواية أن التمساح ظهرت جثته وطفت فوق النيل وبعد سحبها وجدوا عليها آثار ال 99 ختماً بعدد الاولياء الذين استعان بهم أو هكذا زعموا . والقصيدة تعتبر من فرائد أدب المديح الذي يقدم في اذاعة امدرمان من وقت الى آخر.

(4) العسلية مشروب بلدي يصنع من الذرة المخمرة وكثيرة السكر .

(5) إنتقل العم عباس الحاج مهدي الى رحمة مولاه بعد اعداد هذا الكتاب وشيعة الأهل والحبان وزرفوا عليه الدمع فقد كان رحمة الله عليه شخصاً حبوباً مع الصغار والكبار وله علاقات واسعة مع الجميع – الا رحم الله السيد عباس حاج مهدي .

المحتويات

مركز قاسم للمعلومات و خدمات المكتبات

- تأسس هذا المركز من أجل المساهمة في تنمية و تطوير المكتبات بالسودان بكل أنواعها و مسمياتها .
- من أجل المساهمة في تنمية و تطوير الثقافة المكتبية بين كل قطاعات المجتمع السوداني.
- من أجل توفير خدمات لقطاعات عريضة من الباحثين و الدارسين في التوجيه و الإرشاد و الإشراف في مجالات البحوث العلمية .
- من أجل توفير و تدبير أدوات البحث العلمي و إعداد القوائم الببلوغرافية العامة و المتخصصة.
- من أجل تقديم الخبرة و الإرشاد و التوجيه في مجال المكتبات و المعلومات للمستفيدين من الجمهور أو المؤسسات العاملة في المجال .
- من أجل طباعة و نشر الدراسات السودانية في مختلف المجالات .
- إعانة الباحثين و الدارسين في الحصول على المراجع و إتاحة الاطلاع ومدهم بالقوائم المتخصصة التي تعينهم في وضع خططهم و برامجهم و حصر مصادرهم و مراجعهم .
- إمداد المكتبات و مراكز المعلومات بالأدوات و الأجهزة و المعدات التي تعينهم على التنظيم و الفهرسة و التصنيف و التكشيف لمجموعاتهم وفقا لأحدث التطورات في مجال المكتبات و المعلومات .
- إقامة المعارض و المشاركة فيها داخليا و خارجيا لنشر الثقافة و المعرفة..

مركز قاسم للمعلومات و خدمات المكتبات

الخرطوم (2) شارع ابراهيم المفتي _ جنوب وزارة الثقافة

ص.ب 835 الخرطوم هاتف:463380

قائمة الاصدارات :

1- دليل الصحف و المجلات السودانية /اعداد د.قاسم عثمان نور .
2- العولمة/بقلم بروفسور زكريا بشير امام
3- ذكريات صياد/بقلم الشيخ عثمان أحمد محمد نور
4- مصادر الدراسات السودانية (الكتاب الرابع) /اعداد د.قاسم عثمان نور
5- ببليوغرافيا الاسلام من السودان:ج1/اعداد د.قاسم عثمان نور
6- ببليوغرافيا اللغة العربية من السودان: ج1/اعداد د.قاسم عثمان نور
7- أضواء على الحركة الوطنية السودانية بقلم د.قاسم عثمان نور
8- الشاعر محمد المهدي المجذوب/اعداد د.قاسم عثمان نور
9- المشكلات و الصعوبات التي تواجه تعليم اللغة العربية/اعداد د.قاسم عثمان نور.
10- التجاني يوسف بشير و الروائي الطيب صالح /اعداد د.قاسم عثمان نور
11- كيف تكتب بحثا أو رسالة جامعة /اعداد د.قاسم عثمان نور
12- ديوان الفجر و النهضة/جمع و تحقيق د.قاسم عثمان نور و الأستاذ محمد مهدي محمد شمه
13- الكوة التاريخ و الرجال /بقلم عثمان أحمد محمد نور و ابنه د.قاسم عثمان نور

أعمال تصدر قريباً :

1- قناة جونقلي و أثارها البيئية و الاقتصادية على المنطقة :ملاحظات ومشاهدات شاهد عيان
2- المكتبة المدرسية: الوظائف و الأهداف و التنظيم و الإدارة
3- الببليوغرافية السودانية في قرن
4- ببليوغرافيا الببليوغرافيات السودانية
5- الامام عبد الرحمن المهدي:رجل القرن العشرين في السودان
6- ببليوغرافيا التعليم في السودان (الكتاب الأول)
7- الكتاب و المكتبة في الحضارة الاسلامية : منظور تاريخي

كتب تحت الطبع :

1- المرجع في علوم المكتبات و المعلومات
2 - كتاب اليوم :عرض لمجموعة من المؤلفات السودانية
3 - البرفسور عبد الله الطيب من خلال مؤلفاته
4 - البرفسور محمد ابراهيم أبو سليم :من خلال مؤلفاته
5- شخصيات سودانية معاصرة
6- شخصيات و أحداث من تاريخ السودان الحديث
7- مؤلفات الشخصيات و الانساب و المدن السودانية
8- مؤلفات سودانية عرض و تلخيص
9- أوراق و أقلام :مجموعة مقالات
10- يوميات و نوافذ:مجموعة مقالات
11- المكتبة و البحث العلمي
12- ممالك و ملوك و سلاطين و شيوخ و حكام السودان من أقدم العصور وحتى عام ألفين ميلادي
13- التعليم عن بعد و مسار التعريب في الجامعات السودانية
14- المكتبات و المعلومات

15- تكنولوجيا المعلومات

16- قضايا التوثيق و الوثائق السودانية

17- المكتبة الوطنية في السودان :الوظائف و الأهداف

18- ببليوغرافيا جنوب السودان (باللغتين العربية و الانكليزية)

19- ببليوغرافيا المرأة السودانية (باللغة الانجليزية)

20- ببليوغرافيا العلاقات العربية الأفريقية

21- ببليوغرافيا الحركة الوطنية السودانية

22- مصادر و مراجع الحركة الوطنية السودانية :عرض و تلخيص

23- صحف و صحفيون

24- التكشيف و الاستخلاص: كتاب منهجي لطلاب أقسام المكتبات بالجامعات السودانية

25- اليهود: التاريخ و الأطماع

رقم الإيداع 162/2004

الطابع دار القلم العربي

حلب - سوريا

ص.ب : 78